الدكتورة
ليلى الصباغ
استاذة في كلية الآداب
جامعة دمشق

مكتبة التاريخ العثماني

تاريخ
العرب الحديث والمعاصر

الطبعة الثالثة

منشورات جامعة دمشق

١٤١١ - ١٤١٢ هـ
١٩٩١ - ١٩٩٢ م

الدكتورة
ليلى صباغ
أستاذة في كلية الآداب
جامعة دمشق

تاريخ العرب
الحديث والمعاصر

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق

مطبعة دار الكتاب ـ دمشق

١٤٠٨ - ١٤٠٩ هـ
١٩٨٨ - ١٩٨٩ م

مكتبة التاريخ العثماني

المقدمة

لقد نظر المؤرخون العرب المعاصرون الى "تاريخ العرب الحديث" من زاويتين مختلفتين ،ومن ثم فانهم اختلفوا حول تحديد امتداده الزمني . فبعضهم نظر اليه من " زاوية تطورية " أي من زاوية (التطور الحديث في المجتمع العربي) فجعل بداية ذلك التاريخ ، هي بداية ذلك التطور ،أي من مطلع القرن الثالث عشر للهجرة / أواخر القرن الثامن عشر للميلاد ، وحتى الوقت الحاضر . وبذلك كانت نظرة هذا الفريق من المؤرخين العرب ، متوافقة مع نظرة المؤرخين الاوربيين الى (تاريخ أوربا) ، الذين رأوا ان "العصور الحديثة" في تاريخ تلك القارة تبتدئ عندما ظهر " حديث " في تطور مجتمعها،او بتعبير آخر،تبتدئ "بالنهضة الاوربية "،التي تبدت " بجديد " في جميع مجالات الحياة ، ومنذ اواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، وخلال السادس عشر ، وتابعت مرقاها حتى الوقت الحاضر .

اما اللفيف الثاني من المؤرخين العرب المعاصرين ، فقد نظر الى "تاريخ العرب الحديث" من وجهة نظر زمنية بحتة ، ودون الالتفات الى نوعية تطور المجتمع العربي ومداه ، او بتعبير آخر ،ان هذا "التاريخ العربي الحديث" هو "مرحلة زمنية "،تواكب مرحلة " العصور الحديثة " باصطلاح المؤرخين الغربيين، ولا تحمل في طياتها بالنسبة لذلك التاريخ أيا من الخصائص التي يضفيها المؤرخون الغربيون على تاريخهم ، خلال تلك العصور . وبذلك يبتدئ "تاريخ العرب الحديث" مع بداية تاريخ العصور الحديثة في اوربا ، ويمتد حتى الوقت الحاضر ، مع تعديل زمني بسيط في هذه البداية ، يتلاءم مع احداث التاريخ العربي . وهكذا اصطلح هذا اللفيف من المؤرخين العرب المعاصرين ، على ان بداية (العصور الحديثة) في تاريخ العرب ، هو بداية احتواء " العثمانيين " للبلاد العربية ، اي منذ ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م ،عند انتصارهم على المماليك في معركة (مرج دابق) ، ودخولهم الى بلاد الشام ،او منذ ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م عندما نجحوا في ضم مصر الى امبراطوريتهم، وازالوا الخلافة العباسية العربية في القاهرة . وبذلك تكون "العصور الحديثة" من تاريخ العرب،تشمل الحقبة التي يطلق عليها اسم (العصر العثماني) وتمتد

من ٩٢٣هـ/١٥١٧ م وحتى ١٣٣٥ هـ / ١٩١٦ م ،وهو تاريخ اعلان (الثورة العربية) في الحجاز بقيادة "الشريف حسين"؛ أو حتى ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م ، وهو تاريخ الغاء الخلافة الاسلامية رسميا من قبل "مصطفى كمال أتاتورك"، مضافا اليها (الحقبة العربية المعاصرة) ، التي عاشتها جميع الاقطار العربية منذ "الثورة العربية" او منذ الغاء "الخلافة الاسلامية"، وحتى الوقت الحاضر .

ومثلما لجأ المؤرخون الاوربيون الى تقسيم العصور الحديثة ، الى مرحلتين هما :

١- مرحلة العصر الحديث وتمتد بين ١٤٩٢ ،وهو تاريخ اكتشاف اوربا للقارة الامريكية ،وعام ١٧٨٩ ،وهو تاريخ اندلاع الثورة الفرنسية ،والامران كانا منعطفين هامين في تاريخ اوربا .

٢- مرحلة الحقبة المعاصرة ،وتمتد من ١٧٨٩ وحتى الوقت الحاضر .

فان المؤرخين العرب المعاصرين ساروا على المنوال نفسه ،فقسموا تاريخ العرب في العصور الحديثة الى مرحلتين :

الاولى : "تاريخ العرب في العصر الحديث" وتمتد من تاريخ ضم الدولة العثمانية لبلاد الشام ومصر ،وازالة الخلافة العربية العباسية عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م ،وحتى مطالع اليقظة العربية ، في اوائل القرن الثالث عشر الهجري/اواخر الثامن عشر الميلادي ،(٩٢٣-١٢١٣ هـ / ١٥١٧-١٧٩٨ م)،اي حتى الحملة الفرنسية على مصر .

الثانية : "تاريخ العرب في الحقبة المعاصرة" وتغطي المرحلة الزمنية من اوائل القرن الثالث عشر الهجري / أواخر الثامن عشر ،وحتى الوقت الحاضر .

وسيتّبع في هذه الدراسة وجهة النظر الاخيرة ،لانها تتمشى مع المفهوم المتعارف عليه عالميا للعصور الحديثة . فالسير على هذا الدرب يفسح المجال ليكون هناك تواز بين خط الدراسات التاريخية العالمية ،والدراسات التاريخية العربية ،وبالتالي يكون مجال الرؤية فسيحا ،والموازنة بين التطور التاريخي العربي ،والتطور التاريخي العالمي ، اشد وضوحا ،ودقة ، وامكانات الربط بين الاحداث العالمية والاحداث العربية اسهل متناولا .

ومن المستحسن ،قبل الولوج في دراسة مضمون التاريخ بشقيه (الحديث) (والمعاصر) ،من الاشارة الى بعض السمات العامة والاجمالية له ، التي يمكنها ان تحدد جزءا من خط العمل للمؤرخ العربي المعاصر ،وتوجه سيره في جمع المصادر ،واختيار قطاعات البحث . فمن ابرز هذه السمات :

أولاً : انه تاريخ مرتبط ارتباطا وثيقاً ، بل ولصيقاً ،ولا سيما خلال (العصر العثماني) ،بتاريخ الدولة العثمانية ،لانها كانت هي الدولة الحاكمة في معظم البلاد العربية ،منذ مطلع العصور الحديثة ،ولاربعة قرون كاملة في بعضها ، كبلاد الشام مثلا ، او لثلاثة قرون على الاقل في بعضها الاخر ، كالجزائر .

ثانياً : انه تاريخ متصل ،ومرتبط ارتباطاً كبيراً ، بل وشديداً بالتطورات التاريخية الرئيسية التي كانت تعيشها اوربا منذ مطلع " العصر الحديث " : فقد سعت كي يكون لها موطئ قدم في البلاد العربية ، أكان ذلك عن طريق احتلال عسكري لمواقع فيها ،أو عن طريق التجارة والاقتصاد . وزادت هذه الرغبة الحاحاً في " الحقبة المعاصرة " ، وكان ما يسمى في التاريخ الاوربي والعالمي بمرحلة (الاستعمار) ، التي عملت فيها الدول الاوربية للسيطرة على مصادر الثروة الاقتصادية في العالم ،ومنه البلاد العربية، ومن ثم سعت بكل الوسائل ،ولاسيما العسكرية ،لاخضاع هذه البلاد لها ، والتصرف بثرواتها .

ثالثاً : ان مرحلة اواخر القرن التاسع الهجري ،والقرن العاشر / اواخر القرن الخامس عشر ،والقرن السادس عشر ،هي ذات اهمية كبيرة بالنسبة للعرب ،للاسباب التالية :

1- خلال تلك الفترة أزيلت من الوجود آخر مملكة عربية على الارض الاوربية ،وهي "مملكة غرناطة " ، وذلك بسقوط عاصمتها (غرناطة) بيد الاسبان عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م . ذلك السقوط الذي رأت فيه اوربا المسيحية ،ردا على سقوط القسطنطينية بيد الاتراك المسلمين عام ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٣ م ،وانتقاما منه . ولكن اذا كانت "مملكة غرناطة العربية " قد زالت من الوجود ،وهاجر بزوالها وفرة من العرب المسلمين الى المغرب العربي ، فان عديدا من العرب

بقي يعيش على الارض الاسبانية . وعلى الرغم من تلوث اسبانيا بميثاقها لهم، بالحفاظ على ارواحهم ،واملاكهم ،والسماح لهم بممارسة دينهم ،وعلى الرغم من الزامهم قسرا على "التنصر "، "والأسبئة " ـ أي التنازل عن كل مظاهر حضارتهم العربية الاسلامية ، بما فيها التكلم باللغة العربية ،والعيش على النمط الاسباني ـ وملاحقتها المستمرة لهم بدواوين التحقيق ،وكوسائل الاضطهاد والتعسف ، والارهاب ، فانهم ظلوا خلال القرن العاشر كله / السادس عشر ، يعملون جاهدين للحفاظ على هويتهم العربية الاسلامية، ويثورون دفاعا عنها، وتأكيدا لها ،مما جعلهم شوكة في حلق اسبانيا ، والى حد ما في حلق العالم المسيحي كله . وهذا الوجود العربي في اسبانيا خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كله ، هو الذى يسميه التاريخ الاوربي ، والاسباني بصفة خاصة " بالمشكلة الموريسكية " لان الاسبان اطلقوا على هؤلاء العرب اسم "موريسكوس" اى المنتمين للمسلمين . ولم تجد اسبانيا حلا لهذه المشكلة ،الا بطرد هؤلاء الموريسكوس ،او "الغرباء" ـ كما اسمى هؤلاء العرب انفسهم ـ من ارضها ،بعملية نفي واسعة ،في العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجرى / العقد الاول من القرن السابع عشر الميلادى (١٠١٨ ـ ١٠٢٠ هـ/ ١٦٠٩ـ١٦١١ م) .

٢ـ خلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ،زالت الخلافة العربية العباسية نهائيا ، وهي التي كانت ولو صوريا ، الممثلة لوحدة العالم الاسلامي السني . وبذلك خرجت السلطة الدينية الاسلامية من يد العرب بعد ان كانت السلطة الزمنية قد تسللت من ايديهم ، منذ ان تسلط الاعاجم على الحكم ، من اتراك ،وفرس ، بعد قرن فقط من استلام الخلافة العباسية للسلطة . وكان زوال الخلافة العباسية العربية ، على يد "الاتراك العثمانيين"، اذ ارسل السلطان " سليم الاول " بآخر خليفة عباسي في القاهرة ،وهو " المتوكل على الله" او "عبد الله محمد بن يعقوب" الى استانبول ، بعد ضمه مصر الى الدولة العثمانية عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م . وليس هناك من الوثائق ما يبين موقف هذا السلطان منه في عاصمة ملكه ، ولكن من المعروف

ان هذا الخليفة قد عاد الى القاهرة بعد وفاة السلطان سليم في ٩٢٦هـ/١٥٢٠م ، وتوفي فيها عام ٩٥٠ هـ/ ١٥٤٣م[1]، وبذلك انقرضت خلافة بني العباس .

٣- تم ضم اغلب اقطار الوطن العربي الى الامبراطورية العثمانية ،ماعدا المغرب الاقصى وبعض اطراف الجزيرة العربية الجنوبية ،والشرقية . وبذلك عادت الى الوطن العربي وحدته السياسية الجزئية ،تحت سيادة السلطنة العثمانية .

٤- في تلك المرحلة الزمنية ،جرت اولى محاولات اوربا في العصور الحديثة للاطباق على الوطن العربي :

.....

(١) لقد بين المؤرخ المصري "محمد بن محمد ابي السرور البكري الصديقي"،وهو من مؤرخي القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ،في كتابه "عيون الاخبار ونزهة الابصار" ،(مخطوطة في دار الكتب المصرية ،رقم ٧٢م ، الاوراق ١٣٨ب-١٣٩آ) - وهو من المؤرخين القلائل الذين أشاروا الى وفاة الخليفة العباسي وانقراض دولة بني العباس - بأن الخليفة "المتوكل على الله" عند ما عاد الى القاهرة استمر خليفة بها . ويشير الى ان الخليفة "المستمسك بالله" والد "المتوكل على الله" ، - وكان هو الخليفة الرسمي عند وصول العثمانيين الى القاهرة ،الا انه اناب ابنه مكانه لكبر سنه - ، قد عهد بالخلافة الى ابنه بعد وفاته ،وقد تم ذلك عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م، وأن ابنه بقي خليفة في القاهرة ،منذ ذلك التاريخ وحتى وافته المنية في ١٢ من شعبان سنة ٩٥٧هـ / ٢٦ آب ١٥٥٠ م . ويؤكد المؤرخ البكري انه بموت هذا الخليفة ،انقرضت دولة بني العباس. الا ان المؤرخ نفسه في كتابه "الروضة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية" - (وهو مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت الرقم (٥٥١٧ تاريخ) - يذكر (ص ٤٧) - والترقيم بالصفحات لا بالاوراق - ،بأن جده (اي جد المؤرخ) ،ابا الحسن البكري ،وهو من العلماء المرموقين ،حضر الصلاة على جنازة امير المؤمنين ، "محمد المتوكل على الله" ،الخليفة العباسي . وابو الحسن البكري ،ثابت تاريخ وفاته في عام ٩٥٢ هـ/ ١٥٤٥ م ، اذاً لا بد ان "الخليفة المتوكل" قد توفي قبل عام ٩٥٢ هـ،لا في ٩٥٧ هـ . وقد اكد المؤرخ "عبد الله الشرقاوي" في كتابه "تحفة الناظرين" ، ان آخر الخلفاء بمصر ،وهو المتوكل على الله ، قد توفي زمن الوالي داوود باشا في عام ٩٥٠ هـ/ ١٥٤٣ م .

٦ ـ فقد سعت البرتغال ـ وكانت قد انهت "حرب استردادها" ضد العرب المسلمين على ارضها ،منذ القرن الرابع عشر ـ لاحتلال مراكز لها في المغرب الاقصى ، وعلى ساحلها المطل على المحيط الاطلسي بصفة خاصة ،خلال القرن الخامس عشر ، ومنذ عقوده الاولى . ثم قامت باستكشافاتها على الساحل الغربي لافريقيا ، وهدفها من ذلك ، متابعة حربها الصليبية ضد المسلمين وتحقيق حلمها ، وحلم اوربا الاقتصادي الاكبر ، في الوصول الى بلاد الهند ، والحصول على التوابل والذهب فيها ، دون الوسيطين العربي ،والبندقي ، المسيطرين آنذاك على تجارة الشرق . هذا بالاضافة الى الغاية العلمية في تعرف طريق الهند ، والمناطق المجهولة من افريقيا ، وآسيا . وقد استطاعت في عام ١٤٨٧ ان تصل الى الرأس الواقع في النهاية الجنوبية للقارة الافريقية ، الذى اطلقت عليه اسم (رأس الرجاء الصالح) . وبعد عشر سنوات ، اى في عام ١٤٩٧ استطاع مستكشفها (ڤاسكو دوغاما) ، ان يجتازه الى الشاطىء الشرقي من افريقيا . وعلى هذا الساحل ،من منطقة (موزامبيق) حتى (القرن الافريقي) ، وجدت البرتغال العرب المسلمين قد كونوا " دول ـ مدن " مزدهرة حضاريا ، مثل مدينة (مسمبيج) (وكلوة) و(ماليندي) و (زنزيبار) و (ممباسا) و (براوة) ، و (مقديشيو) ، وغيرها . وفي ماليندي ،تم لقاء ابرز عالم عربي في علم الملاحة والبحار ، وهو " شهاب الدين احمد بن ماجد " ، مع (ڤاسكو دوغاما) . وكان هذا العالم الكبير ، هو الدليل الذى قاد المستكشف البرتغالي الى الهند . وعندما عادت البرتغال في السنوات التالية لمتابعة تجارتها مع الهند ، وحمل التوابل منها الى بلادها ، فانها عملت على احتكار تجارة الشرق بابعاد العرب المسلمين عنها : عن طريق الزام امراء الهند على طردهم ، وعدم التعامل معهم تجاريا ،أولا ، وعن طريق ملاحقة سفنهم بكل وسائل العنف والقسوة وارهابهم ثانيا ، وعن طريق سعيها لاحتلال مراكز على ارضهم ثالثا . فسيطرت على العدن في ساحل افريقيا الشرقي ، واستولت على جزيرة (سقطرة) في مدخل (باب المندب) ، وتسربت الى البحر الاحمر حتى وصلت الى (جدة) ، وهددت الديار الاسلامية المقدسة ، كما احتلت (هرمز) في مدخل الخليج العربي ، وسادت

(مسقط)،(عمان) ، (الاحساء) ، وحاولت الاستيلاء على(عدن) . وقد عملت خلال محاولاتها الخطيرة هذه لتطويق الوطن العربي ، على عقد تحالف مع "الدولة الصفوية الشيعية" في ايران ومع "الحبشة" جنوبي مصر . ولقد تصدى لهذا الهجوم البرتغالي ، في القرن السادس عشر ثلاث قوى اسلامية الدولة المملوكية في مصر ، ولكنها لم تفلح ، والدولة العثمانية التي قامت بضم بلاد الشام ، ومصر ، والحجاز ، واليمن اليها ، ثم العراق ، وبذلك غدت على اتصال مباشر ،بمراكز الاحتلال البرتغالي . وبالفعل وجهت اليها عدة حملات بحرية ، ولكنها لم تحقق النصر المرجو . اما الدولة الثالثة ، فكانت احدى (دول الطراز الاسلامية) وهي (دولة عدل) الى الجنوب الشرقي من الحبشة ، التي جعلت من (هرر) عاصمة لها . وفي الواقع فقد شنت هذه الدولة حربها على الحبشة -التي كانت تسمى دائما لتخضع (عدل) لها- بقيادة امامها (احمد غران) ،او (احمد المجاهد) ، كما اسمته الدولة العثمانية،والحبشة كانت في حلف مع البرتغال، وبالفعل فقد امدتها هذه الاخيرة بحملة عسكرية ، استطاعت ان تهزم (احمد المجاهد) ، وتحبط سعيه في ضم الحبشة اليه . الا ان هذا نبه العثمانيين الى اهمية الحبشة ، فضموا المنطقة الساحلية من البحر الاحمر جنوب الساحل المصري ، التي تحتوي على موانئ (سواكن) ، و (مصوع) و (زيلع) ، وكونوا منها ولاية اسموها (ولاية الحبش) ، كانوا يديرونها احيانا من (جدة) .

ب- في تلك الفترة الزمنية ايضا ، وفي الوقت نفسه تقريبا ، الذي كانت فيه البرتغال تسعى لتطويق الوطن العربي من الجنوب ، كانت اسبانيا بعد سقوط غرناطة بيدها ، وبعد كشفها للقارة الامريكية ، تلاحق هي الاخرى العرب المسلمين في المغرب العربي ، وتحتل مراكز على طول سواحله المطلة على البحر المتوسط . فاستولت على (مليلة) عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م ، وعلى (وهران) عام ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩ ، وعلى (طرابلس الغرب) عام ٩١٦ هـ/ ١٥١٠ وتدخلت في شؤون (الجزائر). وهذا ما دفع سكان البلاد الى طلب النجدة

من البحّار العثماني "عروج" — ويطلق عليه الاوربيون صفة القرصان ، لانه كان يهاجم السفن الاوربية في البحر المتوسط — الذي كوّن قوة جابهت الاسبان . الا انه عندما قتل في حربه معهم في (تلمسان) ، استنجد اخوه "خير الدين بربروس" بالدولة العثمانية، وبالسلطان "سليم الاول" ، الذي انفذ له الفي انكشاري وعددا من المتطوعة .

ان محاولات اسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس والسادس عشر / التاسع والعاشر الهجريين في النفوذ الى الوطن العربي ، لم تستطع ان تحقق نجاحا دائما ، اذ تمكن العرب في (مسقط) و (عمان) و (الخليج العربي) ان يستفيدوا من التنافس الاستعماري ، الذي دخل ساحته انكلترة وهولندة في القرن السابع عشر ، ان يبعدوا البرتغال عن ارضهم ؛ بل ان عمان تمكنت من تخليص الشرق الافريقي العربي وضمه اليها .

وكذلك استطاع اهل المغرب الاقصى ان يطردوا البرتغال من معظم المراكز التي احتلتها ؛ والشيء ذاته فعله سكان الجزائر ، وتونس ، وطرابلس الغرب ، متعاونين مع الدولة العثمانية .

٥ — لقد شاهد العرب على ارضهم في العراق ، وخلال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي والقرن الذي يليه ، صراعاً عنيفاً بين المجتمع الايراني السني — بحسب تعبير المؤرخ "توينبي" — ممثلا بالدولة العثمانية ، والمجتمع الايراني الشيعي ، الممثل بالدولة الصفوية في ايران ، وانتهى ذلك الصراع بفوز الدولة العثمانية في ضم العراق اليها .

٦ — وضعت الدولة العثمانية خلال القرن العاشر / السادس عشر الميلادي تنظيماتها للبلاد العربية ، تلك التنظيمات التي عاشت معظم البلاد العربية المحتواة في الدولة العثمانية ، في ظلها ، حتى القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، بل وحتى القرن الذي يلي ، ولا تزال بعض مخلفاتها قائمة في بعض البقاع حتى الآن .

رابعـا " ان تاريخ تلك المرحلة الزمنية ، بل مرحلة (العصر الحديث) كلهـا ، لم تدرس بعد الدراسة الكافية من قبل المؤرخين العرب المعاصرين ، ويرجع ذلك الى عدة عوامل اهمهـا:

١ــ انجذابهم الى دراسة " الحقبة المعاصرة " لكونها اكثر قربا منهم ،ولامتلائها باحداث لا يزالون يعيشون امتداداتها وذيولها ، كاحداث الاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر والعشرين ، وتغلغله في بلادهم ، ويقظة الشعـب العربي ومقاومته الضارية لذلك الاستعمار ، وللحكم العثماني نفسه . وبذلـك كانوا وحتى وقت قريب ، نادرا ما يرنون بأبصارهم تراجعا ، الى أبعد مـن اواخر القرن الثاني عشر للهجرة / الثامن عشر للميلاد .

٢ــ اعتقادهم ان مرحلة (العصر الحديث) من التاريخ العربي هي فتـرة جمـود ، وانحطاط ، وتدهور في حياة المجتمع العربي ، ومن ثم فانهـم كانوا يتجاوزونها ، ويرون انها لا تستحق دراسة او بحثـا .

٣ــ شعورهم القومي العربي ، المتحدي للدولة العثمانية ، وبصفة خاصة فـي بلاد الشرق ، ولا سيما بعد ما اضطهدت تلك الدولة العرب ، وسعت لتتريكهم منذ مطلع القرن العشرين ، (فالعصر الحديث) ــ بالنسبة اليهم ــ هـو عصر الهيمنة العثمانية الكاملة على معظم اجزاء الوطن العربي ، وهذه الهيمنة هي المسؤولة عن الانحطاط الذى اصابه . وكان يدعم هذا الاتجاه فـي الازوار عن دراسة العصر الحديث ، ويقوي الشعور المعادي للدولة العثمانية وحكمها ، الاوربيون انفسهم ، لما يكونه هم انفسهم تجاه تلك الدولة من كراهية ، بسبب انتصاراتها الاولى عليهم ،واعادتها الاسلام ثانية الى اوربا ، بعد مـا ازالوه من اسبانيا ، والبرتغال ، وجنوبي ايطاليا ، وفرنسـا .

٤ ــ قلة المتوافر من المصادر والوثائق ، بين الايدي . فتلك المصادر موزعة فـي ارشيفات عديدة اوروبية ، وعثمانية ، وعربية ، وبعيدة عن متناول اليد ، هـذا بالاضافة الى تأخر تنظيم بعضها ، كالارشيف العثماني ،والعربـي ،الا ان

استخدام التصوير في الحصول على تلك الوثائق اليوم ، والسعي الى تنظيمها قد سهل مهمة الباحث التاريخي في الوقت الحاضر .

ولكن المؤرخ العربي المعاصر لم يبق على موقفه السابق في مجانبة الدراسة في تاريخ العصر الحديث ، بل شرع منذ الخمسينات من هذا القرن يوجه اهتماما كبيرا الى هذا التاريخ ، لان جذور قضايا الحقبة المعاصرة فيه ، ولانه يكون جزءا هاما من التاريخ العربي ، لا يمكن ابقاؤه مهملا او غامضا ، اذ لا بد لهذا التاريخ العربي ، ان يأخذ صورته الكاملة .

خامسا " ان القرن الثالث عشر الهجري / اواخر القرن الثامن عشر الميلادي والتاسع عشر ، لا يقل اهمية عن فترة القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي لانه خلال ذلك القرن ، ارتسمت معالم اليقظة العربية ، وعاد المجتمع العربي الى التحرك الذاتي الواعي لتدارك ما فاته من مواكبة الحضارة العالمية ، ولاستعادة ما فقده من نفوذ وتأثير مباشرين في الاحداث العالمية . وقد تطاولت هذه الحركة وتدفقت بتسارع اكبر خلال القرن العشرين . ولذا يمكن ان يطلق على مجموع الفترة المعاصرة من تاريخ العرب ، اي من القرن الثالث عشر وحتى الوقت الحاضر (اوائل القرن الخامس عشر للهجرة/ اواخر الثامن عشر الميلادي وحتى اواخر القرن العشرين ، اسم (النهضة العربية) ، على الرغم من التعثرات التي جابهها العرب ويجابهونها ، والضغوط التي عانوها ويعانونها .

واخيرا لا بد من الاشارة ان هذا الكتاب قد وضع منسجما مع الزمن الذي خصص لمحاضرات تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، لطلاب السنة الرابعة من قسم اللغة العربية ، وهي محاضرة واحدة اسبوعيا ، ومن ثم فقد جاء موجزا ومقتضبا في بعض النواحي ، ليعطي فكرة مجملة عن هذه الحقبة من تاريخ العرب ، وليكون خلفية موضحة لدراساتهم الادبية المعاصرة لها ، وقد زود باسماء عدد من المصادر والمراجع يمكن للطالب الجامعي ان يرجع اليها للاستيفاء ، والاستقصاء ، والبحث وهذا ما يرجى ...

الباب الأول

في

تاريخ العرب في العصر الحديث

٩٢٣ـ ١٢١٣ هـ/١٥١٧ـ ١٧٩٨ م

الفصل الأول

أحوال البلاد العربية والعالم الاسلامي بين سقوط بغداد ومطلع العصر الحديث

عاش العالم الاسلامي ،والبلاد العربية منه ،قبل سقوط (بغداد) بيد هولاكو التتري (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) ، فيما اصطلح المؤرخون على تسميته " بالدور الاخير من حياة الخلافة العباسية في بغداد " . ذلك الدور الذى ابتدأ بدخول "السلاجقة الاتراك" مدينة بغداد (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥ م) ،وبوضعهم الخلافة العباسية العربية تحت وصايتهم . وهو الدور الذى يصفه بعض المؤرخين على انه بداية " العصر التركي المغولي " ، في المشرق الاسلامي ،والمشرق العربي، والذى يمتد ونه حتى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ،حيث بدأت معالم " اليقظة القومية العربية " تتبدى في الافق ،وسعى العرب للخروج من سيادة الحكم التركي عليهم ، واعادة السلطة السياسية ليدهم . الا ان بعض المؤرخين يوقف ذلك الدور ،عند سقوط مدينة بغداد بيد " هولاكو " التتري في عام (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م) ،ويسميه بالنسبة للبلاد العربية ،في المشرق والمغرب " بالعصر التركي ـ الامازيغي " (نسبة الى الامازيغ ، السكان الاصليين للمغرب العربي ،الذين سماهم الرومان " بالبربر " ،وهم من ابناء عمومة العرب). وترجع هذه التسمية المزدوجة الى ان وحدة الدولة العربية الاسلامية ،الواسعة الاطراف التي ورثتها الخلافة العباسية من الخلافة الاموية ، قد تلاشت خلال هذا الدور ، وظهر على انقاضها :

أولا ـ "امبراطورية الاتراك السلاجقة" ، التي استوعبت مع تفرعاتها من الدول قسما كبيرا من اجزاء المشرق العربي الاسلامي .

ثانيا ـ "امبراطوريتا الامازيغ المسلمين"، اللتان استوعبتا المغرب العربي كله تقريبا، على التوالي، بما فيه (اسبانيا العربية المسلمة) ، وتمثلتا " بدولة المرابطين (٤٥٠ـ٥٤٠هـ/ ١٠٥٨ـ١١٤٥ م) أولا ، " والموحدين" ثانيا (٥٢٢ـ٦٦٨ هـ/ ١١٢٧ـ١٢٦٩ م) .

وقد تفاعل " المجتمع العربي الاسلامي " ،خلال هذا الدور الاخير من حياة الخلافة العباسية في بغداد ، مع الاحداث الكبيرة ،السياسية ،والاجتماعية ، والاقتصادية ،والفكرية ، التي تناوبت عليه ، وخرج منه ، على الرغم من النوائب التي حلّت به ، " بحضارة عربية اسلامية " ، هي امتداد للحضارة التي تألقت خلال الادوار السابقة من " العصر العباسي العراقي " ،الا انها مطبوعة بسمات جديدة . فالحضارة العربية الاسلامية لم تضمحل اذاً امام الهجمات التركية البدوية ، على الشرق العربي الاسلامي ، او امام استيعاب الامازيغ للمغرب العربي الاسلامي ، بل عادت ونمت بلبوس جديد . ان مما لا شك فيه ،ان الغزوة البدوية التركية على الشرق العربي الاسلامي ،قد اجتاحت المدن الاسلامية العامرة، وكانت عاملا قويا في تخريبها ، واكتسحت الحقول المزروعة ودمرتها ، وقتلت كثيرا من السكان . الا انه على انقاض تلك الخرائب ، ومظاهر التدمير ، عادت الحضارة العربية الاسلامية الاقوى لتخضوض ،وتزدهر من جديد ،ولتحوّل تلك الشعوب غير المتحضرة الى شعوب حضرية ، دافعة ومشجعة للبناء المدني .

وفي الوقت ذاته ، أخذت تلك الشعوب المغيرة على عاتقها ، وقد اعتنقت الاسلام بحماسة ، أن تعاود السير على خط الفتوح العربية الاسلامية الكبرى ، وأن تكتسب للاسلام ارضا جديدة ،تحقق من خلالها مكاسب مادية ،ومغانم معنوية . فبعد الموجة العربية الاسلامية التي انطلقت في القرنين الهجريين الاولين ، تسلم فرسان السهوب الطورانية ،والصحراء المغربية ، هذه المهمة . وكان الدين الاسلامي هو الرابح ؛ فالمؤمنون الجدد به ،من السلاجقة الاتراك ، حطموه واوصلوه الى آسيا الصغرى ،وتاخموا عاصمة البيزنطيين " القسطنطينية "، والشيء ذاته يقال عن " الامازيغ " ،الذين اندفعوا به واوصلوه الى قلب افريقيا ، ولا سيما في عهد المرابطين . هذا في الوقت الذي كانت فيه " التجارة العربية الاسلامية " في اقصى آسيا ،وشرقي افريقيا ، تحمل معها الدين الاسلامي ،ومظاهر الحضارة العربية الى تلك البقاع النائية . فالاسلام اذاً ،امتد واغتنى في هذا الدور الاخير من تاريخ الخلافة العباسية ببغداد ، وتفاعل مع البيئات الجديدة وطوّرها . وبذلك ظل " الفكر العربي الاسلامي " فكرا فاعلا في الحضارة العالمية ، على الرغم من انحسار العرب عن المسرح السياسي .

واذا كان العالم الاسلامي ،والبلاد العربية منه ، قد عانى خلال هذا الدور من حياة الخلافة العباسية ببغداد ، تلك الاحداث الهامة ، فان العالم المجاور كان يمر هو الآخر بتطورات جديدة :" فالدولة البيزنطية " المتاخمة لحدود العالم العربي الاسلامي ، شرعت بالتراجع والانحسار عن مواقعها أمام " الاتراك السلاجقة المسلمين " ، بعد فترة من القوة والازدهار ،عاشتها في ظل " الاسرة المقدونية" (٢٥٤-٤٧٤ هـ/ ٨٦٧-١٠٨١ م) ،هددت خلالها البلاد العربية ، ودخلت الى عمق بلاد الشام . وتمكن " الاتراك السلاجقة " ان ينتزعوا منها معظم ما تملكه على الارض الآسيوية ، وتحولت " آسيا الصغرى " الى ارض تركية اسلامية ، بعد أن قاومت الهجمات العربية الاسلامية ما ينيف عن اربعة قرون ونصف . ثم جاءت " الحملات الصليبية الاوربية " ، لتجهز هي الاخرى على جزء كبير منها ،وتضعف بقاياها .

أما "الغرب المسيحي الاوربي " ،فقد استفاق ،ليلعب دوره على مسرح الاحداث العالمية ، وفي حياة البلاد العربية ذاتها : فالاحتكاك الاوربي - العربي - بالحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا ،وجنوبي فرنسا ،وجنوبي ايطاليا ، وصقلية ، ادى الى " تفتح اوربي " في جميع المجالات ، ولا سيما في الميدان الاقتصادي . فأخذت اوربا ،ممثلة بـ" المدن الايطالية " بصفة خاصة ،تنطلق على البحار ، ومنها البحر المتوسط بالذات ،متاجرة مع المشرق العربي الاسلامي ، ومع المغرب العربي الاسلامي . ومن تلك المدن الايطالية (البندقية) و (جنوة) و (بيزة) ،و (امالفي) . ومع هذا التطور الاقتصادي في حياة اوربا ،وما رافقه من تطور اجتماعي ، وفكري ،اخذ " الغرب الاوربي المسيحي " يبحث أكثر فأكثر ،عن مجاله الاقتصادي الحيوي ، فأخذ يشن الحملات العسكرية للسيطرة على حوض البحر المتوسط ، صلة الوصل بين المحيط الهندي ،والمحيط الاطلنطي . فقامت " الحملات الصليبية " على بلاد المشرق العربي ، والمغرب العربي ،واشتدت " حركة الاسترداد Reconquesta " في اسبانيا المسيحية ضد الاندلس المسلمة لاخراج العرب منها . فاذا كان الدور الاخير من العصر العباسي قد تمت فيه وثبة جديدة للاسلام ، الا ان العالم الاسلامي تعرض في الوقت نفسه ، لخطر كبير كاد أن يكون ماحقا ، وهو " الغزو الصليبي " الذى ابتدأ على المشرق

العربي عام (٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م) ، واستمر قرنين من الزمن ،عندما اخرج العرب الصليبيين من آخر معاقلهم على الارض الشامية ، وهو عكا ،في عام (٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م) .

وانتهى الدور الاخير من العصر العباسي العراقي ،الذي اتسم بتلك الظاهرات التاريخية الرئيسية ،ببروز خطر ضخم آخر ، أتى هذه المرة من الشرق ، الا وهو " الخطر المغولي " الذي تمكن من اكتساح مدينة بغداد عام(٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) وتهديد المشرق الاسلامي كله .

ومن ثم ، فان ابرز الاحداث التاريخية السياسية الهامة ،بل الطاغية على غيرها ،في المرحلة التي امتدت من سقوط بغداد وحتى مطلع العصر الحديث (منتصف القرن السابع الهجري ومطلع العاشر الهجري / منتصف القرن الثالث عشر الى مطلع السادس عشر للميلاد) ، هو " الغزو المغولي " ، او " التتري " كما اسماه المؤرخون العرب ،ونتائجه . وقد استمر هذا الغزو ، كما استمر الصليبي قبله،وبشكل متقطع لقرنين من الزمن تقريبا ، أي ،من العقد الثاني من القرن السابع الهجري وحتى بدايات القرن التاسع الهجري/ من العقد الثاني للقرن الثالث عشر ، وحتى مطلع القرن الخامس عشر الميلادي . وقد كان ذلك " الغزو التتري " على شكل موجات متلاحقة ،اجتاحت بلدانا عديدة ،قبل ان تهاجم الاراضي الاسلامية ،وبعد أن هاجمتها . ويمكن تمييز اربع موجات كبرى فيه "

أولها " الموجة التي قادها " تيموجين " (٥٥٠ـ٦٢٥ هـ/ ١١٥٥ـ١٢٢٧م) الملقب بـ " جنكيزخان " (أي الملك المحيط) . فقد عمل هذا الزعيم المغولي على تجميع القبائل المغولية (في منغوليا شمالي الصين) حوله ،وان يكون امبراطورية شاسعة المساحة بسرعة ،ضمت (الصين الشمالية) ،واتجهت غربا فاحتوت (اذربيجان) ،و (جورجيا) ،و (شمالي ايران) ،واكتسحت قواته (بلاد ما وراء النهر) ،واسقطت فيها (دولة شاهات خوارزم) ،ودخلت (بخارى) (٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م) ،و (سمرقند) (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) ، وتقدمت الى (خراسان) ،وخربت (مرو) و (نيسابور) ،واستولت على (هراة) .

وثاني الموجات المغولية كانت بتوجيه ابن جنكيزخان المسمى " اوكدي Ögedei

(٦٢٧–٦٣٩هـ/ ١٢٢٩–١٢٤١ م) . فقد دفع بجيوشه الى مدى ابعد ، فاحتلت كوريا ، وتقدمت غربا حتى اوربا ، وسارت باتجاه الاد رياتيك ،وانتزعت ايران نهائيا،من يد آخر الزعماء الخوارزميين وهو " جلال الدين منغوبرتي "، (حوالي ٦٢٨ هـ/ ١٢٣١ م) . كما ان هذه الموجة هاجمت آسيا الصغرى ، او بتعبير آخر " دولة سلاجقة الروم " في (٦٣٩ هـ/ ١٢٤٢ م)،واصطدمت بقواتها في " كوزه داغ " في ٦ محرم ٦٤١ هـ/ ٢٦ حزيران ١٢٤٣ م ، والحقت بها الهزيمة ، واضطرتها للاعتراف بالتبعية لدولة المغول .

وثالث الموجات المغولية ، كان فيها على رأس الامبراطورية " قبلاي "،وهو حفيد جنكيزخان ،والمتوفى في (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤ م) . وفي هذه الموجة ،تم الاستيلاء على الصين برمتها ،وهوجمت اليابان ، وآسيا الجنوبية الشرقية .وانساحت غربا بقيادة "هولاكو" أخي " قبلاي " . وهذه الموجة هي التي هاجمت (بغداد) ، واسقطت العاصمة الكبرى للخلافة العربية الاسلامية ،في ٤ صفر ٦٥٦ هـ/ ١٠ شباط ١٢٥٨ م ،وقتلت الخليفة العباسي " المستعصم " واولاده بمجزرة رهيبة ، وتركت المدينة العتيدة اسبوعا ،مسرحا للسلب،والنهب،والتخريب. وهدّدت ديار الاسلام كلها ،بل الاسلام ذاته . اذ تابع المغول تقدمهم غربا ، مجتازين نهر الفرات ، وسط مخاضة من الدماء والدمار ، واحتلوا (حلب) في ٩ صفر ٦٥٨ هـ/ ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٢٦٠ م ،ودخلوا (حماة) واستولوا على (دمشق) في ١٧ ربيع الاول ٦٥٨ هـ/ ٢ آذار ١٢٦٠ ،واتبعوها بـ (نابلس) و (غزة) . وكان من الممكن ان يستمر تقدمهم الى مصر ،لولا أن تصدت لهم قوة المماليك ، بقيادة " بيبرس " قائد السلطان المملوكي " قطز " ،في المعركة المشهورة " عين جالوت " (بين نابلس وبيسان على الارض الفلسطينية) . وكان النصر فيها للمماليك ،وذلك في يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ ٣ ايلول ١٢٦٠ فكان النصر انقاذا لمصر ولبقية اجزاء العالم العربي الاسلامي .

ورابع الغزوات المغولية واشدها هولا وتخريبا في العالم الاسلامي ،والبلاد العربية المشرقية ،غزوة " تيمورلنك " التي جاءت بعد الغزوة الثالثة ، السالفة الذكر ، بما يقرب القرن . "وتيمورلنك " هذا ، (وتعني كلمة تيمور بالتركية، الفولاذ ، ولنك الاعرج) تمكن من السيطرة على الحكم في " سمرقند " ،حيث

كانت دولة " خانات الجغطاي " المغولية ، (التي تكونت على اثر الموجة المغولية الاولى ، ونسبة الى ابن جنكيزخان " جغتاي ") وذلك في عام (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، وكان في الثالثة والثلاثين من عمره تقريبا . وقد امضى ما تبقى من حياته ، وهو خمسة وثلاثون عاما ، في حملات حربية كاسحة ، فاستولى على ايران كلها (٧٨١هـ/ ١٣٧٩ م) ، وبلاد القفقاس (٧٨٧ — ٧٨٩هـ/ ١٣٨٥—١٣٨٧ م) ، والعراق وخوارزم (٧٨١ هـ/ ١٣٧٩) ، وجنوبي روسيا (حيث دولة القبجاق او دولة القبيل الذهبي المغولية) (٧٩٣ هـ/ ١٣٩١ م ، و ٧٩٧ هـ/ ١٣٩٥ م) ، وشمالي الهند (٨٠١ هـ/ ١٣٩٨ م) ، وبلاد الشام (٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠ م)، حيث دخل حلب ، وحماة ، وحمص ، وبعلبك ، ودمشق . وتقابل فيها مع المؤرخ العربي الكبير " ابن خلدون " الذى كان مرافقا للسلطان المملوكي الحاكم آنذاك (فرج بن برقوق) . كما اكتسح بلاد الاناضول (٨٠٤ هـ/ ١٤٠١ م) ، وهزم السلطان العثماني " بيازيد الاول " في معركة (انقرة) ، وعاد منها ، تاركا البلاد المكتسحة لحكامها السابقين ، وتوفي في شعبان ٨٠٧ هـ/ كانون الثاني ١٤٠٥ م ، في "اوترار" في بلاد ما وراء النهر .

وقد نتج عن تلك الموجات المغولية الاربع الكبرى على العالم الاسلامي والبلاد العربية ، النتائج السياسية الرئيسية التالية :

أولا — زوال الخلافة العربية الاسلامية العباسية من بغداد ، بعد ان دامت خمسة قرون ونيف ، واختفاء (بغداد) من الاحداث التاريخية الكبرى ، وتحولها الى قاعدة للعراق العربي فحسب ، بعد ان كانت في المرحلة السابقة ، في الضمير الاسلامي والعربي ، مركزا للخلافة الاسلامية السنية . تلك الخلافة التي كانت تمثل رأس الاسلام ، ووحدته ، على الرغم من الضعف الذى انتاب الخلافة العباسية ببغداد في الادوار الاخيرة من حياتها . فقد اصبح العالم الاسلامي ، لاول مرة ، دون خليفة على رأسه ، او دون رأس ينظمه ، ولو صوريا. الا ان العالم الاسلامي ، لم يفتقد طويلا تلك "الخلافة" ، اذ اعادها " الظاهر بيبرس" السلطان المملوكي ، الى القاهرة ، متمثلة في شخصية امير عباسي ، نجا من مذبحة هولاكو في بغداد . وقد لقب " بالخليفة المستنصر " ، وذلك في شهر رجب ٦٥٩ هـ/حزيران ١٢٦١ م ، اى بعد ثلاث

سنوات من سقوط الخلافة في بغداد . وهكذا ،غدت (القاهرة) مركـــزا للخلافة العباسية ،وابتدأ في التاريخ العربي الاسلامي ما يمكن ان يسمـــى " بالعصر العباسي القاهري "،الذي دام حتى دخول العثمانيين الى مصر عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ، وزوال الخلافة العباسية تماما . كما اشرنا في المقدمة سابقـا .

ثانيـا ــ امتداد الحكم المغولي على اجزاء من العالم الاسلامي الشرقي ،والعربي المشرقي ،والشرق الاوربي :

أ ــ فقد تكونت دولتان مغوليتان ،احداهما في ايران والعراق ،وثانيتهمـا في بلاد ما وراء النهر وما جاورها ، وكان ذلك على اثر الموجات المغوليـة الثلاث الاولى ، فالاولى عرفت في التاريخ " بالدولة الايلخانية " ، نسـبة الى لقب "أيلخان " ،الذي كان يطلق على " نائب الامبراطور المغولي " ، المعين من قبل " الخان الكبير " ،المقيم في العاصمة المغولية (وكانت في بادىء الامر " قراقوروم " في منغوليا ،ثم انتقلت الى المدينة الجديـدة " خان باليق " اى " بكين الحالية) . وكان اول من تلقب بهذا اللقب " هولاكو " نفسه ،الذى كـوّن تلك الدولة . وقد اتخذ لها عاصمـــة ، مدينة " تبريز " في اذربيجان ،الا انه في ايام السلم ،كان يقيم في "مراغة" شرقي بحيرة اورميا ، حيث ابتنى ابنية كثيرة ، منها المكتبة المشهورة ،والمرصد وحيث توفي ،ثم انتقلت عاصمة الدولة الى مدينة بنيت مجددا ،هي "السلطانية" او " كانغولان " ،على بعد ٣٠٠ كم الى الجنوب الشرقي من تبريز . وقـد ضم " الايلخانات " تحت حكمهم ،في ذروة التألق والاتساع ،البقاع الممتدة من حواف نهر السند شرقا ،حتى الفرات غربا ،ومن المحيط الهندي جنوبا حتى نهر جيحون شمالا ،وبحر قزوين شمالا بقرب . كما فرضوا تبعيتهم على سلاجقة الروم المسلمين في آسيا الصغرى ،وعلى مملكة ارمينيا الصغرى فـي كيليكيا . وضمن هذه " الدولة الايلخانية " ربط المصير السياسي للعراق وايران معا ، كما كان عليه الامر في عهد الدولة الفارسية الساسانيـــة ، وسيبقى هذا الامر قائما حتى ضم العثمانيين للعراق الى امبراطوريتهم نهائيا في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . وهذا يعنـــي

ان حدودا سياسية أخذت ترسم بين العراق وبلاد الشام في هذه المرحلة من التاريخ .

ومن اشهر ايلخانات هذه الدولة ، الايلخان " غازان محمود " (٦٩٥ – ٧٠٣ هـ / ١٢٩٥–١٣٠٤ م) الذى تمثل فيه انتصار الاسلام على الوثنية والبوزية ، التي كان يدين بها الايلخانات السابقون . فقد دان "غازان" بالاسلام ، ومنح العراق بعض الامن والطمأنينة ، وان كان هذا لم يمنعه من شن غارتين على بلاد الشام ،في عام (٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م)وفي عام (٧٠٢ هـ /١٣٠٣ م) . كما قرب اليه اهل العلم من المسلمين ،من امثال " ابراهيم بن محمد الجويني" (٦٤٤–٧٢٢ هـ/ ١٢٤٦–١٣٢٢ م) ،الذى تشير بعض المصادر(١)، بأن " غازان " اسلم على يديه ، و "رشيد الدين فضل الله ابو الخير بن علي " (المتوفى في ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م) الفيلسوف ،والطبيب والمؤرخ ،صاحب كتاب "جامع التواريخ " ،الذى جمع فيه تاريخ المغول من " جنكيز خان " الى "غازان " ، وضم اليه تاريخ الفرس ،والخلفاء ، وملوك الصين .

وبعد موت " غازان " (٧٠٣ هـ/ ١٣٠٤ م) ،ضعفت السلالة الحاكمة ، ووقعت " الدولة الايلخانية " في صراعات قبلية وعنصرية ، وانهكتها المؤامرات والثورات ،فتفككت . وكانت " العراق العربية " من نصيب الامير المغولي المسلم "حسن جلائر" الذى أسس " السلالة الجلائرية (٧٤٠ –٨١٣هـ/ ١٣٣٩ – ١٤١٠ م) . وقد اتخذت هذه الدولة " بغداد " مقرا شتويا لها ، بينما جعلت العاصمة الصيفية في " تبريز " ، وبذلك أعادت للعراق مكانتها . اما في بلاد ايران ،فقد قامت صراعات شجعت " تيمورلنك " على اجتياح المنطقة كما اسلفنا القول ، وان كان لم يغير في اوضاع الاسر الحاكمة بعد عودته الى بلاده .

اما الدولة الثانية المغولية،التي نشأت في بلاد ما وراء النهر فهي " دولة خانات الجغطاي " التي المحنا اليها سابقا ،والتي احتوت افغانستان ايضا .

---

(١) ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة . ج ١ . ص ٦٧

وقد دان حكامها بالاسلام ،وكان مركزها (سمرقند) ،وفيها ظهر "تيمورلنك".

ب ــ ومن الدول المغولية التي نشأت على اثر الغارات المغولية الثلاث ــ اي قبل غارة تيمورلنك ــ على الارض الاوربية،فكانت دولة " خانات القبجاق " ، أو "القبشاق " ، او "خانات القبيل الذهبي " . وكانت عاصمتها " ساراي" على المجرى الادنى لنهر الڤولغا ، وقد امتدت على جزء كبير من الارض الروسية،وظلت متحكمة بهـا ،لقرنين من الزمن ،اي حتى النصف الثاني من القرن التاسـع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، تأخذ من امرائها الجزية ،وتجمع من سكانها الجنـد .

ج ــ ومثلما تكونت تلك الدول المذكورة آنفا ،فقد قامت على اثـر وفاة تيمورلنـك دولة تولتها اسرته من بعده ،وسميت بـ "الدولة التيمورية" . وقد سـادت بلاد ايران،وما وراء النهر ،وكان من اشهر خاناتها " الشاه رخ " ،وهو الابن الرابع لتيمورلنك . وقد استلم السلطة في (٨٠٩ هـ/ ١٤٠٧ م) ، و اشتهر في التاريخ ،على نقيض ابيه ، بأنه حاكم مسالم ،وحام للدين الاسلامي ،ومشجع للعلماء والادباء . فتحت حكمه ساد السلام في بلاد ايران ،وتحسنت الاحوال الاقتصادية . ومن سلاطين الدولة التيمورية الكبار " ابو سعيد" (٨٥٥ــ٨٧٣هـ / ١٤٥٢ــ١٤٦٩ م) الذي اصطدم في العراق بامارة "القطيع الاسود التركمانية" (القره قوينلو) . وقد حكمت هذه الدويلة(الموصل) من حوالي عـام (٧٣٦هـ / ١٣٧٥ م) ،وكانت تحت التبعية الجلائرية ،وصمدت امام هجمات تيمورلنـك. وتمكنت ان تنتزع حكم العراق من الجلائريين عام (٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م)،وان تثبّت فيها الحكم التركماني ، كما اصطدم " ابو سعيد " بالامارة التركمانية الثانيـة وهي " امارة القطيع الابيض" (الآق قوينلو) ،التي استطاع اميرها الكبيـر " اوزون حسن " ان يقضي على " القره قوينلو" (في ٨٧١ــ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٦ــ ١٤٦٨ م) ، وان يهزم " أبا سعيد " في تبريز عام (٨٧٣ هـ/ ١٤٦٩ م) ويقتله ،وبذلك انتهت سيادة "الاسرة التيمورية " في غربي ايران وجنوبها .

ومن السلاطين التيموريين المشهورين أيضا "حسين بيقرا ميرزا " ،وهو احـد احفاد تيمورلنك البعيدين ،استقر في " هراة " شمالي شرقي ايران ،وحكـم

من (٨٧٣–٩١١ هـ/ ١٤٦٩–١٥٠٦ م) مع فترة انقطاع قصيرة . وقد عـــرف عهده بتشجيع الإدب والعلم والفن ، وزخر بلاطه بالشعراء الكبار من امثـــال " جامـي " (٨١٧–٨٩٧ هـ/ ١٤١٤–١٤٩٢ م) ،و (علي شير " (٨٤٧ – ٩٠٧ هـ/ ١٤٤٠–١٥٠٢ م) الذي كان وزيره ،وبالمؤرخين من امثال "ميرخواند " (٨٣٦–٩٠٣ هـ/ ١٤٣٣–١٤٩٨ م) ، وحفيده " خواندمير " (٨٨٠ – ٩٤٢ هـ/ ١٤٧٥–١٥٣٦ م) اللذين رسما صورة للتاريخ الاسلامي ،كان لهـــا اثرها في مؤرخي الغرب . كما برز في عهده عدد من الموسيقيين ،والمصورين مـــن امثال " بهزاد " ،و " شاه مظفر " ، وازدان عصره بالخطاط المشهور " سلطـــان علي المشهدي " ،وغيرهم .

وكان القضاء على السلالة التيمورية في بلاد ما وراء النهر ،وشرقي فارس عـــام (٩١٢ هـ/ ١٥٠٧ م) ،على يد " محمد الشيباني " زعيم " قبائل الاوزبـــك " التركية التي كانت قد تقدمت من وسط آسيا الى مصب سيحون ،فمنطقة فرغانـــة ، فخوارزم منذ (٨٣٦ هـ/ ١٤٣٣ م) . الا ان احد امراء "الاسرة التيمورية " وهو " بابـــر " ، تمكن بعد انهزامه امام آل الشيباني أن يؤسس الامبراطوريـــة المغولية الاسلامية في الهند عام (٩٣٣ هـ/ ١٥٢٦ م) ، التي ظلت قائمـــة حتى اعلنت انكلترا سقوطها عام (١٢٧٤ هـ/ ١٨٥٧ م) ،بعد ان فرضت سيطرتها الكاملة على الهنـــد .

ثالثـــا – من النتائج السياسية ايضا للغارات المغولية على العالم الاسلامي الشرقـــي تغير في الاوضاع السياسية في آسيا الصغرى ،وفي بعض المشرق العربي .

آ– الاوضاع السياسية في آسيا الصغرى

ويتلخص التغيير في تلك الاوضاع بظهور (امارات الثغور التركمانيـــة) في منطقة الاناضول (آسيا الصغرى) ، التي اطلق عليها اسم (امارات الغزو) أو (الجهاد) . فالتركمان الفارون من الاجتياح المغولي ، اندفعوا باتجاه الغرب ، ودخلوا الاناضول ،حيث كانت قد قامت منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، " سلطنة سلاجقة الروم " التركمانية هي الاخرى . وكان دخول هذه الهجرة التركمانية ،الى ارض آسيا الصغرى، مماثلا لدخول الهجرة التركمانية

التي سبقت تكوّن دولة سلاجقة الروم ،والد انشمند ،في القرن الخامس/ الحادي عشر. ومثلما لم يكن بوسع الدولة البيزنطية ،المفككة الاوصال ، أن تقف في وجه ذلك السيل المتدفق ،من تركستان وعبر اذربيجان الى مناطق الحدود ، ولا أن تمنع غزواتهم الجهادية تجاهها ،في القرن الخامس/ الحادي عشر، فان دولة سلاجقة الروم المسلمة ، لم تتمكن بدورها من منع انضمام المهاجرين التركمان ، في القرن السابع / الثالث عشر ،الى اخوانهم من الغزاة (المجاهدين) السابقين المستقرين على حدود الدولة . ولذا فانها سعت لكسب خدماتهم لصالحها . وقد عمل هؤلاء التركمان المهاجرون ،على دعم الاسلام وتقويته في مناطق الحدود ، وسعوا تدريجيا لتكوين امارات مستقلة عن سلطة سلاجقة الروم ،اطلق عليها اسم " البيلكيات " نسبة الى حاكمها الملقب " بالبيك " ،وذلك بعد ان تبدى ضعف دولة سلاجقة الروم ، وتبعيتها للمغول ،بعد معركة " كوزه داغ " السالفة الذكر.

أما " مناطق الحدود " التي تكونت فيها " امارات الجهاد " تلك ، فهي المناطق التي كانت تجابه " دولة سلاجقة الروم " فيها "الدول المسيحية "، او ما يطلق عليها عادة اسم " دار الحرب " . وهي ثلاث مناطق :

١— في الشمال ،على حدود الامبراطورية البيزنطية ،في (طرابزون) ، وعلى طول الشواطئ الجنوبية للبحر الاسود .

٢— في الجنوب ، مقابل منطقة كيليكيا (شوقوروه) ،حيث يقوم ثغرا (علايا) و (انطالية) . وهذه المنطقة تجابه دولتي (ارمينيا الصغرى) و (قبرص) المسيحيتين .

٣— في الغرب ،وهي اهمها ،وتمتد من (قسطموني) في الشمال الى(خليج ماكري) في الجنوب (تجاه رودس) .

ومنطقة الحدود هذه ، تقابل الدولة البيزنطية الرئيسة . ومن مدنها الهامة (قره حصارى دقلي) و (افيون قره حصار) ،و (كوتاهية) ،و (دنزلي) .

ومع ان " دولة سلاجقة الروم " قد وضعت على رأس كل منطقة من مناطق الثغور تلك حاكما عاما يمثل السلطة المركزية ،الا ان القوة الرئيسة على الحدود ، كانت

بيد القبائل التركمانية المستقرة فيها ،والتي كان يدير شؤونها " شيوخها الوراثيون" او " البكوات " . وكان هؤلاء البكوات مرتبطين بـ " امير الثغور " ،المعينين من قبل دولة سلاجقة الروم ، بروابط الولاء الشخصي ، بينما كانوا يمارسون سلطة مستقلة على جماعاتهم ؛ فهم معترفون بسيادة السلاطين السلاجقة ، وبالتبعية للدولة الايلخانية المغولية كذلك ،وكانوا يتلقون من الطرفين رموز السلطة (كالتشريف ، والراية ،والتفويض ، ولقب غازي) ،الا انهم كانوا مستقلين داخليا .

وقد ضمت " امارات الجهاد " تلك ، عدة فئات اجتماعية ،فهناك :

١ــ انصاف بدو من التركمان ،يعيشون على الرعي . وكانت منطقة الجبال الممتدة بين هضبة وسط الاناضول والسهول الساحلية تقدم لهم مرعى خصبا اثناء الصيف .

٢ــ صناع وتجار استقروا في المدن ،ووفد اليهم الآخرون من ايران ،ومن مختلف انحاء العالم الاسلامي فرارا من الهجمات المغولية .

٣ــ علماء ،ومتصوفة ،وزاهدون ، التجؤوا الى هذه البقاع ، رغبة في المرابطة والجهاد .

٤ــ عدد من اللاجئين الساخطين على الحكام في بلادهم ، ومن الثائرين . وقد اقام هؤلاء في مدن التخوم بصفة خاصة ، التي كانت قد تكونت فيها صور متأصلة من الحضارة السلجوقية الاسلامية . وقد اثر هؤلاء تأثيرا عميقا في بنية " امارات الجهاد (او الغزو) وتطورها .

وكانت تجمع " امارات الجهاد " تلك تقاليد متشابهة ،اتخذها " الغزاة " او " المجاهدون " لانفسهم ، وتميزهم عن الجماعات الاخرى . فهؤلاء المجاهدون يعيشون " الفتوة " . والفتوة بمعناها العام ،هي مجموعة القيم والقواعد ،التي كان على الغزاة ان يمارسوها في حياتهم . وهي تمثل قيم الحياة الفاضلة وقواعدها كما يفهمها الاسلام ،وبنزعتها الصوفية . وبالفعل ،فقد تكونت فرق اسلامية مختلفة ، اعتمدت مبادئ " الفتوة دليلا حياتيا لها . ومن هذه الفرق التعاونية الاسلامية ، ما يسمى " بالاخيات " (جمع اخي) ،من(أخ)العربية،او ربما من(أخي) التركية ،وتعني(الكريم) . وهي اخوة تضم صناعا وتجارا ،وتمارس في الوقت ذاته حياة

التصوف . وقد نظمت حياتها تنظيما تعاونيا ودقيقا . وعلى الرغم من تعدد اجناس اعضائها ،الا ان رابطة الدين الاسلامي كانت تربطهم جميعا . وتؤلف بينهم روح التضامن والمثل الاخلاقية ،والفضائل ،كالكرم ،وقرى الضيف ،وحماية الضعيف، ونصرة الحق(١) ويبدو انه كان " للغزاة " "منظمات" لها طابع تصوفي مماثل " للاخيات " ، الا انها ذات طابع عسكري ايضا ،لتحقيق "الجهاد " ضد الكفار. فهي أشبه بـ (تنظيم الفتوة)(٢)،الذى سعى الى ايجاده ،الخليفة العباسي ، " الناصر " (٥٧٥—٦٢٢ هـ/ ١١٨٠ —١٢٢٥ م) ،كوسيلة من وسائل تنظيم المسلمين ،وتوحيدهم ،ضد هجمات الصليبيين . وكان " للغزاة " احتفالاتهم ، التي يمنح فيها رئيسهم لقب " غازي " . وهو اللقب ،الذي يعني أن على صاحبه أن يقود المسلمين الى " الجهاد المقدس" ، وانه يتمتع بالصفات السلوكية والاخلاقية الفاضلة ويملك ادوات الجهاد ، وابرزها ،الشجاعة ،والسلوك الفاضل ، وقوة الساعد ،واتقان ركوب الخيل، والسيف الباتر ،والحربة الحادة ،والقوس والسهام، واللباس الخاص ،واخيرا صديق مرافق فاضل .

في "امارات الغزو" كان لها اذاً طريقتها الخاصة في الحياة ،ويسيطر عليها "مفهوم الجهاد " . فعلى "الغازي " أن يصارع " اهل دار الحرب " دون تلكؤ ، او توان ، او فتور ، حتى يخضعهم . فهو " اداة دين الله " ،و "خادم الله " يطهر الارض من الكفر والوثنية ،وتعدد الالهة . ولا يطلب في سبيل ذلك سوى " الاستشهاد " . وكان ما يملكه الكفار " غنيمة شرعية " للغزاة . وكلما كان "قادة الغزاة " اكثر نجاحا وتفوقا في حروبهم الجهادية ،فان عدد " المتطوعة الغزاة " كان يتزايد حولهم . ولم يكن هؤلاء " الغزاة " يدفعون ضرائب ما للحكومة المركزية ،وانما كمية رمزية ،هي دليل الولاء .

وعلى الرغم من انشغال تلك الامارات باستمرار ،بالحروب الجهادية ،فقد ازدهرت حياتها الاقتصادية والثقافية ،وتمثلت فيها صور رفيعة من الحضارة الاسلامية.

---

(١) انظر حول الاخيات "رحلة ابن بطوطة . دار صادر بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ص ٢٨٥ .

(٢) انظر حول "الفتوة" بند "Futwa" في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة (بالفرنسية او الانكليزية) .

ويبدو هذا واضحا فيما كتبه ابن بطوطة في رحلته (عام ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣م)، والعمري في (٧٣٠ هـ/ ١٣٣٠ م) . فالمدن في تلك الامارات تعج بالاسواق الغنية الجميلة ،والقصور البديعة ، والمساجد الفخمة ،والمدارس . ومن هذه المدن " دنزلي " و " باليق شهر " (المدينة الرئيسية في قره صي) ،و"بورصة" وغيرها. وفي منتصف القرن الثامن/ الرابع عشر،كان فيها قناصل بنادقة ،وتجار اوربيون اغنياء ،وكان التجار الايطاليون يحملون منتوجات الاناضول من القطن ،والرز، والقمح والزعفران ،والشمع ،والصوف ،والعبيد وغيرها الى اوربا ،وينقلون الى الاناضول المصنوعات الصوفية (السقرلاط) ،والجلدية . وكان لهذه الامارات نقدها الفضي .

وقد اجتذبت تلك الامارات اليها ،العلماء،والفقهاء، من كل انحاء العالم الاسلامي ،وكانت تختار الوزراء منهم . كما فتحت المدارس ،وانشأت المساجد . فـ "أورخان " مثلا امير الدولة العثمانية،وهي من امارات الغزو (الجهاد) ،فتح مدرسة في ازنيق عام (٧٣١ هـ/ ١٣٣١ م) وحوّل ديرا في داخل قلعة " بورصة " الى مدرسة ، وانشأ مركبا عمرانيا ،من مسجد ،وتكية ،وحمام ،وخان ،في بورصة ، لايزال حتى اليوم .

وكانت اللغة المستخدمة في تلك الامارات هي (اللغة التركية) ،فهي لغة الادارة . والى جانبها كانت (اللغة العربية) ،وهي لغة الدين ، وبعض العلاقات الدبلوماسية ،و (اللغة الفارسية) ايضا . ويمكن القول أن " اللغة التركية " غدت في القرن الثامن/ الرابع عشر هي اللغة السائدة ،لانها كانت لغة الشعب ، بينما بقيت اللغة العربية هي لغة العلم والمثقفين ،وندوات الفكر . وبأمر من الامراء ،ترجمت امهات الكتب العربية ،والفارسية ،الى التركية . وظهر ادب مبتكر في النصف الثاني من القرن الثامن/ الرابع عشر، له رواده . وفي هذه الامارات كتبت الوقفيات بالعربية ،والفارسية ،والتركية ،وارتقى فن عمران المساجد ،مثل "مسجد اورخان" في (بورصة) (٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م) و"المسجد الكبير" في ماغنيزيا ، و"المسجد الاخضر" في(ازنيق) (٧٨١ هـ/ ١٣٧٩ م) وغيرها .

وقد استطاعت تلك الامارات ان تثبت اقدامها ،وتوسع حدودها في الاناضول ، نتيجة عملياتها الجهادية ،وضغطها على الدولة البيزنطية . ولا سيما ان هذه

الدولة ،كان قد ضعف امرها في اواخر القرن السابع/ الثالث عشر م، بعد ان انتقل مركز ثقلها الى الاراضي الاوربية ،والبلقان ،وتراخت قبضة حاميات الحدود ،وازداد سخط الجند من الفلاحين ،بسبب السياسة الزراعية والمالية للاسرة الملكية الحاكمة (اسرة باليولـوغ) ،التي قربت ملاكي الارض الكبار اليها ،من نبلاء ورجال دين ، وقست على ملاكي الارض من الفلاحين الصغار .

ومن هذه الامارات التركمانية العديدة ،التي تكونت على ارض آسيا الصغـرى، " امارة منتشة " في اقصى الجنوب الغربي من الاناضول ،وهي اقدم الامارات . وقد نشطت هذه الامارة في البحر بصفة خاصة حتى انها فتحت جزيرة رودس ،الا أن «فرسان القديس يوحنا »اخرجوها منها عام ٧١٠ هـ/ ١٣١٠ م . و" امارة ايدين " الى شمال " منتشة " ،وقد استطاعت هذه الامارة مهاجمة شواطئ اليونـان ، ومقدونيا ،وتراقيا ،وبذلك كانت طليعة الدولة العثمانية في مهاجمة البلقـان . وكان غزاتها يعملون في البر والبحـر .

والى الشمال من (أيدين) قامت امارتا: (صاروخان) وعاصمتها "مغنيزيـا (منيسا)، و (قره صي) .

وفي الشمال على ساحل البحر الاسود ،قامت (امارة سينـوب) ،وقد وجهت جهادها نحو شبه جزيرة القرم (شمال البحر الاسود) ،وامارة طرابزون المسيحية المجـاورة .

وفي جنوب الاناضول ،وعلى الساحل، (امارة تكـة) ،والى شمالها (امـارة حميـد) . وهناك عدد آخر من الامارات ،في داخل الاناضول ،بمساحات مختلفـة، اكبرها (امارة جرميان) و (امارة قرمان) . والاولى، تؤلف منطقة الثغور التركية البيزنطية في فريجيـا، وعاصمتها " كوتاهية " ،اما الثانية فقد نشأت متاخمة لارمينيـا الصغرى ، اى في اقليم الثغور الطوروسية . وقد تمكنت هذه الامارة بعد تدهور اوضاع الدولة السلجوقية في الاناضول ،في اواخر القرن السابع/ الثالث عشر م، من الاستيلاء على عاصمتها (قونية) ، كما ادعت اسرتها الحاكمة ،بأنها الوريثـة الشرعية لها . وكانت من اقوى الامارات التركمانية ، وناصبت العثمانيين العـداء وتحالفت مع (دولة المماليك) في مصر والشام ، ومع امارة (القطيع الابيض التركمانية)

التي امتدت على ارمينيا ،وما وراء النهر ، وبلاد فارس ،في القرن التاسع / الخامس عشـــر .

ومن " الامارات التركمانية " التي تكونت في الاناضول أيضا ،وانما متأخـــرة نسبيا عن السابقة،امارتا :(ارتين) ،و (سيواس)،التي كونها القاضي برهان الدين، وكان ذلك في النصف الاول من القرن التاسع / الخامس عشر ،وفي وسط الاناضول. وكذلك امارة (دلغادر) أو (ذو القدر) ، وقد تأسست حوالي منتصف القـرن الثامن / الرابع عشر ، في " ملطية " و " البستان " ،على الحدود الشاميـــــة الاناضولية . وهي من دول التخوم التي وقعت في صراع مع المماليك ،والقرمـــان ، والعثمانيين .

ويضاف الى تلك الامارات السابقة الذكر (امارة آق قوينلو) او (امارة القطيع الأبيض) ،وقد اتخذت هذه الامارة عاصمة لها (ديار بكر) (اوآمد) ، ثـم (تبريز) بعد أن توسعت وقوي امرها . ومن امرائها الكبار " اوزون حسن " ، (حسن الطويل) (٨٥٧–٨٨٢ هـ / ١٤٥٣–١٤٧٧ م) الذى لعب دورا هاما في حياة المشرق الاسلامي ، وقد دولته على فارس ،والعراق ،واراد ان يتوســع في شمال سورية ،ووقع في صراع مع السلطان العثماني " محمد الثاني " ، انتهـى بهزيمته امامه في معركة " بابرت " على نهر الفرات ،عام ٨٨٧ هـ/ ١٤٧٣ م . وسعى للتحالف مع البنادقة ضد العثمانيين ،وقامت منافسة شديدة ،بينه وبيـــن (امارة القطيع الاسود) (قرة قوينلو) ،التي كونتها هي الاخرى قبائـــل تركمانية ،توضعت شمالي (بحيرة وان) في منتصف القرن الثامن / الرابع عشـــر . وقد قوى امر هذه الدويلة في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر للميلاد ، وكانت تدين بالمذهب الشيعي . وقد استطاعت ان تنتزع العراق من يد (الدولة الجلائرية) عام ٨١٣ هـ/ ١٤١٠ م) ،وظلت حاكمة لها حتى ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧م). وقد ت نفوذها الى " تبريز " ،وشط العرب ،وفارس ،وكرمان ،الا ان (امـــارة القطيع الابيض) تمكنت من ابتلاعها عام (٨٧٢ هـ/ ١٤٦٧ م) .

واخيرا ، ان (امارة بني عثمان) التي تكونت هي الاخرى في الشمال الغربي من آسيا الصغرى وعلى تخوم الدولة البيزنطية ،وحول المجرى الاوسط لنهر سقاريا ، في منطقة (السغد Soğüd)،كانت هي الاخرى واحدة من تلك الامارات التركمانية

المشار اليها آنفا ، وهي النواة الاولى للدولة العثمانية ".وكان تكونها في اواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلاد . وسيفرد لهذه الامارة وتحولها الى امبراطورية كبيرة وقوية فصل خاص .

ب — تغيير الاوضاع السياسية في بلاد الشام ومصر "

مثلما كانت "الدولة الايوبية " (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ/ ١١٧١ — ١٢٥٠ م)(١) التي امتد حكمها على مصر وبلاد اليمن والشام ، استجابة ايجابية لتحدي "الصليبيين الاوربيين " للعالم الاسلامي ،فان " الدولة المملوكية " (٦٤٨ — ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ — ١٥١٧ م) كانت استجابة بناءة رد بها العالم الاسلامي على تحدي الغزو المغولي، على الرغم من ان هذه الدولة دولة فريدة من نوعها في التاريخ ،اذ ان مؤسسيها ليسوا الأرقاء من اجناس مختلفة (٢) ،اشتراهم سلاطين بني أيوب ليكونوا جندا لهم وعونا ، لاخضاع الامراء العاصين ،وحرسا يحميهم شر المتآمرين ،وجيشا يجندونه عند الحاجة ضد الاعداء المغيرين . الا ان هذه المجموعة من المماليك لم تلبث امام الخطر المغولي الكاسح ، وتحالفه مع الصليبيين ، وضعف الدولة الايوبية في اواخر عهدها ، ان قبضت على السلطة السياسية ،بعد ان قتلت آخر السلاطين

.....

(١) ظل امراء ايوبيون يحكمون دمشق وحلب حتى ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م،وآخرون يحكمون حماة ومنهم المؤرخ المشهور "ابو الفداء "حتى عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١ م .

(٢) اطلق المؤرخون العرب المعاصرون لدولة المماليك اسم "دولة الترك "عليها كابن خلدون مثلا وغيره . ومع أن المماليك ليسوا جميعا من " الاتراك" ،فان معظمهم في الحقيقة منهم . فقد كانوا يأتون من الاراضي الواقعة شمالي البحر الاسود وبحر قزوين ،ومن الشعوب التي هجرت اراضيها امام المغول واجتياحاتهم وكان قسم منهم يستورد رقيقا ،وقسم يفد الى ارض السلطنة المملوكية ، منفيا او لاجئا ، واحيانا مع وحداته القبلية . وبين هؤلاء ،اتراك ،واكراد ، بل ومغول ،وقوقازيون (جراكسة) ،ويرنان ،وبعض الاوربيين . وتحت حكم " المماليك البرجية " ،غدا الجراكسة (من جورجيا في قفقاسيا) ،هم الاكثرية ، والقوة السائدة في الدولة . ويرجع هذا التغيير الى صعوبات جمع العبيد من سهوب القبجاق ،ناهيك ان السلاطين — واكثرهم من الجراكسة — فضلوا احضار رجال من جنسهم .

الايوبيين في مصر ، " طوران شاه " ابن "الملك الصالح نجم الدين ايوب"، واعلنت " شجرة الدر " زوج "الملك الصالح " وهي منهم ، سلطانة على البلاد . واستطاع احد اولئك المماليك ، وهو "بيبرس" ، بعد نزاعات على السلطة بين رؤوس المماليك، وبعد معركة " عين جالوت " (٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ/ ٣ أيلول ١٢٦٠ م) التي كان هو بطلها المظفر ، أن يغدو هو السلطان الحاكم ، وان يثبت دعائم " الدولة المملوكية " .

ان " بيبرس " (٦٥٨-٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧ م) هو في الواقع رابع السلاطين المماليك ، ولكنه في الحقيقة هو المؤسس الاكبر للدولة المملوكية التي عاشت قرنين ونصف . وخطته في العمل السياسي كانت تشبه كثيرا خطة " صلاح الدين الايوبي " ونهجه . فقد اتى الاثنان الى السلطة وخطر اجنبي ماحق يهدد الاسلام ودياره ، ومن ثم اوجد الاثنان اساسا مكينا لرد ذلك الخطر ، وهو " الوحدة الشامية ـ المصرية " . وسعى الطرفان للحفاظ على تلك الوحدة وتقويتها ، بادخال تغييرات في النظام الاجتماعي، والاقتصادي . كما حاولا بطرق مختلفة ، تأكيد مبدأ " الوحدة الاسلامية " ممثلة بـ " الخلافة العربية السنية " .

فالخطر الذى كان يهدد الاسلام في عهد " بيبرس " أتى ـ كما ذكرنا في اكثر من مناسبة ـ من الشرق ، من الهجوم المغولي ، الذى كان يهدد قلب الشرق الاسلامي ، بعد ان استولى على ما يقارب نصف ذلك الشرق ، وتهيأ لاكتساح نصفه الآخر . وبدا هذا العدو للمماليك اقوى ، واشد ارهابا ، من العدو الاوربي الصليبي ، ولذا كان لابد لمواجهته من اتخاذ خطوات غير عادية .

ولهذا الغرض ، عمل بيبرس على ضم بلاد الشام كلها الى مصر ، فحارب الامارات الايوبية فيها ، ووضع معظمها تحت سلطانه او اشرافه . وحارب " الفرنجة الصليبيين " وقلص ممتلكاتهم في بلاد الشام ، وحصرهم في جزء من الساحل . واستولى على حصون " الاسماعيلية الحشاشين "، واجتاح ارض سيس (بلاد ارمينيا الصغرى) حليفة المغول ، واثخن في مدنها . وقام بحملات في " النوبة" جنوبي مصر ، وفي ليبيا ، ليقوي مصر نفسها . وجدد التفاهم بين بيزنطة ومصر ،

مستخدما الوسائل السياسية ليقف الطرفان ضد الفرنجة في سورية . كما تحالف مع " خانات القبيل الذهبي " الذين اعتنقوا الاسلام ، في وسط روسيا وجنوبها ، ضد ايلخانات فارس. بل انه سعى الى ايجاد حلفاء في اوربا المسيحية نفسها ، فأرسل بعثة المؤرخ (ابن واصل) الى ملك صقلية " مانفريد " بن " فردريك الثاني " ،عام ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م) ،ولان معاديا للبابا . وبعث سفارات اخرى الى مدن ايطاليا ،ووقع معاهدة تجارية مع " مملكة اراغون " في اسبانيا ، ومع عدد من الدويلات الايطالية .

واخيرا أعاد "بيبرس" "الخلافة العباسية" الى القاهرة بعد ثلاث سنوات من سقوطها في بغداد (رجب ٦٥٩هـ/ حزيران ١٢٦١ م) ،واعلم بذلك امراء العالم الاسلامي ،لاعادة الخطبة باسم الخليفة . ونتيجة لذلك ،فان شريف مكة " ابانمي " ،الذي كان قد اعترف بخلافة حاكم تونس من الحفصيين بعد فخطب للخليفة العباسي . واذا كانت " الحجاز "(١) قد تذبذبت في ولائها لبغداد في المرحلة السابقة للغزوات المغولية ، فانها منذ هذا التاريخ ارتبطت كليا بمصر. فالهجمات المغولية قطعت الحج العراقي ،والروابط الاخرى مع الشرق الاسلامي والعراق ،او اعاقتها ،مما جعل " الحجاز " يعتمد اقتصاديا على الحجاج والتموين ، الاتيين من مصر ، ومن المغرب ، عبر مصر . وهكذا يمكن القول ، ان " بلاد الحجاز " كانت تابعة للدولة المملوكية ، على الرغم من بعض ظل من الاستقلال ، كان يتمتع به " حكم الاشراف الحسنيين " . وهذه التبعية بدورها رفعت من شأن دولة المماليك في نظر المسلمين ، لعملها على حماية الاماكن المقدسة ،وضمانها أمن الحجيج . وان لقب " خادم الحرمين الشريفين "،الذي اتخذه " بيبرس" ، كما فعل " صلاح الدين الايوبي " قبله (بعد استعادته لبيت المقدس) ، كان يرمز لذلك النفوذ الديني ،ويؤكد اولوية الدولة المملوكية بين

.....

(١) استلم امر مكة منذ عام ٥٩٨ هـ/ ١٢١١م " قتادة بن ادريس بن مطاعن" ،من الهواشم ،من بني حسن بن علي بن ابي طالب. وقد اتسع ملكه حتى المدينة واليمن ، وظلت سلالته هي الحاكمة في بلاد الحجاز حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري تقريبا/ الربع الاول من القرن العشرين الميلادي ،و"الشريف حسين" منها .

الدول الاسلامية ، في هذا المنحى .

وقد تابع خلفاء السلطان " بيبرس " من السلاطين المماليك ، سياسته في مقاومة المغول ، والصليبيين ولا سيما السلطان " قلاوون " واسرته . واستطاع ابنه " الاشرف خليل " من اخراج آخر الصليبيين ، من آخر معقل لهم في بلاد الشام ، وهو " عكا " في يوم الجمعة ١٧ جمادى الاولى ٦٩٠هـ/ ١٨ أيار ١٢٩١ م ، كما صدت قوات (الملك الناصر محمد بن قلاوون) حملة " غازان التتري " الثانية ، في معركة " مرج الصفر" قرب دمشق ، كما اسلفنا القول .

ومثلما حارب خلفاء بيبرس من " المماليك البحرية "(١) المغول والصليبيين ، فانهم هاجموا قبرص ، وارمينيا . الا ان هذا لم يمنعهم من اقامة علاقات تجارية وسياسية مع بيزنطة واوربا . وفي الوقت نفسه ، استمروا في مد نفوذهم على طرفي البحر الاحمر ، في النوبة ، والحجاز ، واليمن . وشجعوا التجارة البحرية ، مع جنوب آسيا وشرقها .

وانتهى حكم " دولة المماليك البحرية " في ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢ م ، باستلام السلطان الجركسي " برقوق " السلطة . وبه يبدأ عهد " دولة المماليك البرجية "(٢) الذي امتد حتى (٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م) ، عند وقوع مصر بيد السلطان "سليم الاول" العثماني ، وقضائه على "طومان باي " آخر سلاطينهم .

واذا كانت " دولة المماليك البحرية " قد تصدت للخطر المغولي والصليبي ولرفع راية الاسلام السني عاليا فان " دولة المماليك البرجية " تابعت تصديها للخطر المغولي . ففي بداية عهدها قام تيمورلنك باجتياح بلاد الشام ـ كما اسلفنا القول ـ الا انه لحسن حظها ، عاد الى بلاده دون اجراء تغيير في الوضع السياسي . وقد اصطدمت بعدة قضايا خارجية أهمها " الفرصنة الاوربية " التي اتخذت قبرص

.....

(١) سموا بـ "البحرية" لان الايوبيين بنوا لهم الثكنات بجزيرة الروضة في نهر النيل ، او "بحر النيل " كما يطلق عليه اهل مصر .

(٢) انشأ هذه الفرقة السلطان " قلاوون " وهي من الارمن والجركس ، واطلق عليها اسم "البرجية" نسبة الى ابراج القلعة التي اقاموا بها . وعرفت كذلك بالجراكسة " ، لان معظم افرادها كانوا منهم (علي ابراهيم حسن . مصر في العصور الوسطى . القاهرة ١٩٤٧ ص١٥٩

قاعدة لها . ولذلك قام " السلطان الاشرف برسباى " (٨٢٥-٨٤١ هـ/ ١٤٢٢ ١٤٣٨ م) ببناء التحصينات الساحلية ، ودعم الاسطول ، وتأديب قبرص ، والزامها على دفع الجزية ، واعترافها بتبعيتها للسلطان المملوكي عام (٨٣٠ هـ/ ١٤٢٧ م) .

كما ان علاقات هذه الدولة لم تكن حسنة مع " امارة القطيع الابيض " التركمانية ، ولا مع العثمانيين بصفة عامة ، ولا مع " الشاه رخ " من الاسرة التيمورية .

وقد عانت البلاد المصرية والشامية في عهد هذه الدولة اضطرابات داخلية ، من اسبابها الصراع على السلطة بين المماليك . ومن اسبابها ايضا غارة تيمورلنك وما نجم عنها من زيادة اعباء الخزينة ، وفرض ضرائب جديدة وثقيلة ، واجتياح الاراضي وانتشار المجاعة ، والاوبئة . ويضاف الى كل ذلك الانحلال التدريجي للنظام المملوكي العسكري ، وضعف الاحوال الاقتصادية ، وهذا ما ادى في النهاية الى سقوط الدولة المملوكية امام هجمات العثمانيين .

اما حول الانحلال التدريجي للنظام المملوكي العسكري ، فمن المعروف ان المماليك كانوا ارقاء في الاصل ، وكانوا يحملون الى مصر اطفالا ، او يافعين. ولم يكونوا بالطبع من اصل مسلم ، وكانوا يحتفظون باسمائهم غير العربية حتى بعد اعتناقهم الاسلام ، وكانوا لا يعتقون رسميا الا بعد تربية وتدريب طويلين ، ويتلقون وشيقة بذلك . فالمملوك الشاب اذاً ، كان رجلا حرا ، وليس عبدا لسيده او مولاه الا انه كان يدين لسيده (او استاذه) ، ولمماليك سيده بالولاء . وكان الكفيء منهم يحلم بالوصول الى المناصب العليا ، وحتى الى السلطنة . وقد كان معظم المماليك في بادىء الامر من الاتراك القبجاق ، اى من الشواطىء الشمالية للبحر الاسود ، وان كان يخالطهم أتراك آخرون ، واكراد ، ومغول ، وقوقازيون ، ويونان وغيرهم . الا انه منذ أن بدأ حكم المماليك البرجية الجراكسة (من جورجيا في قفقاسيا) ، غدا " الجراكسة " هم القوة السائدة في الدولة ، اذ فضل السلاطين الجراكسة أن يكون الوافدون ، من عنصرهم ، وبذلك برز التجاوز على قواعد النظام السابقة ، المعتمدة على الكفاية والسن .

ولم يكن من حق " اولاد المماليك " وهم احرار ومسلمون ، ان يدخلوا ضمن " الطبقة الحاكمة " الضيقة التي ينتمي اليها آباؤهم ، لانها لم تكن وراثية ، ولكن

كان بامكانهم ان يقدموا خدماتهم في فرق ادنى ،وهي "جند الحلقة" . وحتى هنا ،كانوا نادرا ما يصلون الى رتبة عالية . وكان بعضهم يبحث عن عمل في "المؤسسة الدينية" والادارة المدنية ،حيث لعبوا دورا لم يكن ضئيل الاهمية. وفي الواقع ان الشجاعة العسكرية للمماليك ، ومهارة بعضهم في الادارة ، واخلاصهم كانت عناصر هامة في الابقاء على السلطنة المملوكية لقرنين ونصف . ولكن حتى هذا اصابه الفساد تدريجيا .

ويستند "النظام المملوكي العسكري" الى "نظام اقطاعي" يمكن النظر اليه على انه تطور "للنظام الاقطاعي السلجوقي" ، الذي حمله الايوبيون معهم الى مصر . فالضابط العسكري ،كان يتلقى قطعة من الارض بدل الاجر ،شريطة ان يعد فئة محددة من الرجال للقتال ،يتراوح عددهم بين خمسة وخمسمائة ، كل بحسب رتبته . ومن هنا كانت تسميات الامراء العسكريين المماليك بامير خمسة ،او امير اربعين ،الى غير ذلك . وكانت تلك الاقطاعات تمنح لمدى الحياة ،او لفترة اقصر . ولم يكن المقطع يقيم عادة في اقطاعه ،وانما في العاصمة ،او في مركز المنطقة التي يوجد فيها اقطاعه . وكان جل "اهتمامه منصرفا الى "دخل الارض" لا الى "ملكية الارض" ، ومن ثم فانه ترك معظم شؤون اقطاعه تدار من قبل "ديوان الجيش" في القاهرة . ولهذا السبب ،لم تنم مع الزمن قوى سيادة اقطاعية ،كما حدث في الاقطاع السلجوقي مثلا ،ولا سيما ان الاقطاعات لم تكن وراثية ،ولم يكن من حق الاقطاعي الكبير ،مهما علت مرتبته ،ان يوزع الاقطاعات على من هم ادنى منه وانما كان ذلك من حق السلطان ،الذي كان يخضع تقسيم الارض لتغيير او اعادة تنظيم بين فترة واخرى . وفي الواقع كان النزاع شديدا بين نواب النيابات في بلاد الشام مثلا والسلطان ، من اجل حق منح الاقطاعات العسكرية للامراء والفرسان ، اذ ان بعض النواب كانوا يرغبون في استخلاص هذا الحق لانفسهم .

ولم تكن الاقطاعات في ظل المماليك ،"اقطاعات عسكرية" فقط ،وان كانت هي الاساس ، وانما كان هنالك "اقطاعات دينية" ، حبست على المؤسسات الدينية المختلفة ،كالمدارس ،والمساجد ،والزوايا وغيرها . وكانت تمنح تلك الاقطاعات لافراد معينين ليقوموا بالاشراف عليها — وكانوا عادة من العلماء — وتقديم دخلها للمؤسسات الدينية التي حبست عليها . ويلاحظ ان "الاقطاعات الوقفية"

هذه كانت ذات طابع وراثي ،وكثير من عائلات " الاعيان " في مصر وبلاد الشام كانت تدين بمركزها الممتاز لمناصب اصحابها ،كمشرفين رئيسيين على الاوقاف ،او منتفعين منها .

وفي اواخر العهد المملوكي ،حاول الاقطاعيون – اكانوا عسكريين او مدنيين– ان يتملكوا اقطاعاتهم ،ليحولوها الى ارث تتناقله الاسرة ،وذلك عندما بدأت الاحوال تضطرب ، والصراعات السياسية تتزايد . وقد توصل بعضهم الى ما يريد عن طريق بيع الدولة تلك الاقطاعات ،لمن يرغب بها . ولم يكن الاقطاعيون وحدهم المشترين ،وانما ظهرت طبقة من التجار ،وارباب الحرف ، ارادت ان يكون لها امتيازات الاقطاعيين ،فسعت لشراء اقطاعات (جند الحلقة) .

واذا كانت الاقطاعات المملوكية قد غدت مع الزمن تباع وتستبدل ،فان كثيرا منها حول كذلك الى " اوقاف ". فقد حول الامراء المماليك جزءا منها لصالح مماليكهم ليزيدوهم ارتباطا بهم ،وليجعلوهم اكثر اخلاصا لاسرهم من بعدهم . كما جرى بعضهم على جعل اولاده ،واحفاده ،هم المنتفعين من اوقافهم تلك .

ومن كل هذا يتضح ان "النظام المملوكي " كان سائرا في اواخر القرن الخامس عشر الى تفسخ وانحلال . وقد تضافر هذا الامر مع تدهور الاحوال الاقتصادية في تلك المرحلة ،ليجعل نهاية دولة المماليك شبه محتومة .

الاوضاع الاقتصادية في المشرق العربي والاسلامي

على الرغم من ان الحياة الزراعية ،كانت الاساس الاول في الاقتصاد في البلاد الاسلامية في هذه الفترة ،ويعيش عليها معظم السكان ، فان التجارة ظلت هي الاخرى محورا من المحاور الاقتصادية الكبيرة التي تدر على حولها سياسة الحكام في الشرق الاسلامي ، لانها كانت موردا لارباح كبيرة يمكن ان تملأ خزائنهم وتعوض احيانا ما كان يصيب البلاد ، من نكبات زراعية ، نتيجة اجتياحات المغول ، واستشراء الفتن الداخلية ، او الكوارث الطبيعية المختلفة ، او سوء السياسات الزراعية ،واثقال الفلاح بالضرائب ، علما ان ماضي التجارة في هذه البقعة من العالم ، ماض عريق .

وكان اكثر ما شغل الحاكمين في المشرق العربي ، من منتصف القرن السابع الهجري وحتى اواخر التاسع الهجري / منتصف الثالث عشر الميلادي ، وحتى اواخر الخامس عشر ، ليس التجارة بين اجزاء المشرق العربي ، وبين المشرق العربي والمغرب العربي ، فحسب ، وانما التجارة مع الجنوب الشرقي من آسيا ومع العالم الاوربي . فمنذ عهد " الدولة الفاطمية " ، أبدت حكومات مصر اهتماما كبيرا بالبحر الاحمر ، والتجارة الشرقية مع الهند ، التي كانت تحمل سلعا ثمينة ، كالبهارات ، والحرائر ، والاخشاب . وكانت مصر تستهلك تلك السلع محليا او تعاود بيعها بربح . وقد درّ ذلك دخلا كبيرا على الخزينة المصرية ، ومتّع التجار العاملين في ميدانها بارباح وفيرة ، مما دفع الى توظيف رؤوس اموال كبيرة فيها ، والى سعيهم لتكون على رأس البلاد دائما ، حكومة قوية ، تؤمّن المواصلات البرية ، والبحرية ، وترفع عنها النهب والقرصنة . وقد نظم هؤلاء التجار انفسهم تنظيما دقيقا ، ونشروا عملاءهم في جميع الارجاء التي كانت تعتمد عليها تلك التجارة ، كبلاد الهند ، وجنوب اليمن ، واطراف الخليج العربي ، والسواحل الشرقية لافريقيا ، وسواحل البحر الاحمر ، الشرقية والغربية ، بل وسواحل البحر المتوسط الجنوبية والشرقية ، وربما سواحل آسيا الصغرى منها . وقد اطلق على ذلك التنظيم الذي لا تعرف كل اسراره ، اسم " الكارميين[1] ". وقد عرف قيمة هذه التجارة اعداء مصر من الايلخانات ، حتى ان احدهم دعا تجار السفن الجنويين في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، الى بغداد ، وانزل مركبين في المحيط الهندي ليحاصر ميناء "عدن" ، ويقطع الطريق المصري ، وطريق عرب الشرق الافريقي ، الى الهند . وادرك السلاطين المماليك اهمية تلك التجارة ، كما ادركها من قبلهم الفاطميون فالايوبيون . ولذلك يلاحظ انهم بذلوا ما في طاقتهم لاستجلاب التجار الشرقيين الى مملكتهم عن طريق

.....

(١) انظر حولهم بحث الدكتور صبحي لبيب " التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ." في المجلة التاريخية المصرية . القاهرة مايو ١٩٥٢ المجلد الرابع العدد الثاني . ص ٥ — ٦٤

وعدهم بالامن ،والعدل والارباح (١) وفي الواقع ،لم يلفت نظر المماليك الطريق الشرقية التجارية فحسب ، وانما امتداد تلك الطريق الى البحر المتوسط ، فدويلات اوربا الجنوبية كالبندقية وجنوة ، وكاتالونيا ،حتى كان هناك موظف مدني خاص بمرتبة عالية ، في الدولة المملوكية ، مسؤول عن الاشراف على شؤون تجار الشرق والغرب، وتوفير الراحة لهم ، والمعاملة الحسنة (٢) .

ومن جملة التجار الشرقيين الذين اهتم المماليك بجذبهم الى مصر والشام ، كان تجار اليمن . فتحت حكم (الدولة الرسولية) التي تأسست في اليمن في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ،بعد أفول الحكم الايوبي ،دخلت اليمن في مرحلة من التوسع والرخاء . فقد تابع (بنو رسول) سياسة قوية في شبه الجزيرة العربية ، وارسلوا بعثات الى الهند ، وسيلان ، والصين ، واحيوا ميناء (عدن) ، الذي غدا مركزا كبيرا للتجارة الشرقية . وكان لسلطان مصر مصلحة واضحة في تحويل تلك التجارة الى الموانىء الواقعة تحت نفوذه ،ولا سيما عندما بدأ التجار الصينيون ، في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، يبحرون بسفنهم حتى البحر الاحمر . فقد ازدهرت التجارة في الصين ، في ظل " اسرة مينغ " ،واخذت تبحث عن طرق للاتصال بالبلاد غربها ، وبالغرب الاوربي ، وعندما اخفقت في فتح الطرق البرية عبر بلاد فارس ، فانها وجهت جهودها الى البحر الاحمر ، حيث تبادلت البعثات مع اليمن .

ولما ابتدأت مرحلة اضطراب سياسي في اليمن نتيجة الصراعات الداخلية ، أخذ المماليك ــ كما اسلفنا القول ــ يقوون قبضتهم على الحجاز ،ويفتحون ميناء " جدة " امام تجار الشرق ،الذين اخذوا يتجاوزون عدن ، للاوضاع السياسية

.....

(١) وردت في تاريخ ابن الفرات (تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عزالدين . ج ٨ بيروت ١٩٣٩ ،ص ٦٥ وما بعد) رسالة موجهة عام ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨ م) الى تجار اليمن ،والسند ،والهند ،والصين ، تدعوهم لحمل سلعهم الى مصر وبلاد الشام ، وتعدهم بأفضل الشروط ، من أمن ،وعدالة ،واسواق ،وارباح .

(٢) القلقشندي . صبح الاعشى في صناعة الانشاء ١٤ جزءا . القاهرة ١٩١٧ . ج ١١ ص ٣٢٠ .

المتلقة فيه ،ويلجؤون اليه . وهكذا بينما كانت (عدن) تنحط فان (جدة) كان يتألق نجمها ، و تصبح واحدة من الموانئ الرئيسية للدولة المملوكية (١) ومن عام ٨٢٥ هـ/ ١٤٢١ م ،سيطر المماليك على العائدات الجمركية في جدة ، بعد ان كانت بيد (الشرفاء) ، الا انهم كانوا يسمحون لهم بنصيب منها . ومن ٨٢٨هـ / ١٤٢٤ م كان هناك مركب يقوم باستمرار بربط (جدة) ، بميناء (الطور) في (خليج القلزم) ، الذى غدا الميناء الشرقي الاساسي لدخول السلع الشرقية الى مصر . وكانت تلك السلع تحمل منه الى القاهرة ،فالاسكندرية . ومن الاسكندرية تنقلها مراكب "البندقية"،و "جنوة" و "كاتالونيا" ،الى ايطاليا ،حيث يتم توزيعها في انحاء اوربا . وفي الحقيقة كان هناك طريق أخرى تجتاز البلاد العربية وتحمل هذه تلك السلع الشرقية،كالتوابل،والحرائر، وهي الطريق التي تأتي من الهند ،وتصبفي البصرة شمال الخليج العربي ، ومنها تصل عن طريق الفرات الى حلب ،ودمشق ،وطرابلس ،وبيروت ، الا ان سيطرة المماليك على هذه الطريق لم تكن تامة ، فمنطقة الخليج العربي ،وجنوبي العراق ، لا سيادة لهم عليها ، كما ان علاقاتهم مع حكامها لم تكن حسنة . ومن ثم تبقى الطريق الى جدة ، فمصر ، هي الطريق الرئيسة بالنسبة لهم .

واذا كان تشجيع المماليك لتجارة الشرق والغرب قد درت ارباحا كبيرة على السلاطين ، وعلى فئة التجار ، فان سياستهم في ميدان الصناعة والتجارة الداخلية بل والخارجية ايضا ،قد اساءت الى مجموع الرعية . فقد طبقوا " سياسة احتكار الدولة " لبعض المنتوجات الصناعية ،ومنها " مادة السكّر " ، وبصفة خاصة في عهد السلطان (برسباي) (٨٢٦-٨٤٢ هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨ م) . ومن ثم اغلقت

---

(١) ذكر الجغرافي "غرس الدين الظاهرى" المعروف بابن شاهين المتوفى ، (٨٧٣ هـ/ ١٤٨٦ م) - وهو من امراء المماليك المولعين بالبحث والعلم ،ومن تولى عدة اتابكيات ،منها ،صفد ،وحلب - في كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " نشر المستشرق " رافيس P. Ravaisse " باريس ١٨٩٤ . ص ١٤ ، بانه كان يفد الى جدة اكثر من مائة مركب،وبعضها بسبعة اشرعة ، تحمل دخلا سنويا متوسطه ٢٠٠,٠٠٠ دينار .

جميع مصافي السكّر الخاصة ، وامر ذلك السلطان جميع صانعي الحلوى والمستهلكين الآخرين لشرائه من الدولة بسعر ثابت ، هو اكثر ارتفاعا بكثير من الاسعار التجارية الجارية ، واسس دائرة خاصة للاشراف على ذلك الاحتكار . بل ومنع زراعة (قصب السكّر) الا في املاك السلطان . والشيء نفسه طبق على الحبوب ،واللحم وانما بطريقة اكثر مرونة ،ثم على بيع التوابل الواردة من الشرق . فقد كان على التجار الاوربيين ،ان يشتروا تلك السلعة الثمينة من السلطان ،مما ادى الى ارتفاع الاسعار ، والى ضيق التجار الاوربيين ؛ ويضاف الى ذلك اجراءته بحظر التعامل بالنقود الاوربية الذهبية ،وقصر ذلك التعامل على الدنانير المملوكية ، التي لم تكن قيمتها ثابتة .

كل تلك الامور كانت من عوامل الانحطاط الاقتصادي الذي اصاب النظام المملوكي في اواخر القرن التاسع / الخامس عشر ، ومن دواعي البؤس الذى عمّ الرعية ، ولا سيما الفئات الدنيا منها . وجاء اخيرا كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ م ،ووصولهم الى الهند ، وسعيهم لاحتكار الطريق كلها ، وابعاد العرب عنها ، ليكون الضربة القوية التي اصابت اقتصاد الشرق العربي ،والبندقية المتعاملة معه بالصميم . ومع ان آخر السلاطين المماليك وهو قانصوة الغوري (٩٠٦-٩١٦ هـ/ ١٥٠١-١٥١٦ م) بذل كل امكانياته لاستعادة السيطرة على طريق الهند ،الا انه اخفق . وفي هذا الوقت بالذات ، كانت الدولة المملوكية تتلقى من حدودها البرية الشمالية ضربة عنيفة ثانية ، من الدولة الاسلامية المجاورة لها ، وهي " الدولة العثمانية " ، وفي هذه المرة كانت الضربة قاضية عليها .

ولا بد في خاتمة هذا الموجز السريع للاحوال السياسية ،والاقتصادية ، والاجتماعية في مجموع العالم الاسلامي بين منتصف القرن السابع للهجرة وآخر القرن التاسع / منتصف الثالث عشر الى اواخر الخامس عشر ،من الاشارة الى ان الحياة الفكرية في هذا الشرق الاسلامي ظلت يانعة ومعطاء ، وتركزت في بلاد ما وراء النهر، حيث عمل بعض سلاطين السلالة التيمورية على تشجيع العلم والعلماء - كما رأينا - وفي مصر وبلاد الشام ، حيث تابع المماليك سياسة الايوبيين في فتح

المدارس ، وحماية الدين الاسلامي السني ، وتشجيع الانتاج الفكري . فالعهد المملوكي كان اذاً من عهود الاشراق الفكري العربي ، توجته طبقة ذات مستوى رفيع من المؤرخين ، وكتاب التراجم والموسوعيين ، والادباء ، مما جعل مصر وبلاد الشام قبلة الفكر العربي الاسلامي آنذاك . فالى العهد المملوكي ينتسب عديد من كبار المؤلفين العرب ، كابن خلكان (المتوفى ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) صاحب «وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان » ، الذي يعتبر ذخيرة كبرى في العلم والادب واللغة . و «ابن ابي اصيبعة » (المتوفى ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩) الطبيب الذي يعد كتابه (عيون الانباء في طبقات الاطباء) ، الثاني من نوعه بعد كتاب (اخبار الحكماء) للقفطي (المتوفى ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م)، والاول من نوعه في العربية بمادته وغزارة معلوماته . و «الصفدي » (المتوفى ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م) الذي وضع كتابه المشهور (الوافي بالوفيات) في ثلاثين مجلداً ، وترجم فيه لعدد كبير من الحكام ، والادباء ، والاعيان ، وبذلك كان اكبر قاموس للتراجم في الاسلام . وعاصره «ابن شاكر الكتبي » (المتوفى ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢ م) صاحب (فوات الوفيات) و (عيون التواريخ) . ومن المؤرخين الكبار في هذا العصر ايضا «الكمال ابن العديم الحلبي» (المتوفى ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م) مؤلف (زبدة الحلب في تاريخ حلب) ، و «جمال الدين بن واصل الحموي » (المتوفى ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧) سفير بيبرس الى «منفرد بن فردريك الثاني»، وصاحب كتاب (مفرج الكروب في اخبار بني ايوب)؛ و « علم الدين البرزالي الدمشقي » (المتوفى ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨ م) مؤلف (تاريخ مصر ودمشق) . وفي ذلك الزمن تألق كذلك « ابو الفداء الايوبي » (المتوفى ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م) المؤرخ-الجغرافي، في كتابيه (تقويم البلدان) الذي يثبت في مقدمته كروية الارض ، و (المختصر في تاريخ البشر)؛ و « شمس الدين الذهبي » ، (المتوفى ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧ م) مؤلف (تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير الاعلام) ، وكتاب (دول الاسلام)، و « ابن كثير » (المتوفى ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢م) صاحب تاريخ (البداية والنهاية) وابن قاضي شهبة (المتوفى ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م) كاتب (الاعلام بتاريخ الاسلام) ، و « بدر الدين العيني » (المتوفى ٨٥٥ هـ) وله «عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان »، و (ابن حجر العسقلاني) (المتوفى ٨٥٣ هـ/ ١٤٤٩م) المحدث الكبير ، والفقيه ، والمؤرخ ، وله مؤلفات عديدة منها (الدرر الكامنة) و (الاصابة

في تمييز الصحابة) وغيرها ،و " السخاوي " (المتوفى ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦م) صاحب (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) و (الضوء اللامع لابناء القرن التاسع) ،و " المقريزي " (المتوفى ٨٤٦ هـ/ ١٤٤٢ م) صاحب كتاب (الخطط) وعدد من المؤلفات التاريخية الاخرى .

ومن الموسوعيين في هذه الحقبة من الزمن ايضا ،" ابن فضل الله العمري " (المتوفى ٧٤٨ هـ/ ١٣٨٦م) مؤلف الموسوعة الجغرافية التاريخية الضخمة (مسالك الأبصار في ممالك الامصار) ،و " القلقشندي " (المتوفى ٨٢٢ هـ / ١٤١٨م) مؤلف " صبح الاعشى في صناعة الانشا " . ويجب الا ينسى ابدا ان المؤرخ العربي الكبير " ابن خلدون " (المتوفى ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م) عاش في هذه الفترة الزمنية ، وهو صاحب " المقدمة " المشهورة التي افتتح بها كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر)، وواضع اسس المنهجية العلمية في البحث التاريخي .

وغير ما ذكر،هناك عدد كبير من المتصوفة ،والمحدثين ،واللغويين ، والادباء والفقهاء ، كـ " ابن حجة الحموي " (المتوفى ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣م) " مؤلف (خزانة الادب وغاية الارب) ورئيس ادباء عصره ،"وابي زكريا محي الدين النووي" (المتوفى ٦٧٦ هـ/ ١٢٧٧ م) مؤلف (تهذيب الاسماء واللغات) ،و " ابن تيمية " (المتوفى ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٨ م) من اكبر علماء عصره الدينيين في العلوم الاسلامية ، و "ابن قيم الجوزية " (المتوفى ٧٥١ هـ/ ١٣٥٠ م) ، صاحب (الشب الحكمية في السياسة الشرعية) ، وغيرهم كثير .

ولا بد من الاشارة اخيرا الى ان التواصل الفكري بين اجزاء العالم الاسلامي على الرغم من الاوضاع السياسية المضطربة ظل قائما . فالرحلة في طلب العلم ، والمحاورات بين العلماء لم تتوقف ، أكان بين علماء بلاد ما وراء النهر وايران ، وعلماء امارات آسيا الصغرى التركمانية ، ومفكري مصر والشام والحجاز والمغرب ، متجاوزة بذلك كل الخلافات السياسية .

ولكن على الرغم من الاضواء الفكرية التي كانت تشعها تلك الفئة من رجال الفكر والعلم في العهد المملوكي ، فان حياة الفكر الاسلامي كانت تعاني في الحقيقة ازمة: اذ اخذت تميل ،ولا سيما في اواخر العهد ، نحو اعادة ذاتها ، اي شرعت تفقد

روح الابداع والتجديد ، واتجه اصحاب الفكر والقرائح نحو التقليد ،والجمع ،حتى اطلق على ذلك العصر صفة "عصر الموسوعات ،والجمع ،والتراجم" .

ويظهر ان الاوضاع السياسية التي عانتها هذه المنطقة منذ الحملات الصليبية عليها ، والضعف الاقتصادي النسبي الذي عاشته ، واكتساحات التتر، وآخرها حملة تيمورلنك ،قد جعلت الحياة الفكرية تصاب ببعض ذبول .

احوال المغرب العربي من منتصف القرن السابع الهجري وحتى اواخر التاسع/ من منتصف الثالث عشر وحتى اواخر الخامس عشر

تمكنت (دولة الموحدين) ان تحتوي المغرب العربي كله، بما فيه اسبانيا في منتصف القرن السادس/ منتصف القرن الثاني عشر . الا انها شرعت بالتفكك والضعف بعد نصف قرن ، وقام على انقاضها "دويلات ثلاث" (الدولة الحفصية) في تونس ، و (دولة بني مرين) في المغرب ،و (دولة بني عبد الواد) في تلمسان ،وزالت دولة الموحدين تماما بوفاة آخر سلاطينها في (٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م) ، بعد ان كان المرينيون قد سيطروا على مراكش عام ٦٦٧هـ/ ١٢٩٦ م ، واجبروه على الالتجاء الى " تينمال " ،المكان نفسه الذي كوّن فيه " ابن تومرت " في الماضي نواة دولة الموحدين .

وقد سعت كل دولة من تلك الدول الثلاث ،خلال المرحلة الممتدة من منتصف القرن السابع الهجري وحتى اواخر التاسع ،لاعادة وحدة شمال افريقيا لحسابها: فالحفصيون كانوا يرون بأنهم هم الورثاء الشرعيون للخلفاء الموحدين ،و (بنو عبد الواد) ضاق بهم اقليمهم في تلمسان فاراد وا التوسع في رقعة ارحب، و (المرينيون) غرتهم قوتهم بعد ان استطاعوا هزيمة آخر الموحدين ، واعتقد وا انهم قادرون على تحقيق تلك الوحدة بالقوة .

واستخدم الحفصيون للوصول الى مأربهم ، في عهد سلطانيهم " ابي زكريا " (٦٣٣ –٦٤٧ هـ/ ١٢٣٦–١٢٤٩ م)، والمستنصر (٦٤٧–٦٧٥ هـ/ ١٢٤٩–١٢٧٧م) ، السلاح والسياسة معا ،واستطاعوا ان يجبروا بني عبد الواد ،والمرينيين على الاعتراف بسيادتهم . وقوي نفوذهم ،حتى وفدت اليهم البعثات من الدول

الاوربية في غربي المتوسط ، وحتى من الترويج . وعندما سقطت الخلافة العباسية في بغداد عام ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م ،اعترف شريف مكة "بالمستنصر الحفصي" خليفة ، وكذلك فعل السلطان المملوكي ، ريثما عين بيبرس خليفة عباسيا آخر في القاهرة عام (٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م) .

ولكن قوة الحفصيين كانت قصيرة الامد ،فالحملة الصليبية التي نظمها ملك فرنسا "لويس التاسع" في (٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م) ، كانت اول صدمة ضخمة هزت زعماء تونس . ثم جاء التنافس على العرش بين افراد السلالة الحاكمة بعد "وفاة المستنصر "،ليبث الاضطراب في انحاء البلاد ،حتى انقسمت تونس الى جزئين عام (٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م) ، وبقيت كذلك فترة ليست بالقصيرة . وزاد من تبلبل الوضع اسهام القبائل البدوية في ذلك الصراع ،حيث كانوا يقدمون عونهم لمن يدفع لهم اكثر من الفريقين المتنازعين . بل كان كل طرف يسعى للتحالف مع الزيانيين (بني عبد الواد) ،او المرينين ليدعم مركزه . وقد استفاد المرينيون من ذلك فغرضوا سيادتهم على تونس مرتين ولبضعة اشهر (٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧–١٣٤٨ م) و (٧٥٨ هـ/ ١٣٥٧ م) .

الا ان الدولة الحفصية استطاعت بفضل عدد من السلاطين ذوي الشخصيات القوية والقادرة ، ان تعيد الوحدة ثانية الى تونس ، من امثال " ابي العباس " (٧٥٨ –٧٩٦ هـ/ ١٣٥٧–١٣٩٤ م) ، و "ابي فارس" (٧٩٦– ٨٣٧ هـ/ ١٣٩٤–١٤٣٤ م) و " ابي عمرو عثمان " (٨٣٨ –٨٩٣ هـ/ ١٤٣٥–١٤٨٨م)، وعادت الحياة الاقتصادية نشيطة الى البلاد ،وتوافد عليها مبعوثو الدول الاوربية لعقد معاهدات تجارية معها ، او لتقديم واجبات الاحترام . كما ازدهر العلم في ربوعها ،وتمركز حول " جامع الزيتونة " ،وفي مدينة تونس نفسها التي ثبتت عاصمة للبلاد ،بعد ان كانت العاصمة سابقا تتنقل بين القيروان،والمهدية . وسعى الحفصيون لتجميل المدينة وما حواليها ، ودعم النشاط الاقتصادي فيها ،فغدت مركزا اقتصاديا فعالا ،الى جانب كونها المركز السياسي،والاداري،والعلمي .

ولكن بعد تلك الفترة الطويلة من الاستقرار التي امتدت قرابة قرن ،عادت الصراعات بين افراد السلالة الحاكمة ، مما هيأ الجو في القرن العاشر/ السادس

عشر ، لاحتلال الاسبان لها ، ثم لتثبيت العثمانيين سيادتهم عليها .

اما بالنسبة للدولة الزيانية ، فانها كانت محصورة بين الدولتين القويتين الحفصية في الشرق والمرينية في الغرب ، ومن ثم كان عليها ان تصرف جهودها دائما في معارك يائسة لتحافظ على وجودها . ففي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي تعرضت لفترات احتلال طويلة من قبل المرينيين ، وفي القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، من قبل الحفصيين . كما كان عليها بالاضافة الى ذلك ان تقف في وجه القبائل البدوية ، التي كانت كثيرة العدد في (منطقة وهران) . ومع كل المتاعب التي عانتها هذه الدولة ، فقد استطاعت ان تحوّل مدينة " تلمسان " عاصمتها الى مركز اقتصادي هام . وساعدها على ذلك قرب ميناء " هنين " منها ، وكان محطة للسفن الاوربية . كما انها اهتمت بعمران المدينة ، وشاركتها في ذلك الاهتمام ، الدولة المرينية عندما احتلتها ، لأن (سلاطين فاس) كانوا حريصين جدا على ارضاء سكانها وكسب ودهم ، لتبقى قبضتهم قوية فيها .

اما القضايا التي تعرضت لها (الدولة المرينية) في المغرب الاقصى ، فكانت " حرب الاسترداد الاسبانية " ، التي اخذت تنتزع المدن العربية الاسلامية على الارض الاسبانية ، الواحدة تلو الاخرى . وقد سعت " الدولة المرينية " لايقاف تقدم تلك الحرب ، واستعادة ما فقده العرب المسلمون على الارض الاسبانية ولكن دون جدوى . كما اقلق هذه الدولة ، ولاكثر من ربع قرن ، جهود الزيانيين لتوسيع نفوذهم على حسابها . ويمكن القول بانها لم تر الازدهار الحقيقي الا في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وذلك تحت حكم سلطانيها " ابي الحسن علي " (٧٣١-٧٥٢ هـ/ ١٣٣١-١٣٥١ م) ، وابنه " ابي عنان " (٧٤٩-٧٥٩ هـ/ ١٣٤٨-١٣٥٨ م) . وقد ظن كل واحد من هذين السلطانيين ، انه حقق حلم وارثي الدولة الموحدية ، الا وهو اعادة وحدة المغرب. الا ان ذلك الحكم لم يدم سوى بضعة اشهر ، لان القبائل العربية البدوية كانت قوية الى حد انها تصدت له وقاومته ، ولان الجيوش المرينية كانت قليلة العدد ، بحيث لم تستطع ان تفرضه . ومع ذلك ، فقد عاشت بلاد المغرب الاقصى ، اثناء

الاعوام الثلاثين ،التي حكم خلالها هذان السلطانان ، في رخاء ، وانعكس ذلك واضحا في المباني الجميلة ،والغنية بزخرفتها ،التي اقيمت ، أكانت مساجد او ، مدارس . ومع انها تمثل ذوقا فنيا رفيعا ، الا انها بقيت دون المستوى الفني السائد في عهد الموحدين .

وبعد مقتل أبي عنان " على يد احد وزرائه ، دخلت الدولة المرينية في مرحلة من الاضطراب السياسي ،بسبب مؤمرات الاسر الكبيرة ،والقبائل العربية ، وتدخل حكام غرناطة المسلمين في شؤونها الداخلية ،وكذلك ملوك قشتالة واراغون من الاسبان ، والزيانيين والحفصيين ، وتلك " الميليشيا المسيحية " التي استخدمها حكام فاجرسا ، وعنصرا من عناصر جيشهم . لقد حكم المرينيون نظريا حتى ٨٦٩ هـ/ ١٤٦٩ م ، الا ان السلطة الفعلية كانت قد وقعت بيد أسرة بني وطاس "،التي تمتّ بصلة القربى لهم ، منذ ٨٢٣ هـ/ ١٤٢٠ م . وقد اكتفى هؤلاء الاخيرون بحكم البلاد ، لمدة اربعين عاما ، دون ان يتخذوا لقب الحكام الرسميين،ولكن كان من العسير جدا ان يبقى الطرفان يديران البلاد معا ،وبلاد المغرب الاقصى قد تجزأت الى عدة امارات ،وتعرضت لهجمات النصارى من البرتغاليين بصفة خاصة . فقد احتل هؤلاء مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ/ ١٤١٥م ، وتابعوا في مطلع القرن العاشر / السادس عشر سيطرتهم على عدة مواقع على طول الساحل الغربي للمغرب ، المطل على المحيط الاطلنطي ، من "طنجة" حتى " اغادير " . وجاء الاسبان في هذا الوقت بالذات ليزيدوا الطين بلّة ، وليثبتوا اقدامهم في " مليلة " عام ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م) . وهكذا ضعف امراء " الدولة الوطاسية " تدريجيا هي الاخرى ، شأنها في ذلك شأن الدولة الزيانية ، مما مهد لحلول " السلالة السعدية " في عام ٩٥٦ هـ/ ١٥٤٩ م ،في الحكم محلها .

وخلاصة القول ، يمكن ان نميز في " تاريخ المغرب العربي " خلال القرون الثلاثة تقريبا، المشار اليها آنفا ، الامور الآتية :

١ ــ اخفاق فكرة اعادة " الوحدة المغربية " كما كانت عليه ايام " دولة الموحدين" اذ لم تستطع اية دولة من الدول المغربية الثلاث المتنافسة ، ان تحقق هذا الامر . لانها لم تكن تملك " العصبية " ــ على حد تعبير ابن خلدون ــ الضرورية لذلك ، فقوة " ابن تومرت " و " عبد المؤمن " زعيمي الدولة الموحدية

انبثقت من العدد الكبير لقبائل جبال الاطلس الاعلى ، التي انضمت اليهما ، والتي كانت تربط بينها روابط نسب ، وعادات مشتركة . بينما كانت قبائل بني عبد الواد وبني مرين ، اقل عددا ، والسلالة الحفصية مجرد اسرة حاكمة لها اتباعها . ومن ثم اضاعت الاطراف الثلاثة قواها وجهودها من غير طائل .

٢ــ الدور الكبير الذى لعبته القبائل البدوية في الحياة السياسية لمجموع المغرب . وفي الحقيقة ظهر اثر هؤلاء البدو الرحل من العرب بصفة خاصة ، منذ اواخر عهد دولة الموحدين ، واثناء ضعفها . الا ان هذا الاثر بدا قويا في حياة دول المغرب الثلاث ، التي ورثت الدولة الموحدية ، وهي في اوج سطوتها ، اذ كان عليها ان تعتمد على دعم تلك القبائل ، المنتشرة على مساحة واسعة من البلاد ، والتي لم تكن تكّون مجموعات كثيفة ومتقاربة ، كما كان عليه الحال مع قبائل الامازيغ في المناطق الجبلية (كمنطقة الريف ، والقبائل ، وجبال الاطلس الاعلى) مثلا . ومن ثم ، سعت كل واحدة من تلك القبائل كي تعمل لحسابها ، وبحسب ما تمليه عليها مصالحها الخاصة . وهذا ادى بالتالي الى التبلبل ، والاضطراب في الاوضاع السياسية الداخلية .

٣ــ تم خلال تلك القرون الثلاثة تقريبا ، تعريب البلاد المغربية تعريبا شبه كامل ، وانتشار اللغة العربية انتشارا واسعا في ربوعها ، وتثبيت جذورها . وقد لعبت القبائل العربية البدوية دورا اساسيا في ذلك التعريب ، وبصفة خاصة في المناطق التي امتدت عليها ، وساعد على ذلك ، اتخاذ الدول الثلاث الحاكمة ، اللغة العربية لغة رسمية لها ، كما فعل المرابطون والموحدون قبلها . الا ان هذا لا ينفي بالطبع ، بقاء بعض جيوب صغيرة محدودة لا يزال يتكلم سكانها اللغة الامازيغية .

٤ــ الاستقرار النسبي للمجتمع المغربي ، فمنذ التغريبة الهلالية ، وعهد المرابطين ، ولقرنين من الزمن ، تغيرت الطبقة الحاكمة ، عدة مرات في الديار المغربية ، وكان التغير كاملا . ولكن ما ان استقر الامر للحفصيين ، والمرينين ، والزيانيين ، في منتصف القرن السابع الهجرى / منتصف الثالث عشر الميلادى ، حتى اصبح القادة السياسيون يؤخذون من ضمن الفئات القابضة على السلطة ، ومن رؤساء

القبائل العربية . كما ان الطبقات الوسطى في المدن مكنت لنفسها ، وثبت الى حد كبير مقام الفلاحين على اراضيهم .

الا انه يجب الا تنسى " الهجرة الاندلسية " الى بلاد المغرب ، في هذه المرحلة من الزمن . فقد تدفقت اعداد كبيرة من الاندلسيين الى جميع اجزاء المغرب ، فرارا من التقدم الاسباني ، واجتياحه للمدن الاندلسية . وقد عمل سكان المدن من الاندلسيين ، على دعم بورجوازية المدن في بعض مدن المغرب التي اقاموا فيها .

٥ــ تتابع النشاط الفكري الذي كان متألقا في عهد الموحدين . فقد انشئ عديد من المدارس ، في تونس ، وتلمسان ، والمغرب (فاس ، سلا ، مراكش ، ومكناس) ، كما عمرت المساجد ، وشجع الدور التعليمي لبعضها ، كجامع الزيتونة . وقد سعى حكام المغرب العربي ، ولا سيما المرينيون ، لدعم الاسلام السني على المذهب المالكي ، ولعلهم ارادوا بذلك الوقوف في وجه انتشار " الطرق الصوفية " وبصفة خاصة في الارياف ، تلك الطرق التي اخذت طريقها الى المغرب اثناء الفترة الاخيرة من حكم الموحدين ، على شاكلة ما كانت عليه في المشرق العربي . الا ان هذا التيار كان قويا ، واستأثر باهتمام العامة في الارياف ، ولذلك فانه تابع تغلغله في بنية الفكر المغربي ، في هذه الحقبة من الزمن ، هذا في الوقت نفسه ، الذى نشطت فيه العلوم الاسلامية ، والمذهب المالكي . وقد رأت المغرب في هذه المرحلة عديدا من علماء التفسير ، والحديث والفقه ، كما ظهر في ارجائها كثير من المؤرخين والجغرافيين ، وكتاب الرحلات ، والشعراء ، وغيرهم من اصحاب الفكر والمعرفة . الا انه يلاحظ على انتاجهم الفكري ، بشكل عام ، طابع التقليدية ، الذى اشير اليه سابقا عند الكلام عن النشاط الفكري في المشرق العربي ، في هذه الحقبة من الزمن ، ما عدا اللهم ذلك الانتاج الابداعي الضخم الذى قدمه المؤرخ الكبير " ابن خلدون " الاندلسي الاصالة ، والتونسي المنشأ . او بتعبير آخر ، افتقد ذلك الانتاج الفكري عنصر الابداع ، الذى كان من سمات عهد الموحدين . والشيء نفسه يمكن ان يقال عن فن العمران .

٦ــ الغزو الاوربي لبلاد المغرب العربي ، وقد يكون هذا الامر من اهم الظاهرات في تاريخ المغرب العربي في هذه الحقبة . فالاوربيون لم يظهروا في بلاد المغرب

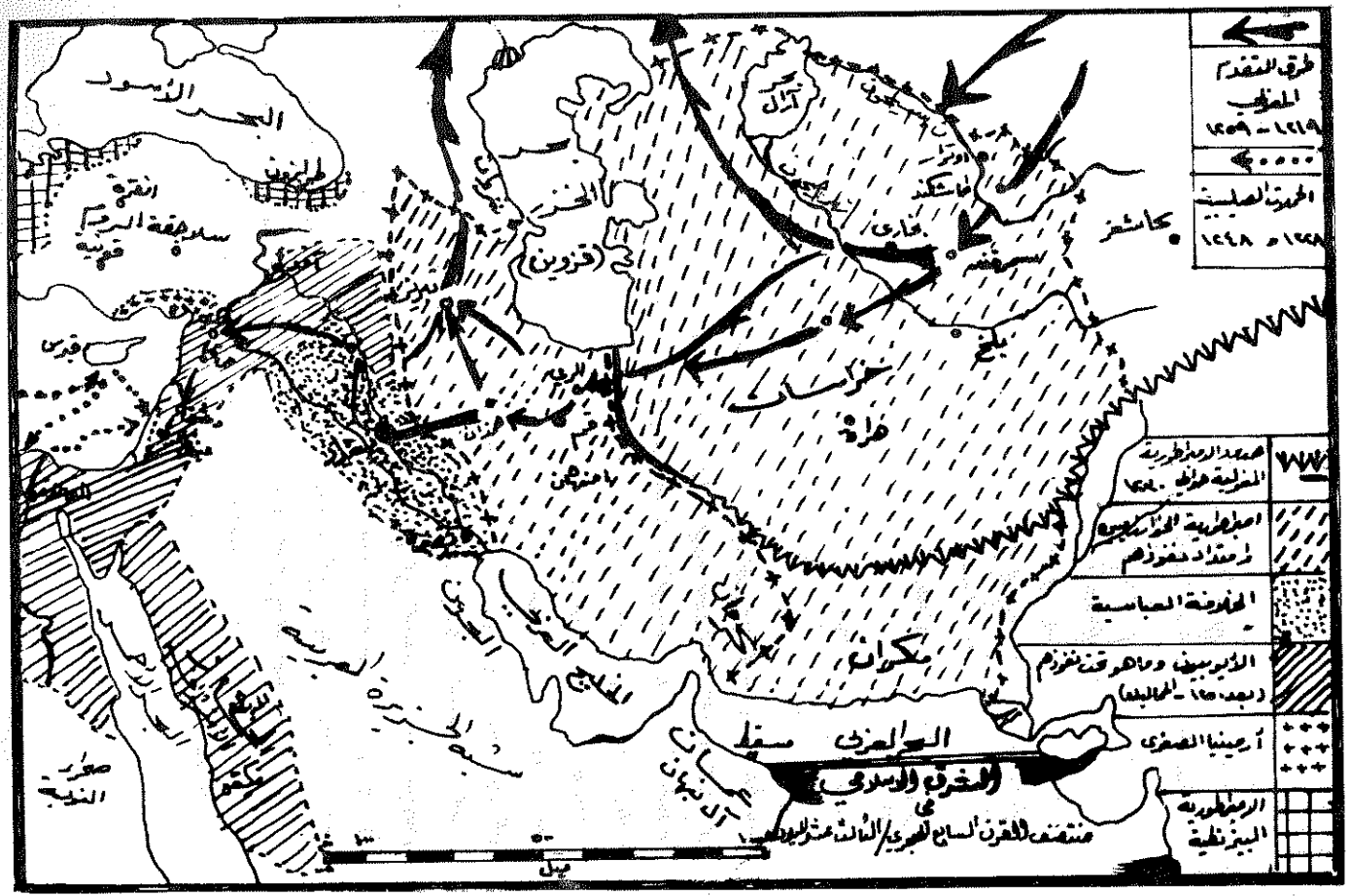
العربي الا في اواخر القرن الخامس الهجري / الحادى عشر الميلادي ، وذلك بصفتهم تجارا ، ومعظمهم كان وافدا من ايطاليا . اما في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، فقد تعرضت بلاد المغرب ، كما تعرض المشرق العربي ، لهجوم صليبي اوربي ، ممثلا بنورمندي صقلية ، بقيادة " روجر الثاني " ، اذ حاول هؤلاء ، ان يكون لهم موطئ قدم في المغرب ، لاهداف اقتصادية ، وعسكرية ، وسياسية ، الا انهم باؤوا بالفشل ، بفضل رد الموحدين العنيف . ولكن ما ان تسلم هؤلاء الموحدون السلطة في تونس ، حتى سمحوا للتجار الاوربين بالاقامة فيها . وفي مطلع القرن السابع / الثالث عشر ، استخدم الخلفاء الموحدون ، جنودا مرتزقة من الاوربيين النصارى ، وبصفة خاصة من الاسبان . هذا بينما كان المبشرون الدينيون ، الفرانسيسكان ، والدومنيكان ، يتسربون الى المغرب للتبشير بالدين المسيحي . ولما زالت الدولة الموحدية ، فان تلك الظاهرة تفاقمت ، فبالاضافة الى التجار ، والجنود المرتزقة ، والمبشرين ، ارسلت عدة دول اوربية ، حملات مسلحة لاحتلال مراكز مختلفة على الشاطئ المغربي . ولم تفلح أى من تلك الحملات في تحقيق غرضها بشكل دائم ، حتى جاء احتلال البرتغاليين لسبتة والقصر الصغير ، وطنجة ، وارزيلا ، وغيرها من المواقع على الساحل الغربي للمغرب الاقصى ، في القرن التاسع الهجري الخامس عشر م .

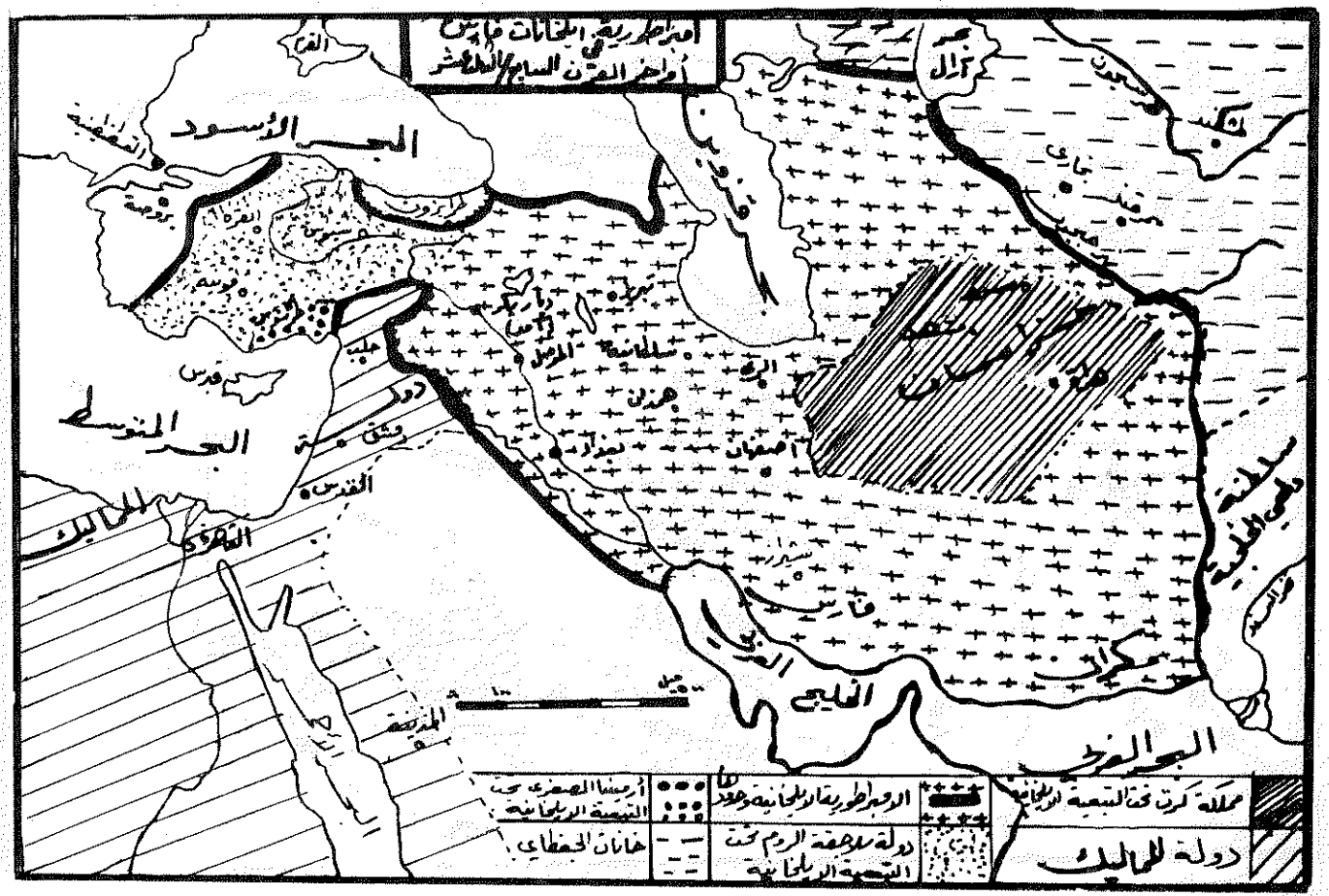
ومثلما لم تفلح الحملات العسكرية ، فان التبشير الديني لم ينجح ، وانتهى امر كثير من المبشرين بالقتل . اما الدور الذى لعبه الجند المرتزقة من الاوربيين فعلى الرغم من اسهامه في بلبلة الوضع السياسي ، الا انه على ما يبدو لم تكن له نتائج هامة لصالح اوربا . ولكن المشروعات التجارية كانت هي التي حققت اكبر نجاح للاوربيين ، حتى ان التجارة البحرية للمغرب العربي ، في القرن التاسع / الخامس عشر ، كانت بيد الاوربيين ، وبصفة خاصة منهم الايطاليين ، والكاتالانيين والى حد ما البرتغاليين والبرفنسيين . ويبدو ان عملهم التجاري لم يقتصر على الاستيراد والتصدير فحسب ، بل على دفع حركة النقل عبر الصحراء قدما ، ولصالحهم فقد كانوا يتاجرون بالتبر ، والعاج ، والجلود ، والعبيد ، وكلها كانت تأتي عبر طريق الصحراء .

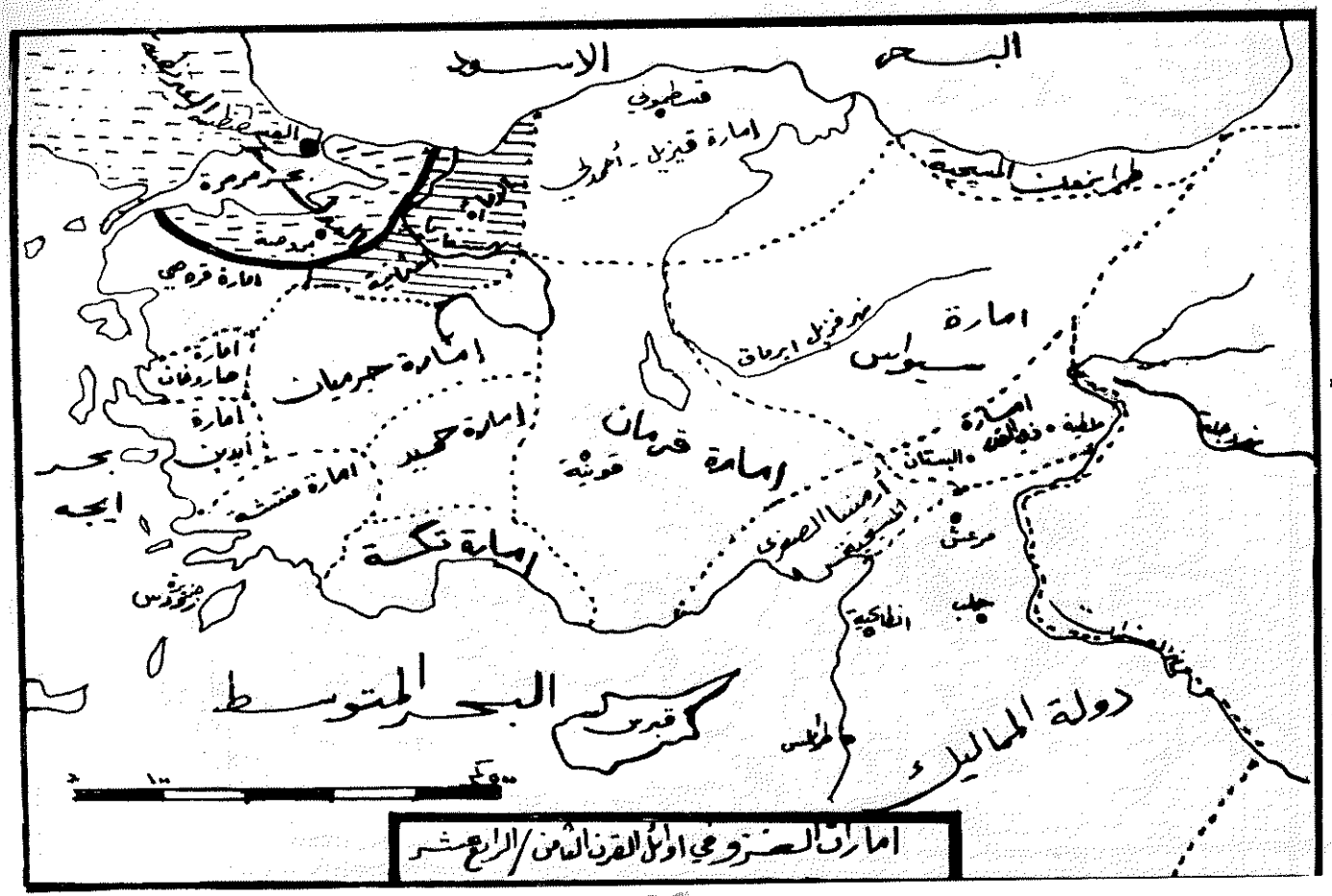
واذا كان الغزو الاوربي لبلاد المغرب العربي لم يحقق نجاحا كبيرا في هذه المرحلة في المغرب الافريقي ،الا انه وصل الى غايته في "المغرب العربي الاوربي" اى في "بلاد الاندلس" . فمن المعروف ان معركة "العقاب" (لاس نوڤاس دو طولوزا) التي خاضها الخليفة الموحدي (الناصر) في ١٤ صفر ٦٠٩ هـ / ١٦ تموز ١٢١٢ م ضد القوى الاسبانية المسيحية المتحالفة ، والتي انهزم فيها ، كانت آخر امل للمسلمين في تقوية اوضاعهم في الاندلس بمساعدة المغرب . اذ بعد الناصر ، تفكك حكم الموحدين في الاندلس ،واخذت المدن العربية الاسلامية تقع الواحدة منها بعد الاخرى ، بيد الاسبان . وسمى الاسبان حربهم هذه ضد المسلمين بـ " حرب الاسترداد Reconquesta " وجاء توحيد تاجي مملكة ليئون ، وقشتالة ، الاسبانيتين المسيحيتين ليكون دعما قويا لحرب الاسترداد . فتقدم "فرديناند الثالث" لمهاجمة وادي المجرى الادنى لنهر (الوادي الكبير) ،وسقطت مدينة "اشبيلية" المسلمة عام ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م وتبعتها مدن اخرى ، ولم يبق بيد العرب المسلمين سوى (مملكة غرناطة) التي كان يحكمها (بنو نصر) .

واعلن " محمد بن يوسف نصر " وهو احد عرب "بني الاحمر" نفسه ملكا في ٢٥ ذى العقدة ٦٢٧ هـ / ٥ تشرين الاول ١٢٣٠م ، وكوّن الاسرة الحاكمة التي بقيت على عرش مملكة غرناطة حتى ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م . وقد عملت هذه الاسرة على الاستنجاد ببني مرين في المغرب الاقصى . وقد استطاع هؤلاء من الحاق الهزيمة بالاسبان في الربع الاخير من القرن الثالث الميلادي / السابع الهجري . الا ان العلاقات بين بني نصر والمرينيين لم تكن دائما حسنة ،بل كانت بين مد وجزر ،وكان الطرفان يتداخلان في الشؤون الداخلية لبعضهما بعضا ،والمنافسات بين الاسرتين على اشدها . وساعد على ذلك النزاع بين افراد الاسرة النصرية للوصول الى العرش ، مما اضعف هذه المملكة العربية ، وجعلها تعيش في دوامة من المؤامرات كان من ضحاياها البارزين ، الوزير الاديب المعروف "لسان الدين بن الخطيب" الذي ألزم على الفرار من غرناطة الى مراكش حيث قتل على يد اعوان سلطانها " محمد الخامس" في ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م .

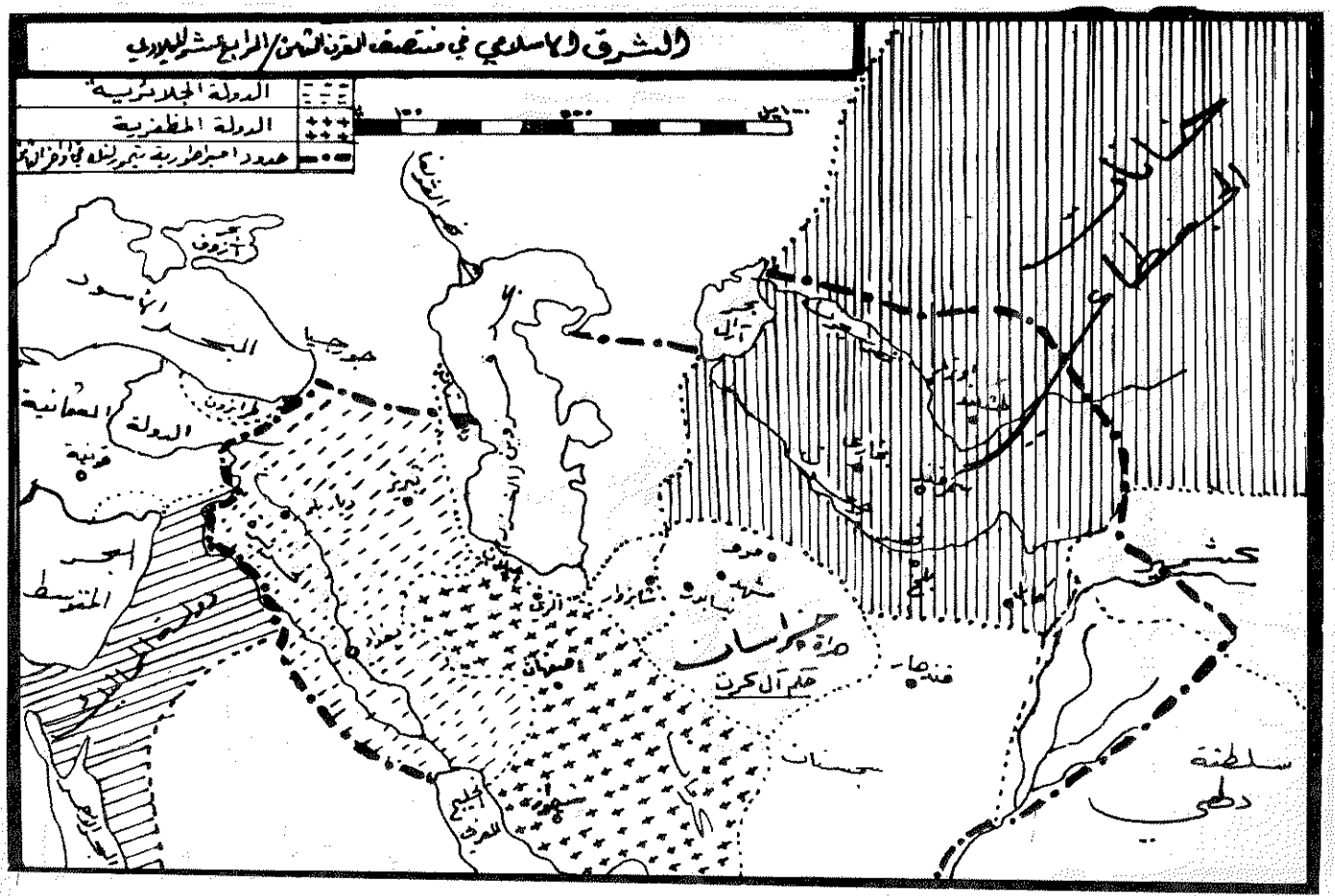
وبتتويج "فرديناند الثاني" ملكاً على (الاراغون)، و"ايزابيلا" ملكة على (قشتالة)، ابتدأت مأساة (مملكة غرناطة العربية) ففي عام ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م، وقد توحد عرشا اراغون وقشتالة بزواج فرديناند وايزابيلا، قامت تلك الحرب الطويلة والصعبة، التي دامت عشر سنوات، بين غرناطة والملكين الكاثوليكيين وكان من الممكن ان تدوم مدة اطول لولا المنازعات الداخلية بين افراد الاسرة الحاكمة في غرناطة، والتي كان اطرافها "محمد الحادي عشر ابو عبد الله"، وابيه "علي ابو الحسن" وعمه "محمد الثاني عشر الزغل". فقد توصل "ابو عبد الله" الى اتفاق مع فرديناند وايزابيلا، على تسليم غرناطة عندما يسلّم "الزغل" نفسه اليه. وقد كانت (غرناطة) آنذاك افضل المدن تحصينا في العالم، الا انه مع ذلك فضّل المقاومة حتى النهاية. وللسيل المتدفق من المهاجرين، وقلة المؤن، وتسرب انباء بنود التسليم، والثورة التي قامت وهددت حياته بالخطر، دفعته الى الاسراع بالتسليم. ودخل الملكان الكاثوليكيان المدينة باحتفال كبير في ٢ ربيع الاول ٨٩٧ هـ/ جانفيه ١٤٩٢ م، وبذلك اسدل الستار على السيادة العربية الاسلامية في شبه الجزيرة الايبرية التي دامت ٧٨٠ سنة.

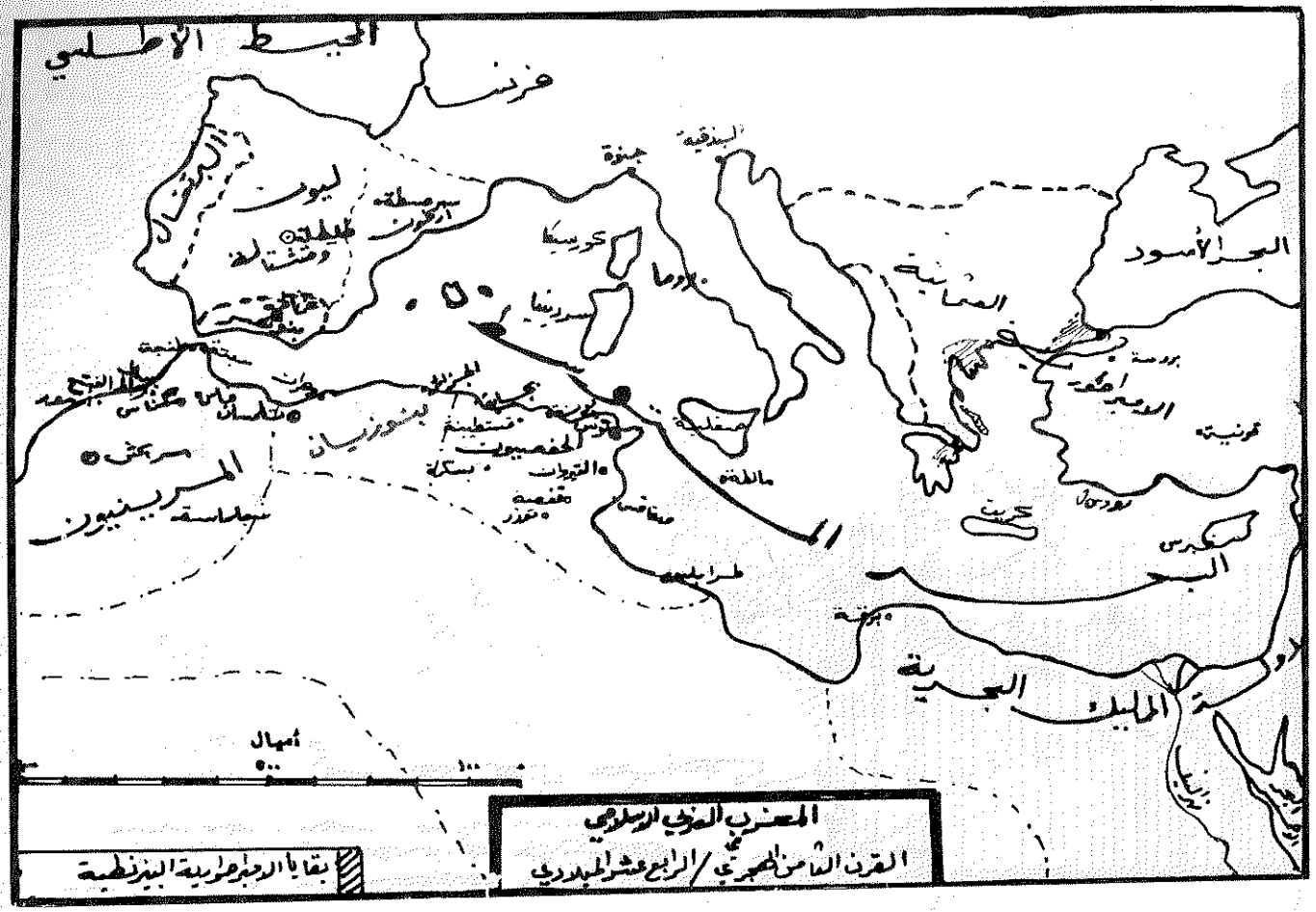

طرق التقدم المغولي ١٢١٩ - ١٢٥٩
الحملة الصليبية ١٢٤٨ - ١٢٤٨
البحر الأسود
بحر قزوين
(قزوين)
بخارى
سمرقند
بلخ
هراة
بغداد
بلاد الرافدين
سلاجقة الروم
الأيوبيين وما تبقى من نفوذهم (بعد ١٢٥٠ - الحالية)
أرمينيا الصغرى
الإمبراطورية البيزنطية
بحر العرب
سلطنة عمان
صنعاء اليمن
ميل


أهم الطرق في الخانات خلال
أواخر القرن السابع/الثالث عشر
البحر الأسود
البحر المتوسط
الممالك
الفرات
دجلة
حلب
دمشق
القدس
المدينة
بغداد
أصفهان
شيراز
هرمز
البحر العربي
الخليج العربي
البحر الأحمر
مملكة كرمان تحت التبعية الإيلخانية
دولة المماليك
الإمبراطورية الإيلخانية وحدودها
دولة سلاجقة الروم تحت التبعية الإيلخانية
أراضي الصفر تحت التبعية الإيلخانية
خانات الجغطاي



امارات الشرق في اوائل القرن الثامن / الرابع عشر


الشرق الاسلامي في منتصف القرن الثامن / الرابع عشر الميلادي
الدولة الجلائرية
الدولة المظفرية
حدود امبراطورية تيمورلنك في أواخر أيامه
البحر الأسود
الدولة العثمانية
البحر المتوسط
الخليج العربي
سلطنة دلهي


المحيط الأطلسي
فرنسا
البرتغال
ليون
قشتالة
طليطلة
سرقسطة
جنوة
كورسيكا
سردينيا
روما
البندقية
البحر الأسود
الدولة العثمانية
بورصة
القسطنطينية
مورنيتة
مراكش
المرينيون
بجاية
تلمسان
بني عبد الواد
بنو حفص
تونس
الحفصيون
التيجان
بسكرة
قفصة
قسنطينة
مالطة
صقلية
طرابلس
برقة
البحر
البحر الأحمر
دولة المماليك الجركسية
الأميال
المغرب العربي الإسلامي
القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي
بقايا الإمبراطورية البيزنطية

— ٥٣ مكرر —

الفصل الثاني

الدولة العثمانية وامبراطوريتها ونظمها

ان " الامبراطورية العثمانية " من اكبر الامبراطوريات الاسلامية الاخيرة . وقد بدأت حياتها بعد سقوط بغداد بيد " هولاكو التتري " بما يقارب نصف قرن تقريبا ، وامتدت على غرار " الدولة العربية الاسلامية " على رقعة شاسعة ، في القارات الثلاث ، آسيا ، واوربا ، وافريقيا . وعاشت ما يزيد عن ستة قرون ، حكمها خلالها (٣٦) ستة وثلاثون سلطانا ، وادعت في مرحلة حياتها الاخيرة انها تمثل " الخلافة الاسلامية " واحتوت القسم الاعظم من البلاد العربية لاربعة قرون تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك آنفا في المقدمة . ومن ثم كان لا بد من تعرّف هذه الامبراطورية الاسلامية ، ونظمها ، وسياق حياتها ، لتعرف انعكاساتها على تاريخ البلاد العربية .

أولاً - نشأة الدولة العثمانية وتكون إمبراطوريتها

يقسم المؤرخون عادة ، حياة هذه الامبراطورية التركية الاسلامية ، الى خمس حقب ، بحسب نشأتها ، وقوتها وضعفها

الحقبة الاولى : وتمتد من (٧٠٠-٨٠٤ هـ/ ١٣٠٠-١٤٠٢ م) .

الحقبة الثانية : واستوعبت من الزمن ما يزيد عن قرن ونصف (٨٠٤-٩٧٤ هـ/ ١٤٠٢-١٥٦٦ م) .

الحقبة الثالثة : وتمتد اقل من قرن ونصف بقليل (٩٧٤-١١١٥ هـ/ ١٥٦٦ - ١٧٠٣ م) .

الحقبة الرابعة : وتعادل في مدتها الزمنية الحقبة السابقة تقريبا ، وامتدت من (١١١٥ - ١٢٥٥ هـ/ ١٧٠٣-١٨٣٩ م) .

الحقبة الخامسة " وامتدت اقل من قرن (١٢٥٥–١٣٤١ هـ/ ١٨٣٩–١٩٢٢ م) وانتهت بسقوط الدولة العثمانية .

الحقبة الاولى من تاريخ الدولة العثمانية (٧٠٠–٨٠٤ هـ/ ١٣٠٠–١٤٠٢ م)

وتحتوي ميلاد " الدولة العثمانية " وفتوحاتها الاولى في اوربا وآسيا ، وتمتد حتى غزو "تيمورلنك" التتري لها ، وانحلالها الموقت . وقد حكمها خلال هذه الحقبة اربعة سلاطين هم " عثمان الاول " و " أورخان " ، و " مراد الاول ، و"بيازيد الاول" .

شجرة نسب سلالة بني عثمان
خلال الحقبة الاولى

سليمان (المتوفى ٦٢٦ هـ/ ١٢٣١ م)

أرطغرل (توفي ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م)

عثمان (٦٨٨–٧٢٦ هـ/ ١٢٨٩–١٣٢٦ م)

أورخان (٧٢٦–٧٦٣ هـ/ ١٣٢٦– ١٣٦٢ م)

مراد الاول (٧٦٣–٧٩١ هـ/ ١٣٦٢– ١٣٨٩م)

بيازيد الاول (٧٩١– ٨٠٥ هـ/ ١٣٨٩– ١٤٠٢ م)

نشأة الدولة وفتوحاتها الاولى :على الرغم مما ذكر سابقا من ان " الدولة العثمانية " في نشأتها الاولى كانت واحدة من " امارات الغزو " ، او " امارات الجهاد " ، في منطقة الثغور الشمالية الغربية في آسيا الصغرى ، وعلى الرغم من جميع الدراسات الحديثة ، التي قام بها المؤرخون المعاصرون ، من اتراك وغربيين ، حول نشأة هذه الدولة ، فان هناك بعض الامور لم تزل غامضة حول انبثاقتها الاولى. فالمصادر العثمانية هي نصف اسطورية ، وعنها نقلت المصادر العربية والاجنبية . وترجع تلك المصادر اصول الدولة العثمانية الى قبيلة تركمانية ، يقدر عددها بخمسين ألفا ،

هاجرت من جنوبي بلاد ما وراء النهر تحت ضغط زحف " جنكيز خان " ،ونزلت عند المجرى الاعلى لنهر الفرات بين (ارزنجان) و (خلاط) (على بحيرة وان) شرقي آسيا الصغرى ،في عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م . وكان على رأس تلك القبيلة التركية ،زعيمها " سليمان " . وهو بحسب الرواية ،والد " ارطغرل " ،وجد "عثمان " ،الذى نسبت الدولة العثمانية اليه . وتربط الرواية ،" سليمان" هذا في نسبه الاول ، بأوغوز خان ،وقومه (الغز) ، الذين كانوا اصحاب قوة وبأس في آسيا الغربية ،في القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد . وقد حاولت تلك القبيلة التركية المهاجرة ان تعود الى وطنها الاصلي في جنوبي بلاد ما وراء النهر ، بعد ما علم زعيمها بوفاة جنكيز خان ، وبهزيمة "خوارزم شاه " على يد سلاجقة الروم . الا ان "سليمان "(١) غرق في نهر الفرات عند (قلعة جعبر) في الاراضي السورية ،في عام ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م . وكانت وفاته المفاجئة سببا في انقسام قبيلته على نفسها ، فقسم منها عاد الى موطنه الاول ،وقسم هاجر الى بلاد الشام ،وقسم ثالث بقي في آسيا الصغرى يعيش حياة رعي وتنقل .

وتظهر الرواية التركية " ارطغرل " وهو احد ابناء سليمان الاربعة ،زعيما للجماعة التي قررت البقاء في آسيا الصغرى ، وانه اخذ يبحث عن مكان اكثر أمنا ، وخصبا ،في " مملكة سلاجقة الروم " في الاناضول ، وكان سلطان هؤلاء آنذاك "علاء الدين الثاني " . وسنحت له فرصة مواتية ، عندما هدد المغول مملكة " علاء الدين " ،اذ انقذه " ارطغرل " من موقف حربي صعب ،فاصبح ساعده الايمن ،ودخل في خدمته ،اميرا اقطاعيا . واشارت الرواية الى ان (الاقطاع) الذى منح له ،كان مراعي التلال في" دومانيج Domaniç ،وفي سهل الصفد Soğüd

---

(١) انظر نقد المؤرخ "ويتيك P. Wittek للرواية العثمانية عن" سليمان". فقد بيّن ان شخصية سليمان شخصية خرافية ،اختلط فيها هذا الاسم مع اسم " سليمان قطلمش "،الذى بعث به الاتراك السلاجقة من بغداد الى الاناضول لتنظيم امر الغزاة وفتوحاتهم في بلاد الروم في الربع الاخير من القرن الخامس / الحادي عشر م .
The Rise of The Ottoman Empire, P. 19-23

الى الشمال الغربي من آسيا الصغرى ،قريبا من نهر سقاريا ،وعلى الحـــــدود المتاخمة للدولة البيزنطيـــة .

وعند وفاة " ارطغرل " عام ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩ م ،عيّـن السلطان "علاء الدين" ابنه " عثمان " خلفا له . وتسند الرواية البناء الاول للدولة الى ".عثمان " هـــذا وتصوّره " غازيا " على النمط التقليدي الذى اشرنا اليه في (امارات الغزو) . أى بطلا من ابطال الجهاد ،والذي عـــن دين الاسـلام . كما تؤكد ان احـــد كبار المتصوفة او " الدراويش" ،وهو " اده بالي " ،باركه ،وقلده سيف الجهاد ، وبذلك منحته الهيئة الدينية اعترافها به "غازيـــا " .

وفي الحقيقة ، كان عهد "عثمان " (٦٨٧—٧٢٧ هـ/ ١٢٨٩—١٣٢٦ م) هو عهد التأسيس الاولي والبهام للدولة العثمانية ،اذ تمت فيه امور ثلاثة رئيسية :

١— انتهت حالة تبعية الدولة العثمانية للسلطان السلجوقي . فقد قضى المغـــول نهائيا على "دولة سلاجقة الروم" في (قونية) حوالي ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م . ولـــم يسعوا بالتالي نحو مد سلطتهم الى شمالي غربي آسيا الصغرى ،حيث تقـــوم دولة بني عثمان . فالميلاد الحقيقي للدولة العثمانية يمكن ان يحدد اذ أفي فترة قصيرة تلي عام ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م ،حيث غدا " عثمان " اميرا مستقلا عن كـل تبعيـــة .

٢— تم توسيع حدود الامارة بضم عدد من الحصون والمدن الى الاقطاع السابـق ، عبر (حرب جهادية) ، حارة ومستمرة ضد الدولة البيزنطية . وقد انضم اليه في حربه المقدسة ،عديد من المسلمين المجاهدين ،الذى تدفقوا الى امارته ، من كل قبيلة تركية ،واقليم،في آسيا الصغرى . وكانت روح الحماسة للجهـــاد التي تملأ نفوسهم ،عاملا هاما في الانتصارات التي احرزها . وقد نظمهـــم " عثمان " على شكل (اخوات المتصوفـــة) .وكان كل تصريحزه " الغزاة " في هذه الامارة ، يشجع "الغزاة " في الامارات الاخرى ، للوفود اليها والمشاركة بالجهاد ،فتقوى بذلك امكاناتها العسكرية وتزداد اندفاعا ،ونجاحا . وقـد ساعدها على النصر ايضا ،الحالة السيئة التي وصلت اليها الحصون البيزنطية ، والمعنويات المتدهورة لحاميتها ، وتحالف بعض النبلاء البيزنطيين مع عثمان ،

واعتناقهم الدين الاسلامي . وقد ركز "عثمان" حملاته على الحصون البيزنطية غرب نهر سقاريا ، وتلك القريبة من بحر مرمرة . وقد استولى على (قراجه حصار) وجعلها عاصمة له ، وحول كنيستها الى مسجد ، ولم يلبث ان اقطعها لابنه " اورخان " ، ساعده الايمن في غزواته ، ونقل العاصمة الى (يني شهر) . ومنها تابع غزواته حول (نيقية) او (ازنيق) التي كانت اهم حصن بيزنطي على الحدود ، و (بروصة) اقوى المدن مناعة في آسيا الصغرى . وقد حمل " اورخان " لابيه ، وهو على فراش الموت ، نبأ فتح المدينة الاخيرة في عام ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م . وقد جعلها اورخان بعد توليه الحكم بعد ابيه عاصمة لدولته .

٣ـ سعى عثمان خلال حكمه ، لتنظيم دولته الوليدة اداريا ، واقتصاديا ، واجتماعيا. وساعده على ذلك انه انجذب الى امارته ، عديد من الحرفيين ، والتجار ، المنتظمين ضمن النقابات الحرفية المعروفة بالاخيات ، التي كانت على نمط (اخوات المتصوفة) . كما وفد اليها العلماء من انحاء العالم الاسلامي . وكان وقوعها على الطريق الرئيسة الموصلة بين القسطنطينية والعالم العربي الاسلامي في المشرق ، ومدنه الكبرى في الشام والعراق ، عاملا هاما في تدفق تلك الفئات الاجتماعية اليها . وقد استفاد "عثمان" منها كلها ، فاستخدم الغزاة محاربين ، والاخي الحرفيين في النشاط الاقتصادي ، والفقهاء في الفعاليات التعليمية ، والثقافية ، حيث كونوا " طبقة العلماء " في الدولة الناشئة . والى جانب " طبقة العلماء " قامت ايضا فرق " الدراويش" او "المتصوفة" ، وكان لهم نفوذهم في وحدات الجيش ، وبين الحرفيين والتجار ونقاباتهم ، وبين افراد الشعب . وقد رعى "عثمان" ومن اتى بعده من السلاطين ، هذه الفرق وشجعوا على اقامة الزوايا ، والمطابخ الخيرية للفقراء .

وكان حكم [" اورخان "] (٧٢٧–٧٦٣ هـ/ ١٣٢٦–١٣٦٢م) امتدادا لحكم ابيه ، فقد تابع عمليات الجهاد . وسعى امبراطور بيزنطة كي يكون على علاقات طيبة معه ، وزوّجه من ابنته . واستسلمت له مدينة (نيقية) عام ٧٣١ هـ/ ١٣٣١ م ، ومدنا أخرى . والحق به امارة الغزو (قره صي) عام ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥م . وبذلك

وجد العثمانيون انفسهم بمواجهة اوربا مباشرة . ودخل غزاة هذه الامارة في خدمة اورخان ، وشجعوا ابن هذا الاخير ، " سليمان " على مد فتوحاته الى (البلقان) ،التي اطلق عليها الاتراك اسم (روملي) . وفي عهد " اورخان" تم اجتياز الجيوش العثمانية الارض الآسيوية الى اوربا ،واتخذت نقطة استناد لها فيها . فقد استنجد الامبراطور البيزنطي " يوحنا السادس كانتاكوزين " ، باورخان ،ليدعمه في الوصول الى العرش ، واستجاب " اورخان " للنداء ،وبذلك انفتحت آفاق بلاد البلقان امام " الغزاة " العثمانيين ،ولا سيما عندما احتلوا قلعة " جنبي Tzympe " واتبعوها بقلعة (غاليبولي) نفسها ،التي عملوا على تحصينها ،وجعلها مع بعض الحصون الصغيرة الاخرى ،الحد الغربي للدولة الناشئة ،على الارض الاوربية ، وقاعدة للغزاة ،ينطلقون منها . بل ان " مراد ابن اورخان " ، استطاع ان يهاجم (ادرنة) ، ويستولي عليها عام ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م .

ويعزى الى " اورخان " انشاء بعض المؤسسات الهامة ، وتنظيم اخرى . فالى زمنه يسندون اصدار (النقد الفضي العثماني) المسمى بـ (الاقجة) (اى القطعة البيضاء) ، او (الاسبر) ، الذى سك على نمط النقد البيزنطي . وبذلك اثبتت الدولة الوليدة مرة اخرى استقلالها السياسي ،والاقتصادى .وكذلك (تنظيم الجيش) ،وتكوين فرق المشاة الجديدة التي دعت " بالانكشارية"(١) او " يني شاري " اى العسكر الجديد ، وان كان هذا الامر يعزى كذلك الى "مراد الاول " بن اورخان .

واهتم اورخان ايضا بتجميل العاصمة (بروصة) -التي لاتزال تحتفظ حتى اليوم بطابعها العثماني -وبتشجيع الحياة الثقافية . وقد زودها بالمدارس ،والخانات والحمامات .

---

(١) انظر حول الانكشارية :ليلى الصباغ "الجديد في العسكر الجديد" . في مجلة الفكر العسكري . دمشق . العدد ٣ و ٤ شوال ١٣٩٦ / ايلول ١٩٧٦ . ص١٨٨ — ١٠٦ ،وذو الحجة ١٣٩٦/ كانون الاول ١٩٧٦ . ص(٧٣ — ٨٨) .

ويتميز حكم "مراد الاول" (٧٦٣-٧٩١هـ/ ١٣٦٢-١٣٨٩ م) بأنه نجح في ايجاد نواة امبراطورية في (الاناضول) ،و (الروملي) ، مئونة من مجموعة (امارات تابعة) . فبعد ان اخفق الامبراطور البيزنطي في الحصول على مساعدة البابا ،والدويلات الايطالية ،في مقاومته للعثمانيين ،وبعد انهزام تحالف الامراء الصربيين امام القوة العثمانية ،في ٧٧٣ هـ/ ١٣٧١ م ،اعترف الامبراطور ، وحكام البلقان ،بتبعيتهم للدولة العثمانية . وقد تمكن "مراد الاول" ، بعد ان جعل ادرنة عاصمة له ،ان يخضع (تراقيا) كلها ،و (مقدونيا) ،وان يحتل (صوفيا) ،وان يخترق (بلاد الصرب) . وقد ساعده على احراز تلك الانتصارات الضعف الذي انتاب دول البلقان ،والانقسامات فيما بينها ،ونقمة الفلاحين على الاقطاعيين ، وترحيبهم بالعثمانيين .

ولم يكتف "مراد الاول" بالتوسع في بلاد البلقان ،ودعم النفوذ العثماني فيه ، بل سعى ايضا للتوسع في (الاناضول) . ففي ٧٥٥ هـ/ ١٣٥٤ م استولى على (انقرة) ،وكانت مركزا اقتصاديا وسياسيا هاما . وكان هذا بداية التوسع العثماني في (العالم الاسلامي) .

وجوبه "مراد الاول" على الارض الاوربية بتحالف بلقاني من الصرب، والبلغار ، وجرت (معركة قوصوه) بينه وبينه ،(في ١٩ جمادى الثانية ٧٩١ هـ/ ١٥ حزيران ١٣٨٩ م) ، كان النصر فيها حليف العثمانيين . الا ان السلطان مراد قتل في المعركة من قبل احد الصربيين .

وخلف "مراد الاول" على العرش ابنه "بيازيد الاول" (٧٩١-٨٠٤ هـ / ١٣٨٩-١٤٠٢ م) الذي افتتح عهده بحربه لبكوات الاناضول الذين ثاروا عليه . وخلال سنة ،احتل ما تبقى من (امارات الغزو) في غربي الاناضول ،والحقها بامبراطوريته . اي امارة (ايدين) ،و (صاروخان) ،و (منتشه) ،و (حميد) و (جرميان) . واجبر امير (قرمان) على طلب الصلح ،وطرد امير (قسطموني) وضم املاكه للدولة ،واصطدم مع امير (سيواس) .

ثم عاد الى (بلاد الروملي) حيث تفشى التمرد ضد حكمه وحارب "الرومان" وضم اليه مقاطعة (فلاشيا) اي (الافلاق) ،وهدد (المجر) . فاستغاث

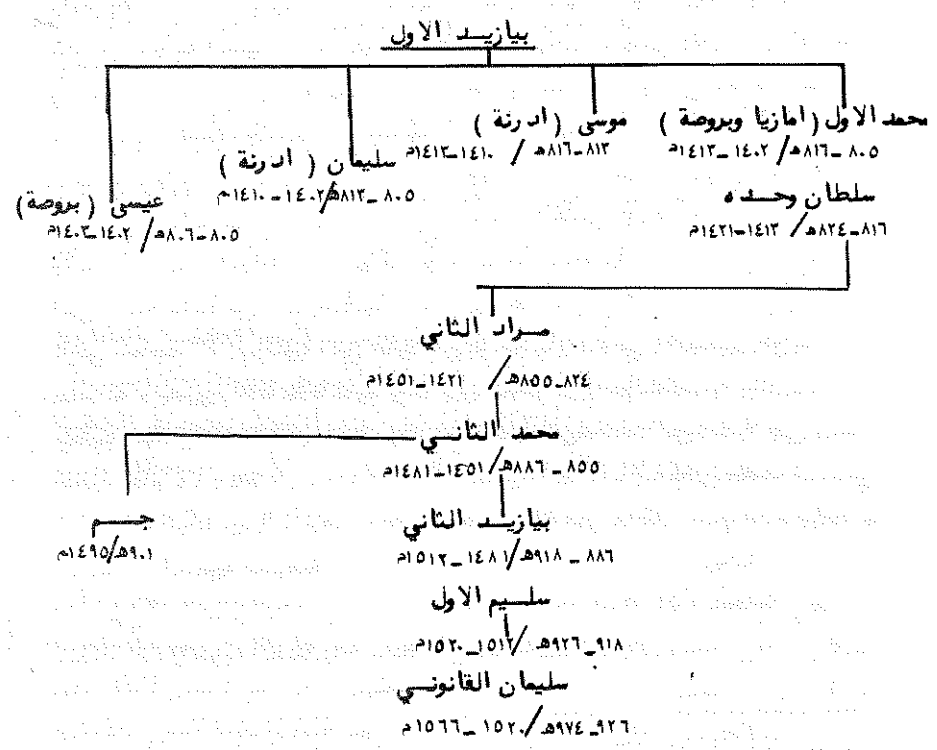
ملكها " سيغسموند " بالعالم الاوربي المسيحي . وتطوع فرسان المانيا ،وبوهيميا ، وفرنسا ،وبولونيا ،في جيشه . وايده البابا في كل من (روما) و (افينيون) وتلاقت هذه (الحملة الصليبية) مع الجيش العثماني عند (نيكوبوليس) (٢١ ذى الحجة ٧٩٨ هـ/ ٢٥ ايلول ١٣٩٦ م) ،وكانت نصرا موزرا للعثمانيين . وتراءى لاوربا ،وهي تدق اجراس كنائسها حزنا ،ان الخطر الاسلامي التركي سيقتحم قريبا ابواب ايطاليا ،ولا سيما ان السلطان " بيازيد " الذى لقب بـ " الصاعقة " " يلدريم "، تابع حملاته على (اليونان) ، ووصل حتى (كورنثا) ،كما ضاعف ضغطه على القسطنطينية حتى ان الامبراطور ذهب بنفسه الى اوربا يستجدى نجدة صليبية لمساعدته . هذا وقد تمكن من القضاء على (امارة قرمان) في آسيا الصغرى، وكذلك على (امارة القاضي برهان الدين) حول (سيواس) واحتل عدة مدن من الارض المملوكية شمالي بلاد الشام ،كملطية والبستان ، واقترب شرقا من منطقة نفوذ " تيمورلنك ". وبينما كان يتحدى العالم الاسلامي كله ،فانه طلب من " الخليفة العباسي " في مصر ،اللقب الرسمي وهو لقب " سلطان الروم " بصفته الوريث الشرعي للمتلكات السلجوقية في الاناضول .

الا انه في هذا الوقت بالذات ، كان " تيمورلنك " يرفع رايته في الشرق ،ويدعي وراثته لجنكيز خان ومطامحه ، ويتقدم في ارض العالم الاسلامي ، ويعمل على فرض نفوذه على الاناضول ،وعلى بيازيد نفسه . وحدث الصدام بين الطرفين في (معركة انقرة) (٢٧ ذى الحجة ٨٠٤ هـ/ ٢٨ تموز ١٤٠٢) ، التي هزم فيها " بيازيد " ،ووقع اسيرا بيد " تيمورلنك " . واعاد تيمورلنك (امارات الغزو) في الاناضول الى سابق عهدها ، ومنحها حمايته ، وكانت هي التي حرضته وساعدته على بيازيد . كما انه ابقى ممتلكات الدولة العثمانية في اوربا ،واسيا ، لاولاد السلطان بيازيد .

وخلالها عادت الدولة الى بناء نفسها ،والى توسعها السريع في اوربا ،وآسيا ، وافريقيا . وقضت على الدولة البيزنطية ،وضمت الجزء الاكبر من الاقطار العربية ، وبلغت اوج توسعها . وحكم ستة سلاطين كبار هم : " محمد الاول " و " مراد الثاني "

و "محمد الثاني او الفاتح "أي فاتح القسطنطينية ،و "بيازيد الثاني"، و " سليم الاول "و " سليمان " الذى عرف بالقانوني "لما سنه من التنظيمات و القوانين ، كما عرف في اوربا ب " الفاخر " لقوة الدولة في عهده وازدهار حضارتها .

تسلسل سلاطين بني عثمان خلال الحقبة الثانية



لم تفت نكبة (انقرة) بعضد آل عثمان ،بل عطوا جاهدين لاعادة بناء دولتهم ،واستعادة قوتهم . وقد مروا بحرب اهلية طويلة دامت عشر سنوات تقريبا (٨٠٤ ـ ٨١٦ هـ/ ١٤٠٢ ـ ١٤١٣ م)، وكان ابطالها اولاد " بيازيد الاول " الاربعة. فقد طمع كل واحد منهم بالعرش لنفسه دون اخوته ، او ان تكون له على الاقل حصة من تلك الامبراطورية . وانتهى الصراع الاخوي عام ٨١٦ هـ/ ١٤١٣ م بانتصار

" محمد الاول بن بيازيد "على اخوته ، وقبضه على زمام الامر بحزم ،وتسنمه عرش السلطنة ،وتثبيت مفهوم (وحدة السلطنة) .

وصرف " محمد الاول " جهده (٨١٦-٨٢٤ هـ/ ١٤١٣-١٤٢١م) ،بعد سيطرته على الموقف في تدعيم سلطته ،فاتخذ (ادرنة) عاصمة دائمة للسلطنة ، وكأنه اراد ان يوضح لاوربا ، ان الدولة العثمانية ستبقى دولة اوربية ،وانها لن تنفك عن سياسة الجهاد ضد القوى البلقانية والبيزنطية . وشرع يتقرب من امراء (دويلات الغزو) في الاناضول ، واحل مفهوم الصداقة والود في علاقاته معهم ، بدل سياسة العنف والسيطرة ، وبذلك استمالهم اليه . وحتى يكسب تأييد عامة الاتراك ، والعلماء المسلمين ، فانه رعى حركة " الحاج بيرم "[1]وهي حركة ذات طابع صوفي ،اسسها " الشيخ بيرم " في انقرة (المتوفى٨٣٣هـ/ ١٤٢٩-١٤٣٠م) وكأنه اراد بهذه الرعاية ، ان يؤكد عودة الدولة العثمانية الى دعم الفرق الصوفية التي كانت اساسا من اسس نشأتها ، وان يرد على حركة " الشيخ بدرالدين بن قاضي سماونة " [2]،والثورة التي حاول ان يؤججها ضده في الاناضول بعن طريق مناداته ، بضرورة اقامة علاقات ود واخاء بين المسيحيين ،والمسلمين ،واليهود ، وتطبيق مبادىء اشتراكية بحتة . وقد تمكن السلطان محمد " من القضاء على هذه الحركة عام ٨١٩ هـ/ ١٤١٦ م ، الا ان جذورها ظلت باقية لقرن ونصف في " الفرقة البكتاشية " ، وبعض الطرق الصوفية الاخرى . كما انضم عدد من اتباعها للحركة " الصفوية الشيعية ".

ومع كل الصعوبات التي اصطدم بها " محمد الاول " فانه استطاع ان يلم شعث الامبراطورية العثمانية السابقة وان يعيد اليها الحياة .

---

(١) انظر حولها هيوار :"البيرمية". في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . مجلد ٤ .ص٣٨٩ . وطاشكبي زادة : الشقائق النعمانية . بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٥ . ص٣٦ (سيذكر مختصرا . الشقائق) .

(٢) انظر حوله " الشقائق . ص٣٣ . وبحث (كيسلنغ) J. Kissling : « Bedr ed din Ibn Kadi Samavna", dans Encyclopédie de l'Islam 2 ed. vol 1, P. 893-894

وخلف "محمد الاول" ابنه السلطان "مراد الثاني" (٨٢٤–٨٥٥ هـ/١٤٢١–١٤٥١ م) . وقد استعادت الدولة في عهده قواها ،وعاد الاوربيون الى عقد التحالفات لمقاومتها . وقضى على فتنتين داخليتين،تزعمهما اميران عثمانيان ادعيا حق وراثة العرش . وحاصر العاصمة البيزنطية "القسطنطينية" لخمسين يوما في ٨٢٥ هـ/ ١٤٢٢ م . وعاود هجومه في البلقان ،واحتل بلاد الصرب في ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩ م والحقها بالدولة العثمانية ،وحارب الهنغاريين ،وكانوا بقيادة بطلهم "جون هونيادي" . وقد استطاع هذا الاخير ان يكوّن حملة صليبية ،دخلها فرسان من فرنسا ،والمانيا ،وهنغاريا ،وبولونيا ،والبوسنة ،والافلاق ،والصرب . وامام هذا التكتل المسيحي القوي ، اضطر "مراد الثاني" ان يعقد هدنة السنوات العشرعام ٨٤٧ هـ/ ١٤٤٣ م ،التي غدا بها نهر الدانوب هو الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وهنغاريا .

وفي عام ٨٤٨ هـ/ ١٤٤٤ م ،قرر التنازل عن العرش لابنه "محمد" البالغ من العمر اثني عشر عاما .وشجع صغر سن السلطان الجديد ،وندا ءات البابا ، المجريين (ويسميهم العثمانيون الانكروس) ،على خرق الهدنة ،وتجديد الحملة الصليبية . فاسترجع مراد الثاني العرش ،والتقى بالجيش الاوربي المتحالف في (وارنة) على ساحل البحر الاسود ،والحق به هزيمة ساحقة في ٢٨ رجب ٨٤٨ هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١٤٤٤ م .

وفي الحقيقة ،كان عهد "مراد الثاني" عودة الى سياسة الفتوحات الواسعة في البلقان ،التي انتهجها قبله "بيازيد الاول" ،على الرغم مما يقال عن ميوله السلمية. كما كان عهده ،تمهيدا واستعدادا لفتح القسطنطينية ،اذ دعم الجيش الانكشاري ، وجعله اداة الحرب الاولى ، وتوسع في استخدام المدفعية واسلحة الرمي بالبارود، وانشأ شبكة من الاستخبارات ،تقدم له المعلومات عما يجرى في اوربا وبلاطاتها (١).

Kissling : "The Ottoman Empire to 1774" in: The Muslim World, vol. III, p.18

وجاء حكم السلطان "محمد الثاني" الملقب بـ "الفاتح" بعد ابيه "مراد الثاني"، استمرارا لسياسة الفتوحات السابقة، ولا سيما انه التفّت حوله حاشية تؤمن بالجهاد والتوسع. وقد دام حكمه ثلاثين سنة (٨٥٥-٨٨٦ هـ/ ١٤٥١ - ١٤٨١ م)، ولم يكن له من العمر عندما وصل ثانية الى السلطنة، سوى تسعة عشر عاما. وكان قد نال تربية رفيعة، ويعتبر هو وبعض السلاطين الاول السابقين من اصحاب الميول الفكرية والادبية، ولكنه كان يحب الانفراد بالسلطة وقاسيا. ومنذ ان وصل الى السلطنة فانه كرس جهده لفتح (القسطنطينية)، لانها كانت في الواقع مركز المؤمرات البيزنطية ضد الحكم التركي. وقد نسب الى "محمد الثاني" انه قال في الاجتماع الذي قرر فيه فتح القسطنطينية: "ان الغزو هو واجبنا الاساسي كما كان الحال ايام اجدادنا وآبائنا. ووقوع القسطنطينية وسط ممتلكاتنا، يحمي اعداء دولتنا ويثيرهم ضدنا. ومن ثم فان فتح هذه المدينة هام جدا لمستقبل الدولة العثمانية وسلامتها"(١). وبالفعل، فان الدولة البيزنطية كانت مأوى، لمدّعي عرش السلطنة، وبذلك كانت سببا في عديد من الحروب الاهلية. وكانت الامبراطورية البيزنطية ايضا، هي المثير الاول للحملات الصليبية ضد العثمانيين، وكانت الدولة العثمانية تخشى ان تسقط القسطنطينية بيد الكاثوليك الغربيين يوما، كما حدث لسالونيك سابقا، وعندها تفتقد الوحدة الارضية لطرفي الامبراطورية العثمانية. فموقعها ستراتيجي وهام جدا، اذ هي الجسر الحيوي الذي يصل بين القسم الآسيوي للامبراطورية والقسم الاوربي، أو هي الجسر المتحكم بالطريق بين الاناضول واوربا. ولكي يحقق "محمد الثاني" غايته في فتح القسطنطينية، فانه قام بالاجراءات التمهيدية التالية:

١- قتل اخاه "أحمد" الذي كان من الممكن ان ينافسه على السلطنة. وغدت فعلته هذه قاعدة اتبعها سلاطين بني عثمان حتى ١٠٠٤ هـ/ ١٥٩٥ م،

---

(١) H. Inalcik: "The Rise of The Ottoman Empire", The Cambridge History of Islam, 2 vol, Cambridge, 1970, vol. 1, p. 295.

حيث كان كل سلطان يقضي على اخوته ،ولا يبقي احدا ينازعه العرش .

٢ــ عقد اتفاقات مع كل من جمهوريتي (البندقية) و (جنوة) ،ومع (فرسان القديس يوحنا) في (رودس) ،ليتفرغ لحملة القسطنطينية ، وليعزل الامبراطور البيزنطي عن ايجاد اى حليف له .

٣ــ اوجد شبه حصار اقتصادي للمدينة ، بان انجز بناء (قلعة اوربا) او (روملي حصار) . وانشئت في اضيق منطقة من البوسفور على الجانب الاوربي ،مقابل (قلعة آسيا) القديمة او (اناضولي حصار) ،وذلك ليشرف على المضيق، ويمنع كل ما يمكن ان يرسل الى القسطنطينية من امدادات ،وفي الوقت ذاته يضمن حرية المرور بين الاناضول واوربا لرعايا امبراطوريته وسلعها . وعندما ارسل الامبراطور البيزنطي مفاوضين لمنع بناء هذا الحصن ،قطع "محمد الثاني" رؤوسهم ، وكان ذلك بمثابة اعلان للحرب .

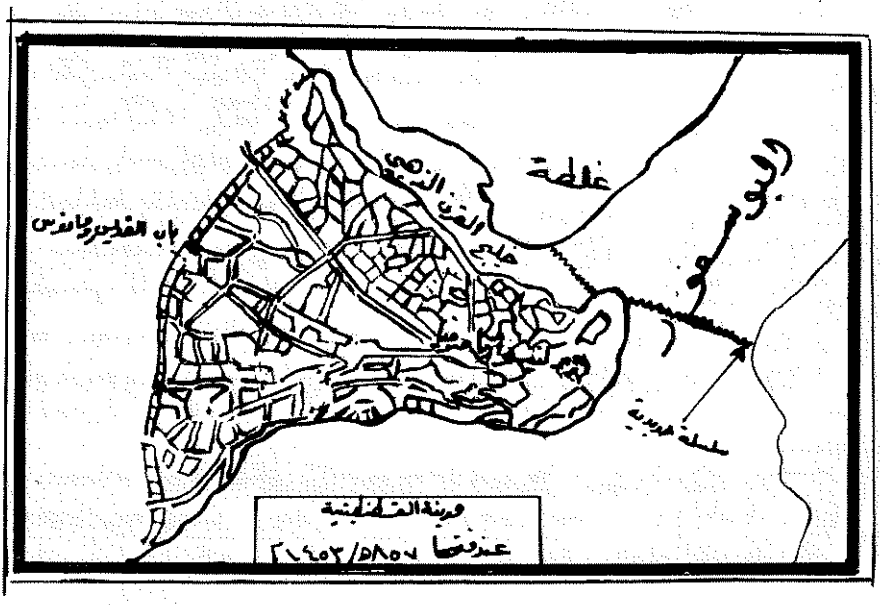
٤ــ هيأ معدات الحصار والقتال ،فصب مدافع كبيرة سميت بـ "المدافع الملكية" وقد احتاج صنع كل مدفع ثلاثة اشهر عمل ،وكان يتطلب جره زوجا من الثيران، وهي اول مدفعية ثقيلة انشئت للحصار . وقد صنعها له هنغاري مسلم اشتهر بها ،وهو "اوربان" .

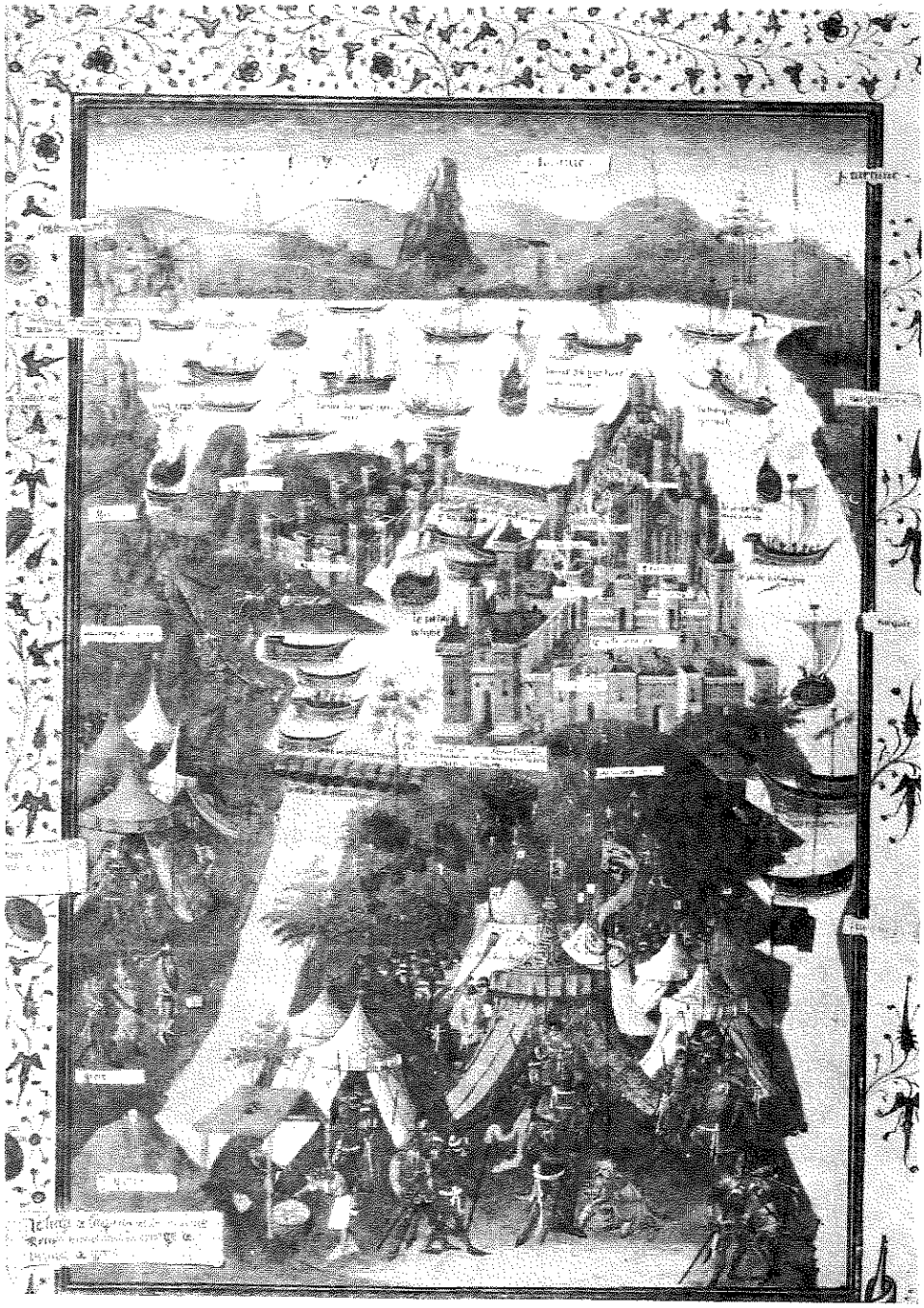
وكان الجو العام في المدينة ملائما "لمحمد الثاني" فقد ساءت الاحوال الاقتصادية ،واضطرب تموينها ، وقل عدد سكانها . وحاول الامبراطور البيزنطي "قسطنطين الحادي عشر" تقوية نفسه عن طريق صلحه مع البابا ،واعلان اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . الا ان الشعب كان غير راض عن خطوته هذه ،وناقما عليه . بل ان بعض الارثوذكس فضل الاسلام على الانضمام الى الكنيسة البابوية . ولم يكن لديه من الجند ، العدد الكافي الذي يسمح له بمقاومة الاتراك ، بينما ركز العثمانيون حول المدينة بين (١٠٠ر٠٠٠ ــ ١٥٠ر٠٠٠) جندي .

وحاصر "محمد الثاني" المدينة مدة (٥٣) يوما ،او ما يقارب الشهرين (٢٥ ربيع الاول ــ ٢٠ جمادى الاولى ٨٥٧ هـ/ ٦ نيسان ــ ٢٩ ايار ١٤٥٣م). وكانت على شكل مثلث، يشرف احد اضلاعه على بحر مرمرة ، والضلع الثاني على القرن

الذهبي) في مدخل (البوسفور) ،والضلع الثالث على البر غربا . وهاجمها السلطان من الشمال والغرب ، اما الاسطول فلم يتمكن من الحركة ،لان مدخل (القرن الذهبي) كان مغلقا بسلسلة حديدية . والشيء الهام في هذا الحصار كان المدفعية الثقيلة ، التي كانت تدك الاسوار باستمرار ، ولكن المدافعين عن المدينة كانوا يبذلون جهودا كبيرة لسد الثغرات . واخيراً لجأ السلطان " محمد الثاني "الى خطة بارعة ، فأنشأ (٧٠) سبعين سفينة خفيفة ،حملها برا من البوسفور الى (خليج القرن الذهبي) . وقد اجبرت هذه السفن المدافعين عن المدينة ان يوزعوا جهودهم . وفي ٢٠ جمادى الاول ٨٥٧هـ/ ٢٩ ايار ١٤٥٣م قام العثمانيون بهجوم كبير على " باب رومانوس" ،واستطاعوا الدخول منه . وقتل " قسطنطين "في المعركة ،وهرب عديد من المدافعين ، على مراكب جنوية وبندقية .

ولما سيطر "محمد الثاني "على الموقع في المدينة المفتوحة ،فانه سمح لسكانها الفارين من اليونان بالعودة اليها ،وبخاصة الصناع منهم . بل سعى لاعمارها





صورة وثائقية لفتح السلطان محمد الثاني
مدينة القسطنطينية

بالاتراك ،وسكان من البلقان وآسيا الصغرى . وقد طبق "محمد الثاني" على المسيحيين في المدينة ،واليهود ،حقوق أهل الذمة في الاسلام ،واعطى البطريرك اليوناني "غناديوس Gennadius" سلطة دينية ومدنية ، على جميع الارثوذكس في انحاء الامبراطورية . واصبح اسم القسطنطينية (استامبول) ،وان ظل الكثيرون يطلقون عليها اسمها الاول . وانتقل اليها عرش السلطنة بعد ان كان في(ادرنة) وحولت (كنيسة ايا صوفيا) الى مسجد . وبنى فيها محمد الفاتح قصرين ، (القصر القديم) واتمه عام ٨٦٢ هـ/ ١٤٥٨ م و (القصر الجديد) ، وانجز في ٨٧١ هـ/ ١٤٦٧ م . واهتم "محمد الثاني" بانشاء المدارس ،والى عهده يرجع تأسيس "المدارس الثمان" . وقد فر عدد من العلماء اليونان منها الى ايطاليا حيث اسهموا في دفع (الحركة الانسانية) قدما ، تلك الحركة التي هي دعامة ضخمة من دعامات (النهضة الايطالية) في مطلع العصور الحديثة .

وكان لسقوط القسطنطينية دوي هائل في اوربا ،فقد هوت بسقوطها الامبراطورية البيزنطية ،التي ناجزت المسلمين العداء والحرب ما يقارب ثمانية قرون . ولم يعد الخطر التركي الاسلامي خطرا محدودا،وانما خطرا مستفحلا،يهدد اوربا بأجمعها. ورأى بعض المؤرخين في سقوط القسطنطينية منعطفا تاريخيا هاما ،فنظروا اليه على انه نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصور الحديثة . ورفع فتح القسطنطينية السلطان "محمد الثاني" ،في أعين المسلمين ،فرأوا فيه بطلا اسلاميا مرموقا ،ومن اكبر السلاطين والحكام في العالم الاسلامي آنذاك ،بل اخذ ينظر هو الى نفسه ، على انه وريث الدولة البيزنطية .

ولم يقف "محمد الفاتح" عند فتح القسطنطينية ،وانما عاد الى البلقان ثانية ليدعم سلطته فيها . واخضع (بلاد الصرب) ،و (البوسنة والهرسك) ودخل عدد كبير من فئات المجتمع العليا في هذه البقاع ،في الدين الاسلامي .

ومع انه وقع اتفاقا تجاريا مع (جنوة) ،اعطاها فيه حرية التجارة في جزر الارخبيل ، وشبه جزيرة القرم ،مقابل ان تدفع الجزية ، وتقبل التبعية العثمانية ، فانه استولى على معظم محطاتها التجارية في بحر ايجه .

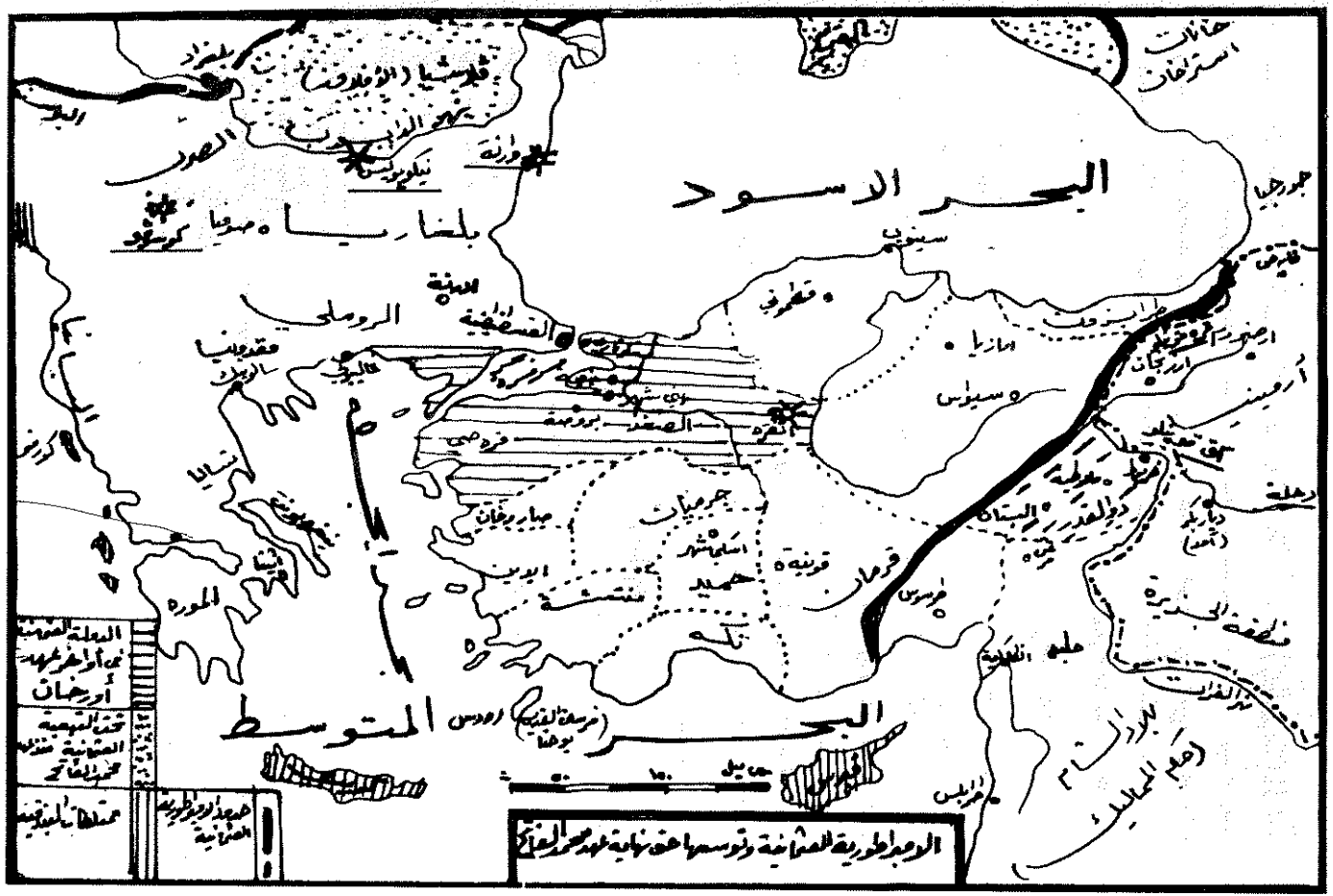
واسقط "محمد الثاني" آخر افراد (اسرة باليولوغ) البيزنطية ،الحاكمة في

شبه جزيرة المورة ،بعد ان اجتاح شبه الجزيرة . وقاد حملة ضد (البانيا) ،التي تزعمها "اسكندربك" (جورج كاستريوتا) ،وهو من الجند الذين تربوا في البلاط العثماني ،ثم فرمنه عام ١٤٤٣ . وقد صارع العثمانيين (٢٣) عاما للحصول على استقلال (البانيا) ،الا ان وفاته عام ١٤٦٧ وضعت حدا للمقاومة فسقطت (البانيا) بسرعة بيد "محمد الفاتح" ، وضمت الى الامبراطورية ،ودخل كثير من افرادها في الاسلام ،ووصل عدد منهم الى رتبة قادة ووزراء .

وكان "محمد الفاتح" قد وقع اتفاقا تجاريا مع البندقية عام ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م ، كما فعل مع جنوة ، واعطاها فيه حرية التجارة في امبراطويته ،وخفض لها التعرفة الجمركية للصادر والوارد الى ٢٪ فقط ، وسمح لها باقامة (قنصل Bailo) في استامبول . ولكن الحرب قامت بينه وبينها عام ٨٦٧ هـ/ ١٤٦٣ م ، ودامت طويلا وحتى ٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ . وسببها الاساسي ،تهديد العثمانيين لمحطات البندقية على الشواطئ اليونانية والالبانية ، الذى هو تهديد لتجارتها في شرقي البحر المتوسط .

وسعت البندقية لعقد تحالف مع (الفرس الصفويين) ،ومع تركمان امارة (آلاق قوينلو) (القطيع الابيض) وكان على رأسها آنذاك ،" اوزون حسن " عدو " محمد الفاتح " ،على ان يقوم هؤلاء بمهاجمة الدولة العثمانية من الشرق ، بينما يهاجم البنادقة سواحل الاناضول . واستطاع السلطان العثماني ان يهزم " اوزون حسن " في " بابرت" قرب ارزنجان عام ٨٧٨ هـ/ ١٤٧٣ م ،وان يقترب من البندقية ذاتها . مما اضطرها الى طلب الصلح . وقد تنازلت عن عدد كبير من قواعدها البحرية ،ودفعت جزية سنوية قدرها (١٠،٠٠٠) دوقية كي يسمح لها بالتجارة في البحر الاسود .

ويتضح مما ذكر آنفا ،ان السلطان " محمد الثاني " قد سار في فتوحاته في الاتجاه نفسه الذى سار عليه اسلافه من قبله ،اى انه تابع الفتوحات في اوربا ، وفي الوقت ذاته ،لم يدر ظهره لآسيا . وبدا انه كان مؤمنا بضرورة ايصال حدود امبراطوريته ، وهي بحسب اعتقاده وريثة الدولة البيزنطية ، الى الحدود التاريخية لهذه الامبراطورية في آسيا . وهذه الحدود هي سلسلة جبال طوروس من الجنوب


البحر الاسود
البحر المتوسط
بلغاريا
صوفيا
القسطنطينية
الروملي
ادرنة
سيليمبريا
سينوب
قسطموني
امازيا
سيواس
قيصرية
ارضروم
ارزنجان
ارزنجيان
ارمينية
ملطية
دولقدر
البستان
دياربكر
(آمد)
رحبة
قرمان
قونية
حميد
اسبارطة
اسكي شهر
منتشة
الدين
تكه
مرسين
طرسوس
ادنة
حلب
طرابلس
الشام
(اعلم الممالك)
فلسطين
البحيرة
الدلتا
الصعيد
بروسة
قره حصار
جزيرة قبرص
جزيرة رودس
(مرسى الديك)
بودها
حلب
الدولة العثمانية
ولاياتها الاخيرة
اوربيان
خزينة الدولة العثمانية
محفوظة في
الخزينة العامرة
الدولة العثمانية
ولاياتها الاخيرة
الدولة العثمانية وتوسعها حتى نهاية عهد محمد الفاتح

والبحر الاسود من الشمال . ولذلك ، فانه وجه جيوشه عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦١ م الى (امارة طرابزون) الاغريقية (١) وضمها الى ملكه . وفي سنة ٨٧٢ هـ/ ١٤٦٨ ضم (امارة قرمان) نهائيا اليه .

ووجه "محمد الفاتح " ضرباته أيضا ضد "المماليك " الذين ساعدوا (قرمان)، وضد تركمان دويلة (ذى القدر) (٢) . والصراع من اجل السيطرة على الامارة الاخيرة ،دفع المماليك والعثمانيين الى حواف الحرب .

ويبدو ان مشروعات " محمد الثاني " في التوسع ،كانت بعيدة المدى : فقد فرض نفوذه في (شبه جزيرة القرم) في ٨٨٠ هـ/ ١٤٧٥ م ، وضمن تعاون الارستقراطية التترية القبلية فيها ،وقضى بذلك على النشاط التجاري الجنوي في البحر الاسود ،وتوقفت احدى طرق اتصال اوربا مع الهند والشرق الاقصى . وكان هذا عاملا دفع الاوربيين اكثر فاكثر للبحث عن طريق جديدة للوصول الى الهند ،في عصر " الكشوف الجغرافية " .

.....

(١) تأسست هذه الامارة جنوبي البحر الاسود ،عام ١٢٠٤ . وكان مؤسسها احد اولاد امبراطور بيزنطة المعزول "اندرونيك كومين" . وقد كونت دولة مستقلة ، ظلت قائمة حتى عام ١٤٦١ . وكانت تدفع الجزية احيانا لسلاجقة الروم ،واحيانا لخانات المغول ،او لامراء التركمان . وكانت بحرب مستمرة مع الجنويين الراغبين في السيطرة على البحر الاسود . وقد تزوج " اوزون حسن " ابنة ملكها ، ورزق منها بابنة كانت هي أم الشاه اسماعيل الصفوي . انظر ج .هـ كرامرز اطرابزندة . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . مجلد ٢ ،ص٣٠٣—٣٠٩ .

(٢) امارة تركمانية سادت مايقرب من قرن ونصف في ثغور (ملاطية) ،و (البستان) و (مرعش) . واسست في منتصف القرن الرابع عشر ،وكانت علاقاتها طيبة مع المماليك . وقد هاجمتها الدولة العثمانية في عهد " بيازيد الاول " واجتاحها "تيمورلنك " . وبعد خروج تيمورلنك منها ،تحالف مع المماليك ضد دولة قرمان ، حتى ان ملكها اعترف بتبعيته للسلطان المملوكي . وفي عهد السلطان "مراد الثاني " توثقت صلات الود بينها وبين العثمانيين للوقوف في وجه قرمان ،وتزوج محمد الثاني من ابنة اميرها . وقد لعبت هذه الامارة دورا خطيرا في العلاقات بين العثمانيين والمماليك . انظر ج . هـ . مورتمان ،ذو القدر . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . مجلد ٩ ص ٣٩٩ فما بعد .

وارسل ايضا حملة الى (رودس) التي تمي باب البحر المتوسط الشرقي ، وكان يقيم فيها (فرسان القديس يوحنا) ، وهم من بقايا الصليبيين ، ويهددون بقرصنتهم السفن الاسلامية . كما بعث بحملة اخرى الى (اوترانتو) جنوب شرقي ايطاليا في ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م . الا ان وفاته لم تمكنه من متابعة الحملتين . وعندما قضى في عام ٨٨٦ هـ/ ١٤٨١م ، وله من العمر تسع واربعون عاما ، فان عددا من المشروعات لم يكن قد انجز بعد . لقد قام بالحرب الجهادية دون توقف ، واوصل حدود الامبراطورية غربا الى بحر الادرياتيك وشرقا الى تخوم الهضبة الايرانية ، ووضع اسس الحكم العثماني في الاناضول والروملي . كما انه اعطى لمؤسسات الامبراطورية شكلها النهائي ، وحدد سير تطورها السياسي في المستقبل . واظهر اهتماما واضحا بالعلم والتعليم ، والعمران المدني والعسكري . ولم يبد اي امتعاض من "الفن الايطالي الناهض" على الرغم من مغايرته لاعراف المسلمين في رسم صور الاشخاص، حتى انه سمح للفنان البندقي "جنتلي بليني G. Bellini" برسم صورته .

واذا كان "محمد الثاني" خلال حكمه الطويل قد عمل على توسيع رقعة الامبراطورية وتثبيت نظمها ، فانه تلا وفاته ثورة دامية قام بها "الانكشارية" ، وكانت حربا اهلية بين ولديه "جم" او كما يسميه المؤرخون العرب "جمجمة" ، و "بيازيد" ، اذ ادعى كل واحد منهما احقيته بالعرش دون اخيه . وفي الحقيقة كانت حربا للحفاظ على وحدة الامبراطورية ، التي طالب "جم" باقتسامها مع "بيازيد" ، واعلن نفسه سلطانا في (بروصة) ، وسك النقد باسمه . الا انه امام اخفاقه العسكري ، هرب الى مصر ، ومنها الى رودس ، وحدثت له بعد ذلك احداث كثيرة: فالقوى المسيحية في الغرب ، كانت حريصة على ايوائه كي تستخدمه وسيلة ضغط ضد السلطان "بيازيد" ، طالما انه كان له اتباع عديدون داخل الامبراطورية .

وانتهت حياته مسموما ، بعد ان وقع اسيرا في يد ملك فرنسا اثناء حرب هذا الاخير في ايطاليا عام ١٤٩٥ (١) .

---

(١) انظر حول "جم" بحث "T. شاده A. Shaade" تحت عنوان "جم" ، في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . مجلد ٧ . ص ٩ فما بعد ، والمصادر التي اوردها .

وقد عرف عن السلطان " بيازيد الثاني " (٨٨٦-٩١٨هـ/ ١٤٨٠-١٥١٢م) انه سلطان ضعيف ومتردد ،الا ان الدراسات الحديثة اثبتت غير هذا ،فهو مسالم بطبعه ، ويفضل الحذر ،ويميل للعلم والتصوف . ولكنه كان يعرف كيف يضرب بقوة عندما تتهدد مصلحته او مصلحة الامبراطورية .

وقد وجد نفسه في حرب مع (المماليك) في بلاد الشام ،وكان سببها النزاع حول المناطق والدويلات المتاخمة في كيليكيا والبستان . وقد دامت من ٨٩٠ - ٨٩٦ هـ/ ١٤٨٥-١٤٩١ م ،ولم تكن لصالح العثمانيين . الا ان الصلح بين الطرفين اعاد الامور الى ما كانت عليه قبل الحرب .

ووقع " بيازيد الثاني " في حرب ايضا مع تحالف مسيحي ،مؤلف من البابا ، والبندقية ،وهنغاريا ،وذلك عام ٩٠٤ هـ/ ١٤٩٩ م . وكانت البندقية قد سيطرت على (قبرص) . وانتهى الحرب باستيلاء العثمانيين على الموانئ التجارية التابعة للبندقية على سواحل (شبه جزيرة المورة) . وتتمثل اهمية تلك الحرب ، بأنها كانت بدء السيادة البحرية العثمانية في البحر المتوسط ، كما انها اظهرت العثمانيين عاملا هاما في توازن القوى ،في السياسة الاوربية . اذ ان (الدويلات الايطالية) المنافسة للبندقية استعانت بهم ضدها .

ولا بد من الاشارة هنا ،الى ان ملك غرناطة العربي من بني الاحمر ،أرسل عام ٨٨٧ هـ/ ١٤٨٢ م سفيراً الى البلاط العثماني ،طلب منه العون ضد القوة الاسبانية المهاجمة للبلاد . ولم تستطع الدولة العثمانية ان تقدم النجدة المطلوبة ،لانشغال السلطان بقضية "جم" ، الا انها تركت الامر للغزاة من بحارتها ،ليقوموا بالمهمة . فعندما سقطت غرناطة بيد الاسبان عام ٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢ م ،وهددت الدول الاسلامية المغربية بالاجتياح الاسباني ، قام هؤلاء الغزاة (ويسميهم الاوربيون عادة بالقراصنة) بنقل عملياتهم الجهادية البحرية من شرقي البحر المتوسط الى غربه . واشهر هؤلاء " كمال ريس " الذي دخل الخدمة البحرية العثمانية رسميا عام ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م

وقد ادخل هذا القائد البحري اصلاحات هامة على الاسطول .

واذا كان السلطان " بيازيد الثاني " قد انهى حروبه الاوربية مبكرا بمعاهدات صلح ، فانه كان مدفوعا في الحقيقة ،بظهور خطر جدي في الاناضول ،يهدد السيادة العثمانية فيه ، ويتمثل هذا الخطر (بالقبائل التركمانية البدوية) ، التي انتشرت على الحدود الجبلية في الاناضول . وقد لعبت هذه القبائل دورا هاما في الثورات الداخلية في الاناضول ،ضد السلطة العثمانية . ولتتخلص الدولة من خطرهم ، فانها نقلت اعدادا منهم الى البلقان ،ووزعتها في مناطق متفرقة منها ، حيث كونوا ما يسمى بـ (اليوروك) . ومع ذلك فقد بقي قسم كبير من هؤلاء التركمان في جبال طوروس من (تكه) الى (مرعش) . وكانوا ينضمون اما الى المطالبين بعرش قرمان ،او يستجيبون لاستثارات (المماليك) ،او (الايرانيين الصفويين) لهم ،ضد العثمانيين . ومن ثم ،فانهم كانوا في ثورات مستمرة . ويرجع ذلك الى ان الحكم العثماني اخضعها لدفع ضرائب منتظمة ، وقيد حركتها ،وتنقلاتها ، حماية للفلاح والزراعة ،وبالاضافة الى ذلك ، اظهر اولئك التركمان البدو ،ميلا للمعتقدات الشيعية . وقد عرف هؤلاء التركمان الرحل ،بسبب قلنسواتهم الحمراء باسم " قزل باش " او " اصحاب الرؤوس الحمراء " .

وعند النصف الاول من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ،انضمت تلك القبائل التركمانية (القزلباش) الى احفاد الشيخ " صفي الدين " في (اردبيل) ،الذي كان على رأس طريقة عرف اتباعها نسبة الى " صفي الدين " ، بـ " الصفويين " . وقد احتضن هؤلاء مبادئ (الشيعة الاثنا عشرية) ،ونظموا الدعوة لها . وبعد عام ٩٠٦ هـ/ ١٥٠١ م ،وجدت تلك القبائل زعيما لها في احد احفاد " صفي الدين " ،وهو " اسماعيل بن الشيخ حيدر " ،الذي استطاع ان يقضي على دولة (آلاق قوينلو) (القطيع الابيض) ،ويضم العراق ويخضع جميع القوى ،في منطقة تمتد من جنوبي شرقي (قفقاسيا) شمالا بغرب ،الى (كرمان) جنوبي غربي ايران ،الى نهر الفرات غربا ،الى الحدود الجنوبية لبلاد ما وراء النهر شمالا بشرق . واخذ على عاتقه نشر المذهب الشيعي بشتى الوسائل ،وفرضه على الاغلبية السنية . فانتشر دعاته في جميع ارجاء الاناضول ،وعقد تحالفاً مع البندقية

ضد العثمانيين . وفي ٩٠٧ هـ/ ١٥٠٢ م و ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م ،اغار على الاناضول .

وفي عام ٩١٧ هـ/ ١٥١١ م ،ثار " القزل باش" في منطقة (تكه) في الجنوب الغربي من الاناضول ،بتحريض منه.وقد استولى قائدهم " الشاه قولي " ـ ويسميه الاتراك " شيطان قولي " ـ على (كوتاهية) ،وهدد (بروصة) . وكان " بيازيد الثاني " قد اصابه المرض ،وفقد انصاره في الجيش ،فنجح ابنه " سليم " في استمالة الانكشارية الى جانبه ،وخلع اباه عن العرش في ٩١٨ هـ/ ١٥١٢ م ،وحل محله .

وخلاصة القول ،ينظر الى عهد " بيازيد الثاني "على انه فترة توقف في تاريخ الفتوحات العثمانية ،ومع ذلك ،فقد رأى ظهور القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط،ونشاطا في الحياة الاقتصادية ،وبخاصة منها التجارية ،وذلك في ظل ادارة منظمة وموثقة . ونمت المدن ،كاستامبول ،وادرنة ، وبروصة ،بسرعة ، واتخذت الابنية العامة ،كالمساجد ،والخانات ،مظهرا حضاريا ضخما ،في سعتها وصفتها الفنية . فـ" بيازيد " اتبع في هذا المضمار طريق جده "مراد الثاني "،وضمن للامبراطورية مرحلة من النمو الداخلي ،والتوسع الاقتصادي .

ويعتبر عهد السلطان " سليم الاول " (٩١٨-٩٢٦ هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠ م) الذي خلف اباه " بيازيد الثاني " على العرش ،هاما بالنسبة للبلاد العربية ،اذ فيه عُطفت فتوحات الدولة العثمانية نحو تلك البلاد ، وتم ضم جزء كبير منها الى الامبراطورية العثمانية . فقد كان " سليم الاول " فاتحا فعالا ،ويشبه جديه " بيازيد الاول يلديرم " ،و " محمد الفاتح " . وقد اطلق عليه لقب " ياووز اي "الغامي وكان محبا للسلطة الاستبدادية المطلقة ، فقبض على الامبراطورية بيد من حديد ، وحكم لفترة من الزمن حكما مباشرا ،حتى دون الاستعانة بوزير اعظم .

وقد امضى السنتين الاوليتين من وصوله للعرش ،في القضاء على جميع الامراء العثمانيين ،الذين يمكن ان يدّعوا حقاً بالعرش . ولم يفلت من بطشه ،سوى واحد منهم فر الى بلاد الشاه اسماعيل في "تبريز"، واثنين آخرين التجئا الى بلاط السلطان المملوكي قانصوه الغوري . ثم دخل في مفاوضات سلمية مع جيرانه الاوربيين

وبصفة خاصة مع هنغاريا ،ليتفرغ لشؤون الشرق . فقد آمن ان سياسة العثمانيين التقليدية في عدم اتخاذ آسيا ميدانا للفتوحات ،لم تعد تتناسب مع ظهور القوة الصفوية الشيعية المجاورة .فقد شرعت هذه الاخيرة ،تهيء الجو بدعايتها الدينية والسياسية ، لهجوم عسكري على الحدود الآسيوية للامبراطورية العثمانية ،كما ثبت له ذلك ايام أبيه . وبذلك ،كان تحدي الشاه اسماعيل،الحربي،والديني،للدولة العثمانية السنية عاملا هاما في خروج هذه الدولة من سلبيتها تجاه المجتمع الاسلامي العربي،والايراني على السواء ،وفي تغيير سياستها من الاهتمام بأوربا فحسب ، الى الاهتمام بمجموع العالم الاسلامي شرقها .

وابتدأ " الشاه اسماعيل " بالهجوم ، بأن أغار على الاناضول . وكان نجاح حملته هذه مرهونا بقيام ثورة في الاناضول على غرار الثورة الشيعية السابقة . ولكن الاناضوليين لم يحركوا ساكنا ، لان اخفاق الثورة الماضية ما زال ماثلا في اذهانهم. ولم يسع " سليم الاول " امام هذا التحدي ،الا ان شنها حربا عنيفة ودموية على الشيعة في الاناضول . ويقدر المؤرخون انه قتل ما يقارب اربعين الفا ، ونقل (أوشركن" أي نفى) البقية الباقية الى ممتلكات الدولة العثمانية في اوربا ،وبذلك ضمن مؤخرته ،اذا ما اتخذ خطة الهجوم . ولحق السلطان " سليم " الحملة المنهزمة بجيش منظم وقوي . وعلى الرغم مما عاناه في الطريق الطويلة ،الصعبة والشاقة التي اضطر ان يسلكها ،والتي اتبع فيها الصفويون سياسة "الارض المحروقة" فانه تمكن من هزيمة الجيش الصفوي في (معركة جلديران) ،في ٣ رجب ٩٢٠هـ/ ٢٣ آب ١٥١٤ م .

وبعد اسبوعين ،دخل السلطان سليم باحتفال مهيب الى (تبريز) ،حيث خطب باسمه في المساجد . وبدا السلطان سليم لسكانها من المسلمين السنة فاتحا محررا لهم من الضغط الشيعي،لا فاتحا قاهرا . وبهزيمة " الشاه اسماعيل " في(جلديران) كان العالم الايراني كله تحت اقدام "السلطان سليم " لو اراد ،فلو تابع فتوحه شرقا ، فانه ما كان ليلقى مقاومة ما في الطريق من (تبريز) الى (مرو) ،وكذلك في (بلاد ما وراء النهر) ، لانه جمع في شخصه ،المذهب السني ، والثقافة الاسلامية الرفيعة ، والمقدرة الحربية . الا ان جيش السلطان " سليم " أبى ان يتابع السير شرقا ،للصعوبات الطبيعية التي لاقاها ، ولشعوره بعدم جدوى التوغل

في آسيا ، بعيدا عن مراكز استناده الاساسية في اوربا . وكانت عودة الجيش ، والسلطان سليم منهكة بسبب البرد القارص ، وعورة الطريق ، وسياسة الارض المحروقة التي اشرنا اليها .

وكان للنصر في (معركة جلديران) نتائجه الهامة ، بالنسبة للدولة العثمانية والصفوية ، ومجموع المنطقة . فبالنسبة للدولة العثمانية ، استطاعت ان تضم نهائيا الى امبراطوريتها (ديار بكر) (٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م) والمدن الشرقية المتبقية في الاناضول . ودخلت القبائل (الكردية) و (التركمانية) المقيمة في تلك البقاع تحت حكمها ، وقدمت لها آيات الولاء . وكان لذلك معناه الستراتيجي والاقتصادي الكبير ، فقد سيطر العثمانيون على (طريق الحرير) ، (تبريز ـ حلب) و (تبريز ـ بروصة) ، وانصبت في خزينة الدولة واردات (مقاطعة ديار بكر) التي قدرت عام ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٨ م بـ ٢٥٠ مليون أقجة . أي بثمن ١/٨ واردات ، البلقان كلها . كما ان سيطرة السلطان " سليم عسكريا على نهايات طريق الحرير تلك ، قد افاده في حربه ضد فارس ، اذ أوقف تجارتها بالحرير ، ونفى الى البلقان تجارها العاملين في بروصة . وبذلك قطع شريانا اقتصاديا حيويا بالنسبة للفرس ، لان الحرير كان آنذاك ، المصدر الاساسي لما يرد لبلاد فارس من الذهب والفضة . والامر ذاته يقال ، عندما حاول ان يوقف في سياسته ضد المماليك ، التجارة بالعبيد الجراكسة ، الذين كان يؤتى بهم من قفقاسيا ، وكانوا عماد البنية العسكرية والادارية " لدولة المماليك الجراكسة " ، الحاكمة في مصر وبلاد الشام .

اما نتائج (جلديران) على الدولة الصفوية ، فكانت سيئة ، اذ فقد الشاه احترام اتباعه ، الذين كانوا ينظرون اليه كامام معصوم ومنزه ، وبالتالي فقد طاعة جنده . وازداد نفوذ زعماء القبائل التركمانية في البلاد الصفوية ، وكذلك الطبقة البوروقراطية العليا . وكان لهذا الصدام العسكري مع العثمانيين اثره في تطوير " الجيش الصفوي " ولو بعد حين . اذ رأى الصفويون ضرورة اعادة تنظيم جيشهم على النمط الانكشاري ، فشرعوا يدخلون " نظام العبيد " في الجيش ، ويزودونه بالاسلحة النارية ، والمدفعية ، ويدربون افراده في مدارس خاصة ، وكان ذلك في اواخر القرن العاشر / السادس عشر ، واوائل الحادي عشر / السابع عشر .

يقول المؤرخ الانكليزي المعاصر " توينبي Toynbee " في انتصار العثمانيين في " جلديران " ،وفي اسباب الحرب بين السلطان " سليم " والمماليك : لقد انتهت الجولة الاولى بين اسماعيل وسليم في لعبة الشطرنج التي تناوبا ها بنصر مبدئي لسليم ، نصر تنقصه صفة الديمومة والاستقرار . فقد ثبت انه اذا كان من المستحيل على الصفويين ان يوجدوا لانفسهم فتوحات ثابتة في بلاد الاناضول ، فانه كان من العسير على العثمانيين ايضا ان يرسخوا اقدامهم في ايران . فالنزاع الديني بين القوة الصفوية الشيعية ،والقوة العثمانية السنية ،لن يصفّى بهجوم احدى القوتين على الاخرى والانتصار عليها ، اذ ان القوتين متوازنتان . ومن هنا كان لابد من البحث عن قوة ثالثة تقضي على ذلك التوازن ، او بمعنى آخر ان يبحث عن ميدان ثالث تخوضه احدى القوتين وتخرج منه رابحة . فحركة الهجوم ضد خصم ثالث ،كانت ضرورية في النتيجة النهائية لامتحان القوى بين الفريقين المتنازعين، وكانت الدولتان اللتان تقومان على مسافات متساوية تقريبا من تبريز واستامبول ،هما دولتا (ذو القدر) (دلغادر) ،في الجنوب الشرقي من الاناضول ،و(امبراطورية المماليك) في بلاد الشام ومصر . ولكن (دولة ذى القدر) دولة صغيرة المساحة لايمكنها أن تكون وزنا راجحا في احدى كفتي الميزان . ولذا فالفريسة المنتظرة هي البلاد العربية التابعة للدولة المملوكية (١) .

وهكذا نظر " توينبي " الى الحرب ،التي قامت بين المماليك والعثمانيين على انها المرحلة الثانية من مراحل النزاع بين الصفويين والعثمانيين . ولقد سبق هذه الحرب سباق بينهما لفتح المقاطعات العربية السنية المجاورة . فاما أن يمتد الصفويون الى شواطىء البحر المتوسط ويحصرون العثمانيين في شبه جزيرة الاناضول، كما حوصرت الامبراطورية البيزنطية من قبل العرب المسلمين ايام الامويين والعباسيين ، او ان الامبراطورية البيزنطية تتوسع الى نهر الفرات وتحجز الصفويين عن بلاد الشام

العثمانية

(١) A Study of History, 3 vol, Oxford University Press, 1945, vol 1. P. 387

كما حجز الرومان الامبراطوريتيـــن الفارسيتين ،الارساسية ،والساسانية . وكـــان السلطان سليم في حركة السباق اسرع من خصمه ،فبعد سنة من (جلديران) احتل دولة (ذى القدر) (٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م) التي كانت تدين بالولاء لدولة المماليك، وبعد سنة اخرى كان في طريقه الى بلاد الشام .

ويتبين مما ذكره " توينبي " آنفا ،ان السلطان " سليم "كان مدفوعا نحو فتح بلاد الشام بعوامل سياستجاه الدولة الصفوية ،اي ليمنع وصولها الى البـــلاد العربية المشرقية ،واغلاقها لشرقي البحر المتوسط في وجه الدولة العثمانيـــة ، وليضع حلا لانتشار المذهب الشيعي خارج الحدود الايرانية . كما ان ضمه لبلاد الشام كان نتيجة غير مباشرة لعصيان الانكشارية ،ورفضهم السير معه الى اواســط آسيا ، حيث كان هدفه الاول ابتلاع المجتمع الايراني وحده .

ان مما لا شك فيه ان من الاسباب الرئيسية والعميقة التي ادت الى ضم العثمانيين بلاد الشام الى امبراطوريتهم ، هو تنازع الدولتين العثمانية والصفوية على النفـــوذ، والامتداد في العالم العربي الاسلامي المشرقي ،واصطراعهما المذهبي في هـــذه البقاع ،أي ان ما ذكره "توينبي" يمس الحقيقة من قريب او بعيد ،الا ان قصـــره امتداد العثمانيين الى بلاد الشام ،على مجرد رد فعل فقط صـــدّ به السلطـــان سليم تحدي الدولة الصفوية الشيعية ،ورغبتها في الانسياح غربا ، تضييق لأفـــق هذا الحدث الهام ،وتقليص للواقع التاريخي الذي كانت تعيشه الدولة العثمانية ، وبلاد الشام ومصر ،والعالم العربي والاسلامي آنذاك . ان ساحة الحادث اوسع مدى من منطقة الشرق الادنى ، وان ضم الدولة العثمانية لبلاد الشام والبلاد العربية الاخرى ،ليس حادثا محليا ،وانما يرتبط بالاحداث الدولية التي كانت تجري فـــي تلك الحقبة الزمنية في اوربا ، وفي حوض البحر المتوسط ،ولا سيما انه كان للدولـــة العثمانية ، والصفوية ، والمملوكية علاقاتها مع اوربـــا .

العلاقات الدولية في اواخر القرن التاسع اوائل العاشر الهجريين/ الخامس عشـــر والسادس عشر الميلاديين "

في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، وهي الحقبة التي جرت فيها احداث الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر ،كانت الدول في اوربا قد

تمايزت (قوميا) وتمكنت بعض الملكيات القوية ،في الغرب بالذات ،من السيطرة على النظام الاقطاعي فيها ،الذي كان سائرا في طريق الانحلال ،ومن تكوين دول ، انبثقت فتية من الخضم المسيحي الموحد الذي كانت مندمجة فيه خلال العصور الوسطى . واندفعت كل دولة تبحث عن مقوّمات جديدة لاقتصادها ، وعن دعائم متينة تثبت بها قوميتها الوليدة .ولم يكن بحثها في نطاق حدودها فحسب، وانما تعداها الى خارجها ،والى عالم مغاير لعالمها . وكان همّ معظم تلك الدول أن تسيطر اقتصاديا ،عن طريق حصولها على السيادة في البحار ،ذات الاهمية التجارية . فقد غامرت فرنسا مثلا في (الحروب الايطالية) (١٤٩٤-١٥٥٩) لتكون لها السيطرة على (البحر المتوسط) ، واتحدت الملكية الفرنسية ،وعلى رأسها " شارل الثامن " مع البورجوازية الفرنسية لتحقيق هذا الهدف . وكان هذا الملك مندفعا وراء حلم من احلام العصور الوسطى ،ومتشبثا بفكرة صليبية عنيدة ،تحقق له استيلاءه على نابولي وقبرص،اولا ،فالعالم الاسلامي ،وبيت المقدس ،والقسطنطينية منه بالذات ثانيا . وأيدته البورجوازية الفرنسية في سياسته هذه ،كي تستخدم قواته الحربية في فتح اسواق الشرق لها ،وانتزاع الاولوية الاقتصادية فيها من ايدي البنادقة .

وبينما كانت فرنسا تخوض حربها في ايطاليا ،لتفرض سيادتها على البحر البحر المتوسط ،ولتنفذ منه الى البلاد العربية والاسلامية ، كانت اسبانيا والبرتغال قد بدأتا حربهما ضد العرب المسلمين في شمالي افريقيا ؛البرتغال في السواحل الغربية للمغرب الاقصى ، واسبانيا في المغرب الاوسط،وتونس . وكان هدف اسبانيا بصفة خاصة ،مطاردة المسلمين الذين اخرجتهم من ديارها ،والتثبيت لنفسها في تلك البقاع ،وبذلك تضمن سيادتها البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتقطع دابر "الجهاد البحري الاسلامي" في هذا الجزء ،الذي كانت تسميه " القرصنة " ،والذي كان يهدد شواطئها ، وسفنها ،وطرق مواصلاتها البحرية بغاراته .

واذا كانت اسبانيا والبرتغال قد نجحتا في مطلع القرن السادس عشر في مد نفوذهما على الحوض الغربي للبحر المتوسط ، فالتفتا على العالم العربي الاسلامي من غربه ،فانهما نجحتا ــ كما هو معروف ، وكما اشرنا آنفا ــ في اكتشاف طريقين

للهند ،غير الطريق المعروفة والمارة عبر البلاد الاسلامية . فاسبانيا اكتشفت قارة امريكا ومنها الى الهند ،والبرتغال،طريق رأس الرجاء الصالح .

ولم تكتف البرتغال من كشفها الطريق الجديدة ، بالتجارة عبرها فقـــط، والحصول على الخيرات والارباح ،وانما ارادت احتكار تجارة الشرق الاقصى كلها ، وابعاد العرب والمسلمين عنها نهائيا . ولتحقيق هذا الهدف حطمت المدن العربية الاسلامية على ساحل افريقيا الشرقي،مثل،موزامبيق (معبيج) ،وكلوة ، ومصباســا، وغيرها (١)،كما اشير الى ذلك في المقدمة .ولاحقت جميع السفن العربية فـــي المحيط الهندي ، واستخدمت جميع الاساليب الوحشية مع ركابها وبحارتهـــا ، وضغطت على امراء الهند كي لا يسمحوا للعرب بالمتاجرة في موانئهم ، وهـــددت البحر الاحمر والاماكن المقدسة الاسلامية ،وهاجمت عدن ،واستولت على سوقطـرة (عام ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م) في خليج عدن ،وعلى هرمز في الخليج العربـــي (عام ٩١٣ هـ/ ١٥٠٧ م) .

وهزت تلك الاحداث المسلمين ،وارسل سلطان المماليك " قانصوه الغوري " بعثة الى البابا ،وملكي البرتغال وقشتالة ،يهددهم ،ولما لم تجد وسيلته نفعا ، ارسل اسطولا الى الهند بقيادة "حسين الكردي " ،وكان قد عينه واليا علـــى (جدة)،فعمل على تحصينها وتحويلها الى قاعدة بحرية قادرة على التصدي لاي هجوم برتغالي على الارض المقدسة . واستطاع ان يحرز نصرا على البرتغاليين فـي (شاول) جنوبي بومباي ، عام ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨ م . ولكن النصر ما لبث ان تحول الى هزيمة في (ديـو) ٩١٥ هـ/ ١٥٠٩،وطورد "حسين الكردي " واسطولـه حتى البحر العربي . ويبدو ان " قانصوه الغوري "ارسل اسطولا آخر الى الهند بقيادة " سليمان ريس " ،وكان من البحارة المهرة الذين بعثت بهم الدولة العثمانية الى الدولة المملوكية لمساعدتها في حربها ضد البرتغال . وكان من المتفق ان يتصل بالامير حسين في جدة ،ويقوما بعملية حربية واسعة ضد البرتغاليين . وكانت هـذه

.....

(١) انظر حول ذلك "ليلى الصباغ ،افريقيا الشرقية في مطلع العصر الحديث (القرن العاشر/ السادس عشر)"بحث قدم الى ملتقى الفكر الاسلامي الثالث عشر،في تمنغست في الجزائر ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م .

الحملة في ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م.ويبدو انها لم تصل الى افضل ما وصلت اليه سابقتها، وقد قامت عند عودتها بالتدخل في شؤون اليمن ،واحتلال (زبيد) في ١٩ جمادى الاول ٩٢٢ هـ/ ٢٠ تموز ١٥١٦ م ،وحاولت ضم (عدن) الا انها اخفقت .وخلّف الامير حسين قوة في اليمن ،وعاد ادراجه الى جدة .

وفي هذا الوقت كان (البرتغاليون) يراسلون (الصفويين) للاتفاق معهم ضد (المماليك) ،ويسعون لدى (نجاشي الحبشة) للهدف نفسه .

وهكذا حوصرت الدولة المملوكية بالخطر البرتغالي ،وفقدت سمعتها وهيبتها كدولة اسلامية قادرة على حماية المسلمين ،والدفاع عن الاماكن المقدسة ، كما ثبت اخفاقها في تأمين سهل التجارة الاسلامية ،والحفاظ على طريق التجارة مع الهند .

وتخير السلطان " سليم " هذا الوقت ليقوم بهجومه على المماليك ،وكأنه اراد ان يثبت للمسلمين ان مهمة حماية الاماكن المقدسة يجب ان تناط به ،وانه المنقذ الوحيد للعالم الاسلامي السني من الخطر البرتغالي والخطر الشيعي . وبذلك يبرز بطلا اسلاميا ،ويحقق احلامه في بناء امبراطورية غربية ـ شرقية على غرار امبراطورية اسكندر المقدوني ،الذي كان يحب ان يتشبه به .

وصفوة القول ،لقد قام السلطان بمحاربة المماليك ،وضم بلاد الشام ومصر والحجاز ،لا ليستجيب لمطالب الاهالي في تخليصهم من الحكم المملوكي الظالم ، كما تشير بعض المصادر (١) ولا لمجابهة الخطر الصفوي الشيعي فحسب ،كما أكد تويني ، وانما لاسباب اوسع يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ـ بسط السيطرة العثمانية على الحوض الشرقي للبحر المتوسط ،كجزء من سياسة الدولة العثمانية البحرية ،التي رسم خطوطها السلطان " محمد الفاتح " ، وتابعها ابنه " بايزيد الثاني " من بعده ، وتبناها " سليم الاول " لانسجامها مع الوضع الدولي في زمنه ،ومع مطامحه الخاصة ،ومصلحة امبراطوريته. فبسط السيطرة العثمانية على بلاد الشام ومصر ،يكون السلطان " سليم " قد

---

(١) عيسى اسكندر المعلوف . تاريخ الامير فخرالدين المعني الثاني . مصر ١٩١٧ ص ٥ الحاشية . وابن اياس . بدائع الزهور ج ٣ . ص ٥٠ .

قبض على ناصية الحال في شرقي البحر المتوسط ،وأبعد عنه نفوذ البنادقة والجنويين وعبث قراصنة البحر الاوربيين ،وأمّن مواصلات الدولة العثمانية وتجارتها . وليتم السلطان سليم سيادته على شرقي البحر المتوسط ،فانه جهز حملة في عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩ م لمهاجمة رودس ،كما فعل جده " محمد الفاتح "،الا ان المنية عاجلته. وقد انجز هذه المهمة من بعده ابنه السلطان " سليمان " .

٢- مد النفوذ العثماني الى بلاد المغرب العربي ،وابعاد مطامع اوربا عن تلك البقعة الاسلامية ،ومن ثم تحقيق السيطرة العثمانية على حوض البحر المتوسط بأكمله ،واعادة "الدولة العربية الاسلامية " بامتدادها ،ووحدتها ،اللذين كانت عليهما في اواخر العصر الاموي واوائل العباسي ، هذا بالاضافة الى الاحتفاظ بصفاء سنيتها،عن طريق ابعاد التسلط الشيعي عليها . ومتابعةً لهذا الهدف ، يلاحظ ان "السلطان سليم "لم يقف عند فتح بلاد الشام ومصر فحسب ، بل انه امد "خيرالدين بربوسا "وكان من "غزاة البحر العثمانيين " ،الذين كانوا قد نشطوا في غربي البحر المتوسط ، وقرب السواحل الاسبانية والايطالية بعد سقوط غرناطة ،وكان هو وأخوه "عروج " قد اخذا على عاتقهما تقديم العون للمسلمين في (الجزائر) ،ضد الاسبان المغيرين عليها بحماية من الانكشارية والمتطوعة ،تعينه في عملياته العسكرية فيها . وبالفعل انضوت الجزائر منذ عام ٩٢٥ هـ/ ١٥١٩م تحت النفوذ العثماني، واتخذتها الدولة العثمانية مركزا لعملياتها الحربية غربي البحر المتوسط ، تصارع منه قوى اوربا الغربية ،وبخاصة اسبانيا في عهد "شارلكان "،الذي كان في الوقت نفسه الامبراطور الجرمني المقدس ،والعدو الاقوى للدولة العثمانية في شرقي اوربا .

٣- منع تطويق البرتغال للعالم العربي الاسلامي ،وانقاذ الاماكن المقدسة من الوقوع بأيديهم ،بعد ان ثبت اخفاق المماليك في هذا الميدان ،والحفاظ عليها تجاه الشيعة ايضا . ولا بد من الاشارة هنا الى ان "السلاطين العثمانيين "بصفتهم ورثة " مفهوم الغزو والجهاد " ،كانوا يشعرون بأن هذا واجب اول من واجباتهم. وكانوا يكنّون كل احترام وتبجيل للمدينتين المقدستين ، حتى انهم قبل عهد السلطان عهد السلطان سليم ،خصصوا اوقافا هامة في الاناضول ، وشبه جزيرة البلقان لصالح

الحرمين الشريفين(١) وعدّ المجلس ،الذى دعاه السلطان سليم للانعقـــاد ، لاستشارته في امر محاربة مماليك مصر ، " نيل السلطان حق حماية المدينتيـــن المقدستين شرفا ومجـدا كبيرين له " (٢) . وكان لقـب " خادم الحرمين الشريفين الذى لقبه به خطيب الجامع في حلب ،بعد دخوله اليها اثر معركة (مرج دابق) لقبا عزيزا على نفسه . وفي الرسالة التي بعث بها الى " شاه شروان" ،يبلغـــه فيها نبأ انتصاره في مصر ،فانه بين ان المماليك كانوا غير قادرين على حماية طريـق الحج في الحجاز من هجمات العربان ، وان الله قد اوكل اليـه مهمة اعـادة النظام وتطبيق الشريعة الاسلامية ،وتسيير المحمل (٣) . ويبدو ان السلطان سليم كان على صلة مع اشراف مكة والمدينة قبل قيامه بفتح بلاد الشام ،بدليل البعثـــة التي ارسلها هؤلاء اليه عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦ م ، ولكن المماليك لم يسمحوا لهـــا بالوصول الى استامبول (٤) .

٤ــ المحافظة على طريق البحر الاحمر والمحيط الهندي التجاري بيد المسلمين ،وابعاد البرتغاليين ، وصدهم نهائيا عن تهديد العالم العربي الاسلامي ،وربما تهديد الدولة العثمانية نفسها ،اذا ما نجح اولئك البرتغاليون ،نتيجة تحالفهم مـــع الصفويين ،والاحباش ،من التسرب الى بلاد الجزيرة العربية ،والبحر المتوسط. وقد ابدى سليم اهتماما كبيرا بهذا الامر ،حتى انه كلف " سليمان ريس" بانشاء اسطول حربي في (السويس) . وقد توجه هذا الاسطول الى اليمن وعدن ،وضم اليـــه (سواكن) على الساحل الغربي للبحر الاحمر . ويعزى الى " سليمان ريس " هذا مذكرة توصي بانشاء " محطة لاسطول حربي دائم في (السويس) ،ليمنـــع دخول البرتغاليين الى البحر الاحمر ، كما تشير الى ضرورة الحفاظ على الطريـق

---

(١) Hammer Purgstall (Joseph von) : Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, traduite de l'allemand par j.j.Hellert, 18 vols, Paris, 1835—1843 vol. IV. P.65

H. Inalcic, Op.Cit. P.318

(٢) Hammer, loc.Cit. vol IV. P 262

(٣) H. Inalcik, loc. Cit. p. 321

(٤) Ibid, P. 318

التجارية مفتوحة(١). وجاء السلطان "سليمان" بعد وفاة ابيه ليكمل عمله في هذا الميدان. فقد كرّس لانتزاع السيطرة من البرتغاليين على بحار الهند، جهودا كبيرة، ولا سيما عندما وصلته بعثات ملوك المسلمين في الهند، تطلب منه المساعدة ضد البرتغاليين. وبالفعل ارسل بضع حملات بحرية الى الهند عن طريق البحر الاحمر، والخليج العربي، كحملة "خادم سليمان باشا" والي مصر عام ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م، وحملة "بيري ريس"، التي استهدفت طرد البرتغاليين من الخليج العربي عام ٩٥٨ هـ/ ١٥٥١ م، وحملة "سيدي علي ريس" في ٩٥٩ هـ/ ١٥٥٣ م. وعمل على مساعدة "احمد غران" زعيم (دويلة عَدَل) شرقي الحبشة، الذي كان في حرب ضد الاحباش، والبرتغاليين الذين اتوا لمساعدتهم عام ٩٤٨-٩٥٠هـ/ ١٥٤١-١٥٤٣ م. واذا كانت تلك الجهود لم تثمر نجاحا، الا انها تدل على أن العثمانيين كانوا جادين في استخلاص تلك الطريق من البرتغاليين، وابعاد البرتغال عن جنوب الجزيرة العربية وشرقها، وعن البحر الاحمر. بل فكروا في جميع الوسائل التي يمكنهم فيها استعادة تلك الطريق من غاصبيها حتى بفتح قناة بين السويس والبحر المتوسط (٢)، بل ان ضم السلطان سليمان لبلاد العراق عام ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م، وسعيه الحثيث للسيادة في اليمن، عام ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٩م، وقد نفوذه الى الاحساء عام ٩٥٨ هـ/ ١٥٥٢م، وسيطرته على موانئ سواكن، وزيلع ومصوع على ساحل السودان وارتيريا، وتكوين (ولاية الحبش) من الاقليم الاخير، هي جزء من ذلك المخطط. وظل العثمانيون يتابعون هذا حتى اواخر القرن العاشر/ السادس عشر، حيث قام اسطول عثماني عام ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م بابعاد البرتغاليين من بعض مدن افريقيا الشرقية، وقبل "حاكم ممباسا" بتبعيته للدولة العثمانية.

---

(١) Ibid, P. 331.

(٢) انظر حول ذلك "Kammerer La Mer Rouge l'Abyssinie et L'Arabie depuis L'Antiquité, 3 vol, Le Caire, 1920, Vol. II.P. 142-143

واذا كانت معظم تلك المحاولات لم تكلل بالنجاح ، الا انها ضمنت للعثمانيين السيادة في البحر الاحمر وتأمين طريق المواصلات البحري بين الحجاز ومصـــر ، بل ان تجارة التوابل التي كانت قد ضعفت نتيجة سيطرة البرتغاليين في المحيـط الهندي ، رأت انتعاشا في منتصف القرن العاشر/ السادس عشر م .

٥ ــ الحصول على ما تدره بلاد الشام ومصر وغيرها من البلاد العربية من موارد . فقـد قدر ما اعطته سورية ومصر للخزينة العثمانية في ٩٣٤ هـ/ ١٥٢٨ م بـ (١٠٠) مليون اقجـه سنويا (١) اى ما يعادل ثلث وارد الامبراطورية كلها (٢) .

ان ما ذكر آنفا هو في الواقع الاسباب العميقة والبعيدة للفتح العثماني لبلاد الشام ومصر ، بل لمجموع البلاد العربية ، اما الاسباب المباشرة للحرب بين دولـة المماليك والعثمانيين فهي قائمة في العلاقات بين الدولتين .

العلاقات بين العثمانيين والمماليك (٣) .

ان المتتبع لعلاقات الدولتين منذ بدايتها ، يلاحظ انها لم تكن علاقات عنـف وحرب ، بل كانت على النقيض من ذلك ، علاقات وئام وسلام . فقد كانت الدولـــة المملوكية ، في بدء نشأة الدولة العثمانية ، منشغلة بصد غزوات التتر ، وطرد آخـر فلول الصليبيين من بلاد الشام . اما الدولة العثمانية ، فكانت متجهة بانظارها الى اوربا ، تبحث عن مرتكزات لاقدامها في شبه جزيرة البلقان ، ومن ثم كان التقاء كل دولة الى الاخرى ضئيـلا .

وعندما حدث في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي الاجتياح التتري التيموري ، وعدد العثمانيين كما عدد المماليك ، حاول الطرفان التقـــارب

.....

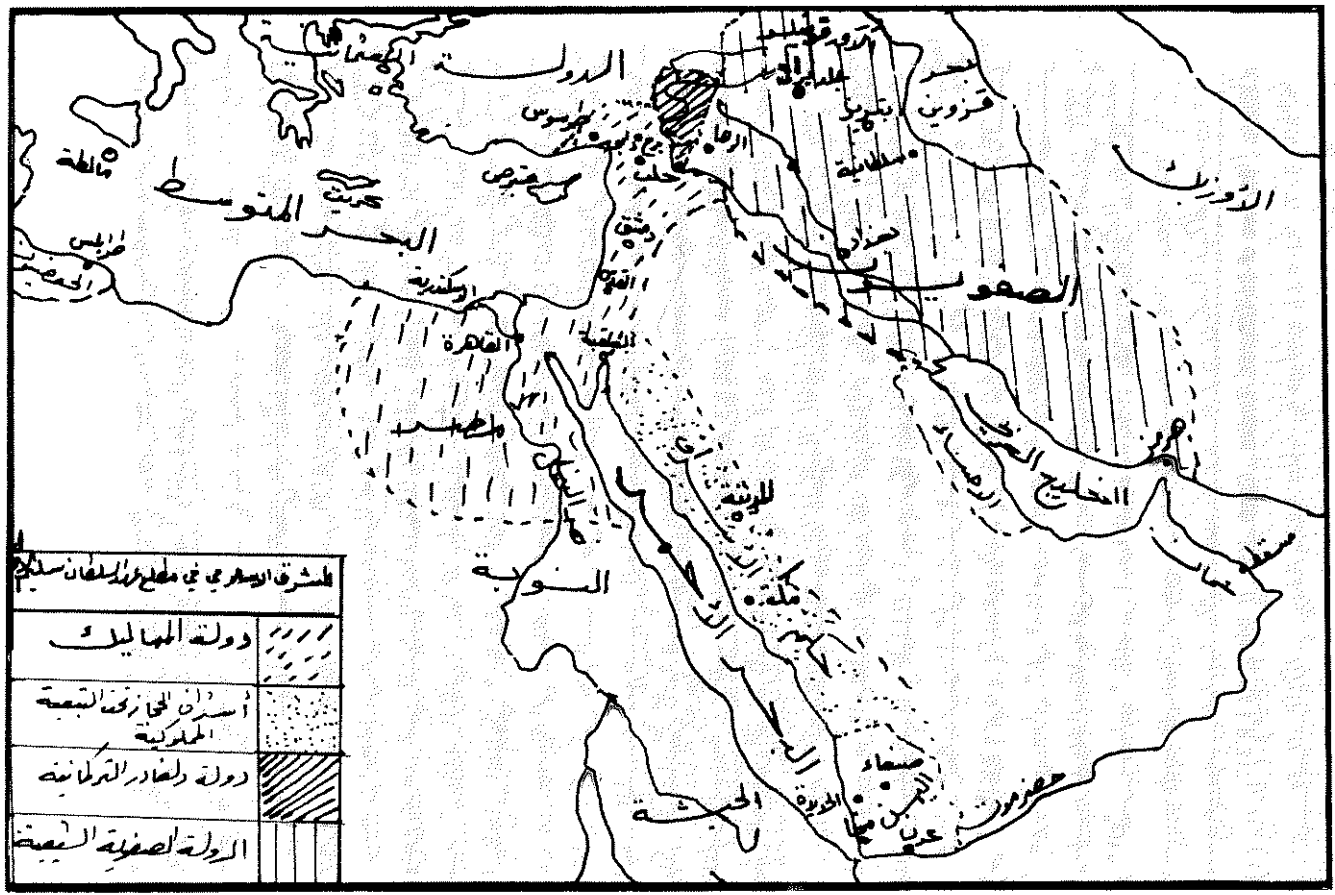
(١) H . Inalcik , Op. Cit. P.319

(٢) Ibid , The Ottoman Empire. The Classical Age 1300-1600, London, 1973 , P. 128

(٣) انظر حولها مقال الدكتور محمد مصطفى زيادة تحت عنوان "

"The End of The Mamelouk Dynasty"

في مجلة كلية الآداب ــ جامعة القاهرة (فؤاد سابقا) ــ مايو ١٩٤٢
وقد نشر بالعربية في المجلة التاريخية ــ المجلد الرابع . العدد الاول .
مايـو ١٩٤١ .


الدولة
البحر المتوسط
الصفويين
القاهرة
الاسكندرية
دمشق
حلب
بغداد
تبريز
قزوين
الاحساء
مسقط
مكة
المدينة
صنعاء
عدن
الحبشة
النوبة
الدولة العثمانية
الدولة الصفوية الشيعية
دولة المماليك
أسرار المجاورة التبعية المملوكية

والتصادق . وكان البادئ هو سلطان بني عثمان ،اذ بعث قاصدا الى "الظاهر برقوق "يطلب منه ان يكون واياه يدا واحدة على العدو المشترك ،وكان جـــواب برقوق وديا وايجابيا .

ولما فتح السلطان "محمد الثاني " القسطنطينية ، اظهرت الدولة فرحتها وامرت بتزيين القاهرة لعدة ايام . الا ان العلاقات اخذت تسوء عندما عمـــل السلطان العثماني على تحويل بصره نحو آسيا ،واستولى فعلا على (دولة قرمان)، وشرع يتدخل فـي الشؤون الداخلية لدولة (ذي القدر) . وازداد التأزم فـي عهد " بيازيد الثاني " لما قدم المماليك العون لـ"جـم" ضد اخيه .وحـاول السلطان المملوكي " قايتباي " اعادتهما الى الصفاء لما ارسل في عام ٨٩١ هـ / ١٤٨٥ مبعوثا الى السلطان " بيازيد " يحمل تقليدا من الخليفة العباسي لابن عثمان ، كي يكون مقام السلطان على بلاد الروم،وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد الكفريـة ،مع طلب من الخليفة بتخميد الفتنة المستعرة بين المماليك والعثمانيين ولكن العثمانيين كانوا قد صمموا على القتال ،وقامت حرب بين الطرفين ، تناوبا فيهـا النصر والهزيمة ، وانتهت بصلح عام ٨٩٦ هـ/ ١٤٩١ م ،يعيد الحالة على الحـدود بين الطرفين الى ما كانت عليه .

وعادت العلاقات سلمية وودية ،حتى ان "قانصوه الغوري "على ما يبدو ، طلب العون من العثمانيين في حربه ضد البرتغال ، وبالفعل قامت الدولة العثمانية بتقديم مساعداتها ، فأرسلت (٣٠) مركبا تحمل الخشب و ٣٠٠ بندقية ، الا ان " فرسان القديس يوحنا "في رودس استولوا عليها . وفي ٩١٦ هـ/ ١٥١١ ، وصل الى المماليك (٤٠٠) بندقية و (٤٠) قنطارا من البارود (١). وتؤكد وثائـــق " طوب قابي سراي "في استامبول ان عددا من القادة البحريين العثمانييـــن ارسلتهم الدولة العثمانية الى مصر ، لبناء مراكب حربية ومنهم الامير "حسين الكردي" و "الريّس سليمان " اللذين اشرنا اليهما سابقا . كما لم تتوقف عن مد المماليـــك بالخشب والحديد ،لبناء السفن .

---

(١) H.Inalcik , The Rise of The Ottoman Empire , Camb. Hist. of Islam, vol I, P 317.

ولكن الجو السياسي بين الدولتين تلبد في عهد السلطان سليم . فقد سعى الصفويون للتقرب من المماليك ضد العثمانيين ،ولكن المماليك كانوا يتخوفون من مطامع الشاه اسماعيل ، ولذا لم يضعوا يدهم في يده . ويظهر من المصادر ،انه اثناء الحرب العثمانية ـ الصفوية ،كان موقف المماليك موقف المتفرج . الا انه بعد انتصار سليم على اسماعيل شاه ،وتقدمه ظافرا الى ديار بكر ، واورفه ،وحتى الرقة والموصل ،واحتلاله دولة ذي القدر ، ومتاخمة الدولة العثمانية مباشرة للدولة المملوكية ،شعر " قانصوه الغوري " بالخطر الكبير ،فقرر السير بجيشه الى الشمال. وتذكر المصادر بأن السلطان سليم اتهم " قانصوه " بمنع القوافل عن الذهاب الى عسكر سليم بالمسيرة ،محبة بالشاه اسماعيل "(١). كما انه رفض تسليم ابن اخ السلطان سليم اليه . وكان قد لجأ الى مصر، بعد ان كان لاجئا الى الشاه . كل هذا فجر الحرب بين الطرفين .

وفي ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ/ ٢٤ آب ١٥١٦ (٢) اصطدم الجيشان في معركة (مرج دابق) شمالي حلب ، وكان النصر فيها للعثمانيين . ويرجع ذلك الى المدفعية التي كانوا يملكونها ،ويقدرون عدد وحداتها بخمسمائة مدفع ،بينما كان المماليك لايقتنون منها شيئا . هذا بالاضافة الى اعتماد العثمانيين على الاسلحة النارية ،على نطاق واسع ، بينما حافظ المماليك على سلاحهم العادي ، السيف والحربة ، وقتال الفرسان . والى جانب ذلك ،فان مماليك السلطان (الجلبان) لم يبذلوا فعالية كبيرة في القتال ،اذ وقع في روعهم ان السلطان قدم عليهم المماليك الآخرين (القرانصة) ،لقلة ثقته بهم وتحقيرا لشأنهم ، مع انه فعل ذلك ليبقيهم لحمايته ، ويقصد (القرانصة) الذين لا يسكنون له آيات الولاء كما يكنها

.....

(١) محمد بن ابي السرور البكري الصديقي :المنح الرحمانية في الدولة العثمانية. مخطوط في المكتبة الوطنية في الجزائر تحت الرقم (M. 1651). ص١٧ T

(٢) يذكر ابن طولون ،المؤرخ الدمشقي المعاصر للفتح ،ان المعركة جرت يوم ٢٤ رجب (مفاكهة الخلان ج ٢ ص ٢٤) ،بينما يؤكد ابن اياس ،المؤرخ المصري المعاصر هو الآخر للاحداث ،انها جرت يوم (٢٥ رجب) (بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٥) ويجاريه في ذلك النجم الغزي (الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٩٧) .

له مماليكه الخاصون . ويجب الا ننسى كذلك ،الخيانة التي تفشت في صفـــوف المماليك ، ومنها خيانة "خاير بك" نائب حلب. ويبدو انه كان على صلة مـــع السلطان سليم ،وانه اتفق معه على شروط معينة تجعل دخول السلطان سليم الـى بلاد الشام سهلا ويسيرا .وقد لعب دوره المشبط للعزيمة اثناء المعركة ،وعند دخـول العثمانيين حلب .

ودخل "سليم الاول "حلب دون قتال ، واستقبل فيها الخليفة العباسي "المتوكل على الله" ، وثلاثة من قضاة القضاة . وحضر صلاة الجمعة في جامع الاطروش،وخطب باسمه ،واضيف الى القابه "خادم الحرمين الشريفين "،وكان من القاب السلطـــان المملوكي . واستولى على ماخلّفه " فانصوه " من كنوز واموال فيها .

ومن حلب انطلق سليم الى دمشق ،مارا بحماة ،وحمص ، دون أن يلقى مقاومة. واتفيـــق العلماء ومشايخ الحارات على تسليم دمشق له ،بعد ان كان "جانبردي الغزالي "،الذي كان المماليك الفارون من مرج دابق قد اختاروه لنيابتها ،قـــد غادرها هو الاخر ،مسلما امرها الى "ناصر الدين بن حنش" امير البقاع(١). وفـي الفاتح من رمضان عام ٩٢٢ هـ/ ٢٨ ايلول ١٥١٦ ،كان السلطان سليم في (برزة) في ظاهر دمشق ، وفي ١٣ رمضان ٩٢٢ هـ/ ١٠ تشرين الاول،دخل السلطـــان الى دمشق.وبقي في دمشق نيفا وشهرين ،عمل فيها على تعرف اوضاع بلاد الشـــام وتطبيق بعض النظم العثمانية فيها ، واستقبال بعثات بعض الامراء المحليـــيـــن ، الوافدة اليه من جنوبي بلاد الشام ، وفي زيارة معالمها ، ومنها مدفن الشـــيخ "محي الدين بن العربي" .

وفي الوقت الذي كان فيه السلطان سليم يدخل مدينة دمشق ،كان الامـــراء المماليك يجتمعون في القاهرة لاختيار "طومان باي "ابن اخي السلطان السابق ، ونائبه على مصر في غيبته سلطانا عليهم .

.....

(١) لتفصيل اكبر انظر "ليلى الصباغ":الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها .
رسالة ماجستير قدمت الى جامعة القاهرة ١٩٦١ ولما تطبع بكليتها بعـــد .
ص ٧٥ — ٨٠ .

وكان السلطان " سليم " وهو في دمشق يرقب الاحداث في مصر ، ويظهر انه لم يكن مستعجلا في الوصول الى القاهرة . وربما كان قد اراد بتباطئه النسبي ان يتعرف موقف المماليك منه . ولا شك انه كان يفضل الحلول السلمية على متابعة الحرب ، لانه كان يعرف ان تجمع المماليك في مصر ، قوة يخشى منها ، ولا سيما ان الانتقال بجيوشه يبعده كثيرا عن عاصمة ملكه . ولذا عرض على " طومان باي " البقاء في مصر على ان يجعل الخطبة والسكة باسمه ، مع تولية سليم من يراه على القلاع ، الا ان سلطان المماليك الجديد رفض العرض ، وقتل الرسل .

وتقدمت جيوش السلطان سليم نحو جنوبي سورية ، وقرب غزة اصطدمت بقوات المماليك بقيادة " جانبردي الغزالي " . ولكن النصر كان حليف العثمانيين ، ووقع " الغزالي " اسيرا . ويبدو انه سهلت له سبل الفرار لتعاونه مع العثمانيين ، ولاطلاعهم على الخطة الحربية لطومان باي .

ومن غزة سار " سليم الاول " نحو القاهرة عابرا الصحراء . وكان " طومان باي " يرى مقاومة التقدم العثماني في نقطة ابعد من " الريدانية " اذ يكون العثمانيون قد تضاعف ارهاقهم بعد عبور صحراء سيناء ، الا ان الامراء المماليك اصروا على التمركز في (الريدانية) ، حيث نصبوا فيها المدافع ، مقلدين هذه المرة العثمانيين . ولكن هؤلاء الاخيرين التفوا عليهم ، وجرت بين الطرفين معركة حامية الوطيس ، في ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢ هـ/ ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ م ، انفرجت عن هزيمة المماليك وانتصار العثمانيين ، وتراجع " طومان باي " الى القاهرة نفسها ، فتبعه العثمانيون .

وسبق الخليفة العباسي " المتوكل على الله " السلطان سليم الى القاهرة ليهدئ روع السكان ، ويخلق الجو الملائم لدخول السلطان ، وكأنه بذلك يعطيه بركته ، ويمنح الشرعية للحكم العثماني الجديد . ودخل سليم القاهرة في ٣ محرم ٩٢٣ هـ/ ٢٦ كانون الثاني ١٥١٧م ، ليجد جوا متوترا ومعاديا ؛ فكل طريق فيها قد حولته المماليك الى ميدان قتال ، وحدثت اشتباكات عنيفة في الشوارع ، انتهت بتسليم بعض المماليك انفسهم الى السلطان ، وفرار " طومان باي " ، والتجائه الى شيخ بدو (البحيرة) " حسن بن مرعي " . ولم يلبث هذا الشيخ ، تحت تأثير

اغراءات سليم له بتقليده على جميع مشايخ البدو ، واقطاعه المنطقة التي يقيم فيها ، أن سلم "طومان باي" الى السلطان سليم . فأمر بشنقه على باب زويلة في ٢١ ربيع الاول ٩٢٣ هـ/ ١٣ نيسان ١٥١٧ م .

وبعد ان زار "السلطان سليم" مدينة الاسكندرية ، وتفقد اسطوله فيها بقيادة "بيري باشا" ، وبعد ان قام ببعض التنظيمات السريعة في القطر المصري ، قرر العودة الى بلاده ، ولا سيما ان الانباء قد وصلته بأن "الشاه اسماعيل" قد عاد الى التحرك في منطقة كردستان . وعين قبل رحيله من مصر "خاير بك" والياعليها، وترك حامية فيها. وغادر السلطان سليم مصر في ٢٣ شعبان ٩٢٣ هـ/ ١٠ أيلول ١٥١٧ متجها نحو دمشق . وكان قد سبقه الى استامبول بامر منه ، الخليفة "المتوكل على الله العباسي" ، وعديد من الصناع المصريين .

ووصل سليم دمشق ثانية في ٢١ رمضان ٩٢٣ هـ/ ٧ تشرين الاول ١٥١٧ م ، وتلقى فيها بعض ولاء القبائل ، ونشر راية العثمانيين الحمراء على الجامع الاموي بدلا من سنجق المماليك الاصفر ، وعمل على قمع ثورة "ناصر الدين بن حنش" في لبنان ، وامر ببناء جامع على ضريح الشيخ محي الدين بن العربي ، ثم عين "جانبردي الغزالي" واليا في بلاد الشام ، وعلى المنطقة الممتدة من المعرة حتى العريش. وخرج من دمشق في ١٠ صفر ٩٢٤ هـ/ ٢١ شباط ١٥١٨ . وفي ٩ ربيع الاول ٩٢٤ هـ/ ٢٢ آذار ١٥١٨ وصل الى حلب ، ومنها الى استامبول .

وهكذا هوت "الدولة المملوكية" على يد السلطان سليم ، واستقر لبني عثمان الامر في مصر ، كما كان قد استقر لهم في الشام . واحس العالم الاسلامي بقوة الدولة العثمانية اكثر فاكثر ، فتتالت الوفود منه تقدم للفاتح الجديد ، فروض الطاعة والولاء ، اوعروض الصداقة والمودة . وأهم هذه البعثات كانت بعثة "شريف مكة" "بركات بن محمد" الذي ارسل نيابة عنه ابنه "ابا نمي محمد" حاملا معه مفاتيح الكعبة الشريفة ، فثبّته في حكم الحجاز نيابة عنه . وبذلك غدا السلطان سليم هو الحامي الفعلي لمكة والمدينة ، والخادم الحق للحرمين الشريفين . ووقع على عاتقه منذ تلك الآونة ، ما كان واقعا على كواهل السلاطين المماليك ، من كسوة مشرفة للكعبة ، واحتفال لائق بسفر الحجيج والمحمل ، والدفاع عن الاماكن المقدسة من

الاخطار التي تتهددها .

وكذلك قدمت القوات المملوكية الموجودة في بلاد اليمن الولاء للسلطان سليم فثبت السلطان اميرها (رمضان) نائبا عنه في اليمن .

وقد اشير سابقا الى استنجاد "خيرالدين بربروسا" بالسلطان سليم ،وارسال هذا الاخير الفين من الانكشارية والمتطوعة اليه ،وبذلك وقعت الجزائر تحت نفوذه وحمايته .

وهكذا انضوى تحت لواء السلطان سليم جزء كبير من العالم الاسلامي الممتد في آسيا وافريقيا . وفي هذا الامتداد ، وجد المؤرخون ، الذين يقولون ان من اسباب ضم العثمانيين لسورية ومصر هو طموح السلطان سليم لضم جميع العالم العربي الاسلامي لحكمه ،دليلا على رأيهم .(١) ويضيفون الى ذلك قولهم ،بأن ذلك الطموح قد توج بانتزاعه لقب "خليفة المسلمين" من الخليفة العباسي "المتوكل على الله"، لانه رأى ان يجمع به "وحدة الخلافة" جميع الشعوب التي تدين بالدين الاسلامي ، ويعيد للدولة العربية الاسلامية السابقة وحدتها . وهم بذلك يفرضون ان سليما ،بهزيمته للمماليك في معركة (مرج دابق) ، قد اجبر الخليفة العباسي على التنازل عن الخلافة ، او ان الخليفة تنازل له عن ذلك طوعا . وفي الحقيقة ليس غريبا ان يذهب بعض المؤرخين هذا المذهب ، فليس مستبعدا على سليم ، وقد تبنى القضايا الاسلامية الكبرى آنذاك ، كالحرب ضد الشيعة الصفويين والجهاد ضد المسيحيين من اسبان وبرتغاليين وبلقانيين وغيرهم ، وسعيه لحماية العالم الاسلامي والاماكن المقدسة ، وضمه لعاصمة الامويين (دمشق) ،والعاصمة الثانية للخلافة العباسية (القاهرة) ، من ان يكون قد فكر بالزعامة الدينية . ويذهب بعض المؤرخين بعيدا ،فيشيرون الى ان التنازل عن الخلافة لسليم قد تم في احتفال رسمي في جامع اياصوفيا في استامبول .(٢) ولكن ليس هناك في الواقع

---

(١) انظر . احمد جودت . تاريخ . تعريب عبد القادر دنا . ص ٤٢—٤٥

(٢) وينسب هذا الى مصدرين :
H. Inalcik, Op. Cit, P. 320
M d'Ohsson TabLeau General de L'Empire Ottoman 7 vols paris 1788 1824 vol I P. 89 ; — Mehmed Ata, Tarikh, IStanbul 1291, P. 92

احد من المؤرخين المعاصرين للسلطان سليم من العرب او الترك اشار الى مثل هذا ، مع انهم اشاروا الى امور عديدة اقل اهمية من هذا الحدث . كما لم تتعرض كتب الفقه في هذه الحقبة لهذا الموضوع ، مع انه لو كان قد حدث ،كان لابد ان يثير الافكار والنقاش، انه من المتفق مبدئيا بين معظم الفقهاء ، ان الخلافة يجب ان تبقى محصورة بالعرب ، ومن قريش . فانتقالها الى الاتراك ،حادث جلل، لايمكن ان يمر دون ان يتطرق اليه احد من المؤرخين والفقهاء المعاصرين ،ولا سيما وان بعض المؤرخين المعاصرين ، " كابن اياس" ، كان يتتبع بالتفصيل ما دار بين الخليفة المتوكل، والسلطان سليم .

وفي الحقيقة،لقد اثيرت قضية " وراثة الاتراك للخلافة " في القرن الثامن عشر، عندما اعطى السلطان العثماني لنفسه لقب" الخليفة " في معاهدة "كوشوك قينارجة" بين روسيا والدولة العثمانية عام ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م . تلك المعاهدة التي اعترفت باستقلال "خانات القرم" ، وفي الوقت ذاته سمحت للسلطان العثماني بالاحتفاظ ببعض الحقوق فيها ،بصفته "خليفة المسلمين" . ويلاحظ ان السلطان " احمد الثالث" كان قد اتخذ لقب "خليفة جميع المسلمين" في معاهدة سابقة لتلك المعاهدة ، وقعها مع " نادر شاه " ملك فارس في ربيع الاول ١١٤٠ هـ / تشرين الاول ١٧٢٧ م.ويبدو ان غرضه من ذلك، هو انتزاع اعتراف شاه فارس بمضمون ذلك اللقب . وفي القرن التاسع عشر درج السلاطين العثمانيون على تأكيد هذا اللقب ، وذلك لدعم سلطتهم الدينية على الشعوب الاسلامية التي يحكمونها،تعويضا عن النفوذ السياسي،والعسكري ،الذي فقدوه نتيجة ضعف الدولة العثمانية . وكان اكثر المتحمسين لهذا اللقب ، السلطان "عبد الحميد الثاني" ،في الربع الاخير من القرن التاسع عشر واوائل العشرين ، لانه يقوي ،ويتوج " سياسة الجامعة الاسلامية " التي تبناها . وهدفه منها ،لم جميع المسلمين حول شخصه ،وبذلك يرهب الدول الاوربية التي شرعت تمد نفوذها على البلاد الاسلامية في افريقيا ،وآسيا، كفرنسا ، وانكلترة ،وروسيا ، ويجعلها تحسب حسابه ؛ هذا بالاضافة الى ربط مختلف شعوب امبراطوريته المسلمة بالسلطنة العثمانية ،وتخليها عن الافكار القومية التي انتشرت بينها ،واخذت تهدد الامبراطورية العثمانية بالانحلال والزوال .

ولكن هذا لا يعني ان سلاطين " بني عثمان " لم يتخذوا لقب "خليفة " قبل القرن الثامن عشر ، فقد ظهر تعبير "الخلافة العليا " في رسالة وجهها السلطان سليم الى " شاه شروان " ،يخبره فيها بنصره في بلاد مصر ،وخضوع الحجاز لسلطته ،ويطلب منه ان يتقبل "خلافته العليا " وان يذكر اسمه في الخطبة "(١) كذلك ،وفي رسالة بعث بها السلطان "سليمان القانوني " الى شريف مكة ، يعلمه فيها بتسنمه عرش السلطنة و "الخلافة " . وأكد شريف مكة في جوابه انه بارادة الله قد شغل "سرير السلطنة العظمى ومسند الخلافة الكبرى " ، وانه يفتحه لبلاد الفرنجة غدا رئيسا على كل سلاطين الاسلام .(٢) وفي مقدمة " قانون نامه" بودا ، التي سطرها المفتي " ابوالسعود " ، وُصف السلطان سليمان على انه " وريث الخلافة الكبرى .... وحائز الامامة العظمى ،وحامي حمى الحرمين المحترمين "(٣) بل ان المؤرخين العرب في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين،كانوا يشيرون احيانا الى استامبول على انها " دار الخلافة " ،بل ودافع بعضهم عن " النسب القرشي " لبني عثمان وانهم يتصلون بـ "عثمان بن عفان " (٤) وكأنهم بذلك يردون على من ينكر هذا النسب ، ويطعن في خلافتهم . بل ان المؤرخ "ابن اياس" نفسه ، المعروف بنقمته على الدولة العثمانية ،كان من ضمن هؤلاء(٥) .

ومما ذكر ،يستدل ،على ان لقب "الخلافة " كان من القاب سلاطين بني عثمان ، منذ عهد السلطان سليم ،ولكن لا يبدو انهم في دور القوة ، قد تشبثوا

.....

(١) Inalcik , Op. Cit, P.321

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) انظر ابراهيم بن عامر العبيدي المالكي ،قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان . مصر ١٣١٧ هـ،ص٢١ فما بعد (وقد دون كتابه عام ١٠٩٢ هـ / ١٦٨٠ م) .

(٥) بدائع الزهور . ج ٣ . ص٢٣٧ .

باثبات انهم قد ورثوه عن خلفاء بني العباس ،او ان آخر خليفة عباسي قد تنازل لهم عنه . ولعله ارتسم في اذهانهم ،وهم في ذروة قوتهم ، على انهم في حكمهم للعالم الاسلامي الذي انضوى تحت رايتهم ، وفي ممارستهم واجب الجهاد ،وحماية هذا العالم والدفاع عنه ،وفي تطبيق الشريعة ، هم من افضل السلاطين المسلمين في ذلك العهد ،واقواهم . فهم يحيون اذاً واجبات "الخليفة" ،كما كانت في عهد الخلفاء الراشدين ، ومن ثم فهم استمرار لهم . وقد يكون هذا الامر قد ارتبط في اذهانهم آنذاك بفكرة اساسية وهي ، ان كل حاكم مسلم يملك السلطة القوية لتعزيز الشريعة الاسلامية ، وحماية العالم الاسلامي ، يمكن ان يسمي نفسه "خليفة" . ومن البديهي ان يخدم هذا المفهوم للخلافة ، ارادتهم في بسط سيادتهم ونفوذهم على كل العالم الاسلامي . واذا بدا انهم لم يظهروا اهتماما كبيرا ودائما في تثبيت هذا المضمون في نفوس الشعوب الاسلامية التي حكموها ، والدولة العثمانية قوية ، فلانهم كانوا لا يحتاجون لذلك ،لان الجماهير الاسلامية كانت منجذبة بطبيعتها الى قوتهم الجهادية تجاه الاوربيين ،طالما ان الانتصارات تتتالى ، ورايات الاسلام ترفع عاليا . ولكن منذ ان تضعضعت تلك القوة ،ولحقتهم الهزائم ، وطغت اوربا عليهم ،فانهم شرعوا يحيون في الاذهان السلطة الدينية للخلافة ، كما حدث لخلفاء بني العباس في ادوار ضعفهم الاخيرة (١) .

.....

(١) انظر حول موضوع السلطنة العثمانية والخلافة ما كتبه حسن عثمان ،في كتاب "منهج البحث التاريخي". القاهرة ، ١٩٧٠ ،ص ١٧٦ ،وما كتبه أسد رستم، في "مصطلح التاريخ". بيروت ١٩٣٩ . ص ١٩٢—١٩٤ . وكذلك دراسات المؤرخ "غب" Gibb : (الاولى) تحت عنوان :
"Lutfi pacha on the Ottoman Califate", in, ORIENS, XV (1962), 287-95

و (الثانية) تحت عنوان :
"Some Considerations on the Sunni Theory of the Caliphate", in, STUDIES ON THE CIVILIZATION OF ISLAM, ed. Stanford J. Shaw & W. R. Polk, (Boston. Mass. 1962) 141-150

وبضم السلطان سليم لبلاد المشرق العربي الاسلامي المتوسطي ،وتطاوله الى المغرب العربي ،فتح باب الصراع بين الاتراك العثمانيين ودول اوربا في غـــرب البحر المتوسط على مصراعيه . وامتـزج الصراع الصليبي بصراع اقتصادي ـ سياسي عدفه السيادة على البحر المتوسط . فقد احس العالم الاوربي ان انتصـــارات العثمانيين في بلاد الشام ومصر ،قد قضى على توازن القوى في هذا البحر ،وعادت القوة الاسلامية فعّالة بعد ان اعتقدت الملكة ايزابيلا ، ملكة قشتالة ، انها قـــد قضت اجنحتها بطرد العرب من غرناطة ، وملاحقتهم في بلاد المغرب . فها هم المسلمون ثانية يحثون السير في المغرب والبحر المتوسط ، كما فعل العرب المسلمون قبلهم ،وتبدت قوة الاتراك لرجال السياسة في مدريد كهلال ، قرنه الاول يتجـــه نحو فينا ،والآخر نحو مضيق جبل طارق . وهذا ما برز فعلا في عهد السلطـــان "سليمان" الذى خلف اباه السلطان سليم على العرش ،وحكم ما يقرب من نصف قرن، (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ/ ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) ووصلت الدولة في عهده الى اوج توسعها وقوتها ،في اوربا ،والعالم الاسلامي ، كما نظمت داخليا واداريا ،وسنت القوانين ، حتى لقب السلطان سليمان "بالقانوني" . وقد ساعده في انجازاته وزيران قويان: "ابراهيم باشا" ،و "محمد الصقلي" . ومثلما حققت الدولة في عهده انجازاتهـــا التوسعية والادارية الهامة ،فانها وصلت حضاريا الى مستوى رفيع ، في ميـــدان التعليم والعلم ، وفي ميدان الفن . فالمعمار سنان الشهير (سنان) اقام عديدا من الابنية ، كان من ابرزها (مسجد السليمانية) في استامبول .

ولم يخرج السلطان سليمان عن سنة ابيه واجداده في الجهاد والغزو ،بـــل اتبع خطاهم.وكان همه اولاً ،ان ينجز مالم يفلح ابوه وجده محمد الفاتح في انجـازه .

ويتبين من الفتوحات التي قام بها "سليمان" طيلة حكمه ، انه كان يتوخـــى منها ثلاثة اهداف ،هي :

١ـ تثبيت فتوحاته ، وترسيخ قدمه في شرقي اوربا .

٢ـ السيطرة على البحر المتوسط .

٣ـ سيادة بقية العالم المشرقي الاسلامي ،والسيطرة على بقية المنافذ الى طريـــق الهند التجارية ،وطرد البرتغاليين منها .

اما حول الهدف الاول ، فقد ابتدأ بتحقيقه ، بالاستيلاء على (بلغـــراد) مفتاح اوربا الوسطى ، عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢١م ، واتبع ذلك بهجوم قوي على (هنغاريا) ، حيث انتصر في معركة (موهاغز) الشهيرة ، عام ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦م ، ودخـــل العاصمة (بودا) . ويبدو ان الدولة العثمانية كانت متهيبة من حكم (هنغاريا) حكما مباشرا ، ولذلك فانها اقامت على عرشها احد نبلائها المجر ، المســـمى (زابولوي) على أن يقدم لها الجزية ويعترف بتبعيتها . ثم تقدم سليمان حتـى القى الحصار على (فينـا) عاصمة (الامبراطورية الجرمنية الرومانية المقدسة) ، حامية حمى (المسيحية الاوربية) وذلك في ٢٢ محرم ٩٣٦هـ/ ٢٦ ايلول ١٥٢٩ م .

واقلق تقدم السلطان " سليمان " اوربا والبابوية ، ولكن انقسامها الى معسكرين متحاربين : معسكر يرئسه " شارل الخامس " او (شارلكان) ، ملك اسبانيـــا والامبراطور الجرمني المقدس ، ومعسكر يتزعمه " فرانسوا الاول " ملك فرنسا ، منعها من تجريد حملة صليبية ضد التقدم العثماني . والأدهى من ذلك ، ان ملك فرنسا قد استن سياسة جديدة في العلاقات الدولية الاوربية ، وهي تغليب مصلحتـــه ، ومصلحة بلاده ، على مصلحة مجموع المسيحية الاوربية ، بأن سعى الى عقد تحالـف مع " الدولة العثمانية " ضد خصمه " شارلكان " . وكان من نتائج تلك السياســة ، حصول فرنسا على تلك المعاهدة التجارية مع الدولة العثمانية ، التي تسمح لهـــا بالتجارة في الامبراطورية بشروط حسنة ، والتي عرفت في التاريخ باسم " الامتيازات " (شعبان ٩٤١ هـ/ شباط ١٥٣٥) . كما كان من آثارها احتدام الصراع مـــع الامبراطورية الجرمنية المقدسة ، واسبانيا ، في البحر المتوسط وشرقي اوربا . بـــل ومن روابطها ، اتجاه السلطان سليمان نحو التحالف مع " البروتستان " ، وحثهـــم على التعاون مع ملك فرنسا ، ضد الامبراطور . فمثلما كانت اوربا منقسمة سياسيا الى معسكرين ، فان الوحدة الدينية فيها كانت قد تصدعت ، نتيجة " الاصلاح الديني البروتستنتي " عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م ، وغدا الاوربيون فريقين متناحرين دينيـــا : الكاثوليك والبروتستان . وقد كشفت الدراسات الحديثة ، ان الصلات بين البروتستان والدولة العثمانية ، وضغط هذه الاخيرة الحربي على آل هبسبوغ (الاسرة الحاكمة في الامبراطورية الجرمنية المقدسة) ، كان عاملا هاما في دعم قوى الاصلاح الديني ، واعتراف الامبراطورية به . وغدا تشجيع الدولة العثمانية للبروتستان ودعمهم ، فـــي القرنين السادس والسابع عشر ، احد المبادئ الرئيسية في السياسة العثمانيـــة .

وهدفها من ذلك ابقاء اوربا منقسمة على نفسها ،واضعاف الامبراطورية المسيحية ، ومنع صليبية متحدة ضدها . ولذلك فانها منحت انكلترا البروتستانتية عام ١٥٨٠ م، امتيازات مشابهة للتي منحتها لفرنسا الكاثوليكية ، وكذلك فعلت عام ١٠٢١هـ / ١٦١٢ م مع هولاندة الكالفنية (البروتستنتية) .

وهكذا يتبدى ان حرب السلطان سليمان مع (آل هبسبورغ) ،كانت شبه مستمرة في شرقي اوربا ،فقد كان الامبراطور واخوه يعملان على انتزاع (هنغاريا) من الدولة العثمانية ، وبالمقابل كانت هذه الاخيرة حريصة على وجودها في قبضتها . وعندما توفي (زابولوي) في ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠ م،واراد " فرديناند " اخو الامبراطور ان يستفيد من ذلك ويحكم قبضته على (بودا) ، فان السلطان بتعاون مع فرنسا ،نجح في حربه في المجر ،وكوّن منها ولايتين تابعتين للدولة العثمانية .

وفي البحر المتوسط ، سارت خطى السلطان " سليمان " متوافقة مع خطاه في شرقي اوربا ،ومع سياسة تحالفه مع فرنسا . وقد ابتدأ غزواته فيه،باستيلائه على (جزيرة رودس) باب البحر المتوسط الشرقي عام ٩٢٩ هـ/ ١٥٢٢ ، وطرد منها " فرسان القديس يوحنا "، الذين عملت اسبانيا على وضعهم في (طرابلس الغرب)، وكانت قد احتلتها عام ١٥١٠ م .

وليتابع " سليمان حربه في البحر المتوسط ،فانه اعطى "لخير الدين بربروسا " بصفته " بكربكي الجزائر " قيادة جميع القوى البحرية العثمانية (قبطان باشي)، وامر " بربروسا " بأن يعمل متعاونا مع فرنسا . وقد قام " بربروسا " بغزو الساحل الايطالي ، كما انتزع (تونس) من الاسبان في صفر ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤ م ، وجعلها قاعدة لعملياته . وقد فكر " سليمان " باجتياح ايطاليا بمساعدة فرنسا ، ولذلك استولى على حصون البندقية القائمة على ساحل الادرياتيك (٩٤٤—٩٤٥هـ/ ١٥٣٧ — ١٥٣٨ م) ،وانتصر الاسطول العثماني على اسطول اوربي متحالف ، على رأسه البندقية عام ١٥٣٨ . وكان هذا النصر دليل التفوق العثماني البحري في البحر المتوسط ، الذي دام حتى (معركة ليبانتو) عام ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م .

وفي الوقت الذي هاجم فيه السلطان " سليمان " هنغاريا عام ٩٤٨ هـ/ ١٥٤١م، فان " شارلكان " قام بحملته على (الجزائر) ليحطم قوة بربروسا والاسطول العثماني

الا انه هزم هزيمة ساحقة واضطر للانسحاب . وفي عام ٩٥٠ هـ/ ١٥٤٣ م ، وهو يتوغل في " هنغاريا " ثانية، فانه وضع تحت تصرف فرنسا (١١٠) من السفن الحربية تحت قيادة بربروسا ، وانضم اليها (٥٠) سفينة فرنسية ، فرضت الحصار على (نيس) . وفي ذلك العام قضى الاسطول العثماني الشتاء في ميناء (طولون) الفرنسي ، وظل التعاون الفرنسي ـ العثماني في البحر المتوسط قائما حتى في عهد " هنري الثاني " بن " فرانسو الاول " . فبينما كان هذا الاخير يتوسع في الشمال حتى نهر الرين ، كان الاسطول الفرنسي ـ العثماني يدافع عن جنوب فرنسا ، حتى انه احتل (كورسيكا) عام ٩٦٠ هـ/ ١٥٥٣ م لصالح فرنسا .

وقد حاول العثمانيون بعد ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠ م ان يطردوا " فرسان القديس يوحنا " من المناطق التي استوطنوها ، في (طرابلس الغرب) اولا ، ثم في (مالطة) ثانيا ، وان يسودوها ، لاهميتها الستراتيجية ، اذ كانت تسيطر على مضائق وسط البحر المتوسط ، ولان هؤلاء الفرسان كانوا يشنون حرب قرصنة شديدة ضد السفن العثمانية . وقد نجح العثمانيون في انتزاع (طرابلس الغرب) في ١١ شعبان ٩٥٨ هـ/ ١٤ آب ١٥٥١ ، الا انهم اخفقوا في حصار (مالطه) ، في صيف عام ٩٧٢ هـ/ ١٥٦٥ م .

وهكذا ، على الرغم من القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط ، والتعاون مع فرنسا ، فان السلطان " سليمان " لم ينجح في السيطرة الكاملة على البحر المتوسط ، ولم يستطع ان يثبت نفوذه على كامل المغرب الاسلامي ، فقد عادت (تونس) الى ايدي الاسبان ثانية عام ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥ م ، ولم يعد يد المعونة للمسلمين ، الذين قسروا على التنصر في اسبانيا بعد سقوط غرناطة (الموريسك) ، ولم ينجح في فرض نفوذه في المغرب الاقصى عن طريق الجزائر .

اما الاتجاه الثالث في التوسع العثماني ، وهو العالم العربي الاسلامي ، والمنافذ المؤدية الى طريق الهند التجاري ، فيمكن حصره في النقاط التالية:

١ـ ضم بلاد العراق الى الامبراطورية العثمانية : وكانت الاجزاء الشمالية منها كالموصل وما جاورها من الحصون الجزرية ، قد سيطر عليها السلطان سليم بعد معركة (جلديران) . الا ان بغداد بقيت بيد الصفويين . وكان السلطان

سليمان حريصا على مد نفوذه على عاصمة الخلافة العباسية سابقا ، وعلى الوصول الى الخليج العربي ، وعلى قطع دابر التدخل الشيعي الصفوي في الاناضول. وفي الوقت ذاته كان يريد وضع حد لتلك العلاقات التي اراد الامبراطور " شارلكان " ان يقيمها مع الشاه الصفوي ضد الدولة العثمانية . وارسل السلطان " سليمان " حملة بقيادة " ابراهيم باشا " عام ٩٤٠ هـ/ ١٥٣٣ م ، احتلت (تبريز)، حيث لحق بها السلطان نفسه . ثم تقدما نحو بغداد ، التي خضعت للعثمانيين في ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١ هـ/ ٣١ كانون الاول ١٥٣٤ م . وقدم امير البصرة العربي ولاءه للسلطان . وبذلك حقق " سليمان " هدفه في السيطرة على الطريق التجارية بين الخليج العربي والبحر المتوسط، المارة ببغداد فحلب ، او ببغداد فدمشق، ومن المدينتين الشاميتين (دمشق وحلب) الى البحر المتوسط . الا انه بالمقابل ، كان عليه ان يستخلص الامتدادات الهامة لهذه الطريق ، التي توصل الى الشرق الاقصى وبلاد الهند ، والتي كانت بيد البرتغاليين .

٢ـ الفتح الاول لليمن عام ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨–١٥٣٩ م . وقد كلف به والي مصر " سليمان باشا الخادم " ، الذي رئس الحملة البحرية المرسلة الى الهند لمحاربة البرتغاليين . ففي طريقه ، كان عليه ان يضع حدا لاضطراب الاحوال في بلاد اليمن ، وتنازع القوى المختلفة . وقد احتل عدن ، ووطد السلطة العثمانية في مدنها الرئيسية . وجعلت الدولة العثمانية من اليمن (بكلربكية) عام ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠–١٥٤١ م ، وارسلت اليها ولاتها من العثمانيين . ولكن الامور لم تستتب فيها ، اذ ظل الائمة الزيدية يناصبون العثمانيين العداء ، ويرفضون الرضوخ ، مما اضطر الدولة الى ارسال حملة اخرى بقيادة " سنان باشا " والي مصر عام ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩–١٥٧٠ م ، اي في عهد السلطان " سليم الثاني " بن سليمان القانوني ، لتوطيد الحكم العثماني فيها . واعتبر المؤرخ العربي المعاصر لتلك الحملة ، " قطب الدين محمد المكي " ، نجاح سنان في حملته ، بأنه " الفتح الثاني العثماني " وذلك في كتابه " البرق اليماني في الفتح العثماني " .

٣ـ ضم منطقة " بربرستان " في جنوبي مصر ، وشمال السودان ، وتشمل النوبة السفلى بين الشلالين الاول والثاني ، وعين العثمانيون عليها " كاشفا " من المماليك لادارتها

٤ـ سيادة العثمانيين على المنطقة الساحلية على البحر الاحمر جنوبي مصر ، وتضم

موانئ سواكن ، ومصوّع ،وزيلع ،وتكوين ولاية منها ،اطلبق عليها اسم (ولايـــة الحبش) وذلك حوالي عام ٩٦٥ هـ / ١٥٥٧ م .

٥ــ الاستيلاء على "القطيف" في الخليج العربي في ٩٥٧ هـ/ ١٥٥٠م ،وعلـــى (البحرين) في ٩٦١ هـ / ١٥٥٤ م . وقد صد الهجوم البرتغالي على الاولـــى مرتـــين .

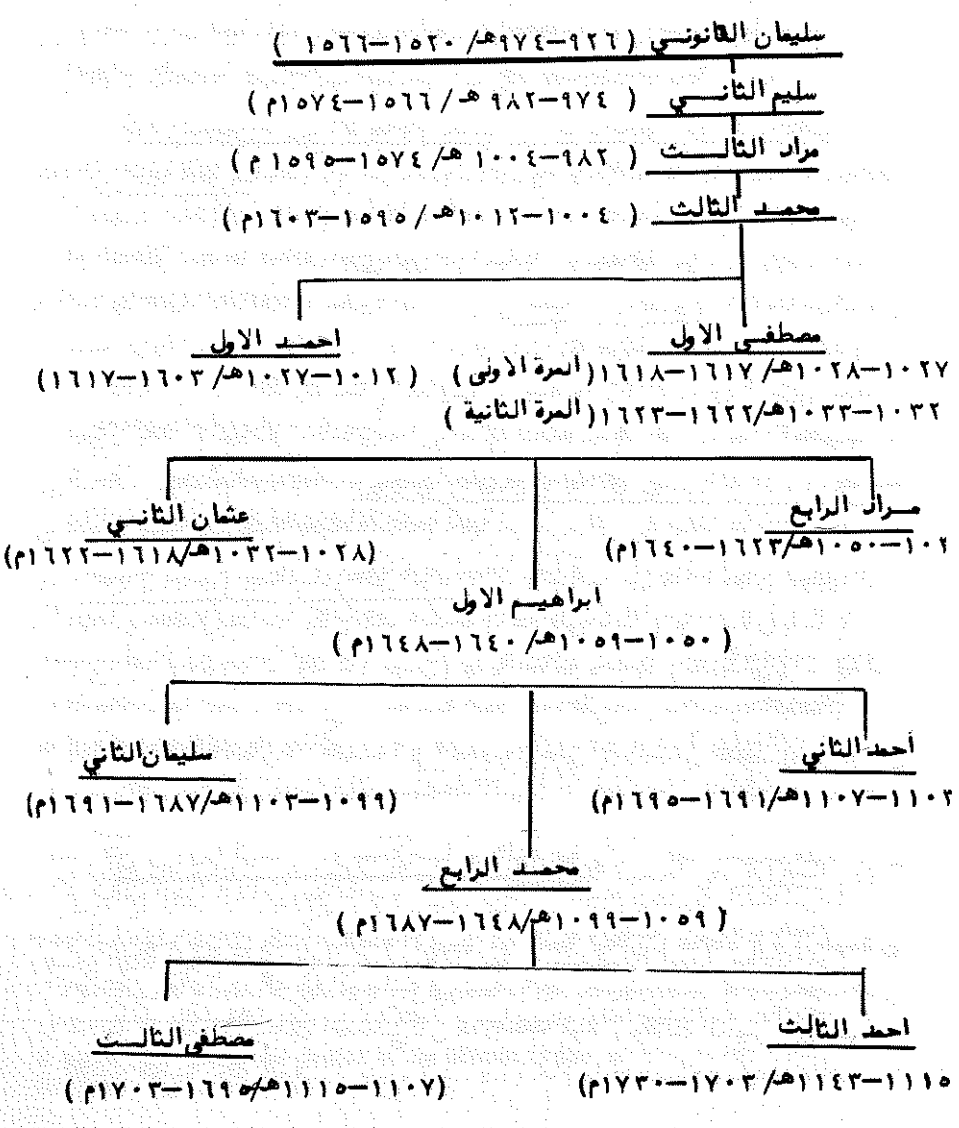
٦ــ تسيير حملات بحرية الى الهند لمساعدة امرائها وملوكها من المسلمين . الذيـــن استنجدوا بالسلطان سليمان ضد البرتغاليين ،وقد أشير اليها آنفا .

الحقبة الثالثة من حياة الامبراطورية (٩٧٤ــ١١١٥هـ/ ١٥٦٦ــ١٧٠٣ م)

وفيها تابعت الدولة العثمانية فتوحاتها ،واستيعابها للبلاد العربيـــة ، وتوطيد تلك الفتوحات . فالى هذه المرحلة ،يرجع ضمها لبلاد اليمن ،وتونـــس، وتثبيت قدمها في العراق . الا ان الضعف بدأ ينتابها تدريجيا ،واعداؤها مـــن الاوربيين يعملون جاهدين للتغلب عليها ،والحاق الهزيمة بها ،حتى فقدت جزءا من ممتلكاتها في اوربا في نهاية هذه الحقبة وهو (المجر) . واضطربت احوالها الداخلية ،وشرع الجيش يثور ليعين سلطانا ويعزل آخر . وقد توالى على السلطنة اثناء هذه الحقبة (١٢) اثنا عشر سلطانا هم:(سليم الثاني ،ومراد الثالث،ومحمد الثالث ،واحمد الاول ،ومصطفى الاول ،وعثمان الثاني ، ومراد الرابع ،وابراهيم الاول ومحمد الرابع، وسليمان الثاني ،واحمد الثاني ، ومصطفى الثاني) .

ان وفاة "السلطان سليمان "عام٩٧٤ هـ/ ١٥٦٦م تمثل في الواقع بدايـــة "الحقبة الثالثة " من حياة الامبراطورية العثمانية ، وبداية مرحلة الانحطاط الطويلة للدولة . فعلى الرغم من ان امتدادها الخارجي لم يتوقف في هذه الحقبة ،الا ان اعراض الضعف بدأت تتهدى ،فالسلطة الفعلية انتقلت من السلطان الى بطانتـــه. ولذلك تتميز هذه الحقبة بظهور طبقة من الوزراء الاقوياء قبضت على السلطـــة ، وعوضت الوهن الذى كان من سمات سلاطين هذه المرحلة . كما انتشر الفســـاد والرشوة ،وتراخى تطبيق القوانين ،وفقد الجيش الانكشاري نظامه ،وتبدلت بنيته، وتفكك نظام الفرسان (السباهية) ،وفسد النظام الاقطاعي ،وكثرت تمـــردات

شجرة نسب سلالة بني عثمـــــان
خلال الحقبة الثالثـــة



الجيش في العاصمة ،واخذ يقيم سلطانا ويخلع آخر وتفاقمت الصراعات في الولايات بين مراكز القوة فيها . ومع مظاهر الضعف تلك ،لم تنفك الدولة العثمانية عن حروبها ،ومتابعة فتوحها ،وان كانت قد مالت فيها الى التلكؤ . وفي الوقت نفسه لم تعد تحقق فيها تلك الانتصارات الباهرة المعتادة ،بل اصيبت فيها بعدد من الهزائم ،الزمتها على التخلي عن اجزاء من امبراطوريتها لاعدائها .

ويمكن تلخيص حروب الدولة وتوسعاتها في هذه الحقبة ،بالنقاط التالية:

١ــ فتح جزيرة قبرص ٩٧٨-٩٧٩ هـ/ ١٥٧٠-١٥٧١ ، وانتزاعها من يد البندقة . وذلك لاهميتها الستراتيجية لطرق مواصلات الامبراطورية العثمانية في شرقي البحر المتوسط. الا انه تكوّن ضدها تحالف اوربي قوى ضم اسبانيا ،والبندقية ،والبابا ،وقد اصطدم اسطول هذا التحالف بالاسطول العثماني في خليج (ليبانتو) (الساحل الشمالي لشبه جزيرة المورة) ،عام ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م ،وهزمه هزيمة ساحقة ،وفقدت الدولة العثمانية في هذه المعركة معظم اسطولها . وعندما اراد الاسطول الاوربي استعادة قبرص بعد " ليبانتو " فانه وجد ان الدولة العثمانية قد اعادت بناء اسطولها ثانية . ومن ثم قبلت البندقية توقيع الصلح مع الدولة في ٩٨٠ هـ/ ١٥٧٣ ،وفيه تنازلت عن قبرص ، ودفعت غرامة حربية كبيرة .

٢ــ فتح (تونس) وميناءها (حلق الواد) ، وانتزاعها من يد الاسبان ،وطرد آخر سلطان حفصي فيها . وكان قائد الحملة (فتح علي باشا) و (سنان باشا) ،في ٩٨١ هـ/ ١٥٧٤ م . وغدت (تونس) ولاية عثمانية يحكمها (بكربكي) . وبذلك اصبحت بلاد المغرب العربي ــ ما عدا المغرب الاقصى ــ بيد الدولة العثمانية . ولكن احتفظ الاسبان بـ" طليلة " (المغرب الاقصى) ،والمرسى الكبير ،ووهران ، (الجزائر) .

٣ــ فتح (جزيرة كريت) ،واستخلاصها من البندقية) . فقد تحولت هذه الجزيرة في اواخر القرن العاشر وفي النصف الاول من القرن الحادي عشر/ السادس عشر والسابع عشر، الى وكر للقرصنة الاوربية ،ولا سيما قرصان (مالطة) و (طوسكانا) مما عدد مواصلات الدولة العثمانية في البحر المتوسط وتجارتها ، ولذا عزمت على فتحها . ولكن الاسطول العثماني كان قد وهنت قواه ، وكذلك الجيش ، ولذلك تطلب فتحها وقتا طويلا (١٠٥٥-١٠٨٠ هـ/ ١٦٤٥-١٦٦٩ م) . هذا

بالاضافة ،الى ان عددا من الدول الاوربية قدم العون الى البندقية ،كالانكليز ، والاسبان ،والفرنسيين ،والبابا ،وطوسكانا ،ومالطة .

٤- حرب الدولة العثمانية مع مسكوفيا ، او الدولة الروسية الجديدة ،وهي ما يطلق عليها اسم " المشكلة الشمالية " . فمن المعروف ان (مسكوفيا) كانت دولة صغيرة في اوائل القرن السادس عشر ،الا انها شرعت تتوسع تدريجيا نحو الجنوب ، على حساب اراضي (خانات القبيل الذهبي) ،وتحتوي حوض الفولغا ،وتحتل (قازان) و (استراخان) ١٥٥٢-١٥٥٦ . ووجد القيصر الروسي حليفا في الجراكسة (جورجيا) . وقد احس العثمانيون بالخطر يتهدد ممتلكاتهم في حوض البحر الاسود ففكر (محمد الصقللي) بمشروع يمكنه من ايصال اسطوله الى (استراخان) ،فبحر قزوين ،وبذلك يخرج الروس من حوض الفولغا ،ويطوق الدولة الصفوية الشيعية . وذلك بحفر قناة بين نهري (الدون) ،و (الفولغا) . ولكن المشروع اخفق ،وانتهى الصراع بين الطرفين ، الذي بدأ عام ٩٧٧ هـ/ ١٥٦٩ باتفاق ،يبقي استراخان وقازان بيد الروس ، وتعترف روسيا بسيادة الدولة العثمانية على (خانات القرم) و (جورجيا) و (القوقاز) ،وتفتح الطريق من آسيا الى القرم امام العثمانيين .

٥- فتوحات العثمانيين في قفقاسيا والحرب مع الصفويين . استغل العثمانيون الاضطرابات الداخلية في فارس ،بعد وفاة (الشاه طهماسب) ،واستولوا على جورجيا ، وشروان وغيرها . ودامت الحرب مدة طويلة (٩٨٦-١٠٤٩ هـ/ ١٥٧٨-١٦٣٩ م) ، وتناوب الطرفان النصر والهزيمة . وخلالها قوي امر الصفويين ،بعد ان نظموا جيشهم تنظيما جديدا ،وتحالفوا مع النمسا ، وقطعوا الحرير عن الدولة العثمانية بتصديره عن طريق المحيط الهندي ،وموسكو . وقد نجحوا في اعادة بغداد ، والعراق كلها (١٠٢٣ هـ/ ١٦٢٣ م) . وكانت الدولة العثمانية انذاك تعاني اضطرابات "الجلالية "(١) في الاناضول ، وثورة الجيش في العاصمة،وسيطرة

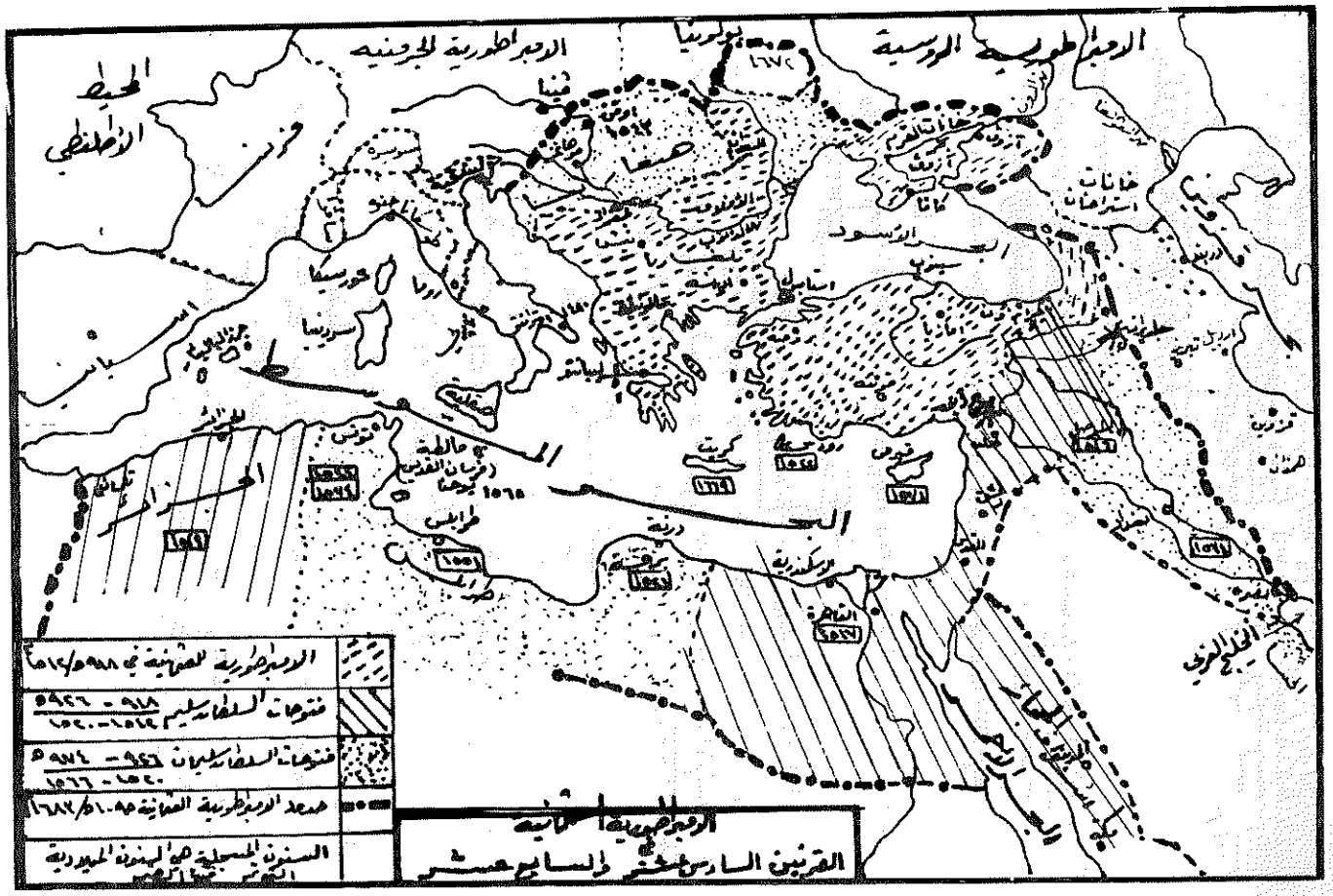
---

(١) الجلالية ،في اصلها الاول فرق عسكرية من "السكبان" ،اي من الفرق العثمانية غير النظامية ،المسلحة بالبنادق ، التي استخدمها ولاة الدولة العثمانية في القرن الحادي عشر / السابع عشر الى جانب الانكشارية ،وكانت تجمع عادة ايام الحروب ولا تتقاضى اجورا ايام السلم . ومن ثم فان بعض افراد هذه الفرق كانوا يعدون الحرب،اما يقدمون عونهم للولاة المتمردين ،او يعطون بالسلب والنهب.وهؤلاء بالذات هم الذين اطلق عليهم اسم (الجلالية) ،وقد اقلقوا الدولة في الاناضول . انظر حولهم " H Inalcik, The Heyday and Decline of the Ottoman Empire, in the Camb. Hist. of Islam, vol I, p.348-350 .

" القابي قول "على شؤون الدولة . الا ان السلطان "مراد الرابع" قبض على زمام السلطة بقوة ، مما مكّن الدولة من استرداد بغداد في ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م ،وانتهت الحرب بصلح تنازلت فيه الدولة العثمانية عن قسم من فتوحاتها في قفقاسيا واذربيجان .

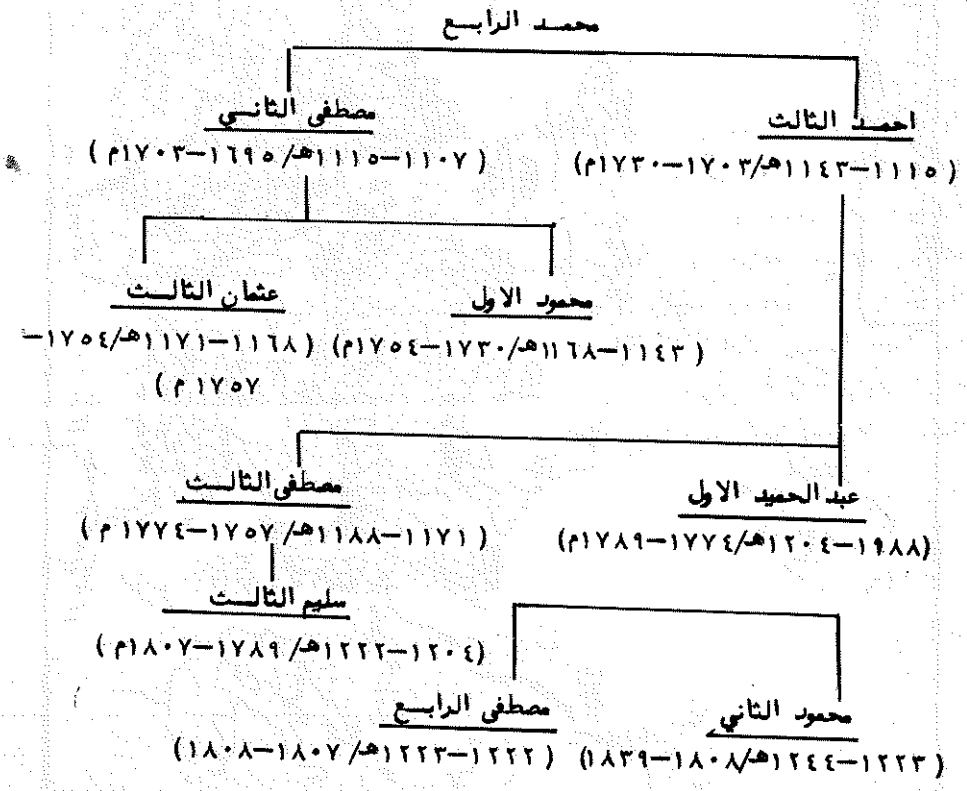
٦ـ حروب الدولة العثمانية مع النمسا في وسط اوربا . والعقدة في هذه الحروب هي (هنغاريا) . فالنمسا تود انتزاعها من الدولة العثمانية ، وهذه بالمقابل حريصة على ابقائها في يدها . وامتدت الحرب طويلا وكانت على فترات متقطعة ، وتميزت بحصار العثمانيين لڤينا ثانية (٢٢ رجب ـ ٢٠ رمضان ١٠٩٤ هـ/ ١٧ تموز ـ ١٢ ايلول ١٦٨٣ م) ، وانتهت بتوقيع (صلح كارلوتز)(١١١٠/ ١٦٩٩ م). وفيه تنازلت الدولة العثمانية عن هنغاريا للنمسا وأخذت البندقية شبه جزيرة المورة ، وساحل دالماشيا ، كما غنمت روسيا آزوف ،بعد ان تابعت الحرب وحدها .

ان (معاهدة كارلوتز) تمثل منعطفا خطيرا في حياة الدولة العثمانية ، ولذلك نظر اليها على انها نهاية حقبة من حياة الدولة وبداية اخرى . فبعد ان ارهبت الدولة العثمانية اوربا لاكثر من ثلاثة قرون ،توقفت عن ان تكون قوة مهاجمة . فحروبها بعد هذا التاريخ غدت حروبا ضعيفة في وجه القوى الاوربية الصاعدة . ومع ذلك فانها ظلت قائمة لقرنين آخرين ،مع انكماش تدريجي في حدودها . واسباب بقائها ترجع الى تنافس القوى الاوربية الكبيرة فيما بينها ، وخشية الشعوب البلقانية الراغبة في الاستقلال من السيطرة الاوربية عليها ،وتحديث الدولة او اصلاح مؤسساتها على النمط الاوربي . وقد بدأ هذا الاصلاح من القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، هذا بالاضافة الى عزم " المحارب التركي " واستبساله بالقتال ،على الرغم من الضعف العام الذى اصاب الجيش .


الامبراطورية العثمانية
القرنين السادس عشر والسابع عشر
الامبراطورية الصفوية في ٩٨٨هـ/١٥٧٦م
فتوحات السلطان سليم ٩١٨ - ٩٢٦هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م
فتوحات السلطان سليمان ٩٢٦ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠ - ١٥٦٦م
حدود الامبراطورية الصفوية ٩٨٠ - ١٠٥٢هـ / ١٥٧٢ - ١٦٤٢م
السنوات المسجلة على المسكوكات الحيدرية
البحر الأسود
البحر الأحمر
الخليج العربي
البحر الأبيض المتوسط
المحيط الأطلنطي
القاهرة
بغداد
تبريز
أصفهان
تونس
الجزائر
طرابلس
دمشق
حلب
بورسا
١٥٦٥
١٥٧٠
١٥٧١
١٥٧٤
١٥٧٦

وتعادل في مدتها الزمنية الحقبة السابقة تقريبا . وامتدت من (١١١٥ — ١٢٥٥ هـ/ ١٧٠٣—١٨٣٩ م) . وقد توالى على عرش السلطنة في هذه المرحلة ثمانية سلاطين هم (احمد الثالث ، ومحمود الاول ، وعثمان الثالث ، ومصطفى الثالث وعبد الحميد الاول ، وسليم الثالث ، ومصطفى الرابع ، ومحمود الثاني) .

شجرة نسب سلالة بني عثمان
خلال الحقبة الرابعة



وقد عانت الدولة العثمانية في مطلعها نتائج حربها الطويلة السابقة مع النمسا والبندقية وروسيا ، من زيادة في الضرائب ، وثورة رعاياها من الصرب والالبان ، وتجدد اجتياحات الجلالية في الاناضول ، وفقر البلاد بصفة عامة . وكل هذا زاد من انحدار الدولة ووهنها ، وجعل كبار " الاداريين " يرون بأنه لن ينقذها مما هي فيه سوى اصلاح شؤونها على النمط الاوربي . وفي الواقع بدأت الدولة العثمانية ، في هذه الحقبة ، باصلاح مؤسساتها وبصفة خاصة (الجيش) . وستذكر هذه الاصلاحات مع مجموعة " التنظيمات " في القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي .

ومن الطبيعي والدولة العثمانية تعاني ما تعاني من ضعف داخلي واضطراب ، ان تطمع بها الدول الاوربية ، ولا سيما المجاورة لها ، من امثال " روسيا " الدولة الفتية ، التي برزت قوية في عهد قيصرها (بطرس الاكبر) وقيصرتها (كاترين الثانية) ، وكذلك النمسا ، والبندقية ، العدوتان التقليديتان لها . ومن ثم تتسم هذه الحقبة بمجموعة من الحروب خاضتها الدولة ، واتخذت فيها موقف الدفاع اكثر من موقف الهجوم ، وانتهت في معظمها باقتطاع اجزاء من الامبراطورية ، وتقلص حدودها ، ولا سيما المناطق شمالي البحر الاسود ، وفي شبه جزيرة القرم ، التي ضمتها روسيا اليها . والى هذه المرحلة يرجع الاتفاق النمسوي ـ الروسي (١١٩٥ هـ / ١٧٨١ م) لاقتسام الامبراطورية العثمانية .

كما عادت الحروب في هذه الحقبة مع فارس ، في عهد " نادر شاه " الذي قضى على الحكم الصفوي الشيعي .

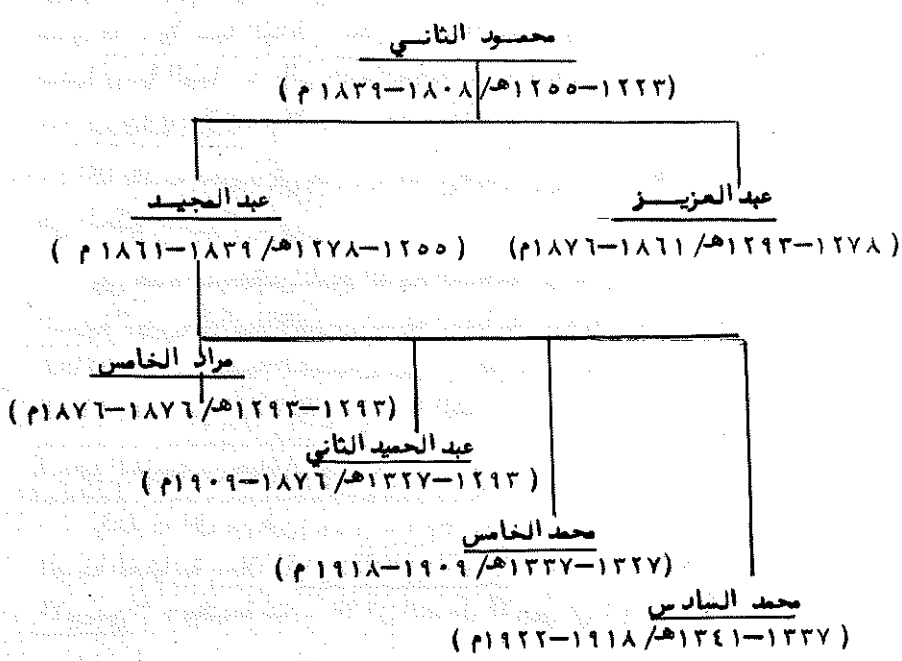
وفي هذه المرحلة من تاريخ الدولة العثمانية برز ما اسماه الاوربيون بالمسألة الشرقية ، وهي بايجاز مواقفهم من الدولة العثمانية الضعيفة ، وقضاياها مع الشعوب الخاضعة لها ، ومنها الشعب العربي في اقطاره المختلفة . وستدرس بعض هذه القضايا مفصلا في الباب الثاني من هذا الكتاب .

الحقبة الخامسة من حياة الدولة العثمانية

وامتدت اقل من قرن (١٢٥٥ـ١٣٤١ هـ / ١٨٣٩ـ١٩٢٢ م) . وقد حاولت الدولة العثمانية ، خلالها ان تصلح من احوالها ، معتمدة على " التطور الحضاري الاوربي " ، ومقتبسة منه . الا ان التدخل الاوربي في شؤونها الداخلية ، والخارجية

على السواء ، قد تفاقم ، ونظرت اليها الدول الاوربية ، على انها فريسة ضعيفة وثرية ، يجب ان يجهز عليها ، وتقسم املاكها . وبالفعل فقد اقتطعت اجزاء هامة من امبراطوريتها في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ، وشملت معظم البلقان ، ومعظم البلاد العربية . ولم تستطع "التنظيمات" الجديدة التي طبقتها في مختلف المجالات ، ان تقيلها من عثرتها . وجاءت "الحرب العالمية الاولى" (١٩١٤ - ١٩١٨) لتكون فرصة للقضاء على امبراطوريتها نهائيا ، مضافا اليها ، انتشار الشعور القومي بين الشعوب التي كانت تحكمها ، مما جعل الثورات تندلع ضدها منذ القرن التاسع عشر . واستطاع احد قادتها وهو "مصطفى كمال" من القضاء على (نظام السلطنة) ، واعلان (الدولة التركية القومية) الحالية في ١٨ ربيع الاول ١٣٤٢ هـ / ٢٩ تشرين الاول ١٩٢٣ . وقد حكم خلال هذه الحقبة من السلاطين ستة ، وهم (عبد المجيد ، عبد العزيز ، مراد الخامس ، عبد الحميد الثاني ، محمد الخامس ، محمد السادس) .

شجرة نسب سلالة بني عثمان
خلال الحقبة الخامسة



ثانيا ـ التنظيم السياسي والاداري في الامبراطورية العثمانية

١ ـ مقدمة في الخصائص العامة لذلك التنظيم

يتصف التنظيم السياسي والاداري في الدولة العثمانية بالصفات الرئيسية التالية :

١ ـ اعتماد التشريع العام في الدولة على (الشريعة الاسلامية السنية) ، المستندة الى القرآن ، والسنة ، والقياس ، والاجماع . وقد اتخذت الدولة العثمانية (المذهب الحنفي) مذهباً رسمياً لها . وعلى الرغم من ان باب الاجتهاد قد قفل ، فان الدولة العثمانية اضطرت ان تدخل بعض اللمسات على " البنية القانونية" الاسلامية المجمدة ، وذلك في القرنين التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين . وقد ساعدها في ذلك ، التفسيرات التي وضعها اثنان من كبار الفقهاء المسلمين الاحناف في ذينك القرنين ، وهما " محمد بن فرامرز بن علي " المعروف بـ " ملا خسرو " المتوفى ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م ، وكتابه الهام "درر الحكام في شرح غرر الاحكام " ، و " ابراهيم الحلبي " المتوفى ٩٥٦ هـ / ١٥٤١ م صاحب كتاب " ملتقى الابحر " . وهكذا يلاحظ ان التنظيم العثماني قد جاء اكثر تكاملا من الانظمة الاسلامية السابقة . وقد حددت حقوق، وواجبات ، فئات المجتمع العثماني ، وأفراده ، واقاليم الامبراطورية ، والعلاقات المختلفة فيها، بتنظيمات اطلق عليها اسم " القانون " . ومنها مثلا مجموعتا " القانون نامه" اللتان اصدرهما السلطان " محمد الفاتح " ، ونظمت احداهما الضرائب المفروضة على الرعايا ، بينما حددت الثانية موظفي الحكومة الرئيسيين ، وسلطاتهم ، وشؤونهم المختلفة . وكذلك " القانون نامة " التي أصدرها السلطان " سليمان القانوني " وتحتوي التنظيمات الخاصة بالاقطاع ، والضرائب ، والقضاء ، وشؤون الرعية المختلفة ؛ وكانت تنظم شؤون كل ولاية ايضا " بقانون نامة " ، " كقانون نامة" مصر في عهد السلطان سليمان مثلا .

ولا يعني هذا أن تلك القوانين التي اصدرها السلاطين ، تشكل قانونا زمنيا منافسا للشريعة ومبادئها ، وانما هي " تنظيمات " لامور ليس لها نصوص واضحة ، او محددة في التشريع الاسلامي ؛ ومن المفروض انها لا تتعاكس البتة معها او

تعارضها ،حتى ان السلطان " سليمان " استهل " القانون نامة " بقوله :"ان القانون نامة السلطانية هذه ،التي تتوافق مع الشريعة الاسلامية " . وفي الحقيقة ، لقد استخدم الفقهاء العثمانيون الشريعة نفسها لحل هذا الامر ، بأن جعلوها تعطي لرئيس الدولة حق اصدار القوانين ،وتنفيذها ،بحجة ان تلك القوانين هي لصالح الرعية . وقد عرف "حق المبادرة التشريعي" هذا باسم " العرف " ،ويحتوي جميع الاوامر السلطانية ،التي تكوّن " القوانين " القسم المسجل منها . وقد تتضمن تلك القوانين احيانا بعض "العادات" التي رسخت جذورها في كثير من البقاع قبل الفتح العثماني ،ورأى السلاطين الابقاء عليها ، طالما انها لا تخالف الشريعة .

وهكذا ،فان واجبات الرعايا قد حددت بالشريعة من ناحية ،وبالقوانين التي تشمل قوانين "العرف" و "العادات" من ناحية اخرى . وبالاضافة الى ذلك فان هناك "عادات" لا تتضمنها القوانين المكتوبة ،الا انها تلعب دورا هاما في الادارة القضائية . واخيرا ، على الرغم من ان باب (الاجتهاد) قد اغلق ،فان القضايا المتجددة دائما،كانت تفرض ايجاد حلول شرعية لها . ولهذا وجدت طبقة من "الفقهاء" (المفتين) عملها النظر في الامور العامة والخاصة التي تطرح عليها واصدار (الفتاوى) بشأنها ، او قواعد السلوك الواجب اتباعها فيها .ولا بد لهذه القواعد ،ان تستند بالطبع الى ما ورد في الشريعة الاسلامية ،واذا لم يجدوا فيها النصوص الصريحة ،فانهم كانوا ملزمين على ممارسة (الاجتهاد) . وهذه (الفتاوى) و (الاجتهادات) كانت اضافة حقيقية على التشريع ،اتبعها من اتى بعدهم ، وضمت الى القوانين المختلفة .

٢ — ان التنظيم السياسي والاداري في الدولة العثمانية يحمل الى حد كبير طابعا تقليدياً . فقد ورث العثمانيون عناصره الاساسية من نظم دول سابقة ،كـ (النظام الفارسي) ، الذي كان قد تبناه الاتراك السلاجقة بعد ان طبعوه بطابعهم التركي . وهو في خطوطه العامة ،وفي كثير من تفصيلاته مشابه للنظام العباسي، لان العباسيين اقتبسوا كثيرا من مؤسساته عند بنائهم لدولتهم .وكـ (النظام البيزنطي) الذي ترك اثرا واضحا في النظام العثماني ،نتيجة احتلال الدولة العثمانية لممتلكات الدولة البيزنطية ، وسيطرتهم على البقاع التي كان يسود فيها ذلك النظام . وكـ (النظام المملوكي) الموروث هو الآخر من نظم الدول الاسلامية السابقة لهم . ومن ثم من

الصعب ان تجد مؤسسة "عثمانية" بحته ،اذ ان كل واحدة منها قد رسمت على غرار مؤسسة قائمة في دولة اسلامية معاصرة ،او سالفة . الا ان تلك المؤسسات ،تبدو في النظام العثماني مترابطة فيما بينها ،بدا اكثر ثباتا وتكاملا مما هي عليه في تلك الدول وادق تنظيما . وفي هذه الناحية ،قد يبدو الاثر البيزنطي اكثر وضوحا من غيره ، اذ ان صفة "البوروقراطية" الشديدة في الادارة العثمانية ،قد تكون في الواقع ظاهرة بيزنطية . ومع ذلك ، فيجب ألا يبالغ في هذا الاثر البيزنطي ، فالدولة العثمانية لم تأخذ من النظم البيزنطية الا ما كان يدوره متأثرا بالاسلام . ومن المعروف ، ان الحضارتين البيزنطية والاسلامية قد اثرت كل واحدة منهما في الاخرى .

٣ ــ يغلب على النظام السياسي والاداري العثماني الطابع الحربي . اذ لما كانت نقطة الاستناد الكبرى في قيام الدوله العثمانية هو القتال الجهادي ، وتوسيع (دار الاسلام) ،فانه كان من البدهي ان توجد تنظيما يجعلها دائما على اهبة الحرب. وهذه الصفة العسكريه ظلت غالبة على نظمها السياسية والادارية حتى الحقبة الاخيرة من تاريخهـا .

٤ ــ اعتماد التنظيم السياسي والاداري على (نظام الرق) او بتعبير اخر (نظام القول) أي (العبيد) بالتركية . فجميع الحكام ،والقادة العسكريين ،والذين يمارسون السلطة ،كانوا يأتون من (سراي السلطان) وهم "عبيد" من خدمته . فسراي السلطان (أي قصره)، هو المكان الذي يتلقى فيه عبيده تربية خاصة ،يعينون بعدها في مناصب الدولة العليا . وقد طبق هذا النظام على نطاق واسع منذ منتصف القرن التاسع/ الخامس عشر، اي منذ عهد (محمد الفاتح) ،اما قبل ذلك ، فان معظم الوزراء ،والاداريين في الدولة كانوا من المسلمين الاحرار ، ومن العلماء ،كما كان الجيش ،قبل القرن الثامن / الرابع عشر من "الغزاة" ،أي "المتطوعين الاحرار". فقد حملت الحروب المتواصلة التي شنها العثمانيون على (دار الحرب) اعدادا كبيرة من الاسرى ، أي من العبيد . ولما كان للسلطان الحق في خمس الغنائم بما فيها الاسرى ،فان عبيده الخاصين كانوا يتزايدون يوما بعد يوم . وقد عمل السلطان في بادئ الامر على بيعهم ،الا انه لما نقص عدد المتطوعين للقتال من المسلمين الاحرار ،فانه اخذ يدخر من يصلح منهم للخدمة في الجيش ،بعد ان ينال تربية اسلامية وتدريبا خاصا . الا انه حوالي اواخر القرن الثامن/ الرابع عشر

تضاءلت الفتوحات في اوربا نسبيا ، واتجه السلاطين نحو آسيا ، حيث لا يمكن استرقاق أهل الذمة في دار الاسلام ، ومن ثم قل عدد " العبيد الاسرى " ، فاذا ارادت الدولة الابقاء على جيشها قويا ، فانه كان عليها ان تحصل على العبيد من مصدر آخر .

وقد لا يبدو امرا جديدا تكوين جيش من العبيد ، فقد اتبع هذا منذ عهد الدولة العباسية ، وسار على هذا النظام السلاجقة الاتراك ، والايوبيون وغيرهم ، بل أن "الدولة المملوكية " نموذج كامل لهذه الظاهرة . الا ان ما يبدو ومستحدثا في هذا النظام ، فهو طريقة الحصول على العبيد . فبعد ان ضعف وارد ها من اسرى الحرب الاوربيين ، لجأت الى جمع الاطفال والشباب غير المتزوجين من رعاياها في شبه جزيرة البلقان ، ومن الارياف ، في فترات محددة ، وممن تتراوح سنهم بين الثامنة ، والعشرين ، وتخضعهم للاسترقاق ، وتدريبهم لخدمة الدولة . وقد سمي نظام الجمع هذا بـ " الدفشرمة ". وكان يرسل افضل العناصر المجموعة الى سراي السلطان ، حيث يخضعون لنظام تربوي صارم ، وتقطع صلتهم مع الاوساط التي انبثقوا منها . فكلهم مهما كانت جنسياتهم الاولى ، يتلقون تربية اسلامية تركية ، وجميع معلميهم من المسلمين الاتراك . وفوق كل شيء ، هم عبيد السلطان ، ويرتبطون به في كل امورهم ، والحرب المقدسة هي غايتهم الكبرى ، وهي التي تجمع بينهم . وهؤلاء " العبيد " هم الذين كان السلطان يعينهم ، بعد فترة تدريب طويلة ، وتحت مراقبة مباشرة منه احيانا ، حكاما للولايات ، ولادارة الاعمال ، ولقيادة (الانكشارية) و (سلاح الفرسان). اما الباقي من " العبيد " المجموعين ، فكانوا يدخلون (الجيش الانكشاري) او (الجيش الجديد) وهو من المشاة ، الذين اتخذوا البندقية سلاحا لهم . وهو الجيش القوي الذي ادهش اوربا بنظامه وشجاعة جنده ابان الفتوحات .

وبهذا النظام ، ضمن السلطان في حقب قوة الدولة العثمانية ، خضوع موظفي الدولة خضوعا تاما له . وقد اختلف تفسير المؤرخين لاعتماد الدولة على هذا النظام: فبعضهم علل وجوده بأن نسبة غير المسلمين ضمن رعايا الدولة (وبخاصة قبل فتوحات الدولة في العالم العربي الاسلامي) كان مرتفعا جدا ، فكان وسيلة للتقرب منهم ، وضمان اخلاصهم ، بتسليم شؤون الدولة لهم . بينما نظر اليه بعضهم بأنه طريقة من طرق نشر الاسلام . ورأى آخرون ، بأنه ضمان للسلطان في القبض التام على شؤون الدولة ، وخضوع كل ادارتها لسلطانه ، وقطع دابر المعارضة التي بدأت تزداد


العجمي أوغلان
الفيلمان النصارى بقدتهم


الإنكشارية
أثناء العرض


السباهية
بسلاحهم


الشاويشية



آغا الإنكشارية



الجربجية
قادة أورطة الإنكشارية

في صفوف الاتراك الاحرار ،ضد بعض اتجاهات السلطان السياسية ،ولا سيما بين صفوف العلماء الذين كانوا قابضين على السلطة الادارية .

وقد ظل هذا النظام قائما حتى القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،حيث استطاع الاحرار ان يقبضوا ثانية على السلطة الادارية من (عبيد الباب السلطاني القابي كولاري) بعد ان ضعف امر هؤلاء ، بالقضاء على (نظام الدفشرمة) .

ب ـ المؤسسات السياسية والادارية

ويمكن تصنيفها ضمن مجموعتين رئيسيتين ، مؤسسات السلطة المركزية في العاصمة ، والادارة في المقاطعات .

١ـ السلطة المركزية

ويأتي على رأسها ،بل وعلى رأس الدولة كلها بجميع مؤسساتها المركزية ،وفي المقاطعات ، السلطان . ولقد بحثت سابقا فكرة الرابطة بين السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية . ومن المؤكد ،ان السلطان العثماني حتى في الفترة التي اتخذ فيها لقب "خليفة" ،فانه لم يعط لقب "امير المؤمنين" ،وهو اللقب التقليدي للخلفاء الاول . فالسلطان هو "الباديشاه" ، وهو "الخنكار" (اى المحور الاساسي لحفظ نظام العالم) . والدولة كلها ترتبط بشخصه ،اي الارستقراطية اى الارستقراطية الحربية ،والموظفون المدنيون والدينيون ، والرعية . فهو ذو سلطة مطلقة ، وهو القابض على السلطتين التنفيذية والقضائية . اما السلطة التشريعية فلا وجود لها مبدئيا ،لان التشريع المتبع في الدولة هو التشريع الاسلامي ،الذى يعتبر مكتمل العناصر . وقد اشرنا سابقا ، الى ان الفقهاء في العهد العثماني وجدوا تسويغا في روح الشريعة نفسها لمنح السلطان سلطة المبادرة لاصدار "القوانين" او "التنظيمات" لصالح الرعايا ، شريطة توافقها مع الشريعة الاسلامية .

ويتضح من تلك السلطات الواسعة ،ان شخصية السلطان تلعب دورا حيويا هاما في كيان الدولة،اذ ان المؤسسة الحاكمة كلها تعتمد على شخصه . ومن حسن حظ الدولة العثمانية ،انه توالى على عرشها في الحقبة الممتدة من القرن السابع/ الثالث عشر، حتى منتصف العاشر/ السادس عشر، سلاطين اقوياء الشخصية ، فاستطاعوا

ان يبنوا الدولة بحزم ويوسعوا حدودها ،حتى سمت امبراطورية شاسعة ،كما رأينا سابقا . الا انه منذ عهد السلطان " سليم الثاني " ،توالى على عرش السلطنة ، سلاطين انغمس اكثرهم في حياته الخاصة وانفك عن الاهداف الاساسية الكبرى للدولة ،وترك شؤونها لحاشيته وكبار موظفيه من العبيد السابقين . واقتصر عمل السلطان تدريجيا ،على الموافقة على اعمال وزيره الاعظم ،او المشرف على تدريب عبيده وشؤونهم الـ(قابي آغاسي) ، وعلى الظهور امام شعبه في الاحتفالات الرسمية .

وقد اقام السلطان منذ عهد (محمد الفاتح) في عاصمته استامبول ،في قصر خاص . وللقصر قسمان ،داخلي (اندرون) ،وخارجي (بيرون) . وكان يقضي حياته الخاصة في " الداخلي "،اما الخدمات والمؤسسات التي تنظم علاقات السلطان مع العالم الخارجي فمقرها " الخارجي " . ويصل بين القسمين بوابة تسمى (باب السعادة) ،حيث يستقبل السلطان ،الشعب ،المتظلم ،ويقيم العدالة ،ويدير الدولة ،ويحضر الاحتفالات . والى يمين (باب السعادة) غرفة مقببة ،كان يعقد فيها " المجلس الهمايوني " ،وخلفها (غرفة العرش) حيث يستقبل السلطان السفراء الاجانب ،وكبار رجال الدولة . ومن تعبير (باب السعادة) اتى التعبير المعروف بـ (الباب العالي) ،الذي يعني " الحكومة العثمانية " ،طالما ان السلطان يدير الدولة منه .

وقد كان لابتعاد السلاطين عن الحكم نتائج سيئة ، اذ طالما كانوا يشاركون ايجابيا في اعمال الدولة ،فان تأثير حاشية السلطان ومحظياته كان ضعيفا ، لان اتصالهم بالعالم خارج جدران السراي ، كان يوصلهم بالرعية وقضاياها ، وشؤون الدولة ، ويجعلهم على احتكاك مباشر بمختلف امورها . اما عندما ابتعدوا عن الحكم فانهم خضعوا لتوجيهات عناصر ،كان اكثرها غير صالح ،ومنها الاماء ؛ وفقدوا قدرتهم على حسن انتقاء الموظفين الكبار ،فغدا على رأس المناصب العليا ،من وصل بدسائسه ورشاويه ،اكثر ممن وصل بكفاياته . وهكذا اصبح " الصدر الاعظم "،وهو الذي اسلم السلطان امر الدولة اليه ، غير كفي في كثير من الاحوال ؛ واذا كان كفياً ، فانه كان مترددا في استخدام السلطة الموكلة اليه ،اذ كان يخشى ان تنزع منه في كل لحظة . ولكن هذا لم يمنع من وصول عدد من الصدور العظمى الاقوياء في القرن الحادي عشر / السابع عشر " كال كوبرلي " .



سـراي السلطان

وقد يكون من اسباب ضعف السلاطين بعد " سليمان القانوني " ،تربيتهم الانعزالية . فالسلاطين الاول كانوا يعينون اولادهم،وخاصة الذين قد يرثونهم على العرش بعد وفاتهم ، بكوات على مناطق الامبراطورية ، وذلك لتدريبهم على الحكم ولثقتهم بهم الا ان هذا ،اخذ يثير تدريجيا مطامحهم ، ويشجعهم على القيام بثورات ،بهدف اغتصاب السلطة ؛ وبذلك لم يعد السلاطين آمنين على انفسهم منهم . هذا بالنسبة للابناء ،فكيف الامر بالنسبة للاخوة ،وابناء الاعمام ، وغيرهم من امراء الاسرة الحاكمة ؟ ولهذا سن السلطان محمد الفاتح قانونا غريبا ، سمح لخلفائه من السلاطين ، بالقضاء على اخوتهم عند وصولهم الى العرش ،كي لا ينازعهم منازع . ولقد نفذ السلاطين الذين تلوه هذا القانون تنفيذا دقيقا حتى اواخر القرن العاشر/ السادس عشر . الا انه منذ اواخر هذا القرن ،لجأ السلاطين الى وضع الامراء – ما عدا اولاد السلطان الحاكم – في اجنحة خاصة من السراي تسمى (اقفاصا) ، اذ كانت محاطة بحدائق مسورة بجدران عالية ،والى منعهم من اي اتصال مع العالم الخارجي . وكانوا يقضون حياتهم تلك برفقة العبيد والاماء ،ويخصص لهم معلمون ليعلموهم القرآن ، والفقه ،والكتابة والانشاء . وعندما كانوا يرزقون اطفالا من اماثهم فان الاطفال يقتلون . فجميع الامراء الاحياء ،كانوا ازاء اولاد للسلطان الحاكم ،او السلاطين السابقين له .

وقد انتقلت السلطنة منذ مطلع القرن الثامن/ الرابع عشر ،الى بدء الحادي عشر/ السابع عشر من الاب الى ابنه ،لثلاثة عشر جيلا ، الا انه عند وفاة (السلطان احمد) عام ١٠٢٧ هـ/ ١٦١٧ م ،انتقل العرش الى اخيه (مصطفى الاول) لان اولاده كانوا قاصرين . واعطيت وراثة العرش منذ ذلك الوقت لاكبر اعضاء الاسرة المالكة العثمانية من الرجال سناً . وبذلك اصبح يصل الى عرش السلطنة ، سلاطين قد انفقوا الجزء الاكبر من حياتهم في (الاقفاص)،بعيدين عما يجري في العالم حولهم ، ومعظمهم لم يكن يتمتع بالاتزان العقلي . ومن ثم لم يصل الى السلطنة في القرن الحادي عشر وحتى منتصف الثاني عشر/ الثامن عشر،ابناء السلاطين ،وانما اخوتهم،واعمامهم،وابناء اعمامهم .

واستغل الجيش الانكشاري هذا الضعف ،فأخذ يتمرد على السلاطين ،ويسقط سلطانا ويعين آخر . فخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر / السابع عشر والثامن عشر ،خلع او اجبر على التنازل،ما لا يقل عن ستة سلاطين ،اثنان منهم قتلا .

والى جانب السلطان في تسيير شؤون الدولة ، كان هناك "الديوان الهمايوني" الذي كان يجتمع في اوقات محددة ، يستمع الى شكاوى الشعب ،ويقضي على المظالم. وهو في اصله يشبه "ديوان المظالم" في العهود الاسلامية السابقة ، او اشبه بـ"محكمة عليا" . وكان السلطان ،حتى عهد "محمد الفاتح" هو الذي يرئس ذلك الديوان بنفسه ،الا انه منذ ذلك التاريخ ،غدا "الصدر الاعظم" هو القائم عليه ،ولو ان "محمد الفاتح" كان يتابع مناقشاته من نافذة مطلة على قاعته . وفي القرن الثاني عشر/ الثامن عشر انتقل "المجلس" من سراي السلطان ،الى مقر اقامة "الصدر الاعظم" . وكان يحق لكل فرد من رعايا الدولة ان يقدم تظلمه . ولكن الى جانب مهمة "الديوان الهمايوني" في اقامة العدل ، فانه كان يستخدم كمؤسسة تناقش جميع شؤون الدولة ، والتعيينات ،وتتخذ قرارات بها . ومن ثم كان يضم من يمثل ادارات الدولة الكبرى .

وكانت الفعاليات الرئيسية للحكومة تقع في ثلاثة حقول ،لها ثلاثة اقسام ادارية منفصلة عن بعضها ،القسم السياسي ،والقضائي ،والمالي . وكانت مهام القسم السياسي ،وهي المحافظة على سلطة الدولة ،والامن الداخلي ، والدفاع عن المملكة تجاه اعدائها الخارجيين ، تقع على عاتق الوزراء . وكان منصب "الوزير" في الدولة العثمانية "رتبة" يحملها عدد من الشخصيات الكبرى في الدولة ،بما فيها "الوزير الاول" او "الصدر الاعظم" . ويلاحظ ان عددا من ولاة الايالات ،كان يحمل هذه الرتبة ايضا . وكان السلطان ،في مرحلة القوة ،يفوض سلطاته السياسية والتنفيذية لهؤلاء الوزراء فقط ،دون غيرهم .

ويمثل السلطة القضائية قاضيا عسكر" "قاضي عسكر الرومللي" و "قاضي عسكر الاناضول" ،وقد فوقهم في عهد "السلطان سليمان" "شيخ الاسلام" او "المفتي الاكبر" . وكان يحضر احيانا "الديوان الهمايوني" ، وليس دائما .

اما السلطة المالية ، فكانت بيد "الدفتردار" . والى جانب هؤلاء الموظفين الكبار هناك "النشانجي" ،وهو الذي يتحقق ويؤكد ،ان الاوامر ،والرسائل الصادرة من "الديوان الهمايوني" متفقة مع تنظيمات الدولة وقوانينها . فهو الذي يضع "الطغراء" ،وهي شعار السلطان ، على الوثيقة ،ليمنحها شرعيتها . ان اصحاب تلك المناصب الاربعة ، وقد عرفوا بأنهم "دعامات المملكة" ،كانوا يمثلون السلطة

الملكية في " الديوان الهمايوني " ،ويحق لهم الدخول على السلطان دائما ،وهم مسؤولون تجاهه فقط ،ويمكن ان يحاكموا في محكمة القاضي في الحالات المدنية فقط، اما الحكم على كفايتهم العامة فمن حق السلطان .

وكان يحق لوالي (بكربكي) الروملي ، وهو في الاصل الامر على جميع السباهيين (الفرسان) الذين يملكون اقطاعات في المقاطعات ،ان يحضر " المجلس السلطاني " ويشارك في المناقشات .

وعندما قوي الاسطول في القرن العاشر/ السادس عشر، سمح لـ " قبطان دريا " اى (اميرال الاسطول) ان يكون من اعضاء ذلك المجلس ،وكذلك " آغا " الانكشارية .

وكان الوزراء ،والعلماء ،والحكام ،والعسكريون ،والرعايا ،يقدمون مطالبهم وشكاواهم الى " الصدر الاعظم " ،الذى كان يحملها الى السلطان اذا رأى ذلك ضروريا . وكانت جميع التعيينات تصدر بعد مرورها عليه . وبصفته " النائب المطلق " للسلطان ،فانه كان يستطيع اصدار بعض القرارات دون مشاورة السلطان . وكان السلطان يعطيه " خاتم توقيعه "الذي كانت تمهر به جميع الوثائق الهامة . وفي حالة اعفائه من منصبه فانه كان يطلب منه رده .

ويشرف على موظفي " السراى " وعبيده ، " القابي آغاسي " ،ويعمل مستقلا عن الصدر الاعظم .ولكن يمكن للصدر الاعظم ان يطلب من السلطان عزل " القابي آغاسي " وتعيين مرشح آخر .

وبكلمة موجزة ،كان من حق "الصدر الاعظم "،وهو " النائب المطلق " للسلطان، ان يشرف على جميع دواوين الدولة واقسامها ،وان يراقبها . ولا يتم تعيين او عزل في اية دائرة من دوائر الدولة ،دون موافقته .

وكان " العلماء " يمثلون السلطة الكبرى في الدولة ،التي تعمل مستقلة عن " الصدر الاعظم " . فـ" قاضيا العسكر " هما موظفا الدولة المسؤولان عن ادارة شؤون "الشريعة "،ويملكان سلطة تعيين القضاة وعزلهم ،وكذلك الموظفين الدينيين الآخرين . وهما اللذان يصدران القرار النهائي في القضايا المرتبطة بامور الشريعة ،وهما اللذان يحضران الديوان الهمايوني . اما " شيخ الاسلام " ،وهو رأس " طبقة

العلماء " فلم يكن ينظر اليه على انه عضو في الحكومة . ومع ذلك ، فقد جاء وقت لعب فيه دورا هاما في شؤون الدولة : فتواه كانت وراء خلع عدد من السلاطين ، وآراؤه وراء اسقاط عدد من " الصدور العظمى " . ولتعيين " شيخ الاسلام " كان على "الصدر الاعظم" ان يرجع الى السلطان . وكان هناك تنافس خفي بين " شيخ الاسلام و"الصدر الاعظم " ، الا ان بعض الصدور العظمى كان يستشير " شيخ الاسلام " في كثير من شؤون الدولة الكبرى ، حتى يحافظ على الانسجام والتوافق .

وبصفة " شيخ الاسلام " رئيسا للعلماء ، فانه كان يطلب من " الصدر الاعظم " تعيين المدرسين ، وترقيتهم ، وعزلهم . واكتسب من القرن العاشر/ السادس عشر ، سلطة اقتراح تسمية قضاة الاقاليم الهامة ، وعزلهم ، اى حصل على مراقبة " منظمة العلماء " كلها . ومثلما كان " الصدر الاعظم " هو الممثل المطلق للسلطة التنفيذية للسلطان فان " شيخ الاسلام " غدا الممثل المطلق للسلطة الدينية للسلطان .

وكان " الوزير الثاني " — وقد وصل عدد الوزراء في القرن العاشر/ السادس عشر الى تسعة وزراء " — هو المرشح عادة للصدارة العظمى ، ولكن ثلاثة كان لهم تأثيرهم في اختيار " الصدر الاعظم " ، وهم : معلم السلطان ، والقابي آغاسي ، ووالدة السلطان . ولما كان " الصدر الاعظم الجديد " غير قادر على الاحتفاظ باستقلاله ، نتيجة هذا الاختيار ، فانه كان يعتمد على الانكشارية ، أو على العلماء ، أو على من له نفوذ في السراي للبقاء في الحكم .

وقد كان " لمعلم السلطان " اثره في سياسة الدولة ، فمعلم " محمد الفاتح " (زاغانوس) غدا صدرا اعظم ، ومعلم " مراد الثالث " ، " سعد الدين " المؤرخ (٩٨٧ هـ — ١٠٠٨ هـ / ١٥٧٩ — ١٥٩٩ م) ، كان الموجه الرئيسي لشؤون الدولة الداخلية والخارجية . وكذلك يقال عن " والدة السلطان " ، ولا سيما في الفترة التي قام فيها (نظام الاقفاص) .

ويجب الا ينسى دور " الشيخ " ، او " الصوفي " الذى يعتقد به السلطان ، في تسيير شؤون الدولة . فحتى " محمد الفاتح " تأثر بشيخ متصوف .

وكان " للرأي العام " ايضا تأثيره في تحديد السياسة العثمانية . ففي النصف الثاني من القرن العاشر/ السادس عشر ، كان هناك تحالف بين " القابي القول "

(اى الجند الانكشارية) والحرفيين . فقد اصبح عديد من "القابي قول" حرفيين او تجارا ، ووظف بعضهم ماله في المشروعات التجارية ،وفي الربا . وكان شعب استامبول مستعدا دائما للثورة ،فعندما كانت تجرى اضطرابات يترأسها " القابي قول " ،في فترات الازمات المالية والاقتصادية ، فان " الرأي العام " كان يؤيد هذه التحركات ،وكانت فتوى شيخ الاسلام تأتي احيانا لتكون التعبير الشرعي عن الموقف الشعبي . ومن امثلة تلك التحركات الثورية ،الاضطرابات التي ادت الى خلع السلطان "ابراهيم" عام ١٠٥٩ هـ/ ١٦٤٨ ، و "محمد الرابع" عام ١٠٩٩هـ / ١٦٨٧ م ،و "مصطفى الثاني في ١١١٥ هـ/ ١٧٠٣ م . ويمكن القول ان "التحركات الشعبية" لم تكن لتنجح الا بالتعاون مع عسكر "القابي قول" . ومع ذلك ،ثار شعب استامبول عام ١٠٦٢ هـ/ ١٦٥١ م ضد سلطة الانكشاريين. وحتى القرن السابع عشر "كانت الثورات الفلاحية في المقاطعات نادرة ،اذ ان القانون كان يمنع الرعايا من حمل الاسلحة . ولكن هجر الفلاح لارضه كان نوعا من المقاومة السلبية ،التي كانت تقلق السلطة الحاكمة اكثر مما تقلقها الثورات المسلحة . لانه بذلك يحرم الدولة من مصادر دخلها ،والاقطاعيين من مصادر معيشتهم ،ويضعف قوة الامبراطورية . ولما كانت الدولة مهددة دائما بهرب الفلاحين وهجرهم لارضهم فانها كانت تلجأ احيانا لتخفيض الضرائب .

ومع ان السلطان كان يتمتع بسلطات استبدادية مطلقة ،وكان يعتقد ان هذه السلطات قد منحه اياها الله ،فانه كان حريصا على رضا الشعب عنه ،ولذلك كان يسعى كي يكون حكمه عادلا . ويعمل على ان يظهر في اعين الرعية مسلما تقيا ،يمارس واجباته الدينية ،ويخلص للشريعة ،فكان يتحمس لمنع الخمر ــ مع أنه قد يكون من المتعاطين لها ــ ،او يعاقب من يهمل صلواته ،او يفطر في رمضان ،ويغلق الحانات والمقاهي . وكان يواظب على حضور الصلاة يوم الجمعة في الجامع ،ويوزع الصدقات على الفقراء والدراويش . وفي (عيد الاضحى) ،كان يذبح آلاف الذبائح التي توزع على الفقراء . وكان السلطان يرسل سنويا " الصرة " الى مكة والمدينة ،وتتألف من عشرات الآلاف من الدنانير الذهبية ،وكان يرسلها بموكب حافل ،وباحتفالات كبيرة ، وهي حصيلة " الاوقاف " المخصصة لهذا الغرض .

وكان السلاطين يخشون (القادة) من رجال الدين والعلماء ،وبصفة خاصة

الشيوخ والدراويش ،لان هؤلاء كانوا الدعاة الرئيسيين لحركات المعارضة عن طريق مواعظهم ومريديهم .

واخيرا لا بد من الحديث عن " الكاتب " في الدولة العثمانية . " فقد الكتابة الرسمية " من العلوم العملية ،وكانت له اهميته الكبيرة في الدول الاسلامية السابقة للعثمانية او المعاصرة لها . ويتضمن أمرين رئيسين : المراسلات الديوانية ،والشؤون العالية ،ولكل واحد مهاراته الخاصة ، وتدريبه الخاص . وكان الكاتب يتلقى تدريبه في المكاتب نفسها ،التي كانت منظمة كأية حرفة . وقد قسم " القلقشندي " صاحب كتاب " صبح الاعشى " مجموعات الكتّاب الى ثلاث ، الكتاب الذين ينتئون الاوامر المرسلة الى الحكام والموظفين ،والكتاب الذين يجمعون واردات الدولة ، ويتأكدون من مصادرها ،والكتاب الذين يدققون ، ويشرفون على تعيينات الرجال ،المكلفين بالدفاع عن البلاد والنظام الاجتماعي ،واجورهم ، وهذه المجموعات كانت قائمة في ادارة الدولة العثمانية . فالمجموعة الاولى تعمل تحت رئاسة " رئيس الكتاب " وحاشيته ،والثانية تحت امرة " الدفتردار " ،والثالثة تحت امرة " النشانجي "، وقد كان هذا الاخير في معظم الاحوال من " العلماء " .

وكان هناك عدد محدد من " الكتاب " في كل دائرة ،وعدد محدد من " المتمرنين " ومن " الملازمين " (المرشحين لاستلام منصب الكاتب بعد انتهاء فترة التمرين) . ويبدو ان عددهم كان كبيرا في انحاء الدولة ، وان آلاف السجلات ،وملايين الوثائق التي لا تزال محفوظة في الارشيفات العثمانية لدليل على ان الدولة العثمانية كانت " دولة بوروقراطية " .

وقد لعب هؤلاء الكتاب دورا هاما في حياة الامبراطورية العثمانية ،لانهم كانوا العناصر الاساسية في ادارتها . فهم الذين صاغوا فرمانات السلطان ،وقوانينه ، وتنظيماته ،وراقبوا تنفيذها . وبعد ١٦٩٩ ،عندما مالت الدولة الى سياسة اصلاحية سلمية ،واظهرت اهتماما اكبر بالدبلوماسية ، غدا الصدور العظمى يؤخذون من هذه الفئة ، بينما كانوا يؤخذون من الفئة العسكرية .وكان هؤلاء الكتاب، في فترة انحطاط الدولة ،هم الذين دعوا الى الاصلاح ،وتطلعوا نحو تبني الافكار الاوربية ،في الادارة وجميع المجالات الاخرى ،وذلك لانقاذ الدولة من الانحطاط الذى وقعت فيه .

كما يجب الا ينسى دور بعضهم الثقافي والعلمي في حياة الدولة . اذ اهتموا

بثقافة موسوعية ،وانتجوا في بابها ،وقد يكون " كاتب جلبي " (١٠١٧ – ١٠٦٨هـ/ ١٦٠٨–١٦٥٧ م) نموذجا حيا لهؤلاء ،فقد كان كاتبا في المجلس الامبراطـــوري وقدم انتاجا في كل باب ،وبخاصة في ميدان التاريخ والجغرافيا .

٢– الادارة في الولايات والنظام الاقطاعـي

قسمت الدولة العثمانية امبراطوريتها الواسعة الى اقسام ادارية ،عينت عليهـــا موظفين ينوبون عن السلطان في حكمها ،ويمارسون فيها من السلطات ما يشبه السلطات الممنوحة للصدر الاعظم ،ويتمتعون بامتيازات معينة ترمز الى السلطة الممنوحة لهـــم ، ومنها استخدام (الراية) ،او (اللواء) ،وكانت في الدولة العثمانية هي (الطوغ) او (ذيل الحصان) ،وقد علق من احد اطرافه ،وعلته كمرة ذهبية .

اما الاقسام الادارية ،فقد كان (الصنجق) (ويعني بالتركية اللواء والرايـة) هو الوحدة الادارية الرئيسية . وكان يعين السلطان لادارته سلطتين ، احداهما " البيك " ،وهو من العسكريين ، ويمثل السلطة التنفيذية للسلطان ،وثانيتهمـــا " القاضي " وهو من العلماء ،ويمثل سلطة السلطان الشرعية . ولكن مع توسع الدولـة العثمانية ، وجد السلاطين ضرورة وضع مجموعة من الصناجق تحت امرة " بكلربيـــك " او (بيك البكوات) ،او "مير ميران " (امير الامراء) . واول " بكلربكية" انشئـت كانت " بكلربكية الروملي " في عهد السلطان "مراد الاول " . وقد اعطي للبكلربكية مع الزمن اسم " ايالة " . ولقد تطور عدد الايالات مع توسع الفتوحات ، ومع الظروف السياسية التي عاشتها الامبراطورية ،بحيث كانت تزيد او تنقص بحسب ما يرى ضروريا لحسن سير الادارة ، وضبط الامور . فحوالي عام ١٠١٩ هـ/ ١٦١٠ م كان هنـاك (٣٢) ايالة في الامبراطورية (١) ،بينما وصل العدد الى (٤٠) في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ويلاحظ ان استخدام لفظي " صنجق بيك " و " بكلربكي " للدلالة على حكام الصنجق ،والايالة ، قد تضاءل منذ اواخر القرن الحادي عشر/ السابع عشـر ، واصبح يطلق على " البكلربكي " التعبير العربي " والي " ،وعلى " الصنجق بيـــك " " متصرف " . الا ان من القاب الوالي عادة لقب " باشا " .

---

(١) انظر حولها H. Inalcik, the Ottoman Empire, p. 105–106

ولم يكن حكم الدولة العثمانية لمختلف ايالاتها متشابها ،فهناك ايالات كان لها شبه استقلال ذاتي ،وهناك ايالات طبق فيها النظام الاقطاعي العثماني ،وهي في الواقع " الايالة العثمانية النموذجية " .

وهذا كان شأن الولايات الاربع في بلاد الشام ،بينما لم تفعل ذلك في ايالات اخرى ،مثل مصر ، وبغداد ،واليمن ،والبصرة ،والحبش ،والاحساء ،والجزائر ، وطرابلس الغرب ،وتونس(١) . فهي قد زودتها بحاميات انكشارية ،وعينت عليها واليا ، ودفتردارا ،وقاضيا ،الا ان وارداتها لم تكن توزع على "السباهيين (الفرسان) كتيمارات (اقطاعات) ، انما كان واليها بعد ان ينفق منها على الشؤون العسكرية والادارية ، فانه كان يرسل الى العاصمة مبلغا سنويا محددا ، عرف باسم "سالیانة" ومن ثم اطلق على مثل هذه الايالات تلك الصفة (٢) .

ويضاف الى تلك الانواع من الادارة ،ما يسمى بـ "الحكومة" ،وهو ادارة الصناجق الوراثية التابعة لبعض زعماء القبائل في بعض اجزاء شرقي الاناضول . ففي هذه الصناجق ،تعود جميع الواردات الى " بيك " القبيلة الوراثي ، مقابل ان يسهم بتقديم عدد محدد من العسكر للجيش . وكان السلطان يعين في المدن الهامة من الصنجق قاضيا ،ويقيم حامية انكشارية .

اما " النظام الاقطاعي " او "نظام التيمار" ـ كما يسمى ايضا ـ ،الذي تبناه الاتراك العثمانيون في معظم اجزاء امبراطوريتهم ،فقد اوجدته الدولة لتأمين الحياة والعيش" لفرق الفرسان " (السباهيين) في الجيش ، مقابل الاحتفاظ بها قوى

---

(١) Bélin, Du régime des fiefs militaires dans L' IsLam ,Journal Asiatique XV(187_301) p. 239

(٢) InaLcik, the Ottoman Empire, p. 105

ولكن مؤرخين آخرين يشيرون الى ان (سالیانة) تعني (مرتب) او (اجر) وهو الذي كان يؤخذ من وارد الولاية ويعطى لواليها وامراء نوابها .

Bélin, Loc. Cit, p. 239

عاملة ،تستخدمها عند الحاجة اليها . وهذا يعني تسليم الارض لفريق من المحاربين لجباية وارداتها من الضرائب ، مقابل الزامهم على الخدمة الحربية عندما يدعون اليها. ولم يكن على هؤلاء المحاربين ان يعدوا انفسهم دائما لحالة الحرب فحسب ،وانما عليهم كذلك ان يهيئوا معهم عددا من الرجال كان يطلق على واحدهم اسم " جبّلي ". و "النظام الاقطاعي "عرفي معظم الدول ،حتى الاسلامية قبل العثمانية ،وذلك لتأمين معاشات الجند ،او لضمان جباية واردات الدولة . وقد وجدت فيه بعض الدول كالسلجوقية ،والايوبية ،والمملوكية ،اداة سياسية يمكنها بها ان تثبت نفوذ الدولة الحاكمة في ريف البلاد المحكومة ،وتحكم رقابتها على مجموع سكانه الذين كانوا يكوّنون الاكثرية آنذاك .

وضمن هذا النظام ،من المفروض ان تكون الارض الزراعية ملكا للدولة ،حتى تستطيع ان توزعها ،وهذا هو المبدأ الذي انطلق منه السلطان العثماني . وقد قسم السلاطين الارض الى (اقطاعات) تتناسب مع رتبة المقطع ، واطلق على تلك الاقطاعات مبدئيا اسم (ديرليك) اى (معيشة) . وقد كانت على ثلاث درجات"

١ــ الاقطاع الخاص السلطاني (الخواص الهمايوني) ،وهو ممتلكات التاج ، ويقطعها السلطان لمن يشاء من افراد الاسرة المالكة .

٢ــ الاقطاع الخاص، وهو ما يقطع عادة للوزراء ،والبكلربايات ،وبكوات الصناجق ، ويتجاوز دخله (١٠٠،٠٠٠) اقجه . وهذا الاقطاع هو للمنصب وليس للموظف ، بمعنى ان القابضين على هذه الاقطاعات يتغيرون بتغير المعينين لهذه المناصب.

٣ــ "التيمار" ،و "الزعامة" ويمنحان للفرسان (السباهيين) ،وكل بحسب رتبته وخدماته . والفارق بين " التيمار و "الزعامة" ،ان الاول يعطي دخلا يتراوح بين (٢٠٠٠ ــ ٢٠،٠٠٠) اقجه ،والثاني ،بين (٢٠،٠٠٠ ــ ١٠٠،٠٠٠) اقجة . واقطاعات السباهيين هذه تختلف عن السابقة بانها تنتقل بعد موت السباهي الى ابنه ،ولو كان صغير السن . اما اذا لم يخلف ولدا ،او خلف اولادا غير قادرين على القيام بالواجبات الاقطاعية ،فان الاقطاع يعتبر شاغرا ، وتؤخذ وارداته الى بيت المال ،ويبقى موقوفا فترة من الزمن عند موظف خاص، ثم يمنح الى اكفأ رجل من " جبّلي " السباهي المتوفى .

و "الاقطاع" ،لا يمنح مبدئياً الا لمن كان من الطبقة المحاربة ،فهو اقطاع

عسكري . ولم يكن يعطى للموظفين في الايالات ،وللسباهيين المقيمين فيها فحسب بل كان يمنح للعاملين في الحكومة المركزية ،وفي السراي ،مقابل اجورهم : كالشاويشية ،والمتفرقة ،ثم للكتبة في الدواوين المختلفة ،وللمقربين من السلطان . وازداد منح الاقطاعات لغير العسكريين في النصف الثاني من القرن العاشر/ السادس عشر، وكان هذا سببا من اسباب فساد النظام .

ويمكن النظر الى (الارض) التي توقفها السلطة الحاكمة ،والافراد ،لصالح المؤسسات الدينية ،والخيرية ،والتعليمية ،على انها نوع من (الاقطاع المدني العام)، لا تجبى ضرائبه ورسومه ليكون اجرا لموظف ما ، وانما لينفق على مسجد ، او مدرسة ،او مطبخ للفقراء الى غير ذلك من الامور . وهذه الارض تدخل بالطبع ضمن المؤسسة المسماة " بالاوقاف " او " الحبوس" . وقد كانت هذه "الاوقاف" منتشرة في كل ولايات الامبراطورية .وقد يحبس لتلك الاغراض المشار اليها آنفا ملكيات اخرى عقارية ،كالمنازل ،والطواحين ،والدكاكين،وغير ذلك من انواع الملكيات. وكان المشرف على الوقف يدعى "المتولي" .

لقد كان "البكربكي" او "الباشا" في الايالة هو الرئيس الاعلى للسباهيين ، الا ان هؤلاء كانوا ينضوون كنوع من التطبق الاداري ،لتسهيل مهمات الباشا ،تحت امرة قادة ادنى منه مرتبة ،ويقومون بأعمالهم في الاجزاء القريبة من اقطاعات السباهيين. فهناك اولا " بكوات الصناجق " الذين يحكمون المدن الهامة التي هي مراكز لصناجق الايالة . ثم " آلاي بك " ويختار في العادة من "زعماء" الصنجق الكبار وبموجب توصياته تملأ الاقطاعات الشاغرة . ودونه رتبة " الصباشي "،وهو مبدئيا يدير وحدة ادارية صغيرة من الصنجق ،ويقيم في المدينة ،ويأتمر بأمره السباهيون المقيمون في قرى وحدته . وفي القرى الكبيرة نسبيا من كل " صباشلكية " هناك " شيري باشي " ينظم السباهيين اثناء الحرب ، ويجمعهم تحت راية الصباشي،الذي يقوم بدوره بنفس المهمة لصالح الآلاي بيك . ويعمل " الصباشي " في حالة السلم ، مساعدا " للقاضي " ،في تنفيذ احكامه وضبط الامن للقضاء .

لقد كانت سلطة " الباشا "او "حاكم الصنجق " ،لا تشمل كل النواحي الادارية مع تمثل السلطة التنفيذية للسلطان . فتصريف شؤون " القضاء "أسلم لل" قاضي " وأسلم الشؤون المالية ،بما فيها الاقطاعية ،الى موظفين خاصين . اما من الناحية

العملية ،فان الفواصل بين سلطة كل موظف في المقاطعة،وسلطة بكلربكيها،لم تكن واضحة تماما ،ولا سيما في الشؤون القضائية . فكما كان للصدر الاعظم ديوانه للنظر في المظالم ،والفصل في بعض الحالات القضائية الخاصة ، فانه كان للباشا ايضا ديوانه . بل يبدو أن بعض الولاة كان يتمتع بسلطة كبيرة ،تصل الى حد اقالة القاضي ،واصدار حكم الاعدام .

وكان يعاون الباشا عدد من الموظفين ،اثنان يشرفان على القوى الاقطاعية وهما " الآى بيك " ،و " الصباشي " ،وهما الخاصان بصنجقه ،اذ انه كان للبكربكي " صنجق خاص من صناجق الايالة ، يكون تحت حكمه المباشر . وثلاثة آخرون يدعون " سباهي يازجيلارى " ، (اى امناء سر السباهيين) ،وهم الذين يقومون بتسجيل الاقطاعات

ويضاف اليهم الـ " مال دفتر داري " ،اى المسؤول عن واردات الايالة ونفقاتها . و"الكخيا" وهو نائب الوالي و"امين الشاويشية" ويساعد القاضي في تنفيذ الاحكام ، "وتذكرجي" يكتب المراسلات ويحفظها . ويمكن القول انه كان للوالي حاشية مماثلة لحاشية الصدر الاعظم في العاصمة .

وكان "ديوان الوالي" يتألف من الكيخيا (الكتخدا) ،والتذكرجي ،وموظفي المالية والاقطاع ،وقد يشترك القاضي احيانا في المناقشات . وينظر هذا المجلس بصفة خاصة بامور الاقطاع،والسباهيين،وشكاوى الشعب ،اذا كانت الايالة اقطاعية .

وتخضع الايالة الى تقسيم اداري آخر وهو التقسيم الى (اقضية) . و (القضاء) هو المنطقة التي ترجع في قضاياها الى قاضٍ واحد . وتعين الدولة لكل ولاية قاضيا هو من العلماء الاحناف ،ويقيم في عاصمة الايالة ،ويرسل (نوابا) عنه الى الاقضية والمحاكم .وفي البلاد العربية كان هؤلاء (النواب) يؤخذون من العلماء المحليين ،وعلى المذاهب السنية الاربعة ،اذا كان لها اتباع في الولاية . وكان (القاضي) يقوم بعملين رئيسيين : الفصل في الخصومات بموجب الشريعة والقانون ،والاشراف على تنفيذ قرارات السلطان الادارية والمالية .

والقضاة دعامة اساسية في البنية الادارية العثمانية . وقد يسيء بعضهم استعمال سلطته الكبيرة . ولما كان عدد الاقضية محدودا ،فان التنافس كان شديدا للحصول على منصب (قاضي) ،كما كان الحال من اجل الحصول على الاقطاعات . فقد

ينتظر بعض "القضاة المرشحين" سنوات قبل ان يصل دورهم . وكانوا يدفعون ثمن مناصبهم ،ولا سيما بعد تفشي بيع وظائف الدولة ،ولذا فانهم كانوا حريصين على ان ينالوا بعد الحصول عليها ،ربحا على ما انفقوا من اجلها . وفي فترات ضعف الدولة ،كان القاضي يعين لسنة فقط .

والدعامة الثالثة في حكم المقاطعات كانت "الدفتردار" ،الذي يمثل مصالح "الخزينة" . وكان مستقلا شأنه في ذلك شأن القاضي . ويمكنه ان يتصل مباشرة مع العاصمة ،وان يقدم شكواه ضد "البكربكي" والاداريين الآخرين . الا انه بالمقابل يمكن للبكربكي ان يعزل القاضي ،والدفتردار ،اذا ما اساءا استخدام سلطتهما ولكن عليه اعلام العاصمة مباشرة . وهذا يدل على وجود نظام مراقبة ،وتوازن في الولايات ،اذ أن هدف السلطة المركزية منع الباشوات في الولايات من ان يصبحوا اقوياء .

وكانت "الحاميات الانكشارية" القائمة في المدن الرئيسية ،هي قوة اخرى تمنع السلطات المحلية من ممارسة السلطة لصالحها . ويختلف عددها بين (٣٠٠-١٥٠٠) بحسب حجم المدينة ،وتعمل بحسب اوامر السلطان فقط . ولم يكن للولاة مبدئيا من سلطة على الحاميات التي تمثل سلطة السلطان تجاه الاعداء الداخليين والخارجيين اذ كانت تأتمر بأمر "آغاها" الذي يعين مباشرة من السلطة المركزية ،وتعمل على حفظ الأمن ،وحراسة القوافل ،والمال المرسل للخزينة ،والقضاء على ما يمكن ان ينجم من اضطرابات .

وبعد ازدياد التململ في الايالات في النصف الثاني من القرن العاشر/ السادس عشر، ارسلت الحاميات الى جميع المدن الصغيرة والكبيرة . وفي القرن الحادي عشر/ السابع عشر، لما ضعفت السلطة المركزية ،انتقلت السلطة الحقيقية في عواصم الايالات البعيدة عن استامبول الى تلك الحاميات كما حدث في الجزائر ،وتونس ، وبغداد ،ومصر ،وايالات الشام ،وافسحت المجال لتشكيل طبقة حاكمة جديدة .

الفصل الثالث

الأحوال السياسية للبلاد العربية في العصر الحديث

انضوت غالبية الاقطار العربية تحت حكم الدولة العثمانية ،منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ولم يبق خارجا عن نفوذها ،ومتمتعا باستقلاله ، سوى المغرب الاقصى، والاطراف الجنوبية والجنوبية الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، وقلبها في نجد .

ولقد عملت الدولة العثمانية ،بعد سيطرتها تلك ،على تثبيت اقدامها في البقاع التي ضمتها اليها . وعلى هذا ،فان سيادتها لم تكن مؤقتة ،بل دامت بين ثلاثة قرون ونصف ،واربعة قرون . ولكن على الرغم من المدة الطويلة التي حكمت بها معظم البلاد العربية ،فانها ظلت سلطة حاكمة "خارج" المجتمع العربي ،او بمعنى آخر ، لم تحدث في بنية هذا المجتمع تغييرا ذا بال .

وقد اشرنا سابقا الى نظام الحكم الذي اتبعته هذه الدولة في امبراطوريتها، وكيف قسمتها الى عدد من الايالات ،والصناجق ،والاقضية، والنواحي ؛وقد خضعت البلاد العربية لهذا التنظيم . وكونت في القرن الحادي عشر/ السابع عشر ما يقارب نصف ايالات الامبراطورية ،اذ بلغ عدد الولايات العربية (١٧) سبع عشرة ولاية (١) . وكان

.....

(١) هذه الولايات هي :

في العراق (٤) ولايات:(بغداد ،والبصرة ،والموصل ،وشهرزور) .

في بلاد الشام (٥) ولايات:(الشام ،طرابلس ،حلب ،صيدا ،الرقة ،او اورفه)

في شبه الجزيرة العربية (٣) ولايات:(شرافة مكة ،واليمن ،والاحساء .(خرجت اليمن من الحكم العثماني عام (١٦٣٥) .

في مصر (١) ولاية واحدة .

في طرابلس الغرب (١) ولاية واحدة .

في تونس (١) ولاية واحدة .

في الجزائر (١) ولاية واحدة .

في الحبش (١) ولاية واحدة وتضم ما يسمى ارتيريا اليوم وجزءا من شمالي الصومال

على رأس كل ايالة "وال" او "بكلربكي"، وفي عدد من الايالات كان هذا الوالي برتبة وزير . وقد الحقت بكل وال، الموظفين المشار اليهم سابقا ،أكانوا من فئة العسكريين الاداريين ،او العالميين ،او العلماء الدينيين ، كالقضاة ،والمفتين ،الاحناف. وزودت تلك الايالات ايضا بحاميات من الانكشارية ،الا انها لم تتوزع الفرسان (السباهيين) الاقطاعيين فيها كلها ،كما بينا سابقا . فقد كانت ولايات بغداد والبصرة ،والاحساء ،واليمن ،والجزائر ،وتونس ،وطرابلس الغرب ،والحبش، ومصر من "ولايات السالیانة"، أي لم تدخل "النظام الاقطاعي العثماني" اليها ،كما كان لشرافة مكة ،نظام حكمها الخاص .

ولقد ارادت الدولة العثمانية في بادئ الامر ،ان تسترضي الشخصيات التي عاونتها في عمليات الفتح لاجزاء الوطن العربي ،فولتها على بعض الاقطار، كما جان بردى الغزالي" الذى منحته(ولاية الشام) (من المعرة الى العريش) ،و "خيربك" واعطته ولاية (مصر) ،و "خيرالدين بربروس" (الجزائر) . كما انها رأت ان تترك لبعض الاطارات الوجاهية ،والاقطاعية المحلية السابقة ، سيطرتها على بقاعها وحق ممارستها سلطاتها على اتباعها ، طالما انها تقدم لها فروض الطاعة والولاء وتبعث الى استامبول العاصمة بانتظام المفروض عليها من الموارد . الا انها الى جانب اولئك الحكام المحليين ، كانت تعين في العادة واليا تركيا للرقابة وضبط الامور . وهكذا تركت الدولة الاشراف الادارى في منطقة الشوف (جنوبي لبنان) الى (آل معن)، وفي منطقة طرابلس الى (آل عساف) ،ثم الى (بني سيفا) ،كما لم تقض على المماليك في مصر ،وفي شمالي العراق تركت الامر بيد القبائل الكردية ، وفي جنوبه وفي البصرة والاحساء بيد القبائل العربية ، وفي الحجاز بيد اشرافه . وبذلك دلت الدولة على انها لا تريد ادخال تغييرات جوهرية في نظم الحكم والادارة في تلك البقاع ،بل تود فقط ضمان ولائها لها ،ونفوذها فيها . ولكن الدولة العثمانية بصورة عامة ،لم تكن لتثق بولاتها ، الاتراك والمحليين على السواء ،وتخاف عصيانهم وانفصالهم عنها ،بعد ترسيخهم لاقدامهم في ولاياتهم ،وتمكينهم لانفسهم فيها . ولذا فانها كانت تعمل على تبديل الوالي بشكل مستمر ،بحيث لا تزيد فترة ولايته بصورة مبدئية عن عام واحد قابل للتجديد . فقد توالى على ولاية دمشق مثلا، خلال القرن العاشر هـ/ السادس عشر م ،واحد وخمسون واليا ،اى بمعدل وال كل سنة ونصف . الا ان هذا لا يمنع من وجود بعض ولاة في مصر ،وصلت مدة حكمهم ايام سليمان القانوني ،الى اثني عشر عاما ،ولكنهم نادرون . وقد استشرت ظاهرة تغيير

الولاة في اواخر القرن العاشر/ السادس عشر، عندما تفشى بيع الوظائف ، وانتشرت الرشوة . فأضيف الى البلبلة الناجمة عن التغيير السريع للولاة ، عدم كفاية هؤلاء الولاة. اذ لم يصلوا الى الولاية بجدارتهم ، وانما بالهدايا ، والرشاوى التي قدموها ثمنا لها.

ومثلما عملت الدولة على تغيير الوالي بسرعة لتضمن سيطرتها ، فان " الحامية العسكرية " التي وضعتها في كل مدينة في الايالة للدفاع عنها ، واقرار الامن والنظام فيها ، و " فرق السباهيين الذين نشرتهم في الارياف ، بمنحهم اقطاعات ارضية معينة ، كانا عينا لها على الوالي ، وعلى اصحاب العصبيات في المنطقة، من امراء قبائل ، او زعماء محليين .

ولكن على الرغم من كل الاحتياطات الادارية التي اتخذتها لتستقر الاحوال، ولتمنع حركات التمرد والثورة على حكمها في البلاد العربية ، فان تلك الحركات لم تتوقف خلال القرون المختلفة . فالتاريخ الداخلي للبلاد العربية خلال الحكم العثماني، زاخر بمجموعة من الصراعات بين مراكز القوة فيه ، وهدف معظمها هو الوصول الى السلطة ، والاستقلال الذاتي وتحقيق مكاسب مادية . فهناك الصراع بين الولاة الأول للدولة العثمانية والدولة نفسها ، وهناك تسلط الحاميات الانكشارية ومحاولتها القبض على السلطة، والصراع بين الزعماء المحليين الذين تركوا يحكمون مناطقهم السابقة، والدولة الحاكمة ، ثم الصراع بين (الحاميات الانكشارية القديمة) التي غدت انكشارية محلية ، (ومثل لها البرلية في دمشق)نتيجة تزاوج افرادها مع نساء محليات ، وانخراطهم مع اولادهم في ميادين التجارة والصناعة ، كذلك ، ونتيجة دخول افراد من السكان المحليين ضمن صفوفها، وبين (الانكشارية الجديدة) ، او " القابي قول " التي كانت تبعث بهم استامبول بين حين وآخر ، لتدعم سلطة الوالي وتقر الامن . واخيرا الصراع بين البدو سكان الصحراء ، وسكان المدن والريف، الذي تمثل بغزو البدو المستمر للمدن والقرى ، وهجراتهم الموسمية ، وهجومهم على قوافل التجارة والحج ، ولا سيما ان مواسم الجفاف والقحط كانت كثيرة ، في جميع انحاء البلاد العربية ، والاحوال الاقتصادية مرتبكة .

وقد خرجت البلاد العربية من تلك الصراعات، والسلطة المركزية العثمانية قد وهنت قواها في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، وقد ضعفت قبضة الدولة عليها ، وحققت تلك البلاد في مختلف اجزائها نوعا من الحكم المحلي

الذاتـــي :

١- ففي بلاد العراق ، وقد قسمتها الدولة الى اربع ولايات (بغداد ، والموصل ، والبصرة ، وشهر يزور) ، لم يعرف الحكم العثماني العاشر قوة او استقرارا . وقد حدث فيها ما حدث في الولايات العربية الاخرى ، من تحول الانكشارية الى قوة لها مطامحها الخاصة بالحكم ، وظهر هذا جليا في القرن الحادي عشر/ السابع عشر للميلاد ، حيث ناوأت الوالي واضطرته للخروج من بغداد ، كما استطاع احد افراد كتيبة (الغرسان) من الاستيلاء على الحكم في العاصمة عام ١٠١٢ هـ/ ١٦٠٣م. الا ان اهم ثورة تزعمها اولئك العسكر ، كانت ثورة " بكر الصباشي " الذي قتل والي بغداد ، وحل محله عام ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م ، واستنجد بالقوات الصفوية الشيعية ضد العثمانيين ، مما ادى الى خروج بغداد من يد الدولة العثمانية ، ووقوعها بيد الصفويين . ولم تستعدها الا في عام ١٠٤٨ هـ/ ١٦٣٨ م .

الا ان الاوضاع لم تستقر في العراق بعد استعادة بغداد ، اذ عاد الانكشارية الى التسلط ، ووقع الصراع بينهم وبين العساكر المحلية . وقد شغل هذا الصراع كل ما تبقى من القرن الحادي عشر/ السابع عشر .

وقد اضيف اليه تحركات القبائل البدوية وغزواتها ، العربية في الجنوب ، والكردية في الشمال ، بل ان بعض هذه الاخيرة عملت على انشاء امارة كردية في شهر يزور . وهذه " المشكلة القبلية " هي التي دفعت الدولة العثمانية في مطلع القرن الثاني عشر/ الثامن عشر الى ابقاء " حسن باشا " واليا على بغداد عشرين عاما تقريبا (١١١٦-١١٣٦ هـ/ ١٧٠٤-١٧٢٣ م) ، اذ استطاع ان يوطد الامور فيها ، كما سمحت له بانشاء قوة عسكرية خاصة من مماليك جورجيا . وقد استطاع ابنه من بعده ، ومماليكه ، ان يقبضوا على السلطة في بغداد والبصرة حتى عام (١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م) ، عندما ارسلت الدولة العثمانية ، وقد اصلحت جيشها على النمط الاوربي ، جيشا الى العراق ، حاصر بغداد ، واعاد قبضة العثمانيين عليها ، وذلك قبل ضم " محمد علي " بلاد الشام بعام واحد . وكذلك فعلت بولاية الموصل التي حكمتها حكما وراثيا مستقلا (اسرة الجليلي) ، لمدة تزيد عن قرن (١١٣٩ -١٢٥٠ هـ/ ١٧٢٦-١٨٣٤ م) .


أذربيجان
الموصل
اربيل
كركوك
السليمانية
لورستان
بغداد
خوزستان
البصرة
الخليج العربي
العراق
في المادة [شهر السابع عشر]
ولاية بغداد
ولاية شهرزور
ولاية البصرة
ولاية الموصل
ولاية الرقة

ومما زاد في اضطراب الاحوال في العراق ،انها كانت مسرحا شبه دائم للحرب بين العثمانيين والايرانيين ،ففي القرنين العاشر والحادي عشر/ السادس عشر والسابع عشر ،كانت الحروب مع الشيعة الصفويين ،وفي القرن الثاني عشر/ الثامن عشر كانت الحرب مع " نادر شاه " ،الذي ابعد الصفويين عن الحكم عام ١١٤٩ هـ / ١٧٣٦ م ،واعلن نفسه حاكما على بلاد ايران ،وكان قبل ذلك قد قضى على حكام ايران من الافغان ،واعاد الصفويين الى عرشهم . وقد عمل منذ ان ظهر على مسرح الاحداث عام ١١٤٢ هـ/ ١٧٢٩ م ،على مناوأة العثمانيين ،والسعي لاحتلال بغداد والموصل .

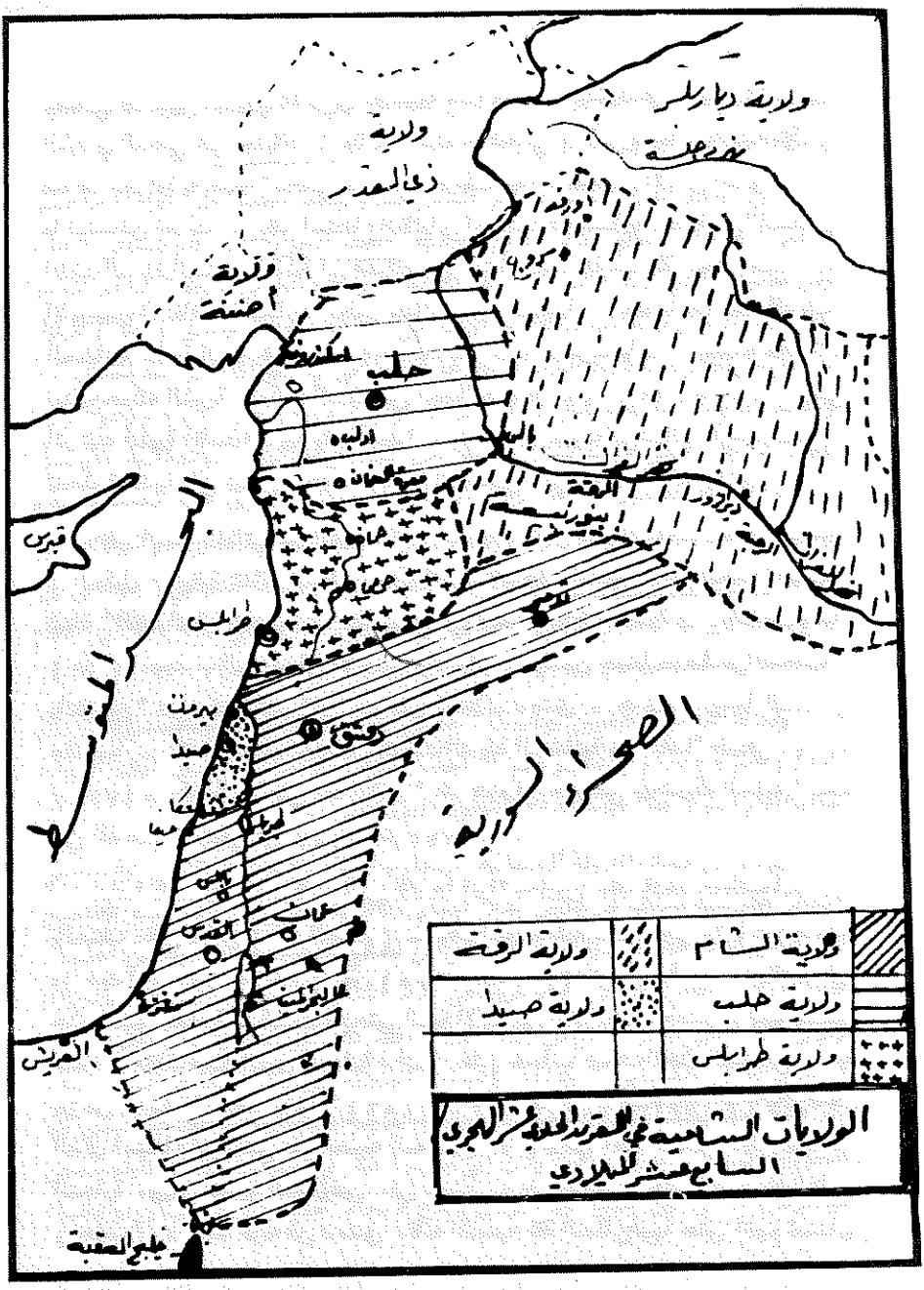
٢- **وفي بلاد الشام** ، وكانت في بادئ الامر منظمة حتى نهر الفرات(١) في ثلاث ولايات هي (دمشق ،وطرابلس ،وحلب) ،ثم اضيف اليها رابعة في ١٠٧١ هـ/ ١٦٦٠ م ،وهي صيدا ،فان الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية ابتدأت مباشرة بعد ضمها اليها . اذ حاول " جانبردي الغزالي " انوالي المملوكي الذي عينه السلطان سليم عليها ،الاستئثار بالسلطة ،بعد وفاة السلطان سليم مباشرة ،عام ٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠م ،والاستقلال ببلاد الشام كلها . الا ان الدولة العثمانية قمعت حركته بشدة .

وفي مطلع القرن الحادي عشر/ السابع عشر ،قامت ثورة الامير المحلي " فخر الدين المعني الثاني " وقد حاول ان يمد سلطانه على جبل لبنان كله ،وعلى البقاع

.....

(١) منذ القرن السادس عشر كانت منطقة (الجزيرة) شرقي الفرات ،تكون ولاية خاصة اطلق عليها ولاية (اورفه) ،وفي القرن السابع عشر اطلق عليها اسم (الرقة) . وكانت تضم من الالوية : جماسة ،والخابور ، ودير رحبة ،وبني ربيعة ،وسروج ،وعانة .

BeLin Op.Cit. p. 277


ولاية ديار بكر
ولاية
ذي القدر
ولاية
أضنة
حلب
البحر
المتوسط
قبرص
طرابلس
حمص
حماة
دمشق
بيروت
صيدا
القدس
عمان
العقبة
سفوح
الفرات
الصحراء العربية
ولاية الشام
ولاية حلب
ولاية طرابلس
ولاية الرقة
ولاية صيدا
الولايات الشامية في العقد الحادي عشر الهجري
السابع عشر الميلادي

وشمالي فلسطين ،وشرقي الاردن ،وسورية الداخلية . وشاركه في ثورته" الامير الكردي المحلي علي جنبلاط ." وكانت اسرته حاكمة في (كلّس) وما حواليها ،وكان عمه قد تولى"ولاية حلب"،وقضى على تمرد الانكشارية الدمشقيين الا ان الدولة ما لبثت ان اعدمته . وقد استطاع الثائران ان يكونا قوة عسكرية محلية من" السكبان" اقلقت الدولة العثمانية ،كما ان فخرالدين انشأ شبه دولة حديثة ،وعقد مع الاوربيين الاتفاقات التجارية ،وقوّى ميناءي بيروت وصيدا . وعندما هاجمته الدولة العثمانية التجأ الى (فلورنسة) ،حيث بقي فيها خمس سنوات . وعندما عاد ثانية ليتابع حركته الثورية ،تمكنت الدولة من القضاء عليه عام ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٥ م . وعلى اثر تلك الثورة اقامت الدولة ولاية صيدا ، وتمتد من بيروت الى شمالي فلسطين ، لتحكم قبضتها على لبنان ،حيث خلف" المعنيين "في جنوبه " الشهابيون " .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشرهـ/ الثامن عشرم،شاهدت منطقة (الجليل) وبقية شمالي فلسطين حركة اخرى قادها "الشيخ ظاهر العمر" رئيس قبيلة "الزيدانية "العربية . فقد توسع في(صفد) و (الناصرة) ،واصلح ميناء (عكا) ،وجذب اليه السفن الاجنبية والتجار . وكوّن جيشا خاصا من المغاربة ، واتفق مع " علي بك الكبير "في مصرعلى احتلال دمشق . ودخلت روسيا الى جانبهما . الا ان ثورته اخفقت ،وتمكنت الدولة العثمانية من القضاء عليهفي ١١٩٠هـ / ١٧٧٥ م ،كما كان "علي بك الكبير " قد هزم في مصرعلى يد شريكه السابق" محمد ابي الذهب" وتوفي في ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م .

واذا كانت تلك الحركات التي قادها امراء محليون ،قد اتخذت طابع الحرب والعنف ،فان تمكن (آل العظم) ــ وهم اسرة محلية ــ من تولي ولايات (دمشق) و(صيدا) ،و (طرابلس) بين (١٧٢٥ ــ١٧٣٠) في آن واحد ،وبقائهم في حكم دمشق بخاصة بشكل متقطع حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر ، لهو ثورة سلمية ،حققت فيها القوى المحلية ذاتها ،على حساب ضعف الحكم العثماني . وقد برز من بينها "اسعد باشا" (١١٥٦ــ١١٧١ هـ/ ١٧٤٣ــ١٧٥٧ م) والي دمشق الذي استطاع ان يقضي على خصومه المحليين ،وان يرضي اهل دمشق ،وان ينمي التجارة ،ويبني قصريه المعروفين ،في دمشق ، وفي حماة . وعندما عيّن واليا على (حلب) ، بعد عزله عن دمشق ،فانه اكتسب ثقة السكان فيها حتى انهم ثاروا

عندما علموا بنبأ عزله ،ولكن هذا لم يمنع السلطات في استامبول ،التي خشيت نفوذه من قتله (١١٧١ هـ/ ١٧٥٨ م) .

وفي اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر،وبعد القضاء على ثورة " ظاهر العمر " برزت في جنوبي بلاد الشام شخصية "احمد الجزار" . وهو بشناقي الاصل، ومن مماليك "علي بك الكبير" . وقد كان له دوره الغالب في مقاومة " ظاهر العمر" وقد عينته الدولة العثمانية مكافأة له ،واليا على (صيدا) . فاتخذ (عكا) مركزا له ،وارضى الدولة بتقديمه التزاماته نحوها ،فحكم في ولايته وكأنه امير شبه مستقل . واعطته الدولة (ولاية دمشق) ثلاث مرات ،وتوفي ١٢١٩ هـ/ ١٨٠٤ م وهو وال عليها . وقد كوّن جيشا كبيرا لنفسه ،من البشناق والالبان ،والمغاربة ،كما كان له اسطوله الصغير . وقد ارهق الاهالي بالضرائب لتمويل قوته العسكرية . وتميز عهده بابتزاز الاموال ،واحتكار المحصولات الزراعية ،والبطش ،والاساءة الى الحياة الاقتصادية . ودخل في صراع مع امير لبنان " يوسف الشهابي" ،وسعى كي يضع بدله ابن عمه "بشير الثاني "ظنا منه انه سيكون العوبة في يده ،الا ان الايام اثبتت له انه خصم عنيد .

وعندما هاجم "نابليون بونابرت" جنوبي بلاد الشام في حملته المعروفة عام ١٢١٤ هـ/ ١٧٩٩ م ،اشتهر اسم " احمد الجزار "عالميا ،اذ صمد امامه ، وردّه خائبا امام اسوار عكا ،بمساعدة الاسطول البريطاني .

وبيد ان ضعف الدولة العثمانية ،وتجارب الولاة والامراء الثائرين ،في ايجاد حكم شبه مستقل في جنوبي بلاد الشام ،كانا يشجعان من كانت له مطامح على السير بنفس الخطا ،ولا سيما اذا كان من اهالي البلاد ، وله عصبية من اهلها . فاذا كان " احمد الجزار " وهو غريب عن بلاد الشام ،قد حاول الاستئثار بالسلطة وفرض نفوذه على جمز" واسع من بلاد الشام ،فقد كان امرا منتظرا ،ان يفكر الامير " بشير الثاني الشهابي " بذلك ،وهو ابن المنطقة ،ووريث المطامح المعنية . وقد عمل بعد وفاة "الجزار "على التقرب من الدولة العثمانية ،وساعدها في رد هجوم(وهّابي)على حوران ، بل وكان الى جانبها قبلا في حملتها ضد (نابليون بونابرت) . وكوّن جيشا قويا ،وكان يطمح لايجاد حكم مركزي في لبنان ،والقضاء

على النظام الاقطاعي فيها ،وقد سيطرته على البقاع . وقد شجع هجرة السدروز والموارنة من حلب الى منطقته ،وقرب الاخيرين حتى شاع انه ماروني العقيدة . وسعى لفتح الطرق ،واقامة الجسور ،وازدهار التجارة . وعلى الرغم من "الثورة الفلاحية" (العامية الاولى) ضده عام ١٢٣٤ هـ/ ١٨٢٠ م ،لشدته في جباية الضرائب ، واصطدامه مع الدولة العثمانية ،حتى انه هرب الى "محمد علي باشا "في مصر عام ١٢٣٥ هـ/ ١٨٢١ م ،فانه عندما اعيد الى حكم لبنان ١٢٣٦ هـ/ ١٨٢٢ بوساطة محمدعلي باشا ،فانه تابع سياسته الاستقلالية ،وتحالف مع "محمدعلي باشا " ،وقدم له عونا كبيرا في حملته على بلاد الشام ،واثنا" حكمه فيها . الا ان خروج "محمد علي باشا "من بلاد الشام ،انهى حكم "بشير الثاني فيها عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٤٠م؛ بل ان الدولة العثمانية قضت على امارة لبنان كلها عام ١٢٥٧ هـ/ ١٨٤٢ م .

ولم تعش بلاد الشام خلال القرون الثلاثة الاولى من الحكم العثماني ،في صراع بعض ولاتها وامرائها المحليين مع الدولة ،وفيما بينهم ،للوصول الى حكم مستقل فيها كلها ،او في اجزاء منها ،فحسب ،بل عاشت صراعات محلية اخرى ،كان لها آثارها على اهلها وارضها ،ومنها صراعات (الانكشارية) . فمنذ اواخر القرن العاشر هـ/ السادس عشر ،شرع (الانكشارية) يظهرون كمركز قوة في دمشق،وحلب، ويسعون للتسلط على الحكم ،وعلى الاهالي ،ويبتزون الاموال ،ويرهبون الارياف . ومثلما حدث في بقية الولايات العربية ،في القرن الحادي عشر هـ/ السابع عشر، فان (الانكشارية الاول) تزاوجوا مع السكان ،ودخل في صفوفهم تدريجيا عناصر من اهل البلاد وبخاصة من دمشق ،وعملوا بالتجارة والصناعة، وشكلوا طبقة من "الاعيان" وطائفة خاصة اطلق عليها "البرلية " اى "المحلية " ، وغدت اشبه بحزب سياسي ، له مطامحه في الحكم . وقد توافقت مصالحها مع مصالح الفئة العليا من السكان، لانها غدت وكأنها منهم ،وبذلك اخذت على عاتقها الدفاع عن تلك المصالح ،وناوأة سلطة الولاة ،والدولة . فوقعت بصراع في دمشق بالذات مع "الانكشارية الجديدة " (القابي قول) التي بعثت بها الدولة لتحل في قلعة دمشق بدلا من الحامية السابقة ، ولتحفظ سلطة الدولة .

واذا كان الصراع قد قام في (ولاية دمشق) بين " البرلية " و "القابي قول " فانه في حلب اشتد بين "الانكشارية " و "الاشراف" . والاشراف هم سلالة علي

بن ابي طالب . فهؤلاء "الاشراف" كان لهم امتيازاتهم ،وطائفتهم الخاصة ، ونقيبهم . وكان عدد كبير منهم يعمل في التجارة ،ويمثلون قوة لها نفوذها في حلب ،وقد تبنوا الدفاع عن مصالح الاهالي ،كما فعل "اليرلية" في دمشق . وان صراعات الانكشارية ملأت تاريخ بلادالشام في العصر الحديث ،حتى تم القضاء عليهم من قبل السلطان "محمود الثاني" عام ١٢٤٢ هـ/ ١٨٢٦ م .

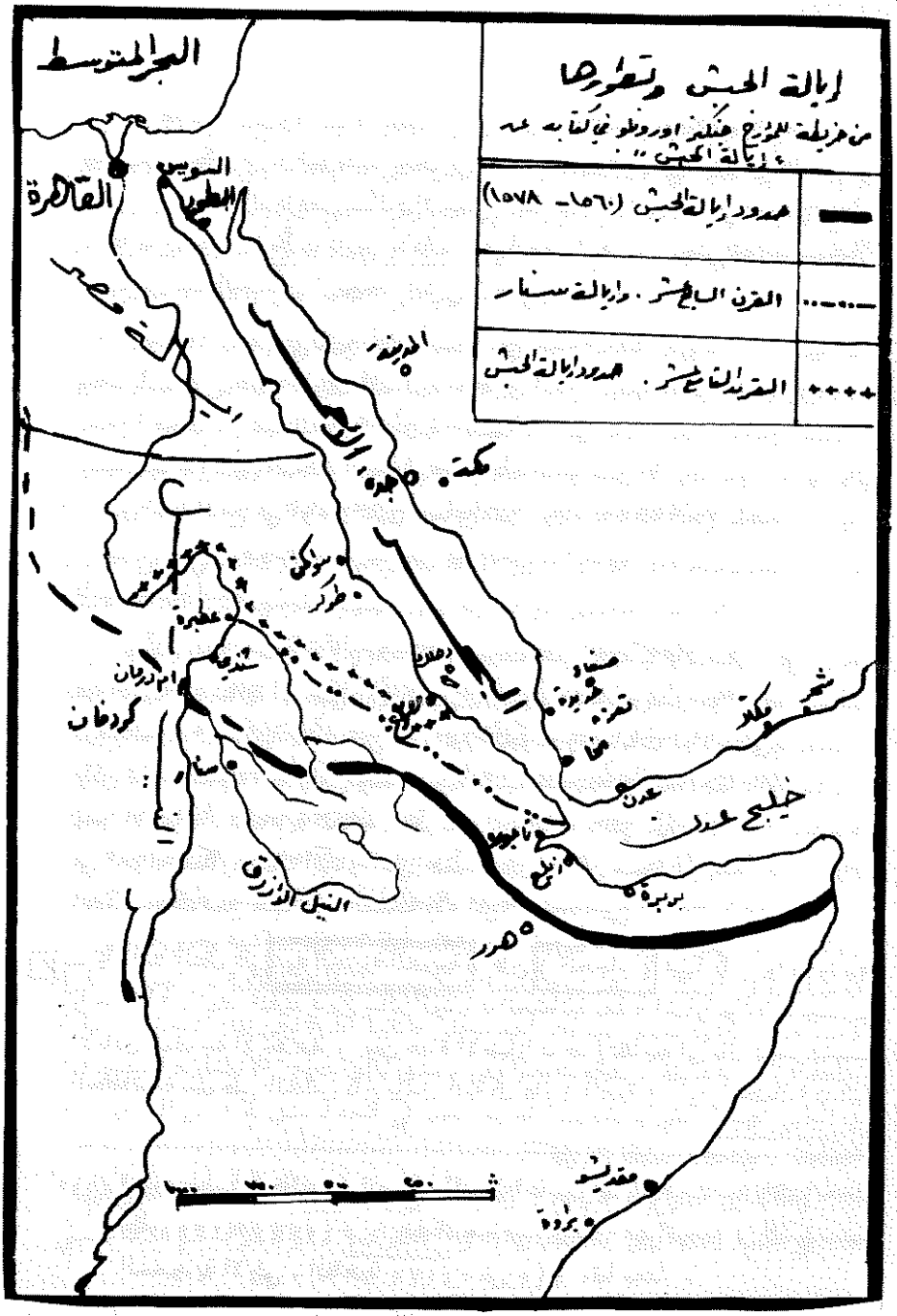
ويجب الا ينسى في تاريخ بلاد الشام ،في هذه الحقبة ،غزوات البدو الرحل وتعدياتهم على طرق القوافل التجارية ،وطريق الحج ،وصراعاتهم فيما بينهم وهجرة بعض القبائل من شبه الجزيرة العربية ،كقبيلة عنزة في اواخر القرن الثامن عشر ، وسيطرتها على طرق التجارة الصحراوية بين بغداد ودمشق . وقد يكون تعيين والي دمشق اميرا للحج في اواخر القرن السابع عشر ،وقيادته قافلة الحج بنفسه ، دون تسليمها الى من هم دونه ،دليل على قوة الحركات البدوية ،وحرص الدولة على تأمين سلامة الحج .

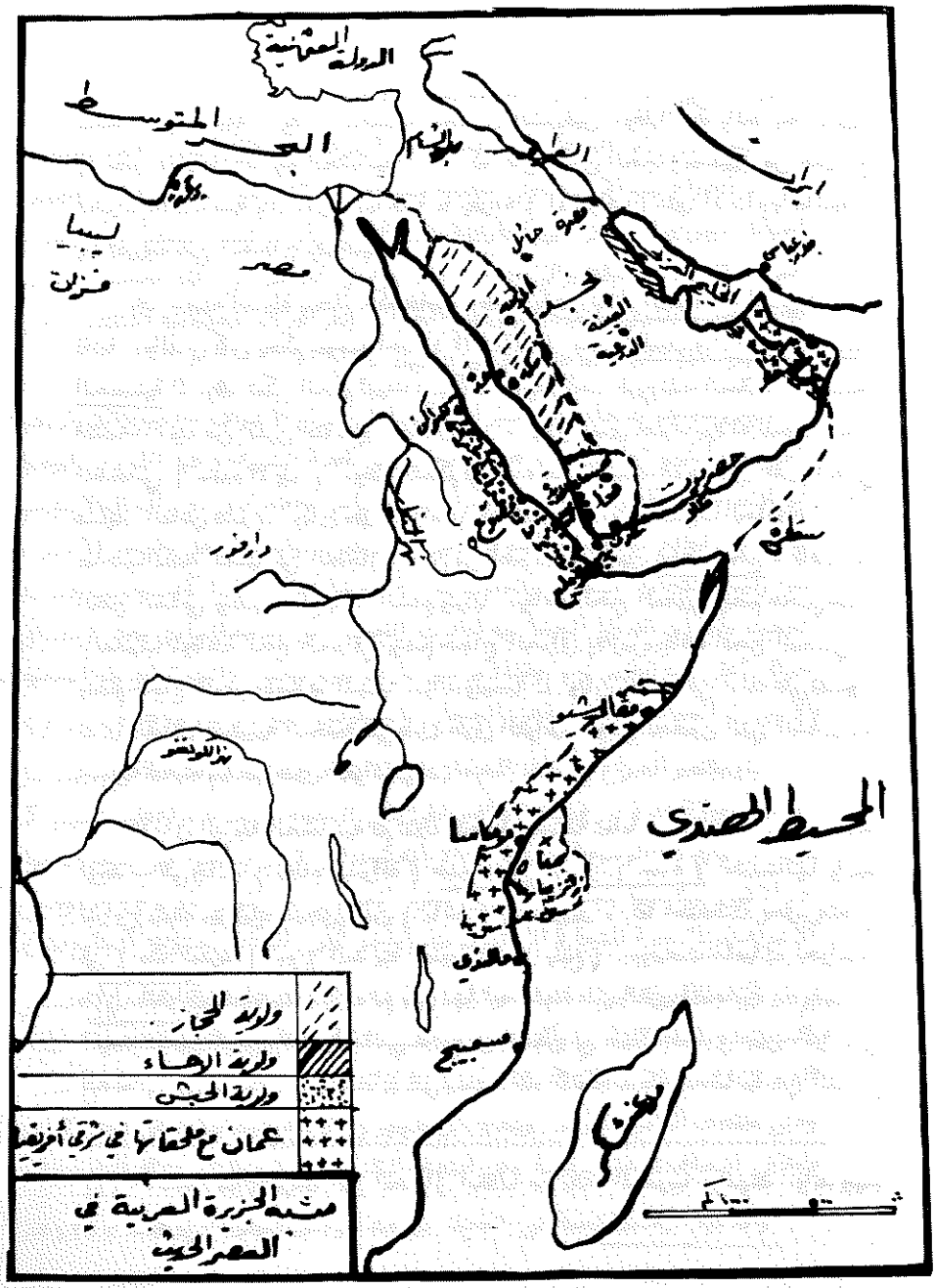
ويمكن القول اخيراً ، ان بلاد الشام عرفت بعض الهدوء والاستقرار في عهد قوة الدولة العثمانية أي حتى أواخر القرن العاشر هـ/ السادس عشر م ،والى هذه المرحلة ترجع الحركة العمرانية فيها ،من بناء الولاة للجوامع والحمامات ،والاسواق ،والخانات ولكن ضعف الدولة التدريجي وفساد مؤسساتها المختلفة في العاصمة والولايات ، وسوء الاحوال الاقتصادية العامة ،فجّر تلك الصراعات ،التي تركت آثارها السيئة في احوال السكان ، تلك الآثار التي طغت ،على ما كان حسنا من بعض فترات الحكم ،حيث قبض فيها على السلطة ولاة اقوياء أو مصلحون .

٣ـ واذا ما انتقل الى شبه الجزيرة العربية ، فان (الحجاز) فيها كان يؤلف ولاية واحدة(١) . وقد انفرد دون سائر الولايات العثمانية بعدة امتيازات ،لانه يضم الاماكن المقدسة الاسلامية . ومن هذه الامتيازات عدم تقديمه اى مال للخزينة السلطانية ،بل على العكس كان يرسل اليه كل عام (الصرّة) ،وهي اعتمادات مالية

.....

(١) انظر حولها " فائق بكر الصواف :العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز. مكة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م . وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الاولى . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١١٩ ،فما بعد .


ولاية الحبش وتطورها
من خريطة للمؤرخ هنكلمان اوردها في كتابه عن "ولاية الحبش"
حدود ولاية الحبش (١٥٦٠ - ١٥٧٨)
القرن السابع عشر . ولاية سنار
القرن الثامن عشر . حدود ولاية الحبش
البحر المتوسط
القاهرة
السويس
البحر الاحمر
مصر
المدينة
مكة
جدة
سواكن
طوكر
عطبرة
سنجة
امدرمان
كردفان
سنار
النيل الازرق
حلايب
ثابوت
ارقو
دنقلة
صنعاء
زبيد
المخا
تعز
شحر
مكلا
حضرموت
خليج عدن
بربرة
صومال
مقديشو
براوة


الدولة العثمانية
البحر المتوسط
ليبيا
فزان
واحات
المحيط الهندي
ولاية الحجاز
ولاية العسير
ولاية اليمن
عمان مع ملحقاتها في شرقي أفريقيا
منطقة الجزيرة العربية في العصر الحديث

ضخمة ،من حصيلة الاوقاف المخصصة للحرمين الشريفين ،وفقراء مكة والمدينة المنورة، في مصر ،وانحاء الدولة العثمانية(١). كما كان سكان الحجاز معفيين من جميع الضرائب الشخصية والعقارية ،ما عدا ما يفرضه (الاشراف) على الاغنام،والماشية ، وما يقررونه على الحجاج وقوافلهم .

وقد خصته الدولة بنظام حكم خاص : فقد ابقت "نظام الشرافة" الذي كان قائما ،والذي كان يحكم بموجبه احد (الاشراف) ،من "السلالة الادريسية الحسنية"؛ وقد تمكن الحكم لبيت (بركات)؛وهو احد فروع تلك السلالة ،منذ النصف الاول من القرن التاسع/ الخامس عشر . وهو الذى اعترف بولائه للسلطان العثماني (سليم الاول) ،وظل الحكم في يده حتى النصف الاول من القرن الثاني عشر/ الثامن عشر. وكان مقر الشرافة (مكةالمكرمة) . والشريف الحاكم هو صاحب الكلمة العليا في الحجاز ،وكان من أهم مهامه تأمين قوافل الحج : قافلة الحج الشامي وتضم حجاج بلاد الشام وتركيا ،وقافلة الحج المصري وتضم حجيج مصر والمغرب ،وقافلة الحج العراقي وتضم حجاج العراق وفارس،وقافلة الحج اليمني ، وتضم حجاج اليمن ،وبلاد الهند ،واندونيسيا . وكان يعتمد في ذلك على نفوذه لدى القبائل العربية المخيمة على طول طرق القوافل ،وعلى الحصون التي انشأتها الدولة العثمانية على طرق القوافل .

الا ان الدولة العثمانية لم تترك الحجاز مستقلة تماما عن نفوذها ،وانما اوجدت الى جانب (نظام الشرافة) صنجقية في ثغر (جدة) ،عينت لها واليا تتراوح رتبته بين(بك صنجق)وبين (باشا) برتبة وزير . كما احتفظت بحرس عثماني في (مكة المكرمة) ،و (المدينة المنورة) و (ينبع) ،ووضعت حاميات لحراسة منازل القوافل لحمايتها ،ولكنه لم يكن لها اية سلطة على القرى المجاورة . وقد قسمت حصيلة الرسوم الجمركية التي تجمع من السفن في ميناء جدة ، بين الوالي العثماني وشريف مكة . وبالاضافة الى ذلك ،فقد كانت الدولة العثمانية هي التي

.....

(١) كانت الاموال ترسل الى الحجاز ايضا من بلاد المغرب ،والهند ،واندونيسيا وغربي افريقيا .

تعيين "القاضي" وتبعث به من القسطنطينية ، وكذلك "المحتسب".

ولم تخل بلاد الحجاز هي الاخرى من الصراعات خلال العصر الحديث، فهناك الصراع بين الاشراف على منصب الشرافة . وكانت تتداخل في ذلك الصراع احيانا ، ومن وراء ستار ، قوى خارجية مثل والي الشام ، واليمن ، ومصر ، بل والسلطة المركزية العثمانية ممثلة بوالي جدة . وقد يؤدي التنافس على ذلك المنصب الى قتال دموي ، ينتهي بانتصار فريق على آخر . وتقر الدولة العثمانية المنتصر ، اذا ما اظهر الولاء لها ، باصدار مرسوم تعيينه .

ومن مظاهر تدخل والي مصر او حاكمها في صراع الاشراف ، الحملة التي ارسلها "علي بك الكبير" عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م لمساعدة الشريف (عبد الله) في الوصول الى الشرافة ، بالظاهر ، ولتحقيق نفوذ ديني وسياسي واقتصادي ، في العالم الاسلامي ومصر ، في الواقع ، وذلك بحمايته للحرمين الشريفين ، والسيطرة على البحر الاحمر ، ممرا رئيسيا لتجارة الهند ، وبتحديه للدولة العثمانية . واذا كانت الحملة قد نجحت ، الا ان الدولة العثمانية عادت الحجاز الى وضعه السابق بعد اخفاق حركة "علي بك الكبير" . وظل الامر على ما هو عليه ، حتى ازالت " الدولة السعودية الاولى " السيادة العثمانية عن الحجاز باستيلائها عليه عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣ م .

ولم يقتصر الصراع في بلاد الحجاز على الاشراف فيما بينهم ، وانما وقع بين الاشراف وولاة جدة . فهناك تنافس خفي على السلطة ، وهناك نزاع على نصيب كل فريق من واردات الرسوم الجمركية . الا انه ثبت ان الاشراف كانوا في معظم الاحوال هم الاقوى ، ولا سيما بعد ان انحسر النفوذ العثماني عن اليمن عام ١٦٣٥م ، وفتح الاشراف ميناء جدة للتجارة الانكليزية منذ اواخر القرن الحادي عشر/ السابع عشر.

ولم يكتف الاشراف ببلاد هم الحجازية ، بل اراد وا الامتداد الى (نجد) التي كانت تتمتع باستقلالها . وكانوا يعدون هجمات على المدن والقرى النجدية ، طيلة القرن الحادي عشر ، والنصف الاول من القرن الثاني عشر الهجريين/ السابع عشر وحتى منتصف الثامن عشر. ويبدو ان ظهور (الدعوة الوهابية) في نجد كانت عاملا في اضعاف تدخلهم فيها ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر/ الثامن عشر .

والدعوة الوهابية نسبة الى "محمد بن عبد الوهاب" (١١١٥ هـ — ١٢٠٧هـ/

١٧٠٣–١٧٩٢ م) وهو الذى أحيى المذهب الحنبلي وآراء "ابن تيمية" . وكان ابن قاضي "العيينة" وهي اكبر مدينة في نجد آنذاك . وقد درس في المدينة والبصرة ،وبغداد، العلوم الدينية ،والتصوف . وعندما عاد الى "العيينة" اخذ يبث دعوته بالرجوع الى الاصول الاولى للدين الاسلامي ،وتخليصه من البدع، والعادات الدخيلة ،ومنها الاعتقاد بالاولياء والمتصوفة ،ومنها تدخين التبغ ، وشرب القهوة ،والبكاء على الميت ،وغيرها . وتبنى دعوته (آل سعود) ،وهم من قبيلة عنزة العربية ،ومقرهم في (الدرعية) . وقرروا برفقته ان ينشروا الدعوة ولو بالقوة . واتخذوا من الذين اعتنقوا الدعوة ،(مجاهدين) ضد المخالفين لها. وفي مدى عشرين عاما (١١٧٩–١٢٠٠ هـ/ ١٧٦٥–١٧٨٥ م) امتدت الهجمات الوهابية من حواف عمان،واليمن،الى الفرات في العراق ،وجبل العرب في بلاد الشام . وكان ضمها (الاحساء) اول تحد مباشر للسلطة العثمانية ،وتبع ذلك الهجوم على العراق ونهب (كربلاء) عام ١٢١٧ هـ/ ١٨٠٢ م . وفي ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣ دخلت القوات السعودية مكة ،وهدمت القباب والمشاهد على القبور ،وبدئ بتدريس مؤلفات "محمد بن عبد الوهاب" فيها . ومع ان "الشريف غالب" استطاع استرداد مكة في العام نفسه ،الا ان السعوديين عادوا الى حصارها . فاتفق معهم الشريف على ان يحكم مكة باسمهم ،واحتلت المدينة من قبلهم عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥ م ، ومنعوا محامل الحج التي تأتي مع قوافل الحج ،وطردوا القاضيين التركيين من مكة والمدينة ،واستولوا على ما في الحجرة النبوية من كنوز .

ولم تكن الدولة العثمانية قد ابدت اهتماما كبيرا بالاحداث ،الا ان سيطرة السعوديين على الحجاز ،وتهديد طرق الحج ،ومنع المحامل من الدخول الى الديار المقدسة،اشعرها بخطورة الامر ،وبضياع هيبتها الدينية . ولذلك كلفت والي دمشق بمحاربتهم عندما غزوا حوران وجنوبي بلاد الشام عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م . ثم أوكلت الى "محمد علي" واليها على مصر،بالقضاء عليهم في عقر دارهم . وتمكن هذا الاخير ،بمعاونة اولاده ،من اجبار آخر امرائهم "عبد الله بن سعود" على التسليم، وارسل الى الآستانة حيث اعدم ،وخربت الدرعية عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٨م . واحتل محمد علي الحصون الرئيسية في وسط شبه الجزيرة ،وامتد حتى الاحساء ،والخليج العربي .

وبعد ان اضطر "محمد علي" ان يسحب قواته من الحجاز وما جاورها عام ١٢٥٦ هـ/ ١٨٤٠ م ، فان الدولة العثمانية اعادت الاوضاع كما كانت الى بلاد الحجاز ،الا انها شددت قبضتها ، فاصبح الاشراف يُعينون ويعزلون بحسب اوامر الباب العالي ،ووضعت حاميات لها في مكة ،والمدينة ،والطائف ،وجدة .

كانت "الحركة الوهابية" عاملا هاما في التاريخ السياسي والفكري للبلاد العربية والاسلامية . فهي تيار من "الحركة السلفية" الكبيرة،التي كانت احدى الدعوات الكبرى لاصلاح العالم الاسلامي والعربي والنهوض به في القرن الثالث عشر / التاسع عشر. كما انها كانت تحديا كبيرا للدولة العثمانية وسلطتها الدينية والسياسية . ولذلك يرى بعض المؤرخين فيها ،طليعة "للحركة القومية العربية" التي جابهت الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر والعشرين .

وفي الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية تقوم (بلاد اليمن) . وقد بيّن سابقا انّ الجيش المملوكي "الذي كان في اليمن ،عند فتح العثمانيين لمصر ،قدم آيات الولاء للسلطان سليم الاول ،عام ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م . وثبّت السلطان "سليمان القانوني" السلطة العثمانية فيها عام ٩٤٥ هـ/ ١٥٣٨ م ،وعيّن عليها حاكما برتبة "بكربكي" عام ٩٤٧ هـ/ ١٥٤٠ -١٥٤١ م . الا ان المرتفعات الجبلية فيها ظلت بيد "الائمة الزيديين" وقد تمكن "ازدمر باشا" ،وهو قائد من المماليك في خدمة العثمانيين ،من الاستيلاء عليها بعد ان دعم بامدادات عسكرية قوية ، وسقطت (صنعاء) بيد العثمانيين عام ٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦ م .

ولكن الائمة - وهم من الشيعة الزيدية - ما كانوا ليرضخوا للحكم العثماني ، ولذلك فانهم ثاروا عام ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧ م ، واستخلصوا صنعاء ،وعدن ،ومعظم البلاد ما عدا (زبيد) . عندها ارسلت الدولة العثمانية حملة بقيادة والي مصر "سنان باشا" ،قضى على الثورة ،واحتل صنعاء عام ٩٧٨ هـ/ ١٥٧٠ م ،كما اسلفنا القول .

الا ان الزيديين لم يستكينوا ،بل عاودوا الثورة بقيادة امامهم "القاسم بن محمد" (١٠٠٦-١٠٣٠ هـ/ ١٥٩٧-١٦٢٠ م) . واضطر العثمانيون ان يعقدوا اتفاقا مع الامام "القاسم" ،اعترفوا بموجبه بسيادة الزيديين على ما كانوا قد سيطروا عليه

من المناطق الداخلية الجبلية .

وفي عهد الامام " محمد المؤيد بن القاسم "(١٠٣٠-١٠٥٧هـ/ ١٦٢٠ - ١٦٤٦ م) عادت الحرب الزيدية ضد العثمانيين بعناد واصرار ،فسقطت صنعاء وتعز بيد الائمة عام ١٠٣٨ هـ/ ١٦٢٨ م ، واضطر الاتراك للخروج من اليمن عام ١٠٤٤ هـ/ ١٦٣٥ م ،وبذلك كانت اليمن اول قطر عربي يظفر باستقلاله عن العثمانيين .

وبقي الحكم الزيدي قويا تحت قيادة الامام اسماعيل (١٠٥٧ - ١٠٨٧ هـ/ ١٦٤٦-١٦٧٦ م) ،الا انه مال الى الضعف بعد وفاته بسبب الصراعات الداخلية على الامامة ،وظهرت دويلات مستقلة في انحاء اليمن . ومنها (الدولة العبدلية) في (لحج) ،وقد استولت على عدن عام ١١٤٨ هـ/ ١٧٣٥ م . وسعت الدولة العثمانية من عام ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩ للعودة الى اليمن ،ولكنها اصطدمت بمقاومة عنيفة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

ولا بد من الاشارة في هذا المجال ،ان ميناء (مخا) في اليمن رأى ازدهاره ونموه منذ منتصف القرن العاشر/ السادس عشر بصفته مركزا لتجارة (البن) ،الذي كان يزرع في مرتفعات اليمن ،والذى انتشر استخدامه في صنع (القهوة) ،في البلاد العربية وتركيا ،واوربا منذ القرن العاشر/ السادس عشر . وقد عوضت ارباح تجارته في مصر ،الخسارة التي اصابتها من تحول تجارة التوابل عنها ،واحتكار الهولانديين لها بعد البرتغال ،في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي ،عبر طريق رأس الرجاء الصالح . كما غدت (مخا) المركز البحري العثماني الاول في اليمن قبل خروج اليمن من يدها ،وبذلك حلت محل (عدن) التي انحطت الى مستوى قرية صيد فقيرة . وقد سيطر الزيديون على (مخا) من ١٠٤٥ هـ/ ١٦٣٦ م وحتى ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩ ،ووصلت الى اوج ازدهارها في مطلع القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،عندما كانت تتوافد اليها سفن مختلف الامم لتحميل القهوة ،وقد اقام الهولانديون ،والفرنسيون وكالات لهم فيها . الا ان هذا الازدهار خبا قبل منتصف القرن الثامن عشر، بسبب منافسة (البن)، الذى انتجته المزارع الواسعة التي اقامها الهولانديون في جاوا وسيلان . وانحطت (مخا) تماما عندما احتل الانكليز (عدن) ،وعاد العثمانيون الى اليمن ،وانعشوا ميناء

(الحديدة) ، عام ١٢٦٦ هـ/ ١٨٤٩ م .

■ والى الشرق من اليمن ، في جنوب شبه الجزيرة العربية ، تمتد (حضرموت) . وقد كانت خارج النفوذ العثماني ، والزيدي . وكان لها دورها الكبير في نشر الاسلام ، ودعم الثقافة العربية الاسلامية ، في القرن السابع عشر ، والثامن عشر ، والتاسع عشر . ففي هذا الوادى الداخلي الضيق ، الذي يعتمد على السدود القديمة والآبار في الري ، يكوّن (الاسياد) ، (وهم آل علي بن ابي طالب) نسبة كبيرة من السكان ، ويعتنقون المذهب الشافعي . وقد استلم السلطة في حضرموت (آل كثير) في القرن التاسع/ الخامس عشر . ومنذ ذلك التاريخ انشئت عدة مدارس في العاصمة (سيون) ، وفي (تريم) . ولقمع القبائل الساحلية ، كوّن " آل كثير " جيشا من الجنود المرتزقة ، جمع افراده من قبيلة (يافع) قرب عدن . ولما اغتنى قائد هذا الجيش ، عن طريق تقديم الجنود المرتزقة الى سلطنة (حيدر آباد) في الهند ، فانه سيطر على (شحر) و (مكلّا) في ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م ، واسس (الاسرة القعيطية) ، ولم يلبث ان ساد القعيطيون الوادي كله ، ولم يبق للكثيريين سوى (سيون) و (تريم) .

ان ضيق الارض كانت تجبر الحضرميين على الهجرة ، واتباع نمط معين واحد في البناء . وكانوا يهاجرون بصفة خاصه الى (اندونيسيا) و (شرقي افريقيا) ، حيث كانوا يعملون تجارا ، ويتزاوجون مع النساء المحليات . وان سلطنة (بونتانيساك) في (بورنيو) (اسست عام ١٧٧٢ م) ، وسلطنة (برليس) في (مالايو) انشأهما حضرميون . واليهم يرجع نشر الاسلام في تلك البقاع ، وترسيخ جذور المذهب الشافعي في اندونيسيا ، وشرقي افريقيا .

■ وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، اقليم عربي آخر لم يدخل تحت النفوذ العثماني ، وكان له تاريخه الزاخر في العصر الحديث . وهذا الاقليم هو (عمان) . فمنذ القديم ، استخدم سكانه الرياح الموسمية في الملاحة ، فحملتهم الى الهند ، وعدن ، وشرقي أفريقيا . وانتشر فيه المذهب الخارجي الاباضي منذ العهد الاموي ، وتكونت دولة خارجية اباضية منذ منتصف القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد ، حافظت على استقلالها في (عمان) ، و (نزوة) ، على الرغم من

الهجمات العباسية عليها ،حتى نهاية القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد.
ولم يلبث ان وقع معظم اجزائه تحت حكم (بني نبهان) ،حتى ٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م .
الا ان الموانئ بقيت بيد امراء محليين . فلما ظهر البرتغاليون في المنطقة ،
وعملوا على احتكار طريق الهند ،واستخلاصه من العرب ،استولوا على موانئ عمان ،
ونفذوا حتى رأس الخليج العربي ،بعد استيلائهم على (هرمز) . وفي القرن
الحادي عشر / السابع عشر ،ظهر الانكليز والهولانديون منافسين للبرتغاليين في
المنطقة . وتحالفت انكلترة مع ايران لطرد البرتغاليين ،وتمكنت من انتزاع (هرمز)
من يدهم في ١٠٣٢ هـ/ ١٦٢٢ م .

وفي هذا الوقت (١٠٣٤ هـ/ ١٦٢٤ م) ،انتخب الاباضيون العمانيون (ناصر
بن مرشد) من قبيلة اليعاربة ،اماما لهم ،فقام بتوحيد عمان ،والجهاد ضد
البرتغاليين فيها . ونجح الامام اليعربي الذي تلاه ،في طردهم منها، اذ انتزع
(صور) عام ١٠٥٣ هـ/ ١٦٤٣ م ،و (صحار) في ١٠٥٨ هـ/ ١٦٤٨ ،و (مسقط)
في ١٠٦٠ هـ/ ١٦٥٠ م . وبنى اسطولا قويا على النمط الاوربي ،وشنها حربا
جهادية على مراكزهم في الهند ،وشرقي افريقيا . وفي الهجمات على مراكز
البرتغاليين في الهند ،لم يكسب العمانيون سوى الغنائم ،ولكنهم في شرقي افريقيا
حققوا انتصارات كبيرة ،اذ انضم العرب في تلك البقاع اليهم (١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)
فسيطروا على (ممباسا) ،وانهوا الوجود البرتغالي شمالي موزامبيق ،وضموا
(زانزيبار) . ونشطت تجارتهم مع الهولانديين . وهكذا جمع شرقي افريقيا
العربي مع عمان في دولة واحدة .

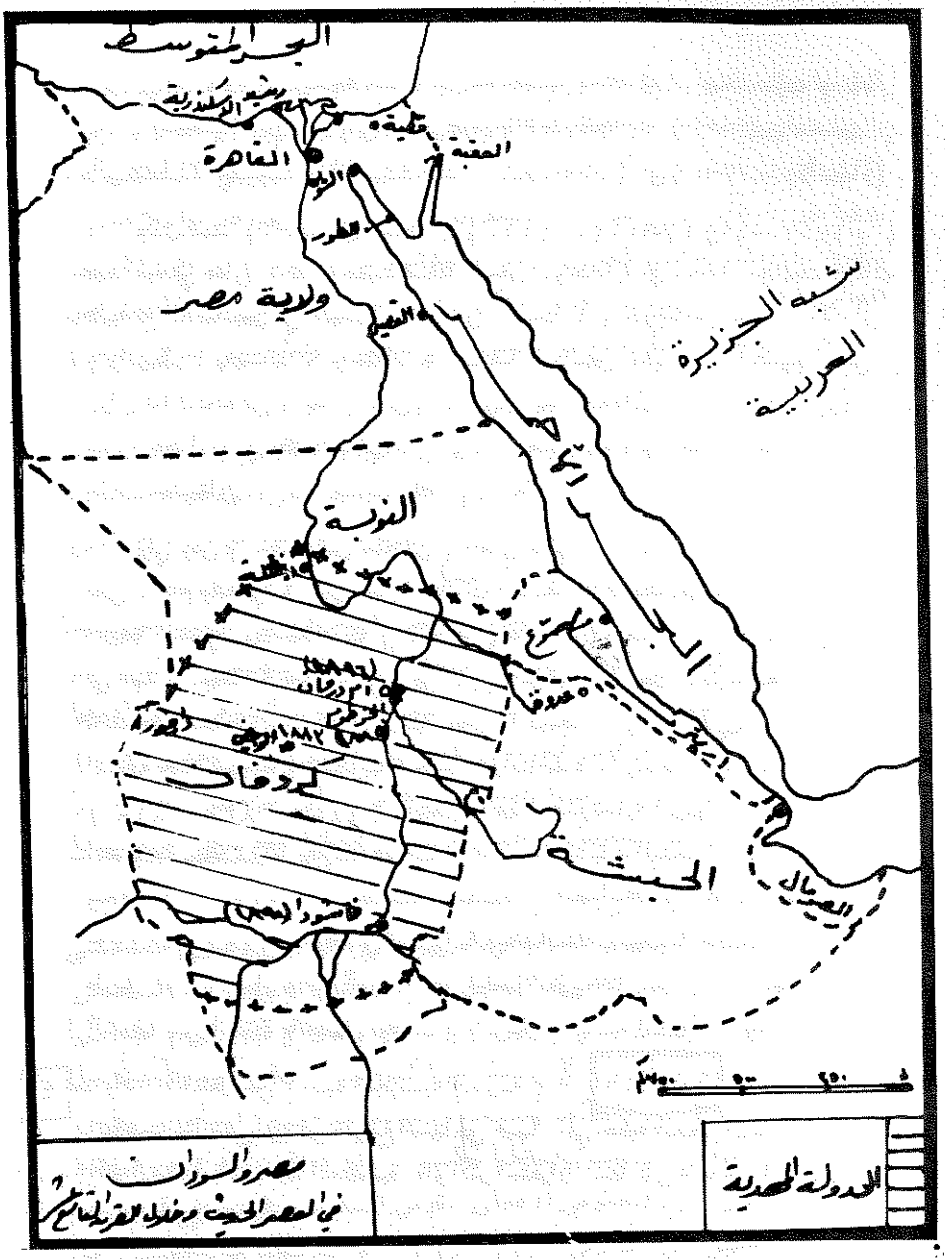
ولما ضعف حكم الصفويين الشيعة في ايران ،شرع العمانيون يغيرون على
الشواطئ الايرانية ،ومارسوا الجهاد البحري في (الخليج العربي) ضد السفن
الاوربية وبخاصة الانكليزية . وفي ١١٣٠ هـ/ ١٧١٧ م ضموا (البحرين) ،وحاصروا
(هرمز) . ويبدو ان ايران ،كانت تعدّ حربا كبيرة ضد (عمان) ، وتأمل
بالمساعدة الفرنسية ،لانها كانت قد وقعت مع فرنسا معاهدة بهذا الشأن . ولكن
(الافغان) ثاروا على الصفويين واسقطوا حكمهم . وقرر (نادر شاه) من قبيلة
(افشر) ،الذي انتزع الحكم من الافغان ،ثم من الصفويين ،ان يسود الخليج
العربي : فاستولى على البحرين ١١٤٩ هـ/ ١٧٣٦ م ،ودخلت قواته عمان في

١١٥٠ هـ/ ١٧٣٧م ،بحجة طلب احد سلاطينها مساعدته . وبعد موت (نادر شاه) انسحب الايرانيون ،بعد ان هزمهم الامام الجديد (احمد بن سعيد). والى هذا الاخير تنسب الاسرة الحاكمة (ابو سعيد) في (مسقط) و (زانزيبار) .

وكان عهد (احمد بن سعيد) (١١٦٠–١١٩٨هـ/ ١٧٤٤– ١٧٨٣ م) عهد قوة في عمان ، فقد احييت صناعة السفن ،والتجارة في مسقط ،واقيمت علاقات طيبة مع العثمانيين في البصرة . ومع ان (ممباسا) خرجت من يده ، الا أن (زانزيبار) بقيت له . واستفاد من ضعف الايرانيين ،فهاجم سواحلهم ،حتى ان ايران تنازلت له عن (بندر عباس) ،(وبقي بيد العمانيين حتى ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) وعن (غودار) (وظل لعمان حتى ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٨ م ، عندما اعطته عن طيب خاطر لباكستان) .

وفي زمن (سعيد بن سلطان) الذي حكم حتى ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٦م ،والذي قضى معظم وقته في (زانزيبار) ،عادت (مسقط) فثبتت نفوذها على ساحل افريقيا الشرقي ،واستعادت (ممباسا) عام ١٢٥٣ هـ/ ١٨٣٧م ،وازهرت التجارة في عهده ،وبخاصة تجارة العاج في شرقي افريقيا . وتوغل العرب المسلمون اثناء ذلك حتى منطقة البحيرات الافريقية ،ونهر الكونغو . ولكن العون الذي قدمته له انكلترة لصد الهجمات الوهابية ،وقمع الثورات ضده ،ألزمه على توقيع معاهدات معها (١٨٢٨، ١٨٣٨، ١٨٤٧) ،يتعهد فيها بمنع تجارة الرقيق ،والقرصنة ،مما افقده شعبيته . كما وقع معاهدات مماثلة ،مع الولايات المتحدة (عام ١٨٣٩) ، ومع فرنسا (١٨٤٤) . وتدخلت انكلترة في الصراع الذي دار بين ولديه عام ١٢٧٣ هـ/ ١٨٥٦ م ،والذي انتهى بانقسام السلطنة بينهما ،فسارت (مسقط) في طريق ،و (زانزيبار) في آخر . وفي اواخر القرن التاسع عشر تم اقتسام افريقيا الشرقية بين انكلترة والمانيا ،وغدت (زانزيبار) محمية انكليزية ، وكذلك (مسقط).

٤ – واذا ما انتقل من (شبه الجزيرة العربية) الى (مصر) في افريقيا ،فان الباحث التاريخي يرى ان الوضع السياسي فيها ،في حقبة العصر الحديث ،لم يكن اكثر ارتباطا بالسلطنة العثمانية ،او اكثر استقرارا ،مما كان عليه في الولايات الاخرى المشار اليها سابقا .


البحر المتوسط
الاسكندرية
القاهرة
العقبة
ولاية مصر
شبه الجزيرة العربية
النوبة
البحر الأحمر
الدويم
الحبشة
الصومال
مصر والسودان في العصر الحديث وخطوط التقدم الحربي
الحدود الحديثة

فاذا كان " خاير بك " المملوكي ،وهو أول وال على مصر ،ظل مخلصا للحكم العثماني حتى وفاته ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢ م ،ولم يثر كما فعل زميله " جانبردي الغزالي " في بلاد الشام ،فان بعض المماليك الآخرين ثاروا بعد وفاته ،في (٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م) . ولم تنته الدولة من قمع تلك الثورة ،حتى قام واليها التركي هذه المرة ، وهو " احمد باشا " الملقب بالخائن" ،بثورة على السلطة المركزية ، واراد ، الاستقلال بمصر ،واعلن نفسه سلطانا لها عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م . وقد ايده في ثورته بعض المماليك . الا ان القوى الانكشارية هزمته .

وقد دفعت تلك الاحداث ،السلطان " سليمان " لارسال وزيره الاعظم" ابراهيم باشا "الى مصر ،لدراسة الاحوال . وصدرت توصيات " ابراهيم باشا " في تنظيم اطلق عليه اسم " قانون نامه مصر "عام ٩٣٠ هـ/ ١٥٢٤ م . وقد نصت الوثيقة على انه يقوم على حكم مصر (وال) وهو نائب السلطان ،ويعاونه (ديوان) على نمط ديوان السلطان ،ويعين هو ،و (القاضي) ،و (الدفتردار) ،من العاصمة استامبول . وعلى مصر ان تنفق من وارداتها على الحامية المحلية ،والموظفين الاداريين ،وان تبعث بجزية سنوية (الارسالية) الى الخزينة السلطانية ،وان تقدم كذلك النفقات الامبراطورية المختلفة المكلفة بها . وقسمت (مصر) الى اقسام ادارية ،اسلم كل قسم منها الى " كاشف " ،ويساعده " عمال " مسؤولون عن جمع الضرائب ،والحفاظ على وسائل الري . وهم مبدئيا موظفون يتقاضون اجورا ، الا انهم عمليا كانوا يؤخذون من اصل مملوكي . وقد اسلمت عملية جباية الضرائب الى " ملتزمين " ،ومنذ اواخر القرن العاشر/ السادس عشر غدا النظام الالتزام هذا من احتكار المماليك ايضا . وفي المناطق التي تسيطر عليها القبائل البدوية ، فانه نظر الى شيخها على انه " كاشف " . وكان عدد الجيش عشرين الفا (٢٠,٠٠٠) ،موزعا على ست فرق ،واضيفت سابعة عام ٩٦٢ هـ/ ١٥٥٤—١٥٥٥م ،وكانت واحدة من الفرق من (الشراكسة) أي من المماليك الفرسان .

و (المماليك) — وهم بقايا الدولة المملوكية السابقة —عرفوا بـ " المكسوات " (امراء صناجق) .وكانوا يتناولون مرتبات رسمية ،وسمح لهم بأن يتابعوا شراءهم للعبيد القفقاسيين ،والبشناق ،وان يدربوهم لديهم ،كما كانوا يفعلون . وهكذا استمرت (طبقة المماليك) قائمة ،ولكن شق تضامنها ،التحزب . وقد زود " المماليك "

الفرق العسكرية بعدد من قادتها ،ورجالها ،كما حصلوا على مناصب هامة مثل منصب "امير الحج" الذى يقود قافلة الحج المصري ،ومنصب "امير الخزنة" الذى يحمل "الارسالية" سنويا الى العاصمة . فهم بذلك سيطروا على "الديوان" وعلى معظم المناصب حتى "الدفتردار" .

وقد تأثرت الاحداث في مصر من اواخر القرن العاشر/ السادس عشر ،شأنها في ذلك شأن الولايات الاخرى ،بضعف السلطة المركزية في استامبول ،وبالصعوبات المالية . ومع انه تم التوسع في زراعة الاراضي ،فان مصر عانت مجاعات على فترات متقطعة ، كما ان تجارتها ركدت . وكان ما تدفعه من جزية ،ويقدر وسطيا بنصف مليون (٥٠٠،٠٠٠) قطعة ذهبية في القرن العاشر/ السادس عشر ،عبءا ثقيلا عليها ،وتضاف اليه النفقات الامبراطورية ،مثل المساعدات الغذائية للحجاز ، والمعاشات المدفوعة لفقراء مكة وعلمائها ،وتكاليف الحملات البحرية الى الهند واليمن وغيرها ،والحاميات في موانئ البحر الاحمر ،والبارود للترسانة البحرية في استامبول والسكر لمطبخ السلطان الى غير ذلك من تكاليف .

وقد عاشت مصر من اواخر القرن العاشر وحتى اوائل الثالث عشر/ اواخر السادس عشر وحتى اواخر الثامن عشر صراعات داخلية بين مراكز القوى التي تكونت فيها. فهناك ثورات العساكر ضد الولاة . وقد اندلعت خمس منها بين ٩٩٧ هـ/ ١٥٨٩ م ، و ١٠١٧ هـ/ ١٦٠٩ م . و قام العساكر فيها بقتل الوالي او محاولة قتله ، وهاجموا الاسواق ،وبيوت الاعيان ،والموظفين الكبار ،واكتست ثوراتهم بطابع العنف والبطش والنهب . وترجع تلك التمردات الى محاولات الولاة وضع حد لطغيان العساكر المتمثل بصفة خاصة ،بفرضهم على الفلاحين واصحاب الاملاك في الارياف مبالغ معينة، غير المقررة شرعا ،وفي منعهم تسرب العناصر العربية من السكان الى صفوف الجيش. وفي الحقيقة ،يجب الا تهمل العوامل الاقتصادية وراء تلك التمردات ،فقد عانت مصر، مثل بقية ممتلكات الدولة العثمانية ،من التضخم النقدي ،الناجم عن تدفق الفضة من امريكا ،وانخفاض قيمة النقد الفضي . فارتفعت بذلك تكاليف الحياة . ويجب الا ينسى ضعف السلطة المركزية ،وبدء فساد نظام الجيش الانكشاري ،فتلك الثورات كان لها مثيلها في العاصمة استامبول ايضا . كما لا يمكن ان تغفل مطامح المماليك ، الذين اشتركوا في تلك الثورات . واذا كان الوالي "محمد باشا" قد قضى على

الثائرين عام ١٠١٧ هـ/ ١٦٠٩م ،وقتل الكثير منهم ،ونفى العديد الى اليمـــن ، فان من اتى بعده ،قد اتكأ اكثر فأكثر على "المماليك" ،فقويت شوكتهم ،حتى انهم عزلوا الوالي العثماني (موسى باشا) عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م ،لانه قتل واحـــدا منهم ،وعينوا قائم مقام "مكانه ، وايد هم السلطان في عملهم .

ولربع قرن من الزمن كانت اقوى شخصية في مصر هي شخصية (رضوان بك) ، المملوك الكرجي الاصل ،الذى تسلم (امارة الحج)ويقي فيها حتى وفاته ١٠٦٦/ ١٦٥٦ م . وقد عرف مؤيدوه من المماليك بـ "الفقارية" وتميزوا بلباسهم الابيـض، بينما عرف خصومهم "القاسمية" ،وتميزوا بلباسهم الاحمر . ولقرن من الزمن ،بقـي المماليك منقسمين بين هذين الحزبين ،والصراع دائرا بين الطرفين . وقد حـاول كل فريق ان يبحث عن حلفاء له في اوساط القبائل العربية البدوية ،وبين الـولاة ، وفي صفوف فرق الجيش الاخرى ،ولا سيما "الانكشارية" .

وقد كانت "الانكشارية" قد تسرب اليها في اواخر القرن العاشر / السادس عشر كثير من العناصر المحلية ، وفسد نظامها السابق ،الا انها كانت نشيطـــة سياسيا . وقد قام الصراع فيها بين صغارها وكبارها ،وبينها وبين الفرق العسكرية الاخرى ،مما ادى الى حرب اهلية في ١١٢٤ هـ/ ١٧١١ دامت سبعين يوما ،بين الانكشارية ،وقد وقف معهم بكوات "الفقارية" ، وخصومهم من الفرق الاخرى،وعلـى رأسهم بكوات "القاسمية" ،وانتهت تلك الحرب بهزيمة الانكشارية .

وبعد هذه الاحداث التي اطلق عليها المؤرخون العرب اسم "الفتنـــة" او "الواقعة الكبرى" غدا "بكوات المماليك" هم اسياد مصر الوحيدين .وكان عددهم عادة (٢٤) اربعة وعشرين ، وعرف اقوى (بك) منهم بـ "الرئيس" . وكـان يتقاسم الرئاسة احيانا ،اثنان او ثلاثة من البكوات . وقد اتبع العثمانيون في مصر سياسة تأييد لكل "رئيس" يظهر القدرة في اقامة حكومة مستقرة ،ويقدم الجزية للباب العالي . وقد اضيف الى الصراع بين "الفقارية" و "القاسمية" في القرن الثانـي عشر / الثامن عشر ،المنافسة بين "البيوتات العسكرية" ـــ وهي فرق تديـــن بولائها لبيك ،او قائد عسكري معين ـــ ومنذ ١١٦٨ هـ/١٧٥٤ او بعد ذلك بقليل اصبح يطلق على البيك المملوكي المسيطر لقب "شيخ البلد" . وقد تميز من هؤلاء المماليك في عام ١١٧٤ هـ/ ١٧٦٠ضابط شاب،شركسي الاصل ،هو "علي بـــك"

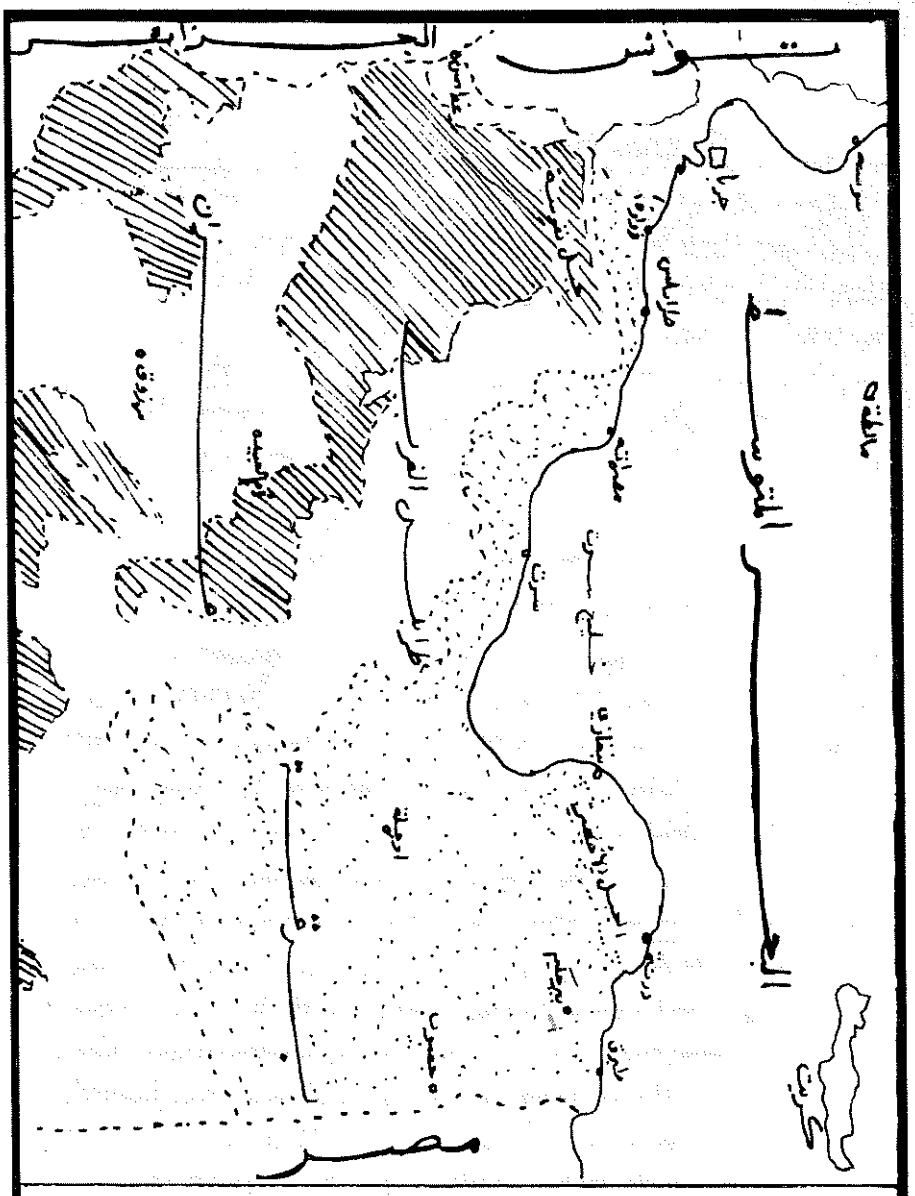
الذي عرف في التاريخ باسم "علي بك الكبير" ، وقد حكم مصر ثلاث عشرة سنة (١١٧٤ – ١١٨٧ هـ / ١٧٦٠ – ١٧٧٣ م) حكما مستقلا ، بمعاونة مملوكه الخاص "محمد ابي الذهب" . وقد قضى على كل مقاومة له في مصر ، بين المماليك ، والقبائل البدوية ، كما عزل الوالي العثماني ، وعين نفسه " قائمقاما " بدله ، وقطع الجزية عن البساب العالي ، واسس قوة مسلحة على النمط الحديث . وتدخل في شؤون الحجاز بحملة حربية ، كما اسلفنا القول ، واتصل بالدول الاوربية واعدا اياها بتوسيع سبل التجارة امامها ، وطالبا العون منها . وطمح بضم بلاد الشام الى مصر ، فاتفق مع ظاهر العمر ، وارسل حملته المعروفة اليها بقيادة "محمد ابي الذهب" في عام ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م . الا ان هذا الاخير انسحب من دمشق عائدا الى القاهرة ، واطاح بسيده "علي بك" ، الذي جرح في معركة معه ، وتوفي في ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . ولم تطل الحياة بـ "محمد ابي الذهب" اذ توفي هو الآخر عام ١١٨٩ هـ / ١٧٧٥ م . وعاد للسيطرة على الحكم في مصر عام ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٠ م "ابراهيم بك" و "مراد بك" ، وهما اللذان كانا على رأس مصر ، عندما اتت الحملة الفرنسية بقيادة "نابليون" عام ١٢١٤ هـ / ١٧٩٨ . وهكذا استطاع "المماليك" في مصر ، ان يحققوا في القرن الثاني عشر / الثامن عشر حكما ذاتيا قويا فيها ، لا تقل مطامحه عن اعادة "دولة المماليك وامبراطوريتها" ، التي سبقت الدولة العثمانية في السيطرة على مصر ، وبلاد الشام والحجاز واليمن .

وفي تلك الصراعات بين القوى ، في مصر ، لم يدخل المماليك ، والفرق العسكرية فحسب ، وانما "العرب البدو" ايضا ، وطوائف الحرف . وقد ادت تلك الصراعات الى اضعاف الاقتصاد المصري ، فحتى يحصل المنتصرون من المتصارعين على ما انفقوا ، فانهم كانوا يفرضون تكاليف مالية باهظة على الحرفيين والتجار ، بما فيهم الاجانب . ان عدم استتباب الامن ، وابتزاز الاموال ، وانحطاط بعض الصناعات التقليدية ، كصناعة الكتان والسكر ، وضعف التجارة مع الهند في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وفساد نظام الالتزام في جباية الضرائب في الارياف ، واهمال وسائل الري ، وانتشار المجاعات والاوبئة ، بين حين وآخر ، افقرت كلها تدريجيا مصر ، واطمعت اوربا بها ولا سيما فرنسا ، التي وجهت اليها حملتها الاستعمارية في اوائل القرن الثالث عشر او اخر الثامن عشر .

٥ – وفي ليبيا ،غربي مصر ، بعد ان طردت الدولة العثمانية "فرسان القديس يوحنا "من "طرابلس الغرب" ،واستتب لها الامر فيها عام ٩٥٩ هـ/ ١٥٥١ م ، فانها جعلتها (ولاية) تابعة لها ،ونظمتها على غرار الولايات الاخرى بأن اقامت على رأسها "باشا "يعين من استامبول ،وزودتها بحامية عسكرية من الانكشارية ، لم يلبث ان دخل في صفوفها وفي وقت مبكر ،اسرى مسيحيون من الحرب الجهادية البحرية ،اعتنقوا الدين الاسلامي ،وكذلك بعض سكان البلاد ،واولاد الانكشاريين من النساء المحليات . وهم الذين اسموا بـ"القولوغلو" . وكان يساعد "الباشا" "ديوان" ، كما اسلمت الادارة الى موظف دعي بـ"الداي" ،والجيش الى (الباي)

ولما كانت اقتصاديات ليبيا محدودة ،فقد اعتمدت على (الجهاد البحري) ضد مراكب الفرنجة في البحر المتوسط ،وغنائمه ،كمصدر هام من مصادر دخلها ، يضاف اليه ،ما تدره تجارتها عبر الصحراء ،وقافلة الحجيج المغربي السنوية .

ويتصف القرن والنصف الاول من الحكم العثماني فيها بالاضطراب الداخلي،الا ان هذا لم يمنع من توطيد سلطة "طرابلس الغرب" في برقة ،وفزان ،واعادة تنظيم الضرائب . وتميزت هذه المرحلة بالنفوذ العربي في الحكم ،وبأثر امرأة عربية تدعى "مريم الشبلية" في سياسة البلاد ،وبهجوم بحري من بريطانيا في ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م، ومن فرنسا ١٠٩٦هـ/ ١٦٨٥ م ،بسبب نشاط جهادها البحري ضد مراكبهما في البحر المتوسط . وتنتهي هذه الفترة في مطلع القرن الثاني عشر / الثامن عشر، وفي عام ١١٢٤هـ/ ١٧١١،عندما قبض على السلطة "احمد القرمنلي" الذي حكم (٣٤) سنة (١١٢٤–١١٥٩ هـ/ ١٧١١–١٧٤٥) ،وبقيت اسرته سائدة لقرن وربع من الزمن . وكانت اسرة "احمد "من الاناضول ،وقد استقرت في طرابلس، وتزاوجت مع العرب فيها . وقد وصل احمد الى الحكم بموافقة الجند والاهالي بعد الفوضى التي عانتها البلاد . وقد عمل اولا بصفته (بيكا) ، الا ان تقربه من السلطان العثماني ،جعل هذا الاخير يعينه "بكلربكيا" ويعطيه لقب "باشا" في عام ١١٣٢ هـ/ ١٧١٩ م . وقد قمع ثورات القبائل ،واوجد تنظيما للحكم ،فجعل "البيك "مسؤولا عن الجيش ،والامن ،و "القبطان ريس" عن الاسطول وشؤون البحرية ،والعائدات الجمركية ،ووضع الادارة المدنية بيد "الكخيا" ،وشؤون المال باشراف "الخزندار" ،وأسلم الاقسام الادارية الى "قادة" (مفردها قائد) ،وحكم


تونس
الجزائر
طرابلس
مدينة
سرت
خليج سرت
الجبل الأخضر
درنة
طبرق
مصر
ليبيا
(طرابلس الغرب وبرقة)
العصر الحديث والحقبة المعاصرة
مناطق تدوح الهضاب بين ٢٠٠ - ٢٦٠٠ م
مناطق ارتفاعها بين ٤٥٠ - ٩٠٠

مدينة طرابلس الى " شيخ " . واعتبر نفسه المسؤول الاعلى عن القضاء . وكانت واردات الدولة تأتي من العائدات الجمركية ،والضرائب على القبائل والاشخاص والزراعة ،ومما تدفعه البندقية سنويا من استثمار الملح في " بوكمش " قرب الحدود التونسية . هذا بالاضافة الى الواردات المذكورة سابقا . وقد شجع التجارة بين ليبيا والسودان ،وحسن الزراعة ،وسعى لتشجيع اقامة بعض الصناعات الصغيرة . ويعتبر عهده " العهد الذهبي " لانتاء الحكم العثماني لليبيا .

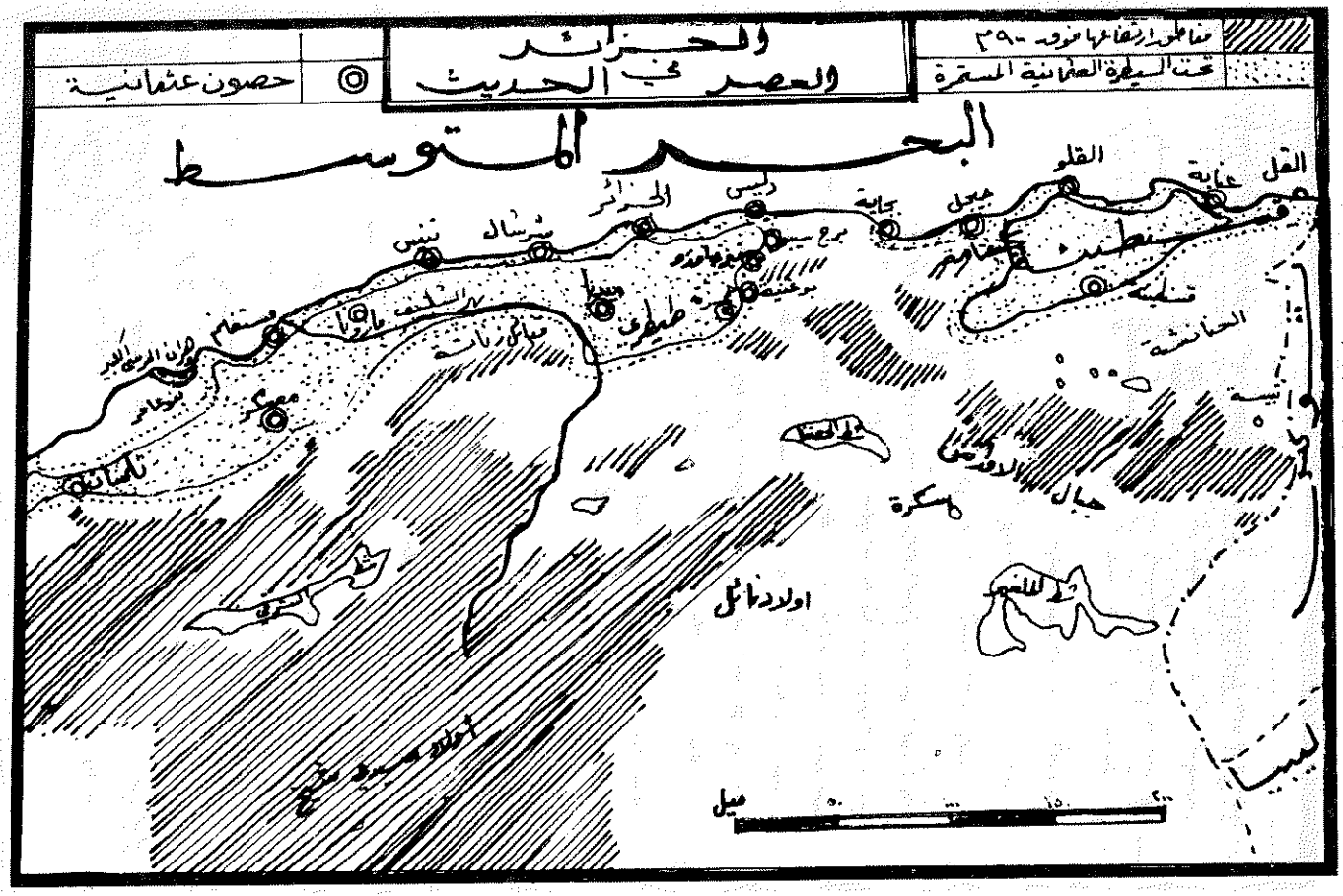
وقد استطاعت ليبيا " ابان حكم آل القرمنلي " ان تعقد اتفاقيات مع الدول الاوربية ،ومع الولايات المتحدة الامريكية ، تضمن بموجبها سفن هذه الدول — اى تعمل على عدم مهاجمتها — مقابل ان تدفع تلك الدول أتاوات سنوية . وقد حاولت الولايات المتحدة ان تمتنع عن دفع أتاوتها ،وعملت على ضرب ميناء طرابلس الغرب عام ١٢٢٠ هـ/ ١٨٠٥ م .

وقد هورت اوضاع ليبيا بعد عام ١٢٣٥ هـ/ ١٨١٥ م ،لان " مؤتمر فينا " اتخذ توصية بمنع القرصنة في البحر المتوسط .

ولما تنازل " يوسف قرمنلي " عن الحكم عام ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م ، وحدث صراع على الباشوية بين افراد اسرته ،اغتنمت الدولة العثمانية الفرصة ،وكانت قد قررت استعادة هيبتها في ولاياتها ،ولا سيما بعد ان هدد " محمد علي باشا " والي مصر تلك الهيبة ،وأبدت الدول الاوربية مطامحها في ليبيا،والمغرب العربي كله ، فأرسلت حملة بحرية سيطرت بها على ليبيا عام ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٥ م .ولثلاثة ارباع القرن غدت طرابلس،وبرقة ،تحت الحكم العثماني المباشر .

ومرة اخرى اتضح ،ان احد الاقطار العربية تمكن شأنه شأن الاقطار العربية الاخرى ،من تحقيق حكم استقلالي ذاتي عن الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر للميلاد .

٦ — وتشبه الاوضاع الداخلية في " الجزائر " ،و " تونس " ما كانت عليه في " ليبيا ". فقد ضمنت الدولة العثمانية حكمها في الجزائر الى جانب تعيينها " البكلربكي " العثماني على رأسها ،بوضع حامية فيها من العسكر ،او (الاوجاق) . وهم لم يكونوا من " الانكشارية " بكل معنى الكلمة ،على الرغم من تمتعهم بامتيازاتهم نفسها.


الجزائر
العصر الحديث
حصون عثمانية
تحت السيطرة العثمانية المستمرة
البحر المتوسط
القل
عنابة
القلو
جيجل
بجاية
الجزائر
شرشال
تنس
مستغانم
معسكر
تلمسان
طرابلس
جربة
جبل
بسكرة
أولاد نائل
ليبيا
ميل

فالانكشارية كانوا يجمعون من اولاد النصارى عن طريق الاسر او الدفشرمة ،بينما عسكر الاوجاق (يلداش yoldaş) كان يجمع على الاغلب من آسيا الصغرى ،ومن الشباب المسلمين لا الاطفال . وكان النظام المطبق عليهم شديدا ،وقيمتهم العسكرية كبيرة ويرئسهم "آغا" . ويساعد " البكلربكي " "ديوان "منهم(ديوان الاوجاق)،وكان يوازي سلطتهم " طائفة الريّس " التي تمثل " غزاة البحر "، واتباع " القبطان ريس" (او الاميرال) ،الذي كان يعين على ما يبدو من قبل السلطان.

وقد شهدت "الجزائر "منذ ان الحقت بالامبراطورية العثمانية ،تطورات في نظام حكمها ،نتيجة ضعف الدولة العثمانية ،وتطور سياستها الخارجية ،والصراعات الداخلية التي عانتها "الجزائر " ،بين مراكز السلطة فيها . ويمكن اجمال هذه التطورات بالمراحل الرئيسية الاربع التالية :

آ ـ عهد البكلربايات (٩٢٣-٩٩٦هـ/ ١٥١٨-١٥٨٧م) . وكان الحكام العثمانيون فيها خلاله لهم صفة عسكرية ،وهم المسيطرون على القوات البرية والبحرية . ومن ابرزهم "خيرالدين بربروسا "الذي غدا " القبطان باشي "لكل الاسطول العثماني . وفي الواقع توالى على الجزائر عدد من "البكلربايات "عرف بمقدرته البحرية والعسكرية، والادارية ،واسهم في دعم القوة البحرية العثمانية في غربي البحر المتوسط ،وفي وجه عدوة الدولة العثمانية الاولى اسبانيا . الا انه بعد انهزام الدولة العثمانية في معركة " ليبانتو "البحرية عام ٩٧٩ هـ/ ١٥٧١ م ،امام اساطيل البندقية واسبانيا،و البابا ،اخذ نفوذهم يتضاءل ،لان تلك الهزيمة ،ثم نجاح العثمانيين في استخلاص تونس من الاسبان عام ٩٨٢ هـ/ ١٥٧٤ م ،والوهن الذى اصاب السلطة المركزية العثمانية ، كانت كلها ايذانا بايقاف الصراع الحربي الحاد ،الناجم سابقا من رغبة الدولة العثمانية في السيطرة على غربي البحر المتوسط ،ورغبة اسبانيا في السيطرة على حوضه الشرقي . وعلى اثر ذلك ،جعلت الدولة العثمانية (الجزائر) ولاية كغيرها من الولايات على رأسها "باشا "،له السلطات نفسها التي للباشا في الولايات الاخرى . وبذلك بدأ "حكم الباشوات" .

ب ـ عهد الباشوات (٩٩٦-١٠٧٠ هـ/ ١٥٨٧-١٦٥٩م) ، وفيه قوي نفوذ الانكشارية ،واصبح ديوانهم منذ عام ١٠٣٦ هـ/ ١٦٢٦ م ،يمارس كافة السلطات، حتى تعيين الموظفين،ومنهم " القبطان ريس" ، وغدا آغاهم حاكم مدينة الجزائر .

وعندما حاول احد الباشوات ان يتخلص من نفوذ الانكشارية ،فانهم جردوه من جميع سلطاته عام ١٠٧٠ هـ/ ١٦٥٩ م ، ونصبوا آغاهم حاكما فعليا للولاية ، وبذلك بدأ (عهد الاغوات) .

جـ - عهد الاغوات (١٠٧٠-١٠٨٢ هـ / ١٦٥٩-١٦٧١ م) ، ومدته قصيرة . وقد ازداد خلاله الشغب الانكشاري ،وغدا اغتيال الاغا من قبل الانكشارية شبه سنّة . ومال الاهالي لان يكون على رأسهم رجال من "طائفة الريّس" بدل الجند العثماني ،لأن تلك الطائفة تمثل مصالح البلاد ومصالحهم .وبالفعل اسلمت طائفة "الريس" سلطة الاغا الى "داي "(١) منهم عام ١٠٨٢هـ/ ١٦٧١م ،وبدأ بذلك عهد "الدايات" الذى دام حتى احتلال فرنسا للجزائر عام ١٢٤٦ هـ/ ١٨٣٠ م .

د - عهد الدايات (١٠٨٢-١٢٤٦هـ/ ١٦٧٠-١٨٣٠م) . وفيه عاد الانكشارية الى التسلط ،واختيار الداي منهم . وفي ١١٢٤ هـ/ ١٧١١ م نجح الداي "علي جاويش" في اقناع الباب العالي في منحه لقب "باشا" ،بعد ان امتنع عن استقبال الباشا الذى كان قد عينه السلطان . وهذا يعني ان الاستقلال الذاتي قد اكتملت عناصره . وكان الدايات يختارون لمدى الحياة ،ويمارسون سلطة مطلقة في الشؤون الداخلية ،والخارجية على السواء ،على الرغم من ان الجزائر بقيت اسميا تابعة للدولة العثمانية ،وتقدم لها المساعدة العسكرية عندما تطلبها منها . وتمكنت الجزائر في عهد الدايات هذا ،وفي القرن الثاني عشر / الثامن عشر من صد هجمات المغرب عليها ثلاث مرات ،وهاجمت تونس ،واخيرا انتزعت " وهران "من اسبانيا .

وقد مارست الجزائر خلال العصر الحديث (القرن السادس عشر - اواخر الثامن عشر) ،(الحرب الجهادية البحرية) ضد المراكب الاوربية في البحر المتوسط ،التي يطلق عليها الاوربيون اسم "القرصنة" شأنها في ذلك ،شأن ليبيا ،وتونس ،والمغرب الاقصى . وقد وصلت تلك الحرب الى ذروة نشاطها في الربع الاخير من القرن السادس

---

(١) هناك اختلاف حول معنى الكلمة ،فبعضهم يقول انها تحريف تركي لكلمة "داعي" التي كانت تعني "رئيس مائة" في الجيوش الاسلامية ،وفعلا كان على رأس كل (١٠٠) جندي من جنود الحامية "داي" . بينما يؤكد بعض المؤرخين،ان "داي" لفظ كان يستخدمه البحارة المغربيون،او "طائفة الريّس"،بمعنى "عم" او "خال" .

عشر ،والنصف الاول من السابع عشر . وغدت مدينة "الجزائر" مدينة غنية جـــدا ورخيـّـة ، نتيجة الاسلاب التي كانت تتدفق عليها ،حتى سميت هذه الفترة بالعهد الذهبي للجزائـــر" ،وتجمع فيها عديد من السكان ،من اصول مختلفة ، اوربية من شتى المقاطعات والدول ،وتركية من آسيا الصغرى ،وعربية وغيرها . وكثير منهـــم كانوا من اسرى الجهاد البحري ،اعتنقوا الاسلام ،ومارسوا اعمالا مختلفة في المدينـة ، هذا بالاضافة الى (٢٥٠٠٠) من الاسرى العبيد المسيحيين ،كان يستخدم بعضهم في التجذيف في السفن . اما السكان الاصليون،فيقدرهم بعض المؤرخين بـ(١٢,٠٠٠) وكثرة منهم من مسلمي اسبانيا،الذين هاجروا منها بعد سقوط غرناطة ،وخلال القـرن السادس عشر ،وبعد قرار اسبانيا في ١٦٠٩ ،بطرد "الموريسك" منها . وكان هؤلاء يعملون حرفيين ،وتجارا ،وقد اسهموا اسهاما كبيرا في انعاش الحياة الاقتصاديـة . وهناك ايضا "اليهود" ،ومعظمهم من اللاجئين من اسبانيا . وقد لعبوا دورا هاما في النشاط التجاري للجزائر ،لصلاتهم مع اليهود في "ليفورن" في ايطاليا ،وفـــي بقاع اخرى . وقد تزايد دورهم في شؤون الدولة المالية ،وفي التصرف بغنائم الحرب الجهادية ،من عبيد ،وسلع اخرى ،في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وقد اوقعت الحرب الجهادية البحرية ،الجزائر في صدامات مسلحة مع الـــدول الاوربية . فقد ضربت انكلترا الجزائر (في ١٠٣١ هـ/ ١٦٢٢ م ،وفي ١٠٦٥ هـ/ ١٦٥٥ م ،وفي ١٠٨٣ هـ/ ١٦٧٢ م) ،وكذلك فعلت فرنسا (في ١٠٧١هـ/١٦٦١م وفي ١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٥ م ،وفي ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٢ م ، وفي ١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م) ، الا انها اخفقت في احتلال (جـيجل) ،وانتهى الامر بأن وقعت فـــي ١١٠٠هـ/ ١٦٨٩ م معاهدة مع الجزائر ، تقيم علاقات صداقة ،وتسمح بنمو التجارة بين البلدين. ومنذ ٩٦٧ هـ/ ١٥٦٠ م كانت قد عملت على الحصول على احتكار (صيد المرجان) من الساحل الجزائري . وقد وقعت الشركة المستثمرة في صعوبات عديدة ،واخيرا انضمت شركة تونس والجزائر في شركة واحدة تحت اسم " شركة افريقيا " .

وهكذا يتضح ،ان (الجزائر) كانت ولاية عثمانية رسميا ،الا انها كانت تتمتـع باستقلال كبير ،بل انها كانت (شبه دولة) ،تمارس مختلف السلطات دون الرجوع الى السلطة المركزية في (استامبول) ،حتى في اتفاقاتها مع الدول الاوربية ،بـــل

أن هذه الدول كانت تعاملها على هذا الاساس .

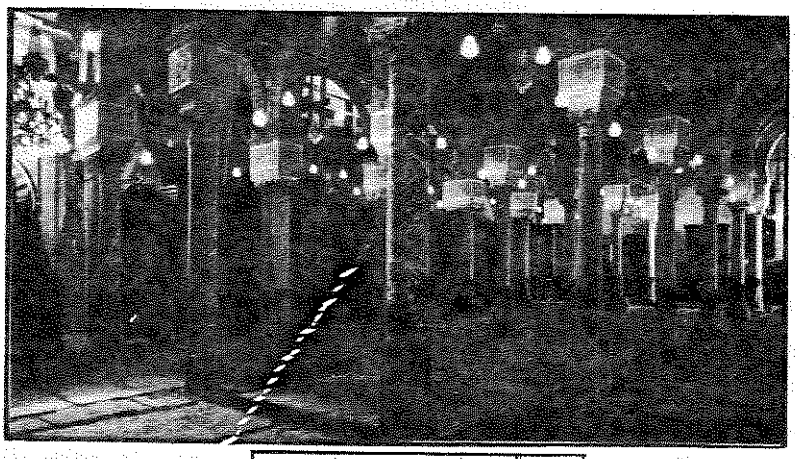
٧ ـ ولا يختلف تطور تونس في حقبة العصر الحديث عن تطور الجزائر كثيرا . فهي الاخرى ،عانت الصراعات الداخلية العشار اليها آنفا ،ومارست (الحرب الجهادية) وتأثرت بما نجم عنها من مكاسب ومن تعديات اوربية ،وتمتعت باستقلال ذاتي عن الدولة العثمانية .

فبعد ان استخلص" سنان باشا "تونس من الاسبان عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٤ م ، الحقها موقتا بصفتها "بكوية " بالجزائر . ثم حولت الى (ولاية) ،وجعل على رأسها "بكربكي " ،تساعده حامية من الانكشارية تقدر بـ (٤٠٠٠) جندي يرئسهم " آغا " . وكما في الجزائر ،فقد قويت شوكة هؤلاء الانكشارية ،واخذوا ينازعون البكربكي ـ الباشا سلطاته . وفي ٩٩٩هـ/ ١٥٩١ م ،قام رؤساء الفرق الاربعين التي كانت تتألف منهم الحامية ـ وقد عرف واحد هم باسم "الداي " ـ بقتل كبار القادة الانكشارية ، وعينوا واحدا منهم ،ليقتسم السلطة مع " الاغا " ،مع الاحتفاظ بلقبه "الداي " . وقد تزايدت سلطة "الداي "على حساب سلطة " الباشا" و"الآغا " . ولنصف قرن (حتى ١٠٤٦ هـ/ ١٦٣٧ م) مارس الدايان المتواليان "عثمان" و"يوسف" السلطة عمليا ،وكأنهما هما رأس الدولة . وقد نظمت الادارة في عهدهما ،فأنشئ منصب "الباي "او "قائد القوات البرية " ،ومهمته الخاصة جمع الضرائب ، ومنصب "القبطان " وهو قائد الاسطول . ولقد اهتم الاثنان باعادة النظام بين القبائل العربية ،وكان قد افتقد منذ زوال الدولة الحفصية ،واصدر اولهما مجموعة من القوانين (الميزان) ،وعمل الثاني على تشجيع (الحرب الجهادية البحرية) ضد المراكب التجارية الاوربية . وخلال هذه المرحلة ،فتح الدايان ابواب تونس امام هجرة "العرب المسلمين " الذين طردوا من اسبانيا . وقد قام هؤلاء الاندلسيون بتأسيس عدد من المدن ،واسهموا ايجابيا في تقدم الزراعة ، وادخلوا حرفا ،وصناعات ، واحيوا اخرى ،ومنها الصناعات الحريرية ،والصوفية .

ويبدو ان اشراف البكوات على القبائل ،وجبايتهم للضرائب ،قد قوت مراكزهم فطمعوا بالسلطة ،واستطاع واحد هم وهو "مراد بك " ١٠٢٢ـ١٠٤٠هـ/ ١٦١٢ ـ



تحت النفوذ التركي العثماني الدائم
تونس في العصر الحديث



صحن جامع الزيتونة

١٦٣١م من انتزاع السلطة من الداي ،وجعل منصبه وراثيا في اسرته ،ثم حصل على لقب "باشا "من الباب العالي . وتميز من البايات "حمودة بيك " (١٠٤٠-١٠٧٠ هـ/ ١٦٣١-١٦٥٩ م) ،الذى كان له موقف صلب في وجه الدول الاوربية .

ولم تلبث ان قامت "ثورة داخلية "اخرى تزعمها " آغا السباهية "،وهو "ابراهيم" فقتل جميع افراد "الاسرة المرادية " ، واخذ لقب "باي "عام ١١١٤هـ/١٧٠٢م ، واتبعه برتبة "الداي "، ثم بتعيينه "باشا "من قبل السلطان العثماني ،وبذلك جمع السلطات الثلاث في شخصه . ولما قتل في حربه مع الجزائر ،اعلن قائد فرسانه "حسين بن علي التركي "نفسه "بيكا " في ١١١٧ هـ/ ١٧٠٥م ،ونال من السلطان العثماني لقب "باشا " ،الا انه الغى من القابه "الداي " . وفي ١١٢٢ هـ/١٧١٠م اعلن في اجتماع عام ان الحكم سيكون وراثيا في اسرته . وبذلك قامت "الاسرة الحسينية" التي حكمت البلاد قرنين ونصف ،اى حتى ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م ، عندما ازالها رئيس جمهورية تونس الحالي "الحبيب بورقيبة " .

وقد تميز القرن الثاني عشرهـ/ الثامن عشرم في تونس وفي ظل الاسرة الحسينية ، بأن الحياة السياسية فيها كانت اقل اضطرابا مما كانت عليه في الجزائر . فقد توالى عليها بايات شعروا بمسؤولياتهم وواجباتهم ،وابرزهم "حمودة باشا " (١٧٨٤ - ١٨١٤ م) . وقد عرفت البلاد الرخاء ،وتوسعت في الحرب الجهادية البحرية ، ونشط عمران المؤسسات الدينية كالمساجد والمدارس . وازدهرت التجارة مع اوربا حيث كان للتجار الهولانديين ،والانكليز ،والفرنسيين جالياتهم . واستثمر الفرنسيون مصائد المرجان كما فعلوا في الجزائر . وجملة القول ،عاشت تونس حياة استقلالية عن الدولة العثمانية ،في القرن الثاني عشرهـ/ الثامن عشرم،حققت خلالها نشاطا اقتصاديا محمودا ،لم تحققه الولايات العثمانية العربية الاخرى ،بل ان نسمات منعشة من الحضارة الاوربية اخذت تتسرب اليها .

٨ ـ اما **المغرب الاقصى** ، فمن المعروف انه بقي مستقلا عن الحكم العثماني . وانه كان في مطلع القرن العاشرهـ/ السادس عشرم،تحت حكم "الدولة الوطاسية " ،يعاني من متابعة البرتغاليين غزو ساحله الغربي ،المطل على المحيط الاطلسي . فبعد ان استولى هؤلاء في القرن التاسعهـ/ الخامس عشرم،على (سبتة) ،و (القصر الصغير) و (طنجة) ،و (ارزيلا) ، فانهم توضعوا في القرن العاشرهـ/ السادس عشرمفي

(اغادير) (٩٠٩هـ/ ١٥٠٤ م) ،وفي (صافي) (٩١٤هـ/ ١٥٠٨ م) و (ازيمور) (٩١٩هـ/ ١٥١٣ م) . وبذلك حرموا المغرب الاقصى من صلاته مع المحيط الاطلسي واقاموا حصونا على الساحل ،كانوا ينطلقون منها للاغارة على الداخل ،واحتكروا بذلك التجارة البحرية ،وحرموا المغرب من قسم من وارداته ،وبخاصة الآتية من تصدير السكر.

وبدت "الدولة الوطاسية" عاجزة عن ايقاف هذا الغزو الاوربي فقويت حركات (المتصوفة) ضدها ،واستفاد من ذلك "قبيلة بني سعد" في منطقة (السوس) من جنوبي المغرب الاقصى . وكانت تدعّي انتسابها الى آل علي بن ابي طالب ،واخذت على عاتقها الجهاد ضد البرتغاليين في منطقة (اغادير) ،وانضم اليها عدد من قبائل الجنوب ، وبدت قوة ، لاتصارع المستعمر الاوربي فحسب ،وانما تثبت قدمها شيئا فشيئا في حكم المغرب ،وتنتزع السلطة من الوطاسيين . وبالفعل استولت على (مراكش) ،في الوقت الذي اخذت معاقل البرتغاليين تتساقط في ايديها (اغادير في ٩٤٧ هـ/ ١٥٤١م ،وصافي وآزيمور في ٩٤٨ هـ/ ١٥٤٢ م ،والقصر الصغير ، وارزيلا في ٩٥٥ هـ/ ١٥٤٩ م) . وهكذا انتهى الوجود البرتغالي من ساحل المغرب العربي ،وقامت الحرب الجهادية البحرية ،في (سلا) ،و (العرائش) وعاد المغرب الاقصى الى تصدير السكر من السوس ، وذهب السودان الى فرنسا وانكلترة .

وفي ٩٥٥هـ/ ١٥٤٩ نجح "السعديون" في اخراج "الوطاسيين" من (فاس) والقضاء على سلطانهم نهائياً في ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣ م ،على الرغم من ان هؤلاء الاخيرين طلبوا مساعدة الاتراك العثمانيين ،المستقرين في الجزائر آنذاك . وهكذا قامت "الدولة السعدية" .

الدولة السعدية (٩٦٠–١٠٦٥هـ/ ١٥٥٣–١٦٥٤ م) ، وقد اسميت أيضا " دولة الشرفاء " ،لانهم نسبوا انفسهم للرسول (ص) ،كما فعلت "الاسرة العلوية" بعدهم . وقد قام مؤسسها الاول "محمد المهدي" بالقضاء على كل معارضة لحكمه ، وساد جميع اجزاء المغرب الاقصى ،وقاوم الطرق الصوفية ،بنفي بعض شيوخها ، واعدام بعضهم الآخر، وهدم زواياهم ،لانها ابدت معارضة لاجراءاته المالية ، في فرض (الخراج) او (ضريبة الارض) . ونقل عاصمته الى (مراكش) بدل (فاس) ،حيث كانت تلك الحركات قوية . وقد تصالح مع الاسبان ،اذ رأى نفوذهم في ازدياد ،بعد

ان ثبتوا انفسهم في (مليلة) و (وهران)، و (المرسى الكبير)، كما رأى فيهم حليفا ضد الاتراك العثمانيين، الذين ابدوا مطامحهم في مد نفوذهم الى المغرب الاقصى.

ولكن، اذا كانت "الدولة السعدية"، وهي في بداياتها، قد تمكنت من طرد البرتغاليين من الساحل الغربي للمغرب الاقصى، فان هذا لا يعني انها تخلصت من خطرهم؛ فقد عادوا ثانية طامعين في احتلال البلاد كلها. فملكهم "سيباستيان" كان شديد التدين، ويكن كرها للاسلام والمسلمين، ولذلك اراد احياء حرب صليبية ضدهم، في بلاد المغرب الاقصى، بالاضافة الى ما يمكن ان تحققه البرتغال بذلك من مكاسب اقتصادية، وسياسية، واستراتيجية. ففي ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، نزلت الحملة البرتغالية الاساسية في (أرزيلا)، ومنها تقدمت الى (فاس). وفي (وادي المخازن) وقرب (القصر الكبير) لاقتها قوات السلطان "عبد الملك". وهزم البرتغاليون في المعركة هزيمة ساحقة، وقتل ملكهم، ووقع في الاسر عدد كبير من نبلائهم. كما توفي "عبد الملك"، واعلن اخوه "احمد" سلطانا، ولقب بـ "احمد المنصور" لانه هو الذي قطف ثمرة النصر.

ويعتبر عهد "احمد المنصور" (٩٨٦-١٠١٢هـ/ ١٥٧٨-١٦٠٣م) "العصر الذهبي" في حياة الدولة السعدية، والمغرب الاقصى، من الناحيتين السياسية والاقتصادية. فهو الذي اوجد للمغرب ذلك (التنظيم المركزي) الذي اطلق عليه اسم (المخزن). فقد وضع فيه تحت سلطة السلطان المباشرة، الوزراء، وحكام المقاطعات، وموظفي الدولة، وموظفي القصر، والقبائل العسكرية (او الجيش) التي اعفاها من الضرائب، ومنحها الارض لتقيم عليها. كما ان هذا التنظيم شمل (الارض) التي اخضعت لضريبة خاصة؛ ومثلما اوجد ذلك التنظيم المركزي، فانه قضى على الثورات العسكرية، ومعارضة الزوايا، وشجع الزراعة، والصناعة. وبالاموال المتدفقة بنى القصور، واحضر المعماريين والفنانيين من كل مكان حتى اوربا. وكان بلاطه من افخم البلاطات، وترك تأثيرا كبيرا في اذهان الاوربيين.

وقد شكل (جيشا) على النمط العثماني، ودخل فيه اوربيون اعتنقوا الاسلام، واندلسيون، واتراك، وزنوج. وبهذا الجيش اراد فتح السودان، لاهميتها الستراتيجية للمغرب، وللحصول على مناجم الملح، وطرق الذهب. وكان قسم كبير من اهلها قد دخل الدين الاسلامي منذ عهد الموحدين. وبالفعل تم الاستيلاء

على (غاو) في ٩٩٩ هـ/ ١٥٩١ م ،و (تمبكتو) ،وحصل "احمد المنصور "على الذهب المطلوب .

ورأى فيه السلطان العثماني منافسا قويا في البحر المتوسط ،وكان نائبه في الجزائر "علج علي "يود لو يمد نفوذه على المغرب ،ولكنه لم يفلح . وقد نجح "احمد المنصور "في ايجاد علاقات طيبة مع السلطان .

واقام "احمد المنصور "علاقات تجارية وسياسية حسنة مع انكلترة ،وكان يشتري منها الجوخ ،مقابل ذهب السودان ،والسكر ،والجلود . وقد انشأت انكلترة لغرض التجارة مع المغرب "الشركة البربرية "عام ١٥٨٥ .

وقد تبلبل وضع المغرب ،بعد وفاة "احمد المنصور " ،بسبب الصراعات الداخلية واحتلال اسبانيا لبعض الموانئ فيها ، وبروز نفوذ المتصوفة والزوايا مرة اخرى.وهذا الاضطراب مهد لظهور اسرة "الاشراف العلويين " .

وتمكنت هذه السلالة الحاكمة ،التي ترجع في اصولها الاولى ، الى آل علي بن ابي طالب ،والى (ينبع) في بلاد الحجاز ،من السيطرة على (فاس) عام١٠٧٦هـ / ١٦٦٦ م ،في عهد "مولاي رشيد " ،الذي اتخذ لقب "سلطان " . ويعد هو المؤسس الحقيقي للاسرة ،التي ما تزال تحكم المغرب حتى الآن .

واشتهر من هذه الاسرة "مولاي اسماعيل " ،الذي ينظر اليه على انه اعظم سلاطينها . وقد حكم مايزيد عن نصف قرن ، (١٠٨٣-١١٣٩هـ/ ١٦٧٢-١٧٢٧م) ثبّت خلالها الحكم المركزي ،وقوّى الجيش ،وكوّن من الزنوج فرقة قوية ،مؤلفة من (١٥٠,٠٠٠) جندي . واعاد هيبة المغرب في العالم الخارجي ،واستخلص من الاسبان اغلب ما كان بأيديهم من جيوب ،ودخل في مفاوضات مع انكلترة،وفرنسا .

وبعد وفاة " مولاي اسماعيل " شهد المغرب الاقصى ،سلسلة من الحروب الاهلية بين افراد الاسرة الحاكمة ،ولم يعد الاستقرار اليها الا بوصول مولاي "محمد بن عبد الله " الى العرش (١١٧٠-١٢٠٤ هـ/ ١٧٥٧-١٧٩٠ م) ،وقد حاول متابعة الجهاد ضد اسبانيا لتحرير بقية الموانئ المغربية ،الا انه لم ينجح تماما ، وبقيت " مليلة " بيدها

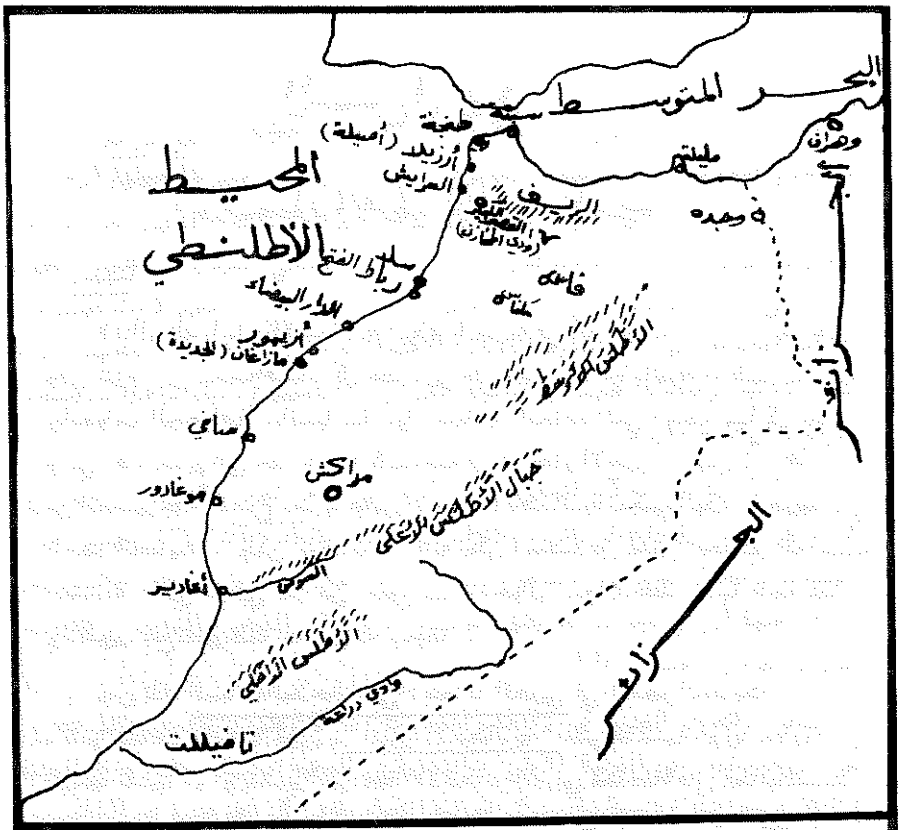
ويتصف عهد "مولاي سليمان" (١٢٠٤-١٢٣٨هـ/ ١٧٩٢-١٨٢٢) الذي خلفه، بمقاومته للمتصوفة، اذ تأثر تأثرا كبيرا بـ "الحركة الوهابية" في شبه الجزيرة العربية.

اما تاريخ "المغرب الاقصى" في القرن التاسع عشر، فيتسم بالتسرب الاوربي، وهذا ما سيدرس في الباب التالي.

وخلاصة القول، كان المغرب العربي في مطلع القرن العاشر/ السادس عشر يعاني انحطاطا سياسيا. وهذا ساعد البرتغاليين والاسبان من ناحية، والاتراك العثمانيين من ناحية اخرى على الوصول اليه. ولكن البرتغاليين والاسبان لم يتمكنوا من البقاء فيه، بفضل جهود الاسرة السعدية، فالاشراف العلويين في المغرب الاقصى، والاتراك العثمانيين في الجزائر، وتونس وليبيا. وبعد ان نجح هؤلاء الاخيرون، عن طريق غزاتهم البحريين، في السيطرة على المغرب الاوسط والشرقي، فانهم اوجدوا فيها حكما عسكريا. الا ان هذه الولايات لم تلبث ان حوّلت نفسها الى "قوى محلية" اعترف بها السلطان العثماني.

وكان (الجهاد البحري) ضد المراكب الاوربية، هو احد الفعاليات الرئيسية لكل بلاد المغرب. وكان ينطلق الغزاة من موانئ (سلا)، و(الجزائر)، و(تونس) و (طرابلس)، ويرجعون بالغنائم التي كانت موردا هاما للحكام. الا ان هذا اوقعهم في صعوبات مع القوى البحرية الاوربية.

ومع ذلك، فقد استقر التجار الاجانب، في الجزائر، وتونس، ومناطق اخرى. وقامت علاقات سياسية بين هذه البلاد المغربية وانكلترة، وفرنسا، وهولاندة. واستمر البحر المتوسط يلعب دورا هاما في السياسة العالمية، على الرغم من كشف طرق جديدة وبلاد جديدة، وبصفة خاصة بالنسبة للدولة العثمانية، التي سيطرت على شواطئه الشرقية، والجنوبية، من نهر النيل حتى نهر المولوية. ومع ان السيادة العثمانية في الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، كانت اسمية، الا ان تلك السيادة ولّدت وضعا سياسيا جديدا، عملت القوى الاوربية على مصارعته ثلاثة قرون.



المغرب في العصر الحديث
والحقبة المعاصرة



باب المنصور في مكناس (القرن ١٧-١٨م)

أحد شوارع الرمز السعيدي في مراكش

الفصل الرابع

الاقتصاد العربي في العصر الحديث

تمهيد :

لاتزال الدراسات الاقتصادية للبلاد العربية في العصر الحديث "في بداياتها . وهي تنزع اليوم لبحث اقتصاد كل قطر عربي على حدة ،متأثرة بالنزعة الاقليمية ، وبالعوامل الجغرافية ،والسياسية ،والاجتماعية الخاصة التي اتصف بها كل قطر والتي قد تغاير الى حد ما ،ما كانت عليه في الاقطار الاخرى . ومن ثمّ ،قد يكون من العسير جداً ،طرح تعميمات عن الاحوال الاقتصادية لمجموع البلاد العربية في العصر الحديث . ولكن ،مع ذلك ،فانه يمكن استخلاص بعض الحقائق العامة المشتركة ،التي تعطي فكرة عن مجموع تلك الاحوال ،مع التحفظ بأنها قابلة للتكامل والتطوير ،مع تطور تلك الدراسات ونموها .

ومن تلك السمات الملاحظة على الاقتصاد العربي في العصر الحديث :

١ــ تلكؤ نشاطه ،اذا ما قورن بـ "الثورة الاقتصادية" التي عاشتها اوربا خلال المرحلة الزمنية نفسها . او بتعبير آخر ،بقاء الاقتصاد العربي محافظا على فعالياته وتقاليده السابقة ،بل ومجمداً فيها ، فهو "اقتصاد اكتفائي "الى حد كبير ،اي ان (الانتاج) فيه مقيد بحاجة الاستهلاك المحلي ،وغير متفاعل التفاعل الكافي مع متطلبات (السوق الخارجية العالمية) ،التي اتسعت في رقعتها ،وتطورت في مطالبها .

كما ان الفرد العربي العامل في مختلف الميادين الاقتصادية ،لم يخرج عن عقليته السابقة ،القانعة بالقليل ،ولم تتطور تلك العقلية باتجاه "الفكر الرأسمالي "، الذي يبحث عن المغامرة الاقتصادية ذات الصفقة الكبيرة ، اوعن وفرة الانتاج، وزيادة الربح ،وترفيه الحياة . ومن ثم ،عن التجديد والابتكار،في الطرق المستخدمة في مناحي الاستثمار الاقتصادي المتنوعة .

وقد يرجع ذلك الى عوامل عدة ،منها عوامل اجتماعية نفسية ،تأصل العادة في نفوس افراد المجتمع ،نتيجة ممارستهم "الوراثية "لتلك الفعاليات الاقتصادية

التقليدية ، من زراعة ،ورعي ،وصناعة ،وتجارة ، ولقرون طويلة ،دون ان يروا ،في محيطهم المحدود ،ما يفضلها او يغايرها ، ودون ان يظهر لهم ما يعيبها او من ينقدها . هذا مع اعتقادهم الضمني ،بانها قد اغنيت خلال تلك القرون المديدة بتجارب اجيال عديدة ،اضافت اليها ،او شذبتها ،لتعطي المردود الافضل والاكمل . ويضاف الى ذلك انسجامها مع تعاليم الدين ،والسلف الصالح والقيم الاجتماعية ، وحراسة الجماعة،التي كانت تُمارس الفعالية الاقتصادية التقليدية ضمنها ،ومعها ، لتلك التقاليد ،والحفاظ عليها.وهكذا تولد نفور من (التغيير) ،بل كراهية له ، وضعفت المبادرة الفردية .

ومما لا شك فيه انه كان لتعاليم الدين اثرها في قناعة الفرد والجماعة ،بالربح المحدود ،وعدم التطلع الى الرفاه والترف ،والاهتمام بالمادة والدنيا . وجاءت السلطات الحاكمة بدورها ،لتدعم ذلك الاقتصاد التقليدي ،وابقاءه على حاله ، اعتقادا منها ان أي تجديد قد يقلق المجتمع ،ويجره الى الفوضى والتبلبل ، فتفقد الخزينة مصادر دخلها (١) .

٢ــ اعتماد الاقتصاد العربي في "العصر الحديث" كما كان عليه في العصور السالفة ، على الزراعة والرعي،في المرتبة الاولى ،والتجارة في المرتبة الثانية ،والصناعة في المرتبة الثالثة ، مع اختلاف نسبة ممارسة كل فعالية اقتصادية في كل قطر عنها في القطر الآخر ،تبعا لظروفه الطبيعية ،والاجتماعية ،والسياسية .

٣ــ تأثر الاقتصاد العربي تأثرا سلبيا بالتطور الذي طرأ على الاقتصاد الاوربي في العصر الحديث،من كشف للقارة الامريكية ،والتوصل الى طرق تجارية جديدة عبر المحيطات ،غير الطرق المألوفة التي كان البحر المتوسط مركزها الاساسي،وتدفق للذهب والفضة ، وما رافقه من ارتفاع في الاسعار ،ونمو للصناعة والتجارة الاوربيتين والارتقاء بتقنياتهما ، ووفرة الانتاج ،والبحث عن اسواق لتدعم كل دولة بها اقتصادها "القومي" ،والسعي لانشاء مستعمرات تخدم مصالحها وحاجاتها الاقتصادية هذا بالاضافة الى زيادة رؤوس الاموال ، وتكوّن الشركات الكبيرة ،التي عملت بجد ومثابرة ،لتحقيق مشروعات اقتصادية جديدة وكبيرة . وسيبدو هذا التأثر واضحا عند

---

(١) Inalcik, The Ottoman Empire, p. 155 .

الحديث عن الزراعة ،والصناعة ،والتجارة في البلاد العربية ، التي يمكن القول عنها بايجاز ،ان اوربا قد تطلعت اليها ،على انها واحدة من اغنى الاسواق التي كانت ترنو اليها ، منذ القرن السادس عشر ،لتزودها بالمواد الخام التي تحتاجها ، ولتكون سوقا مربحة لسلعها . وان ما اصاب اقتصاد البلاد العربية المشرقية من تدهور ،نتيجة كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح المؤدية الى الهند ، وتحطيمهم المدن العربية التجارية شرقي افريقيا ،وملاحقتهم التجار العرب وسفنهم وموانئهم بالقتل ،والارهاب ،والتدمير ،معروف ،وواضح للعيان .

٤ــ تأثر الاقتصاد العربي بالتذبذبات المناخية ،كما كان شأنه في العصور السالفة ، ولا سيما بالجفاف ،الذى هو آفة ذلك الاقتصاد ،ولا سيما ان جزءا كبيرا من الارض ، العربية القابلة للزراعة ،يعتمد على ري الامطار ،وكذلك مناطق الرعي .

٥ــ تأثر الاقتصاد العربي بموجات الجراد ،وانتشار الاوبئة ،ولم تكن في هذه الفترة قليلة ،وهذا شأنها في العصور السابقة ،بل وفي العالم كله .

٦ــ تأثر الاقتصاد العربي بالاوضاع السياسية السائدة في كل اقليم . فاستتباب الامن ووجود سلطة حاكمة قوية ،مراعية لمصالح الرعية والسكان ،مدعاة لنشاط الاقتصاد وازدهاره ،وكثرة الاضطرابات من تمردات ،وثورات ،وحروب اهلية ،وما يتبعها ويرافقها من نهب ،وسلب ،وابتزاز ،واكتساح للارض الزراعية ،ومهاجمة للاسواق في المدن ــ وكانت كثيرة في البلاد العربية في هذه الحقبة ــ مؤثرات سلبية في هذا الاقتصاد .

٧ــ استناد اقتصاد (المغرب العربي) في العصر الحديث على نشاط "الجهاد البحري" ضد المراكب الاوربية في البحر المتوسط ،والمحيط الاطلسي ،مما دّر على ذلك الاقتصاد مغانم كثيرة ،على الرغم مما تعرضت له بالتالي من خسائر . حتى غدا ذلك النشاط البحري (صناعة) قائمة بذاتها ،لها رجالها ،وأدواتها ، واساليبها ، واسواقها ،ومراكزها ،ولا سيما في القرنين السادس عشر والسابع عشر . وقد استطاعت بعض هجمات "جمهورية سلا" المغربية ،الوصول حتى جنوب بريطانيا ،في غاراتها .

٨ ــ تأثر اقتصاد (المغرب العربي) تأثرا ايجابيا ولصالحه ، وبصفة خاصة تونس والجزائر ، بهجرة العرب المسلمين ،والمتنصرين (الموريسك) من اسبانيا ،في القرن العاشر/

السادس عشر ،ومطلع الحادي عشر / السابع عشر . فقد حمل هؤلاء رؤوس اموال معهم ،وصناعات راقية ،وتطويرا هاما للزراعة واساليبها (١) ، هذا بالاضافة الى زيادة في السكان،والايدي العاملة الخبيرة .

أولاً ـ الزراعة والرعي

لم يطرأ جديد على الزراعة ،على الرغم من سيطرة دولة اسلامية جديدة هي العثمانية على معظم اجزاء الوطن العربي ،وتسلم سلالات حاكمة حديثة الحكم في المغرب الاقصى . فالدولة العثمانية ،كان مثلها الاعلى ،المحافظة والابقاء على النظم السابقة ـ كما أسلفنا القول ، لانها تؤمن بانها نظم سليمة : فهي نتاج تجارب حكم اسلامي طويل ،ومنسجمة مع الشريعة الاسلامية ،ولا تؤذي مصالحها الخاصة . فالاوضاع الزراعية في الاقطار العربية،التي خضعت للحكم العثماني، لم يوجد هؤلاء العثمانيون ،وانما تلقوها من سابقيهم ،وحافظوا عليها ،مع تعديلات بسيطة ،تتلاءم مع نظمهم الخاصة . فهم مثلا ،لم يغيروا توزيع الارض على السكان ،على الرغم من انهم مسحوها ،واحصوا عدد سكانها ،وكانوا يجددون ذلك الاحصاء كل ثلاثين سنة تقريبا ،وعلى الرغم من انه كان لهم نظامهم الاقطاعي الخاص ،كما اشرنا سابقا ، والذي يشبه في كثير من نواحيه النظام الاقطاعي المملوكي . وكذلك لم يوجدوا جديدا في العلاقات بين المسيطرين على الارض والفلاحين .

اما في بلاد المغرب الاقصى ،فان السلالتين السعدية ،والعلوية ، ابقتاهما الاخريان،الامور على ما كانت عليه الى حد كبير ،ما عدا ان "احمد المنصور" ـ كما أسلفنا ـ أظهر اهتماما بالارض ،وتثبيت القبائل عليها ، وميز بين ارض " قبائل الجيش" التي اعفاها من الضريبة ،و "ارض اتحادات القبائل " التي فرض عليها ضريبة خاصة .

.....

(١) انظر حول ذلك :
J. D. Latham, "Contribution a l'étude des immigrations Andalouses et leur place dans L'histoire de la Tunisie", dans, RECUEIL D'ETUDES SUR LES MORISCOS ANDALOUS EN TUNISIE, préparé par: Miguel de Epalza et Ramon petit. Madrid_Tunis 1972. pp. 21_63

وفي الحقيقة ،تعتمد الزراعة على وسيلة الانتاج الكبرى وهي (الارض) ،وليس هناك دراسة متكاملة عن (ملكية الارض) في جميع ارجاء البلاد العربية في " العصر الحديث " . وعلى الرغم من الاختلافات المحلية في هذه الملكية ،بين كل قطر عربي وآخر ، فانه يمكن القول ،ان تلك الملكية تستند بخطوطها العامة الى اسس تشريعية اسلامية واحدة . وبموجب تلك الاسس فان الارض في البلاد العربية ،كانت موزعة كما يلي :

١ــ أرض مُلك : وهي الارض التي بني عليها في المدن ،وضواحيها . وهي ملك خالص لاصحابها ،ويدفعون عنها مبدئيا بحسب الشرع " ضريبة العشر " .

٢ــ أرض (الميري) او (الارض الاميرية) : وهي بقية الارض الزراعية . وقد نظر اليها عند الفتح العربي الاسلامي على انها غنيمة حرب لمجموع المسلمين . ولما كان " امير المؤمنين " هو الذي يمثل " الجماعة الاسلامية " فقد اطلق عليها اسم " الارض الاميرية " ، وحرّفت مع الزمن ،فغدت (ارض الميري) .

ولما لم يكن هناك سبيل لاستثمارها مباشرة من قبل الدولة ،فقد اعطى حق التمتع بها لملاكها الاول ،مقابل ضريبة معينة ،اطلق عليه اسم (الخراج) . ومن هنا نشأ على هذه الارض حق مزدوج : (حق الرقبة)، ويعود للجماعة الاسلامية،اي للدولة، ممثلة برئيسها الشرعي "الخليفة" ،او "السلطان" ،و (حق التصرف) او (حق التمتع) الذي ترك للملاك السابقين . وبموجب هذا المبدأ ،فان للسلطان العثماني او الدولة التي يمثلها ،حق ملكية جميع اراضي الامبراطورية .

وفي الواقع ،ان التمييز بين (ارض الملك) و (ارض التصرف) كان قائما عبر العصور ،ولكن كلما تقدم الزمن ،فان (ارض التصرف) غدت تنزع كي تصبح (أرض ملك) ،ولا سيما انه كان لمن يملك (حق التصرف) في الارض الاميرية ،الحق الكامل بالتصرف بما بين ايديهم من ارض ،استثمارا ،وايجارا ،وبيعا ،ورهنا .

٣ــ "أرض الوقف " :والوقف بصفة عامة ــ كما ذكر سابقا ــ هو من المؤسسات الهامة في الاسلام ،لانه يمثل في اساسه المورد الذي ينفق منه على مؤسسات ذات نفع عام: كالمساجد ،والمدارس ، والمستشفيات ،والزوايا ،ومطابخ الفقراء ،والخانات وغيرها. ويعني منح (ارض) ،او (ملك عقاري) آخر ، كبيت ،او طاحون ،او دكان وغيرها ،ليمول وارده عملا خيريا ،او دينيا ، او طبيا ،أي عملا للصالح العام .

وكانت هذه المنحة ، أكانت من الافراد العاديين او من رجالات الدولة ،لا تسترد ، بل من الواجب حمايتها . وقد اختلف فقهاء الاسلام في جواز وقف الارض الاميرية من قبل صاحب التصرف فيها . ومهما يكن ،فان (ارض الوقف) او (الحبوس) كما اسميت ايضا ،قد تزايدت مع الزمن ،وبصفة خاصة في عهد المماليك .

وقد ظهر الى جانب (الاوقاف الخيرية) المشار اليها اعلاه ،نوع آخر سمي "بالاوقاف الذرية ". وقد لجأ الى النوع الاخير ،كثير من ملاك الارض ،ومقطعيها، ليتملصوا من تطبيق قانون الارث على ارضهم بعد وفاتهم ،او يتخلصوا من مصادرات الدولة ،لان ارض الوقف لا تصادر . فالمالك يجعل ارضه ،او ملاكه ،وقفا لصالح هذا العمل الخيري او ذاك ،شريطة الا ينفذ هذا ،الا بعد زوال هذا الفرع او ذاك من ورثته .

٤ــ "الارض المشاعة " : وهي ارض اميرية في الاصل ،وانما لم يعط (حق التصرف) فيها لفرد ،وانما لسكان قرية بمجموعها ، أو الى جماعة معينة . ويدخل في اطار هذه (الاراضي المشاعة) ،المراعي ، حيث تتنقل القبائل البدوية ، والساحات العامة ،واماكن دراسة الحبوب .

٥ــ "أرض الموات": وهي في اساسها أيضا من الاملاك الاميرية ،ولكنها لم تزرع ،او غير صالحة للزراعة . وقد يعطى من يقوم باستصلاحها ،حق ملكيتها ،او حق التصرف بها بعد ان يعمل عليها بضع سنين .

وفي اطار انواع الارض تلك ،كان (الفلاحون) اما ملاكين وهم قلة ضئيلة جداً ، اوعاملين على الارض الاميرية ،أي لهم حق التصرف ،او مستأجرين لارض ملك ،او ارض تصرف . وقد ذكر سابقاً ،ان معظم الارض الاميرية ،كان موزعا الى اقطاعات بيد السلطان وآل بيته ،وكبار الموظفين الاداريين ،والفرسان (السباهيين) ،او الوجهاء والاعيان المحليين ،وان جزءا منها قد وقف على مؤسسات النفع العام ، كما ان جزءا آخر ،حيث لم يقرر السلطان توزيعه الى اقطاعات ، اعطي لموظفين خاصين هم (الملتزمون) ،كي يقوموا بجباية وارداته للسلطان . فالفلاح اذاً ، هو فلاح على (اقطاع) ،او على (ارض وقف) ،او على (ارض التزام) ،اى ان الارض ليست ملكا خالصا له . وعمله الرئيسي ،ان لم يكن الوحيد ،هو تزويد جامعي الضرائب

المختلفة ،بالضرائب المفروضة عليه ،أكان اولئك الجامعون ، هم الاقطاعيين او (صاحبي الارض) ،كما اسموا في العهد العثماني ،او(الملتزمين) ،او(المتولين)على الاوقاف. ولقد عمل العثمانيون ،كما كان الامر سابقا ،على تثبيت حق استثمار الفلاح الوراثي للارض التي يعمل فيها ،أي،ان الارض ،تعود بعد وفاته الى اولاده الذكور ،واذا لم يخلف ولدا ذكرا ،فان الاسبقية في الارث تذهب الى بناته اولا ،فأخيه ،فأخته ،فأبيه، فأمه ،شريطة ان يدفع الوارث مبلغاً معيناً من المال (الطابو) . والارث من النساء محصور بالابناء الذكور فقط . وقد ينقل (التصرف) خارج نطاق الاسرة اذا لم يتوافر ورثة قريبون . ويجب ان يعلم (صاحب الارض) بأي اجراء يتخذه الفلاح على تصرفه . ولا يسمح لصاحب الارض بطرد الفلاح من ارضه ،وهو لا يجوز لمغادرتها .

اما الضرائب والرسوم التي كان يدفعها الفلاح فكانت كثيرة ،وتختلف من بقعة الى أخرى ،الا انه يمكن تصنيفها في مجموعتين: الضرائب المفروضة على الارض والاساسي منها (العشر)(الخراج) ،والضرائب الشخصية المفروضة على الفلاح نفسه ، وتختلف بحسب كونه متزوجا اوعازبا (متجردا) ،او مسلما او مسيحيا . ويضاف الى تلك الضرائب الرئيسية ،عدة رسوم على الكروم ،وبساتين الاشجار المثمرة ، وعلى الطواحين ،والمسقفات ،وغيرها كثير . والضرائب على الارض عادة تؤخذ نوعا ،اما الشخصية فنقدا .

و (ارض المراعي) التي تقيم عليها القبائل الرحل اثناء الشتاء او الصيف، فانه كان على تلك القبائل مبدئيا ان تدفع عنها ضريبة (حق المرعى) ،وضريبة الاغنام او الحيوانات الاخرى التي ترعاها .

فالفلاحون في البلاد العربية في العصر الحديث ،بصفة عامة ،كانوا يعملون على الارض ،وكأنهم اجراء ، ليسدوا رمقهم ورمق اسرهم ،بل انهم كانوا لا يملكون حريتهم كاملة . ومع ان (صاحب الارض) لم يكن ليملك عليهم اية سلطة قضائية ،فانه لم يكن ليتورع احيانا عن معاقبتهم بالضرب والحبس ،واحيانا بالموت ،اذا خالفوا اوامره . فمن الطبيعي والحال على ما هو عليه ،ألا يقدم هذا الفلاح ،الذي يتحكم فيه (صاحب الارض) (الاقطاعي) ،او (الملتزم) ،او(المتولي) ،واتباعهم من الموظفين ، للارض ابتكارا ،او تجديدا . فهو يحرث الارض ،ويزرعها ،ويحصدها ،كما كان يزرعها اجداده ،وبالادوات نفسها ،ويستثمر المحصول نفسها ،والمتسلطون على الارض

المشار اليهم آنفا ،يراقبون عمله ،لي يحصلوا على ثمرة الانتاج التي لهم القسط الاوفى منها .

وكان الفلاح العربي ،يزرع في العادة المحصولات التي يحتاج اليها في غذائه اليومي أولا ، كالشعير ،والقمح ،والعدس ، ومختلف الحبوب،والرز ،والبصل ،والذرة وقد كانت البلاد العربية منتجة للقمح ، بينما كانت تعاني اوربا نقصا فيه . ومن ثم يلا حظ ،ان بعض الدول الاوربية قد عملت على الحصول عليه من تلك البلاد عن طريق التهريب ، او التجارة غير المشروعة ،لان الدولة العثمانية ، حرصا منها على قوت رعاياها الاساسي ،كانت قد منعت تصديره ،من جميع انحاء امبراطوريتها . وتلك التجارة غير المشروعة نشطت في بلاد المغرب العربي ، في العصر الحديث . وان صفقة القمح التي كانت وراء ضرب (داي الجزائر) لقنصل فرنسا ، واتخاذ فرنسا تلك الصفقة ذريعة لهجومها على الجزائر ،واحتلالها ، لمثل على ذلك . وفي المغرب الاقصى اجاز السلطان في القرن الثامن عشر للبرتغال باستيراد القمح ، لان ذلك كان يحقق له ارباحا كبيرة .

كما كانت البلاد العربية تزرع كل الاشجار المثمرة المعروفة الآن ، كالبلح ، والعنب ،والزيتون ،والمشمش ،والحمضيات ،والخوخ ،والدراق ، والتفاح ،والاجاص وغيرها . وكانت هذه الزراعة نشيطة في بلاد الشام بصفة خاصة ، وفي بلاد المغرب. ويضاف اليها اللوز ،والجوز ،وفي بلاد الشام،الفستق .

وقد اشتهرت البلاد العربية ايضا الى جانب شهرتها بهاتين اشجارها المثمرة المشار اليها سابقا ، بحدائق خضرها . ومعظم تلك المنتجات الزراعية ،كانت تستهلك في نطاق البلاد العربية ، او مجموع الامبراطورية العثمانية .

ويضاف الى تلك المحصولات الغذائية ، زراعات صناعية كالقطن ، وكان منتشرا في بلاد الشام ، وبعض اجزاء مصر ،والعراق ؛وشجر التوت الذى يربى عليه دود القز ،وكان يزرع في بلاد الشام ايضا ؛ والكتان بمصر ،والسمسم في مختلف الاقطار العربية ، والنيلج في بيسان(في منطقة الغور في فلسطين) ، وفي مصر العليا ، وادخل الى جنوبي العراق ، في آخر القرن الثامن عشر ، ويستخرج منه الصباغ الازرق . وقصب السكر لصناعة السكر في مصر ،والورد لصناعة ماء الورد ، والعطورات،

وكان يزرع في دمشق، والفيوم، وتونس، الى غير ذلك من المحصولات . وقد ادخلت زراعة (التبغ) وهو نبات عرف بعد كشف امريكا الى بلاد الشام في القرن الحادي عشر/ السابع عشر، على الرغم من ان عددا من الفقهاء والسلاطين منع تدخينه. وكذلك زراعة (البن) في مرتفعات اليمن ، وقد غدت زراعته ذات اهمية منذ ان انتشر شرب (القهوة) في القرن العاشر/ السادس عشر، في البلاد العربية واوربا .

ومن الضروري الاشارة ،الى انه كان هناك بعض النباتات الطبيعية التي لها اهميتها الصناعية، وابرزها العشب الذي ينتج (الاشنان) بعد حرقه . ولذلك سماه الاوربيون ايضا (الرماد) . وكانت تعتمد عليه صناعة الصابون ، والزجاج ، وكان ينبت في المناطق الصحراوية او شبه الصحراوية في بلاد الشام .

وكانت اوربا (انكلترة، وفرنسا، والبندقية بخاصة) في العصر الحديث حريصة على استيراد بعض تلك المحاصيل الصناعية ،ولا سيما الحرير ، والقطن ، والنيلج او الاشنان، كما كانت بحاجة ايضا الى (البن) من المنتوجات الغذائية .

ومع ان البلاد العربية في العصر الحديث لم تجدد في طرقها الزراعية ، الا ان الزراعة فيها ظلت حتى القرن السابع عشر، لا تقل في مستواها ابدا عن الزراعة في اوربا . لانها كانت قد وصلت خلال التطور الحضاري العربي الاسلامي الى مستوى رفيع ، وحافظت على هذا المستوى ، بينما لم تدخل اوربا باب الثورة الزراعية الا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . ولكن اذا كانت التقنيات الزراعية التي استخدمها الفلاح العربي خلال القرن السادس عشر والسابع عشر تقنيات متقدمة نسبيا ،بل وفيها بعض التجديد، ولا سيما في تونس والجزائر ، حيث حملها اليها العرب المسلمون المهاجرون من الاندلس " الموريسك "، واذا كانت الزراعة ظلت هي المورد الاساسي لاقتصاد تلك البلاد ، وعمل بعض الحكام والولاة على تشجيعها وتخفيف اعبائها لتقدم مردودا افضل، كما حدث في عهد الاسرة الحسينية في تونس(١) فانها لم تحقق خلال القرون الثلاثة ازدهارا ،وعطاء كبيرين ودائمين . ويرجع

.....

(١) انظر رشاد الامام " سياسة حمودة باشا في تونس(١٧٨٢-١٨١٤) . تونس ١٩٨٠ ص ٦٣-٦٤ ، ٢٦١ - ٢٦٤ .

ذلك للعوامل الآتيـــة :

١ــ انتشار الاقطاع ،وفساد نظامه منذ اواخر القرن العاشر/السادس عشر ،وحرص الاقطاعيين على الحصول على اكبر قسط من الواردات بالضغط على الفلاح . ثم سعي المقطعين لتحويل الاقطاعات الى ملكية خاصة .

٢ــ نظام الالتزام ،وجور الملتزمين ،وتحول الالتزام الى مدى الحياة (مالكانـــة) ، واستغلال الملتزمين ذلك لتحويل التزاماتهم الارضية الى ملكية خاصة .

٣ــ اهمال العناية بوسائل الري بين فترة واخرى .

٤ــ اضطراب الاحوال السياسية ،والصدامات المسلحة بين الفرقاء المتنازعيـــن ، واجتياحها للاراضي الزراعية .

٥ــ الكوارث الطبيعية،والاجتماعية،وعدم وجود وسائل لدرئها، كانحباس المطر والصقيع، وانتشار الاوبئة ،وغزوات الجراد .

٦ــ تعرض الارض الزراعية والقرى لغزوات البدو ،ولا سيما اثناء ضعف الدولة ،وعدم تمكن الولاة والحكام من توفير اسباب الأمن .

٧ــ عدم تنظيم الزراعة والمحصولات بحيث تتم الاستفادة من احتياجات السوق الخارجية العالمية،لصالح العاملين في الزراعة . فقد تركت تلك السوق بيد اوربا ،واعطيت لجالياتها التجارية في البلدان العربية ،قوة تحريكها كما ترى ، طالما انهـــا ترضي السلطات الحاكمة،ولا سيما العثمانية،بالهدايا والرشاوى .

٨ــ واخيرا حال الفلاح نفسه ،وحياته الصعبة ،بل التعسة بالقانعة ،في ظـــل نفوذ (اصحاب الارض) ،والملتزمين . وكان هذا الحال يزداد سوءا مـــع ضعف الدولة الحاكمة ، وتراخي الحكومة المركزية ،وعدم مراقبتها الفعالة لمجرى الامور في الارياف ــ ولا سيما ان الفلاحين كثيرا ما كانوا يُستغلون من القبائـل المجاورة ،او من المتسلطين ،كي يتحالفوا معهم في صراعاتهم فيما بينهم ،ومـــن ثم يقعون هم الآخرون،كسكان المدن ،فريسة للانقسامات والمنازعات .

وفي خاتمة الحديث عن الزراعة ،لا بد من الاشارة الى (الرعي) ،وقد كـــان حياة فئة كبيرة من السكان في البلاد العربية . فالاراضي الصحراوية تشغل جزءا كبيرا

من ارضها ،وتجوبها قبائل بدوية رحل ،كثيرة العدد ،وعملها الرئيسي الرعي ،ومن ثم، التنقل بقطعانها طلبا للكلأ،تنقلا موسميا تبعا لتوافر ذلك الكلأ . واكثر الحيوانات التي كانت ترعاها تلك القبائل،هي الغنم ،والابل ،واحيانا الجاموس،في مصر وجنوبي العراق ،وكذلك الثيران . ويستفاد من لحومها وصوفها ،ووبرها ،وجلدها، للاستهلاك الغذائي،والصناعي المحلي ،كما يصدر الصوف الى الخارج وبصفة خاصة في المغرب ،والى بلاد اوربا . كما كانت تستخدم الثيران والابل منها كحيوانات حمل ونقل،وجر ،والثيران بصفة خاصة في الزراعة وحراثة الارض . وكان هناك بعض القبائل العربية التي تعتني بتربية الخيول .

وهذه القبائل البدوية ترى في كل قطر عربي دون استثناء وتحركها الموسمي ، او هجرتها المستمرة من مناطقها الى مناطق اخرى،واغارتها على الاراضي الزراعية ،نتيجة الظروف الطبيعية او السياسية ،وما ينجم عن ذلك من اضطرابات،شغلت جزءا هاما من تاريخ البلاد العربية في العصر الحديث .

ثانيا - الصناعة

لقد عرفت البلدان العربية نهضة صناعية كبرى ابان الحكم العربي الاسلامي الموحد، واثناء الدويلات الانفصالية . وظهرت فيها صناعات لم تعرفها اوربا الا في اواخر العصور الوسطى . ويمكن القول،ان هذه الصناعة بقيت حتى منتصف القرن السابع عشر، في جهات كثيرة من الوطن العربي اكثر رقيا مما كانت عليه في اوربا ،والدليل على ذلك اقوال السياح الغربيين في القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر ،واستيراد اوربا للعديد من تلك الصناعات ،ولا سيما المنسوجات القطنية منها والحريرية . فالصناعة العربية لم تتدهور مباشرة بعد الفتح العثماني كما يقول بذلك بعض المؤرخين ،بل ان بعضها نما واينع نتيجة انتظام شمل البلاد العربية في ظل دولة واحدة،وسهولة المبادلات التجارية بينها ،وانفتاح سوق جديدة لها في اراضي الدولة العثمانية ؛ في آسيا الصغرى،وشرقي اوربا .

ذاك في المشرق العربي ،اما في المغرب العربي ،فان تشجيع بعض سلاطين الدولتين السعدية ،والعلوية،للصناعة في المغرب الاقصى ،وحمل الهجرة الموريسكية عدة صناعات الى تونس،والجزائر ،واهتمام احمد القرمانلي في ليبيا ،جعل الصناعة

الحرفية تنتعش ايضا .

الا ان ذلك الازدهار لم يطل امره ، وانما أخذ يخبو تدريجيا للاسباب الآتية :

١ ـ الدولة الحاكمة العثمانية التي عملت بطريق مباشر او غير مباشر على جذب امهر الصناع من المدن العربية الكبرى الى عاصمتها استامبول . فمن المروي ان السلطان سليم عندما فتح سورية ومصر حمل معه امهر صناع دمشق وحلب والقاهرة الى عاصمة ملكه لتزدهي بصناعاتهم . ومن المعروف ان الصناعة كانت تنتقل آنذاك في نطاق الاسرة الواحدة على الاغلب فيتوارثها الابن عن الاب حتى تغدو احتكارا لها . وبالطبع فان هذا التركيب الوراثي للصناعة يسهل القضاء عليها فيما اذا انتقلت الاسرة من مكانها اقامتها ، او نُقلت او انقرضت لسبب من الاسباب .

كما ان بعد معظم المدن العربية الصناعية عن العاصمة استامبول عامل هام في ضعف بعض الصناعات التي تعتمد عليها مظاهر الترف ، اذ ان هذه الصناعات تلقى عادة في العواصم شروط حياتها الحقيقية .

٢ ـ القيود المفروضة على الصناعة من قبل الدولة ومن قبل النقابات . فالدولة حددت امتياز احترافها ، ووضعت حدا اعلى لسعر البضائع المنتجة ، واعطت للقاضي المحلي والمحتسب مراقبة الاسعار ، وبذلك اضعفت الانطلاقة الضرورية . وجاءت النقابات فكانت قيدا قويا هي الاخرى ؛ ان مختلف الصناعات كانت تعيش في اطار ما يسمى " بالاصناف " ، فكل صانع مهما كانت مهنته هو عضو في طائفة صناعته . فهو لا يعيش بفرديته وطموحه الذاتي واندفاعاته الخاصة ، وانما في نطاق جماعة لها تقاليدها وعاداتها ومبادئها ورموزها . وفي كل حرفة معلمون ، وصناع ، ومبتدئون . ولها " شيخها " ، الذي ينتخبه معلمو الصنعة ممن اشتهر بحسن الاخلاق ، وامتاز بمعرفة اصول الحرفة . ولها " شاويشها " المنتخب ، وهو رسول الشيخ وامين سره . وكانت نقابات مختلف الحرف مرتبطة ببعضها ، وعلى رأسها " شيخ المشايخ " . وقد كان من حق المعلمين فقط ، أي الذين اجتازوا مرتبة التمرين بنجاح ، فتح حوانيت خاصة بهم . وكان عدد الحوانيت لكل طائفة محدودا بدقة ، وهذا ما أعاق التوسع الصناعي الكمي . فامتياز ممارسة الصنعة ، كان نوعا من (الملكية) يمكن ان يؤرث الى اولاد المعلم بعد وفاته ، كما يمكن ان يباع ويؤجر . ولا يمكن الحصول على امتياز جديد من السلطات الا اذا دفع المعلم للخزينة مالا مقدما ، واذا امتلك الادوات الضرورية

والوسائل اللازمة لممارسة صناعته . ولم يكن احتراف المهنة امتيازا محتكرا من فئة صناعية معينة فحسب ، وانما كانت الاعمال التي يسمح لاعضاء النقابة القيام بها محدودة ايضا ومقيدة . فالمصنوعات نفسها ، كانت تكرر وتكرر دون ما تجديد فيها او ابتكار ، اذ ان النقابة وضعت شروطا معينة يجب ان تتوافر في تلك المصنوعات حتما ، ولم تعمل على تغيير تلك الشروط بحيث تتلاءم مع التطورات العالمية الطارئة . وانت الدولة ذاتها ، فدعمت النقابات وايدت المبدأ الذى تبنته هذه الاخيرة ، بأنه لا يجوز اجراء اى تغيير في شكل البضاعة المصنوعة ، كما منعت اى صانع من صنع شيء غير المرخص به لنقابته .

وهذه القيود كما يظهر واضحا ، جمدت الصناعة في قالبها القديم ، وافقدتها عنصر التجديد ، واضعفت في نفوس افرادها مع الزمن ، روح الخلق والتحسين ، فانحط مستواها الكيفي وضعف الراغبون بها . وعندما حدث الانقلاب الصناعي الآلي في اوربا في القرن الثامن عشر ، فان الصناعة العربية لم تأخذ به في وقته ، فزادها هذا ضعفا . ويجب الا ينسى ان هذه " الطوائف " او النقابات ، تغيرت بنيتها الفنية نتيجة تغير بنيتها الاجتماعية ، اذ دخلت الاوجاقات المحلية (الانكشارية) في مختلف الحرف ، ومن ثم في النقابات ، حتى انهم كانوا هم المحتكرين لبعضها . ففي مطلع القرن الثامن عشر ، يمكن التأكيد ان الطوائف كانت مؤلفة بصفة رئيسية من الجنود ، واولاد الجنود ، في بغداد ، وفي دمشق وغيرها . وقد اشير سابقا الى الدور السياسي الذى لعبته تلك الاوجاقات المحلية ، والصراعات التي دخلتها . وقد يكون جرُّها تلك الطوائف الى تلك النزاعات السياسية المسلحة عاملا في اضعاف الصناعات نفسها من الوجهة الفنية (١)

٣ــ التطورات الاقتصادية الكبرى في اوربا في العصور الحديثة من نمو للرأسمالية التجارية ، وكشوف جغرافية ، وتغير للطرق التجارية العالمية ، وتطور صناعي ، وسياسة اقتصادية مركنتيلية ، واخيرا الانقلاب الصناعي في اواخر القرن الثامن عشر .

فالصناعة الاوربية في الواقع اخذت تنشط منذ اواخر العصور الوسطى ، وبخاصة في المدن الايطالية المتاجرة مع اجزاء الوطن العربي ، وذلك نتيجة تعرفها الصناعة

---

(١) انظر تفصيلا اكبر حول " الاصناف " او " الطوائف " في :

H InaLcik .The Ottoman Empire.p. 150-162

العربية . واخذت هذه الصناعة منذ وقت مبكر تنافس الصناعة العربية ، فالبندقية منذ القرن الخامس عشر مثلا، كانت لا تصدر بضائعها الحريرية والصوفية الى اوربا فقط ،وانما الى بلاد العرب ذاتها، حتى ان اقمشتها ومنها الجوخ الاحمر كان معروفا في معظم جهات الوطن العربي . وعندما سيطرت الدولة العثمانية على البلدان العربية، فانها لم تعمل على حماية الصناعة العربية من المنافسة الاوربية ،ولم تتبع النظام الاقتصادي المركنتيلي الذي اتبعته الدول القومية الناشئة في اوربا، بفرض رسوم جمركية مرتفعة مثلا على الصناعات الاوربية التي اخذت تغرق الاسواق العربية . بل انها على العكس سهلت للاوربيين سبل التجارة والاقامة على اراضيها ،وقدمت لهم في " الامتيازات " والاتفاقات التجارية التي وقعتها مع دولهم، تعرفة جمركية منخفضة. وكذلك فعلت الدولتان السعدية والعلوية في المغرب الاقصى . وهكذا تدفقت الصناعة الاوربية ،ولا سيما بعد الانقلاب الآلي الصناعي ،على الاسواق العربية لتصيب الصناعة العربية في الصميم ،وبخاصة ان الاوربيين انشأوا اقامتهم كجاليات تجارية في المدن العربية درسوا حاجات السوق ،واذواق السكان، وحاولوا ان تستجيب لها صناعتهم الناهضة .

وبذلك تسرب الوهن للصناعة العربية من منافذ عديدة ،واصبح السكان انفسهم ينزعون ببصرهم الى ما تقدمه لهم الصناعة الاوربية من جديد ومتقن، ويهملون الصناعة المحلية الراكدة .

ومن الصناعات العربية التي كانت لها شهرتها آنذاك ،الصناعات النسيجية ، الحريرية ،والقطنية ،ولا سيما تلك التي تدخل في صناعتها خيوط الذهب والفضة، وكانت بلاد الشام مختصة بها ، كالبروكار مثلا (١) . كما اشتهرت مصر بالنسيج الكتاني ،والمغرب بالنسيج الصوفي ،الذي كانت تصنع منه المعاطف المسماة بالبرانس

---

(١) انظر حول الصناعة النسيجية في بلاد الشام ،ليلى الصباغ " وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ،عن الصناعة النسيجية والنساج في كتاب " المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام " ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ — ٣ محرم ١٣٩٩/ ٢٧ تشرين الثاني — ٣ كانون الاول ١٩٧٨ . جزءان . دمشق ١٩٧٩ ،ج ١ ، ص ٣٥ فما بعد .

وانواع البسط و السجاد . ومن الصناعة النسيجية الصوفية التي ذاع صيت تونس بهـا صناعة (الشاشية) . وقد طوّرها الاندلسيون في تونس عند هجرتهم اليها بعد طردهم من اسبانيا (١) . وهي صناعة عمامات من الصوف الاحمر ،وكانت لها اسواقها في جميع بلاد الاسلام . ومن الصناعات الهامة في البلاد العربية ايضا ،صناعـة الصباغة ،والدباغة ،والصناعة الجلدية ،ولا سيما في المغرب العربي ،وصناعة الخشب المحفور ،والصياغة ،وصناعة الموزاييك الخشبي في دمشق ،وصناعة ماء الورد ،والعطور، والصابون . ومن الصناعات الغذائية ،صنع الحلوى بأشكالها المتنوعة،واشتهرت دمشق وحلب بها بالذات ،والفواكه المجففة ،كالزبيب ،والتين ،وصناعة الزيت ،والالبـان . ومن الصناعات التي كانت اوربا حريصة على استيرادها غزول القطن ،وخيوط الحرير .

واخيرا لا بد من الاشارة الى بعض الصناعات الحربية ،كصناعة البارود في بـلاد الشام (حماة) ،وفي تونس . وفي اواخر القرن الثاني عشر / الثامن عشر ،لما بدأت الحضارة الاوربية تتسرب الى البلاد العربية ، كانت تونس من اولى الاقطار التي سعت للاخذ منها في عهد حمودة باشا (١٧٨٢-١٨١٤ م) : فقد انشيء فيها مصنـع لصناعة المدافع وقذائفها (٢) .

ومما لا يمكن اغفاله من الصناعات الهامة ايضا ،صناعة السفن ،وبصفة خاصة فـي بلاد المغرب العربي ،لاعتماد "الجهاد البحري "عليها .

ثالثاً - التجارة

كان الوطن العربي بكل بقاعه مركزا تجاريا هاما على مـر العصور ،لتوسطه العالم القديم المعروف آنذاك ،واتصاله السهل بالقارات الثلاث ،ولامتداد طرق التبـادل التجاري الكبرى فيه . وهكذا ،منذ العصور القديمة والقوافل التجارية المحملة ببضائع الهند ،وافريقيا ،ومنتوجاته الخاصة ،تعبر اقطاره ، موضّعة اثقالها في مختلـف اسواقه ،ومدنه ،وبخاصة منها المطلة على البحر المتوسط ،حيث تنقل الى اوربـا . وبالمقابل ،فانها كانت تحمل بضائع اوربا لتوزعها في مختلف البلدان التي تمر عليها .

---

(١) انظـر : Latham; Op. Cit. p. 57, 58

(٢) رشاد الامام " سياسة حمودة باشا في تونس ، ص ٢١٧ فما بعد .

وقد كان الحكم العربي الاسلامي له ،والامن الذى بثه في ربوعه ،والنقد الموحد الذى سكّه ،والنظام الاقتصادي الذى اوجده ،والطرق التي سهل الانتقال عبرها ، عاملا قويا في توسيع نطاق التجارة الداخلية والخارجية على السواء . فعجت موانئه المطلة على البحر المتوسط ،ومدنه الداخلية بشتى البضائع والسلع ،وامتلأت اسواقه بحركة تجارية نشيطة .

ومنذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فتح الوطن العربي ابواب تجارته الخارجية للاوربيين،وبخاصة الايطاليين منهم . وجاءت الحروب الصليبية فساعدت على تقوية تجارة الاوربيين تلك ،ولا سيما في المعالك الفرنجية التي أسست في بلاد الشام. وعندما انتهت تلك الحروب وخرج الصليبيون من اجزاء الوطن العربي ،فان المدن الايطالية بقيت على صلاتها التجارية معه على الرغم من قرارات البابا القاضية بمقاطعة العالم العربي الاسلامي تجاريا ،وتهدياته الكثيرة،وذلك لان مبادلاتها معه عدت عنصرا هاما جدا في بنيتها الاقتصادية تدر عليها الربح والرخاء . ولقد عقدت المدن الايطالية مع حكام اجزاء الوطن العربي اتفاقات تجارية تبيح لها استيراد كثير من البضائع وتصدير بعضها ،والاقامة في ربوعه . ولقد اشرنا سابقا الى الدور الذى لعبته بلاد الشام ،ومصر ،في حمل متاجر الهند الى اوربا ،وسيطرة المماليك على تلك التجارة الشرقية العربية ،ولا سيما تجارة التوابل ، وقد كانت تفد للقطريين العربيين عبر طريق الخليج العربي، والبحر الاحمر .

ومن المعلوم انه عندما وصل البرتغاليون الى الهند بطريق رأس الرجاء الصالح وشنوا حملتهم الصليبية التجارية الجديدة على جنوب البلاد العربية ،لقطع سبل التجارة على العرب المسلمين ،وسد منافذها عليهم ،فان الضربة كانت شديدة على الوطن العربي وزعزعت اقتصاده وهددته بأزمة خانقة .

وجاء الفتح العثماني ،ومحاولات العثمانيين الحربية للقضاء على الاحتكار البرتغالي لتجارة الشرق الاقصى ،وردهم عن اطراف الجزيرة العربية ،وكذلك سيطرة اساطيل بحارة شمال افريقية (في طرابلس الغرب وتونس والجزائر) على الملاحة في البحر المتوسط ، واعتماد العرب على الطرق الصحراوية البرية عبر بلاد الشام، فالعراق، فالخليج العربي ،لتخفف الوطأة على الوطن العربي . فظلت البلاد العربية تتلقى التوابل من الهند ،وجزر الهند الشرقية خلال القرن العاشر/ السادس عشر

طريق ميناء البصرة،والبحر الاحمر ،وظلت السلع الهندية متوافرة في حلب،والقاهرة ، والاسكندرية ،حيث كان الاوربيون يتسوقونها . ففي ١٥٥٤ ،اشترى البنادقة وحدهم من الاسكندرية (٦٠٠٠) كنتال من التوابل ،وما اشتروه بين ١٥٦٠-١٥٦٤، كان الكمية نفسها التي كانوا يشترونها قبل كشف فاسكودوغاما لطريق الهند . وكل عام كان يصل الى جدة (٢٠) عشرون مركبا من الهند محملة بالتوابل ،وكانت قوافل الحجاج تعود وهي محملة بالتوابل ،والصناعات والاقمشة الهندية . وقدرت العائدات الجمركية عن التوابل التي حملتها قافلة الحج الى دمشق عام ١٥٦٤ ، بـ (١١٠،٠٠٠) دوقية ذهبية ،وكان التجار الاوربيون يشترون بعض التوابل من دمشق،حيث يصدرونها عن طريق بيروت ،بينما قسم كبير من الحمولة كانت ترسل الى (بروصة) في الاناضول (استامبول) ،ثم الى البلقان والشمال (١) . وعملت الدولة العثمانية من جانبها،على فتح موانئ الوطن العربي ومدنه لتجارة الاوربيين،عن طريق عقد اتفاقات تجارية مع الدول الاوربية،تعطيها فيها امتيازات تجارية هامة،منها حق التجارة والاقامة في الموانئ والمدن التابعة للدولة العثمانية ،وخفض الرسوم الجمركية على البضائع الواردة والصادرة ،وحق وجود قناصل لها يتمتعون بالسلطة على مواطنيهم داخل الدولة العثمانية . وهذه الاتفاقات ليست جديدة في الواقع ،وانما مشابهة في كثير من بنودها،لتلك الاتفاقات التي كانت قد وقعتها المدن الايطالية مع الايوبيين، والمماليك، ومع حكام المغرب العربي ،والتي وقعتها الدولة العثمانية في القرن الرابع عشر والخامس عشر معها . وكان اول من جددها مع الدولة العثمانية،البندقية ، وتلتها فرنسا ، في"الامتيازات"المشهورة التي وقعت بين سليمان القانوني وفرانسوا الاول عام ١٥٣٥،والتي كانت حجر الاساس في العلاقات الودية بين فرنسا والدولة العثمانية في العصور الحديثة .

وتبعت فرنسا انكلترة في توقيع امتيازات مماثلة في عام ١٥٨٠ ،وكونت من اجل التجارة في املاك الدولة العثمانية " شركة الليفانت ". ولم تلبث الدول الاوربية المختلفة ان نالت امتيازات مشابهة ،تدريجياً، ومنها هولاندة ،كما ذكر سابقا .

وقد سار المغرب الاقصى على الخطوات نفسها ، فوقع اتفاقات تجارية مع انكلترة بصفة خاصة ،ولهذا الغرض انشأت انكلترة " الشركة البربرية " . وهكذا بقيت تجارة الوطن العربي قائمة مع اوربا ،ومعتمدة في الدرجة الاولى على طرق القوافل البرية

---

(١) H. Inalcik: Op.cit. p. 127

المعتدة من بلاد المغرب الى اواسط افريقيا ، وشرقها وبالعكس ، حاطة الى البحر المتوسط ، منتجات السودان وافريقيا الوسطى ، والشرقية ، ومن بلاد الشام الى العراق فالخليج العربي ، وبالعكس الى البحر المتوسط ؛ ومن بلاد الشام ومصر الى وسط شبه الجزيرة العربية وجنوبها . فاذا كان كشف رأس الرجاء الصالح قد اصاب الوطن العربي بصدمة مبدئية الا انه لم يصب منه مقتلا ، اذ تمالك نفسه ، وتابع خط تجارته .

ولكن هذه التجارة العالمية لم تكن في الواقع لصالح السكان فيه ، وانما كانت لصالح الجاليات التجارية الاوربية ، التي سكنت كثيرا من مدنه وموانئه ، وكوّنت لنفسها اطارات ادارية تحت اشراف قناصلها ، وكأنها دول في داخل الدولة ، وبخاصة عندما ضعف امر الدولة العثمانية واخذت تلعب الدول الاوربية بمقدراتها . ولقد كانت تلك الجاليات في الحقيقة خط الاستكشاف الاستعماري الاول لهذا الوطن . وعلى الرغم من اعدادها القليلة ، فانها تمكنت برؤوس اموالها الكبيرة ، وشركاتها الاحتكارية المنظمة ، وتسامح الدولة العثمانية معها ، ان تسيطر على التجارة الخارجية في الدولة العثمانية ، وان تغرق اسواقها بنقد اجنبي متنوع (١) ، وفي معظم الاوقات مزيف ، وان تنزح من اسواقها المواد الخام الضرورية لصناعتها كالقطن والحرير ، وان تحمل اليها مصنوعاتها التي نافست كما اسلفنا المصنوعات العربية المحلية (٢) .

ويلاحظ منذ اواخر القرن الثامن عشر ، والدولة العثمانية قد ضعفت ، ان الدول الاوربية التي دخلت الاقتصاد العربي العثماني بجاليات تجارية محدودة العدد في القرن السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر ، والتي عملت فيه باتفاقات تجارية ،

.....

(١) كانت الفضة من السلع الرئيسية التي استوردتها الدولة العثمانية من اوربا . ولتشجيع استيرادها ، ازالت الرسوم الجمركية عنها . وكانت تلك الفضة الرخيصة التي اغرقت اسواق الاقطار العربية والدولة العثمانية ، سببا في التضخم النقدي ، وارتفاع الاسعار ، الذي هزّ الاقتصاد العثماني ، ومعه المؤسسات الرئيسية للدولة والمجتمع ، فكانت ثورات الجيش في استامبول والولايات .
Inalcik ; Op.Cit. p.139

(٢) انظر حول الجاليات الاوربية والتجارة العالمية في بلاد الشام :

ليلى الصباغ ، الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرن السادس عشر والسابع عشر ، رسالة دكتوراة في جامعة القاهرة ١٩٦٦ (لمّا تنشر بعد) .

اخذت تسفر عن مطامحها فتحتل فرنسا مصر ،وتتابع مخططها في الجزائر ، وتندفع الدول الاوربية الاخرى،كانكلترة،وايطاليا،واسبانيا،على الوطن العربي غازية،في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ،حتى اذا ما انقضى الربع الاول من القرن الاخير ، كانت معظم اقطار الوطن العربي تحت النفوذ الاستعماري الاوربي المباشر،الذي عمل بشتى الاساليب لاستغلاله اقتصاديا ،ولا سيما في الميدان التجاري .

فالتجارة العالمية التي بقي الوطن العربي يعتمد عليها في اقتصاده ،في القرن السادس عشر ،انقلبت وبالاعليه ،في اواخر القرن السابع عشر ،والثامن عشر ،حتى ان المنتوجات الشرقية،والهندية بخاصة ،التي كان يعون بها اوربا في القرنين الخامس عشر،والسادس عشر،أخذ هو نفسه يستوردها من الاسواق الانكليزية والهولاندية ، لانقطاعها عنه،واحتكار شركات تلك الدول لتجارتها ،كالتوابل مثلا .

وفي الحقيقة لقد تفاقمت سيطرة التجار الاوربيين على المراكز التجارية الحساسة في الوطن العربي في اواخر القرن الثامن عشر . فعلى الرغم من ان الدولة العثمانية كانت واقفة سدا منيعا في وجه تسرب الدول الاوربية الى البحر الاحمر ،حماية منها للاماكن المقدسة ،فانها سمحت لانكلترة بدخوله حتى (جدة) ،حيث كانت ثلاث او اربع سفن تفرغ حمولتها الهندية سنويا فيه ،وتعود محملة بهن(مخا). ولم يكن يحق لتلك السفن تجاوز ميناء جدة،الا انها سعت اثناء حكم "علي بك الكبير" في مصر ، لفتح طريق(السويس) ،امام تجارتها . ونجحت في ذلك بفضل مساعي تاجر ايطالي هو " كارلو روزيتي" ،الذي كان يتابع اوضاع التجارة في مصر بعين فاحصة ،ولعب دورا هاما فيها ،استنادا الى نفوذه عند البكوات المماليك ،حتى انه استطاع ان ينال احتكار مادة " السنا " .

هذا في اطار التجارة العالمية ، اما التجارة الداخلية فقد كانت تتم بين اجزاء الوطن العربي ،ومع بلاد الاناضول . وقد نشطت بصورة عامة في الفترة الاولى من الحكم العثماني لوقوع هذا الوطن تحت سلطان دولة واحدة . وكانت المبادلات التجارية تجرى بين اجزائه بوساطة القوافل البرية ،والطرق البحرية على السواء ،أي ان البحر المتوسط، والبحر الاحمر، كانا صلة وصل بين اقاليمه . وهكذا كانت بضائع المغرب العربي تحمل الى مصر،فبلاد الشام ، فالعراق ،وشبه الجزيرة العربية . وسلع ،وبضائع العراق ،وبلاد الشام ،واقصى شرق آسيا،الى اليمن،والحجاز ،ومصر

وبلاد المغرب . وكان التجار،خشية قطاع الطرق،وعدم استتباب الامن،يلجؤون الى اعداد القوافل الكبيرة المشتركة ويزودونها من لدنهم بالحراس الكافين . وقد لعبت (قوافل الحجيج) الضخمة،التي تشرف عليها الحكومة العثمانية ،وتهتم بأمنها ، وسلامتها ،وحمايتها من هجمات البدو ،وقطاع الطرق ،دورا تجاريا هاما جداً ، اذ كان كثير من التجار يرافقونها ،ويحملون معهم بضائعهم حيث يبيعونها في الديار المقدسة ،ويشترون منها حاجتهم من بضائع تلك البقاع وسلع الهند ،او انهم كانوا يقومون بالعمادلات التجارية في الاسواق التي يمرون عليها اثناء طريقهم ،وكان كثير من سلع الهند تأتي مع الحجاج الهنود . وكان يشجع التجار على الانخراط في تلك القوافل بالاضافة الى حسن حمايتها من قبل الدولة ،اعفاء البضائع والسلع المحمولة من قبل الحجيج من الرسوم والضرائب . وكانت جميع الاقطار العربية تستفيد من قوافل الحجيج هذه،بما فيها بلاد المغرب . الا ان اكثرها ربحا منها كانت مصر،وبلاد الشام . اما العراق،فكانت تجني ارباحا من الزوار الفرس الوافدين اليها ، لزيارة الاماكن المقدسة الشيعية ،في (النجف) و (كربلاء) و (الكاظمية في بغداد)، ومن الهنود المسلمين السنّة،الوافدين لزيارة قبر (ابي حنيفة النعمان)،و (عبد القادر الكيلاني) .

اما تجارة البلاد العربية مع الاناضول ،والعاصمة استامبول ،فكانت نشيطة ايضا . وتتم عبر الطرق البحرية والبرية ،وبصفة خاصة منها،طريق قافلة الحج الوافدة من الامبراطورية العثمانية الى بلاد الشام، فالحجاز .

وقد كانت الاناضول،ومدنها التجارية ،والعاصمة ،هي صلة الوصل بين البلاد العربية وبقية اجزاء الامبراطورية العثمانية،في شرقي اوربا،وشمالي البحر الاسود .

وكانت السلع الرئيسية المصدرة من الاناضول الى بلاد الشام،ومصر،الخشب والحديد ،واقمشة بروصة الحريرية (١) ،والقطنية ،والسجاد ،والثمار المجففة ،والفرو والشمع وغيرها . وكانت السفن الشامية،والمصرية،تحمل في القرن السادس عشر التوابل الهندية ،والنيلج ،والكتان المصري ،والبرز ،والسكر ،والصابون الشامي ،وكانت

---

(١) انظر بحث " Harir " لـ H. Inalcik في: ENCYCLOPEDIE DE L' ISLAM. 2e ed. vol III

انطاكيـة (اضـالية) قرب الحدود الشامية مركزا هاما لتجارة العبيد ،تصدر البيض منهم ،وتستورد الزنوج المحمولين من الجنوب .

وكانت منتوجات مصر والشام حيوية جداً لاقتصاد استامبول وتموينها : فتموين سراي السلطان من الرز ،والقمح ،والشعير ،والتوابل ،والسكر ،كان يأتي بالمراكب من مصر . وكانت بلاد الشام ترسل سنويا الى السلطان في القرن العاشر/ السادس عشر(٥٠٠,٠٠٠) كغ من الصابون . وكان ذهب السودان يصل الى استامبول عن طريق مصر . وكانت منتوجات البلاد العربية لا تستهلك في العاصمة فحسب ،بل كانت تجد طريقها ايضا الى بلاد البلقان ،والى شبه جزيرة القرم وشمالي البحر الاسود(١) .

ومن المدن التجارية العربية الكبرى ابان(العصر العثماني الاول): حلب،ودمشق، والقاهرة ،والاسكندرية ،وجدة ، وبغداد ،والجزائر ،وتلمسان ،وطرابلس الغرب ، ومراكش ،وفاس ، وكلها كانت تملك اسواقا داخلية كبيرة ،ومنظمة ،ومزودة باستمرار بمنتجات الصناعات المختلفة المحلية ،والاجنبية ،والواردة من الاسواق العربية الاخرى .

ويضاف الى اسواق هذه المدن التجارية الكبرى(الاسواق المحلية)الاسبوعية او الدورية،في بعض المدن،او المراكز، حيث تتبادل كل منطقة الفائض لديها من منتوجاتها مع الفائض من منتوجات المنطقة الاخرى ،او مع البضائع والسلع القادمة من المدن المحلية،او الوافدة من الخارج .

ولكن هذه التجارة الداخلية نفسها لا بد وان تتأثر بالتجارة الخارجية العالمية التي قبض على ناصيتها الاوربيون ، ومن عمل معهم من سكان البلاد،من المسيحيين واليهود . ولذا فانها خضعت لتذبذباتها،ولتحكم الاوربيين في بعض سلعها ،وفي النقد المتداول . ويضاف الى هذا،عدم استتباب الامن في كل المناطق،والاضطرابات الداخلية الكثيرة ،وفقر سواد الشعب ،وكثرة الضرائب المفروضة على كل سلعة . فكل هذه الامور أدت الى ضعف التجارة الداخلية وركودها،وعدم تحقيق التجار العرب، وبخاصة المسلمين منهم ،ارباحا كافية لتخلق منهم طبقة بورجوازية رأسمالية،ضخمة

---

(١) Ibid. The Ottoman Empire. p. 125

الثراء ،كما حدث في اوربا . ويجب الا ننسى في هذا المجال ان التجارة بمفهومها الحديث ،الذى عاشته اوربا في العصور الحديثة ،كانت تتطلب رأسمالا ضخما لتوسيع المبادلات،حتى انها لجأت الى انشاء الشركات الضخمة المساهمة .

وكان اكثر التجار العرب تأثرا بركود التجارة التدريجي، هم التجار المسلمون، الذين انكمشوا عن دخول الميدان التجاري العالمي الى جانب الاوربيين ،وتركوا الامر الى مواطنيهم من المسيحيين ،واليهود ،وبخاصة الاخيرين الذين لعبوا دورا خطيرا في اقتصاد الوطن العربي في تلك الحقبة ،اذ عملوا أشبه ما يكون بمصارف متنقلة . فكانوا يقرضون المال للتجار الاوربيين والوطنيين ،بفوائد فاحشة تتراوح بين ١٧٪ — ٢٢٪ بالمائة . ومن ثم كانت الارباح التي جنوها طائلة ،والاحتكارات التي قبضوا عليها عديدة ،ولا سيما في بلاد المغرب ،حيث كانت اعدادهم كبيرة . ففي تونس مثلا كانت لهم امتيازات خاصة في الاتجار مع الخارج ،وكانت لهم في القرن الثامن عشر شركة غنية جدا ساهم في تكوين رأسمالها اربعون يهوديا من اغنى اليهود التونسيين، وتمكنت من الحصول على حقوق واسعة في شراء الانتاج التونسي وبيعه في الخارج (١) . وكانت لهم علاقات مع يهود مدينة "ليغورن" في ايطاليا ،وكان قسما كبيرا من (تجارة المغرب — اوربا) عن طريق هذا الميناء .

وفي الواقع ،عمل المسيحيون،واليهود، مع التجار الاوربيين ،في بادئ الامر مترجمين ،ووكلاء محليين ،ودائنين ،ووسطاء ،الا انه ما لبث بعضهم ان كوّن تجارته الخارجية الخاصة على النمط الاوربي ،وكان من هؤلاء الأرمن في بلاد الشام،واليهود، حتى غدا الأرمن هم القابضين على تجارة الحرير في حلب .

اما البضائع المتبادلة داخليا فكانت المنتوجات الغذائية الخاصة بكل اقليم ومصنوعاته المحلية ، بينما المتبادلة مع اوربا فكانت الصناعات المحلية العربية والواردة احيانا من الشرق الاقصى . وكانت البلاد العربية تستورد من اوربا في بادئ الامر المصنوعات الصوفية ،الا انها مع تطور الصناعة الغربية ،وتنوعها ،وغزوها لاسواقها ، اخذت تستورد الحريرية ،والقطنية ،والصوفية ،مقابل تصديرها لاوربا المواد الخام كالقطن،والحرير ،والصوف .

.....

(١) رشاد الامام . المصدر نفسه ،ص ٢٨٤

ومما ذكر يستنتج ،ان التجارة وهي عنصر هام في البنية الاقتصادية للوطن العربي ،سارت هي الاخرى في طريق الانحطاط ،على الرغم من انه كان من المنتظر ان ترى تقدما وازدهارا كبيرين ،لوقوع الوطن العربي كله تحت سلطة حاكم واحد ،وفي اطار امبراطورية شاسعة المساحة متشعبة الاطراف . الا ان الظروف التي اشير اليها سابقا من تسلم الجاليات الاوربية بصفة عامة للتجارة الخارجية ،وسيطرتهم التدريجية عليها ،وانحطاط الصناعة المحلية ،ومنافسة الصناعة الاوربية ،وعدم توافر رؤوس اموال ضخمة لدى التجار العرب المسلمين ،وتنوع النقد الاوربي المستخدم في الاسواق والتلاعب في قيمته وتزييفه ،وتقوقع المجتمع العربي الاسلامي نفسه امام التحرك التجاري الاوربي هذا ،وضعف المستوى الاقتصادي العام للشعب ،وضغط بعض التقاليد والعادات الموروثة ،كانت كلها عوامل مقيدة وموهنة للنشاط التجاري العربي ومبعدة له عن خط سير التجارة العالمية وتطورها .

ولكن على الرغم من ضعف نشاط التجارة العربية ،فان التجار ظلوا يكونون (طبقة اجتماعية) غنية ،ومحترمة ، ومتنفذة . وكانت لها (نقابتها) و (شيخها) وتلعب دورا هاما في حياة مجتمعها المحلي .

ومن استعراض البنية الاقتصادية للمجتمع العربي في اواخر القرن الثامن عشر ، يتضح انه بينما كان الاقتصاد الاوربي يعيش ثورة عميقة ،وينفتح على آفاق جديدة واسعة ، كانت البلاد العربية تبقى على نظمها الاقتصادية السابقة،دون تجديد فيها او محاولة لتطويرها . واذا كان تخلفها عن الاقتصاد العالمي لا يبدو واضحا للعيان في القرن السادس عشر ،وحتى منتصف القرن السابع عشر ، لعدم وجود تفاوت كبير بين الطرفين ،فانه ظهر في اواخر القرن الثامن عشر متخلفا تخلفا كبيرا عن ركب التطور الاقتصادي العالمي .

****

****

الفصل الخامس

المجتمع العربي في العصر الحديث

لم يغير الاستيعاب التركي العثماني للبلاد العربية من التركيب الاجتماعي العربي، وأسسه الحضارية. واذا ذكر بعض المؤرخين مثل "غب Gibb" ان المجتمع في شمال بلاد الشام، والعراق، قد تأثر تأثرا كبيرا بالحكم التركي لقربه من بلاد الاناضول ولسيادة الاتراك في هذه البقاع سيادة مباشرة، فان الاثر التركي في الواقع لم يتعد حتى في هذه المناطق، مستوى الطبقة الارستقراطية، والعسكرية في الحكم، ولا يشاهد في الطبقات الدنيا من الشعب. وحتى تلك الطبقة الارستقراطية من التجار، والعلماء، التي كانت بعلاقات مستمرة مع العلماء الاتراك، او الطبقة الحاكمة، وتزاوجت معها كانت غير راضية عن تسرب اللغة التركية الى بيوتها. ولم يتقن هذه اللغة منهم الا نفر قليل، تعلم في استامبول، هذا علماً ان كثيرا من العادات التركية مشابهة للعادات العربية، لاستقائها من النبع الاسلامي بصفة عامة.

ومع ذلك، فيجب الا يغفل امر (الطبقة الجديدة) التي نتجت من تزاوج الانكشارية مع السكان الاصليين، ومن دخول بعض فئات من السكان المحليين في بنية هذه الفرقة العسكرية. اذ لعبت هذه الطبقة دورا هاما في السياسة المحلية للبلاد العربية، وفي الحياة الاقتصادية، حيث عملت في الصناعة، والتجارة. وقد بين ذلك في دراسة الاحوال السياسية والاقتصادية. وقد اسميت هذه الطبقة اسما خاصا في كل قطر عربي، ففي بلاد الشام (اليرلية)، وفي بلاد المغرب (القولوغلو).

ولم تجرب الدولة العثمانية، حتى القرن الثالث عشر/ التاسع عشر، أن تفرض "تركيتها" بالقوة على المجتمع العربي، بل تركته يعيش في اطره الاجتماعية السابقة. كما انها على الرغم من اتخاذها اللغة التركية لغة الدولة الرسمية، فانها لم تحارب اللغة العربية، وتدارسها، في مختلف الاقطار العربية، وذلك حتى القرن التاسع عشر. بل ان كثيرا من فقهائها، وعلمائها الدينيين، وحكامها، كانوا يجيدون اللغة العربية، ويكتبون مؤلفاتهم بها، منذ القرون الاولى من الفتح العثماني للاقطار العربية

وذلك لانها لغة القرآن ،ولغة الانتاج الفكري العربي الاسلامي .

ولكن هذه السياسة الاجتماعية التي اتبعتها الدولة العثمانية تجاه الشعب العربي ،لم تجتذبه اليها على الرغم من تقديره الضمني في القرون الاولى من الفتح العثماني لقوة هذه الدولة ، سيما وانها كانت تتصارع مع الدول الاوربية . وبذلك بقي المجتمع العربي بصفة عامة،ابان الحكم العثماني، منقسما الى شطرين متنافرين :

(الارستقراطية الحاكمة)ممثلة بالجيش والحكام ،(والرعية) بزراعها ،وصناعها، وتجارها ،وعلمائها ،واهل ذمتها ،وقد نظم كل من الطرفين نفسه داخليا ، بشكل مستقل عن الآخر ،ودون ان يسأل الطرف الثاني رأيه ،كما لم يتدخل واحدهما في شؤون الفريق الثاني وتنظيماته في الاحوال الطبيعية الا ما ندر . فالعلاقات بينهما كانت ازاء علاقات رسمية وسطحية ،فيها برود وانكماش وعدم ثقة .

فالطبقة الحاكمة في العهد العثماني ظلت لفترة طويلة من(الجند)،الذين عملت الدولة على اعدادهم للحرب والقتال ،ثم حولتهم الى أداة حكم ،تضمن بها بقاءها. وكان لهذه الطبقة امتيازاتها ،فهي الطبقة الاقطاعية التي تعيش على ما يقدمه لها الشعب من انتاج أرضه وكد يديه ،وكانت لا تتحرج وقد جمعت في يدها قوة الحرب، والحكم ،من استغلال الرعية لتحقيق مآربها ولو بأساليب البطش . وكان هم معظم افراد هذه الطبقة الحصول على المال والرفاه . ولما كانت تشعر دائما بانها مهددة بالعزل من قبل السلطان ،في اى وقت ، فانها كانت تلجأ الى جمع اكبر كمية ممكنة من المال ، في اقصر وقت،دون النظر الى تدمير الرعية،وضيقها . ولم تكن تحاول اجراء اى تعديل في الاوضاع القائمة خشية ان يؤدي هذا التغيير الى ازدياد سوء الحال . كما ان اكثرها لم يجرب ان يحتك بطبقات الشعب المختلفة، لتعرف شكاويها . وقد كانت تصل الى مناصبها في بادئ الامر،معتمدة على كفايتها الحربية ،ولكن الحال تطور مع الزمن ــ كما اشرنا الى ذلك ــ فأخذت المناصب تباع وتشرى ،وتفشت الرشوة ،ووصل الى الحكم كل طامع بها،دافع لثمنه .

ولكن على الرغم من التباعد بين الطبقة الحاكمة ،والرعية المحكومة ،فانه كان هناك فئة من المجتمع ذاته تعمل على التقريب بين الفريقين ،وعلى ربط الجماعات المختلفة في اطار المجتمع العربي ،من زراع ،وصناع ،وتجار ،مع بعضهم بعضاً . وهذه الفئة

هي ما يمكن ان نطلق عليها اسم " المؤسسة الدينية " . فالدين الاسلامي كان في الواقع هو الرابطة الوحيدة التي يمكن ان تجمع العربي آنذاك الى جانب التركي وتشعره بشيء من التقارب العاطفي ، وتدع الفلاح العربي المسكين يعمل للسلطان التركي بصمت وسكون .

والمؤسسة الدينية تتألف من طبقة (العلماء) . وهذه الطبقة هي التي تمثل الفئة من المسلمين ، المتفقهة في الدين ، والمتبحرة في العلم . وقد حرصت هذه الجماعة بصورة عامة منذ العصور الاسلامية الاولى على الدفاع عن سنية الدين الاسلامي ، واصالته ، وابعاد البدع والخرعبلات عنه ، والوقوف سداً امام الفئات التي طعنت في عقائده وتقاليده . وكانت تلعب دور رقيب على السلطة الادارية الحاكمة ، وبنفس الوقت تتفرغ لامور العقيدة ، والشرع ، والتعليم ، والفكر . ولقد اتخذت هذه الطبقة مبدأ لها الحفاظ على تقاليد المجتمع التي اكتسبها منذ القديم ، وحمايتها من اية هزة . ولقد اعتمدت هذه الطبقة في قوتها ، على احترام الجماعة الاسلامية لممثليها ، وخضوع من تسوسه للمثل التي تبنتها .

ولقد أيدت الحكومة العثمانية الاسلامية السنية هذه المؤسسة ، فشجعت نشاطها الديني ، وبنت المساجد ، والمدارس ، والتكايا ، ووقفت عليها الاوقاف الشاسعة ، ومتعت افرادها بامتيازات عدة ، منها ، اعفاؤهم من الضرائب ، والمصادرات . وكانت علاقاتها معهم ، كسلطة حاكمة ، تتصف بالاحترام ، الا انها في نفس الوقت اوجدت على هذه المؤسسة نوعا من الرقابة ، بأن جعلت بعض افرادها موظفين لديها ، لا يقومون بعمل يرتبط بالشرع وفقهه فقط ، وانما بعمل اداري ايضا . كـ (القاضي) مثلا الذي سلمته الى جانب اعمال قضائه ، سلطة ادارية بحتة ـ كما اسلفنا القول ـ و (المحتسب) الذي اعطته الاشراف على النقابات المختلفة .

وطبقة العلماء هذه كانت جماعة متضافرة مترابطة في كل اقليم ، لها (رئيس) يشرف عليها . وعلى رأس جميع الاقاليم ، وفي العاصمة ، يقوم " شيخ الاسلام " . وفي كل اقليم كانت الجماعة تضم المجموعات الثلاث الاتية :

١ـ القضاة وهم الذين يطبقون احكام الشريعة الاسلامية في المحاكم . ويضم اليهم المفتون ، ونقباء الاشراف .

٢ــ المشرفون على المساجد ،كالخطباء ،والائمة ،والمختصون بشؤون المساجد الأخرى .
٣ــ المشرفون على المدارس ،والمعلمون فيها .

ويمكن لأيّ واحد ان ينتقل من جماعة الى اخرى بشروط معينة .

ولقد حرصت الدولة في بادئ الامر على ارسال القضاة والمفتين من استامبول الى الولايات ،ولكنها اسلمت (نيابات القضاء) في معظم الاحوال الى طبقة العلماء المحليين ،ونقابات الاشراف الى الاشراف المحليين ،ومع ان مذهبها الرسمي هو الحنفي ،فانها كانت تقيم في البلاد العربية نواب قضاء على المذاهب الاربعة ،وفي المغرب على المذهب المالكي ،حيث كان هو المذهب السائد . بل انها في القرون الاخيرة اخذت تسند الافتاء الى علماء محليين ايضا . ومن ثم تمتعت طبقة العلماء في المجتمع العربي بحريتها ،التي اختلف مداها من اقليم الى آخر ،واكثرها حرية وقوة ،وتماسكا ،كانت (جماعة العلماء) في مصر وفي المغرب العربي ،لبعدها النسبي عن العاصمة ،ولوجود مراكز دينية قوية تلتف حولها ،مثل (الازهر) مثلا ،و(جامع الزيتونة).

لقد كانت طبقة العلماء طبقة " معدّلة " بين الطبقة الحاكمة والرعية . ومما لا شك فيه ،بأنها عملت في كثير من الفترات على الدفاع عن حقوق الجماعة الاسلامية ضد طغيان الحكام واستبدادهم ،وعن التقليد الاخلاقي والديني الموروث اجيالا عن اجيال . ولكن هذا لا يمنع من القول ،ان انشغال معظم افرادها مع الزمن ، بالنواحي الادارية ، والتصاق بعضهم بالسلطة الحاكمة ،وسيرهم الفكري التقليدي ،ونظرتهم المحدودة ،بل المحلية الضيقة ،والنظر الى الوراء دائما ،والى الامور دون ملاحظة التطورات الكبرى التي يعيشها العالم ، والتي اخذت تطرق باب البلدان العربية ،حرم المجتمع العربي من دينامكيته واضعف قواه التطورية ،وبذلك اسهموا في ضعفه وتأخره ،وركود فكره ،مع انهم كانوا قادرين ،بما يتمتعون به من نفوذ وهيبة في نفوس الجماهير ،من اجراء تغييرات كثيرة لصالحه . وهذا ما اخذ على عاتقه فئة منهم في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر، والثالث عشر/ التاسع عشر ،من امثال (محمد بن عبد الوهاب) و (جمال الدين الافغاني) ،و (محمد عبده) ،و (رشيد رضا) وغيرهم .

" أهل الذمة " ، ويقصد بهؤلاء العناصر غير المسلمة في الوطن العربي من يهود ،ومسيحيين . فالدولة العثمانية ،اثناء احتلالها جنوب شرقي اوربا ،او بمعنى

آخر بلاد الامبراطورية البيزنطية والبلقان ،قد ضمت في محيطها عددا ضخما من المسيحيين ،يفوق عدد المسلمين فيها . ومعظم هؤلاء المسيحيين من الطائفة الارثوذكسية . وقد عامل العثمانيون هؤلاء ،معاملة تشبه ،معاملة العرب المسلمين الفاتحين الاول،للمسيحيين في بلاد الشام عندما فتحوها : اذ نظروا اليهم ،مجموعة بشرية لها ديانتها السماوية المعترف بها من قبل الاسلام وعقائدها الخاصة ،واتبعوا معهم مبدأ التسامح ،فحفظوا عليهم حياتهم ،وصانوا لهم حرية عبادتهم ،على ان يدفعوا الجزية والخراج . ولم يحاولوا ان يتدخلوا في علاقاتهم فيما بينهم،بل تركوها لرؤسائهم الدينيين ،مع تطبيق الاحكام الاسلامية الشرعية،الخاصة بعلاقات المسلمين معهم ،وبعلاقاتهم مع الدولة . وهكذا كان يمثل المسيحيين (بطاركتهم) واليهود (حاخاماتهم) ،والحكومة تتصل بهؤلاء لتأمين علاقاتها مع رعاياها الذميين . وبعد ان فتح السلطان"محمد الثاني" القسطنطينية،فانه اوجد لاهل الذمة تنظيما مركزيا" :فقد اطلق على كل جماعة من اهل الذمة لقب " ملة " ،والموظف المسؤول امام الدولة على ادارة شؤونها " ملة باشي " .

ولقد عمل"محمد الفاتح"على الاعتراف ولا بـ (الكنيسة الارثوذكسية) دون الكنائس الاخرى،وذلك لان معظم رعاياه كانوا ينتمون اليها .واطلق على الارثوذكس اسم " ملة الروم " ،واعطى لبطركها في القسطنطينية سلطات واسعة ،وكان له حاشيته الخاصة، ومساعدوه،وسجن لرعاياه . وزوده بسلطة مدنية كبيرة على مسيحيي كنيسته ،ومنها توزيع الضرائب ،والاشراف على جمعها ،بعد ان حددت الكمية العامة ،من قبل موظفي الباب العالي ،بالاتفاق مع السلطات الدينية .

وفي عام ١٤٦٠ اعترف السلطان بالكنيسة المسيحية الثانية في امبراطوريته،وهي (الكنيسة الارمنية)،ذات المعتقدات المونوفستية ،ويسمونها عادة بـ (الكنيسة الغريغورية) (نسبة الى منظمها في القرن الثالث،وهو غريغوري المنير) ،ورعاياها يقيمون في شرق الاناضول ،وفي الجنوب الغربي منه ،قرب جبال طوروس . وعين لها السلطان اسقفا باسم (بطريرك استامبول) ،واعطاه سلطات مشابهة لسلطات البطريرك الارثوذكسي .

وكما اعترف السلاطين بالمسيحيين الارثوذكس،والارمن ، ملتين ، فقد اعتبر اليهود كذلك "ملة" ثالثة . ولقد عومل اليهود في ظل الحكم العثماني معاملة طيبة ،

وتحسنت احوالهم عما كانت عليه في ظل الدولة البيزنطية ، بل ان السلاطين قربوا (اطباءهم) اليهم وبعض شخصياتهم العالية البارزة . ولهذا يلاحظ انهم تدفقوا، منذ القرن العاشر / السادس عشر، على الامبراطورية العثمانية، من بلاد اوربا وبخاصة من اسبانيا والبرتغال ، بعد ان طردوا من الدولتين الاخيرتين في مطلع العصور الحديثة ، مع العرب المسلمين . ولقد استقبلهم العثمانيون استقبالا حسنا ، وسمحوا لهم بفتح الحوانيت التجارية ، والعمل في الصناعة .

وكذلك فعلت بلاد المغرب الاقصى ، وحكام الولايات المغربية . ولما ضمت الدولة العثمانية البلاد العربية ، اتجهت الهجرة اليهودية الى فلسطين ومصر، وخرجت عناصرها من شرقي اوربا بالاضافة الى الهجرة من اسبانيا وغربي اوربا . واتخذ اليهود مراكز لهم في صفد ، والاسكندرية ، ودمشق ، والقدس ، وتونس ، والجزائر ، ومدن المغرب الاقصى .

وعندما تم الفتح العثماني للبلاد العربية ، فان الاغلبية من السكان في الامبراطورية غدت الجماعة المسلمة . وبضم الدولة لسورية ومصر ، والمغرب ، وقبرص، وكريت ، فان الامبراطورية العثمانية ضمت كل المنطقة التي ازدهرت فيها (الكنيسة الارثوذكسية) في الماضي، وبخاصة البطركيات الثلاث في (انطاكية) و (القدس) ، و (الاسكندرية) . وعلى الرغم من تعدد رؤوس الكنيسة الارثوذكسية ، فان البطريرك في استامبول بقي (رئيس الملة) كلها في اعين الباب العالي ، ولكنه اقتسم السلطة الروحية والاشراف مع زملائه . ولقد حاول (اليونانيون) ان يقبضوا على زمام الكنيسة، ويمنعوا وصول أي بطريرك من اهل البلاد الى منصب الكرسي الاعلى، فحرموا على المتكلمين بالعربية من سكان سورية وفلسطين ، من دخول الاديرة اليونانية . ولقد ازداد نفوذ اليونان في الادارة العثمانية في القرن الثامن عشر ، مما جعل الارثوذكس العرب يسعون للتخلص من هذا النفوذ ، وكان هذا عاملا في اذكاء الروح القومية لديهم .

والى جانب الكنيسة الارثوذكسية المتعددة الرؤوس ، والكنيسة الارمنية ، دخلت عناصر مسيحية اخرى غير الروم ، تتبع كنائس اخرى ، تنظر اليها الكنيسة الارثوذكسية على انها كنائس مهرطقة . ومن هذه الكنائس :

ـ (الكنيسة النسطورية) : وتختلف عن الارثوذكسية ، بأن هذه الاخيرة قالت منذ القرن

الخامس بأن المسيح ذو طبيعتين ،احداهما الهية ،والاخرى بشرية ،ولكنه انسان واحد . بينما اعتقد النساطرة بأنه ذو طبيعتين منفصلتين عن بعضهما . ولقد حوربت هذه العقيدة ،واضطهد اتباعها ،وهاجروا شرقا الى بلاد فارس ،وتقبلهم الاباطرة الساسانيون قبولا حسنا كثائرين على (روما)،على الرغم من اختلافهم بالدين معهم . وظلوا قائمين في تلك البقاع حتى الفتح الاسلامي ،وشكلوا مجموعة مسيحية كبيرة في ظل الخلافة العربية الاسلامية كان لها بطريركها في بغداد ،وكسحتهم موجة التتر اثناء هجومها على العراق . ولم تبق الا اعداد محدودة منهم في المنطقة الشرقية من مجرى دجلة الاوسط ،وفي جبال كردستان ،بين الموصل ،ووان ،ويدعون (بالاشوريين) ولهم بطريركهم حتى الآن ،ويقيم في قرية شمال الموصل . ولقد انحطت هذه الجماعة فكريا،واقتصاديا،في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وضايقها اقامة بطركية منافسة لها على الحدود الفارسية ــ التركية من منتصف القرن السابع عشر ،حتى مطلع القرن التاسع عشر .

(الكنيسة المنوفستية) :وهي التي قالت بطبيعة واحدة للمسيح " . ولقد انقسمت قسمين،(اليعقوبية) في سورية ،و(القبطية) في مصر . وكلتاهما اضطهدت من قبل الارثوذكس قبل الفتح الاسلامي ،وقدم اتباعها مساعدات حربية للعرب المسلمين الفاتحين . وكانت اشبه ما تكون بالكنائس القومية ،اذ انها تضم سكان البلاد الاصليين بينما الارثوذكسية كانت تضم آنذاك الاجانب واليونان . وللكنيسة اليعقوبية بطريرك في (انطاكية) . وعندما حدث الفتح الاسلامي فان معظم رعاياها اتبعوا الديانة الاسلامية . ولما اتت الحملات الصليبية فانها كانت حربا عليهم ،حتى ان كثيرا من اتباعها هاجر من سورية الى مصر . ولذا فان عدد اتباع هذه الكنيسة محدود في سورية ،وان كان هناك بعض منهم في العراق ،وفي بغداد بالذات . وقدر عدد اليعاقبة في سورية بعد الفتح العثماني في القرن العاشر / السادس عشر بـ/٥٠,٠٠٠/ أسرة وتقوم بطركية الكنيسة في (دير الزعفران) قرب ماردين .

اما الكنيسة القبطية فلا يقتصر اطار عملها على مصر فحسب ،وانما يمتد اشرافها على القدس ،والنوبة ،والحبشة . ولقد اتخذت طابعا قوميا منذ نشأتها الاولى . وبعد الفتح الاسلامي دخل كثير من اتباعها بالدين الاسلامي . ويقدر عدد الاقباط بعشر السكان في مصر . ولقد اشترك بطريركها في "موتمر فلورنسة" عام ١٤٣٩

الذى كان هدفه توحيد الكنيسة المسيحية ،الا انها بقيت كنيسة مستقلة .

ـ(الكنيسة المارونية) :ويسكن معظم اتباعها في لبنان ،ويقولون بأن المسيح ارادة واحـــدة (Monothelism) . وهذا يخالف العقيدة الارثوذكسية التي تقـــول بطبيعتين لكل واحدة ارادة خاصة . ولقد نشأت حوالي اواخر القرن السابع ،وتأثرت بالحملات الصليبية ،وقبل ان بعض اساقفتها قد خضع لروما في القرن الثاني عشر .واتصلت معها رسميـــا في عام ١٤٤٥ بعد مجمع فلورنسة . ولكن البطريرك والاساقفة عجزوا عن ان يحملوا رجال الدين الصغار معهم في هذه الحركة التوحيدية . ولذا فـــان الكنيسة ،بقيت ثلاثة قرون اخرى دون ان يتم اتحادها كاملا مع الكنيسة البابويـــة . الا ان جهود المبشرين الكاثوليك بين الموارنة في لبنان ،نجحت في القرن الثامـــن عشـــر بربط الكنيسة المارونية بالبابوية ،بموجب صك ،وافق عليه " مجمع قومي " في عام ١٧٣٦ ولا يزال ساري المفعول الى الآن . وقد لعب " يوسف سيمون السمعاني " دورا هاما في هذا المجمع كممثل للبابا .

ولقد هاجر كثير من الموارنة ،في القرن السابع عشر ،من لبنان الى حلب،حيث عملوا بالتجارة الخارجية ،والصناعة ،وفي القرن التاسع عشر الى جنوبي لبنان ،حيث شجعهم الامير بشير الثاني الشهابي على ذلك ، وظهرت بينهم نهضة ادبية عربيـــة في هذين القرنين وتكونت منهم طبقة بورجوازية غنية كان لها دورها في القرن التاسع عشر . ولقد ذهب عدد كبير منهم للدراسة في روما منذ اواخر القرن السادس عشـــر، اى منذ أن انشأ البابا لهم " المدرسة المارونية " في عام ١٥٨٤ ،في روما .

ـ(الكنيسة الكاثوليكية) :لقد كان عدد الكاثوليك قليلا في البلاد العربية ،اذ باخراج الصليبيين من بلاد الشام ،خرجت جميع العناصر اللاتينية الكاثوليكية منها ،وكذلك رجال الدين اللاتين . الا انه يرى منذ القرن الرابع عشر (١٣٣٦) ،وجود بعثـــــة للفرانسيسكان في القدس ،ثم امتدت في القرن السابع عشر الى حلب ،وكان لهم نفوذهم في جنوب مصر .

وعندما ضعف امر الدولة العثمانية ، فان الكاثوليك ازداد عددهم على حســـاب الطوائف المسيحية الاخرى ،ويرجع هذا الى سببين رئيسيين :

أولا ـ تأثير فرنسا على الحكومة العثمانية منذ توقيع الامتيازات في عام ١٥٣٥ بين فرانسوا الاول وسليمان القانونـــي .

ثانيا ـ تأسيس "مجلس الدعاية البابوي" من قبل غريغوري الخامس عشر في عام ١٦٢٢ كهيئة مراقبة ،وتوجيه ،وتنظيم ،وتقوية ،للبعثات التبشيرية . كما اضيف الى الكاثوليك الجاليات التجارية الاوربية . وكانت الرهبنات الرئيسية التي وقع على عاتقها التبشير في الوطن العربي ،اليسوعيين والفرانسيسكان ،وبخاصة منهم الكبوشيون . وحتى القرن السابع عشر كان معظم المبشرين من الفريقين ،من وسط ايطاليا وجنوبها . ولكن لويس الرابع عشر ملك فرنسا ،مارس نفوذه السياسي كي تسلم القيادة التبشيرية للاعضاء الفرنسيين من الطائفتين . واصبحت سياسة فرنسا ـ فيما يخص النواحي الدينية ـ موجهة بخاصة للحصول على الاعتراف بحمايتها لجميع الكاثوليك في الامبراطورية العثمانية مهما كانت جنسيتهم . ولم يكن الامر سهلا ،ولا سيما وان الرأي العام الاسلامي ، كان ينظر الى الدين الكاثوليكي نظرته الى دين غريب وعدو ،لأنه دين الفرنجة الذين حاربوا المسلمين في الحروب الصليبية وفي اسبانيا . ولقد اوصى المبشرون حتى لا يثيروا السلطنة العثمانية ،بألا يسعوا لزيغ المسلمين ،وان يبشروا بين المسيحيين كأفراد لا كجماعات ،وان يكون هدفهم رؤساء الطوائف بالذات . ولقد نجح المبشرون الى حد ما بين بعض الطوائف المسيحية الشرقية ،فازداد عدد معتنقي مذهبهم، الذين كانوا يجذبونهم الى كنيستهم اللاتينية .

ولقد تشكل مع الزمن (كنائس متحدة) مع روما، ومنشقة عن كنائسها الشرقية (مثل كنيسة الروم الكاثوليك ـ السريان الكاثوليك ،والكلدان الكاثوليك ،والنسطورية المتحدة) . وكانت الطريقة التي اتبعها المبشرون، تشجيع تشكيل حزب مؤيد للاتحاد مع روما بين رجال دين الطائفة ،ثم ضمان انتخاب واحد من هؤلاء لكرسي البطركية حين شغوره ،واخيرا العمل على تدعيم الجماعة الجديدة المتحدة حول البطركية الكاثوليكية غير المعترف بها بعد .وكان نتيجة ذلك ان قام نزاع بين رؤساء الكنائس الشرقية المحلية والمبشرين أكثر طابعا قوميا . فقد اخذ رجال الدين الشرقيون يعملون بكل قواهم لتخليص طوائفهم من المبشرين الاوربيين الاغراب مذهبا، ووطنا، ولغة . وكان لهذا اثره في النمو التدريجي للشعور القومي العربي في القرن التاسع عشر .

اما من حيث وضع المسيحيين العام في الدولة العثمانية ،فكثير ممن كتب في هذا الموضوع يرى ان هذه الدولة قد اساءت معاملتهم ،وانها كانت شديدة التعصب

للاسلام ،ولاسيما بعد ان ضمت اليها العالم العربي الاسلامي .فسلاطينها كانوا يعتقدون في قرارة نفوسهم ،ان المسيحيين لا بد وان يكونوا حلفاء طبيعيين للقوى الاوربية المسيحية،التي كانت تتكتل آنذاك لتقف في وجه العالم الاسلامي،وتسعى لافنائه . ولكن على الرغم من هذه النظرة الضمنية،التي ربما كان السلاطين ينظرونها للمسيحيين ،فان هؤلاء لم يخرجوا عن معاملة المسلمين المتسامحة السابقة لهم ،بل كان تسامح الاتراك مع مسيحي الولايات العربية،اكبر من تسامحهم مع مسيحي البلقان، الذين كانوا في بلادهم،أغلبية دائمة التآمر مع النمسا . فقد حافظت الدولة على املاكهم ،وحرية عباداتهم ،وكنائسهم ،واتاحت لهم حرية العمل في الزراعة ،والصناعة، والتجارة . ودخلوا النقابات المختلفة،على قدم المساواة مع زملائهم المسلمين ،وكانوا في تعاطف ووود معهم ،بل انهم تفوقوا في ميدان التجارة الخارجية لصلتهم مع الاوربيين وتكونت منهم طبقة بورجوازية غنية . وفي مصر بالذات كان الاقباط يقومون بعمل (الصرافة) ،ويحتكرون تسجيل الارض في دفاتر خاصة . ومن ثم كانوا يعرفون ، تبعا لتلك الدفاتر ،كل شيء عن الارض والضرائب المقررة عليها ،وكانوا قادرين على التلاعب بها . كما كانوا يعملون في الصناعة النسيجية ،وفي التجارة ،والصياغة . ولكن اكثر ما كان يرجح المسيحيين بصفة عامة ،شيئان : اولهما ،التفريق في المعاملة الاجتماعية بينهم وبين المسلمين كمنعهم من ركوب الخيل الا بطاركتهم مثلا، وثانيهما، ضريبة الجزية .

اما اليهود ،فقد ذكرنا انهم قد عوملوا باحسان ،بالنسبة لمعاملة الامم الاخرى لهم ،حتى ها جرت اعداد كبيرة منهم الى انحاء الامبراطورية العثمانية ،حيث عطوا بالتجارة ،والصناعة ،والطب . بل انهم تقربوا الى الجاليات الاوربية ،حتى ان بعضهم نال حماية قناصلها ،وبخاصة القنصل الفرنسي . ولقد عملوا كعادتهم بالربا ،وقرض الاموال ،بفوائد فاحشة ،حتى للسلطان نفسه ،وكانوا أشبه مايكون بمصارف متنقلة. ولعبوا دورا خطيرا في اقتصاد البلدان العربية ، بل ان جزءا كبيرا من التجارة والصناعة كان بيدهم ،وفي مطلع القرن التاسع عشر كانوا هم محتكرى التزام الضرائب. وفي اواخر القرن الثامن عشر، كانت تسيطر على اقتصاد الجزائر نفسه اسرتان يهوديتان هما بوخريص(بكري) ،وبوشناق ،واشرنا الى نشاطهم في تونس . الا ان الازدهار المادي لليهود ،وتسرب افكار الغرب اليهم ،ادت الى ظهور تيارات فكرية بينهم ،منذ

القرن السابع عشر، لها تطلعاتها في تكوين مجموعة متمايزة ذات كيان وحكم خاصين . كما ان الحرية التي تمتعوا بها ، نمّت بينهم تيارا قوميا منذ القرن السادس عشر ، ولا سيما بعد ان زادت اعدادهم نتيجة هجرتهم ، من اسبانيا، والبرتغال، منذ اواخر القرن الخامس عشر، الى بلاد الدولة العثمانية .

واذا كانت الطوائف الدينية في الوطن العربي قد حافظت على حريتها الدينية ، والى حدّ ما استقلالها كجماعة ، فانها ، وبخاصة العناصر المسيحية منها المستقرة في هذه البلاد منذ القديم ، كانت اجتماعيا غير مغلقة على التأثيرات الاسلامية المختلفة، ولا سيما العادات والتقاليد . فالمسيحي في دمشق ، او حتى في الريف ، هو اقرب الى جاره المسلم من قربه الى كاثوليكي فرنسي ، او بروتستنتي انكليزي (١) ، بل ان أهل الذمة كانوا يرجعون الى القاضي المسلم ليفصل في قضاياهم . ولكن يجب ان يلاحظ ان المسلمين ، وبخاصة السنّة منهم ، قد ارتبطوا بالسلطنة العثمانية وشعروا بأنها حامية لهم طالما انها قوية الشكيمة والسلطان ، أكثر من ارتباطها بالطوائف الدينية الاخرى بها ، التي ظلت تشعر بأنها غريبة عنها .

الا ان الانفصام بدأ يظهر ، بشكل واضح وجلي ، بين المسلمين السنّة والدولة العثمانية ، في اواخر القرن التاسع عشر ، عندما تسربت الى الشباب الاتراك الافكار القومية المنتشرة في اوربا ، واستلمت السلطة في مطلع القرن العشرين " جمعية الاتحاد والترقي " ، التي تبنت حركة " التتريك " . فأخذت تسعى لاحلال اللغة التركية محل اللغة العربية ، وللضغط على العناصر العربية ، مما اوجد ردود فعل قوية لدى الاخيرة، وكانت من العوامل التي ادت الى دفع الحركة القومية العربية قدما .

ومهما تكن شكوى (اهل الذمة) من معاملة الدولة العثمانية ، فان الواقع يوضح ، ان التجارة الخارجية او بمعنى آخر تجارة الوطن العربي مع اوربا، كانت كلها بأيدي المسيحيين ، واليهود ، الذين كانوا يعطون مع التجار الاوربيين ، بل ان قسما كبيرا من التجارة الداخلية كان بيدهم ايضا . لان التجار الاوربيين اتخذوا من هؤلاء وسطاء تجاريين لهم . ففي مصر ، والجزائر ، وتونس ، مثلا ، كان معظم العاملين مع الاوربيين من اليهود ، اما في بلاد الشام فمن المسيحيين وبخاصة الروم الكاثوليك والارمن . ولقد

(١) Jacques Weulersse , Les paysans de Syrie et du proche-Orient, paris - 1946 (Gallimard) , pp. 68-70

نال هؤلاء "حماية "الدول الاجنبية عن طريق شراء ما يسمى "البراءات "من قناصل تلك الدول . وهذه الحماية " تعني التمتع بما يتمتع به الاجانب من امتيازات في الدولة العثمانية اى التمتع " برعوية " دولة من الدول الاوربية .

ولقد عملت الدول الاوربية،منذ ان اتضح لها ضعف الدولة العثمانية،على تأليب الطوائف المسيحية المختلفة في الوطن العربي ضدها ، فترى ان روسيا تفسر بعض بنود معاهدة " كوشوك قينارجة " ١٧٧٤ ، بأن لها حق حماية الرعايا الارثوذكس، وفرنسا بحكم علاقتها الودية مع الدولة العثمانية ،وصلاتها الخاصة مع الموارنة ،ادعت حماية الرعايا الكاثوليك ،وانكلترة حماية الرعايا البروتستان . وبذلك كانت هذه الدول تستغل اى حادث داخلي بين الدولة العثمانية ورعاياها المسيحيين لتحشر انفها فيه . وما حرب القرم عام ١٨٥٣،الا نتيجة لمثل هذه التداخلات ذات الطابع الديني-السياسي .

ان تدعيم العثمانيين لانقسام المجتمع على اساس الدين ،وتنظيمه تنظيما طيبا ، جعل الجماعات الدينية القائمة تتحرك في نطاق هذا المجتمع وكأنها مجموعات سياسية متمايزة ،حتى ان كثيرا من الرحالة الذين زاروا الامبراطورية العثمانية اطلقوا على تلك الجماعات تعبير "الامم " . ويبدو ان الحياة المستقلة التي تركت لها ،والحرية التي عاشت فيها ، اخرجتها من كونها طوائف عقائدية فقط ،فتحولت الى منظمات اجتماعية، تتنافس فيما بينها من اجل التملك، أكان الارض،او المال . وهكذا نما بين تلك الجماعات "مركب الاقلية "،الذي يجعل هذه الطائفة او تلك،تفسر اية حركة ، او اشارة من الطائفة الاخرى ، بالعداوة والتحدي ،ويدع كل طائفة متضامنة متضافرة فيما بينها . وقد اثر هذا الوضع بخاصة على حالة الريف ،اذ ولدعدم الاستقرار في نفوس الفلاحين ،وفكك مفهوم الوحدة الاجتماعية المستندة الى وحدة الارض . وزاد الامر خطورة عجز الدولة العثمانية في فترة ضعفها عن السيطرة على الحال في المناطق الجبلية بخاصة ، وعن توطيد الامن ،فأخذت كل طائفة تدافع عن وجودها ضد الطائفة الاخرى،لا بالتكتل فحسب ،وانما بشن الغزوات على بعضها . ويتضح هذا الامر تماما في لبنان حيث كان النزاع قائما بين الموارنة ،والطوائف المسيحية الاخرى ، وبين الموارنة والدروز .

هذا عرض موجز لبعض الطبقات الاجتماعية في المجتمع العربي في اواخر القرن

الثامن عشر . اما الاحوال الاخرى الاجتماعية ، وبخاصة احوال المرأة ، فيمكن القول بأنها بصفة عامة كانت تعيش " حياة البيت " ، في اطار الاسرة ، منعزلة الى حد كبير عن الاجواء الخارجية العامة التي يعيشها الرجل . ولا فرق جوهري في ذلك بين المرأة المسلمة وغير المسلمة . ولكن هذا لا يمنع من القول ، ان القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين ، قد رأيا بعض النساء العربيات الشاعرات والعالمات ، والمؤثرات في ميدان السياسة ، بل ان احداهن استلمت مشيخة الطب في مصر(١) . كما ان النساء في الريف كن يساعدن الرجل في عمل الحقل ، ولا يضعن الحجاب الا على الرأس . وقد يعملن في غزل القطن ، والصوف ، وتربية دود القز . وكذلك المرأة البدوية .

وكان للاسرة في المجتمع العربي افراحها واحتفالاتها المتشابهة في معظم الاقطار العربية ، مع بعض الاختلافات المحلية . كاحتفالها بزواج اولادها ، وميلاد الاطفال ولا سيما الذكور منهم . ويحتفل المسلمون دون المسيحيين بختان البنين ، وبختم الاولاد للقرآن الكريم (اى الانتهاء من تلاوته وحفظ بعضه) ، وبالعودة من الحج(٢) ويكون الاحتفال باقامة الزينات ، والطبل والزمر ، والغناء والرقص . وتوليم الولائم ، وتوزيع الحلويات ، ودعوة الاهل والاحباء ، ولبس الملابس الزاهية والفاخرة ، وانشاد الاناشيد الدينية احيانا .

وبالاضافة الى تلك الاحتفالات الاسرية ، هناك الاحتفال بالاعياد الدينية العامة كعيد الفطر ، والاضحى ، وعيد المولد النبوي عند المسلمين ، وعيد الميلاد ، والفصح عند المسيحيين ، وغيرها .

وخلاصة القول على الرغم من الانقسام الطائفي في بعض اجزاء الوطن العربي ومن التباين الحضري (حضر وبدو) فان المجتمع العربي مجتمع موحد . والعامل الرئيسي في بث روح الوحدة بين اطرافه ، وحدة الخلية الاولى ، التي تركب وجوده ، وهي

---

(١) انظر ليلى الصباغ . " نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في العصر العثماني الاول " في مجلة (اوراق) التي تصدر عن المعهد العربي الاسباني للثقافة في مدريد العدد الثالث ١٩٨٠ ، ص ٤٩ — ٦٣

(٢) انظر حول هذه الاحتفالات في دمشق ، ليلى الصباغ ، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني دمشق ١٩٧٣ ، ص ١٥٥ — ١٦٠ .

الاسرة ، فالاسرة العربية في تركيبها العام ،وحياتها ،واكثرعاداتها ،وروابـــط افرادها ،لا تختلف مع اختلاف الطبقات ،والطوائف ،والاقطار ،فهي ذاتها حتـــى عند (اهل الذمـة). واذا وجدت اختلافـات ما،فهي فروق سطحية تمس مظاهـــر الحياة لا اعماق البناء .

****

****

مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعيـة



الفصل السادس

الحياة الثقافية للعرب في العصر الحديث

أولاً: الحياة الفكرية

لم تقوّم الحياة الفكريه في[1] المجتمع العربي في العصر الحديث بعد، التقويم العلمي الموضوعي ،ولكن الدراسات قد اخذت مجراها في هذا الباب ، ويمكن ان تطرح بعض الحقائق التالية :

لقد اشير سابقا ،ان الفكر في البلاد العربية قد مال منذ القرن التاسع/الخامس عشر الى ذيول ،واتجه اصحاب القرائح نحو التقليد ،والتركيب ،والجمع ،اكثر مما اتجهوا نحو الابداع والتجديد . فعندما ضمت غالبية البلدان العربية للدولة العثمانية كانت تعاني اذاً تلك الحالة ،ولم يولّد الحكم العثماني لدى متعلميها ردود فعل فكرية مستجدة ،لان البنية الفكرية للدولة الجديدة مشابهة للبنية الفكرية في البلاد العربية ، بل مستقاة منها ،ومن ثم فلم تكن (تحديا خصيبا) للفكر العربي ،وان الفقر الاقتصادي العام ،والاضطراب السياسي ،وعدم تشجيع الدولة للابتكارات الادبية والعلمية ،كانت كلها عوامل ساعدت على تجميد الحياة الفكرية في اطرها السابقة . ولكن يجب الا يستنتج من هذا ،ان العثمانيين ضربوا نطاقا غليظا على الفكر والتعليم في البلاد العربية ،او اغلقوا مدارس العلم ، او وقفوا سدا منيعا في وجه التأليف والابتكار

---

(١) انظر ــ ليلى الصباغ : المجتمع العربي السوري ،ص ١٦٥ فما بعد .
ــ المؤلفة نفسها : نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في العصر العثماني الاول (المشار اليه سابقا) .
ــ ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري الجزائر ١٩٨١، ج ١ .

Haji (Mohammad) ; L'activité intellectuelle au Maroc à l'époque Sa'dide
Thèse de Doctorat d'état à l'université de paris, Sorbonne, 1976

بل انهم في الواقع تركوا انماط الحياة الفكرية تأخذ مجراها السابق ،وابقوا للمدارس فيها اوقافها ،وعملوا من جانبهم على انشاء اخرى في مدنهم ،وفي المدن العربية في المشرق والمغرب على السواء ،واوقفوا عليها الاوقاف الوفيرة ،كما شيدوا الجوامع والمساجد . فالتقليد ،والمحافظة ،اللذان عاشهما المجتمع العربي في هذه الحقبة كان باراد ته الى حد كبير ،فهو كان يتطلع الى الماضي اكثر مما يتطلع الى الحاضر ، وينظر اليه على انه المثل الاعلى للانتاج الحضاري ،والنموذج الاسمى لعطاء الفكر. ولذا من البد هي ان تغلب على انتاجه سمة التقليد لذلك الماضي ،ولا سيما انه لم يطرأ على حياته جد يد ذو بال ،ولم تتسرب الى وسطه نفحات حضارة مغايرة تتحداه.

١ـ التعليم : هو أول مظهر من مظاهر الحياة الفكرية . وقد كان في هذا العصر الحد يث كما كان عليه في السابق،تعليما د ينيا بالدرجة الاولى . وساعد على تثبيت هذا الاتجاه نحو التعليم الد يني اكثر من غيره ،التقليد التعليمي السابق ، مضافا اليه ،الازمات التي اجتاحت البلاد العربية الاسلامية من القرن الخامس والى العاشر الهجريين/ من اواخر الحاد ي عشر والى السادس عشر الميلاد يين،من اكتساحات تترية ،وغزوات صليبية ،وكوارث طبيعية ،ونكبات اقتصاد ية ،ومجاعات،وأوبئة وغيرها . فكل هذه الامور جعلت الناس يلجؤون الى الد ين كملاذ لهم من الاضطرابات الد نيوية . ويجب الا ينسى ابدا ان الد ين الاسلامي قد استوعب حياة الفرد والجماعة بكل تفاصيلها ،فلا بد من تعرف د قائقه لتعرف الحياة .

وكان التعليم الد يني الاولي ،يتم اما في البيت على يد "شيخ "يقوم بهذا العمل اوعلى يد رب الاسرة اذا كان عالما ،او في "الكتاتيب" و "د ور القرآن ". وفي هذه المرحلة كان الطفل يتعلم القرآن ،واصول الد ين ،وقواعد اللغة ،بطريق الاستذكار والحفظ . واذا ما انقطع الطالب عن التعليم بعد هذه المرحلة ،وانخرط في صناعة ما ،او في التجارة ،فانه كان يكمل ثقافته العامة عبر (الصنف) الذى ينتسب اليه ، او بمعنى آخر النقابة التي ينتمي اليها ،والتي كان معظمها يرتبط بالاخيات الصوفية .

أما التعليم العالي،فكان يجري في المدارس ،والجوامع ،وهي تختلف في حجمها واهميتها ،بحسب (الاوقاف) التي تنفق عليها ،والقيمة العلمية لاساتذتها . ولقد اهتمت الد ولة العثمانية بهذا النوع من التعليم ،فأنشأ السلطان سليمان القانوني في

العاصمة استامبول ،مدرسة تضم دارا للحديث ودارا للطب . ونظم التعليم الديني في اثنتي عشرة درجة . واذا كان أي طالب يطمح في الوصول الى احد المناصب القضائية العالية،فانه كان عليه ان ينال اكبر عدد من الاجازات " الاثنتي عشرة" . هذا ما يخص التعليم الديني ،اما التعليم "العلمي" البحت فان "العلماء الدينيين" لم يكونوا ينظرون نظرة ارتياح وقبول الى اى علم من العلوم العقلية غير الطب. والطب نفسه كان يدرس في الحقيقة بنفس معلومات العصور السالفة مع بعض التطوير المأخوذ من النظريات الحديثة التي بدأت تسود اوربا . الا ان هذه المدرسة ضعف مستواها مع الزمن ،بدل ان تتفتح وتثمر ،ويرجع هذا الى عوامل عدة ،منها محاربة حرية الفكر . فقد كانت الدولة تضطهد كل من يأتي بجديد وبخاصة في النواحي الفلسفية والدينية ،وقد م انتشار الطباعة بين المسلمين ،على نطاق واسع حتى القرن الثامن عشر .

والى جانب مدرسة استامبول، هناك مدارس دينية عديدة في المدن التركية ،كبروصة وادرنة ،بل وفي استامبول نفسها ،انشأها السلاطين قبل سليمان ،وكانت هناك المساجد الكبرى في مختلف المدن العربية الرئيسية ،والمدارس ،تقوم بدورها دون عائق . ولم يكن لها بالطبع برنامج ثابت للدراسة،الا ان الطالب — ويكون قد حفظ القرآن — يقوم بدراسة علوم الفقه والحديث ،والتفسير فيها . ويستمع الى محاضرات الشيوخ الكبار في اصول الدين والشريعة ،ويتابع تفقهه بالعلوم اللغوية ، واحيانا يدرس المنطق والحساب ،والهندسة ،والطب ،ومن كان يريد ان يصبح ناسخا او كاتبا فان بعض المدارس كانت تضيف (علم الخط) ،الذى كان صناعة فنية راقية ايام العثمانيين ، وقد عمل الاتراك على رفع مستواها . ومن اشهر جوامع العلم في الوطن العربي " الجامع الازهر " الذى كان اغنى المساجد بأوقافه،وما يأتيهمن هدايا . فقد كانت الدولة تمنحه كمية من المال تصرف على مدرسيه ،وعلى الفقراء في شهر رمضان وعلى طلابه ،كما ان بعض الامراء ،والبكوات ،والمواطنين الاغنياء ،يغدقون عليه هداياهم . هذا بالاضافة الى الهدية السنوية التي كان يتلقاها من سلطان المغرب. ولقد كان يضم طلابا عديدين من القاهرة ،ومن اقاليم مصر المختلفة ،ومن البلدان الاسلامية الاخرى . ولشهرة الازهر فان المدارس ،والمساجد الاخرى ،في القاهرة عدت تابعة له ،وان تمتعت ببعض الاستقلال في اوقافها . ولكن الملاحظ ان جميع المدارس والجوامع في مصر كانت تأخذ مشايخها من الازهر . واشهر تلك المدارس

الاقليمية النشيطة : مدرسة رشيد ،ودمياط ،والمنصورة ،وطنطا

اما في بلاد الشام فان التعليم كان اقل تمركزا ، فالى جانب المركزين الرئيسيين في دمشق وحلب كان هناك مدارس في القدس ونابلس، ومساجد جامعة في كل المدن تقريبا . ويعدد "المرادي" في دمشق وحدها (٤٥) مدرسة ما عدا المساجد . وكانت هذه المدينة محطا لكثير من طلاب العلم، الوافدين من الاقطار العربية الاخرى، لموقعها الهام على طريق الحجيج .

وعلى الرغم من ان العراق لم تحتفظ بتقليد في اطار التعليم، بعد قرون الاكتساح المغولي المضطربة (اي بعد عام ١٢٥٨)، الا انه كان فيها مدارس قادرة على تخريج مدرسين اقوياء في بغداد، والموصل، والبصرة . وبالاضافة الى ذلك فان المدارس الشيعية الكبرى في النجف و كربلاء ،كانت تجذب اليها الطلاب الشيعيين لا من بلاد فارس فقط، وانما من بلاد الهند، وبلاد الشام .

اما في بلاد الحجاز، فان مكة والمدينة، كانتا مركز نشاط تعليمي يقوم به شيوخ مقيمون فيها، أو زائرون من البلدان المختلفة .

ذاك في (بلاد المشرق العربي) ،اما في (بلاد المغرب العربي) ،فقد قام (جامع الزيتونة) في تونس ،و (جامع القرويين) في (فاس) في المغرب الاقصى ،و (الجامع الكبير) ،و (الجامع الجديد) في الجزائر ،بدور مماثل لما قام به (الجامع الازهر) ،في القاهرة ،و (الجامع الاموي) بدمشق ،من حفظ للتراث الثقافي العربي الاسلامي ،وبث تعليمي متواصل له .

ولابد من التأكيد، ان بلاد المغرب العربي التابعة للدولة العثمانية ،قد رأت خلال هذه المرحلة نشاطا تعليميا على غرار ما كان عليه الامر في المشرق العربي . فعديد من الحكام فيها قد انشؤوا المدارس واوقفوا لها الاوقاف الكثيرة ،كالمدرسة (القشاشية) في الجزائر ،و(المدرسة المحمدية) في (معسكر) في (الجزائر) وغيرها ،وفي تونس (المدرسة اليوسفية) ،و(المدرسة المرادية) وغيرها ،هذا بالاضافة الى انشاء عدد من الجوامع والمساجد في مختلف المدن كانت تقوم هي الاخرى بمهمات تعليمية(١) .

(١) انظر التاريخ الثقافي للجزائر . مصدر اشير له سابقا ج ١ ،ص٢٢٢ فما بعد .
و ـ محمد الهادي العامري . تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار ـ والذبول . تونس ١٩٧٤ ،ص٢٣٢ ،٢٣٣ ،٢٣٧ ،٢٣٨ ،٢٧٩ ،٢٨١ .

اما في المغرب الاقصى ،فان دوله الاشراف السعديين ،والشرفاء العلويين ، لم تقصّرا في تشجيع التعليم،والعلم،والعلماء ،ولا سيما في عهد "احمد المنصور"،الذي اتصل بعلماء المشرق ،وبعث بمن يجمع له الكتب الهامة من بلاد الشام ومصر .

وكانت معظم المدارس ،والمساجد الجامعة ،المشار اليها ،تقدم لطلابها منحا مالية ،بل ان بعضها كان يقدم لهم السكن فيها مجاور ،تحت اشراف مشرف خاص، وكان الازهر " مثلا،لكثرة عددهم،يوزعهم بين " الاروقة " ،او بين اماكن سكن تتمتع باوقاف . وقد قسمت تلك الاروقة بحسب المناطق الجغرافية التي كان يفد الطلبة منها ،وكان لكل واحد منها شيخه،وهيئته التعليمية . واشهر الاروقة "رواق الاتراك" ورواق الشوام " و "رواق المغاربة "،وكان هناك رواق كبير للعميان .

وبالاضافة الى تلك المدارس والمساجد الجامعة ،كان في انحاء الوطن العربي "مدارس" تلقن اصول الطرق الصوفية المختلفة . وقد اوقفت لها هي الاخرى الاوقاف الواسعة ،واطلق على بعضها اسم "الخانقاه" اى "دار الصوفية" ، وعلى بعضها الاخر اسم " الربط " ،و "الزوايا " . وكان لهذه الربط الصوفية شيخها المتفقه في اصول طريقته الصوفية،وتعاليمها ،وحوله عدد ضخم من "المريدين" . وقد كان يفد الى هذه الزوايا،والخوانق،عدد كبير من الصناع يأخذون منها العلم الديني واصول التصوف وبذلك يكملون ثقافتهم .

ب ـ اما التيارات الفكرية التي كانت تتجاذب المجتمع العربي المسلم في العصر الحديث،فهي ترتبط ارتباطا كبيرا بالحياة الدينية الاسلامية ،ويمكن تصنيفها ضمن ثلاثة تيارات رئيسية :

أولها ـ التيار الديني السني : ويمثله اعضاء "المؤسسة الدينية" اى "العلماء". وهدفه المحافظة على المعتقدات والعبادات الاسلامية كما كانت عليه في عهد الرسول،والخلفاء الراشدين،ومقاومة البدع الفكرية،السياسية،والاجتماعية .

ثانيها ـ التيار الديني التصوفي الذي تمثله الفرق الصوفية المختلفة و (العديدة) وشيوخها ،في الخوانق ،والزوايا ،والربط . وقد لاقى هذا التيار من الدولة العثمانية تأييدا وتشجيعا ،ونموا،ونشطا بخاصة في بلاد المغرب العربي بكل اقطاره ،مع انه لاقى في المغرب الاقصى ـ كما ذكر سابقا ـ مقاومة من بعض السلاطين السعديين،والعلويين على السواء .

ثالثها ـ التيار الديني الشيعي وتمثل بصفة خاصة في سورية ،والعراق ،واليمن، في الفرق الشيعية المعتدلة ،والمتطرفة ،المتمركزة في المناطق الجبلية المرتفعة . وقد تلقى هذا التيار ضربة قوية بانهزام الصفويين امام العثمانيين ،وبخروجهم من العراق ،فانحسر ،وتحول في العراق وبلاد الشام الى تيار محدود الاثر ،لضعف قواه السياسية والمعنوية ،ولمقاومة الدولة العثمانية لاصحابه ،وضربها على ايديهم بشدة . ولكن نجاح " الائمة الزيديين " في اليمن ،في التصدي للدولة العثمانية ، وطردها من اليمن،في بداية الثلث الثاني من القرن السابع عشر ،عدّل الكفة . وقد كان لهذا التيار مفكروه في اليمن وعلماؤه ،ودعاته .

اما التيار السني ، فقد ألمح اليه عند البحث في طبقة العلماء . ولا بد من الاضافة ،الى ان فئة كبيرة من العلماء العرب ،وفي جميع الاقطار العربية المشرقية والمغربية ،ومن المذاهب الاربعة ،قد قدمت عطاءات خصبة في ميدانه ،وانتاجا وفيرا ،لم يدرس بعد الدراسة الكافية ،وان كان قد حكم عليه بصورة سابقة للبحث والاستقصاء ، بأنه انتاج تقليدي . وقد يكون ابرز من مثله ،ممن كان لآرائه صدى ثوري عملي واسع ،" محمد بن عبد الوهاب " زعيم الحركة الوهابية ، وقد طرح موجز لمبادىء تلك الحركة عند الحديث عن الحياة السياسية في (نجد) .

ولا بد من الاشارة هنا الى انه في هذه المرحلة حدث احتكاك مباشر على الارض المغربية بين " المذهب المالكي "وهو مذهب أهل المغرب ،و"المذهب الحنفي" الذي ادخلته الدولة العثمانية الى ليبيا ،وتونس ،والجزائر ،عن طريق القاضي ،والمفتي، الحنفيين اللذين كانت ترسلهما من العاصمة .

وحول التيار الصوفي واثره في الفكر العربي الاسلامي ،فيمكن ان يقال بايجاز، بأن هذا التيار كان في بدئه زهدا ،وتقشفا ،واعراضا عن الدنيا وزخرفها ،وعكوفا على العبادة ، وتفانيا في حب الله،والاخلاص لاوامره ،لم يلبث أن تطور مع الزمن واصبح مزيجا من الزهد ،والفلسفة الناجمة عن مزج الفلسفة الافلاطونية ،والافلوطينية ، والمؤثرات الهندية ،وبعض المعتقدات المسيحية ،بالتعاليم الاسلامية . ونتج عن هذا المزج قولهم بمعرفة كاملة لطبيعة الله وصفاته،لا عن طريق العقل ،وانما عن طريق القلب ،والكشف الايحائي .

ولن يتطرق في هذه العجالة لمعتقدات الصوفية فالبحث طويل ،ولكن من المعروف انها بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي اخذت تنتظم في طرق مختلفة ،لها اتباعها،ومريدوها،الذين يعيشون في الخوانق ،والربط،والزوايا . والاتباع بدورهم ،يؤسسون فروعا لتلك الخوانق ،في اراض اخرى ،ومدن عديدة ،وقرى كثيرة . وبذلك غدا التصوف وكأنه مهنة ،يضم جماعة من المؤدبين والمعلمين ، ينافسون العلماء في عملهم ،ويتمتعون بنفوذ واسع في اوساط النقابات الصناعية والتجارية بخاصة . وقد عرف كبار المتصوفة ،الذين كانت لهم طرقهم ،وكراماتهم(اى قواهم الخارقة التي تمكنهم من معرفة الغيب والمجهول) باسم (الاولياء) و (اهل الغيب) ،وقد غلا المتصوفة بآرائهم حتى اعتقدوا بأن العالم مستمر في وجوده بسبب تدخلات هؤلاء الاولياء ورعايتهم . ولم يعمل بعض فقهاء السنة على مقاومة هذا التيار الصوفي ،لانهم وجدوا في انتشاره بين الطبقات المتوسطة ،وسيلة لتثبيت معتقداتهم السنية ضد الافكار الشيعية . ولكن لما تشعبت الطرق الصوفية ،واصبح على رأس بعضها قادة كانوا ذوي ثقافة دينية ضيقة ،ومعرفة قليلة بطقوس السنة ومعتقداتهم ،بل ان بعضهم كان لايزال يحمل في ذاته معتقداته الاصلية قبل دخوله الاسلام ،فمزج معتقداته بمعتقدات الاسلام ،وظهر تراخ في الاصول العميقة للدين وافكار لاتتلاءم معه ،عندها استفاق بعض العلماء السنة .لاسيما وقد وجدوا انفسهم امام طوفان من الفرق الصوفية ،ورأوا ان الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه الطرق الجديدة هو استخدام نفوذ الطرق المعتدلة منها ،والعمل على توسيع دائرة عملها، ومضاعفة تأسيس المدارس السنية ،وتدعيم وسائل نشرها الديني وتعليمها ،بل ان بعض اولئك العلماء قام يحارب تلك الطرق علانية وقاسى في سبيل ذلك ،الاضطهاد من الدولة الحاكمة ،مثل "ابن تيمية" الذي قام في دمشق في عهد المماليك (٦٦١ — ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣—١٣٢٨ م) ،وشنها حربا فكرية على البدع المتفشية تحت تأثير الطرق الصوفية المختلفة .

وجاءت الدولة العثمانية فأيدت هي الاخرى رسميا الطرق الصوفية ،وحمتها ، واعتمدت هي نفسها على "الطريقة البكتاشية" و "الطريقة المولوية" . ولقد سعت الدولة العثمانية لاحلال الوفاق بين العلماء،والاخيات الصوفية ،وبالفعل فانه حدث ابان الحكم العثماني،وحتى القرن الثامن عشر،نوع من التوافق المستكين بين التيار

الفكرى الصوفي والتيار السني ،مما ادى الى اتساع الساحة التي اكتسبها التصـــوف، حتى ان عددا من العلماء انفسهم انخرط في الفرق الصوفية العديدة ،واختلط الامر على افراد الشعب فأخذت مختلف طبقات المجتمع الاسلامي تنتمي هي الاخرى الى تلك الفرق ،وغدا للتصوف مراكز دائمة ،ونشاط مستمر ،واصبح من الطبيعي جدا بالنسبة لذاك العصر ان يربط كل فرد نفسه بطريقة من الطرق . وهكذا يظهر ان التيارين الفكريين الدينين السالفي الذكر ،وهما يختلفان في كثير من الآراء والمعتقدات،كانا يقومان جنبا الى جنب في ايام العثمانيين ،بل كان ينظر اليهما على انهما تيار واحد ، فالمعارضة اذاً قد خفت صوتها بالتدريج ،بل وتلاشت امام انتشار الخرافات والبدع الجديدة ، وسيطرت الفرق الصوفية "الشعبية" التي لم تحتفظ من التصوف الاسلامي الاول الا ببعض مظاهره السطحية ،وغدا من الصعب التمييز بين المسجد والزاوية .

ولقد كان لهذا الامر نتائجه الخطيرة ،فهناك اولا عدد كبير انتسب للطـــرق الصوفية والتحق بزواياها ،وربطها ،وبعضهم انصرف انصرافا كليا للعبادة والزهـد ، وبذلك ضاع على المجتمع عقول تفكر بحرية تامة ،وأيد عاملة ضرورية لبنائه . ثانيا" لم ير العامة من الناس في "الصوفية" الافكار العميقة والعلم الغزير ،وانما اعجبهم منها حلقات الذكر،وترديد الاوردة (جمع ورد) والادعية ،والتمسح بقبور الاولياء ،وشرب القهوة ،وتعاطي المخدرات ،واظهار الكرامات . ثالثا" ساد لدى الجماهير العربية اعتقاد عميق بالقدر المطلق . فطالما ان الاولياء هم ،اهل الغيب ولهـــم احكامهم،وكراماتهم،وهم الذين يدفعون هذا العالم ويحركونه،فلا مسؤولية اذاً للافراد العاديين ،بل ان اي شكوى هي معاندة لقدرة الله ،واحسن ما يفعله الفرد الاستكانة للصبر ،وتحمل الضيم بصمت ،والقول بـ "القسمة والنصيب" .

وضد مثل تلك الاتجاهات الفكرية التصوفية ، قامت حركة " محمد بن عبد الوهـاب" في القرن الثاني عشر / الثامن عشر ،متابعا حركة "ابن تيمية" في العهد المملوكي (القرن الثامن / الرابع عشر) . وهذه الحركة في اعماقها ارتداد الى "الفكـــر العربي الاسلامي الاصيل" او تحدي هذا الفكر للفكر العربي الاسلامي التقليدي" الذى انحرف في بعض جوانبه عن الاصول .

ويجب الا يفهم من العرض السابق ،ان التعليم والعلم قد اقتصرا على الناحيـة الدينية فحسب . فمع ان تيارات الفكر الديني هي التيارات النشيطة في العصـــر

الحديث ،وهي الاطغى ،الا انه رافقها تيارات فكرية اخرى ؛فهناك " تيار العلوم اللغوية العربية " . والقارئ في كتب التراجم العربية ،في المشرق والمغرب ،يدهش من كثرة العلماء الذين درسوا علوم اللغة العربيه ودرّسوها ،وألفوا فيها . وقد اظهروا اهتماما بقواعد اللغة العربية ،وببيان الدخيل من الالفاظ الاعجمية في اللغة العربية ،وكأنهم كانوا ينبهون المجتمع العربي الى الخطر الذى كان يتهدد اللغة العربية ،من استخدام اللغة التركية لغة رسمية في العاصمة استامبول ، ومن اتجاه بعض المثقفين الى تعلم التركية والفارسية ،ومن شيوع بعض الكلمات العامية وتداول العامة لها . وبرز في هذا الميدان العالم "ابو بكر الشنواني" (المتوفى ١٠١٩هـ/ ١٦١١) و "يوسف المغربي " (المتوفى ١٠١٩هـ/ ١٦١٣م) ،و "الخفاجي " (المتوفى ١٠٦٩ هـ/ ١٦٥٩م)،وغيرهم .

وقد وازى "تيار العلم اللغوي" "تيار العلوم العقلية"،كالرياضيات ،والفلك والطب ،والكيمياء ،وغيرها . ومع ان التيارين الديني واللغوى غطيا عليه ،لاهتمام مؤرخي تلك الحقبة بالنابهين في ميدانيهما اكثر من اهتمامهم بالنابهين في العلوم الاخرى ، فالباحث في كتب التراجم يعثر على عديد من العلماء ،درس ،وبحث،وألف واخترع . ولا بد من البحث عن انتاج هؤلاء وتمحيصه ،ولا سيما ان مطالع زلك البحث ،شرعت تغير الفكرة السائدة عن نضوب هذه المرحلة من المبتكر والجديد . ومن هؤلاء العلماء الذين كشفت الدراسة عن انتاجه العلمي المبدع في ميدان الهندسة الميكانيكية ،الراصد الدمشقي "تقي الدين بن معروف " (المتوفى ٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م). ومن يدقق في كتب التراجم العربية في هذه المرحلة ،يخرج بحصيلة خصبة عن نشاط في ميدان علم الحساب ،ولا سيما انه كان مرتبطا بعلم الفرائض(علم تقسيم التركات) وفي ميدان الجبر والمقابلة ،والهندسة ،والفلك ،وعلم الكيمياء وغيرها . وبجنب الا ينسى " علم الملاحة والبحار "الذى بلغ على ايدي العرب ،في بداية هذا العصر الحديث شأوا بعيدا ،في الجنوب والخليج العربيين ،وفي الشرق الافريقي العربي ، وتمثل بشخصيتي " شهاب الدين احمد بن ماجد " و " سليمان المهري " . والاول هو الذى فاد بمعرفته الجغرافيه والفلكية ،وتعمقه في معرفة البحار الهندية ،وارواته المتقدمة ،" فاسكو دغاما " الى الهند .

وكان للطب ايضا رواده من العلماء والمؤلفين ،وكان له مشيخات في عدد من

الفلكي العربي تقي الدين بن معروف في مرصده



المدن العربية في المشرق والمغرب ،لما كان له دور شقائه. ومن الاطباء البارزين الذين اعترف بخدماتهم،ومهارتهم،ومؤلفاتهم ،"داود الانطاكي" (المتوفى ١٠٠٨هـ / ١٦٠٠ م)، وله كتاب "تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب" وتعرف بتذكرة الانطاكي و"عبد الرزاق بن حماد ونس" الجزائري، المولود في ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م، والذي قدم الطبيب الفرنسي "غبرييل كولان" رسالة دكتوراه عنه .

اما مستوى تلك العلوم ،اذا ما قيس بما انتجته الحضارة العربية الاسلامية سابقا، او ما انتجته الحضارة الاوربية في تلك المرحلة ،فأمر لم يدرس بعد بالتحميص الكامل .

وفي ميدان "العلوم الاجتماعية"، وبصفة خاصة "التاريخ" و "الجغرافيا"،فان المراجع للمؤلفات التاريخية العربية والجغرافية ،يمكنه ان يتعرف ذلك الانتاج الغزير والمتنوع في بابها . والدارس دقة لذلك الانتاج ،يمكنه ان يحكم انه في معظمه انتاج علمي ،توخى فيه مؤلفوه الوصول الى الحقيقة .

واذا ما تطرق الى "الادب العربي" في هذه الحقبة ،فانه واضح من مخلفات كتب الادب ،ان البلاد العربية كانت تعج بعديد من الشعراء والناثرين ،الذين لم يقوّموا حق التقويم بعد . وقد ترجم لبعض هؤلاء الادباء كتب التراجم في هذه الحقبة،مع غيرهم من المفكرين ، كما خص قسما منهم "الخفاجي" المشار اليه آنفا ، بمؤلفين هما "ريحانة الالبا" و "خبايا الزوايا" ؛وتابع المؤرخ والاديب "المحبي" ، الدمشقي ذلك العمل الضخم،بكتابيه "نفحة الريحانة" و"ذيل نفحة الريحانة" .

ولا بد من التأكيد هنا ،ان من المهمات الرئيسية العالقة على عاتق الادباء المعاصرين،دراسة ادب هذه الحقبة ،من مصادره مباشرة ،ومتابعة اثره في الادب التركي المعاصر له ،واثر الثقافة التركية والادب التركي فيه .

وقد رافق الفعاليات التعليمية والعلمية السابقة ،في هذه المرحلة ،اهتمام كبير باقتناء الكتب وجمعها ،والحفاظ عليها ،وتكوين المكتبات الخاصة ،والعامة ،ووقفها على طلبة العلم ،حتى راجت تجارة الكتب .

كما كان جزءا من تلك الفعاليات تبادل العلماء وتنقلهم بين البلاد العربية، والعالم الاسلامي، ولاقامة طويلة او قصيرة :فمن الشام الى الحجاز ،وبالمقابل ،ومن

الشام الى مصر،وبالمقابل ،ومن اليمن الى الحجاز ،ومن مختلف الاقطار المغربية الى المشرق . ومن المغرب والمشرق الى بلاد الروم والمدن العلمية فيها،كاستامبول ، وبروصة ،وادرنة .

واذا كانت تلك هي بعض صورة من الحياة الفكرية لدى المسلمين في المجتمع العربي ،فانه يمكن القول ان الطابع الديني في العلم والتعليم كان هو الاغلب ايضا لدى اهل الذمة ،والمسيحيين منهم بخاصة .ويلاحظ ان معالم نهضة تعليمية وادبية، بين الاخيرين ،ولا سيما في بلاد الشام، قد ارتسمت في القرن الحادي عشر/ السابع عشر . وقد يكون من عواملها الاحتكاك بالجاليات الاوربية التجارية والدينية ،وتسرب البعثات التبشيرية الكاثوليكية الى لبنان وحلب ،ودراسة بعضهم(بعض المسيحيين)في اوربا ،ومنهم العوارنة،الذين كان البابا قد اعد لهم مدرسة خاصة في روما . ويضاف الى هذا،انشاء رجال الدين الوطنيين من الكنائس الشرقية ،المدارس،لتعليم ابناء طوائفهم ،منعا لهم من الزيغ والصباً عن مذهبهم ،فيما لو درسوا على يد المبشرين الكاثوليك . وقد تم ادخالهم الطباعة الى بلاد الشام في هذه المرحلة .

وخلاصة القول ،كانت الحياة الفكرية في البلاد العربية في العصر الحديث،مع كل ما يبدو ظاهرا من تقليديتها ،غنية وملونة ،أكان لدى المسلمين من العرب ، او اهل الذمة . واهم ما فيها ،ظهور تيار خفي يدعو للعودة الى "الاصول "في الدين واللغة ،والادب ،والتاريخ وغيرها . وهذا التيار الخفي هو الذي نما في الحقبة المعاصرة ،بما رفد به من مؤثرات جديدة ،ليطرح "فكر اليقظة العربية .

ثانيا- الحياة الفنية

لا تزال الدراسات في ميدان الفن العربي الاسلامي في العصر الحديث قليلة ، ولكن يمكن القول بايجاز ،انه مع الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في هذه الحقبة ،فان الحياة الفنية لم تنضب فيها ،شأنها في ذلك شأن مناحي الحياة الاخرى ،ولا سيما الفكرية . فالنشاط الفني ،العربي الاسلامي ،بخصائصه السابقة، ظل يتابع مجراه ويؤكد ذاته ،أكان في الميدان المعماري ،والزخرفي ،والموسيقي وغيره . بل يمكن القول انه قد دخلته عناصر جديدة ،نتيجة التأثر بالمدرسة الفنية العثمانية"،او بما حمله "العرب المسلمون "من الاندلس الى المغرب ،حيث لجؤوا

بعد طردهم من اسبانيا . وقد يكون ابرز ما يلاحظ في الناحية الفنية في العصر الحديث الجوانب العمرانية .

و " المدرسة الفنية العثمانية " بصفة عامة ، هي مزيج من مؤثرات فارسية وبيزنطية وسلجوقية ، بل وبعض الاوربية . وقد تميزت المدرسة العمرانية منها بالذات ، بانها مزيج من الطرز السلجوقية والبيزنطية . وقد وصلت هذه المدرسة الى اوجها الفني في عهد السلطان " سليمان القانوني " ، وعلى يد المعمارى الكبير " سنان " ، الذي بنى له مسجده الضخم والفخم (السليمانية) في استامبول ، والذي بنى على نمطه في دمشق التكية السليمانية ومسجدها . وقد ذكر عنه انه انشأ واحدا وثمانين جامعا كبيرا ، واثنين وخمسين مسجدا صغيرا ، وخمسا وخمسين مدرسة ، وسبعة معاهد لدراسة القرآن ، وسبع عشرة تكية ، وثلاثة مشافي ، وسبعة كتاتيب ، وسبعة جسور ، وثلاثة وثلاثون قصرا ، وثمانية عشر خانا ، وخمسة متاحف ، وثلاثة وثلاثين حماما ، وتسعة عشر ضريحا او قبة ، في انحاء الامبراطورية الاسلامية (١) .

وقد تكون هناك مبالغة في تلك الارقام ، الا انها توضح ازدهار الحركة العمرانية في الدولة العثمانية في القرن العاشر/ السادس عشر ، وفي عهد سليمان القانوني بالذات ، وتنوع اهتماماتها . ومن مراكز الاهتمام الاولى فيها بناء المساجد .

وقوام " المسجد " في هذه المدرسة تأثر بـ " كنيسة اياصوفيا " في القسطنطينية التي حوّلت الى جامع ، ومنمط بناء المساجد في العالم الاسلامي . فهناك صحن واسع ، وحوله اروقة عليها قباب صغيرة ، ثم قاعة كبيرة للصلاة (المصلّى) ، تعلوها قبة ضخمة ، وتنتهي من طرفها بتجويفين واسعين يعلوهما نصف قبة . وعلى طرفيها غرف صغيرة ضيقة ، مغطاة هي الاخرى بسطوح منحنية ، او ارباع قباب .

وقد اعتمدت المدرسة الفنية العثمانية على الزخرفة بانواع الخطوط العربية . وقد اوجد العثمانيون الخطوط المدورة ، بحيث تبدو العبارة المكتوبة على هيئة طائر ، او شكل مقصود . واحسن مثل على ذلك " الطغراء التركية " التي كانت الدولة

---

(١) — كارل بروكلمان . تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي بيروت ١٩٤٩ ، ج ٣ ، ص ٧٢ .
— زكي محمد حسن ، فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ١٣٦ .

تتوج بها فرماناتها واوراقها الرسمية ،وتسكها على نقدها الذهبي .

كما استندت في الزخرفة على " القاشاني " ،اى الخزف الملّون ،والمزين بتفرعات نباتية او كتابية ،وكان اللون السائد هو الازرق . والتزيين بالخزف الملّون ،كان من اسس الفن التزييني في المدرسة المغربية ايضا ،ويطلق عليه في المغرب اسم " الزليج " وقد كان للعرب المسلمين الذين اخرجوا من ديارهم في اسبانيا ،اثر كبير في نمو صناعة " الزليج " في مجموع المغرب ،وفي تونس بخاصة .

وقد خلف السلاطين العثمانيون ،وحكامهم من الاتراك او من المحليين في هذا العصر ،وفي مختلف الاقطار العربية ،ولا سيما في فترات الهدوء السياسي والرخاء النسبي ،ابنية عديدة متنوعة . وما ذكر سابقا عن " سنان " المعمار ،يعطي فكرة عن ذلك التنوع . وقد تأثروا في بنائها بالمدرسة المعمارية العثمانية ،وبمدارس البناء المحلية . وانتشرت الابنية العثمانيه في معظم مراكز الايالات العربية ،ومدنها الكبرى . ومن العسير في هذا الموجز تقديم قائمة لما بني من جوامع ،ومساجد ، وتكايا ،وزاويا ،ومدارس ،وكتاتيب ،وحمامات ،وقصور ،وقبور اضرحة ،وجسور ،واسواق وخانات (او قيساريات ووكالات) ،ولكن يمكن القول بانهم في كل قطر عربي دخلوه ، خلفوا اثارا ما ،حتى في بلاد اليمن التي لم يستقروا فيها طويلا ،وكان الاضطراب يواكب حكمهم فيها . ولم يقتصر عمرانهم على الشؤون المدنية ،وانما امتد الى العمران العسكري ، من حصون وقلاع ،ولا سيما على طرق قوافل الحجيج . وقد اوقفوا لتلك الابنية ،وصيانتها ،ومهامها ،الاوقاف الكثيرة ،اكان ذلك في المشرق او المغرب على السواء . وقد يكون وراء تلك الحركة العمرانية اتجاها دينيا ورعا من صاحبها ، او رغبة في تثبيت نفوذ ،او للشهرة ،او استقطاب الرأي العام الاسلامي واسترضائه ، او احيانا استجابة لحاجة البلاد والسكان ،ومصلحة الامبراطورية . ومن ثم فان المدن العربية الكبيرة في عهدهم تطورت عمرانيا ،كدمشق ،والقاهرة ،وحلب ،والجزائر ، وطرابلس الغرب ،وتونس ،وغيرها .

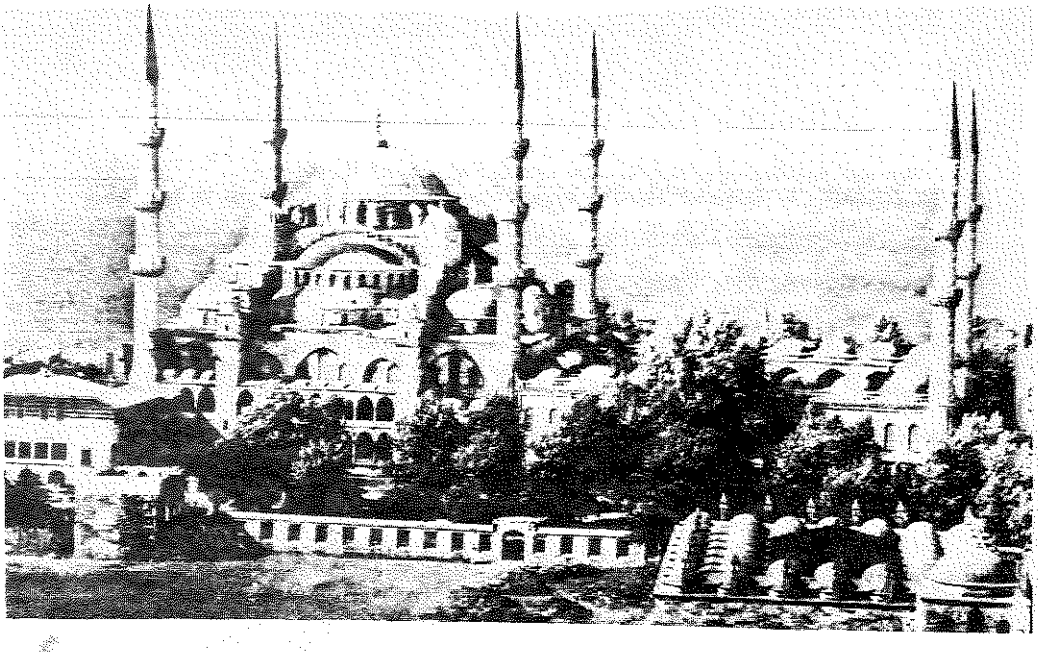
ومن ابرز المساجد التي شيدوها في دمشق ،على سبيل المثال فقط ،مسجد الشيخ محي الدين بن العربي ،والتكية السليمانية المشهورة بمسجدها ومآذنها الرشيقة ، وجامع الدرويشية ،وجامع السنانية ،وجامع مراد باشا وغيرها . كما رمموا مسجد الصخرة في القدس وزودوه بالقاشاني ،واهتموا بالحرمين الشريفين في مكة والمدينة .

ولابد من الاشارة في هذا الموجز السريع عن الحياة العمرانية ،الى القصرين اللذين بناهما في حماة ودمشق ،احد ولاة الدولة العثمانية المحليين ،وهو " اسعد باشا العظم " في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر .

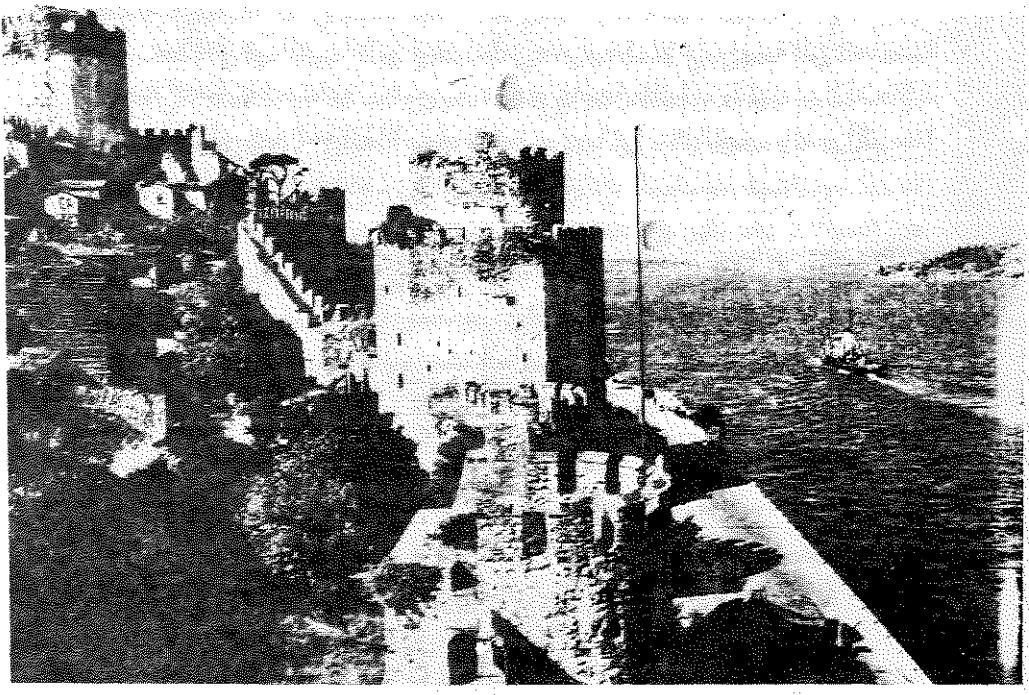
ومثلما كانت الحركة العمرانيه نشيطة في معظم البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية فانها كانت كذلك في المغرب الاقصى ،حيث قام " احمد المنصور السعدي " المعروف بالذهبي ،ببناء عدة قصور في " مراكش " ،كان اشهرها بفخامته " قصر البديع ".ونشيد " مولاي اسماعيل " من الشرفاء العلويين مجموعة من الابنية الجميلة في " مكناس " ،هذا عدا بعض المدارس ،والمساجد .

ومن البديهي ،الا تكون السلطات الحاكمة وحدها هي العاملة في ميدان العمران، فالسكان انفسهم ،وبصفة خاصة الطبقة الثرية من العلماء،والتجار، وكبار الصناع ،بنت هي الاخرى دور سكن فخمة ،وبعض المساجد ،والمدارس ،والزوايا ،وقفت عليها الموارد ،وان ظلت مباني النفع العام التي انشأتها قليلة بموازنتها مع ما قامت به السلطات الحاكمة .

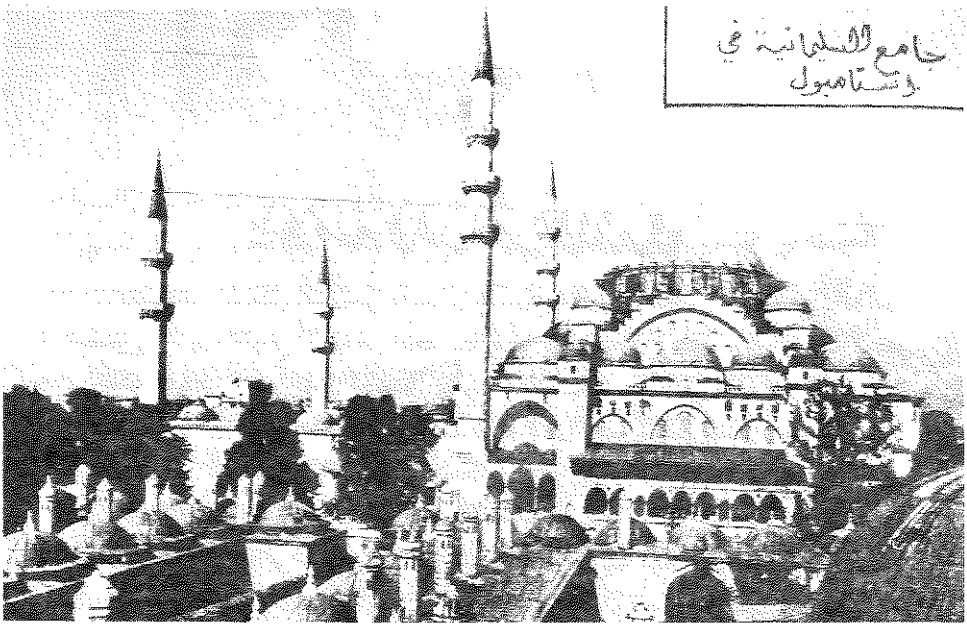
ويلاحظ في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر دخول مؤثرات اوربية الى المدرسة الغنية المعمارية العثمانية ،والمغربية ،وبصفة خاصة ايطالية ، وذلك لبدء الاحتكاك على نطاق اوسع مع الحضارة الاوربية . ويظهر هذا في بناء القصور والدور اكثر مما يظهر في الابنية الدينية .



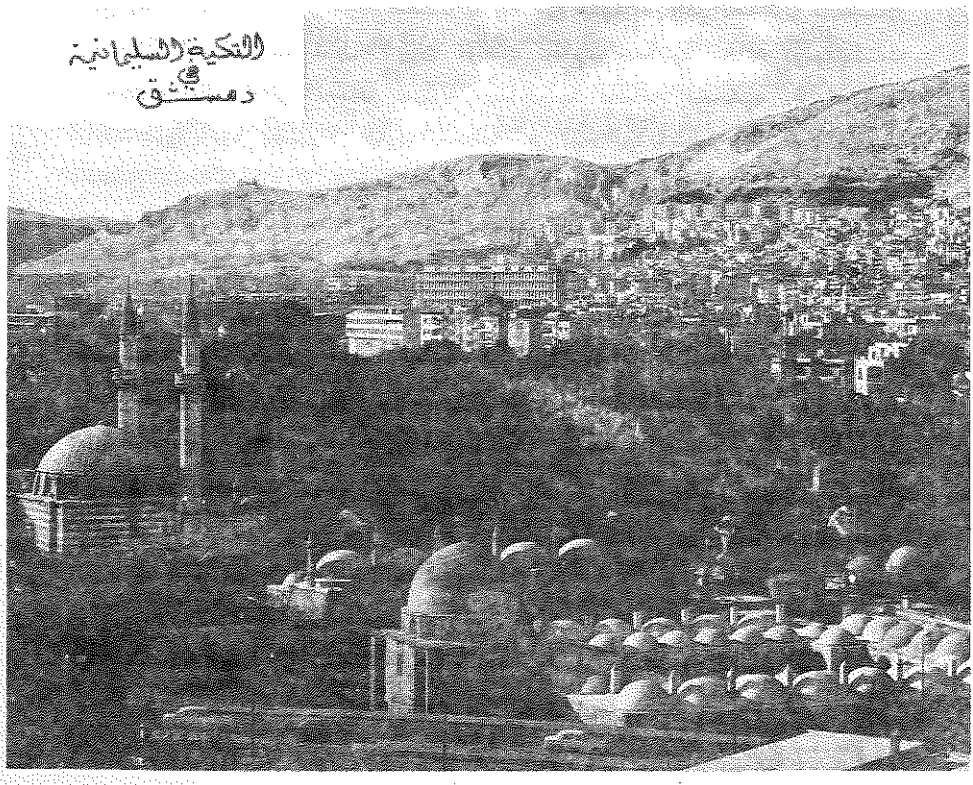
جامع السلطان أحمد الأول (الجامع الأزرق) - بني بين ١٦٠٩ - ١٦١٧



قلعة روملي - حصار



جامع السليمانية في
استامبول



التكية السليمانية
في
دمشق

خاتمة الباب الأول

يتبين من العرض التاريخي ،الموجز والسريع ،لاوضاع البلاد العربية في " العصر العثماني الاول "او في " العصر الحديث "، كما تم الاصطلاح عليه ،ان القسم الاعظم من هذه البلاد ،وهو الذي احتوته " الدولة العثمانية " منذ القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ،عاش اوضاعا متذبذبة ،تتراوح بين بعض استقرار وهدوء وبناء، وبين كثير من الاضطراب والتبلبل والانحطاط . وارتبط هذا التذبذب الى حد كبير بمدى قوة " الدولة العثمانية " الحاكمة ومؤسساتها ،وبمدى قوة الشخصيات القابضة على السلطة المركزية في استامبول . فعندما كانت الدولة قوية ،ومؤسساتها منتظمة ، والهيئة الحاكمة في استامبول ،وعلى رأسها السلطان ،او الصدر الاعظم ،حازمة ، وقادرة على القبض على ناصية الحال في المركز والولايات ،فان البلاد العربية كانت تتمتع ببعض امن واستقرار ،ولما ضعفت الدولة ،ولاحقتها الهزائم العسكرية في فتوحاتها ،وحروبها مع الدول الاوربية ،وتفكك نظام مؤسساتها العامة ،وتهلهلت الشخصيات القابضة على السلطة المركزية ،وتنازعتها المصالح الشخصية ،فان قبضتها تراخت على ولاياتها ،فانبرت " القوى المختلفة " في تلك الولايات ــ وهي قوى متفرقة لا تخضع لسلطة واحدة في تنظيمها الاساسي ،وكان قد ترك لها بعض حرية في التصرف الذاتي ،أكانت الولاة ،او القوى الاقطاعية العثمانية ،او المحلية ،او العسكر الانكشاري ،او حتى فئة العلماء ــ تدخل في دوامة من الصراعات فيما بينها، انعكست نتائجها ،قهرا ،وابتزازا ،واحوالا اقتصادية سيئة ،واضطرابا اجتماعيا على الاهالي . كما خضعت تلك التذبذبات ايضا ،لشخصيات القابضين على السلطة المحلية في الولايات ،ومدى نجاحهم او اخفاقهم في تجميع بقية القوى المحلية حولهم ،واخضاعها لنفوذهم ،وفي مدى تفكيرهم بمصالحهم الشخصية او مصلحة المجتمع . ومن الطبيعي ان يكون وراء تلك التذبذبات ــ التي هي في واقعها نتائج اختلال التوازن في سلطات القوى في الولاية ــ اوضاع اقتصادية اثرت ،بل تحكمت احيانا في تلك التحركات. وقد كان بعضها ناجما من مؤثرات اقتصادية عالمية خارجية ،كأزمة التضخم النقدي العالمي في اواخر القرن العاشر/ السادس عشر، التي ترجع الى تدفق الفضة من امريكا الجنوبية ، او من كوارث طبيعية واجتماعية محلية ،كانحباس المطر ، والبرد الشديد ،واكتساح الجراد ،وانتشار الاوبئة ،وغيرها .

الا ان الحكم العثماني التركي ،بقوته وضعفه ،والاضطرابات التي عانتها البلاد العربية في المشرق والمغرب ،وتركت اقتصادها في تلكؤ ،ومجتمعها في فقر نسبي ، لم تفكك هذا المجتمع العربي من الداخل ،بل زادته تماسكا ،وحفاظا على هويته العربية ،حتى تمكن ان يحوّل بعض القوى التركية العثمانية الى قوى محلية ،تعتز به تدريجيا ،وتتبنى مصالحه ،وتدافع عنها ،كما حدث لبعض الانكشارية بعد فترة من بقائها في المدن العربية . بل ان الصراعات السياسية في جميع اقطاره ،فرزت في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،قوى محليه ،اكثريتها غير عربية الاصالة ،ولها مطامحها الشخصية ،الا انها استعربت الى حد كبير ،فتكلمت العربية ،واخذت العادات المحلية ،وسعى بعضها لموافقة مصالحه الى حد ما مع مصالح المجتمع العربي الذى سادته . ويبدو هذا في مماليك العراق ،وقرمنلي طرابلس الغرب ،ومماليك مصر ، ودايات الجزائر ،وبايات تونس الحسينيين ،ناهيك عن آل العظم في بلاد الشام .

فالمجتمع العربي اذاً نجح بتجمده على تراثه ،في ابعاد النفوذ العثماني ،والاثر التركي عن التغلغل الى بنيته الاجتماعية العربية الاصيلة . ومن ثم ،كان المجتمع العربي في اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،هو المجتمع العربي الذى مدت الدولة العثمانية حكمها عليه في القرن العاشر/ السادس عشر ،مع بعض تغييرات طفيفة ، مست السطح لا الاعماق .

ولكنه اذا كان قد تم له ذلك تجاه الدوله العثمانية التركية ،وهي دولة اسلامية اعتمدت اسس الحضارة العربية الاسلامية اسسا لها ،وثبتت كثيرا من قيمها ،واحترمت الكيان الاجتماعي العربي ،فلم توجه اليه هجمات شرسة تفرض عليه الذوبان في كيانها ، فان صراعه مع "قوى الغرب وحضارته" في المرحلة التي تلي ،ومع الدولة العثمانية نفسها التي غيرت اسلوبها في معاملته هذه المرة — وهو ما يميز مطالع "الحقبة المعاصرة" من تاريخ العرب — كان اكثر عنفا ،وقواه اشد وهنا . الا ان هذا "التحدي الجديد" والقاسي ،ايقظ من واقعه التقليدي ،وفتق قواه الكامنة ،فسعى الى الخروج من حركته البطيئة ، وتحويل نظره ،وفكره ،وجهوده ،من الاقتداء بالماضي فقط ،نحو تغيير الحاضر ،ورسم صورة جديدة للمستقبل ،فكانت "النهضة العربية" . وهذا يلاحظ ايضا ، في المغرب الاقصى ،الذي حافظ على استقلاله عن الحكم العثماني ،وعاش في القرن الثامن عشر حياة عزلة نسبية .

الباب الثاني

في

النهضة العربية

أو

تاريخ العرب في الحقبة المعاصرة

١٣١٢ - ١٤٠١هـ/١٧٩٨-١٩٨١م

الفصل الأول

اليقظة العربية

تمهيد " يمكن ان يطلق على الحقبة المعاصرة من (تاريخ العرب) ،والممتدة من واخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،وحتى الوقت الحاضر ،اسم "النهضة العربية" . اذ سعى العرب خلالها ولا يزالون يسعون "للنهوض" واثبات وجودهم ،ومواكبة الركب الحضاري العالمي ، وتسلم مقود السياسة في منطقتهم ،بعد قرون طويلة غابوا فيها عنها .

ولقد درج بعض المؤرخين العرب المعاصرين ،على التوحيد بين مفهومي "النهضة العربية" ،و "حركة القومية العربية" بالذات ،هذه الحركة التي لم يشتد ساعدها وتتضح معالمها الا في اوائل القرن الرابع عشر/ اواخر القرن التاسع عشر ،والتي نضج عودها وتبينت اهدافها ومراميها ،واخذت تلعب دورا محركا في السياسة العالمية خلال القرن الرابع عشر / القرن العشرين ،ولا سيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٥ م .

وهكذا ،فانهم عندما يدرسون "اليقظة العربية" في القرن الثالث عشر / التاسع عشر ،يقصرون بحثهم على (المشرق العربي) لانه هو وحده كان منطلقا لحركة القومية العربية ،ومركزا حارا من مراكزها ،دون ان يتعرضوا لهذه اليقظة ،ومظاهرها المختلفة في المغرب . وبذلك يفقدون دراستهم اطارها الحقيقي ،الذي لابد ان يشمل الوطن العربي برمته ،من المحيط الاطلسي غربا ،الى الخليج العربي وجبال زاغروس شرقا ،ومن جبال طوروس شمالا الى البحر العربي والصحراء الافريقية فالمجرى الاعلى لنهر النيل جنوبا .

ان "اليقظة العربية" في الواقع ،ومضمونها الشمولي ،هي تنبه المجتمع في كل انحاء الوطن العربي ،ومنذ اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،الى وجوده في حالة خمول ،وتخلف ،وتبعية ،لا تنسجم مع ماضيه العريق ،وحضارته الاصيلة ،وسيادته السياسية السابقة ،وبالتالي لا تتلاءم مع الايقاع الحضاري ،الذي كانت اوربا تعيش في حركته الدائبة وألقه المشع ،آنذاك .

واذا كانت "الحركات الاولى" ،التي نبض بها جسم المجتمع العربي ،فكرية كانت ام سياسية ،قد بدت مبعثرة في اقطار الوطن العربي ،في القرن الثالث عشر/التاسع عشر ،ومختلفة عن بعضها بعضا ،باختلاف المؤثرات الخارجية ،واهداف القائمين بها ،ومراميهم ،ولا تدعو كلها الى "القومية العربية" صراحة ،ووضوحا ،واعتقادا ،فانها في الواقع قد بثت الحياة فيه ،وجعلته وهو الذي يدين معظم سكانه بالدين الاسلامي، يعود تدريجيا الى الاحساس بذاته العربية المستقلة "في "الخضم الاسلامي الواسع" ، وبتمايزه القومي عن الدولة العثمانية الاسلامية ،الحاكمة لمعظم اجزائه . ورافق هذا الاحساس بالتمايز القومي، المستند الى التمايز الحضاري ،شعور متزايد بكيانه ،امة عربية واحدة ،حملت رسالة حضارية انسانية ،بنتها الى العالم حقبة من الزمن ،ثم اقعدتها ظروف كثيرة عن متابعة حملها . فحركة "القومية العربية" اذاً ،التي تمخضت عنها حركة المجتمع العربي في القرن التاسع عشر ،وكانت عاملا من عوامل دفعه قدما ، بدت في الحقيقة التيار المتحرك الاقوى ،ضمن تيارات فكرية وسياسية عدة ،رافقته ، او سبقته ،وبقي بعضها قائما الى الآن ،واختلفت قوة وضعفا تبعا للظروف السياسية التي عاشتها المنطقة .

فـ "النهضة العربية" اذاً ،بمضمونها الواسع الشامل ،هي خروج المجتمع العربي في مختلف اقطاره من حالة الجمود ،والذبول ،التي عاشها ابان (العصر العثماني الاول) الى حالة الحركة ،والتفاعل ،مع الاحداث العالمية حضاريا وسياسيا . اما بمفهومها الضيق والخاص ،فهي وعي المجتمع في الوطن العربي وجوده القومي العربي الموحد ، والمتمايز ،وسعيه المتواصل والحثيث لدعم هذا الوجود ،واخصابه ،والعودة به الى حمل مشعل الحضارة الانسانية الاصيلة ،التي كانت له في الماضي . وذلك عن طريق :

أولا — تحرره من القوى الاجنبية المتسلطة على مقدراته ،أكانت اسلامية ،كالدولة العثمانية ،ام اوربية مستعمرة ،كفرنسا ،وانكلترا ،وايطاليا ،واسبانيا .

ثانيا — اعادة وحدته المفككة ،وانتظامه في دولة واحدة .

ثالثا — تخلصه من القوى الاقتصادية ،والاجتماعية ،الاستغلالية ،المحلية والاجنبية ، المعيقة لتطوره ونموه التقدمي .

ولا بدّ من التأكيد هنا ،ان "النهضة العربية" كانت في بدايتها غامضة الملامح

تتلمس طريقها عبر ضباب كثيف من المعتقدات والتقاليد ، جعلت حركة الشعب الخلاقة قرونا عديدة ، وحجبت عنه اصوله الحضارية ، وقيم وجوده . الا ان التخمرات الفكرية الخصبة التي احتضنتها " طلائع النهضة العربية " منذ اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ، وبشرت بها ، ما لبثت ان اعطت أكلها . وجاءت التجارب السياسية ، والاجتماعية المختلفة ، التي خاضها ابناء الوطن العربي ، ضد الغزو الاستعماري الخارجي ، والظلم الداخلي ، لتنضج تلك " اليقظة " ، وتعطيها ابعادا جديدة ، وتقرب بين اطرافها المتباعدة جغرافيا وتوجهها توجيهاً ، يؤكد دون لبس او غموض ، وجود " القومية العربية " وجودا اصيلا وعميقا .

ويمكن تقسيم الطريق الطويلة ، والشاقة ، التي قطعتها " النهضة العربية " منذ اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر الميلادي ، حيث تبدت ملامحها ، وحتى الوقت الحاضر ، الى ثلاث مراحل رئيسية ، تبعا للتطورات التي طرأت عليها ، وللاحوال الدولية التي اثرت فيها :

١ـ المرحلة الاولى : وتمتد من اواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي ، وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى في ١٣٣٧هـ/ ١٩١٨م ، وتغطي ما يزيد عن قرن .

٢ـ المرحلة الثانية : وتشمل الزمن ما بين نهايتي الحربين العالميتين الاولى والثانية (١٣٣٧ـ١٣٦٥هـ/ ١٩١٨ـ١٩٤٥م) وتحتوى ما يزيد قليلا عن ربع قرن .

٣ـ المرحلة الثالثة : وهي المرحلة المعاصرة بالفعل ، وتمسح ايضاً ما يزيد عن ربع قرن (١٣٦٥ـ١٤٠١ هـ/ ١٩٤٥ـ١٩٨١ م) .

ولما كان من العسير الاحاطة بجميع تلك المراحل تفصيلا في هذا الكتيب ، فقد ركزت الدراسة على المرحلة الاولى منها ، لان بدايات الامور دائما ، توضح تطوراتها فيما بعد ، وتفسر نهاياتها . فكثير من جذور القضايا التي تعانيها البلاد العربية اليوم تمتد الى هذه المرحلة ، ولا يمكن ادراك محتواها العام الا بتعرف تلك الجذور .

اما المرحلتان الثانية ، والثالثة ، فسيصار الى الالمام بسماتها العامة في الفصل الاخير من هذا الكتاب ، وبذلك تكون " المعالم الاساسية " في صورة الحقبة المعاصرة قد رسمت .

السمات العامة لليقظة العربية : من اواخر القرن الثاني عشر/ الثامن عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى (١٣٣٧هـ/ ١٩١٨ م).

في هذه المرحلة تسللت "الحضارة الاوربية" الى الدولة العثمانية ،والى المجتمع العربي ،وبدأ بذلك الاحتكاك المباشر بين تلك الحضارة ،والحضارة الاسلامية التي جسدها المجتمع العربي في ذاته ،خلال الحقبة السابقة ،وما نجم عنه من تفاعلات ايجابية وسلبية . وقد تم تسلل تلك الحضارة الى الدولة العثمانية والبلاد العربية عبر عدة طرق ،فهناك الدبلوماسيون الاوربيون كسفراء في استامبول ،وهناك الجاليات التجارية الاوربية وقناصلها في المدن العربية التجارية ،والخبراء الذين استدعتهم الدولة العثمانية لمساعدتها في اصلاح الجيش ،والسياح الذين كثر توافدهم على هذه البقاع ،وسفراء الدولة العثمانية في اوربا وتقاريرهم الدورية . ومن قنوات التواصل والتعارف بين ممثلي الحضارتين ايضا ،البعثات التبشيرية التي ابتدأت بعملها منذ القرن الحادي عشر/ السابع عشر ، في الاوساط المسيحية ،وكان لها اثر هام في نشر الثقافة الغربية بين صفوفهم . وكذلك البعثات المسيحية المارونية الى مدرسة روما ،والتجار المسيحيون العاملون مع الجاليات الاوربية ،او مع اوربا مباشرة ، ولا سيما الارمن . وقد يكون من اوسع اقنية الاتصال ما تم في بلاد المغرب العربي: فبالاضافة لقربها النسبي من السواحل الاوربية (الجهاد البحري) ،وما حملته من اسرى اوربيين الى الارض المغربية ،وما نقله هؤلاء الاسرى اثناء اقامتهم اليها من مظاهر حضارية مختلفة ،ناهيك عن تلك الحملات التي وجهتها الدول الاوربية الى مدنهم ،وتعرفهم عن طريقها بالتقنيات العسكرية والبحرية الجديدة . ومن ثم فان حكام تونس من الحسينيين قاموا باصلاحات كثيرة ،استفادوا منها من الحضارة الاوربية.

واذا كانت منافذ الحضارة الاوربية الى المجتمع العربي ضيقة في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر، فانها اتسعت اتساعا كبيرا في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر نتيجة لتوضع الاستعمار الغربي على الارض العربية ـ كما سنرى ـ ،ولتبني الدولة العثمانية ،وبعض الحكام كمحمد علي باشا والي مصر ،وبايات تونس ،للحضارة الغربية اساسا للاصلاح والتطور ،ولانتشار حركة الترجمة من اللغات الغربية الى العربية .

ويمكن ان يطلق على هذه المرحلة بالذات الاسم الذي اعطاه المؤرخ " جورج

انطونيوس " لمجموع النهضة العربية وهو " اليقظة العربية " ،لان المجتمع العربي اخذ خلالها " يستفيق " تدريجيا لواقعه ،ويخرج من خموله ،ويرد على التحديات العنيفة التي سلطت عليه من قبل الدول الاوربية ،والدولة العثمانية ـ فهي مرحلة (صحو واستيقاظ) ،قبل ان تكون مرحلة (نهوض ،وثبات على القدمين) . واذا استطاع في هذه المرحلة ان يثبت وجوده ،الا انه لم يستطع النجاح ، وانتهت هذه المرحلة ،بزوال السيادة العثمانية عن البلاد العربية كلها ،بمشرقها ومغربها ،وحل محلها (الاستعمار الغربي) .

وتتمثل اليقظة العربية في مظهرين كبيرين رئيسيين :

أولهما مظهر فكري تجلى في كتابات وافكار العلماء والادباء الذين ظهروا في هذه المرحلة ،ودعواتهم . وهو متشعب الاتجاهات ،الا انه موحد في نقاط اساسية، وهي : تصوير سوء احوال المجتمع العربي ، والمناداة بضرورة نهوضه .

ويمكن تمييز تيارات فكرية رئيسية اربعة في خضم التطور الفكري ،الذي عاشه المجتمع العربي في مختلف اقطاره ،في هذه المرحلة من الزمن :

"التيار الاول " وهو تيار عودة للاصول الفكرية العربية الاولى،او هو تيار بعث واحياء لمقومات الدين الاسلامي الاولى ،ولالقه الماضي . او بتعبير آخر الدعوة للنهوض بالمجتمع عن طريق تطبيق مبادىء الاسلام الاولى . وكان هذا التيار في وقته ،رد فعل لحركة "التصوف الشعبي " المتدنية في تأملاتها الفكرية و فهمها للدين ،والتي ادخلت عليه البدع ،وحرفت مضموناته العميقة . وهو في الوقت نفسه امتداد لحركة " ابن تيمية " العالم الحنبلي ،الذي ظهر في دمشق في عهد المماليك (٦٦٢-٧٢٩ هـ/ ١٢٦٣ -١٣٢٨ م) ثائرا على ترهات بعض الطرق الصوفية . ولم يلبث هذا التيار ان اصبح في القرن الثالث عشر / التاسع عشر ،رد فعل لحركة " الاستغراب " ،(اى تقليد اوربا والحضارة الغربية) ،التي كانت تمثل الوجه ما اتجاها علمانيا في حياة المجتمع العربي الاسلامي ،والتي شرعت تنتشر في اوساطه، كما اسلفنا القول، نتيجة للاحتكاك بالحضارة الغربية ،والغرب ،عن طريق الاستعمار الغربي لاجزاء الوطن العربي اوعن طريق التماس الفكري به . ويتشعب هذا التيار الى فرعين :

ـ فرع أول " اتخذ متبنوه ،ومؤيدوه ،موقفا شديدا ،ومتزمتا ،من كل تجديد طارئ على الحياة العربية الاسلامية ،ومن (الاستغراب) بالذات ،ونادوا بالحاح وثورة ،بضرورة الارتداد الى الاصول الاسلامية التقشفية الصافية الاولى .ويمثل هذا الفرع الحركات التي اطلق عليها صفة "السلفية "ك "الحركة الوهابية " في شبه الجزيرة العربية في القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،و"الحركة السنوسية" في شمال افريقية، و"الحركة المهدية" في السودان في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر . وهذه الحركات على الرغم من ظاهرها الرجعي ،طرحت على الشعب مفهوم "الحكم الصالح" وشروطه، وبذلك نبهته الى مواطن الخطأ لدى السلطات الحاكمة له،ومنها الدولة العثمانية . وبذلك كانت الحركة الوهابية مثلا ،سببا هاما في فصم المسلمين من الارتباط بالحكم العثماني ،على الرغم من ان هذا الحكم كان حكما اسلاميا .

ـ اما الفرع الثاني " لهذا التيار فهو الآخر ينادي بضرورة احياء الدين الاسلامي، مع تأكيده ضرورة دعم "الخلافة الاسلامية " ،الا انه يرى ضرورة تحرك الدين مع تطور الحياة العامة . ويمثل هذا الفرع "حركة المجددين في الاسلام" امثال " جمال الدين الافغاني " و "الشيخ محمد عبده " في مصر .

ويمكن تلمس هذا التيار المحي للدين في المشرق والمغرب على السواء . فسلطان المغرب الاقصى " سليمان بن محمد " تأثر بالحركة الوهابية ،والامير "عبد القادر الجزائري " مثل بآرائه ،وفكره ،تيارا وسطا بين التيارين ،او هو تطور واضح في " التيار السلفي " ،او موجة دافعة فيه نحو "التيار التقدمي " .

التيار الثاني " تيار نصف علماني ،او هو مزيج بين العلمانية والدين . ويفرق عن التيار الاول بأنه لم يتخذ طابع الشمول للعالم الاسلامي ،ولا حتى للعالم العربي، بل كان تيارا ذا (طابع محلي) ،ينحصر في كل قطر عربي على حدة . وهذا التيار الفكري يمكن ان نطلق عليه اسم "التيار القومي المحلي " . وقد ظهر هذا التيار كردة فعل للغزو الاستعماري الاوربي ،الذي عانته بعض الاقطار العربية ،منذ اواخر القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الاولى . ففي كل قطر عربي خضع للاحتلال الاوربي، والتأثير الحضاري الاوربي ،ظهرت طبقة من المثقفين امتزجت في اذهانها الافكار الاوربية في التحرر ،والقومية ،مع التقاليد المحلية ،وضرورة التخلص من السيطرة

الاجنبية ،وتفاعل شعورها الوطني المناهض للغرب ،واحتلاله ،مع عناصر الاعجاب بالحضارة الاوربية . ولقد امسكت هذه الفئة بمقود الحركة الوطنية ،ووجهتها لمحاربة الاستعمار الاوربي ،باسلحته نفسها ،وتطوره العلمي ذاته . وعلى الرغم من تشابه صفات هذا التيار في كل قطر عربي ،الا ان محركيه ،ومفكريه لم يحاولوا ان يتعدوا باذهانهم حدود اقطارهم الى الاقطار العربية الاخرى ،ولم يعملوا على الربط بين تحركهم والتحرك في البقاع العربية الاخرى ،بحيث يزداد وينمو ،وقوة لانفسهم ولغيرهم .

واذا لم يلتصق هذا التيار ،بالتيار الماثل له في الاقطار العربية الاخرى ،فانه جرب ان يربط نفسه ،او يتقرب الى "التيار الاسلامي التقدمي" او ما يسمى بـ"تيار الجامعة الاسلامية" ، لان التيارين اتفقا في الهدف وهو محاربة النفوذ الاوربي ،كما ان التيار القومي المحلي كان بحاجة ماسة الى تأييد دولة اسلامية كبيرة كالدولة العثمانية ،والى دعم الشعوب الاسلامية . ومن هذا يستنتج ،ان هذا التيار كان في بدء نشأته — وهذا امر طبيعي — لا يرى ان قوة الشعب وحدها ،ولم يكن قد وعى وعيا كافيا وجوده ومصيره ،كافية لمحاربة الاستعمار الاوربي ،كما انه لم يكن قادرا ،كتيار حيوي ،وفعال في محيط الشعب ،ان يتجرد من المفهومات الدينية . ولذا فان الحركات الوطنية التي قامت في الاقطار العربية ،وبخاصة الافريقية منها ،ظلت باطارها الفكري البحت ،والثوري المتحرك الملموس ،تعمل في محتوى ديني اسلامي واضح بعد الحرب العالمية الاولى ،كالحركة الوطنية في الجزائر ،وتونس ،والمغرب الاقصى ومصر . وهذا غير ما كان عليه الامر في الحركة الوطنية في بلاد الشام ،التي كانت تعمل في محتوى قومي علماني . ولقد كان هذا سببا من الاسباب في التباعد ،او بالاحرى عدم التقارب ،بين الحركات الوطنية في مصر وتونس والمغرب والجزائر من ناحية والشام والعراق من ناحية اخرى . ومن رواد هذا التيار مثلا "مصطفى كامل" في مصر

التيار الثالث" وهو تيار علماني ،اي لا ينظر الى الدين اساسا للنهوض بالمجتمع وينقسم فرعين :

"الفرع الاول" تيار علماني يساري واشتراكي ،قال بمفهوم وطن يعيش فيه اهله متساوين امام القانون ، لا فروق دينية تقسمهم ،ولا مستويات طبقية تميز بعضهم عن

بعض ،والعلم فيه هو دعامة التقدم والفلاح . ولم يكن دعاة هذا التيار كثرا في تلك المرحلة ،ولا اتباعه عديدين . ومن مفكري هذا التيار " فرنسيس مراش" (١٨٣٦–١٨٧٣) الحلبي الاصل ،و" شبلي شميّل " (١٨٦٠–١٩١٧) . وقد ظهر هذا التيار في بلاد الشام بخاصة .

ـ"الفرع الثاني " تيار القومية العربية " : وينادي مفكروه بأن النهضة العربية لن تتم الا اذا تكتل العرب فيما بينهم ،دون النظر الى دياناتهم ، وبرزوا " امة عربية واحدة " . لان هناك تاريخا مشتركا ،وحضارة مشتركة ،تجمعهم ،مهما كانت مذاهبهم الدينية ،فالقومية العربية هي الحقيقة الواقعة .

وتمثل هذا التيار في بلاد الشام والعراق ،وتبدى واضحا في اواخر القرن الثالث عشر التاسع عشر ،واوائل الرابع عشر العشرين . ونما نموا كبيرا بين الحربين العالميتين ،وبعد الحرب العالمية الثانية ، وبدأ هذا التيار مع اليقظة الادبية في هذه الاقطار ،اى لما اخذ الادباء العرب يبعثون الادب العربي السابق ،والتاريخ العربي، ويشيدون بالعرب وحضارتهم ،وقد يرجع ذلك الى بدايات العصر العثماني الاول (الحديث) .

ونزعة "القومية العربية " ليست نزعة جديدة ،فالعرب على طول العصور كانوا يعتزون بعروبتهم ،ويفاخرون بها ،وتربطهم بوشائج قوية ،حتى عندما كانوا قريبي العهد بانبثاق الرسالة الاسلامية ،ودعوتها الانسانية البحتة ،التي تجاوزت العصبيات المحدودة . بل ان حركة التعريب الكبيرة في العهد الاموي ما هي الا مظهر من مظاهر تلك القومية ،والحركة الشعوبية في اصولها الاولى ليست الا رد فعل للعصبية العربية في العصر الاموي . ولكن الرابطة الدينية الاسلامية طغت مع الزمن عليها ، وان لم تتمكن من محوها وازالتها . وبدت تلك الرابطة الاسلامية قوية ،عندما تعرض الوطن العربي للغزو الصليبي والتتري . ولما ضمت البلاد العربية للاتراك العثمانيين ،فان هذه الرابطة الدينية نفسها ،وَصَلتها بالدولة الحاكمة ،ودعمت قوة صلاتها فيما بينها ،اذ عادت فجُمعت تحت لواء دولة واحدة ،دون ان تفرقها حدود سياسية " كيانية " . ومع ذلك فان فكرة التمايز بين العرب والاتراك (الاروام) الحاكمين ،كانت قائمة في نفوس العرب ،ويظهر ذلك واضحا في مؤلفات بعض مؤرخي

العصر العثماني الاول ،من امثال "نجم الدين الغزي" و "البوريني" ،و "الخفاجي" و "المحبي" .

ولما بدأت البلاد العربية تستفيق ،وبصفة خاصة في بلاد الشام ،كان المسيحيون من اول المنادين بالقومية العربية . ويرجع ذلك الى عدة "اسباب" :

- اولها" المدارس التبشيرية التي انتشرت في بلاد الشام منذ القرن الحادي عشر/ السابع عشر بشكل محدود ،وتزايدت في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر فقد حرصت على تعليم اللغة العربية ،والآداب العربية ،والتاريخ العربي ، لتجتذب السكان اليها . وكان روادها الاول من المسيحيين ،فتكون لديهم ايمان قوي بأنه كان للعرب حضارة قبل الاسلام ،اينعت واثمرت مع الاسلام ،وانهم كمسيحيين اسهموا في بناء تلك الحضارة العربية ،والاسلامية على حد سواء .

- وثانيها" ان كثيرا من المسيحيين ،في المدن الشامية الكبرى ،كونوا نتيجة تعاملهم التجاري مع الجاليات الاوربية ،ومع اوربا بعامة ،طبقة بورجوازية ثرية ،تعرفت الحضارة الغربية ،واخذت ترى بأنه لابد أن يكون لها يد في الحكم . وبذلك كان دورها في بعث الفكرة القومية ،مماثلا للدور الذي لعبته البورجوازية في المجتمع الاوربي ،ولا سيما انها مبدئيا ،كانت مبعدة عن المشاركة مشاركة فعالة فيه في ظل الدولة العثمانية الاسلامية .

- وثالثها" ارتباط المسلمين بمفهوم الخلافة الاسلامية ،مما جعلهم يترددون طويلا قبل الدعوة صراحة الى استقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية ،والانضمام الى التيار القومي العربي .

ومن رواد هذا التيار "نجيب عزوري" ،و"ناصيف" و"ابراهيم اليازجي" ،و"بطرس البستاني" وغيرهم . وكانت " الجمعية العلمية السورية " التي تأسست عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧ م في بيروت، وضمت اعضاء من مختلف الطوائف الدينية ،طليعة لهذا التحرك القومي العربي بمنحاه الادبي . وكان "عبد الرحمن الكواكبي" من اوائل المفكرين السياسيين الذين عملوا على ايجاد توفيق بين مفهوم القومية العربية والجامعة الاسلامية. وتتالى تكوين الجمعيات السياسية السرية التي دعت لهذا التيار ،والى ضرورة استقلال

البلاد العربية عن الدولة العثمانية . وابرزها "الجمعية القحطانية" التي تأسست عام ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٩ م ،و "الجمعية العربية الفتاة" عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م .

وفي الحقيقة ،كان لكل تيار فكري من التيارات السالفة الذكر ،مفكروه وادباؤه ، وصحفه ودعاته ،وجمعياته العلنية او السرية (١) ، وندواته . وقد لعبت "الصحافة العربية" دورا هاما واساسيا في نشر افكار تلك التيارات بين الشعب،وتعميم الثقافة وايقاظ الفكر العربي ، واخصابه ،بما قدمته من نقد ،وبحوث ،ومناقشات ،بل وحتى في هجوم بعضها على الآخر . ومن ابرز هذه الصحف "الجوائب" الاسبوعية التي صدرت في استامبول ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م ، وكانت تعنى بالسياسة الدولية ، ومجلة "المنار" التي اصدرها "محمد رشيد رضا" المفكر العربي الاسلامي ،مابين ١٣١٦-١٣٥٤هـ/ ١٨٩٨-١٩٣٥ م وغيرها (٢) .

وقد يكون من العوامل المساعدة لبروز هذا المظهر الفكري لليقظة العربية ،رغبة العرب في التعلم في هذه المرحلة ،والاستقاء من مناهل الثقافة المختلفة العربية والاجنبية . وكان للاصلاح التعليمي الذي قامت به الدولة العثمانية في القرن الثالث عشر/ التاسع عشر ضمن اصلاحاتها المتنوعة ،اثر في نشر تلك الثقافة . كما كان لقيام "الطباعة" في الدولة العثمانية ، ومصر ،والبلاد العربية ،دور هام في خدمة هذا المظهر الفكري وابرازه .

وثاني مظهري اليقظة العربية :

مظهر تحركات ثورية سياسية ،ذات طابع فردي ،او شعبي محلي ،او شعبي عربي ، ضد الحكم العثماني من جهة ،وضد الاستعمار الغربي ،الذي اخذ يحل محله في عدد من الاقطار العربية .

ومن امثلة هذه التحركات الثورية "الثورة السعودية" في نجد ، التي تبنت الحركة الوهابية ،وثورة ظاهر العمر في بلاد الشام . وعلى الرغم من تباين اهداف الثورتين تباينا كبيرا ،الا انهما كانتا ثورتين بابعاد واسعة ،هدفتا الى تكوين كيان عربي ،او اسلامي ،مستقل جديد . ومن تلك التحركات الثورية ، التي هي في الواقع

---

(١) انظر حول الجمعيات ، جورج انطونيوس "يقظة العرب . تعريب .

(٢) انظر حول الصحافة العربية "فيليب طرازي" تاريخ الصحافة العربية . بيروت ١٩١٣ .

مظاهر يقظة عربية ،وردود فعل عميقة على التحديات الموجهة ضد اجزاء الوطن العربي ،ثورة الشعب في مصر ،ضد الحملة الفرنسية (ثورة القاهرة الاولى والثانية)، وثورات الجزائر ضد الاحتلال الفرنسي ،وابرزها ثورات "عبد القادر الجزائري ، واولاد سيدي شيخ ،ومحمد المقراني ،والثورة المصرية البناءة التي تمثلت ببناء" محمد علي باشا "دولة مصر الحديثة . وثورة احمد عرابي في مصر ضد التدخل الاوربي الانكليزي ـ الفرنسي ، وثورة الشعب في تونس ضد الاحتلال الفرنسي ،والثورة المهدية في السودان ،والثورة السنوسية في ليبيا ،وثورات المغرب الاقصى ضد الاحتلال الفرنسي . ان تلك التحركات الثورية كانت تحركات شعبية واعية ،الا ان الاستعمار الغربي بوسائله التقنية المختلفة ،تمكن من اجهاض تلك التحركات. وجاءت الثورة العربية عام ١٩١٦ لتتوج تلك التحركات ،وتكون مفهوما اكثر خصوبة وعمقا ،في اطار الثورات العربية السابقة ،الا انه اصابها ما اصاب الاولى منها .

وهكذا تغلق المرحلة الاولى من "النهضة العربية" او"مرحلة اليقظة العربية" وقد اناخ الاستعمار الغربي بكلكله على جميع اقطار الوطن العربي ،متخذا صورة انتداب،او استعمار ،او حماية . وبذلك حل محل الدولة العثمانية البائدة ، او محل السلطة الوطنية المستقلة ،كما هو الامر في بلاد المغرب الاقصى :فبلاد الشام قسمت الى اربعة اقسام:" سورية "، "ولبنان" ،وقد وضعا تحت الانتداب الفرنسي ، "وشرقي الاردن" "وفلسطين" تحت الانتداب البريطاني ،مع التزام بريطانيا بتحقيق الوطن القومي لليهود ،"والعراق" تحت الانتداب البريطاني . اما "مصر" فكانت تحت الحماية البريطانية ،"وليبيا" تحت نير الاستعمار الايطالي ،"والجزائر" "وتونس" "والمغرب" ضمن السيادة الفرنسية . وحواف شبه الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية في ظل اتفاقات، السيادة فيها لبريطانيا . ولم يبق من البلدان العربية متمتعا باستقلاله سوى "نجد" ، "والاحساء" ،حيث يحكم السعوديون ،"واليمن" حيث يحكم الائمة الزيديون ،"والحجاز" حيث يحكم الملك حسين . واذا كانت التحركات الثورية في هذه المرحلة لم يكتب نصيبها النجاح في تحقيق مبتغاها ،لضعف القوى التي تصدت لها ،الا أنها اغنت النهضة العربية ،بخبرات وقيم ساعدتها على متابعة السير،على الرغم من الاخفاق الذي اصابها .

ويمكن ان يلحق بالمظهرين الرئيسيين البارزين السابقين لليقظة العربية في هذه

المرحلة مظهر اقتصادي . فقد بدأت التقنية الاوربية تغزو شيئا فشيئا الاقتصاد العربي . وقد رأيناها في تونس في اواخر القرن الثامن عشر، عند ما عمل البـاي " حمودة باشا "على الاستفادة من الصناعة الاوربية المتقدمة في ميدان المدفعية ، والسفن البحرية . واتبع " محمد علي باشا " والي مصر هذا الخطو في بنائه لدولته فأنشأ المصانع على النمط الاوربي ، واعتمد على خبراء اوربيين في تطوير الزراعة . وهكذا شرع العرب يتبنون شيئا فشيئا الاساليب الغربية في الزراعة ، والصناعة والتجارة، ويعون ان الاقتصاد العربي ، الذي اخذ الاقتصاد الاوربي يبتلعه بوسائل شتى ، لا بد له ان ينهض هو الآخر ، معتمدا على الاسس نفسها التي اعتمدها الاقتصاد الاوربي ، ولا سيما انه دعامة اساسية في بناء النهضة العربية . ومن البد هي ان يبدأ هذا المظهر على يد السلطات الحاكمة ، كدولة محمد علي باشا ، او الدولة العثمانية او بايات تونس ، وسلاطين المغرب الاقصى ، والا ينتشر في الاوساط العاملة الا ببطء. الا انه شرع من القرن الثالث عشر/ التاسع عشر، يشق طريقه في ميدان الفعاليات الاقتصادية العربية الخاصة .

ويتساءل المرء ، ما العوامل التي جعلت العرب يستيقظون ، ويجهدون للنهوض والخروج شيئا فشيئا من التقليدية التي عاشوها قرونا طويلة ؟ .

كانت العوامل المساعدة على اليقظة العربية مدار بحوث كثيرة من المؤرخين العرب والاجانب . وكان " جورج انطونيوس " في كتابه " يقظة العرب " الذي كتبه بالانكليزية وترجم للعربية ، ممن درس تلك العوامل ، بمنطقية وتفصيل . وقد اكد في بحثه، العوامل الايجابية الداخلية ، المنبثقة من ذاتية الشعب العربي في المشرق ، او بتعبير آخر ، نظر الى البداية الادبية لحركة القومية العربية ، وكأنها هي المحرك الكبير الدافع ، في تلك اليقظة . ودرج معظم المؤرخين من بعده ، على اتباع نفس الخطو ، وركزوا على المطلع الادبي الفكري لليقظة العربية في المشرق العربي في بحوثهم، من ادباء ، ومفكرين ، وتيارات فكرية ، وتعليم ، وصحافة ، وجمعيات . وهو ما عنيناه بالمظهر الفكري " لليقظة العربية " الذي اشير اليه موجزا ، فيما سبق . وفي الحقيقة ان المظاهر الثلاثة السابقة هي (عوامل) ، بالاضافة لكونها (مظاهر) او (نتائج) ، ولا سيما الفكري منها ، فهي منعكسات منفعلة لواقع تاريخي ، وفي الوقت نفسه مؤثرات فاعلة في هذا الواقع نفسه ، تغذيه ، وتنضجه . ولكن مع كل ذلك

يبقى التساؤل قائما عن " البذرة " التي اوجدت العامل الفكري المنبه والموقظ. وهذه البذرة الاولى ،لا بد من تلمس تكونها في "العصر الحديث " ،اى في المرحلة السابقة للحقبة المعاصرة . ويرجع عدد من المؤرخين عادة هذا التكون،الى اثر "الحضارة الغربية " في الفكر العربي ،او تحدي هذه الحضارة بكل مظاهرها ، ومضموناتها،للحضارة العربية الاسلامية في تقليديتها المقوقعة ،ورد الفكر العربي ايجابيا على هذا التحدي ،بالصور المشار اليها آنفا . وهذا لا يمكن انكاره وسيكون مدار تتبع في دراستنا هذه . ولكن التفاعل بين الفكر الاوربي والفكر العربي قد يكون عاملا هاما مساعدا على نمو البذرة الاولى ،وانتاشها ،ثم عطائها ،انما ليس هو العامل الاول في تكونها . لقد ولدت تلك البذرة من اعماق الفكر العربي ،ونتيجة لتحدي "الفكر العربي الاصيل " "للفكر العربي التقليدي "،الذى ابتعد في كثير من الامور عن "الاصول " و "الموارد الاولى " له ،واثقى بالمتداول ،والمجتزأ ،والموجز. ومن يتتبع دراسة الفكر العربي بتمعن واستقصاء في مرحلة "العصر الحديث"،قد يرى بذور "الارتداد الى الاصول "أكان في دراسة العلوم الدينية ،او اللغوية ،او الادب بشعره ونثره . ويذكّر هذا الامر ،"بالحركة الانسانية " في اوربا ،التي كانت عماد نهضتها في العصور الحديثة ، عندما دفعت الفكر الاوربي الراكد كي ينهل من اصوله الحضارية الاولى ،اليونانية والرومانية .

وهكذا فان بذرة "اليقظة العربية " قد تكونت في "العصر العثماني الاول " ، حيث كان عدة من المفكرين العرب يشعرون بتمايزهم "القومي " عن الاتراك ،وحيث عملوا على بعث الادب العربي الاول ،وعلى الرجوع الى الاصول الاولى للدين، ودراستها من جديد . وما "الحركة الوهابية "الا صورة من صور رد الفعل الخصبة على تحدي الفكر الاسلامي الاصيل للفكر التقليدي السائد والمتداول . وما "الحركة الادبية " الداعية في القرن التاسع عشر لاحياء" التاريخ العربي،والادب العربي، الا استمرارا لحركة العودة الى الاصول التي انبثقت في العصر العثماني الاول . وقد وجدت هذه البذرة في تكونها ونموها بيئة صالحة ،وعناصر سقاية رفدتها من (الخارج) وساعدت على انتاشها ،وعطائها . ويقصد بالرفد الخارجي ،تلك(التحديات)،التي جابهت البلاد العربية والفكر العربي بشكل ملح،من اواخر القرن الثاني عشر الثامن عشر ،وخلال المرحلة الاولى كلها من الحقبة المعاصرة ،وردّ عليها الشعب العربي،

بانتفاضات حية ،وتحركات ثورية ،اخرجته من تقليديته ،ووقوعته على ذاته .

ويمكن تلخيص تلك العوامل الخارجية الاساسية في ثلاثة كبرى :

أولا ـ ضعف الدولة العثمانية .

ثانيا ـ الاستعمار الغربي .

ثالثا ـ محاولات الاصلاح في الدولة العثمانية .

وقد يكون ثانيها ،وهو الاستعمار الغربي ،أقوى تلك العوامل ،ولذلك فانه سينال حصة الاسد من هذه الدراسة .

****

****

بعض رواد اليقظة العربية

عبد القادر الجزائري



الشيخ جمال الدين الافغاني



الشيخ محمد عبده



الفصل الثاني

ضعف الدولة العثمانية واثره في اليقظة العربية

وصلت الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ،و ضمنها العالم العربي الاسلامي ،الى اوج عظمتها وسؤددها ،ولا سيما في عهد السلطان " سليمان القانوني " (٩٢٦-٩٧٤هـ/ ١٥٢٠-١٥٦٦م) . ومن ثم تمتعت بنفوذ معنوي قوي ،لدى الشعوب الاسلامية السنية ، وارتبط بها العرب المسلمون ،الذين انضووا تحت لوائها . واذا كان بعض الامراء المحليين ،او الولاة ،قد فكروا بالانفصال عنها او الاستقلال ذاتيا في مقاطعاتهم ،في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين ، كجانبردي الغزالي في بلاد الشام ،والوالي احمد باشا في مصر ،وفخرالدين المعني الثاني في لبنان ،وعلي جانبلاط في حلب والشمال ، فان مجموع الرعية المسلمية لم يكن مؤيدا لهذا الاتجاه ،وقد يكون هذا عاملا في اخفاق تلك الحركات . لقد كانت رابطة الدين هي الرابطة الاقوى ،وبخاصة ان الدولة كانت تجابه آنذاك بعزم وقوة ،الغرب المسيحي ،الذي جاء يوما بجيشه واساطيله غازيا البلاد العربية الاسلامية ابان الحروب الصليبية .

ولكن هذه الدولة بدأت تسير تدريجيا نحو الضعف منذ القرن الحادي عشر/ السابع عشر ،وشرعت اوربا تتخذها مطية لاطماعها ،وتتدخل في شؤونها ،بل وتقتطع اجزاء من امبراطوريتها بعد ان هزمتها في ساحات القتال ،واستشرى الفساد بين موظفيها ،ودبّ الانحلال في جيشها ،وتضعضع كيانها الاقتصادي ،وساءت احوال الشعوب الخاضعة لها ،ومنها الشعب العربي .

ويمكن اجمال الامور التي نجمت عن ضعف الدولة العثمانية ،وكان لها اثرها غير المباشر في (اليقظة العربية) في اواخر القرن الثامن عشر ،في النقاط التالية :

أولا — فساد الحكم في الولايات العربية ،وتحول (الفرق الانكشارية) فيها الى عنصر فوضى ،وقلقلة ،بدلا من ان تكون اداة نظام ،وامن ،وحماية . كما ان (الولاة) ومعظم افراد الهيئة الحاكمة،لم يعد لهم من هم سوى جمع المال والاغتناء على حساب الرعية ،كما ذكرنا آنفا . مما جعل الشعب العربي ،يتحسس تدريجيا ،بان الدولة

القائمة ،لم تعد قادرة على ضمان الحياة المستقرة الآمنة له ، كما لم يعد باستطاعتها حمايته من موظفيها ،وجيشها ،فكيف بقدرتها على حمايته من اوربا،التي شرعت تطرق ابوابه مرة اخرى ،غازية ،ومحتلة . ففساد الحكم التركي كان بيئة ملائمة لنمو بـــذرة اليقظة العربية ،اذ ان تحديات ذلك الحكم للعرب ،من ترد في اوضاعهم الاقتصادية وابتزاز لاموالهم ،وسرقة للاوقاف ،وبيع للوظائـــف الدينية ،وتفش للرشوة ،كلهـــا كانت مغذيات للنقمة ،وحوافز للثورة على تلك التبعية .

وفي الواقع لقد حاول العرب في بادئ الامر عن طريق مفكريهم،ان يداووا ضعف الدولة ،مع الاتراك انفسهم ،وان يسهموا في اصلاح الاوضاع الفاسدة ،واعادة القـوة الى الدولة الاسلامية المتهاوية ،الا ان الدولة بقيادة "القوميين الاتراك" ،فيمطلع القرن الرابع عشر/ العشرين، ابعدته عن ذات الاسهام ،كما سنرى ، وغلّت يـــده ، وشددت قبضتها عليه ،واخذت تفرض عليه لغتها ،وتاريخها ،وبذلك اقامـــت بينها وبينه حاجزا لايخترق ، فاندفع هذه المرة يبحث عن مخرج بانفصاله عن الدولة الحاكمـة .

ثانيا ــ تراخي قبضة الدولة النسبي على امبراطوريتها ،في القرنين السابع عشـــر والثامن عشر ،واستسلامها لمظاهر الحكم المحلي ،في معظم الاقطار العربية ،وسيادة هذا الحكم لفترة طويلة نسبيا ،ادى الى التباعد بين الدولة في استامبول ،والولايات العربية المختلفة ،كما كان الحال في نيابات تونس،والجزائر ،وشرافة الحجاز ،والحكم المملوكي في العراق ،ومصر .. الخ . وهذا شجع النزعة الاستقلالية ،في نفـــوس شعب تلك المقاطعات ،وانصرافه الى ذاته ،والتفكير في احواله الخاصة . كما انهـــا بالمقابل ،ساعدت على القيام بتحركات انفصالية كاملة في بعض تلك البقاع ،في اواخـر القرن الثامن عشر ،كحركة علي بك الكبير في مصر ،وظاهر العمر في بلاد الشام . ولـم تكن الحركات ذات طابع اقليمي محدود ــ كما رأينا ــ بل كانت ذات طابع متسـع، يرمي الى تخليص اكبر مساحة من البلاد العربية ،من الحكم العثماني ،والسيـــادة عليها . ولتحقيق تلك الاهداف ،لم يجد اولئك الحكام غضاضة من مد يدهم الـــى الدول الاوربية ،لاعانتهم في تنفيذ غاياتهم . وعلى الرغم من اخفاق تلك الحركـــات، الا انها شجعت في نفس الشعب العربي ،وبخاصة في المشرق العربي ،روح الرفـــض

للحكم العثماني والتمرد عليه ،واشعرته بذاته الخاصة التي كانت سابقا قد التصقت بذاتيه الدولة المسلمة لفترة طويلة .

ثالثا ـ أضعف فقدان الهيبة العامة للدولة في الداخل ،والخارج ارتباط الشعب العربي المسلم بها ،وادى الى انفكاكه التدريجي من حولها ،ونفوره من سيادتها . وهذا دفع مفكريه الى البحث في "المصير العربي" و "المصير الاسلامي" على السواء ،وفي ايجاد حلول يستأصل بها عوامل فقدان الهيبة ،وتجدد الحياة في حنايا العروبة والاسلام .

وقد كنا في الفصل الثاني من الباب الاول ،قد اشرنا في أكثر من مناسبة الى اسباب ضعف الدولة العثمانية ،ولكن لابد من جمعها ،حتى تكون الصورة المرسومة لذلك الضعف اكثر وضوحا . ويمكن تلخيصها بالنقاط التالية :

١ـ اعتماد المؤسسة الحاكمة العثمانية على شخصية السلطان الاوتوقراطية ، وضعف السلاطين الذين توالوا على الحكم بعد سليمان القانوني ،وانجرافهم وراء حياة الدعة بعد فترة الجهاد ،التي خاضها السلاطين الاول ، وانغماسهم في حياة البذخ والترف واللهو ،وانصرافهم عن تدبير شؤون الرعية بأنفسهم ،وتسليمهم ذلك لموظفين معظمهم غير اكفياء للمناصب التي تولوها .

هذا بالاضافة الى ان معظمهم قد وصل الى الحكم وهو لا يعرف شيئا عن اوضاع دولته وكيفية سياستها ،اذ انتقل مباشرة من العزلة المفروضة عليه ، الى عرش السلطنة نتيجة نظام الوراثة المتبع ،ومعاملة السلاطين القائمين على الحكم لامراء البيت المالك .

٢ـ تفشي الرشوة في كل مجالات الدولة ،واستناد الحكم الى القيمة المادية للمنصب لا الى الكفاية والقدرة الذاتية . فكل وظيفة اصبح لها ثمن يدفعه طالبها الى اصحاب المناصب الكبرى ،الذين هم بدورهم قد دفعوا ثمنها الى من هم اعلى منهم، حتى يصل التسلسل الى السلطان نفسه . وهذا ادى بالطبع الى وصول كثير من الجهلة والفاسدين الى مناصب رفيعة في الدولة .

٣ـ انحطاط الجيش بكل فرقه ،الانكشارية ،والفرسان ،والمدفعية ،واختلال نظامه الاساسي ،وتدخل هذا الجيش بامور الدولة ،وثوراته العديدة على السلاطين

والولاة ،وتنصيب السلاطين وعزلهم . وهكذا بعد ان كان الجيش العثماني هـــو الدعامة الاولى في بناء الامبراطورية العثمانية ،والسيف الذي ارهب اوربا عدة قـرون، فانه عدا عنصر فوضى وشغب ،وفقد قدرته على الدفاع عن الامبراطورية ،وفي وقـــت كانت هي بأشد الحاجة اليه ،لتذب عن حدودها ،التي اخذت تضغط عليها الدول الاوربية بكل ثقلها ،وبوسائل حربها الجديدة .

٤ــ ظهور التفكك في التركيب السكاني للامبراطورية العثمانية .فالرعية التركيـة كانت تؤلف في الواقع قطعة من الفسيفساء ذات رسوم متعددة والوان متنافرة .ففيهـا العديد من الاجناس،واللغات،والعادات والتقاليد ،والمذاهب الدينية . فهنـــاك الترك ،والعرب،والشركس ،والارمن ،والاكراد ،والبلغار ،والصرب،والرومان ،واليونان والالبان . وكل له عاداته ،وعقليته ،وآماله ،وتاريخه ،وكل يكوّن كتلة متنافرة عن الاخرى. واذا كانت رابطة الدين تربط العرب ،والشركس ،والاكراد ،والالبان ،برباط من الود والتلاصق مع الاتراك الحاكمين ،فان عامل الدين نفسه ،ابعد الشقة بين الاغريـق ، والبلغار ،والارمن ،والصقالبة ،المسيحيين ،وبين العثمانيين المسلمين . فأولئك غيـر متساوين نظريا في الحقوق مع الرعايا المسلمين ،وان كانوا يتمتعون بالواقع بامتيازات قد تفوق ما للمسلمين منها . اذ ان الدولة كما لاحظنا في السابق ،قد تركت لهـم الحرية الدينية ،وحرية العمل في مدارسهم ،وجمعياتهم ،وقوانينهم الدينية الكنسية. وبذلك كانوا يتصرفون بادارة شؤونهم الخاصة ،وكأنهم امم مستقلة داخل الدولة . وقد كان من الممكن لو ان الدولة العثمانية كانت ذات حضارة متألقة ،ومتحركة ،ان تصهـر تلك الشعوب في بوتقتها الى حد ما ،الا انها كانت ملتفتة الى الحرب،ومن ثم اخذت تلك الشعوب ،وقد تركت لنفسها ،تعيش في نطاق ذاتها ،ولا ترتبط بالدولـــة الحاكمة سوى برباط التبعية ،الذى شرعت تحس بثقله مع الزمن . وجاءت الدول الاوربية المسيحية لتقوي هذا الاحساس ،وتشجع الروح الانفصالية بين تلك العناصـر غير المسلمة ،فادعت روسيا حماية الارثوذكس في الامبراطورية ،وفرنسا الكاثوليـك ، وانكلترا البروتستان ،فتحول رعايا الدولة ،من اتباع كل مذهب من تلك المذاهـــب، بابصارهم نحو الدولة الحامية .

اما الشعب العربي المسلم ــ وقد اشرنا الى ذلك ــ فقد اخذ هو الاخر يتململ منذ اواخر القرن الثامن عشر ،يفكر في الانفصال عن الامبراطورية ، يشجعه على ذلك

بعض الولاة الاقوياء مستغلين ضعف الدولة واخفاق الاصلاح فيها ،وتماديها في القسوة في جباية الضرائب ،وسوء الاحوال الاقتصادية ،وخضوعها لضغط الدول الاجنبية . حتى ان سياسة الدولة ،الداخلية والخارجية على السواء ،كانت تستوحى من دار السفارة الاكثر نفوذا في استامبول .

وهكذا يشاهد كثرة الحركات الاستقلالية عن جسم الامبراطورية العثمانية في اواخر القرن الثامن عشر ،وفي القرن التاسع عشر ،ولا سيما ان مبادىء الثورة الفرنسية في الحرية والاخاء والمساواة ،والقومية قد انتشرت بين شعوبها وتلقفتها تلك الشعوب بنهم .

٥ــ الاقتصاد المضعضع نتيجة السياسة الاقتصادية التي حافظت فيها على الاسس القديمة ،والتي لم تسيّرها تبعا لتطور الاقتصاد العالمي ،مما حولها الى سوق استهلاكية لمصنوعات اوربا النامية ،وضرب اقتصادها في الصميم . ولا سيما انها كانت تتوسع تدريجيا في الامتيازات التي كانت قد اعطتها للدول الاوربية منذ القرن السادس عشر .

٦ــ تقدم اوربا وتفوقها السياسي والعسكري على الدولة العثمانية ،وانتقالها من موقف الدفاع الى موقف الهجوم ،وحملها لمطامح توسعية كبيرة في نطاق الامبراطورية العثمانية . فقد حاولت تلك الدول منذ القرن السابع عشر ،وضع المشروعات العديدة للقضاء عليها واقتسام ممتلكاتها ،ونجح بعضها في اقتطاع بعض الاجزاء الغربية منها، في صلح كارلوتز عام ١٦٩٩ ــ كما ذكرنا ــ .واذا كانت الدول الغربية كفرنسا وانكلترة ،لم تظهر تلك المطامح في تلك الحقبة الزمنية ،وتجسدت رغبات القضاء عليها في (روسيا) ،الدولة الناهضة حديثا ،و(النمسا) العدو التقليدي لها ،فانهما اسهمتا في هذا الميدان ،في اواخر القرن الثامن عشر ،وفي التاسع عشر . وهكذا ظهر في اوربا ما يطلق عليه في العرف الدبلوماسي والتاريخي اسم المسألة الشرقية " .

و " للمسألة الشرقية " في الحقيقة مفهومان اساسيان : مفهوم عام ،ومفهوم خاص. اما المفهوم العام ،فيقصد به جميع العلاقات السياسية بين الشرق والغرب. وبذلك ترجع جذور " المسألة الشرقية " الى العلاقات بين الفرس واليونان ،والى " الحروب الميدية " بالذات ،يوم انهاجم الفرس بلاد اليونان في القرن الخامس ق.م ،ثم

الحركة الانتقامية الاغريقية التي تمثلت بالحروب التي شنها "اسكندر المقدوني." في القرن الرابع ق . م . كما انه تحت هذا المفهوم العام تدخل فتوحات العرب المسلمين في اوربا ، أكان من جهة الشرق ، او الجنوب الغربي ، عن طريق حصار القسطنطينية ، او ضمهم لاسبانيا وجنوبي فرنسا وايطاليا ، ثم توقف تلك الفتوحات المزدوجة باستشهاد "الغافقي" في (بواتيه) وتراجع مسلمة "عن القسطنطينية، ثم كانت ردة اوربا الثانية على الشرق ، في "الحروب الصليبية" في اواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر، وحمل الشرق مرة ثانية لواء الهجوم على اوربا في عهد الدولة العثمانية . وقد بلغت حدة الخلاف بين الطرفين اقصاها عام ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٣م حين قضى "محمد الثاني" على الدولة البيزنطية، واتخذ عاصمتها "القسطنطينية" مركزا لدولته .

اما المفهوم الخاص للمسألة الشرقية، فهو علاقات الدول الاوربية مع الدولة العثمانية، وبخاصة منذ نقطة التأزم هذه ، وهي فتح القسطنطينية ، حتى زوال هذه الدولة . او بمعنى آخر ، هي علاقات الدول الاوربية بالدولة العثمانية في مرحلة قوتها ، وفي مرحلة ضعفها .

ويتفرع هذا المفهوم الخاص بدوره ، بحسب المرحلة الزمنية ، الى فرعين: الفرع الاول، ويضم علاقات الدول الاوربية بالدولة العثمانية ابان قوتها ، وحتى اواخر القرن الثامن عشر ، والفرع الثاني ، وهو اكثر ضيقا ، وتخصصا ، فيعني مواقف الدول الاوربية من ضعف الدولة العثمانية ، في القرن التاسع عشر بالذات، وصلاتها بشعوبها ، وسياسة تلك الدول تجاه بعضها بعضا ، نتيجة لمواقفها تلك من الدولة العثمانية . ولقد ظهر تعبير "المسألة الشرقية" ، بهذا المعنى ، في الاجتماعات الدولية السياسية التي عقدت اثناء (مؤتمر ڤيرونا) ١٨٢٢ .

اما علاقات الدول الاوربية بالدولة العثمانية بموجب الفرع الاول ، فتلخص بالنقاط التالية :

١ـ حاولت البابوية ان تجمع الدول الاوربية المتمايزة قوميا ، بعد فتح القسطنطينية، في عمل صليبي مشترك يوقف التقدم العثماني في اوربا . وهي وان لم تتمكن من النجاح المباشر، الا انها استطاعت منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، ان تجمد الفتوحات العثمانية وتمنعها من الانسياح بعيدا .

٢ـ عملت بعض الدول الاوربية ، وبخاصة الغربية منها ، على عقد اواصر الود

والصداقة مع الدولة العثمانية . وهدفها من ذلك ،ان تفتح لها الدولة العثمانية ابواب امبراطوريتها الواسعة للتجارة ،والكسب الاقتصادي ،وان تكون لها ،وهي الدولة القوية المسيطرة على الجزء الاكبر من حوض البحر المتوسط حليفا قويا ضد " اعدائها الاوربيين " . وهذا ما فعلتهفرنسا في عهد الملك " فرانسوا الاول "عندما وقع مايسمى " بالامتيازات "عام ١٥٣٥ ،مع السلطان سليمان القانوني ،وتحالف معه ضد اسبانيا . وقامت به انكلترة في عهد الملكة " اليزابيت "عام ١٥٨٠ ،عندما نالت من السلطان امتيازاتها التجارية ،التي استفادت منها شركة "اللڤانت" ،وارادت ضمنيا ان تكسبه الى جانبها في صراعها مع اسبانيا . وما سعت اليه ،الاراضي المنخفضة" اوهولاندة" عندما حصلت هي الاخرى على اتفاق تجارى مماثل عام ١٦١٢ ،ولعلها كانت تريد هي الاخرى تأييدا عثمانيا ضد الاسبان الذين ثارت ضدهم وشكلت دولتها المستقلة عنهم. ولذا فان موقف هذه الدول وبخاصة فرنسا وانكلترة ،كان الحفاظ ما امكن على علاقات الود والصداقة مع الدولة العثمانية ،حتى غدا هذا الموقف تقليديا في سياسة الدولتين .

٣- بقيت النمسا ،هي خط الدفاع الاول عن اوربا ضد الامبراطورية العثمانية. ولذا ،فعلى الرغم من معاهدات الصلح التي كانت تعقد بينها وبين الدولة العثمانية، فان جو التوتر ظل سائدا بين الدولتين ،وكانت تؤيد النمسا في موقفها العدائي من الدولة العثمانية ، اسبانيا والبندقية وبولونيا ،ثم انضمت في اواخر القرن السابع عشر روسيا .

٤- ظهور روسيا . ظهرت في القرن السابع عشر ،دولة اوربية قوية على تخوم الامبراطورية العثمانية ،وهي روسيا ،لعبت دورا فعالا في "المسألة الشرقية"،وتحريك العلاقات الدولية . فقد اعتبرت هذه الدولة الارثوذكسية نفسها وريثة للدولة البيزنطية ،نتيجة زواج قيصرها "ايڤان الثالث" في عام ١٤٤٢ من "صوفيا "آخر اميرة من "اسرة باليولوغ" البيزنطية . وقد شرعت هذه الدولة تفكر جديا في استرجاع الامبراطورية البيزنطية ،منذ اواخر القرن السابع عشر ، عندما تسنم عرشها القيصر المصلح " بطرس الاكبر " (١٦٨٩-١٧٢٥) ،واعلن انه سيعمل على اخراج العثمانيين من اوربا ،واحياء دولة ارثوذكسية ،عاصمتها ،القسطنطينية . وتبعت القيصرة "كاترين الثانية " (١٧٦٢-١٧٩٦) هذا الهدف السياسي ،وعملت جديا على تحقيق الحلم الروسي ، وتمكنت من استخلاص شبه جزيرة القرم ،وسواحل البحر

الاسود من الدولة العثمانية . وسعت في المعاهدات التي وقعتها مع الدولة العثمانية،وبخاصة معاهدة (كوشوك قينارجة) عام ١٧٧٤،ان تنال اعترافا بحق تأسيس كنيسة في القسطنطينية،وان تفسر توابع هذا الحق بحق حمايتها للارثوذكس في الدولة العثمانية .

ولقد اقلقت هذه السياسة الروسية الدول الاوربية ،وبخاصة فرنسا وانكلترا ،والى حد ما النمسا . فاذا كانت جميع الدول كارهة لوجود الاتراك في اوربا ،وراغبة في اخراجهم منها ،فانها كانت منقسمة على نفسها حول من يحل محلهم في تلك البقاع. فقد خشيت فرنسا وانكلترة ،اذا ما نجحت روسيا في تحقيق حلمها ،ونفذت الى البحار الدفيئة ،ان تهدد هما في مناطق نفوذهما في البحر المتوسط ،وتفوز بالوصاية على شعوب البلقان ،فيختل بذلك التوازن الدولي في اوربا . ولذا يشاهد في اواخر القرن الثامن عشر ،تغير ملحوظ في المواقف التقليدية لهاتين الدولتين : فبعد ان كانتا حريصتين على الحفاظ على كيان تلك الامبراطورية ،فانهما اتخذتا موقفا مغايرا، وعملتا للحصول على مكاسب اقليمية في الامبراطورية ،قبل ان تسبقهما الدول الاخرى الى ذلك .

اما علاقات الدول ،بموجب الفرع الثاني للمفهوم الخاص للمسألة الشرقية ،فقد ظهرت عدة عوامل في السياسة الدولية ،وفي حياة الامبراطورية العثمانية نفسها ، جعلت من المسألة الشرقية قضية اوربية معقدة ، كما جعلت منها مسألة ترتبط بشؤون البلاد العربية ،ارتباطا وثيقا ،وتؤثر في تطورها،واحداثها السياسية الداخلية .

واهم تلك العوامل :

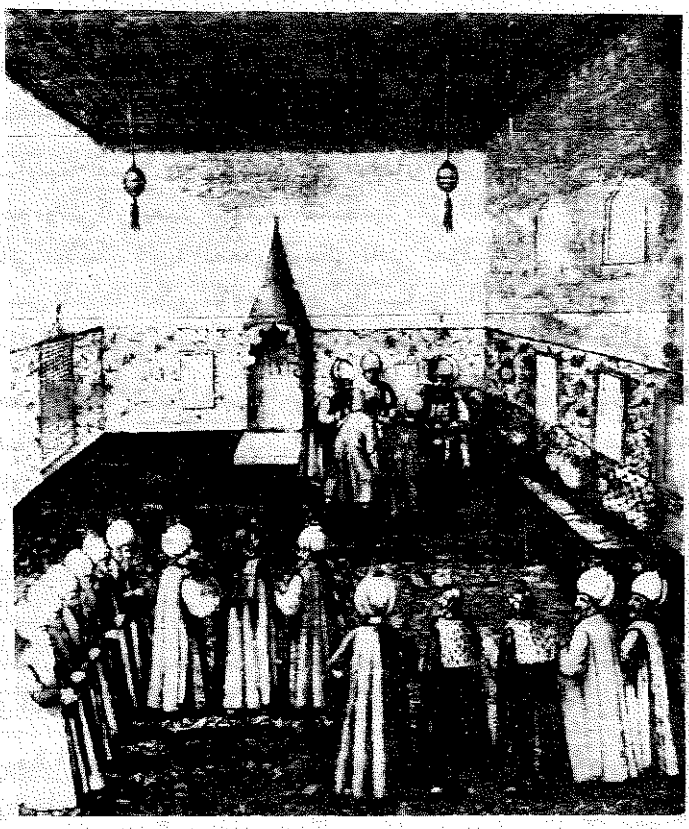
- ظهور الحركات القومية لدى شعوب الامبراطورية العثمانية وثوراتها الاستقلالية كالحركة القومية في اليونان ،وبلاد الصرب ،والرومان ،والبلغار ،ثم العرب .
- الاستعمار الاوربي ،ومطامح كل دولة في بقاع معينة من الامبراطورية العثمانية .
- تزايد ضعف الدولة العثمانية ،واستغلال الدول الاوربية لهذا الضعف .
- اندفاع روسيا بحزم ،نحو تحقيق حلمها ،ومشروعاتها ،في السيادة على البقاع الهامة من الامبراطورية العثمانية ،التي كانت خاضعة في الماضي للدولة البيزنطية والنفوذ الى البحر المتوسط . وهي التي اطلقت على الدولة العثمانية الضعيفة

اسم "الرجل المريض" .

ـ ظهور دول قومية جديدة ،وقوية ،لعبت دورها في الأخرى في "المسألة الشرقية" وكان لها ثقلها فيها كألمانيا وايطاليا .

ويمكننا القول اخيراً بأن "اليقظة العربية" نفسها ،كانت في تحركها الدولي جزءا من "المسألة الشرقية" .

****



استقبال السلطان لسفير اوربي

الفصل الثالث

التحدي الأوربي

تمهيد "

يتضح لنا مما سلف، ان المجتمع العربي قد عاش تحت حكم الدولة العثمانية، ودولة الاشراف السعديين، فالعلويين، في المغرب الاقصى منه، حتى القرن الثامن عشر حياته التقليدية السالفة، في جميع الميادين، دون ان يجدد بها تجديدا ذا بال. وفي الواقع كان ذاك المجتمع يهدهد اثناء تلك الحقبة الطويلة من الزمن ثقته بنفسه، ويقنع ذاته بتفوقه على العالم الاوربي مستمدا ذلك من مصدرين :

ـ اولهما "نفسي" : وهو اعتقاده، ان الحضارة العربية الاسلامية الخصبة التي اينعت على ارضه، والتي كان يعيش في تلافيف مخلفاتها، هي الذروة في المفهوم الحضاري الانساني، ولا يمكن لاوربا العصور الوسطى، التي تعرّفها ابان "الحروب الصليبية"، ان تخرج من تأخرها الفكري، والاقتصادي، والسياسي، الذي كانت عليه، وتنهض، وتتطاول في عطائها الحضاري، الى مستوى تلك الحضارة العربية الاسلامية، مهما حثت الخطا.

ـ ثانيهما " مادي واقعي " : وهو القوة الحربية الكاسحة للدولة العثمانية المسلحة التي حكمته، وموقفها الجهادي الاول، المجابه لاوربا والقاهر لها، وخوف هذه الاخيرة منها، مما حجب عنه، ادراك عمق الثورة، التي كانت تعيشها تلك القارة في مطلع العصور الحديثة، واسدل ستارا كثيفا، دون تفهمه لمدى تطورها السريع والشامل، الذي مس جميع مجالات الحياة فيها، من فكرية، وفنية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية. وكان يزيد من كثافة ذلك الحجاب، الفئة المثقفة الدينية " العالمة " التي عملت على دعم التقاليد السالفة، بغشها وسمينها، وصب فكره في قالبها، والغرق الصوفية التي اغرقت تفكيره في تيه من البدع والترهات.

وهكذا، فان المجتمع العربي، لم يشعر وهو سادر في اتكائه على نفسه، واجتراره لافكاره الخاصة، بتحدي الغرب له، حتى عندما تحداه هذا الغرب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لا بنموه الحضاري فحسب، وانما بتهديده لوجوده الاقتصادي، بل ولارضه، كمهاجمة فرنسا وانكلترة لمراكز في الجزائر في القرن السابع عشر. فهو في

الحقيقة لم يكن يشعر بمسؤولية الدفاع عن ذات الوجود ، لان تلك المسؤولية قد حملتها عنه الدولة القوية الحاكمة ، التي اسلم لها قياده وحمايته . فهو سلبي ، وليس له من الامر شيء ، اذ لا يتمتع حتى بحق المشاركة في الدفاع عن ارضه ، والذب عنها ، لانه لا يكوّن عنصرا منظما ومدربا من عناصر الجيش في الدولة العثمانية الحاكمة .

الا انه في القرن الثامن عشر استفاق ، ليرى ان الدولة التي اعتمد عليها في حمايته ، قد فقدت مقود تغيير الاحداث ، وان اوربا شرعت تتسلل اليه محتلة ، ومستعمرة ، ومتحدية باحتلالها ارضه ، وبنقلها معها لمفهوماتها ، وقيمها الحضارية المتحركة ، وجوده الساكن ، وقيمه الحضارية المجمدة . فالاستعمار الاوربي التدريجي ، لمختلف اجزاء الوطن العربي ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، وحتى الحرب العالمية الاولى ، كان اذاً عامل تحد كبير للمجتمع العربي ، هز كيانه وفتّح بذرة اليقظة في اعماقه ، ودفعه للخروج من قوقعة ذاته . فلقد اظهر له "التحدي الاوربي" :

١ــ اطماع اوربا الشرهة في جميع اجزاء ارضه . تلك الاطماع التي كان يحركها التطور الاقتصادي ، والانقلاب الصناعي ، والحاجة للمواد الاولية ، والاسواق .

٢ــ عجز الدولة الحاكمة له ، وهي العثمانية ، عن الوقوف في وجه تلك الاطماع .

٣ــ ضعف بنيته الاقتصادية والسياسية ، امام بنية المجتمع الاوربي الحديثة وحضارته اليانعة .

٤ــ ضرورة تطوير تلك البنية بالاعتماد على الذات اذا اراد البقاء والثبات .

ولا بد في هذا المجال من تأكيد الامور الآتية :

١ــ ان اوربا في اواخر القرن الثامن عشر ، وحتى الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، كانت تعيش عصر ثورات (١٧٧١ــ١٨٧١) : فهناك الثورة الكبرى ، وهي الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، التي نادت بالحرية ، والمساواة ، والاخاء ، وحق تقرير الشعوب لمصيرها ، وهناك "الثورات القومية" العديدة ، التي كان ابرزها تكوّن (الوحدة الايطالية) عام ١٨٧٠ ، و(الاتحاد الالماني) عام ١٨٧١ ، و"الثورات الديموقراطية" التي كانت تطالب بالحكم الدستوري .

٢ــ الى جانب تلك الثورات السياسية التي كانت البورجوازية قائدة لها ، كانت

(الثورة الاقتصادية) التي تمثلت "بثورة صناعية ـ تقنية" شملت جميع مناحي الحياة، فحلت الآلة محل اليد العاملة، ونجم عن ذلك انقلاب كل الاسس الاقتصادية السابقة. ورافق الثورة الصناعية ثورة تجارية، في وسائل التعامل التجاري، وطرق المواصلات، ونمو المصارف، وتأسيس مخازن البيع الكبرى، الى غير ذلك من تطورات.

٣ـ ورافق الثورة الاقتصادية والسياسية (ثورة اجتماعية) اظهرت الى حيز الوجود طبقة رأسمالية صناعية وتجارية تقبض على وسائل الانتاج، وطبقة عاملة فقيرة مهيضة الجناح، اخذت تستفيق تدريجيا وتطالب بحقوقها، فنشأت "الحركة الاشتراكية" بتشعباتها ونظرياتها العديدة، وابرزها "الاشتراكية العلمية" التي دعا اليها "كارل ماركس".

٤ـ وفي صلب تلك الثورات كانت (الحركة الفكرية التقدمية الحرة، والاشتراكية) تواكب تلك التطورات او تتقدمها. وساعد على سعتها وانتشارها، اتساع نطاق التعليم والنهضة العلمية الضخمة، التي لم تر اوربا مثيلا لها من قبل. فاوربا هذه هي التي تحدت العرب في القرن التاسع عشر. وكان اول تحد كبير صادم، جابه به الاستعمار الاوربي العرب، هو الحملة التي وجهتها فرنسا، بقيادة "نابليون بونابرت" الى مصر عام ١٧٩٨.

أولاً ـ الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣-١٢١٦هـ/١٧٩٨-١٨٠١م

لن نخوض في تفصيلات هذه الحملة، وانما سنبحث فقط في دوافعها، ونتائجها وعلاقة ذلك باليقظة العربية.

وترجع اسباب الحملة الفرنسية على مصر، الى رغبة فرنسا في انشاء مستعمرة لها في المشرق العربي. وقد دفعها الى ذلك الامور الآتية:

١ـ فقدانها معظم مستعمراتها بعد معاهدتي "اوترخت" عام ١٧١٣ "وباريس" ١٧٦٣، ولا سيما في جزر الهند الغربية. فارادت ان تعوض بعض ما فقدته بتحقيق بعض المشروعات الاستعمارية الجديدة. وقد وجه الفرنسيون المؤيدون "للاستعمار الجديد" "الانظار الى ضرورة كون "المستعمرة الجديدة" في الشرق، وفي بقعة، تتمكن فرنسا ان تجلب منها المنتجات، التي فقدتها بفقدانها لمستعمراتها، في جزر الهند الغربية. وفي الوقت ذاته، على فرنسا أن تقيم استعمارها على اسس جديدة

غير الاسس السابقة ،التي وجه اليها المفكرون الفرنسيون ،في القرن الثامن عشر ،نقدا شديـــدا .

وتركزت ابصار الفرنسيين الاستعماريين على مصر بالذات :

ـ" اولا ": لان فرنسا كانت منذ الماضي ،تسعى لتحويل تجارة الشرق ،الى طريـــق البحر الاحمر، فالبحر المتوسط ،مارة بالطريق البرية ،بين السويس والقاهرة . لانها الطريق الاقرب لها ،الذى بواسطته ،يمكنها ان تنافس تجارة انكلترة ،المسيطرة على طريـــق رأس الرجاء الصالح ،بسيادتها البحرية فيه ،بل وتقضي عليها . وكانت آخر مساعيهـــا في هذا المضمار ،حصول احد تجارها الكبار وهو " شارل ماغالون Ch. Magallon" على ثلاث معاهدات (في كانون الثاني ١٧٨٥) مع معاليك مصر ،تضمن تجارة فرنسا في هذا القطر ،وتؤمن سلامة انتقالها عبر الطريق البرية الانفة الذكر . هذا علما ، بان انكلترة كانت قد سبقتها في توقيع معاهدة للتجارة والملاحة (في آذاره ١٧٧) تسهل لها استخدام الطريق البريه تلك في نقل البريد والمسافرين . الا ان المعاليك على الرغم من تلك المعاهدات، فانهم لم ينفكوا عن ارغام التجار الفرنسيين ،على دفـــع الاتاوات، كما لم يتوقفوا عن مصادرة متاجرهم . مما دفع " شارل ماغالون " ،الـــى ان يبعث بالشكوى تلو الشكوى الى حكومته ،يطلب منها التدخل . وكان آخر اقتـــراح قدمه لها ،هو ضرورة الاستيلاء على مصر ذاتها ،كخير وسيلة لضمان المصالح الفرنسية. وكان التقرير ،الذى قدمه الى " حكومة الادارة " في شباط عام ١٧٩٨ ،احد التقاريـــر التي قررت مصير الحملة .

ـ" ثانيا ": ما نشره بعض الرحالة الفرنسيين الذين زاروا بلاد الشام ومصر، فـــي القرن الثامن عشر، عن مصر ، ووصفوا فيه وصفا دقيقا ،احوالها ،وخيراتها ،واشاروا الى سهولة فتحها . ومن هؤلاء " البارون دوتوت "، في مذكراته التي نشرها عام ١٧٨٤، والرحالة " ساڤاري " في كتابه " رسائل عن مصر "، الذي نشره في عام ١٧٨٥ـ١٧٨٦، واخيرا " ڤولني " صاحب الرحلة المشهورة التي نشرت عام ١٧٨٧ ، وكانت رحلته تلك اهم ما كتب في موضوع مصر . ولقد انتشر كتابه هذا في كل اوربا ،وركز اذهـــان الفرنسيين على هذه البقعة . لقد كشف " ڤولنـي " في كتابه ،حالة الوهن التي ترزت بها مصر ،وضعف الدفاع عنها ،مما اقنع الفرنسيين بسهولة غزوها . كما انه اشار ،انـه

لا يمكن اصلاح الاحوال فيها ،الا بتحرير المصريين من السيادة العثمانية ،ودخولهم تحت حكم دولة ،تكون صديقة لهم ،وذات حضارة ،حتى ترتفع بهم ،وتنقب عن آثار المصريين القدماء ،وتكشف عن رموز كتابتهم . ولقد فسر كثير من الفرنسيين قول " ڤولني " هذا انه يقصد بالدولة الصديقة " فرنسا " ،وانه يحثها على استعمار مصر. ومع ان " ڤولني " حاول في كتاب آخر ان يكذب هذا التفسير ،الا ان الفرنسيين كانوا قد اقتنعوا ،بضرورة الاتجاه في استعمارهم نحو هذه الاجزاء من الامبراطورية العثمانية ، لتأمين تجارة فرنسا في الشرق ،والحصول على منتوجات هذه البلاد ،من شعير ،ورز ،وقطن ،ونيلج ،وقصب السكر وغير ذلك . كما انها تقودهم الى منتوجات افريقية في الجنوب ،كالعاج ،والتبر ،والمطاط ،والرقيق . هذا فضلا عن ان فتحها سهل ــ بحسب اقوال بعض الرحالة والسفراء والقناصل ــ اذ ان الدولة العثمانية وصلت الى مرحلة الانحلال ،وعلى فرنسا ان يكون لها نصيب من تركتها ،ولتكن هذه الحصة مصر .

٢ــ تطور الاحداث السياسية في اوربا في الفترة التي سبقت احتلال فرنسا لمصر.

فقد تمكنت فرنسا من التغلب على "التحالف الدولي الاول "الذي تشكل ضدها عام ١٧٩٣ ،(انكلترة + النمسا × اسبانيا + هولاندة) نتيجة للثورة الفرنسية ومطامحها ،وموقف الدول المعادية منها . واضطرت النمسا الى توقيع معاهدة " كمبوفورميو" معها (١٧٩٧) ،وانفرط عقد التحالف. الا ان انكلترة بقيت صامدة في موقفها ضدها . ولقد حاولت فرنسا اعداد حملة لغزو انكلترة ،ثم ايلاندة ،الا ان مشروعاتها باءت بالفشل . فاتجهت فرنسا الى تثبيت موقفها في البحر المتوسط ،واعدت مشروعا لاحتلال (مالطة) ذات الموقع الاستراتيجي الهام . وكان " تليران" وزير الخارجية آنذاك ،ويؤيده "بونابرت" ، يعمل حثيثا لكي تتمكن فرنسا من السيطرة على البحار ،وطرد انكلترة منها والقضاء عليها . ولذا فان مشروع السيطرة على البحر المتوسط ،سيتبعه مشروع السيطرة على البحر الاحمر ،والنفوذ منه الى بلاد الهند ،وطرد انكلترة منها ،عن طريق الاتصال بزعمائها وتأليبهم على الدولة المسيطرة . وبذلك تكون فرنسا قد ضربت بسهمين صائبين ؛ضم مستعمرة جديدة والتغلب على العدو اللدود .

واعد للحملة الفرنسية على مصر بالخفاء ،فانتقى "نابليون بونابرت"(٤٠،٠٠٠) جندي ،واتصل بكبار علماء فرنسا ،واتفق معهم على اصطحابه ،ليقوموا بدراسة احوال

مصر دراسة علمية ،وجلب مطبعة عربية ،وتراجمة يتقنون العربية والتركية . وخـــرج الاسطول الفرنسي من (طولون) في١٨ ايار ١٧٩٨ ،وتوقف في (مالطة) حيـــث قضى على حكومة " فرسان القديس يوحنا " فيها ،واغتصب خزانتها . ثم اتجه نحـــو مصر ،فوصل (الاسكندرية) في اول تموز ١٧٩٨ ،وتمكن من احتلالها . واصـــدر منشورا بالعربية افتتحه بالبسملة ، والآيات القرآنية ،واعلن فيه بانه جاء مصر بالاتفاق مع السلطان ،لتأديب المماليك ،وانه صديق للمسلمين محب لتقاليدهم . وفـــي الاسكندرية ،اتبع نابليون الطريق الصحراوي غربي فرع رشيد للوصول الى القاهـــرة . والتقى المماليك بقوات نابليون في (امبابة) (شمالي اهرام الجيزة) ٢١ تمـــوز ١٧٩٨ ،فوجه نابليون اليهم نيران مدفعيته فحصد هم حصدا ،وفر من بقي حيـــا . واضطرت القاهرة التي تخلى عنها المماليك ،ان تبعث بوفد من شيوخها ،لعـــرض الصلح على الغاصب الجديد . ودخلها الفرنسيون في ٢٤ تموز ،وانسحبت فلـــول المماليك الى الصعيد بزعامة "مراد بك " ،والى الشام تحت قيادة "ابراهيم بك " .

ولم يلبث "نابليون بونابرت" بعد ان سمع بتشكيل تحالف جديد ضد فرنسا من انكلترة وروسيا ،والدولة العثمانية ،ان اتجه بجيوشه الى بلاد الشام في شباط عـــام (١٧٩٩) . الا انه اخفق في حملته تلك ،اذ وقفت (عكا) في وجهه.فاضطر،وقـد تأزم الموقف في فرنسا ،ان يعود بجيشه الى مصر ،ومنها الى فرنسا نفسها ،حيث قـام بانقلاب بروميير(١٧٩٩) ،وعين بدلا منه في قيادة الحملة الجنرال "كليبر". الا ان هذا قتل بطعنة خنجر ،وجهها اليه طالب الازهر " سليمان الحلبي"، في حزيـــران ١٨٠٠ . فاسندت القيادة العامة من بعده الى الجنرال " مينو " ،الذي كـان من انصار البقاء في مصر ،مهما كان الثمن . واعلن اسلامه ،وتزوج بامرأة مسلمة من رشيد وتسمى بـ "عبد الله مينو " الا ان انكلترة والدولة العثمانية ضغطتا على الحملة عسكريا فاضطرت فرنسا للتسليم والانسحاب نهائيا من مصر في ايلول (١٨٠١) .

نتائج الحملة " لقد اختلفت آراء المؤرخين حول الاثر الذى خلفته الحملـــة الفرنسية في مصر والبلاد العربية . فبعض المؤرخين العرب،والمفكرين السياسيين ، ينظرون الى الحملة على انها حادث من جملة الحوادث الهامة التي مرت على البـلاد العربية ،والتي لم تترك تأثيرا عميقا فيها ،وينفون ان تكون عاملا في اليقظة العربية(١) .

.....

(١) انظر ساطع الحصرى ،آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ،ص٦٨—١٢٨ .

بينما يرى بعض المؤرخين الاخرين انها كانت بتأثيراتها العديدة نقطة التحول في حياة المجتمع العربي بعامة ،والمجتمع العربي المصري بخاصة ،نقلته من مرحلة السكون والخمود الى مرحلة الحركة والحيوية ،حتى انهم اتخذوا تاريخ الحملة بدءا للتاريخ الحديث لمصر العربية ،والتاريخ الحديث للبلاد العربية كلها .

ومهما كانت حجج الفريقين ،فان الدراسة الموضوعية الهادئة ،تظهر انه كان للحملة آثار ونتائج ،لعبت دورها المباشر ،او غير المباشر ،في تحريك المجتمع العربي في مصر بالذات ،وفي مجموع الوطن العربي . وتجمل تلك النتائج في النقاط التالية

أولا ـ لقد كان احتلال الفرنسيين لمصر ،ثم لبلاد الشام صدمة قوية للمجتمع العربي ،لا تقل عن صدمة الحملة الصليبية الاولى له في اواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر . ولا بد انها هزته ،وفتحت عينيه ،على (عالم اوربا) الذي كان قد غفا عنه ،ولا بد انها نبهته للخطر الجديد ،وايقظت لديه حوافز ذاتية ،دفعته الى التأمل في احواله المنهارة ،والبحث عن حلول لاصلاحها حتى يعود قويا متماسكا .

ثانيا ـ حرضت الحملة الفرنسية ،في نفس الشعب العربي ،وبخاصة المصري ،كوامن الاحساس الوطني ،الممتزج بالشعور الديني ،وصهرتها معا ،لتبلور منها الشعور القومي . كما انها قوت لديه ،الاعتماد على الذات في الدفاع عن النفس. ومن هذا انبثقت "المقاومة الشعبية الضارية " ضد القوة الاستعمارية الفرنسية ،وتجلت واضحة في " ثورة القاهرة الاولى " (تشرين الاول ١٧٩٨) ، " وثورة القاهرة الثانية" (اذار ١٨٠٠) . وما قتل " سليمان الحلبي " للجنرال " كليبر " خليفة بونابرت في الحملة ،سوى مظهر من مظاهر تلك المقاومة ،ودليل على يقظة الشعور الوطني الديني .

ثالثا ـ حملت الحملة الفرنسية الى مصر ،بتوضعها الزمني القصير ،بذور " تكوين دولة " بمفهوماتها الحضارية الحديثة ،اخذها واستفاد منها الوالي " محمد علي "عندما اصبح هو المسيطر على مقدرات مصر . ولقد شارك في التكوين الاولي لتلك الدولة بعض المصريين ،واطلعوا اثناء ذلك على كثير من اسس الحضارة الغربية في بناء الدولة ،ووازنوا بينها وبين الاسس القائمة . فمن المعروف ان " نابليون بونابرت" قد انشأ في القاهرة " الديوان الوطني " ،وجعل على رأسه الشيخ "عبد الله الشرقاوي" وكانت مهمته مساعدة الحكم العسكري في الحكم .وانشئت في الاقاليم دواوين على

شاكلته . وعندما ترأس الحملة "مينو"، فانه عمل حثيثا لاستكمال التنظيم الاداري ، والاقتصادي للبلاد . فقد اعد مشروعا لاقامة "نظام جديد للضرائب" على الاسس التي قال بها "الفيزيوقراطيون" في فرنسا قبل الثورة الفرنسية . اى ان الارض هي وسيلة الانتاج الكبرى ، ولذا فيجب ان تقتصر الضرائب على ضريبة واحدة تفرض عليها . وانشأ سجلا للمواليد والوفيات . وقام العلماء المرافقون للحملة ، باجراء تجارب على زراعة قصب السكر ، والبن ، وشكلت لجنة للزراعة ، واصلحت بعض القنوات ، واقيمت بعض الجسور . ومثلما اراد التجديد في الزراعة ، فانه سعى كذلك لانشاء مصنع لاقمشة الجند ، ومصنعا للصابون . وفي ميدان التجارة فانه بدأ باصلاح ميناء الاسكندرية ، والطرق البرية ، وشجع التجارة الخارجية ، ووسع صلاته مع البلدان المجاورة ، كالحجاز ، والحبشة ، ودار فور . وحاول ان يقيم علاقات طيبة مع طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب .

ويضاف الى ذلك ، ان "نابليون بونابرت" اعاد الى الشعب العربي في مصر حق الاشتراك في الحكم بعد ان كان الحكم التركي قد اقصاه عنه . فقد جاء في منشوره الذى اصدره في الاسكندرية في تموز ١٧٩٨ ، : "ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعدا لا ييأس احد من اهالي مصر في الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيسيّرون الامور وبذلك تصلح حال الامة"(١).

رابعا ـ احاطت قيادة الحملة التكوين الحديث للدولة ، بالاطار الحضاري الرئيسي المتمم ، وهو الاطار الفكري المعاصر . فقد كوّن العلماء الذين حملتهم الحملة معها ، "المجمع العلمي المصري" برئاسة الراضي "مونج" وقسم اعضاء "المجمع" الى اربع مجموعات : مجموعة للقيام بالابحاث الرياضية والطبيعية ، ومجموعة للابحاث الاقتصادية ، ومجموعة للفنون ، ورابعة للآداب . ولقد انصرف العلماء الى دراستهم بجد . وكان لتلك الدراسات اهمية كبيرة بالنسبة لمصر ، وللعلم الانساني بعامة ، اذ بدأت اشعة خافتة من العلوم الاوربية المتقدمة تطل على المجتمع العربي ، وشرعت بذور من الثقافة الغربية اليانعة ، تجد طريقها الى الارض العربية لتتلاحم مع بذرة اليقظة العربية الاصلية . ولقد كانت تنشر بحوث هذا المجمع في صحيفة خاصة هي "بريد

.....

(١) الدكتور علي الخربوطلي : القومية العربية من الفجر الى الظهر . ص٣٦ .

مصـــر Le Courrier d'Egypte. ولقد جمعت تلك الابحاث في شبه موسوعـــة عن مصر ،اعطيت اسم "وصف مصر" ،وضمت اول مصور جغرافي صحيح لمصر. ولا يزال لتلك الدراسات اهميتها وقيمتها الى الآن . ومن المعروف انه عبر ابحاث هـــذا المجمع درس مشروع لقناة السويـــس ،كما عثر على "حجر رشيد" الذي حلّت عن طريقـه رموز الكتابة الهيروغليفيـة .

وبالاضافة الى "المجمع العلمي" ،فقد نقلت الحملة معها اجهزة "الطباعـــة العربية" ،التي تعتبر عاملا هاما في اليقظة العربية .

خامسـا ــ لقد تمكنت الحملة من الناحيه السياسية الاجهاز على السلطة المملوكية في مصر ،مما مهد الطريق لظهور "محمد علي" ،الذى عمل على تثبيت "البناء" الحديث للدولة "ذلك البناء" الذى غدا نموذجا للعرب والاتراك على السواء ،ومثلا يقتدى. وكان مظهرا من مظاهر اليقظة العربية ،وعاملا فاعلا فيها .

سادسا ــ اثارت الحملة اهتمام انكلترة بمصر ،وبالاقطار العربية المطلة على البحر المتوسط بخاصة ،فتحولت اطماعها اليها ،والى مصر بالذات . وبدأت منذ ذلك الوقت، "المسألة المصرية" التي هي جزء من "المسألة الشرقية" . وستبقى انكلتـرة منذ ذلك التاريخ عنصرا اساسيا من العناصر السلبية المعيقة لليقظة العربية .

ثانيـا ـ حملة فريزر على مصـر ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٧ م

وقد كانت التحرك الانكليزى المسلح الاول ضد البلاد العربية ، اذا نظرنا الى ان الجيوش التي انزلتها انكلترة في مصر في آذار (١٨٠١) كانت موجهة ضد الحملـة الفرنسية فيها ،لا ضد مصر بالذات . واسبابها ،ان انكلترة شعرت بقيمة مصـــر الاستراتيجية في طريق الهند ــ كما اشرنا الى ذلك سابقا ــ ،فبعد ان اخرجت فرنسا منها ،اخذت تسعى للحلول محلها . فتباطأت اولا في سحب قواتها حتى بعد "صلح اميان" ،اى حتى عام ١٨٠٣ ،وكونت لنفسها اثناء وجودها ذاك فئة من العملاء مـــن مماليك امثال "الالفي" . وعندما رأت ان الامور تسير في مصر بعد خروجهـا منهـا لغير صالح هؤلاء المماليك ،وان مصر تتجه اتجاها استقلاليا ذاتيـا بعـــد

تولية "محمدعلي" عليها ،الذى شرع يقصقص اجنحة المماليك حلفائها ،فانها اخذت تعمل لدى "الباب العالي" بالوسائل الدبلوماسية لعزله . ولما لم تفلح ،فانها لجأت الى العمل العسكرى ،فأنزلت حملة مؤلفه من سبعة آلاف جندي في الاسكندرية، في ١٧ آذار ١٨٠٧،بقيادة الجنرال "فريزر" وتمكنت من احتلالها ،واتجهت نحو رشيد . الا ان المقاومة التي قابل بها الشعب في رشيد جنود الاحتلال ،ردت المغيرين على اعقابهم ،واضطرت الحملة ان تجلو ،عن الاسكندرية في معاهدة وقعتها مع محمد علي في ايلول ١٨٠٧ ،بعد ان خلفت الاثار الهامة التالية :

أ ـ دعمت الشعور الوطني الذى حرضته الحملة الفرنسية سابقا ، وزادت الشعب ثقة بذاته .

ب ـ جعلت الشعب يلتفت نحو محمدعلي ،ويساعده في البناء الجديد لدولة مصر، وينفضم عن المماليك المناوئين له ،مما جعله يتقبل استئصال شأفتهم نهائيا في حادث القلعة المشهور (١١ آذار ١٨١١) دون ان يحرك ساكنا .

جـ ـ اظهرت العداء الانكليزى السافر لحكم محمدعلي في مصر ،دفعته الى الاعتماد اكثر فأكثر على فرنسا في تنفيذ مشروعاته الاصلاحية ،وسياسته العربية ،مستغلا العداء القائم بين فرنسا وانكلترة ،والتباين في سياستيهما تجاه الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر .

د ـ نبهت الشعب العربي في البقاع الاخرى الى ان الخطر الاوربي لم ينته بخروج الفرنسيين من مصر ،بل ان اوربا بمختلف دولها ،جادة في بسط سيطرتها بطريقة ما على البلاد العربية .

ثالثاً ـ حملة إكسماوث الانكليزية على الجزائر ١٢٣٢هـ/١٨١٦م (١)

ذكر سابقا بأن نيابة الجزائر قد لعبت دورا هاما في حياة البحر المتوسط في القرن السادس عشر، والسابع عشر ،والثامن عشر ،يلخّص، بانها اعتبرت ذلك البحر بحرا اسلاميا ،واذا ما ارادت الدول الاوربية المسيحية ان تشق عبابه فعليها ان تحصل

---

(١) انظر حولها " E Salame; A Narrative of the Expedition to Algiers in the year 1816 under Lord Ex Mouth. London. 1819

على ترخيص من الدولة الاسلامية عن طريق اتفاقية تعقد بين الطرفين . واذا لم تفعل فان على تلك الدولة ان تمنعها بالقوة ،او تمارس (الجهاد البحري) بضربها لاساطيلها المتجولة في ذلك البحر . ولقد اضطرت الدول الاوربية ان ترضخ لتلك الفروض ،وان توقع اتفاقات مع نيابات بلاد المغرب العربي ،ومنها الجزائر ، وبموجب تلك الاتفاقات كانت الدول تدفع اتاوات معينة الى تلك النيابات ،وان كانت تحاول احيانا ان تتملص ،وان تمارس سياسة القوة ،فتهاجم بين آونة واخرى تلك النيابات ، وبخاصة الجزائر . واكثر الدول صراعا مع تلك الاخيرة كانت فرنسا في القرن السابع عشر ،وكذلك انكلترة .

وبعد بعض الانحطاط الذى اصاب النشاط البحري الجزائري خلال القرن الثامن عشر ،فان النيابة عادت فجددت قوتها البحرية ،مستفيدة من الحروب الاوربية التي شغلت الدول ،اثناء الثورة الفرنسية ،وعهد نابليون .

وعندما انتهت تلك الحروب واجتمع ممثلو الدول في (مؤتمر فيينا الاول) عام ١٨١٤ ،فان مسألة الجزائر طرحت على بساط البحث . وقدمت انكلترة مذكرة الى المؤتمر ،تطالب فيها ،بضرورة قيام اوربا بعمل جماعي ضد ما اسمته بقرصنة المغاربة . ويكون ذلك بالقضاء على حكومة الدايات القائمة ،وايجاد حكومة اخرى تحترم المبادئ الدولية . وحتى لايكون هناك صدام بين الدولة العثمانية والدول الاوربية ،فان هذه الاخيرة ستعمل على تثبيت سيادة السلطنة العثمانية على هذه البقاع ،المنفصلة عنها تقريبا . واقترحت انكلترة لتحقيق ذلك الهدف تأليف قوة بحرية مشتركة .

الا ان "مؤتمر فيينا" لم يشر في قراراته النهائية الى شيء مما ذكر ،وانما وضع مبدأ عاما يحرم القرصنة ،واسترقاق الاسرى .

ولكن انكلترة ،التي اخذت ترى نفسها من دول البحر المتوسط ،بعد ان سيطرت على بعض الجزر فيه ،كمالطة ،والجزر الايونية ،وكانت قد انتزعت جبل طارق سابقا من اسبانيا ،لم يرضها ذلك الصمت ،امام حملات الجزائر المتواصلة في عهد الريس " حميدو "،ضد السفن الاسبانية ،والبرتغالية ،اذ كانت الدولتان حليفتيها . فعملت على ارسال حملة بحرية كبيرة في نيسان عام ١٨١٦ ،لتطوف بالنيابات في شمال افريقيا ، مهددة ،حتى تطلق تلك النيابات ما لديها من اسرى ،وتتعهد باحترام العهد

الدولي المقرر في ڤينا . وكان على رأس تلك الحملة "اللورد اكسماوث" معضدا بالاسطول الهولاندي . الا ان الجزائر برئاسة دايها "عمر باشا" رفضت الانصياع لما طلب منها . فعاد اليها اكسماوث وقد دعم قوته البحرية حتى غدت تضم(٤٢) سفينة حربية كبيرة ،وعرض عليها شروطا جديدة ،كالكف عن استرقاق الاسرى المسيحيين ، والاعتراف بحق اخذ فدية معتدلة عنهم ،ويعترف هو بالمقابل بحق الاسطول الجزائري في ملاحقة سفن الدول التي لم تعقد مع الجزائر معاهدات خاصة . وعندما رفض الداي الشروط،فان الاسطول الانكليزي دخل ميناء الجزائر والحق به اضرارا كبيرة . فاضطر الداي الى توقيع الشروط في آب عام ١٨١٦ .

نتائج الحملة في اليقظة العربية

آ ـ حرضت الشعور الوطني لدى الجزائريين ،وبخاصة لدى الجند ،ورجال الطائفة (الريّس) . فقرروا قتل الداي "عمر باشا" ،لخضوعه لشروط بريطانيا واختيار "الداي حسين" بدلا منه . وقد اضطر هذا الاخير للوقوف مواقف حازمة من مطالب الدول الاوربية ،وبخاصة انكلترة وفرنسا ، اللتين اشتركتا في عام ١٨١٩ بحملة بحرية اخرى ظهرت امام الجزائر باسم اوربا ،وطالبتها باصدار وثيقة رسمية تتعهد فيها بالغاء الرق ،وبعدم التعرض للسفن الاوربية بسوء . ولولا التنافس بين انكلترة وفرنسا ،وشك فرنسا بان انكلترة ،في تزعمها لسياسة القضاء على قوة النيابة الجزائرية ترمي لاحراز مركز ممتاز في الجزائر ،لقامت الدولتان بمهاجمة الجزائر وتدميرها .

كما ان "الداي حسين" هذا ،هو بطل "صفعة المذبة" المشهورة الموجهة الى قنصل فرنسا في الجزائر ،والتي اتخذت سببا لاحتلال فرنسا للنيابة .

ب ـ اشعرت فرنسا ـ وهي الطامعة دائما بالجزائر ـ بأن انكلترة تحوم هي الاخرى حول هذه المنطقة وليس بعيداً ان تسبقها اليها ،فعليها ان تحث الخطا لتكون هي الفائزة .

جـ ـ ظهور عجز الدولة العثمانية في امكان الدفاع عن امبراطوريتها المتفككة . فعلى الرغم من ان وزارة خارجيتها قد ابدت عدم امكانها التوسط بين اوربا،التي شكلت تضامنا مسيحيا بعد (مؤتمر ڤيينا) ضد احدى ولاياتها المسلمة :بين تلك الولاية ـ

وكانت فرنسا قد طلبت منها هذا التوسط ـ ،وعلى الرغم من انها زودت الجزائر بشلات سفن حربية بعد حطة اكسماوث،الا ان موقفها العام كان ضعيفا .

رابعاً ـ إحتلال فرنسا للجزائر ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م

لقد كان هذا الاحتلال في الواقع حلقة من حلقات سلسلة الاستعمار الغربي ضد البلاد العربية ،ذلك الاستعمار الذى انطلق جامحا منذ اواخر القرن الثامن عشر، واستمر على حدته طيلة القرن التاسع عشر ،وكان يستهدف بمجموعه الوجود العربي الاسلامي ،والتثبيت الاوربي على الارض العربية،وان كان قد اتخذ حججا وذرائع شتى لتسويغ حركته هذه .

ويمكن القول ان احتلال فرنسا للجزائر في عام ١٨٣٠ ،كان تحقيقا لاطماعها في هذه البقعة ،تلك الاطماع التي اخذت تظهر منذ اواخر القرن السادس عشر ،عندما بعثت بجالياتها التجارية ،وقنصلها ،الى الجزائر ،لتستفيد من الامتيازات التي كانت قد وقعتها مع الدولة العثمانية سنة ١٥٣٥ ،والتي كانت تجددها بين آونة واخرى ،وتضمن لها حرية التجارة في جميع ممتلكات الامبراطورية العثمانية . فللحفاظ على مكاسبها التجارية في تلك الاجزاء اولا ،ولتوفير الامن لاسطولها التجاري في البحر المتوسط ثانيا ،كانت فرنسا حريصة على ان يكون لها النفوذ في بلاد الجزائر ،وهي المتحكمة بفضل موقعها الطبيعي ، بالملاحة بين حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي، ولذا فانها في حالة اخفاق علاقاتها الودية مع حكام الجزائر في القرن السابع عشر ، كانت تشن الحملات على هذا القطر العربي الاسلامي ،ويلاحظ هذا بخاصة في عهد ملكها «لويس الرابع عشر» الذي كان يرمي الى تحطيم القوة البحرية الجزائرية اولا ،ثم ربما احتلال البلاد والتركز فيها ثانيا .

ويعزى لـ « نابليون بونابرت » مشروع التوسع الاستعماري في النيابات العربية الثلاث طرابلس ،وتونس،والجزائر ، وهدفه من ذلك: <u>اولا</u>: تحويل البحر المتوسط الى بحيرة فرنسية ،وهو مشروع فكر فيه ملوك فرنسا منذ اواخر القرن الخامس عشر . <u>ثانيا</u>: تعويض فرنسا عن مستعمراتها التي فقدتها في جزر الهند الغربية والهند ، <u>ثالثا</u> : فتح الطريق لفرنسا للوصول الى وسط افريقيا ،والاستفادة من التجارة معها . <u>ورابعا</u> :

الاستفادة من خيرات تلك النيابات الاقتصادية . وعلى الرغم من ان المشروع لم يلق النور في عهده ، الا انه لا بد من الاشارة الى ان التقرير الذى قدمه الضابط المهندس "دى بوتان" — وكان قد بعثه نابليون الى الجزائر لدراسة احوالها وطوبوغرافيتها — قد دعا الى ضرورة انشاء حكم "متمدن" في هذه البقعة المواجهة لفرنسا ، وارسال مزارعين اوربيين لتعميرها . الا انه بيّن كذلك ، ان من الصعب اثارة سكان البلاد ضد حكامهم من الترك ، فقد اظهر هؤلاء تضامنا قويا معهم اثناء الحملة الاسبانية عام ١٧٧٥ ، ولكن من الممكن استمالة رجال الطرق الصوفية .

ويبدو من ذلك واضحا ان الهدف الحقيقي لحملة فرنسا على الجزائر ، ليس تأديب الداي لحادثة المذبة المشهور ، ولا الثأر لكرامة فرنسا المهانة ، وانما العمل على تأسيس امبراطورية استعمارية جديدة ، في بقاع قريبة من فرنسا . فهي في الحقيقة المرحلة الثانية بعد مصر ، في انشاء تلك الامبراطورية ، ولو ان كثيرا من المؤرخين لا يرون فيها سوى حركة آنية ارادت منها فرنسا ان تبحث عن نصر خارجي يغطي السياسة الرجعية التي تبناها ملكها شارل العاشر في الفترة السابقة لعام ١٨٣٠ ، ويعيد اليها بعضا من عظمتها الضائعة في اعين العالم الخارجي ، ويمكنها من خرق معاهدة ڤيينا ، التي اتخذت مبدأ من مبادئها عدم اجراء تغيير اقليمي دون موافقة مجموع (التحالف الرباعي) .

ان تلك الاسباب ، التي يعتبرها بعض المؤرخين هي الحركة الدافعة للحملة الفرنسية ، هي فوائد ، يمكن ان تجنيها فرنسا آنيا ، بالاضافة الى الفائدة الاقتصادية الكبيرة والمستديمة من تحويلها الجزائر مستعمرة فرنسية . وهي بذلك تكون قد ارضت ايضا الفئة المتعصبة دينيا فيها ، التي وجدت في الحملة تجسيداً لآمالها الصليبية ضد العالم الاسلامي . وتظهر هذه النزعة واضحة في احدى فقرات التقرير الذى قدمه وزير الحربية الفرنسية (كليرمون دو تونير) الى مجلس الوزراء ، والتي يقول فيها مشيرا الى الملك "شارل العاشر" : "لعله لم تكن صدفة أن يدعى ابن لويس التقي ، لكي ينتقم للدين ، وللانسانية ، ولاهانته الشخصية . . . وربما يساعدنا الحظ هذه المرة فننشر المدنية بين السكان الاصليين ونجعلهم يعتنقون المسيحية(١)" . وعندما اقام

.....

(١) صلاح العقاد "المغرب العربي الجزائر ، تونس ، المغرب الاقصى . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٨٦ .

" بورمون " قائد الحملة صلاة الشكر في القصبة بمناسبة النصر الذى احرزه ، بعث يصف هذا الاحتفال للملك قائلا " مولاي . . . . لقد فتحت بابا للنصرانية على شاطئ افريقيا (١) " بل ان المؤرخ الفرنسي " د ريولت Driault " الذي كتب عن " المسألة الشرقية " وصف احتلال الجزائر بانه كان اول ضربة تحيق بالاسلام .

فرنسا اذاً كانت تحتضن فكرة مد نفوذها الى الجزائر ، الا ان الذي كان يقعدها عن تحقيق مشروعها هو نفقات الحملة . بل انها حاولت في عام ١٨٢٩ ، لما تأزم الموقف بينها وبين داي الجزائر ، بعد حادث صفعة المذبة الشهير ، وبعد ان ارسلت اسطولها لحصار الجزائر في حزيران عام ١٨٢٧ ، ان تدخل في مفاوضات مع الداي . كما انها عن طريق قنصلها في القاهرة ، اغرت محمد علي بالتدخل . ولقد قبل هذا الاخير ما طلب منه ، بحجة ابعاد دولة اوربية عن احتلال دولة اسلامية . الا انه في الواقع يحقق مطامحه الخاصة . ويلخص المشروع المتفق عليه بين محمد علي وقنصل فرنسا في القاهرة ، بأن يرسل محمد علي حملة برية من مصر ، يدعمها الاسطول الفرنسي بحرا ، وهدفها تأديب الداي ، وانتقال الحكم في كل من طرابلس الغرب ، وتونس ، والجزائر ، الى محمد علي فيقيم فيها حكومة متمدنة ، تحترم المبادئ الدولية ، وقوانين الملاحة . ويكون ضم محمد علي لتلك النيابات باسم السلطان ، ويدفع له جزيتها . اما فرنسا فتحصل على ماتريد من امتيازات عسكرية ، واقتصادية ، في الجزائر ، مقابل مساعدتها لمحمد علي . وقد بعثت فرنسا الى الباب العالي ، تطالبه بالموافقة على المشروع ، والا فانها ستعمل على ضم الجزائر بالقوة ، وبذلك تفقد الدولة العثمانية كل نفوذ لها فيها .

الا ان انكلترة وقفت في وجه المشروع وهددت باستخدام القوة لو نفذ ، كما ان محمد علي نفسه ، تخوف من ثورة الرأي العام الاسلامي ضده ، لاشتراكه مع فرنسا بهذا المشروع ، ولا سيما عندما احلت فرنسا محل المشروع الآنف الذكر ، مشروعا آخر ، ينص على تقسيم النيابات بين فرنسا ومحمد علي ، بحيث تأخذ فرنسا الجزائر ، ومحمد علي تونس وطرابلس الغرب .

وامام اخفاق مشروعات السيطرة غير المباشرة على الجزائر ، فقد قررت فرنسا ان

---

(١) صلاح العقاد " المغرب العربي ، الجزائر ، تونس ، المغرب الاقصى . القاهرة ١٩٦٦ . ص ٨٦

تعمل وحدها . فبعثت في ٢٥ ايار عام ١٨٣٠ حملتها المعروفة ،التي نزلت في خليج " سيدى فروج " واضطرت المدينة بعد مقاومة شديدة للتسليم ، فدخلتها فرنسا في تموز ١٨٣٠ . ومنها تقدمت تدريجيا عبر التراب الجزائري .

واذا كانت فرنسا قد لاقت في دخولها المدينة مقاومة شعبية قوية ،وفي انسياحها على بقية التراب الجزائري مقاومة ضارية،تزعمها " الامير عبد القادر "،وقادها خمسة عشر عاما متواصلة (١٢٤٨-١٢٦٣هـ/ ١٨٣٢-١٨٤٧م)،فانها لم تلق معارضة جدية في المحيط الدولي للاسباب الاتية :

١- موقف الجزائر السابق من الدول الاوربية،والضغينة التي كانت تكنّها تلك الدول لها .

٢- تصوير فرنسا تدخلها العسكرى ،بانه لصالح الحضارة والمدنية ،ولصالح المسيحية . فقد اعلنت بأن للحملة هدفين رئيسيين ،اولهما ما يخص فرنسا وحدها ،وهو الانتقام لكرامتها المهانة ،وحماية مصلحة مؤسساتها في (عنابة) وشرق الجزائر ،حيث كان لها امتياز استخراج المرجان ،والحصول على تعويض من الداي مقابل ما ارتكبه من اهانة ضدها . وثانيهما يتعلق باوربا بأسرها ،وهو وضع حد للرق ،والقرصنة ،والاتاوات،التي كانت بعض الدول الاوربية ملزمة على دفعها . وحتى تطمئن فرنسا الدول حول نواياها ،بعد احتلال مدينة الجزائر ،وبخاصة انكلترة ،التي كانت الدولة المعارضة الوحيدة ،فانها اعلنت بأنه ، اذا نجم عن الهجوم على الجزائر سقوط حكم الداي ،فانها - أي فرنسا - ستدعو حلفاءها لعقد مؤتمر دولي يبحث في الوضع الذى يجب اقامته في الجزائر ،لصالح المسيحية كلها .

وعلى الرغم من عدم اقتناع الدول بما اعلنته فرنسا ، فان الدول لم تبد معارضة شديدة ،لانها لم تكن راغبة في حرب ،قد تؤدي اليها تلك المعارضة .

اما موقف الدولة العثمانية،التي كان لها الاشراف الاسمي على الجزائر، فانها اعترضت على الحملة الفرنسية ،الا ان فرنسا لم تكترث لها ،لانها كانت تعرف بأن الدولة العثمانية لا تملك قوة عسكرية تدعم بها موقفها المعارض . كما ان السلطنة في استامبول عندما احتجت على الحملة الفرنسية على الجزائر ،فان احتجاجها كان يستند الى انه يمكنها ان تدخل وسيطا بين فرنسا والداي ،وتقنع هذا الاخير بالتجاوب مع

بعض مطالب الدولة الغربية ،وعدم التطرف موقفه معها . أي ان الدولة العثمانية لم تقدم احتجاجها القوي على تعدي فرنسا على احدى الولايات التابعة لها (١) ولقد استطاعت فرنسا ان تسوّغ الموقف ،بأن وافقت على ارسال الباب العالي مبعوثا الى الداي ،وهي تعرف سلفا بأن استقباله لن يكون افضل من استقبال مبعوث محمد علي ،كما انها خوفا من اشتداد المعارضة الانكليزية ،وكسبا للوقت ،لمّحت للدولة العثمانية بانها ستشركها في دراسة وضع الجزائر بعد التأديب،وانها تقترح اعادتها اليها ، شريطة ان تنفذ ما سيشير به المؤتمر الدولي المقرر عقده من اجل نشر الهدنة في تلك البقاع .

نتائج احتلال فرنسا للجزائر في اطار اليقظة العربية :

ان كثيرين من المؤرخين،والمفكرين العرب السياسيين،لا يرون انه كان لاحتلال فرنسا للجزائر اثر في مجموع اليقظة العربية ،فهم يعدون ابحاثهم حول ما خلّفه هذا الاحتلال من تطور في العلاقات الدولية ،وما ولّده من اوضاع في فرنسا والجزائر . وينظرون الى مقاومة الجزائر للاحتلال على انها حادث أهلي،ومحلي،يخص الجزائر وحدها. ولكن اذا استعمق في بحث الموضوع ،ودرس في اطار الوطن العربي ،وفي حدود الجزائر ايضا ،يلاحظ انه كان لاحتلال فرنسا اثر في الايقاظ العربي بعامة ،ويتجلى ذلك في النواحي التالية :

١ــ لقد كانت الحملة الفرنسية باسلحتها الحديثة،واساليب عملها الغربية الجديدة صدمة جابهت المجتمع الاسلامي العربي في الجزائر،وفتحت اعينه على عالم ،كان يراه ، ولكنه يتجاهله ،ولا يقدّر تقديرا صحيحا قدراته ومطامحه .

٢ــ هزت صدمة الاحتلال الفرنسي للجزائر الضمير العربي الاسلامي ،واشعرت الفئة الواعية فيه ،بان الوطن العربي الاسلامي امام اوضاع لاتختلف كثيرا عن الاوضاع التي عاناها ابان الحروب الصليبية . فهذه هي حملة فرنسية على الجزائر ،تتبع حملتها على مصر،وتلي حملة انكلترة على مصر ،والجزائر ،وتدخّل هذه الاخيرة في شؤون

(١) انظر ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص١٥٣ ــ ١٥٨ .
ـ والسياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ،تأليف ارجمند كوران ، وترجمة عبد الجليل التميمي ،تونس ١٩٧٠ .

الجنوب والخليج العربي .

٣ــ لقد حرّض احتلال فرنسا للجزائر الشعور الوطني الديني فيها ،كما حدث في مصر . وكان لموقف الدولة العثمانية السلبي ،اثره في فصم بقايا الرابطة الدينية البحتة التي كانت تصل الجزائر بالدولة العثمانية .

٤ــ حطمت الصدمة القشرة الغليظة التي تقوقعت فيها الشخصية العربية الجزائرية فتفتحت تلك الشخصية ممثلة في الامير عبد القادر . فالامير عبد القادر ،بمقاومته للاحتلال الفرنسي، لم يبرز للوجود صفات الاخلاص للوطن ،وواجب الذبّ عن حوضه ودفع "الكفرة" عنه فحسب، وانما اظهر للعالم كله الصفات العربية الاسلامية الاصيلة في التسامح، والكرم النفسي ،والمبادئ الانسانية الرفيعة . وبذلك قدم صورة حية عن العروبة المسلمة المؤمنة ،بقيمها الحضارية العريقة . كما انه بثورته ،اعطى نموذجا واقعيا عن اليقظة العربية ،الرائية الى عالم عربي جديد ومتطور . فمحاولته وضع اسس دولة جديدة(١) ، وتنظيم جيش على احدث الاساليب ،والاستعانة بالمدربين الاجانب، وانفتاحه الفكري على الخارج، مع ايمان بالقيم العربية الاسلامية ، هي دليل على حياة جديدة ،بدأت تنبثت في حنايا المجتمع العربي . فعبد القادر اراد ان يقيم في الجزائر، وبيني، ماكان يبنيه محمد علي في مصر ،مع التباين بالطبع في مدى ارتباط كل منهما بالارض التي يعيش عليها ،والظروف الداخلية والدولية المحيطة به ،ونوعية الفكر الذي يمثله كل منهما . ويمكن القول دون تحفظ ،ان شخصية عبد القادر ومحاولتهتكوين دولة في القطاع الذي تركزت حركة الثورة فيه، هما خطوة هامة في طريق اليقظة العربية .

وتبع عبد القادر عدد من الثورات الوطنية ضد المحتل الغاصب، كثورة "محمد المقراني" عام ١٨٧١، وثورة قبيلة سيدي شيخ ،بزعامة (بوعمامة) عام ١٨٨١ ،وكلها دليل على التفتح الجديد .

٥ــ كان لاحتلال فرنسا للجزائر ،ومقاومة عبد القادر ،صدى كبير في انحاء الوطن العربي تجاوز المغرب الى المشرق . فتعاطف سكان هذا المشرق العربي تعاطفا

---

(١) انظر حولها " Churchill (Ch.H) , The Life of Abdel Kader, Ex Sultan of The Arabs of Algeria . London . 1867

وقد عرّبه الدكتور ابوالقاسم سعد الله تحت عنوان "حياة الامير عبد القادر" تونس ١٩٧١ .

كاملا مع موقف عبد القادر ، وقد روا شخصه ، واعتبروه زعيما من زعماء العرب المسلمين ، يمكن ان يقود حركة شاملة تبث الحياة من جديد في المجتمع العربي . ولا ادل على ذلك من أنه عندما وفد الى دمشق مقيما بعد اخفاق ثورته ، استقبله الشعب بالاجلال والاكرام ، حتى ان الكولونيل تشرشل يذكر في كتابه " حياة عبد القادر " ، ان عبد القادر دخل دمشق في موكب عظيم لم يعرفه انسان منذ عهد صلاح الدين . بل يذكر السيد " عادل الصلح " في كتابه " سطور من الرسالة " ، بأن الامير عبد القادر اشترك في الحركة العربية المنبثقة في بلاد الشام ، واختاره اعيان الحركة ليكون رائدها ، ورئيسا للدولة العربية التي عزموا على انشائها (١) .

فاحتلال فرنسا للجزائر اثار اذاً بشكل غير مباشر ، مكامن الترابط القومي العربي بين المشرق والمغرب ، وكان الشعور بالترابط هذا خطوة في نمو الشعور القومي العربي الذي اخذ ينفصم بشكل واضح عن الشعور بالترابط مع الدولة العثمانية ، لانها دولة اسلامية .

خامسا ـ المسألة السورية

ترتبط " المسألة السورية " ارتباطا وثيقا بما يسميه بعض المؤرخين لليقظة العربية باسم (السياسة العربية لمحمد علي) .

" ومحمد علي " هذا ، هو من مواليد مدينة " قولة " في مقدونيا ، جاء وهو في الثلاثين من عمره الى مصر ، ضابطا في الفرقة الالبانية (من الارناؤوط) ، التي ارسلها السلطان العثماني عام ١٢١٤هـ/ ١٧٩٩ الى القطر المصري ، لمحاربة حملة " نابليون بونابرت " واخراجها منه . وعلى الرغم من ان فرقته لم تحرز نصرا في حربها مع الفرنسيين ، الا انه هو ذاته قد تميز اثناء تلك الحرب ، وارتقى في مراتب الجيش حتى انتخبته فرقته قائدا لها . وهكذا عندما غادر الفرنسيون مصر في عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١ كان محمد علي في مركز ذي نفوذ ، تمكن بوساطته ، ان يلعب دورا هاما في الاحوال المضطربة التي سادت البلاد المصرية بعد خروج الفرنسيين منها . وذلك بأن عمل اولا مع المماليك ضد الانكشارية ، حتى تمكن من طردهم من القاهرة ، وثانيا باستغلاله نقمة

(١) بيروت ١٩٦٦ . ص ٧١

الاهالي على زعماء المماليك ليتخلص منهم . فزعماء المماليك حاولوا ان يستعيدوا نفوذهم في مصر ،وسيادتهم السابقة ،بعد خروج الحملة الفرنسية منها ،فعطلوا بوحي من انكلترة وفرنسا ،وساسوا البلاد سياسة جائرة ،واشتطوا في فرض الضرائب . ولما طفح كيل الشعب منهم قام محمد علي ،مستعينا بفرقته الالبانية ،وحاصر بيوتهم ،فاضطر اولئك الزعماء للفرار الى الصعيد . وثالثا باستمالته قلوب الشعب اليه ،وتقربه من العلماء والمشايخ ،حتى بايعه هؤلاء واليا على مصر ،وطلبوا من الباب العالي الموافقة على تثبيت اختيارهم هذا . وجاءه فرمان الولاية في ٩ تموز عام ١٨٠٥ . وظل حاكما لمصر حتى وفاته عام ١٨٤٩ ،وبقيت اسرته حاكمة لمصر من بعده حتى عام ١٩٥٣ .

ولسنا هنا بصدد بحث موضوع السياسة الداخلية لمحمد علي ،وما ادخله من تجديد في احوال القطر المصري ،الا انه من المجدي الاشارة في هذا المقام ،الى انه قد كتب في موضوع السياسة الداخلية لمحمد علي كثير من المعاصرين له من العرب، والاجانب ،وتشعبت الآراء ،وبخاصة آراء الغربيين ،حول تلك السياسة ، واهدافها ونتائجها ،فمنهم من اعتبر محمد علي عبقريا استطاع ان يخلق في مصر "دولة حديثة" متحركة ،ومنهم من رأى انه استغل البلاد واضعفها لصالحه وصالح اسرته . ومهما تضاربت الآراء حول محمد علي ،وشخصيته ،واعماله ،فانه مما لا شك فيه ان افق تفكيره كان واسعا ،واتجاهاته البناءة كانت واضحة ،وانه اراد النهوض بالبلاد ،واصلاح احوالها ،ونشر العمران في ربوعها ،وان كان هذا لا يمنع من القول ،بأنه كان يعمل كل هذا ،وتحدوه رغبة اكيدة في تثبيت دعائم الحكم لصالحه ،وصالح اسرته من بعده . وقد اختار في بنائه لدولته كثيرا من الاسس السياسية ،والاقتصادية ،والعلمية ،والعسكرية السائدة في البلاد الاوربية المتقدمة . فنظم البلاد تنظيما جديدا ،وادخل الصناعة الآلية الحديثة الى مصر ،واصلح الزراعة ،ونشط التجارة ،ونشر التعليم على النمط العلمي الحديث، وكوّن جيشا واسطولا وطنيين مدربين ومسلحين على النمط الاوربي . ولقد كان لهذا النموذج الحديث في بناء الدولة ،اثر كبير جدا في دفع اليقظة العربية قدما حتى اعتبر المفكر العربي "ساطع الحصري" ،عمل محمد علي هذا ،ثورة "خدمت القومية العربية خدمة كبيرة ولو بصورة غير مباشرة . لانها اوجدت دولة عصرية قائمة في بلاد عربية وفتحت بذلك ميدانا واسعا لقيام نهضة فكرية وادبية عربية (١)" .

---

(١) ساطع الحصري" محاضرات في نشوء الفكرة القومية ـ دار العلم للملايين (الطبعة الخامسة) بيروت ص ١٩٢

اما "السياسة العربية" لمحمد علي ، فتلخص برغبة محمد علي في بسط نفوذه على كل اجزاء العالم العربي ، وعمله الحثيث في هذا المضمار ، او بمعنى آخر ، سعيه لتكوين "دولة عربية واحدة في اطار الوطن العربي كله" . اما الاسباب التي دفعته الى ذلك ، فيعزوها بعضهم الى الطموح الشخصي البحت ، وبعضهم الآخر الى تأثير ابنه "ابراهيم باشا" الذي تأثر بالجو العربي المحيط به ، فآمن بالعروبة ، وضرورة احياء الامة العربية وتراثها الحضاري الانساني . وبعضهم الثالث يعزو تلك السياسة الى ايحاءات ، كانت تأتيه من الدول الاوربية ، وبخاصة فرنسا ، لتتمكن عن طريق تنفيذ تلك السياسة من تقوية نفوذها في البقاع العربية التي يضمها محمد علي على حساب نفوذ الدول الاوربية الاخرى ، ولا سيما انكلترة .

ومهما تكن الاسباب التي وجهت محمد علي نحو تبني تلك "السياسة العربية" ، فانه كان لها اثارها البعيدة المدى في اليقظة العربية . ويمكن ان يرجع بدء تبني محمد علي لهذه السياسة ، منذ ان كلف من قبل الدولة العثمانية بتجهيز حملة للقضاء على "الحركة الوهابية" ، واعادة البلاد الحجازية الى حوزة السلطان . ولقد استمرت الحرب سبع سنوات (١٢٢٧–١٢٣٤هـ/ ١٨١١–١٨١٨م) ، وانتهت بانتصار محمد علي ، وتخريب "الدرعية" عاصمة الوهابيين ، وتسليم "عبد الله بن سعود" الثائر الى السلطان .

وبعد ان كوفىء محمد علي على مساعدته ، بتعيين ابنه "ابراهيم باشا" واليا على الحجاز ، فانه شرع بتنظيم تلك البقاع ، وباستمالة زعماء القبائل اليه ، واسترضاء "الاشراف" . ومدّ نفوذه شرقا الى الاحساء فالخليج العربي ، وجنوبا الى بلاد اليمن .

ولما استقر له الوضع نسبيا في شبه الجزيرة العربية ، وجه حملته الى (بلاد السودان) عام ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠ وسيطر عليها . وبعث بحملات بحرية الى البحر الاحمر ، وقضى على القرصنة فيه ، واخضع ساحليه العربي والافريقي لحكمه .

وفي عام ١٢٤٥–١٢٤٦هـ/ ١٨٢٩–١٨٣٠م اتفق وفرنسا – كما اشرنا الى ذلك سابقا – على مشروع مد سيطرته على شمال افريقية ، والحاق النيابات الثلاث به ، واذا لم تكن النيابات الثلاث فلتكن تونس وطرابلس الغرب .

وفي نفس الوقت الذي كان يفكر فيه بالامتداد على الجناح الغربي للوطن العربي فانه كان يحلم كذلك بالامتداد على بلاد الشام ، واتمام سيادته على كل الجزيرة

العربية . وفي الحقيقة عندما لبى نداء السلطان العثماني ،لمساعدته في حرب استقلال اليونان عام ١٢٤٠ هـ/ ١٨٢٤ ،فانه كان يأمل بان يكافئه السلطان بحكم بلاد الشام ،ولا سيما بعد ان اغرق اسطوله في معركة " نقارين "عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧ من قبل الدول الاوربية (روسيا + انكلترة + فرنسا) ولكن السلطان العثماني منحه فقط جزيرة كريت ،الفقيرة في مواردها ،بدلا من بلاد الشام . ولم يثبط هذا من عزمه ،بل قرر ان ينتزع بلاد الشام من السلطان بالقوة ،فوجه حملته اليها بقيادة ابنه ابراهيم باشا في ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١ م .

وتمكن ابراهيم باشا ان يسيطر على بلاد الشام ،واحتل دمشق دون مقاومة ،وهزم القوات التركية التي التقى بها عند مدينة "حمص" . وعاد فهزم جيشا عثمانيا آخر عند سهيلان ،قرب اسكدرون . وبذلك تمت سيادة محمدعلي على الديار الشامية كلها ،واعلن الامير "بشير الثاني "الشهابي انضمامه الى ابراهيم باشا ،وكذلك الزعماء والاعيان . ولقد استقبل اهالي البلاد الفتح المصري بالحفاوة والزغاريد ،لان النقمة ضد الدولة الحاكمة كانت قد بلغت احدى ذراها ، ولان "ابراهيم باشا "عرف كيف يضرب على الوتر الحساس لديهم ، فلقد اظهر انه عالم بما يجيش في نفس هذا الشعب من حنين لاحياء العروبة ،وامجادها الماضية ،ولذلك ،فانه اعلن في المنشورات التي وزعها على الجند ،والاهالي ،انه من الضروري اعادة الامة العربية ، الى ما كانت عليه ،من عزة ،وسؤدد ،وحضارة يانعة ،وماض عريق . واخذ يجهر بضرورة منح العرب حقوقهم ،واسناد المناصب العسكرية والادارية لهم ،ليعيشوا مستقلين . وعندما سئل اثناء فتحه لبلاد الشام وحصاره لعكا " الى أي حد سيتابع فتوحاته اذا ما خضعت له عكا " فانه اجاب الى "المدى الذي يمكنني فيه أن اتفاهم مع السكان باللسان العربي "

وفعلا توقف ابراهيم باشا في حملته عند حدود الاناضول ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م. وعرض محمدعلي على السلطان منحه ولاية بلاد الشام اضافة الى مصر ، فلما رفض السلطان العرض دخل ابراهيم باشا آسيا الصغرى ،واحتل اضنه ،وتقدم حتى "قونية"،حيث انتصر على الجيش العثماني في ٢١ كانون الاول عام ١٨٣٢ ،واصبح الطريق الى استامبول مفتوحا ،والدولة العثمانية كلها مهددة بالسقوط بين ايدي محمدعلي .

واقلق الوضع الدول الاوربية ،وبخاصة روسيا ،التي خافت من وقوع الدولة العثمانية بكل ممتلكاتها في يد محمدعلي ،فيقف هذا سدا منيعا في وجه اطماعها في

التوسع على حساب الدولة العثمانية الضعيفة . كما ان انكلترة ازعجها توسع محمد علي ،لانها لا تريد ان تقوم دولة قوية ،وفتية ،وصديقة لفرنسا في منطقة تضم اهم الطرق الموصلة الى الهند . اما فرنسا فقد كانت مشجعة لمحمدعلي في موقفه ،لانها تعتقد انه صديق لها ،وان سيطرته على البقاع الجديدة هي تقوية لنفوذها فيها .

الا انه على الرغم من قلق انكلترة من هذا التوسع فانها لم تأت لنجدة الدولة العثمانية عندما طلبتها هذه الاخيرة منها ،واكتفت بارسال معتمد سياسي الى محمد علي ،تبلغه قلقها من محاولته القضاء على الدولة العثمانية . ولذا فان الدولة العثمانيه التجأت الى روسيا عدوتها التقليدية . واستجاب القيصر "نيقولا الاول" بسرعة للطلب،ودخل الاسطول الروسي الحامل لثلاثين الف جندي مياه البوسفور في ٢٠ شباط ١٨٣٣ .

وهنا شعرت كل من انكلترة وفرنسا ان الامر غدا خطيرا جدا ،وخشيتا ان تغتنم روسيا الموقف ،وتحقق ما تريد من مساعدتها العسكرية هذه . فأخذتا تمارسان ضغطا على محمدعلي ،كي يقبل التسوية مع الباب العالي . ونتيجة لهذه المساعي الدبلوماسية الاوربية ،تم بين محمدعلي والسلطان ،" اتفاق كوتاهية " (٤ ايار ١٨٣٣) الذي نص على موافقة السلطان على منح ولاية الشام الى محمدعلي ،واضفه الى ابراهيم باشا . وهكذا تبدى ان الازمة قد انفرجت،وما على روسيا الا ان تسحب قواتها من البوسفور وفعلا انسحبت روسيا في (تموز ١٨٣٣)،الا انها كانت قد وقعت قبل يومين من الانسحاب (٨ تموز ١٨٣٣) "معاهدة هنكار اسكلمسي" مع الدولة العثمانية . وهي معاهدة يتعهد فيها الطرفان ،ولمدة ثماني سنوات ،بمساعدة احداهما للاخرى ، اذا ما تعرضت بلادهما لهجوم خارجي . وقد الحق بالمعاهدة مادة سرية ،تنص على انه "رغبة من جلالة امبراطور روسيا في توفير النفقات والمشاق على الباب العالي ، اذا ما اضطر الى تقديم المساعدة الجدية لحليفته روسيا في حالة الاعتداء عليها ،فانه يكتفي بأن يقصر الباب العالي مساعدته على اغلاق مضيق الدردنيل في وجه السفن الحربية الاجنبية المعادية لروسيا ،مهما كانت حججها ودعاويها " .

ويعتبر كثير من المؤرخين ان هذه المعاهدة وضعت تركيا تحت حماية روسيا روسيا ،كما جعلت من الدولة العثمانية حارسا على البحر الاسود لصالح روسيا ،يمنع اعداء روسيا من الدخول اليه ،بينما تستطيع روسيا ان تخرج من هذا البحر في اي وقت

تشاء ،لتقوم بالهجوم على اي مكان تريد في البحر المتوسط .

وقد اثارت هذه المعاهدة ،عندما علمت بنودها ،كل الدول الاوربية ورأت فيها خطرا يهددها . واتفقت كلمة انكلترة وفرنسا ،على مقاومة روسيا ،اذا ما استخدمت هذه الاخيرة الحقوق التي اعطتها اياها المعاهدة .

وهنا تنتهي المرحلة الاولى من المسألة السورية ،فقد قامت دولة عربية فتية ،تمتد من اضنة شمالا الى اطراف شبه الجزيرة العربية واقصى السودان جنوبا ،ومن الخليج العربي شرقا الى حدود ليبيا غربا ،على الرغم من ان بعض الدول ،كالدولة العثمانية وانكلترة،لم تكن راضية عن قيامها . الاولى بالذات،لانها ترى فيها تقوية للوالي الثائر عليها (محمد علي) ،والثانية لانها كانت تخشى على الطرق الكبرى المؤدية الى مستعمرتها في الهند . ولقد قام "ابراهيم باشا " بحكم بلاد الشام باسم والده، واتاها بنفس الروح الاصلاحية التي كانت تحرك اباه في مصر . وتقبل اهل الشام حكمه في بادئ الامر قبولا حسنا ، المسلمون منهم والمسيحيون على السواء . المسلمون الذين فقدت الدولة العثمانية هيبتها في اعينهم ،لعجزها عن حماية العالم الاسلامي، والمسيحيون لان ابراهيم باشا حاول ان يساوي بينهم وبين المسلمين ،ويقربهم . هذا بالاضافة الى ان ابراهيم باشا كان يسير في سياسته الداخلية وهو يبدي الايمان بضرورة احياء الامة العربية ،واعادتها قوية عزيزة . ويعزو "جورج انطونيوس" الاتجاه العربي هذا لدى ابراهيم باشا،الى مجيئه الى بلاد "مصر العربية " يافعا ،ونشأته في محيط عربي،ثم حكمه فترة من الزمن لبلاد الحجاز ، واطلاعه على التاريخ العربي والحضارة الاسلامية ،كل هذا جعله يعجب بعظمة الامة العربية ،وما قدمته للانسانية من رسالة وحضارة . ولهذا فانه عندما ولي حكم بلاد الشام عمل بدأب على الاهتمام بالنهضة العلمية ،والاقتصادية فيها ، وعلى اقامة المساواة بين الطوائف جميعا امام القانون، وفي تولي الوظائف ،وسعى بكل ما في وسعه ان يشعر اهل الشام بالفرق الشاسع بين حكمه الجديد المتحرك ،والمنفتح على جميع طبقات الشعب،والحكم العثماني السابق الراكد ،والجائر .

الا ان الدولة العثمانية ،والدول الاوربية ،وبخاصة انكلترة ، لم تسرها "ولادة " وحدة عربية " ان تبقى ،فأخذتا تحرضان الفتن الداخلية في بلاد الشام ضد ابراهيم باشا .

فاندلعت ثورات في نابلس، ودمشق، وحلب، وجبال العلويين، وحوران، وجبل العرب، وبعض اجزاء جبل لبنان، ولا سيما ان محمدعلي اعلن لعدد وهي الدول الاوربية في مصر عام ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨، انه يرغب في اعلان استقلاله عن الدولة العثمانية . وعلى الرغم من انه لم يفعل لرفض الدول الاوربية موقفه هذا، بما فيها فرنسا صديقته، فان هذه الدول كانت تعلم بأنه مستعد لتنفيذ ما اعلن في أي وقت .

ولم تنتظر الدولة العثمانية طويلا فاعلنت الحرب على محمدعلي في عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩ . وعبرت الجيوش التركية الحدود الشمالية لبلاد الشام، والتقى جيشا الطرفين عند مدينة "نزيب" (قرب عينتاب)، وانتهت المعركة في ٢٤ حزيران ١٨٣٩ بانهزام الترك وانتصار ابراهيم باشا . وفر الاسطول العثماني بقيادة "احمد فوزي" الى ميناء الاسكندرية وانضم الى محمدعلي . وكان السلطان العثماني "محمود الثاني" قد توفي قبل ان تصله انباء معركة "نزيب" . وهكذا فقدت الدولة العثمانية ــ على حد قول رئيس الوزارة الفرنسية "غيزو" ــ خلال ثلاثة اسابيع، سلطانها وجيشها، واسطولها .

وتراءى للدول ان محمدعلي قادر على احتلال استامبول، واعلان نفسه خليفة في اقل من اسبوع رابع . وتعقدت "المسألة الشرقية"، وخشيت الدول الاوربية من استخدام روسيا لـ "معاهدة هنكار سكله سي"، كما خشيت ان يعمد السلطان الجديد اليافع "عبد المجيد" الى فض نزاعه مع محمدعلي، دون استشارة الدول او معرفتها، وبخاصة ان السلطان الجديد بدأ لها مستعدا لاعطاء محمدعلي ما يريد . وفي هذه الظروف الخطيرة عادت فرنسا الى سياستها التقليدية في المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية، ومنع روسيا من الاستفادة من معاهدة هنكار سكله سي . اما النمسا فكانت حريصة على الا تجري مفاوضة مباشرة بين السلطان والوالي، لان هذا الاخير في عرف "مترنيخ" مستشارها الرجعي، ثائر على صاحب السيادة الشرعية، الذي هو السلطان، وانحازت بروسيا الى جانب النمسا . اما روسيا، فعندما رأت ان الدول الاوربية لن تتركها تعمل بموجب شروط تحالفها مع السلطان، فانها اعلنت تنازلها عن تنفيذ شروط معاهدة "هنكار اسكله سي"، لان السلطان كان هو البادئ بالعدوان . ورحبت انكلترة بموقفها، ورأت اشراكها في حل الازمة، وفي الخطوة المشتركة التي اتفقت الدول على اتخاذها، وهي ارسال "مذكرة مشتركة" الى السلطان، تطلب منه فيها،

تطلب منه فيها ، بالا يبرم صلحا مع محمد علي من غير موافقة الدول . وهكذا اشتركت دول خمس في تلك المذكرة التي وجهت الى السلطان في ٢٨ تموز ١٨٣٩ .

الا ان الخلاف ما لبث ان دب بين انكلترة وفرنسا : فقد طالبت انكلترة ان ينكمش محمد علي في مصر فقط ، وان تكون حدوده الشرقية صحراء سينا ، لانها ترى ان تكون جميع الطرق المؤدية للهند بيدها او تحت نفوذها ، او تحت حكم دولة ضعيفة لا تخشاها كالدولة العثمانية ، ومن ثم فهي لا توافق على وجود دولة قوية قرب بلاد الرافدين ، ولا سيما وان محمد علي قد جرب بعد ضمه لبلاد الشام ان يسير سفنا نهرية في الفرات وصلت حتى البصرة ، واخذ يمد بصره لتملك العراق . اما فرنسا ، فاصرت على بقاء بلاد الشام تابعة لمحمد علي . ووقفت روسيا مؤيدة لبريطانيا ، واعلن السلطان "عبد المجيد" انه مستعد لعقد صلح مع محمد علي ، شريطة قبوله باتسوية مصر فقط دون بلاد الشام . وبدا كأن فرنسا قد غدت معزولة عن السياسة العالمية ، وخارجة على الاجماع الدولي . ومع ان جميع الدول كانت مؤيدة لانكلترة في سياستها من "المسألة السورية" ، فان "الملكة فيكتوريا" ، ومجموع الوزارة البريطانية ، لم تكونا لتريا رأي وزير خارجيتها "بالمرستون" بحل قضية الشرق دون فرنسا . فحاول "بالمرستون" ، ان يسترضي فرنسا بموافقته على منح ولايه عكا الى محمد علي بالاضافة الى ولاية مصر . فرفضت فرنسا هذا الحل ايضا ، مستندة الى ان محمد علي قد يتوصل الى اتفاق شائي مرض مع الباب العالي . واذا لم يتم هذا ، فانه قادر على متابعة الحرب من اجل البقاء في بلاد الشام . وكان الرأي العام الفرنسي يراقب تطور الاحداث باهتمام حتى ان الوزارة الفرنسية سقطت ، وخلفتها وزارة "تيير" التي نادت بالوقوف الى جانب محمد علي ، ولو أدى الامر الى الحرب .

وكان بالمرستون على علم بالاوضاع المزعزعة لملكية "لويس فيليب" في فرنسا ، وان هذا الملك لن يغامر بعرشه في حرب خارجية لا ناقة لفرنسا فيها ولا جمل ، وان ليس وراء جعجعة "تيير" طحن . فوقعت انكلترا بالاشتراك مع الدولة العثمانية وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا معاهدة لندن في عام ١٨٤٠ ، وفيها تعهدت تلك الدول بمساعدة السلطان على اخراج محمد علي من سورية . واتفقت على ان تعرض عليه قبلا حكومة مصر وراثية ، وولاية عكا مدى الحياة ، فاذا لم يقبل ذلك خلال عشرة ايام ، فان عكا تنتزع منه ، واذا بقي مصرا على رفضه عشرة ايام اخرى ، فان السلطان يتخذ ما يراه لتأمين

مصلحته ، بعد التشاور مع حلفائـــه .

ورفض محمدعلي مذكرة الدول معتمدا على امكان مساعدة فرنسا له . وبالفعل فقد اعتبرت فرنسا " معاهدة لندن " اهانة لها ، فأخذت تعد العدة للحرب الى جانـــب محمدعلي . وحركت انكلترة ثورة الدروز في جبل لبنان ضد حكم محمدعلي ، واستمـــع السلطان لنصيحة السفير الانكليزي بعزل محمدعلي من ولاية مصر وسورية ليضعف نفوذه عند اتباعه ، ويقوي امل القبائل السورية الثائرة . ووصل اسطول اوربي منتصرن الى ميـاه بيروت حيث انزلت القوات الحليفة ، واصدرت منشورات تحريضية ضد حكم محمد علـــي ، واتصلت تلك القوات بالعناصر الثائرة وايدتها بالمال والسلاح . وسقطت صيدا ، وعـــكاء بيد " نابير Napier " قائد الاسطول البريطاني ، وتمكن هذا الاخير من قطـــع الصلات البحرية بين مصر وسورية ، وسلم الامير " بشير الشهابي " نفسه الى الحلفـــاء . ولم يجد ابراهيم باشا نفسه بدا من الانسحاب ، فتراجع من حلب ، ودمشق والقدس وغزة .

اما فرنسا فلم يكن ملكها يريد الحرب ، وكان يؤيده في ذلك جماعة العلأن وارباب الصناعة في فرنسا . ولتستر ماء وجهها ، فانها بعثت بمذكرة الى الدول ، تبين فيهـا استعدادها للتنازل عن اصرارها السابق ، حول بقاء سورية في حوزة محمدعلي ، اذا عملت الدول على الاحتفاظ لمحمد علي ، واسرته من بعده ، بحكم مصر .

وكان " نابير " قائد الاسطول البريطاني قد توجه من عكا الى الاسكندرية ، ووقـــع مع ممثل محمـــد علي فيها (بوغوص بك) اتفاقا ، تعهد فيه محمدعلي بالتنازل عن بلاد الشام وتسليم الاسطول العثماني مقابل احتفاظه بولاية مصر وراثية . واقتنعت الـــدول السلطان بهذا الاتفاق ، ولا سيما ان فرنسا مؤيدة له . فاصدر " عبد المجيد " فرمانـــا في ١٣ شباط عام ١٨٤١ ، ينص على تولية محمدعلي على مصر ، وعلى ان الحكم وراثـــي في اسرته . وفي اول حزيران عام ١٨٤١ ، صدر فرمان آخر اكمل تحديد العلاقـــات بين السلطان ووالية بما يلي :

تحكم اسرة محمد علي مصر حكما وراثيا ، على ان يكون العرش دائما لاكبر امراء الاسرة .
تبقى مصر جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وتدفع جزية سنوية للسلطان .

وبذلك نجحت الدول في المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية خشيـــة اختلال التوازن الدولي . كما انها نجحت في ابطال مفعول " معاهدة هنكار اسكه سي

بتوقيع الدول ، فرنسا وانكلترة ، والنمسا ، وبروسيا ، والدولة العثمانية " اتفاقية المضائق" في ١٣ تموز ١٨٤١ . وتتضمن الرجوع الى المبدأ القديم ، الذى كانت الدولة العثمانية قد اتخذته ، وهو منع السفن الحربية الاجنبية من دخول المضائق ، مع ترك المضائق حرة للسفن التجارية .

انعكاسات المسألة السورية على اليقظة العربية :

لقد كان لتدخل الدول الاوربية في "المسألة السورية" نتائج هامة في تطور اليقظة العربية فقد ادى ذلك التدخل الى

أولا ـ اخفاق فكرة اقامة دولة عربية واحدة تشمل معظم اجزاء المشرق العربي وتعمل على بث الحياة ثانية في الحنايا الراكدة للمجتمع العربي . ويرجع الاخفاق في الدرجة الاولى ، الى موقف بريطانيا ومعارضة "بالمرستون" وزير خارجيتها بالذات . فقد كتب هذا الاخير الى الوزير البريطاني المفوض في نابولي في ٢ آذار ١٨٣٣ يشرح له اسباب موقف بريطانيا المعارض ، قائلا : " ان هدف محمدعلي الحقيقي هو اقامة مملكة عربية ، تضم جميع البلاد التي تتكلم اللغة العربية ، وقد لا يحوي هذا المشروع ضررا ما في حد ذاته ، ولكنه سيؤدي الى تقطيع اوصال تركيا وهذا ما لا نرضى عنه . وفضلا عن ذلك فلا نرى سببا يبرر احلال ملك عربي محل تركيا في السيطرة على طريق الهند" (١)

ثانيا ـ حاولت الدولة العثمانية بعد انسحاب محمدعلي من بلاد الشام تشديد قبضتها على هذه البلاد ، بعد ان كانت قد فعلت هذا في العراق بقضائها على حكم المماليك فيها عام ١٨٣١ ، وفي ليبيا بازاحتها الاسرة القرمنلية عن الحكم عام ١٨٣٥ . وكانت سياستها الجديدة هذه عاملا من عوامل ازدياد نقمة العرب عليها ، وانضمامهم عنهـا .

ثالثا ـ اظهرت المسألة السورية لاول مرة ، بشكل واضح وعلني ، تعاون بعض الطوائف مع الدول الاوربية لاحباط تجربة الوحدة العربية ، مما ساعد على تغلغل هذه الدول بين رعايا الدولة العثمانية واستغلال بعض الفئات لصالحها ، كما فعلت انكلترة مع الدروز ، وفرنسا مع الموارنة . وجاءت الدولة العثمانية فأخذت تضرب تلك

(١) الخربوطلي : " القومية العربية من الفجر الى الظهر ص ١٤٦ .

الطوائف ببعضها ،لتبرهن بان الامور لن تستقيم ،وبخاصة في لبنان ،الا اذا حكمها ولاة اتراك . وكان هذا سببا في المستقبل ،لحدوث الفتنة المشهورة في عام ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦٠ التي اطلق عليها اسم "مذابح ١٨٦٠" ، والتي جعلت العرب يشعرون بضرورة اتحادهم وخروجهم من الجهل ،لمقاومة الحكم العثماني الذى يتلاعب بمصيرهم لتثبيت ذاته ،ولمقاومة التدخل الاوربي في شؤونهم .

رابعا ـ بالاضافة الى ما اوجدته الدولة العربية الواحدة ،من يقظة فكرية ، ونهضة تعليمية واقتصادية في بلاد الشام من تشجيع للبعثات التبشيرية ،وفتحها للمدارس المصرية ، واقرار المساواة بين الطوائف ،وتثبيت الامن ضد غزوات البدو ، وتشجيع للزراعة والصناعة ،فانها جعلت الشعب العربي في بلاد الشام يحس بذاته وبامكان انفصاله عن الدولة العثمانية وحكم نفسه بنفسه . كما اشعرته مرة اخرى بمطامع الدول الاوربية في ارضه . ومن ثم فان عليه ان يتجه نحو ايجاد عمل منظم يهدف الى ايقاظ الشعب العربي كله من غفوته بعمل منظم منفصل عن العمل مع الاتراك في اطار ما يسمى "بحركات الاصلاح" في الدولة العثمانية . فالى جانب مطامح الدول الاوربية لاحظت الفئة المثقفة الواعية من ابناء الشعب العربي في بلاد الشام ان هدف الاتراك من اصلاحاتهم ليس هو صالح الشعوب الخاضعة لهم ،وانما تقوية نفوذهم وتشديد قبضتهم عليها .

خامسا ـ لقد كان للاخفاق الذى لحق محمد علي في ضم سورية الى مصر ،ان انعزلت مصر عن حركة القومية العربية ،التي بدأت تنمو في بلاد الشام .وجاء الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ ليمكّن لهذه العزلة ،وليكوّن فيها "تيارا قوميا محليا".

سادسا ـ مسألة الأماكن المقدسة وحرب القرم

لا يهمنا من "حرب القرم" في مجال بحثنا عن "اليقظة العربية" سوى انها كانت تعبيرا عن الصراع الاوربي حول ممتلكات الدولة العثمانية المهرمة بصفة عامة ،ومظهرا من مظاهر التدخل في شؤونها الداخلية الخاصة ،ولا سيما شؤون البلاد العربية . فمن المعروف ،ان اسباب الحرب البعيدة ،كانت رغبة روسيا في اقتسام املاك الدولة العثمانية ،وفي السيطرة على بعض المناطق الهامة منها ،وبالمقابل وقوف الدول الاوربية ، ولا سيما منها انكلترة ، وفرنسا ،في وجه تلك الرغبة ، لانها لا تتناسب مع

مصالحها الخاصة الستراتيجية والاقتصادية والسياسية . اما الاسباب المباشرة ،التي اتخذت ذريعة في توليد الازمة ،فهي " قضية الاماكن المقدسة المسيحية" في القدس وما جاورها . فقد استحصل الارثوذكس من الباب العالي ،في منتصف القرن التاسع عشر ،على اذن بتعمير الاماكن المقدسة الموكلة اليهم ،واحتج الرهبان اللاتين (الكاثوليك) لدى" نابليون الثالث" امبراطور فرنسا،ان الارثوذكس اعتدوا اثناء الترميم على بعض الاماكن الخاصة بهم . فأخذ " نابليون الثالث" على عاتقه الدفاع لدى الباب العالي عما اسمي بمصالح الكاثوليك في الاماكن المقدسة . وانبرت روسيا لتأمين مطالب الارثوذكس،حتى انها طلبت في عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢ تسليم مفاتيح "كنيسة المهد " في بيت لحم " الى الرهبان الارثوذكس . واعتبرت كل من الدولتين رفض مطالبها انتقاصا لنفوذها السياسي ،والمعنوي، في الارض المقدسة . ولقد عملت الدولة العثمانية من طرفها ،على حل المشكلة التي كانت تتكور باستمرار ،منذ القرن العاشر/ السادس عشر، وذلك بتأليف لجنة خاصة قامت بوضع توصيات معينة . وكادت الازمة ان تنفرج ،وكما ترغب روسيا ،لولا ان "منشيكوف" وزير البحرية الروسي ،الذي كان في زيارة غير عادية لاستامبول مع بعثة عسكرية ،وكان قد جاء يطلب تسليم مفاتيح الاماكن المقدسة للارثوذكس ،وجه انذارا في ٥ ايار ١٨٥٣ الى الباب العالي. وكان الانذار شديد اللهجة ،ويقترح فيه القيصر عقد محالفة بينه وبين السلطان ،مع اعتراف السلطان بحماية روسيا لجميع الرعايا المسيحيين في الدولة ،وحدد مدة الانذار بخمسة ايام . وبناء على ارشاد سفيري بريطانيا وفرنسا في القسطنطينية ،رفض السلطان الانذار الموجه . وكانت الدولتان تريدان عن طريق محاربتهما لروسيا ، الحد نهائيا من اطماعها في الدولة العثمانية . واحتلت روسيا الاقلاق والبغدان" رومانيا الحالية" ودخلت فرنسا،وانكلترة،والبيمون" الدولة القائمة في الشمال الغربي من ايطاليا والتي كانت تسعى لتوحيد ايطاليا تحت زعامتها) الحرب الى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا . ونقل ميدان الحرب الى (شبه جزيرة القرم) ،حيث عمل الحلفاء على حصار اقوى حصون الروس على البحر الاسود وهو ميناء " سيباستبول " . وكانت الحرب قاسية على الطرفين ،ولم تسقط سيباستبول الا بعد عامين أي في ايلول عام ١٨٥٥ . وتوسطت النمسا بالصلح ،ووقعت "معاهدة باريس" عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦ .

ومن النتائج الهامة لحرب القرم في اطار النهضة العربية :

أولا ـ اظهرت للشعب العربي اطماع الدول الاوربية بالبلاد العربية وضعف الدولة العثمانية امام تلك الاطماع .

ثانيا ـ اججت الصراع الطائفي في بلاد الشام ، اذ احسّ كل فريق ان وراءه من الدول الاوربية من يسنده ولو بالحرب . وكان هذا تمهيدا نفسيا لفتنة ١٨٦٠ .

ثالثا ـ اعتراف الدول بسيادة تركيا التامة على جميع رعاياها دون استثناء وتعهدها بحمايتها ، مقابل تعهد السلطان بالاصلاح الداخلي لدولته . ونجم عن ذلك امران :

١ ـ تحول روسيا عن الدولة العثمانية لفترة من الزمن ، وانصرافها الى بلاد فارس وافغانستان والشرق الاقصى ، ومن ثم سلامة الدولة العثمانية لنصف قرن آخر .

٢ ـ التفات الدولة العثمانية الى رعاياها المسيحيين وتعهدها بمتابعة خطى "الاصلاحات" او "التنظيمات الجديدة" ، الذي بدأته منذ اواخر القرن الثامن عشر . تلك الاصلاحات التي سيكون لها اثرها في تطور اليقظة العربية . فقد اصدرت على اثر مؤتمر باريس ما يسمى "بالخط الهمايوني" وهو القسم الثاني من المرحلة الاولى مما يسمى "بالتنظيمات" .

سابعاً ـ حوادث سورية ولبنان ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م والتدخل الأوربي

لقد حاولت الدولة العثمانية بعد خروج محمد علي وقواته من بلاد الشام أن تقبض على السلطة بيد من حديد ، ولم تدرك ان تطورا كبيرا قد مس البلاد ابان الحكم المصري ، وان النفوذ الاوربي قد انتشر بين الطوائف فيها ، فالموارنة استندوا الى فرنسا والدروز الى انكلترة . كما ان حكم ابراهيم باشا الذي حاول الاصلاح ، قد جعل الفلاحين اكثر احساسا بحقوقهم المغتصبة من قبل اقطاعي الارض . ولقد كان اقطاعيو الارض بجنوب لبنان ، من الدروز ، بينما الفلاحون كانوا من الموارنة والدروز ، بينما في الشمال ، كان اصحاب الارض والفلاحون من الموارنة . وحتى تبرهن الدولة العثمانية ان امور لبنان لن تستقيم الا اذا حكمتها هي حكما مباشرا ، فانها اخذت تضرب الطائفتين السائدتين في لبنان بعضهما . ولقد ظهرت الاضطرابات في جبل لبنان منذ عام ١٢٦٢هـ/١٨٤٥م ، وانتشرت البلبلة حتى اضطر وزير الخارجية العثماني ان يحضر بنفسه اليه ، بناءً على اصرار قناصل الدول ، لحل الخلافات القائمة . بل ان العلاقات توترت بين فرنسا والباب العالي لشعور الاولى بانه ينحاز الدروز ضد الموارنة .

وفي عام ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧ ثار الفلاحون في شمال لبنان ،بتحريض من رجال الدين الموارنة ،ضد الاقطاعيين ،واقتسم الفلاحون الاقطاعات الكبيرة بينهم . وبنفس الوقت رفض الفلاحون الموارنة في الجنوب ،دفع الايجارات للاقطاعيين من الدروز . وقد ادى هذا الى ترابط الدروز ،اقطاعيين وفلاحين في الجنوب . وكان لموقف الباشا التركي في بيروت ،اثره في اشتداد الازمة بضرب الفريقين ببعضهما ، وكذلك موقف الدول الاوربية ،التي كانت تغذي الفتنة بالسلاح والمال. فقد سجلت ارقام الجمرك ١٢٠.٠٠٠ بندقية ،و ٢٠ ألف مسدس ،دخلت لبنان خلال ثلاث سنوات ١٢٧٤—١٢٧٧هـ/ ١٨٥٧—١٨٦٠ عدا ما دخل بصورة سرية .

وشهد عام ١٨٦٠ فتنة دامية بين الدروز والموارنة في اكثر قرى لبنان . وانتقلت الفتنة من لبنان الى دمشق ،حيث اثارها الوالي العثماني . ولقد قام "الامير عبد القادر الجزائري" نزيل دمشق، بالدفاع عن المسيحيين وحمايتهم ،وارسل رجاله للتفتيش عنهم ونقلهم الى داره ،وتقديم الطعام والشراب لهم . وكذلك فعلت كبار بيوتات دمشق مثل محمود الحمزاوي ،وصالح آغا المهايني ،وعمر آغا العابد وكثيرون غيرهم .

لقد اثارت الفتنة القائمة في بلاد الشام ،اهتمام الدول الاوربية ،حتى ان "نابليون الثالث" سارع الى ارسال جيش مؤلف من ستة آلاف جندي الى لبنان ،مع ان (معاهدة باريس) لم يجف مداد ها بعد ،وذلك ليرضي الرأي العام الكاثوليكي ، وفي فرنسا بالذات . وحتى لا تدع الدول الاوربية فرنسا تعمل وحدها ،ولمصالحها ،فانها وافقت على ان تكون الحملة باسمها ،على الا تمكث في البلاد اكثر من ستة اشهر . وقد نزلت فعلا في بيروت في آب عام ١٨٦٠ . الا انها وجدت ان الفتنة قد قضي عليها، والدولة العثمانية قد اتخذت تدابير زجرية ضد المعتدين ،وقررت تعويض القرى المسيحية المتضررة ،ونظمت ادارتها . وفي دمشق طلبت الى الاهالي تسليم المنهوبات وتم لها ذلك بسرعة . والفت لجنة خاصة حكمت على عدد ممن ثبت اشتراكهم في الفتنة بالاعدام ،وفرضت ضريبة استثنائية على المسلمين لدفع التعويضات للمسيحيين . وهكذا لم تجد الحملة الفرنسية ما تفعله سوى انها تجولت في قرى لبنان ،وقدمت المساعدات المادية للمنكوبين .

الا انه في الوقت الذي كانت فيه الحملة تتجول في لبنان ،كانت "لجنة دولية"

تصل الى بيروت ،لتدرس احوال لبنان ،واسباب الاستياء العام .واخيرا اجتمعت في استامبول ،واتفقت مع السلطان ،على منح "جبل لبنان" نظاما اداريا خاصا ،يتضمن جعل جبل لبنان متصرفية ،يديرها متصرف مسيحي تركي من غير اللبنانيين ،ولخمس سنوات ،ويكون تابعا للباب العالي مباشرة ،ويقترح تعيينه السلطان ،وتوافق عليه الدول . ويساعده مجلس اداري ،يمثل جميع الطوائف . وقسم الجبل الى اقضية ، ونواح ،يراعى فيها ما امكن ،وحدة الطائفة . ويعين في كل قضاء ،حاكم صلح لكل طائفة . ويؤلف في جبل لبنان "مجلس عدلي" من جميع الطوائف،كما يحافظ على الامن جيش مختلط من الدرك .

نتائج حوادث ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ في اليقظة العربية :

١- شعور الفئة المثقفة من سكان البلاد بان اوربا تتلاعب بمذاهبهم ،لتذر الفتنة بينهم وتستغلها لصالحها ،ولغرض نفوذها ،وسيطرتها . ومن ثم احسوا بضرورة العمل وحدة واحدة ،دون النظر الى الاختلاف في المذهب،او في الدين . وبذلك كان التحدي الاوربي دافعا للشعب العربي في بلاد الشام للتلاحم ،والعمل على المناداة بتحرك ثورى عربي ،لا تفريق فيه بين مسلمين ومسيحيين . بل ان "بطرس البستاني" اوضح في مقال له ،ان على سكان بلاد الشام ان يستيقظوا من خدرهم، ويعوا ما يُبيّت لهم ،وان يتعلموا ،ويفتحوا اذهانهم للعلم،لان الجهل الذى يعيشون فيه هو سبب النكبات المحيطة بهم ،ومنها ذلك التناحر الطائفي .

٢- على الرغم من هذا الشعور الذى ساد بصفة خاصة لدى الطبقة المثقفة ، فان الدول الاوربية استغلت الحوادث ،لتقوم باول تجزئة لبلاد الشام ،بأن خصت جبل لبنان بحكم خاص مستند الى الطائفية،والاشراف الدولي - كما ذكر سابقا - .وبذلك وضعت نواة انفصاله في المستقبل عن مجموع بلاد الشام . وكان هذا شرخا في وحدة هذه البقاع ،وتشجيعا لبعض الطوائف فيها على الاستقلال والانفصام ،وتكوين كيانات خاصة .

٣- خلق نوع "الحكم الخاص" في لبنان اتجاها جديدا في اذهان العاملين في حقل "النهضة العربية" . فبدأ يظهر تيار المطالبة بالحكم اللامركزي للعرب في ولاياتهم ، وكأنه النمط الصحيح للتخلص من ضغط الدولة العثمانية . وظهر هذا

الاتجاه بشكل واضح في مطلع القرن الرابع عشر هـ / العشرين في اهداف "حزب اللامركزية" الذي انشئ في القاهرة، و "جمعية الاصلاح" في بيروت، ثم في مناقشات "المؤتمر العربي" في باريس عام ١٩١٣ ومقرراته.

٤- كانت الحملة الفرنسية عام ١٨٦٠، محاولة لتثبيت نفوذ فرنسا في لبنان واستغلال التطلعات العربية نحو الاستقلال لصالحها. بل ان حملتها تلك كانت مقدمة استطلاعية لغرض سيادتها في المستقبل على هذه المنطقة. ولقد حاولت فعلا، استغلال الاماني العربية، في ايجاد "دولة عربية مستقلة" في هذه الاجزاء، تكون حليفة قوية لها، وتحمي قناة السويس، وتؤمن مراكزها في الشرق، وعلى طريق الهند، وتكون سوقا للمنتوجات الفرنسية. ولقد صدر كتاب في باريس عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ بعنوان "عبد القادر امبراطور البلاد العربية"، ويقصد به "عبد القادر الجزائري" الذي كان يعيش في دمشق، ولعب دوره المشهور ابان فتنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠. والكتاب يدعو لانفصال سورية عن السلطة العثمانية، واقامة امبراطورية عربية تمتد من البحر المتوسط الى المحيط الهندي، ومن البحر الاحمر الى الخليج العربي، ويكون على رأسها الامير عبد القادر، الذي يتمتع باحترام وتقدير العالمين الاسلامي والمسيحي على السواء. ويقال ان "دوبوفور" قائد الحملة حاول الاتصال بالامير في دمشق الا ان السلطات التركية عرقلت مساعيه.

٥- سمح نوع الحكم الخاص في لبنان بحرية اكبر للبعثات التبشيرية، فزادت من نشاطها الثقافي وفتحها للمدارس. ويرجع الى الفترة التي تلت عام ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠، انشاء "الكلية البروتستنتية" في بيروت، او "الجامعة الامريكية" عام ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦. وحتى تجذب تلك المدارس والكليات السكان العرب اليها، ولكي تتمكن من نشر تعاليمها الدينية باللغة التي يفهمها السكان، فانها اخذت تبذل عناية كبيرة باللغة العربية، وتشجع على تأليف الكتب العربية المدرسية في مضمارها، وتحث على انشاء الجمعيات الادبية والتعليمية. وبذلك اسهمت تلك البعثات، بصورة غير مباشرة، في احياء التراث العربي، وفي تقوية الشعور بالقومية العربية، وتنمية الروح الوطنية، وتوسع المدارك. ولقد كان لهذه البعثات، وبخاصة الكاثوليكية منها، نشاطها المحدود منذ القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر م، وازدادت فعالية في اثناء حكم محمد علي. الا ان الحرية الاوسع التي نالتها، والتنافس الذي قام بينها وبين البعثة

البروتستنتية ،ادى الى دفع الحركة التعليمية قدما نحو الامام ،والى زيادة الانتـــاج الادبـي .

وبعد ان كان اغلب الشباب المثقف ثقافة اوربية حديثة من المسيحيين ،اذا بـــه يصبح من المسيحيين والمسلمين ،وتتحول حركة الاحياء الادبي من ميدان الادب الـى السياسـة .

ثامناً - إحتلال فرنسا لتونس ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ م

لم تقتصر المطامع الاوربية على الاقسام الشرقية من البلاد العربية ،بل امتدت على كل بلاد العرب بمشرقها ومغربها على السواء ، وقد ذكر سابقا احتلال فرنسا للجزائر وتثبيتها لقدمها فيها ،وقد اظهرت الاحداث التالية لذلك الاحتلال ،انه لم يكـن سوى البداية لتتابع بسط سيادتها على المغرب العربي كله . وكانت الفريسة التاليـة (تونس) . ويمكن اجمال اسباب احتلال تونس بمايلي :

١ـ سياسة البايـات : لقد واجهت تونس منذ مؤتمر فيينا نفس تدخلات الدول الاوربية التي اشير اليها عند بحث احتلال الجزائر . اذ انها احدى النيابات العثمانية الثلاث التي كانت تعمل ضد السفن الاوربية ،في البحر المتوسط . ومن ثم فان حملـة اكسماوث الانكليزية عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦ عرّجت على تونس وهددتها ،كما فعلت في الجزائر . الا ان "الباي محمود" "لم يقف الموقف الصلب الذى وقفه الداي في الجزائـر أي انه قبل ما طلبته الدول منه كالغاء الاتاوات ،ومنع استرقاق الاسرى المسيحيين . بل ان "الباي حسين" (١٢٤٠-١٢٥١هـ/ ١٨٢٤-١٨٣٥) وقف موقفا معاديا لفرنسـا ومدعما لها ،عند قيامها بحملتها على الجزائر عام ١٨٣٠ ، حتى انه ارسل وفدا مهنئا للمارشال "بورمون" لانتصاره على الجزائريين . ووقع مع فرنسا معاهدة يتعهد فيهـا ، بمنع القرصنة ،والغاء الاتاوات تماما ،واعطاء الدول الاوربية الحق في انشاء القنصليات بأى مكان شاءت في تونس ،وحرية التجارة بين الاجانب والتونسيين ،وتمتع فرنسا بحـق الدولة الاكثر رعاية .

وتأكدت سياسة التعاون هذه في عهد "احمد باي" (١٢٥٣-١٢٧٢هـ/ ١٨٣٧ ١٨٥٥) ،الذي كان يرى في هذا التعاون مظهرا من مظاهر الاستقلال عن الدولـة العثمانية . فقد كانت تسعده مثلا ،بعض المظاهر السطحية للاستقلال ،كاعتمـــاد

القناصل ،ومعاملة الدول الاوربية له معاملة الحاكم المستقل . وقد استغل الفرنسيون هذا الشعور ،فاستقبله ملكهم "لويس فيليب" عند زيارته لباريس بمظاهر الحفاوة. وهذا الموقف يعارض موقف بريطانيا ،الذي كانت تنظر اليه كتابع للدولة العثمانية . بل كان من نتائج سياسة التعاون هذه ان سمح الباي لفرنسا ،بانشاء كتدرائية في مواجهة مدينة تونس،أي في المكان الذي يقال بأن الملك "لويس التاسع" قد لقي حتفه فيه ابان الحروب الصليبية .

وفي الوقت الذي كان يتقرب به من فرنسا ،فإن الباي اخذ يحاول ادخال بعض الاصلاحات على النمط الغربي معتمدا على الفرنسيين ، كانشاء المدارس وتدريب الجيش .وكان يريد بتلك الاصلاحات تقوية تونس ، ودعم استقلالها عن الدولة العثمانية اولا ،ومواجهة الخطر الفرنسي نفسه الذي بدأ يشعر به .ولكن هذه الاصلاحات كانت سطحية ،على الرغم من انها حمّلت موازنة تونس اعباء ثقيلة ،اضطرت معها الى زيادة الضرائب ،وارهاق الاهالي ،والاستدانة من الخارج .

اما الباي محمد (١٢٧٢-١٢٧٦هـ/ ١٨٥٥-١٨٥٩) وكان حريصا على تحسين اوضاع شعبه،فقضى على مساوئ جباية الضرائب . الا انه اضطر تحت ضغط الجالية الاوربية،ودول لها،وبخاصة فرنسا،وانكلترة،ان يصدر "عهد الامان" عام ١٨٧٤هـ / ١٨٥٧،الذي كان نقطة الانطلاق للاصلاح السياسي . وقد استوحي من "التنظيمات العثمانية" ،ويضمن لجميع التونسيين ،مسلمين ويهود،حقوقا متساوية ،ويعطي للاجانب حق التملك في تونس.

ولما جاء الباي "محمد الصادق" (١٢٧٦-١٣٠٠هـ/ ١٨٥٩-١٨٨٢) ،وهو الذي تم في عهده الاحتلال الافرنسي لتونس ،فانه اتبع في بادئ امره نفس الخط السياسي المالئ لفرنسا واوربا بعامة ،وفي الوقت ذاته سياسة الاصلاح التي بدئت .واصدر "وثيقة دستورية" في عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١ ،تنص على ضمان الحريات الشخصية لجميع المواطنين دون تمييز في الجنس والدين ،وعلى انشاء "المجلس الاكبر" ليشارك الباي في سلطته التشريعية . كما انه قرر انشاء "محاكم نظامية" تحكم بموجب تشريعات على النمط الاوربي. هذا،بالاضافة الى تأسيس جريدة رسمية باسم "الرائد التونسي" .

ولم تكن الدول الاوربية راضية عن ذلك الاصلاح ،فوجود مجلس الى جانب الباي

قد يعيق ما تطلبه من امتيازات وتنازلات . كما ان انشاء "المحاكم النظامية" ،وتطبيق القوانين على النمط الاوربي ،يعني اخضاع الجاليات الاوربية في تونس لتلك المحاكم لا لمحاكمهم الخاصة ، وهذا الامر ،وقفت ضده فرنسا ،وايطاليا بشدة . وبالمقابل لاقى الاطلاح مقاومة من العلماء ،ومن الاهالي : اذ بلبل عادات السكان فيما يخص الممارسة القضائية ، وبصفة خاصة البدو والفلاحين . وجاءت زيادة الضرائب على الاهالي لتفجر ثورة قوية عام ١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م ،ابتدأت برفض القبائل في وسط البلاد ،من دفع الضريبة المفروضة ،ثم انتشرت الى كل المناطق . وكانت تعبيرا عن نقمة الشعب ضد السياسة الداخلية والخارجية للباي ،التي افقرت البلاد ،وارهقت الاهالي بالضرائب ، ودفعت البلاد الى الاستدانة من الخارج ، وعرضتها للتدخل الاوربي . وكان زعيم الثورة "علي بن غذام" . وخشيت ايطاليا،وفرنسا ، وانكلترة نتائج الثورة على مصالحها ، فوقفت اساطيلها مقابل الشواطئ التونسية مهددة بل انها تصدت للسفن الحربية العثمانية التي ارسلتها الدولة العثمانية مع مبعوث لها ، كان هدفه التوسط بين زعيم الثورة والباي ،لانهاء الصراع ،خشية وقوع تونس بيد الدول الاوربية .

ويتضح مما سبق ان دولا اوربية ثلاثا في الواقع ،كانت لها اطماعها في تونس: ايطاليا ، التي ترى فيها قرطاجنة القديمة ،وارضا قريبة منها ،يمكنها ان تفيد منها اقتصاديا وتخفف التخمة السكانية التي تعانيها . اما بريطانيا — وكانت تعتبر نفسها دولة ذات مصالح في البحر المتوسط — فكانت ترى في تونس منطقة قريبة من "مالطة" وهي مستعمرة لها ،بل ان عددا كبيرا من رعاياها المالطيين كان قد هاجر اليها وعمل فيها . اما فرنسا ،فكانت تونس بالنسبة اليها مفتاحا من مفاتيح الجزائر واستدادا لها ؛ وهكذا فالتنافس بين الدول الثلاث كان على اشده ، وان كان قد تبدى ان فرنسا كانت هي الرابحة من سياسة البايات ،وبصفة خاصة في عملية الديون .

٢ — قضية الديون والازمة المالية : لقد وقعت تونس كما وقعت مصر في مخاطر الاستدانة من اوربا من جراء النفقات التي صرفت على ما يسمى "بالمشروعات التجديدية". وقد استدانت من فرنسا ،ومن الرعايا المالطيين . ولما لم تتمكن تونس من الوفاء بالديون فقد تشكلت "لجنة دولية" عام ١٢٨٧ هـ/ ١٨٧٠ للاشراف على المالية التونسية . وكانت لجنة المراقبة تتألف من اعضاء انكليز ،وفرنسيين ،وايطاليين .وعدت

ثروة البلاد مسخرة لدفع فوائد الديون . واتخذت تلك الديون وسيلة للتدخل في كل شؤون البلاد .

ومن حسن حظ البلاد في بادئ الامر ان اختير لرئاسة الوزراء عام ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ "خيرالدين باشا" وهو احد كبار المصلحين في العالم الاسلامي آنذاك ،ولقد تأثر كثيرا بالتطورات والاصلاحات التي جرت في مصر . وقد حاول ان ينظم الضرائب على اساس عادل ،وان يصلح التعليم في "جامع الزيتونة" ،وانشأ "الكلية الصادقية" لتدريس العلوم الحديثة بالاضافة الى التقليدية . وسعى لايجاد توازن بين الامتيازات التي نالتها الدول وبين مصالح تونس ،وعمل جادا لتوثيق صلات تونس مع الدولة العثمانية ،ومن ثم فانه نال نقمة الكثيرين ،فاخرج من الحكومة سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧ ، واضطر للسفر لاستامبول ،حيث غدا هناك صدرا اعظم .

وهكذا عادت المنافسة بين الدول في تونس قوية،للحصول على الامتيازات الاقتصادية واحتدت في السنوات التي تلت "مؤتمر برلين" ١٢٩٥ هـ/ ١٨٧٨ . فكان من نتائج المؤتمر ،ان حصلت بريطانيا نتيجة اتفاق خاص مع الدولة العثمانية على جزيرة قبرص ، وحتى تسكت فرنسا ، لمّحت لها ،بأنه لا مانع لديها من مد نفوذها على تونس . الا ان ايطاليا الطامعة بتونس ،اقلقها هذا الوفاق الفرنسي ـ الانكليزي ،فلوحت لها فرنسا بتعويضها،في السيطرة على طرابلس الغرب،الا ان ايطاليا كانت غير راضية عن ذاك التعويض . وجاء "بسمارك" فأخذ يشجع فرنسا على احتلال تونس ، حتى تنشغل عن منطقتي الالزاس واللورين ،اللتين فقدتهما في حرب السبعين ،وحتى يوقع بين ايطاليا وبينها .

٣ ـ ادعاء فرنسا مهاجمة بعض العشائر التونسية للارض الجزائرية ،وضرورة تأديبهم . وكان هذا هو السبب المباشر الذي تذرعت به فرنسا لاحتلال تونس بعد ان ضمنت موقف الدول . ولا بد من الاشارة هنا،الى ان فرنسا تبنت في عهد "الجمهورية الثالثة" سياسة التوسع الاستعماري ،وكانت تونس اولى الحلقات في تلك السياسة . وهكذا جهزت حملة في عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١ ،اجتازت بها حدود تونس ،وحاصرت العدينة ،واستولت عليها . فاضطر الباي "محمد الصادق" الى عقد "معاهدة باردو" في ١٢ ايار ١٨٨١ ،يعترف فيها لفرنسا باقامة مقيم فرنسي عام الى جواره يشرف

على تنفيذ احكام هذه المعاهدة ،ويكون الوسيط بين فرنسا والسلطات التونسية في جميع القضايا التي تهم الجانبين ،كما يتعهد الباي بعدم عقد اية معاهدات ذات صبغة دولية دون اعلام فرنسا بذلك ،ويعترف الباي كذلك باحتلال القوات الفرنسية العسكرية للمراكز التي تراها ضرورية لاستتباب الامن .

وبذلك جربت فرنسا في تونس (نظام الحماية) لا (الضم المباشر) ،وهدفها اقناع المعارضة الدولية بانها لم تقض على كيان الدولة المحمية ،وكذلك ارضاء المعارضة الداخلية في فرنسا ،بان نفقات الحماية ستقع على عاتق الدولة المحمية لا الحامية .

انعكاسات احتلال تونس على "اليقظة العربية " :

أولا — هز دخول الفرنسيين البلاد دون مقاومة فعلية نفوس الشعب التونسي، وايقظه من غفلته . ولذا فقد اندلعت ثورة في جنوب تونس ،وفي مدينة (القيروان) اول مدينة اسلامية في الشمال الافريقي .ولم تلبث ان امتدت الى الساحل الجنوبي ، واحتل الثوار مدينة (صفاقس) ،واعتبروا الباي خائنا ،لتوقيعه المعاهدة ،ونادوا " بعلي بن خليفة " احد رؤساء القبائل اميرا عليهم . وهنا رأت فرنسا بعد تردد، ضرورة اخماد الحركة الثورية بسرعة . فارسلت اسطولها الى صفاقس ،ودمرت الميناء تدميرا كاملا ،وحشدت جيشا كبيرا في الجزائر ،هاجم تونس ،والقيروان . فاضطر عدد كبير من الثوار للجوء الى طرابلس الغرب . ودخل الفرنسيون الى القيروان،وقضوا على الثورة . وفرضت فرنسا على باي تونس الجديد " علي باي " "معاهدة المرسى " عام ١٣٠١ هـ/ ١٨٨٣ ،التي توسع دائرة اشراف فرنسا على الامور في تونس .

فالاحتلال الفرنسي ولّد اذاً في تونس ،ذلك الشعور الديني الوطني نفسه الذي رأيناه في الجزائر ،ومصر ،والذي لم يكن سوى يقظة عربية من غفوة طالت . الا ان ذلك الشعور تحول الى " شعور محلي اقليمي " محدود بتونس ،اذ اصبح هم الشعب التونسي التخلص من الحماية الفرنسية ،ومن ثم لم يعد يلتفت الى اليقظة العربية في المشرق ونوعيتها .

ثانيا — كان لاحتلال تونس اثره الكبير في العرب المسلمين ،فهو قد اشعرهم مرة اخرى بأن الدول الاوربية مصممة على اغتصاب البلاد العربية كلها ،وان الدولة العثمانية ،قد وصلت الى درجة من الانحطاط والانحلال ،لا تسمح لها بأي دفاع عن

العالم العربي الاسلامي ضد مطامح الدول الاوربية . بل ان التساهل ،الذى اظهره السلطان "عبد الحميد " في قضية تونس ،اثار اشمئزاز العرب في كل بقعة ،بل ومحافل الاحرار الاتراك انفسهم . فلم يفعل في بادئ الامر سوى انه قدم احتجاجا ضد ما قامت به فرنسا ،بل انه لم يغير شيئا من علاقاته الحسنة معها . وعندما قامت فرنسا باخراج " مدحت باشا " الغار من وجه السلطان،والملتجئ الى قنصليتها في (ازمير) ،فان السلطان غض الطرف تماما عن قضية تونس. فقد تلقى وزير الخارجية الفرنسية برقية من السفير في استامبول ، يقول فيها: " ان السلطان تحسس كثيرا من الخطة التي اتبعناها في حادث مدحت باشا ،فقد قال لي احد رجال القصر، ان السلطان انما احتج على احتلال تونس،ليتخلص من المسؤولية تجاه المسلمين،وليحتفظ بمكانته كخليفة لاغير . وكان السلطان قد ابلغني يوم امس — بالواسطة — ان قضية تونس لن تكون بيننا الا سحابة عابرة ."

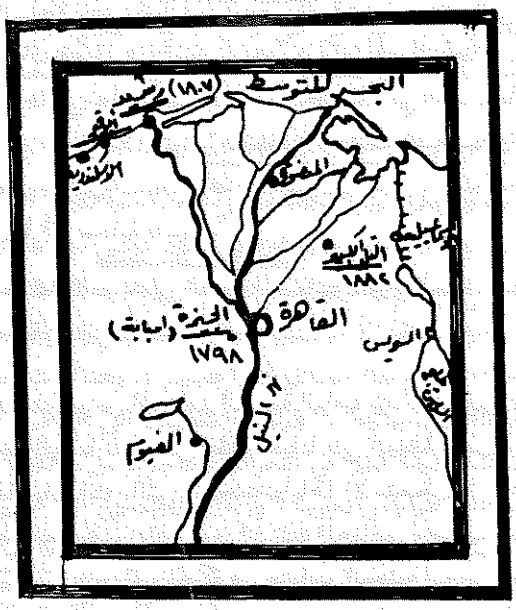
وهكذا زادت نقمة العرب على الدولة العثمانية ،وزاد احساسهم بضرورة الانفصال عنها ،والظهور بكيان عربي واحد .

ثالثا — بدأت كثير من العناصر العربية الواعية يزداد خوفها من الدول الاوربية وتدخلاتها ،وتنظر الى ما تبديه من عطف احيانا على اليقظة العربية نظرة حذر ، وبخاصة الى فرنسا بالذات ،التي اتضحت نواياها الاستعمارية السافرة في منطقة حساسة من البلاد العربية . ولذا يرى ان تلك العناصر ،رغم ايحائها بضرورة الاخذ من حضارة الغرب لبث الحياة والحركة في جنبات المجتمع العربي ،فانها ظلت متحفظة تجاه الدول الاوربية . وقد ظهر هذا جليا في بعض مناقشات "مؤتمر باريس العربي" عام ١٩١٣ .

تاسعا - إحتلال انكلترا لمصر ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ م

تبع احتلال فرنسا لتونس احتلال انكلترة لمصر . ومن المعروف ان انكلترة كانت تتحين الفرصة ،منذ خروج الحملة الفرنسية من مصر ،لتثبيت قدمها فيها ، لموقعها الستراتيجي الهام على طريق الهند ،ولخيراتها . ومنذ هزيمة محمد علي في بلاد الشام ،فان التنافس الانكليزى على مصر كان على اشده ،ولا سيما ان " فرديناند ولسبس" الفرنسي كان قد نال امتيازا بانشاء شركة عالمية ،تعمل على حفر قناة ،تصل

بين البحر الاحمر والمتوسط منذ عهد (الخديوى محمد سعيد) ١٢٧١ — ١٢٨٠هـ / ١٨٥٤—١٨٦٣ . فهذا المشروع الهام جدا ،وسيطرة فرنسا عليه ،كان يعني بالنسبة لبريطانيا تهديد السلامة امبراطوريتها في الشرق . ولقد سعت لدى السلطان ليرفض تصديق الامتياز ،الا ان الامتياز أقر،وحددت مدته بتسعة وتسعين عاما،تبدأ من تاريخ افتتاح القناة .



وبدأت الشركة بالعمل سنة ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ ،وحفر المصريون الارض بفؤوسهم، ومات اكثر من ١٢٠،٠٠٠ منهم في العمل . وبعد عشر سنوات تم حفر القناة ،واحتفل "الخديوي اسماعيل " بافتتاح القناة احتفالا فخما عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩ م دعا اليه ملوك اوربا،ورؤساء حكوماتها .

ولقد اشترت مصر من اسهم القناة ما يقارب نصفها (١٧٧،٦٤٢ من اصل ٤٠٠،٠٠٠) وقدمت للشركة مساعدات كبيرة . فبعض النفقات التي اسهمت بها مصر في حفر القناة ،الى جانب ما صرفه الخديوي على حفلة الافتتاح ، وعلى بناء القصور ،واسرافه في الترف، ادى الى عجز في ميزانية الدولة ،فاستدان من البيوت

المالية الاوربية ،وعندما عجز عن الوفاء بتلك الديون ،فانه لجأ الى بيع اسهم مصر في القناة . الا انها لم تحل المشكلة ،اذ تفاقمت الحالة المالية سوءا ،واستغلت انكلترة وفرنسا هذه الفرصة ،وفرضتا على مصر لجنة ثنائية لمراقبة المالية واستيفاء الديون عام ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٦ م .

وهكذا بدأ التدخل الفرنسي ـ الانكليزي في مصر كما حدث في تونس،بل ان اللجنة الثنائية ،اخذت تقترح تعيين الوزراء وعزلهم ،وتفصل ضباط الجيش بحجة التوفير الى غير ذلك من الامور المنتقصة لسيادة مصر . وازداد التدخل الاجنبي في عهد " الخديوي محمد توفيق " (١٢٩٢-١٣١١هـ/ ١٨٧٤-١٨٩٢) واصبحت وظائف الدولة بيد الاتراك ،والارناؤوط ،والشركس ،والمؤسسات التجارية بيد الاجانب . فازدادت نقمة الشعب ،والاحرار من ضباط الجيش،ولا سيما ان الجيش قد اهمل وأستبدت به العناصر غير المصرية الاصيلة . وتزعم (حركة الشعب والجيش) الناقمة هذه ،احد ضباط الجيش وهو " احمد عرابي " ،فتقدم مع فريق من الضباط بعريضة الى الخديوي ،طالبا فيها اصلاح الجيش،وعزل وزير الحربية . فأمر الخديوي بالقبض على "احمد عرابي" وبعض رفاقه ،الا ان فرق الجيش افرجت عنه ،وامتزجت الحركة العسكرية بالحركة الشعبية لتكوّن حركة ثورية قوية ،كان من مطالبها اقامة حياة نيابية في البلاد ،ووقف التدخل الاجنبي . وقدمت المطالب للخديوي في مظاهرة سلمية ، واضطر الخديوي امام قوة الجيش والشعب،للرضوخ للمطالب. واجريت انتخابات،وافتتح مجلس النواب في تشرين الثاني عام ١٨٨١ .

وادركت اوربا خطورة الحركة ونتائجها ،اذ ان العهد الجديد لا بد ان يقف في وجه مصالحها الاستعمارية . ولذا فان انكلترة وفرنسا ،ارسلتا مذكرة مشتركة الى الحكومة المصرية ،تعارض فيها حق المجلس النيابي في مناقشة ميزانية الدولة ، وتهددان بالتدخل ،لتأييد سلطة الخديوي. الا ان المجلس تغاضى عن المذكرة وصدر "مشروع الدستور الجديد" في شباط ١٨٨٢ .

ولم يلبث الخلاف ان نشب بين الخديوي ،الذي قبل كل تلك الاصلاحات على مضض ،والمجلس النيابي . واستغلت انكلترة الموقف لتحقق مآربها ، فأخذت تشيع ان الوضع في مصر مضطرب،وانه خطر على ارواح الرعايا الاجانب . وارسلت مع فرنسا

اسطولا مشتركا الى مياه الاسكندرية ،وطالبتا الخديوي باسقاط الوزارة القائمة ،وابعاد عرابي عن مصر . فاستقالت الوزارة ،الا ان احمد عرابي اصر على الاحتفاظ بمنصبه .

وحدث في هذا الوقت (١١ حزيران ١٨٨٢) شجار ،قد يكون مفتعلا ،بين احد المالطيين ،وهو من الرعايا الانكليز ،وبين عامل مصري . وتحول الشجار الضيق الى تبادل اطلاق الرصاص بين الاهلين ،والاوربيين ، فاقترحت فرنسا حل القضية على نطاق دولي ،في مؤتمر ،يعقد في القسطنطينية . وخافت انكلترة ان تفلت يدها من والفرصة سانحة الآن ، فوجهت وحدها انذارا الى قائد حامية الاسكندرية . ونزل الجنود الانكليز الى البر ،وانضم الخديوي الى انكلترة . وحاول عرابي ان يقف في وجه الجيش الانكليزي المتقدم من قناة السويس ،الا انه انهزم في معركة " التل الكبير "، ودخلت انكلترة " القاهرة " في ايلول ١٨٨٢ ،لتبقى في مصر ما يقارب ثلاثة ارباع القرن .

نتائج الاحتلال في اليقظة العربية

أولا — قطع الاحتلال على مصر طريق التطور التي سلكتها منذ عهد محمد علي، أي ان جهود الشعب ،والفئات الواعية اتجهت بعد الاحتلال الى تهيئة الاجواء لمقاومة الوجود الانكليزي ،بدلا من الالتفات الهادئ الى تطوير البلاد في المجالات الاقتصادية،والاجتماعية،والسياسية . ولا سيما ان بريطانيا الغت "الدستور" ،وحلت مجلس النواب ،ورسمت لمصر سياسة اقتصادية ،تجعل منها اقليما زراعيا يخدم مصالحها وسوقا لبيع مصنوعاتها ،ومقرا لتدفق رؤوس اموالها ،كما استلم الانكليز معظم الوظائف فيها حتى التدريس .

ثانيا — خلق الاحتلال وضعا سياسيا معقدا في مصر: فبريطانيا ظلت تكرر حتى ١٣٣٣ هـ/ ١٩١٤ ان احتلالها لمصر تدبير موقت،ولم تعمل للتنكر لسلطة الخديوي، ولم تتراجع عن الاعتراف بسيادة السلطان العثماني على تلك البلاد ،الا في ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤ م ،عندما اعلنت حمايتها عليها .

ثالثا — نضوج النهضة الفكرية والسياسية في مصر بعد ان كانت بذورها قد غرست منذ عهد محمد علي . فالتحدي الاوربي فتقها قوية من مكامنها ،الا انه يلاحظ في صلبها تياران :

١— ازدياد التفات مصر الى ذاتها ،وانعزالها عن البلاد العربية ، فاخذت

الفئة الوطنية المثقفة تلوّن في ظروف الاحتلال التي عاشتها البلاد ،تيارا فكريا ،قوميا محليا قويا ،لتقاوم به احتلال انكلترة .ولقد نما هذا التيار مع مرور الزمن ،ولا سيما وان التاريخ المصري القديم نبش ،واخذ كثير من البحاثة يضربون على وتر الاصالة المصرية والحضارة المصرية ،دون ربط لها بالاصول العربية القائمة . ومن ثم يلاحظ عدم مشاركة مفكريها بالقضية العربية الوليدة في بلاد الشام ،او الدفاع عنها ، او الربط بينها وبين القضية في مصر ،مثل الزعيم "مصطفى كامل" مثلا و "محمد فريد" .

٢ــ الى جانب "التيار الفكري القومي المصري" ،تبنت بعض الفئات المثقفة الواعية ،التيار الاسلامي التقدمي ،الذي تزعمه "جمال الدين الافغاني" اثناء اقامته في مصر ،وتابعه الشيخ "محمد عبده" ،والذي كان يربط بين الحركة الفكرية المصرية والحركة الاسلامية العامة،التي يجب ان تعمل على اصلاح احوال المسلمين في كل بقعة . ولقد لقيت هذه الدعوة نجاحا في مصر اكثر مما لقيته في بقية انحاء المشرق العربي ، لان الحركة الوطنية في مصر كانت تحارب النفوذ الاوربي ،ومن ثم كان عليها ان تتطلع الى دولة كبرى كالدولة العثمانية لتساعدها ،بينما تعني لبلاد الشام، منح قوة لدولة معادية للحركة القومية العربية .

رابعا ــ "ثورة السودان" كانت مصر تحكم السودان منذ عهد محمد علي ،الا ان الحكام المرسلين الى تلك البقعة ،ومعظمهم من الاجانب ،قسوا على السكان . كما ان حكم الخديوي اسماعيل طبق نظام الاحتكارات في المجال الاقتصادي ،ولا سيما تجارة العاج،مما حرم الاهالي من ارباح جمة . كما عمل ايضا على مد النفوذ المصري حتى خط الاستواء ،ونع الاتجار بالرقيق . ولقد اثارت هذا الامور نقمة عدة فئات من الشعب،وبخاصة بعد ثورة احمد عرابي في مصر . فالتفّت حول زعيم عربي دعي هو "محمد احمد بن عبد الله" ،الذي لقب نفسه بالمهدي والامام،والخليفة"،وادعى انه من الشرفاء . واخذ هذا الاخير يدعو للثورة في عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١ ،وجعل مقره في "الأُبيض" في كردفان ،ومنها انتشرت الى المناطق الشرقية . وعندما قامت انكلترة باحتلال مصر ،فانها ندبت "الجنرال غوردون" ليهدىء الحال في السودان فاعلن هذا في عام ١٣٠٢ هـ/ ١٨٨٤ ان السودان قد فصل عن مصر ،وطلب من المهدي الكف عن القتال،على ان يمنحه لقب"سلطان كردفان". الا ان المهدي بين

تابعوا ثورتهم وسقطت (الخرطوم) في يد هم وقتل "غوردون" ، واضطر المصريون لاخلاء السودان .

الا ان انكلترة خافت ان يفلت السودان من يد ها اذا لم تسرع في احتلاله ، ولا سيما قد رأت ان فرنسا تحث الخطا في الصحراء الافريقية باتجاهه . ولذا فانها ارسلت ١٣١٤ هـ/ ١٨٩٦ قوات مصرية انكليزيه هاجمت المهديين ، وانتصرت عليهم في " ام درمان " عام ١٣١٦ هـ/ ١٨٩٨ . وتقدم " كيتشنر " القائد الانكليزي نحو الجنوب للسيطرة على اعالي النيل . وفي هذه الاونة كانت قوات فرنسية تزرع علمها على المنطقة . وتأزمت العلاقات بين الدولتين ، الا ان فرنسا كانت حريصة على كسب صداقة انكلترة في وجه المانيا ، فقررت الجلاء عن منطقة (فاشودة) . وهكذا وقّعت انكلترة ومصر عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ على " اتفاقية الحكم الثنائي المشترك " في السودان .

عاشراً - الاحتلال الايطالي لليبيا ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م

لقد كانت ايطاليا تطمع بمنطقتي تونس وليبيا ، ولذا فان كثيرا من الايطاليين هاجروا اليها وكونوا شركات تجارية ، وبنوا المدارس والمستشفيات بقصد الدعاية . ولم تستطع ايطاليا في الظروف الدولية ، التي ذكرت آنفا ، ان تحقق مطامعها في تونس اذ سبقتها اليها فرنسا . وحاولت ان توجه بصرها بعد ذلك الى الاستعمار في منطقة البحر الاحمر فسيطرت على الصومال ، وارتيريا . وعندما ارادت احتلال الحبشة ، فان الاحباش ردوها على اعقابها خاسرة في (معركة عدوة) عام ١٣١٣ هـ/ ١٨٩٥ .

وبحثت عن مكان جديد تجعله موطنا لاستعمارها ، فلم تجد متبقيا في القارة الافريقية ، وفي منطقة قريبة منها ، سوى ليبيا . وكانت فرنسا قد لوحت لها بهذا سابقا . فتقربت من فرنسا واعترفت بحمايتها لتونس ، ووقفت الى جانبها في " مؤتمر الجزيرة " عام ١٣٢٤ هـ/ ١٩٠٦ ، لحل مشكلة المغرب . بل واعترفت لها باطلاق يد ها في المغرب مقابل ان تقرّ لها فرنسا باطلاق يد ها في ليبيا . ولقد تم اتفاق مماثل ، بينها وبين انكلترة ، مقابل اعترافها للاخيرة باطلاق يد ها في مصر .

وسنحت لها الفرصة لشن عدوانها على ليبيا ، عندما قامت " حركة المشروطية الثانية " في الدولة العثمانية عام ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨ ، والثورة التي تلت عزل السلطان

عبد الحميد . فوجهت انذارا الى الدولة العثمانية ،بضرورة التخلي خلال ٢٤ ساعة عن ليبيا للايطاليين ،بحجة اقرار الامن ،وضمان تنفيذ مشروعاتها الاقتصادية .

وحاولت الدولة العثمانية ان توسط الدول في النزاع ،ولكن الدول وقفت موقفا سلبيا . وارسلت ايطاليا في ٢٩ ايلول ١٩١١ اسطولها الى (طرابلس الغرب) فاحتلتها،وضم (بنغازي) ،و (طبرق) .

وهب الشعب العربي في ليبيا يدافع عن ارضه ويقاوم المحتلين بعنف . فوسعت ايطاليا دائرة الحرب ،فاحتلت جزيرة رودس ،والدودیكانيز ،وضربت بيروت عام ١٣٣١ هـ/ ١٩١٢ .فاضطرت الدولة العثمانية الى توقيع "معاهدة اوشي" (قرب لوزان) في سويسرة ،وفيها تخلت عن ليبيا .

"نتائج الاحتلال "

أولا – ظهور حركة مقاومة شعبية قوية في ليبيا ،هي في الواقع مظهر من مظاهر التحرك الثوري العربي في المنطقة العربية . ولقد استقطبت حركة المقاومة هذه معظم العناصر العربية المتحمسة . فانضم اليها كثير من الضباط العرب ،من امثال "عزيز علي المصري" . ولقد استطاعت تلك الحركة ان توقف زحف الجيش الايطالي وحصرته في المدن الساحلية .

ولم تلبث ان ارتبطت هذه الحركة الثورية الشعبية ،بعد توقيع "معاهدة اوشي" ، بحركة فكرية دينية صوفية هي "الحركة السنوسية" . ودعا اليها "محمد بن علي السنوسي" (١٢٠٢–١٢٧٦هـ/ ١٧٨٧–١٨٥٩) . وكان قد ولد في ضواحي مستغانم في الجزائر ،وتلقى العلوم في فاس،واطلع على اسس الحركة الوهابية ،وادرك روح الاسلام الصحيح ،وزار القاهرة ومكة ،وطرابلس الغرب . وعندما حاول العودة الى الجزائر ،منعه الفرنسيون ،فاقام في ليبيا ،واتخذ (واحة جغبوب) مقرا لحركته، فهي منطقة وسط ،بين مصر ،والسودان ،والمغرب العربي . وبنى مدرسة دينية مزودة بمكتبة كبيرة . واتسعت الدعوة السنوسية واصبح لها ١٤٦ زاوية .

ولقد نادت الحركة السنوسية بالعودة الى اصول الدين الاسلامي الصحيح ،والى اتخاذ حياة الرسول قدوة ومثلا اعلى ،والى الايمان الصافي القوى بتعاليم الدين

واسسه ،ممزوجا بالعمل لصالح الجماعة . فالحركة السنوسية ،على الرغم من طابعها الصوفي ،لم تدع الى اللاعمل ،والانحباس للعبادة ،بل دعت الى التفاعل مع المحيط الخارجي . وكان لكل (زاوية) شيخ" ،يعينه زعيم الحركة السنوسية ،ويشرف على نشر التعليم ،والدفاع عن المنطقة ،والسهر على الامن . ولقد اعترفت الدولة العثمانية بالحركة ، وتعاونت معها اثناء غزو ايطاليا لليبيا لمقاومة المحتلين . وعندما جلا الاتراك ،تحملت الحركة عبء الجهاد ضد الغاصبين . وعندما قامت الحرب العالمية الاولى ،وجه السنوسيون مقاومتهم تجاه الايطاليين في ليبيا والانكليز في مصر . ونجحت الحركة في هزيمة الايطاليين في عدة معارك ،مما اجبر ايطاليا على ابرام اتفاق مع السيد "محمد ادريس السنوسي" ،ينص على ابقاء القسم الداخلي من ليبيا بيد السنوسيين ،وعدم التعرض لزواياهم ،والسماح بالمبادلات التجارية بين الساحل والداخل . الا ان حكومة "موسوليني" قضت على هذه الامتيازات عام ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ ،مما اشعل الحركة الوطنية من جديد بزعامة السيد "عمر المختار" احد شيوخ السنوسية . الا ان ايطاليا تغلبت عليها واعدمت المختار ،واغلقت الزوايا عام ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١ ،وشردت زعماءها .

ثانيا ـ زاد من توتر العلاقات بين العرب والاتراك ،اذ اعتبر العرب ان الدولة العثمانية هي المسؤولة الاولى عن فقدان ليبيا ،اذ لم تستكمل وسائل الدفاع عنها ، ولا وفرت سبيل الاصلاح والعمران فيها ،وتركتها طعمة للدول الاوربية . فليبيا كانت منذ ١٢٥١ هـ/ ١٨٣٥ ولاية عثمانية ،ووضعها ليس كوضع الجزائر ومصر مثلا ، اذ ان ازمة الامور كانت في ايدي رجال السلطنة وموظفيهم فيها . وكان ذلك الاحتلال سببا في خلاف وشقاق بين النواب العرب ،والاتراك ، في (مجلس المبعوثان) ،ودافعا قويا لانفصام العرب نهائيا عن الدولة العثمانية .

حادي عشر ـ إحتلال فرنسا للمغرب ١٣٣٠ هـ / ١٩١١ م

لم يخضع المغرب الاقصى للدولة العثمانية ،وانما عاش مستقلا في ظل سلاطينه من الاشراف السعديين ،فالعلويين . ولقد استطاع ان يصد هجمات الاسبان ، والبرتغاليين ،الطامحين بارضه .الا ان عوامل الضعف كانت مستشرية في خلاياه وجاءت مطامع الدول الاوربية الاستعمارية في القرن التاسع عشر ،لتهدد كيانه ،وبخاصة

انكلترة،وفرنسا،واسبانيا . اما الاولى فقد كانت حريصة على هذه البقعة الاستراتيجية الواقعة في مدخل البحر المتوسط،والمقابلة لجبل طارق ،وقد كانت مركزا هاما من مراكز تجارتها . بينما كان لاسبانيا مطامعها الدائمة فيه منذ ان اخرجت العرب من ارضها ، حتى انها كانت تعتلك بعض المراكز . وجاءت فرنسا بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ،لترى ضرورة سيطرتها على هذه الاجزاء ،لكونها المفتاح الغربي للجزائر ،والامتداد الطبيعي لها ،ولا سيما ان سلطان المغرب كان قد آزر في بادئ الامر الامير عبد القادر في ثورته ضدها .

ولم تطل فرنسا الصمت ،اذ بدأت بتدخلها في شؤون المغرب ،ونجحت منذ عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٤ ، في فرض اتفاقية للحدود عليها ،كما انتزعت معاهدة تجارية يكون لها فيها حق الاولوية التجارية .

الا ان انكلترة ،التي كان لها نفوذها التجاري في بلاد المغرب ،ردت على تلك المعاهدة بتوقيعها معا هدة تجارية جديدة مع السلطان عام ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦، هي توسيع "للامتيازات " التي كانت الدولة العثمانية تمنحها عادة للدول الاوربية في ممتلكاتها . ونشطت تجارتها مع المغرب استنادا لذلك نشاطا كبيرا حتى غدت تمثل $\frac{2}{3}$ تجارة المغرب الخارجية .

واذا كانت انكلترة وفرنسا قد استطاعتا تحقيق بعض مآربهما سلميا ،فان اسبانيا لم تصل الى ما تبغي الا بعد حرب قامت بينها وبين المغرب عام ١٢٧٦ هـ/ ١٨٥٩ ، حاولت في بدئها،تقوية الحصون القائمة على مشارف (سبتة)،واحتلت مدينة "تطوان" ونجحت في الصلح ،الذي عقد بينها وبين سلطان المغرب عام١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ ،في الاحتفاظ " بتطوان "،وفي الحصول على غرامة حربية كبيرة ،وفي نيل امتيازات اقتصادية ،وقضائية ،تشبه امتيازات انكلترة . تلك الامتيازات التي حصلت فرنسا على ما يماثلها في عام ١٢٨٠ هـ/ ١٨٦٣ ،وبخاصة منها امتياز منح فرنسا الحماية للمغاربة ،الذين يقومون بخدمة التجار الفرنسيين .

وعندما تولى عرش السلطنة "مولاي الحسن " (١٢٩٠-١٣١٢هـ/ ١٨٧٣-١٨٩٤) فانه اخذ على عاتقه اجراء اصلاحات هامة وواسعة في الجيش،والقضاء ،والادارة . الا انه وقع تحت تأثير فرنسا ، التي عملت بالحاح على ان تكون هي المزودة له بالبعثة

العسكرية التي ستقوم بتدريب الجيش . وعلى الرغم من مساعيه لابعاد النفوذ الاجنبي عن بلاده ، فانه لم يستطع ان يقف في وجه الدول الاوربية ، انكلترة، واسبانيا، وفرنسا، مجتمعة، التي حصلت متضافرة في "مؤتمر مدريد "عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠ على توسيع جديد في الامتيازات، التي كانت قد نالتها سابقا .

وهكذا يتضح ان بلاد المغرب كانت منذ منتصف القرن التاسع عشر مسرحا لتنافس الدول الاوربية ومجالا لتداخلاتها . ولقد حاول "السلطان عبد العزيز" ان يتابع سياسة الاصلاح والتجديد التي ابتدأها والده ، الا ان الظروف الدولية المحيطة ببلاده ، وشخصيته ، لم تمكّنه من ذلك ، ولا سيما انه اتبع السياسة التقليدية التي جرى عليها اكثر مصلحي البلاد العربية في القرن التاسع عشر وهي " سياسة القروض والاستدانة" من الدول الاوربية ، للقيام بمشروعات الاصلاحات المختلفة . وكان معظم تلك القروض من فرنسا الطامعة بالمغرب .

ولقد رأت فرنسا ان عليها ان تعمل بسرعة، اذا ارادت تحقيقا لمطامحها . فأخذت تتحرش بالقوى المغربية ، وتغير على الحدود ، وتنتزع بعض المناطق الصحراوية. الا انها كانت تعرف تماما، ان سيطرتها على المغرب لن تتم باحتلال عسكري فقط ، وانما عليها ان تتفق مع الدول الاوربية ، ذات المصالح والنفوذ في هذه البقاع . وبالفعل، تمكنت من الاتفاق مع ايطاليا اولا ، وذلك في عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠ ، على ان تعتبر فرنسا ، طرابلس ، وبرقة ، خارجتين عن منطقة نفوذها . واذا ما حدث تغيير في وضع المغرب، فانه يمكن لايطاليا التصرف بحرية في تلك الاجزاء . وفي عام ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤ توصلت فرنسا، وانكلترة، الى اتفاقهما الودي المعروف ، الذي حل المشكلة الاستعمارية بينهما، ومنها قضية المغرب . فقد اتفق ، على ان لبريطانيا مطلق الحرية ، للقيام بالاصلاحات الادارية ، والاقتصادية ، وغيرها ، في مصر ، مقابل ان يكون لفرنسا تلك الحرية بالمغرب ، على ان تراعى مصالح اسبانيا فيه ، بعد تفاهم واتفاق بين فرنسا، واسبانيا .

وكانت فرنسا في هذه الاثناء تفاوض اسبانيا للتفاهم معها . ووقع الاتفاق بين الطرفين في تشرين الاول ١٩٠٥ ، وكان القسم السري ينص، على تقسيم المغرب الى منطقتي نفوذ ، القسم الشمالي ، اي الريف ، لاسبانيا ، وكذلك جزء من المنطقة الجنوبية ونص على اشتراك الاثنتين في المشروعات الاقتصادية .

الا ان فرنسا لم تصل الى ما تبغي ، اذ ظهرت امامها دولة جديدة لم تكن لها في السابق تدخلاتها الاستعمارية وهي المانيا ، فألمانيا منذ اواخر القرن التاسع عشر ، اتجهت تدريجيا نحو الاستعمار في افريقيا ، كما شرعت تنمي تجارة واسعة في المغرب ولا سيما ان السلطان اخذ يشجعها ، ويتقرب منها ، على تقف في وجه تحيكه الدول الاخرى من مؤامرات ضد المغرب . وفي عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥ ، وبعد ان كانت فرنسا قد وقعت اتفاقيتها مع اسبانيا، وانكلترة ، قام الامبراطور الالماني " غليوم الثاني " بزيارة لطنجة ، والقى خطابا بيّن فيه ان السلطان هو صاحب السيادة التامة على بلاده ، وانه يأمل ، ان تكون المغرب مفتوحة في ظل تلك السيادة، للمنافسة التجارية السلمية الحرة ، لجميع الامم دون استثناء . واوضح ان المانيا ستحمي مصالحها اذا ما هددت .

وشعرت فرنسا بخطورة الامر ، ومع ذلك فقد طلبت من السلطان ، بموجب اتفاقها الودي مع انكلترة ، وضع جميع الاصلاحات المقترحة تحت اشرافها ، الا ان السلطان، مدعما بموقف المانيا ، رفض الطلب . واقترح عقد (مؤتمر دولي) للنظر في وسائل تنفيذ الاصلاحات ، وتدبير نفقاتها .

وانعقد المؤتمر في كانون الثاني ١٩٠٦ في مدينة " الجزيرة " في اسبانيا ، وحضرته الدول الاوربية ، والولايات المتحدة ، والمغرب . وتم الاتفاق على مايلي :

١ــ الاعتراف باستقلال المغرب ، وتوكل المالية الى مصرف حكومي في طنجة ، تراقبه الدول ، وتوزع اسهمه بالتساوي عليها ، عدا فرنسا فلها اكثر مما لغيرها .
٢ــ يكون أمن الموانئ بيد قوة وطنية ، يشرف عليها ضباط فرنسيون ، واسبان
٣ــ توضع الجمارك تحت رقابة دولية .
٤ــ توزع امتيازات المشروعات الاقتصادية بين شركات مختلف الدول .

وقد كان هذا المؤتمر في الواقع نصرا لفرنسا ، ولم تربح المانيا منه شيئا ، على الرغم من انها كانت المتحمسة لدعوته ، كما انها لم تظهر فيه تأييدا كبيرا لموقف المغرب . اما المغرب فرغم دفاع وفده عن وجهة نظره الاستقلالية ، فانه كان الخاسر .

لم تكتف فرنسا بما تم ، بل انها شرعت تستغل الحوادث الداخلية لتحتل البلاد قسما بعد آخر . فاحتلت أولا القسم الشرقي المجاور للجزائر ، ثم ادعت وقوع اعتداءات

في (الدار البيضاء) (اعتداء على عمال اوربيين) ، فاحتلت الميناء سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٧ ، وزحفت نحو الداخل الى (فاس) عام ١٣٣٠ هـ/ ١٩١١ ، بحجة اخماد الاضطرابات فاحتلتها ، واحتلت معها (مكناس) و (الربا) . وهنا اسرعت اسبانيا فاحتلت حصتها وتحركت المانيا ، فارسلت مدرعة الى (اغادير) ، وطالبت فرنسا بالانسحاب . وانتهت المفاوضات بين الدولتين ، على ان تعطي فرنسا لالمانيا ١٠٠ ألف كم٢ من اراضي الكونغو الفرنسية ، ويعترف غليوم الثاني بحق فرنسا في المغرب ، على ان يكون لباقي الدول حقوق متساوية في الجمارك ، والتعدين والمواصلات . وعلى اثر ذلك اعلنت فرنسا حمايتها على المغرب في ٣٠ آذار ١٩١٢ .

نتائج التدخل الاوربي في المغرب والاحتلال "

اولا ــ لقد اثار التدخل الاوربي في شؤون المغرب ، من بداياته ، الشعور الوطني الديني ، كما حدث في كل بقعة عربية طرقها الاستعمار . فقام الشعب بقيادة زعمائه يقاوم ذلك التدخل والتسلل . فعلى اثر انعقاد " مؤتمر الجزيرة " ، اندلعت ثورات عديدة في المغرب ، اهمها حركة " ماء العينين " الدينية في الجنوب ، وهدفها تخليص البلاد من الضغط الاجنبي ، وايقاف التوغل الفرنسي في موريتانيا . وتحرك الشعور الوطني في مدينة "مراكش" نفسها كذلك ، ووجدت هذه المدينة في "عبد الحفيظ" اخ السلطان ، زعيما وطنيا ملائما . وتوطدت الصلة بين هذا الاخير " وماء العينين " . واجتمع "مؤتمر وطني" في مراكش ، طالب بطرد الاوربيين من البلاد ، وتحديد المناطق التي يسمح لهم بالاقامة فيها . كما طالب بالغاء نظام الحمايات والمكوس ، ومصرف الدولة ، وامن الموانئ ، وعدم الاعتراف بمقررات مؤتمر الجزيرة ، كما اعلن المؤتمر (الجهاد) ، وخلع عبد العزيز .

وعمت حركة الثورة انحاء المغرب ، حتى ان اعيان فاس تقدموا بمطالب تشبه مطالب مدينة مراكش ، واضافوا اليها امرين هامين للواحد منهما دلالته العميقة في تواصل اليقظة العربية بين المشرق والمغرب ، وتلاحم القيم الثورية بين الجناحين . وهذان الامران هما :

ــ المطالبة بالاعتماد على دول المشرق الاسلامي المتقدمة .

ــ عدم التنازل عن شيء من حقوق الشعب ، او توقيع معاهدة مع الاوربيين ، دون

اخذ رأى الامة . ورافق هذا التحرك الوطني الثوري الواعي، اهتمام الوطنيين بنشر آرائهم وافكارهم وسط الشعب ، وشجب مواقف السلطان عبد العزيز ومؤيديه ، فأصدروا مجلة مخطوطة، حيث لم تكن الطباعة قد وصلت الى فاس بعد . وتنازل عبد العزيز عن العرش عام ١٣٢٨هـ/ ١٩٠٨ .

الا ان "عبد الحفيظ" لم يثبت في موقفه زعيما للحركة الوطنية : فهو لم يفعل شيئا للتقرب من المشرق الاسلامي ، بل لم يلبث ان سلم بشروط المذكرة التي تقدمت بها اسبانيا، وفرنسا، اليه كشروط للاعتراف به . ومن تلك الشروط التخلي عن فكرة الجهاد، والتعهد بقبول المعاهدات والمواثيق الدولية الخاصة بالمغرب .

واشتدت الثورة في البلاد ، فادعت فرنسا حماية الجاليات الاوربية وقطع دابر الفوضى ، فوجهت حملتها الى فاس .

ولم تخمد الثورة، بل ازدادت لهيبا في فاس عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٢ ، واتخذت طابعا قوميا عسكريا اذ ان الجيش كان قائدا لها . ولكن فرنسا تمكنت بقواتها من اخضاعها ، واخماد حركات المقاومة الكبرى في الجنوب ، حيث هب (هبة الله بن ماء العينين) ، والاطلس الوسيط ، الا ان عدم التنسيق بين تلك الحركات الثورية، واتصاف بعضها بالقبلية الاقليمية اضعف من مردودها . ومع ذلك فقد لاقت فرنسا في اخمادها صعوبات لاتحصى عبر عنها ضباطها . فقد قال احدهم ، وكان يعمل تحت قيادة القائد " ليوتي ": "لم تستسلم اية قبيلة دون مقاومة ، بل ان بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفد كل وسائل المقاومة ، ولم تقدم اية قبيلة ولاءها الا بعد ان هزمناها باسلحتنا."

لقد كانت ثورة المغرب ضد سلطانها اولا ، وضد الاحتلال الفرنسي ثانيا ، تجربة غنية في محيط اليقظة العربية ، اججت كوامن الشعور الوطني في المغرب، وفتحت مغاليق الترابط بين المشرق العربي والمغرب . فمقرر الوطنيين في فاس ، بضرورة الاعتماد على دول المشرق الاسلامي المتقدمة ، لدليل ساطع على تفاعل حركة اليقظة العربية في جميع انحاء الوطن العربي ، وفي تلاقي اطرافها بين مشرق ومغرب ، وتأثير بعضها في بعضها الآخر .

ثاني عشر ـ الاستعمار البريطاني في الخليج العربي والجنوب العربي

لقد بدأت اوربا تنفذ الى منطقة الخليج العربي منذ القرن السادس عشر

ـ كما اسلفنا القول ـ وكان اول النافذين ، البرتغاليين ، الذين استولوا على جزيرة (هرمز) ، واصطدموا بالاساطيل التجارية للعرب في هذه المنطقة ، واحرق " البوكيرك " المدن المطلة على الساحل الشرقي الجنوبي لشبه جزيرة العرب حتى (مسقط) . وكانت مشيخة مسقط تمتد آنذاك حتى قرب عدن . ووقعت ايران عام ٩٥٢هـ/ ١٥٤٥ معاهدة مع البرتغال سلمت فيها بسيطرة الاخيرة على هرمز .

ولقد اشرنا اكثر من مرة ، الى ان محاولة دولة المماليك في صد الهجوم البرتغالي على اطراف الجزيرة لم تنجح . وعندما جاء العثمانيون ، فانهم حاولوا ابعاد النفوذ البرتغالي عن اطراف شبه الجزيرة ، واذا كانوا قد نجحوا الى حد ما في الجنوب والغرب منها ، الا ان منطقة الخليج العربي ، بقيت البرتغال هي الدولة الاوربية السائدة فيها .

وفي اواخر القرن السادس عشر ، اخذت كل من انكلترة ، وهولاندة ، تنافس ، البرتغال في جنوب شرقي آسيا ، وفي الخليج العربي . وشرعت انكلترة تسعى حثيثا لطرد النفوذ البرتغالي من الخليج العربي . واستغلت رغبة ايران في ايجاد حليف قوي لها ، ضد الدولة العثمانية ، من ناحية ، وضد البرتغال ، من ناحية اخرى ، ورغبتها هي ، في توسيع نشاطها التجاري ، لتتداخل عسكريا . وبالفعل ، فان " شركة الهند الشرقية الانكليزية " ارسلت مراكبها التجارية من عام ١٦١٦ الى الخليج العربي ، وحطمت بذلك الاحتكار التجاري البرتغالي . كما انها وجهت قوة عسكرية بالاتفاق مع ايران ، طردت بها البرتغاليين عام ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٢ من (هرمز) ، وتمكنت ايران كذلك من طردهم من (البحرين) . وهكذا ثبتت " شركة الهند الشرقية " قدمها في الخليج العربي ، وانشأت مركزا تجاريا في (بندر عباس) ، وفرعا للتجارة في (البصرة) ، ومدت تجارتها الى (مخا) في اليمن .

والذي جذب انكلترة في منطقة الخليج العربي ، انها مع العراق ، وشمال بلاد الشام ، كانت طريقا للمواصلات السريعة بين لندن والهند ، ومركزا استراتيجيا هاما في الطريق الى الهند .

وفي الوقت الذي كانت فيه بريطانيا ترسخ قدمها في العراق ، على المدخل الشمالي للخليج العربي ، كانت فرنسا تصب اهتمامها على مدخله الجنوبي او على " سلطنة عمان " التي كانت قد بسطت نفوذها على جنوب شرق الجزيرة العربية ، وعلى

هرمز ،والساحل الشرقي لافريقيا ،بل ومدت سيادتها على ساحل ايران المقابل . وكانت تملك قوة بحرية كبيرة تمارس عمليات الهجوم على سفن الدول الاوربية . وازداد اهتمام فرنسا بهذه السلطنة منذ قيام الثورة الفرنسية ودخولها بحروب طويلة مع انكلترة ،اذ رأت ان تتخذ منها قاعدة لمهاجمة المستعمرات البريطانية في الهند . وبالفعل فانها وطدت صلاتها مع السلطان وانشأت لها قنصلية فيها .

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر ،فنبهت انكلترة الى خفايا السياسة الفرنسية واهمية جميع المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية . ولذا فانها اسرعت باحتلال جزيرة (بريم) عند باب المندب ، واتفقت عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢ مع سلطان (لحج) على تسهيل سبل التجارة البريطانية ،وسعت لتوطيد صداقتها مع العراق . ونجحت في توقيع معاهدة مع سلطان مسقط ،تعهد فيها السلطان بعدم السماح بانشاء وكالة فرنسية في مسقط وتوابعها ،وطرد جميع الرعايا الفرنسيين ،ومنح انكلترة امتيازات تجارية مماثلة لتلك التي تتمتع بها في الدولة العثمانية . وعلى الرغم من توقيع هذه المعاهدة فانها لم تنفذ ،لان فرنسا كانت هي الاخرى تقوم بمساعيها لدى السلطان ،وكان السلطان يخشى غارات القراصنة الفرنسيين على اسطوله العربي الا انه بسقوط نابليون بونابرت عام ١٨١٤ ،وبانصراف فرنسا الى قضاياها الداخلية ، صفا الجو لبريطانيا في الخليج العربي .

وعندما اتسع نفوذ محمد علي حتى سواحل الخليج العربي ،فان هذا الامر اثار قلق بريطانيا . ولذا فانها بعثت باسطولها الى الخليج عام ١٨٢٠ ، ووثقت صلاتها بامام مسقط ،وشيخ البحرين .

وفي الحقيقة لقد عطلت بريطانيا على دعم نفوذها في الخليج العربي في القرن التاسع عشر متذرعة بأمرين :" محاربة ما اسمته بالقرصنة ،ومحاربة تجارة الرقيق " .

فمنطقة مهاجمة السفن الاوربية في الخليج العربي ،كانت تتركز في الواقع فيما يسمى بـ (ساحل القرصنة) ،او الساحل الداخلي لخليج عمان والذي يسمى اليوم "الساحل المهادن". ويسكن هذه المنطقة قبائل عديدة برعامة "القواسم". وكانت مراكزها الرئيسية في الشارقة ،ورأس الخيمة . ولقد اشتدت عمليات مهاجمة السفن الانكليزية ،حتى ان بريطانيا ارسلت في عام ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩ حملة كبيرة ضربت

القواسم في هذه البقعة . ثم بدأت مفاوضات للصلح بينها وبين الشيوخ ، وانتهت بتوقيع معاهدة ١٢٣٦هـ/ ١٨٢٠ ،التي نصت ،على تحريم ما اسمته بالقرصنة في الخليج . واشتركت البحرين فيها . وفي عام ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٥ وقع الشيوخ فيما بينهم معاهدة ،بألا يقوموا بحروب بحرية فيما بينهم.وفي عام ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٣ أضيف الى تلك المعاهدة ،التي كانت تجدد في كل فترة ،بند يؤكد النفوذ البريطاني ،وينص على انه لا يجوز لاية قبيلة تعتدي عليها قبيلة اخرى ان ترد الاعتداء بالمثل ،وانما عليها ان ترفع الامر للسلطات البريطانية في الخليج .

اما حول محاربة (تجارة الرقيق) فقد وقعت معاهدة مع سلطان مسقط عام ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٢ ،يتعهد فيها السلطان بمنع رعاياه من بيع الرقيق للبلاد المسيحية، وتنص على تعيين موظف بريطاني في سلطنة عمان في افريقيا ،لمراقبة التجارة . وفي عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٣ وقعت معاهدة جديدة تنص على منع تجارة الرقيق تماما . ورافق ذلك اعتراف السلطان بخضوع الرعايا الانكليز في مسقط للتشريع البريطاني القنصلي . وفي عام ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١ وقعت معاهدة الصداقة ،والتجارة ،والملاحة ،وتنص صراحة على التزام حاكم مسقط وخلفائه ،بعدم التنازل عن أي ارض من املاك مسقط الا للحكومة البريطانية .

ولقد اتبعت بريطانيا الطريق نفسه مع البحرين ،التي بدأت تمد نفوذها اليها، عن طريق معاهدات القرصنة والرقيق، منذ ١٨٢٠ .ثم وقعت معها معاهدة ١٨٨٠، و ١٨٩٢، اللتين يتعهد فيهما اميرها بالامتناع عن عقد معاهدات،الا بموافقة الحكومة الانكليزية ،والا يتنازل عن اية قطعة من ارضه الا للحكومة البريطانية .

اما الكويت فلم تحاول بريطانيا ان تفرض حمايتها عليها ، وذلك حتى لا تثير الدولة العثمانية . الا انها عندما رأت امتداد النفوذ الروسي ،والالماني ،الى الخليج العربي عن طريق مشروعات مد السكك الحديدية ،فانها اسرعت في عام ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩ الى توقيع معاهدة الحماية على نفس اسس اتفاقية مسقط عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١ .

وفي جنوب شبه الجزيرة العربية فقد بدأ النفوذ البريطاني باحتلال بريم عام (١٢١٤هـ/ ١٧٩٩) .وعندما احتلت قوات محمد علي (العسير)،ومد ينتي (مخا)

و (تعز) في جنوب اليمن ، ثارت مخاوف انكلترة ، فاحتلت عدن عام ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م وفي سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م ، امتد النفوذ البريطاني من عدن على طول الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة ، الى ميناء ي (المكلا) ، و (شحر) . وفي عام ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م ، استولى الانكليز على (جزيرة سقطرة) ، وشرعوا يعقدون سلسلة من معاهدات الحماية مع سائر السلاطين ، والمشايخ ، في شبه الجزيرة ، من لحج غربا ، حتى حضرموت شرقا . فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت منطقة "المحميات التسع" و"حضرموت" كلها بيد الانكليز .

وهكذا استطاعت انكلترة ان تحقق في جنوبي شبه الجزيرة العربية وشرقها مالم تستطع ان تصل اليه البرتغال في القرن العاشر/ السادس عشر . ولكن هذه المرة اتت بسياسة مغايرة لما فعلته البرتغال ، اذ تسللت الى تلك البقاع بهدوء ، وبدت وكأن تلك المناطق هي التي طلبت العون والحماية . ولذلك فانها لم تلق مباشرة ردود فعل ثورية عنيفة ، الا في امامة عمان .

ثالث عشر - إتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور

عندما قامت الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٤ ، دخلت الدولة العثمانية الى جانب الالمان ضد الدول الحليفة الثلاث : انكلترة ، وفرنسا ، وروسيا . وكانت هذه الدول الاخيرة تطمع بتركة الرجل المريض الذي هو الدولة العثمانية ، فوجدت الفرصة سانحة للاتفاق فيما بينها سرا على اقتسام الامبراطورية . وقد عرف الجزء الخاص باقتسام البلاد العربية المشرقية ، باتفاقية "سايكس بيكو" (نسبة الى المندوب الانكليزي "سايكس" والفرنسي "بيكو") . وقد تم توقيعها في ١٦ ايار ١٩١٦ ، بعد مراسلات حسين - مكماهون ، وقبل اعلان الثورة العربية (حزيران ١٩١٦) لشهر واحد . وكانت هذه الاتفاقية تحديا واضحا لاماني البلاد العربية ، وللحركة الثورية العربية ، التي طالبت كما هو معروف ، باستقلال البلاد العربية من جبال طوروس شمالا الى المحيط الهندي جنوبا ، ومن حدود ايران والخليج العربي شرقا الى البحر المتوسط والبحر الاحمر غربا . وقد نصت الاتفاقية على تقسيم بلاد الشام والعراق الى المناطق التالية :

١ - المنطقة الحمراء وسميت كذلك لانها لونت على الخريطة بهذا اللون . وتقع الى الشمال من الخليج العربي ، وتمتد على جنوبي العراق حتى بغداد وتكون لانكلترة .

٢ - المنطقة الزرقاء وتمتد على طول الساحل السوري من كيليكيا في الشمال حتى رأس

الناقورة في الجنوب وتكون من حصة فرنسا .

٣ـ المنطقة السمراء . وتحتوي فلسطين ،وتكون فيها ادارة دولية مشتركة ،يشترك في تعيين نوعها روسيا ،وانكلترة،وفرنسا ،وشريف مكة .

٤ـ المنطقة الداخلية وقد قسمت الى منطقتين (أ) و (ب) . وتقوم في كل منهما دولة عربية مستقلة ،او اتحاد دول عربية . ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ، (وتضم القسم الداخلي من سورية الحالية مع الموصل) حق تقديم المستشارين والخبراء ، والاسبقية في المشروعات الاقتصادية ،بينما تتمتع بريطانيا بحقوق مماثلة في منطقة (ب) ،وتشمل شمالي العراق ،وشرقي الاردن . ويكون ميناء اسكندرون حرا للتجارة الانكليزية ،وميناء حيفا للتجارة الفرنسية .

وعندما علم العرب بالاتفاق وكانوا قد دخلوا في الحرب الى جانب انكلترة،وفرنسا، نتيجة ثورتهم التي اعلنوها في الحجاز عام ١٩١٦ ، قام الملك حسين بالاستفسار عن هذا الاتفاق من انكلترة . وجاء رد هما متأخرا ،وقد حاولت فيه ان تطمئن العرب بأن الاتفاق ليس نهائيا ،ولا سيما انها علمت ان الاتراك عرضوا على العرب انضمامهم اليهم على ان يعترفوا لهم باستقلال بلادهم استقلالا ذاتيا .

ولم تكتف الدول الاوربية بهذا التحدي ،بل اذاعت وزارة الخارجية البريطانية في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧، وعد بلفور، الذي اعلنت فيه تعاطفها مع تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين، واستعدادها لتقديم كل العون لتحقيق ذلك ،ومرة اخرى سعت بريطانيا لاقناع العرب بأنه لن يتنافض مع مصالح العرب،ولن يتعارض مع الوعود المقطوعة لهم بالاستقلال .

وخدع العرب بوعود الحلفاء ،وتابعوا حربهم الى جانبهم . وجاءت تسويات ما بعد الحرب العالمية الاولى، مخيبة لاما نيهم ،ونكسة في حركة نهضتهم العربية ،ترى نتائجها في المرحلة الثانية .

وخلاصة القول ،كان التحدي الاوربي للعرب من اواخر القرن الثامن عشر، وحتى الربع الاول من القرن العشرين، تحديا عنيفا جدا ،فعلى الرغم من انه ايقظهم الى واقعهم في المحيط العالمي ،وولد لديهم استجابات ثورية خصبة ،الا ان تلك الاستجابات لم تثمر في الميدان السياسي ،لانه لاقاهم متفرقين ،ولا يملكون من امرهم شيئا .

الفصل الرابع

حركة الاصلاح في الدولة العثمانية

اذا كان الاستعمار الغربي ،بعنفه ،وتقنيته العلمية ،وضراوته ،مطرقة ضخمة ضربت البلاد العربية كلها ،فهزتها ،وايقظتها من سباتها ،وجعلت شعبها ،يفتح عينيه لمصيره ووجوده ،فان (حركة الاصلاح في الدولة العثمانية) ،جعلت مشرقه يزداد وعيا بقضيته ومضمونها ،وخط السير فيها ،أكان ذلك بطريقة ايجابية،او سلبية . كما انها دعمت حركة الاصلاح في الاقطار المغربية التي لاتزال تابعة لها،وبخاصة تونس،وكانت مسايرة في خطوطها كذلك لحركة الاصلاح في المغرب الاقصى .

وتتلخص حركة الاصلاح التركية ،بأن رجال الدولة العثمانية الواعين ،اخذوا يشعرون منذ منتصف القرن الثاني عشر/ الثامن عشر ،بوجوب اصلاح الدولة ،وذلك على اثر الهزائم العسكرية التي لحقت بها ،وتكالب الدول الاوربية على ممتلكاتها ، واندلاع التمردات والثورات في ارجائها . واحسوا بأن على الدولة ان تجاري في تطورها،ركب التقدم الاوربي، الذى بدا واضحا انه تجاوز الدولة العثمانية بمراحل عدة. وأول اصلاح فكر به رجال الدولة كان (الاصلاح العسكري) ،لان الجيش كان عصب حياة الدولة ، وقد استشرى فيه الفساد حتى غدا مهلهلا . الا ان الدول الاوربية لم تكتف من الاصلاح بنواحيه العسكرية تلك ،بل ضغطت على الدولة لكي تقوم باصلاحات تطبق فيها مبادئ المساواة ،والحرية ،والاخاء ،بين رعاياها وبخاصة المسيحيين منهم،الذين تسترى تلك الدول بأنها حامية لهم . ويمكن تقسيم حركة الاصلاح العثمانية الى مرحلتين :

" المرحلة الاولى " وهي مرحلة اصلاح الجيش . ولقد بدأت في عهد السلطان " مصطفى الثالث" (١١٧١ – ١١٨٨هـ/ ١٧٧٤–١٧٨٩) ،ونفذت فعلا في عهد السلطان " سليم الثالث" (١٧٨٩–١٨٠٧) . وتتلخص هذه المرحلة بمحاولة انشاء "جيش جديد " ،يتبع في تدريبه واساليبه النظم الاوربية ،ليحل محل الجيش الانكشاري القائم . ولقد اصطدمت محاولة الاصلاح هذه،في عهد السلطان سليم الثالث، بتمرد الانكشارية على " النظام الجديد " (وهو الاسم الذى اطلق على الوحدات العسكرية الجديدة)،وقتلهم الرجال القائمين بالاصلاح ،وخلعهم السلطان،ثم قتله .

الا ان السلطان "محمود الثاني" (١٢٢٤-١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨-١٨٣٩) لم يتخل عن ذلك الاصلاح ،فاصدر امرا بالغاء الجيش الانكشاري عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦ ، واستدعى مدربين اوربيين من امثال " فون مولتكه الالماني "لاعداد الجيش الجديد . كما انشئت"المدارس العسكرية"،وادخل فيها تدريس العلوم العصرية ،على اختلاف انواعها . ولم تكن تلك المدارس مدارس اختصاصية"عالية"،فحسب ،وانما اقيمت الى جانبها كذلك مدارس ثانوية عسكرية ،ومدارس رشدية ،للاعداد للمدارس الاختصاصية العالية . ولقد اتبع في تلك المدارس نظام المجانية ،وسهل هذا الامر انتساب ابنا الولايات المختلفة اليها . واستفاد من ذلك المواطنون العرب ،وبخاصة في العراق حيث تتلمذ عدد كبير في تلك المدارس ،فتفتحت اذهانهم على العلم الجديد . ويلاحظ ان خريجي هذه المدارس من الضباط العرب قد لعبوا دورا هاما جدا في الحركة القومية العربية ،اذ انضم عدد كبير منهم الى " جمعية العهد السرية " التي آلت على نفسها في مطلع القرن العشرين ،ان تعمل لاستقلال البلاد العربية عن الحكم العثماني مع المحافظة على وحدتها . بل ان معظم خريجي تلك المدارس،كانوا ممن تسلم حكم العراق ،كرؤساء وزارة ،ووزراء بين (١٣٤٢-١٣٦١هـ/ ١٩٢٣ - ١٩٤١) . وبذلك تكون حركة الاصلاح العسكري هذه قد آتت اكلها ايجابيا ،في مضمار حركة اليقظة العربية بعامة .

المرحلة الثانية " وهي مرحلة اصلاح النظم الادارية في الدولة ،وطرق الحكم ، وتطوير الدولة نحو المفهومات الاوربية الحديثة ،وخاصة تطويرها في المسرى الديموقراطي. ولقد بدأت تلك المرحلة في عهد السلطان "عبد المجيد" (١٢٥٥-١٢٧٨ هـ / ١٨٣٩-١٨٦١) ، واستمرت بشتى الوانها، حتى الحرب العالمية الاولى . ويمكن تفريعها الى فترتين رئيسيتين :

الفترة الاولى " وعرفت باسم " التنظيمات " ،وبدأت عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩ واستمرت الى نهاية عهد السلطان"عبد العزيز" (١٢٧٨-١٢٩٢هـ/ ١٨٦١-١٨٧٦) . وتستند الى مرسومين سلطانيين اساسيين، اولهما:"خط شريف كولخانة" الذي صدر في عام ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩ ، في بدء عهد السلطان " عبد المجيد "،وكان قد اعده في الواقع السلطان " محمود الثاني " . وهذا المرسوم يؤمن رعايا الامبراطورية، دون تفريق في الدين والجنس، على ارواحهم ،واعراضهم ،واموالهم ،بعد ان ساد الفساد ،

وصودرت الاموال لاسباب تافهة ،وانتهكت الحرمات . كما ينص المرسوم على الغاء نظام الالتزام في جباية الضرائب .

وثاني المرسومين ما يسمى " بالخط الهمايوني " وهو الذى صدر في عام ١٨٥٦ عقب (مؤتمر باريس) . ولقد اكد هذا الخط على ما جاء في الخط السابق ، الا انه نص على امور جديدة وهامة ،وهي : معاملة جميع تبعة الدولة معاملة متساوية مهما كانت اديانهم ومذاهبهم . وبنفس الوقت حفظ لرؤساء " الملل " حقوقهم وامتيازاتهم ،كما جعل لكل طائفة دينية مجلسين ،وحدد سلطات كل منهما وكيفية تأليفه .وتبعا لهذا الخط ،تساوى اهل الذمة مع المسلمين في كل الامور حتى في الخدمة العسكرية .

ولقد صدرت تنفيذا لما جاء في الخط الهمايوني قوانين تنظيم الولايات، وتضع حدا للاقطاع القديم ،وتحدد اختصاصات وسلطات الولاة والمتصرفين ،وجميع الحكام الاداريين . كما نظم القضاء ،ووجدت محاكم نظامية ،تعمل بجانب المحاكم الشرعية. وجمعت الاحكام الشرعية المختلفة في " مجلة الاحكام العدلية " .

ويمكن القول،ان عدة قوانين تخص مختلف شؤون الدولة الادارية،والمالية،والقضائية، والتعليمية،قد وضعت ،واقتبس كثير منها من القوانين الفرنسية . مثل قوانين العقوبات ،وقانون التجارة ،وقانون الاراضي ،الى غير ذلك .

وكذلك فقد عمل في اطار المرسومين السابقين ،على انشاء المدارس المدنية التي تتبع النظم التربوية الحديثة ، كما انشئت الجامعة ،وجرت محاولات للتوسع في نشر التعليم .

اما الآثار التي خلفتها تلك التنظيمات في البلاد العربية ،ومجرى اليقظة العربية،فتلخص بمايلي :

أولا ــ ان هذه التنظيمات لم تطبق في جميع الولايات العربية في وقت واحد ، كما لم يكن لها نفس الشمول . فاذا كانت قد طبقت في بلاد الشام بسرعة ،فان تطبيقها تأخر في بغداد ،والبصرة ،واليمن ،والحجاز . اما مصر فكانت قد خرجت من حيز التنظيم العثماني منذ بناء محمدعلي لدولته فيها ،كما ان تونس كانت قد اتبعت خط اصلاحاتها الخاص .

ثانيا ـ ان هذه التنظيمات ضيقت سلطة الولاة وقوت السلطة المركزية ،مما جعل الدولة تشدد قبضتها على الولايات العربية التي طبقت فيها ،مما ادى الى كثير من المساوئ التي لحقت بهذه الولايات . وكان هذا عاملا في المستقبل لمطالبتها باللامركزية .

ثالثا ـ زادت التنظيمات من ترابط المسيحيين وتكتلهم ،بينما هذا لم يجر لدى المسلمين . وعلى الرغم من ان الدولة اعلنت مبدأ المساواة بين المسلمين وغير المسلمين ،الا ان التطبيق الفعلي لم يتم اذ ظلت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين وحدهم ،بينما يدفع المسيحيون ما يسمى بالبدل العسكري . ومن ثم فان المسيحيين بتكتلهم الجديد بعامة ظلوا متجهين بابصارهم نحو الدول الاوربية لحمايتهم .

اما بالنسبة لمجموع المسلمين فقد احيت آمالهم ،وقوت رابطتهم بالدولة العثمانية حتى غطت على اية فكرة لديهم ـ اذا كانت قد وجدت ـ للانفصال النهائي عن الدولة العثمانية .

رابعا ـ لقد سعت الدول الاوربية اثناء تطبيق الاصلاح ،والتنظيمات ،لتوسيع نفوذها عن طريق تأسيس مدارس لتعليم ثقافتها ،ونشر لغتها وبصفة خاصة في المناطق المسيحية . وهكذا زاد عدد المدارس الاجنبية ،في حلب ،والقدس ، ولبنان ، وبيروت ،والموصل . وعملت هذه المدارس على تعليم الادب العربي ،واللغة العربية وبذلك ساعدت على بث حركة احياء فكري عربية في صفوف المسيحيين قبل المسلمين .

خامسا ـ لقد ادى انشاء المدارس المدنية بصورة عامة الى انتشار المعرفة والعلم ، مما انار الافكار ،ولاسيما بعد تعرفها الافكار الاوربية ،وافكار " الثورة الفرنسية " بالذات ،في الحرية ،والمساواة ،والعدالة ،و " الافكار القومية " التي اخذت تنتشر وتعم كثيرا من الدول الاوربية .

سادسا ـ ان التنظيمات الجديدة ،بما حوته من افكار اوربية تضمنتها القوانين ، فتحت امام العرب آفاقا فكرية جديدة ،تتطلب المزيد من العلم ،والعرفان الغربي المتطور ،فوجهت بذلك الفكر العربي ،والتركي ،نحو الامام بدلا من الالتصاق بالسلف والقديم .

الفترة الثانية " وتسمى عهد "المشروطية" وبدأت في عهد السلطان "عبد الحميد الثاني" (١٨٧٦-١٩٠٩) . ويعني "عهد المشروطية"، العهد الذى جعل فيه حكم السلطان " مشروطا "، اي مقيدا "بالدستور" (القانون الاساسي) .

ولقد نجحت " جمعية تركيا الفتاة "، وعلى رأسها "مدحت باشا "، في خلع السلطان " عبد العزيز " ، وتولية السلطان "عبد الحميد "، الذى عهد الى مدحت باشا وعدد من الاحرار الاتراك بوضع دستور للبلاد . واعلن هذا الدستور في عام ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٦ . ونفذ مضمونه ، وجرت انتخابات عامة ، واجتمع " مجلس النواب " (مجلس المبعوثات) وكذلك (مجلس الاعيان) . وانتخب في الانتخابات اهالي الولايات العربية ، وشارك نوابهم في مناقشات المجلس . الا ان السلطان عبد الحميد ، لم يلبث ان حله، ونفى النواب البارزين ، وعلّق الدستور في ١٢٩٥هـ/ شباط ١٨٧٧ ، ونفى مدحت باشا نفسه .

وبقيت الحياة الدستورية معلقة ما يقرب من ثلاثين عاما ، اى حتى سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٨ .. وحكم عبد الحميد حكمه الاستبدادي المعروف، المدعوم بشبكة جاسوسية ضخمة انتشرت في كل ركن ، تأتي للسلطان باخبار الناس حتى الخاصة منها ، والمحمي برقابة صارمة على الصحافة ، والطباعة . ويتميز حكم عبد الحميد بمحاولته التقرب من العرب ، والاكراد ، والالبان ، او بمعنى آخر من المسلمين غير الاتراك . بل انه استثمر دعوة "جمال الدين الافغاني"، الذى نادي بضرورة نهضة الشعوب الاسلامية، وتحريرها من الجهل ، وبعثها بعثا روحيا جديدا ، لتجتمع في اطار دولة واحدة ، يرئسها خليفة واحد يرضى عنه الجميع . وتخيل السلطان عبد الحميد انه يمكنه ان يكون هو هذا الخليفة ، فقرب اليه العلماء ، واكرم شريف مكة ، وانشأ معهدا دينيا لتخريج الدعاة المسلمين، الذين شرعوا ينتشرون في انحاء البلاد الاسلامية ، يتغنون بتقى الخليفة وورعه . وبذلك اكتسب في الداخل ولاء الملايين من المسلمين ، وفي الخارج مركز الزعامة في نظر الشعوب الاسلامية ، وكثير منها خاضع لروسيا، وبريطانيا ، وفرنسا . فهو بذلك ، يمكنه ان يساوم الدول ، على ضمان ولاء المسلمين للدول الاوربية مقابل تأييد سلطته .

الا ان سياسة الضغط على الحريات ، جعلت الطبقة المثقفة من الشباب الاتراك تتململ . واخذت هذه الفئة تعمل على تكوين جمعيات خارج البلاد ، في باريس ،

وجنيف ،مثلا ،وتنشر مبادئها الداعية للتحرر ،واعادة الدستور ،عن طريق مناشير توزعها سرا في داخل البلاد ،وعن طريق عدة صحف في الخارج .وكان لتلك الجمعيات فروع سرية في داخل البلاد ،وبخاصة في (سالونيك) في مقدونيا ،حيث هناك جيش يضم نخبة الضباط الشباب الاتراك . ومن هذه الجمعيات "جمعية الاتحاد والترقي" التي انضمت اليها شخصيات من مشاهير الترك الاحرار امثال " حسين جاهد " و " جاويد " والضابطان " انور " و " نيازى " .

وعندما احس اعضاء هذه الجمعية من الضباط ان الدول الاوربية تتكالب على الدولة العثمانية ،ولا سيما في مقدونيا ، فانهم اعتصموا في الجبال مع فرقهم ،ووجهوا انذارا الى السلطان عبد الحميد يطالبون فيه باعلان الدستور ثانية . وحاول عبد الحميد سحق الثورة ،الا انه لم يفلح ،واخذت البرقيات تنهال على "قصر يلدز" تعلن انضمامها للثائرين ،وتطالب باعادة الدستور ،وتهدد بالزحف على العاصمة. ولم يجد عبد الحميد بدا من القبول بالامر الواقع قبل ان يستفحل الامر . فاعلن في ١٩٠٨ العودة الى دستور ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٦ . وانفجرت المظاهرات في جميع ارجاء الامبراطورية العثمانية ،واشترك فيها لاول مرة النساء ،والرجال ،ابتهاجا بعودة الحياة الدستورية. وعلى الرغم من اعلان السلطان عبد الحميد ،عندما اطل من شرفة قصره على جموع المتظاهرين : " ان هذه هي الامنية التي كان يعمل لها طول حياته الا ان الخونة هم الذين حالوا بينه وبين شعبه العزيز " ، فانه كان يضمر الانتقام من هذه الحركة . ومن ثم حرض اعوانه من رجال الدين ،ليعلنوا ان حركة الاتحاد بين مخالفة للشريعة . واغتنم خلاف الاتحاديين فيما بينهم ،حول السياسة تجاه القوميات القائمة في الامبراطورية ،وافتطاع دول البلقان اجزاء من الدولة العثمانية ،ليقوم بحركته الرجعية التي احتل فيها جنوده المخلصون له ، ساحة ايا صوفيا ، ونادوا بسقوط وزارة الاتحاديين ،والغاء الدستور . الا ان الثورة اندلعت في سالونيك ،حيث قرر الاتحاديون احتلال العاصمة بالقوة .وتم لهم ذلك في ٢٤ نيسان/ ١٩٠٩ ،واعلن مجلس المبعوثان خلع عبد الحميد ،ووضع اخيه " محمد رشاد " على العرش ،وكان شيخا هرما ،ولذا انفرد بالسلطة في الواقع الاتحاديون .

التيارات التي كانت تتجاذب سياسة الاتحاديين :

لقد آمن معظم الاتحاديين بالقومية التركية ،واعتقدوا ان الانظمة الدستورية لا يمكن

ان تطبق،او ترسخ جذورها،الا في اطار قومية تركية ضيقة ،او بمعنى آخر في ظـــل " التركية او الطورانية ".وهنا ظهر تياران سياسيان :"

اولهما " يقول:بان السياسة القومية للطورانية تتطلب لتطبيق تطبيقا سليمـــا، تخلّي الدولة العثمانية ،عن البلاد غير التركية ،وبخاصة البلاد العربية . وكان القائلون بذلك اقلية،وعلى رأسهم المفكر السياسي التركي " يوسف أقجـــورا " .

ثانيهما " يقول: بتطبيق القومية التركية دون اي اعتراف بحقوق القوميات الاخرى، او بمعنى آخر السير على سياسة التتريك ،بفرض اللغة التركية ،والتاريخ التركـــي ، والسيادة التركية ،على جميع الشعوب في الامبراطورية العثمانية ،ومنها الشعب العربي. وما دري اصحاب هذا التيار، ان محاولة التتريك ،وسط امبراطورية هي مجموعـة من القوميات ،معناه انشقاق هذه القوميات عنها ،لتؤسس كل واحدة لنفسها قومية منفصلة. فالرباط الديني الذي كان يجمع العرب ،والاكراد ،والشركس ،والالبان ،والاتـراك ، وغيرهم ،قد ضعف،ولا سيما امام الافكار التركية المتزمتة هذه . وبالفعل فان نـــواب هذه القوميات في مجلس المبعوثان،اخذوا يطالبون بالحكم اللامركزي . وظهر فـــي استامبول حزب جديد يدعى " حزب الحرية والائتلاف "،وهدفه ائتلاف العناصـــر المكونة للامبراطورية العثمانية ،وشرع ينافس سياسة الاتحاديين .الا ان هـــؤلاء الأخيرين اغتالوا اعضاءه البارزين ،وابعدوا الباقين منهم ،واخذوا يحلون كل مجلـس لا تكون لهم فيه اكثرية .

آثار التطورات السياسية الاخيرة في حركة اليقظة العربية ":

أولا ـ لقد كان لعودة الحياة الدستورية صدى بهجة وحبور في معظم الاوساط العربية ،ولا سيما تلك التي كانت تنادي بوجوب اصلاح الحال ،عن طريق التعـــاون مع احرار الاتراك ،وبخاصة انه سيكون لهم في المجلس النيابي ممثلون يرفعون صوتهم ضد الفساد ،ويعملون على توفير سبل الارتقاء بالشعب،وتحسين احوال البـــلاد . الا انهم وجدوا انه لا يمكنهم القيام بما كانوا يأملون في المجلس النيابي ،بســـبب السياسة القومية الضيقة التي اتبعتها الدولة تجاههم . فأخذ الخلاف يحتدم بينهم وبين الاتحاديين . ولقد ظهر هذا في امور عدة اهمها :

١ـ قضية اللغة العربية في الدولة العثمانية " فاللغة الرسمية كانت التركيـــة

في جميع انحاء الامبراطورية ، والتعليم في جميع المدارس الرسمية ايضا كان بالتركية . وقد الحق هذا الامر الضرر بالعرب اكثر من غيرهم من عناصر السكان الاخرى ، لان تلك العناصر كالارمن ، والبلغار ، كانت تدرس بلغاتها القومية في مدارسها الخاصة بسبب تكوينها الطائفي ، في حين كان العرب المسلمون لا يملكون مثل تلك المدارس الخاصة ، فكانوا اذاً ملزمين على دخول المدارس الرسمية التي تعلم بالتركية ، وتدخل ضمن برامجها بعض القواعد العربية . ولذا فانه يلاحظ ان المدارس المسيحية كانت تعلم بالعربية ، كما ان المدارس الاجنبية اصبحت اكثر اهتماما بالعربية ، لتجتذب اليها الطلاب العرب المسلمين والمسيحيين على السواء .

وهكذا اصطدم العرب بالاتحاديين عندما طالبوا ان تصبح اللغة العربية لغة التعليم في ولاياتهم لان هذا حق من حقوقهم .

٢ـ قضية الانتخابات " فالقانون العثماني لم يحصر حق الترشيح عن المنطقة بأهالي المنطقة ، بل سمح لأي شخص حائز على شروط الانتخاب ، حق ترشيح نفسه عن اية منطقة . ومن ثم فان الاتحاديين ، اخذوا يرشحون في كثير من الدوائر الانتخابية العربية اتراكا ، ويعملون على ضمان فوزهم بشتى الاساليب . وقد ادى هذا الى تأزم الوضع بين الاتراك والعرب .

٣ـ قضية اليمن " التي اراد النواب العرب ان تحل سلما ، وان يوضع حد للنزاع بين الاتراك والعرب هناك ، بتقسيم اليمن الى ولايتين ، احداهما تبقى في يد الامام ، والاخرى بيد الاتراك . الا ان الاتحاديين اصروا على قمع الثورة بالعنف والقوة ، ولذا سحبوا عددا كبيرا من افراد جيشهم من ليبيا ليرسلوه الى اليمن ، وبذلك اضعفوا قوة الدفاع عن ليبيا ، وعرضوها للغزو الايطالي ، هذا علما بأن الدولة احست بعد حرب طويلة وقاسية في اليمن ، انه لا يمكنها ان تهدىء الاحوال الا بتفاهم مع الامام .

٤ـ وجاءت قضية احتلال ايطاليا لليبيا لتوسع شقة الخلاف بين العرب والاتراك . ولقد بيّن نواب طرابلس الغرب ، للمجلس النيابي العثماني ، ان الحكومة قد تهاونت في تهيئة وسائل الدفاع عن ولايتهم ، في الوقت الذي كانت اطماع ايطاليا معروفة وواضحة .

٥- قضية بعض الامتيازات الاقتصادية التي منحتها الدولة العثمانية لبعض الدول الاوربية في الاراضي العربية ،كمنح امتياز الملاحة النهرية على نهري (دجلة والفرات) الى "شركة لنج" الانكليزية. ولقد اتهم النواب العرب الدولة بالتفريط في الحقوق العربية .

ثانيا- وهكذا يتضح مما ذكر سابقا ،ان سياسة الاتحاديين المناهضة للعرب قد خيبت آمالهم واججت عواطفهم القومية ،وقوت من ايمانهم بضرورة العمل الجدي لحل قضيتهم الكبرى ،ولو بالانفصال عن الدولة العثمانية الاسلامية ،وتكوين دولة عربية خاصة بهم . وبذلك ،فان التحرك الثوري لليقظة العربية،الذي كان من مظاهره الاولى حركة السعوديين في نجد ،ومقاومة الشعب العربي المصري ،والجزائري ، والتونسي، والمراكشي ،والليبي،للاحتلال الاوربي اخذ يقوى وينشط في البلاد العربية، التي لا تزال خاضعة للدولة العثمانية .

فسياسة التتريك لعبت دورا هاما في دفع الحركة الثورية العربية نحو الامام ، وفي انضاج مفهوم القومية العربية،وابرازه الى حيز الوجود قويا ومتحركا ،وتجميع العناصر الثورية حوله ،ومن ثم اخذت الجمعيات السرية العربية تتكون وتنشط ممهدة للثورة العربية عام ١٩١٦ .

****

الخاتمة

ونخلص من تلك الدراسة الموجزة للعوامل الخارجية التي ساعدت على تفتح " اليقظة العربية " ، ان تلك العوامل متضافرة، كانت في الواقع هي التحديات التي اثارت شعب الوطن العربي في مختلف ارجائه ، وولدت لديه " صدمة خلاقة " رد "عليها بالتوليد الذاتي" للفكر العربي الحديث ، بتياراته الرئيسية الثلاث، التي اشير اليها في المقدمة، وفي محاولاته للبناء الواعي لثورة يحدد فيها ذاته وكيانه .

فالتفاعلات الايجابية ، والتحركات الاولى، التي ينظر اليها على انها كانت عوامل الايقاظ العربي ، هي في مبتداها واساسها تفاعلات ولدها الشعب العربي نتيجة عوامل داخلية وخارجية حركت فيه كوامن الفكر والشعور . فالحركة الفكرية مثلا في انحاء الوطن العربي، منذ اواخر القرن الثامن عشر وخلال التاسع عشر، كانت في الواقع " مظهر يقظة "، وهذا المظهر المتأثر بالقوى الخارجية حمل في ذاته قوى دفع داخلية عميقة ، حولته من مظهر ساكن الى مظهر فعال ، او بمعنى آخر الى عامل دافع ، ومدعم ، ومخصب للنهضة العربية .

وربما يقول قائل لو انعدمت تلك العوامل الخارجية أفتنعدم معها اليقظة العربية ؟ وفي الحقيقة، لقد كانت اليقظة العربية، كما يدل عليها اسمها، استفاقة من خدر ، ونهضة من سبات ، فالاستيقاظ اذاً لا بد حادث ، لان جذوة الحياة الداخلية قائمة ، ولكن قد يحدث متأخرا، ويطول النوم .

ولا بد من الاشارة هنا ، ان العوامل التي درست على عجالة ، ونظر اليها تاريخيا، انها كانت عوامل ايقاظ ، لا تعني انها كانت في منطلقها لخير الامة: فالنائم والمخدر قد يسرع في ايقاظه فيضان ماء ، يكاد يغرقه ، او صفعة كف عدو يهدف الى اماتته . فالمهم في العوامل الخارجية انها عناصر تحد ، والاهم في مجرى التاريخ، الاستجابات الخصيبة على عوامل التحدي ، اكثر من عوامل التحدي ذاتها .

****

الفصل الخامس

السمات العامة
للمرحلتين الثانية والثالثة من النهضة العربية

تمثل " اليقظة العربية " ،كما اتضح من العرض السابق ، "المرحلة الاولى" من النهضة العربية ،هذه النهضة التي لاتزال حتى الوقت الحاضر تتابع خطاها ، كي تبرز (أمة العرب) على الصعيد السياسي دولة واحدة ،تواكب الركب الحضاري العالمي ،في جميع مجالات الحياة ،الاقتصادية ،والاجتماعية ،والفكرية ،والفنية ، والسياسية ،وتسهم اسهاما فعالا في انجازاته ،وتتحرر نهائيا من الصهيونية ومخلفات الاستعمار الاوربي واستغلاله .

وقدعاشت البلاد العربية خلال الزمن الممتد من نهاية الحرب العالمية الاولى وحتى الوقت الحاضر ،احداثا كثيرة ،وجساما ،دعمت قوى النضال من اجل "النهوض" ، على الرغم من كثير من النكسات ،والنكبات التي اصابتها ،وعلى الرغم من التحديات العديدة والعنيفة ،التي جابهتها ،ولا تزال تجابهها ،من قوى الغرب والصهيونية . ومن العسير في هذا المقام المحدود ،ان يحاط بكل تلك الاحداث ،الا انه سيعمل على ابراز السمات العامة التي اتصفت بها هذه الفترة الزمنية ،حتى تكون صورة التاريخ العربي في "العصر الحديث" و "الحقبة المعاصرة" متكاملة القسمات الاساسية .

وقد اشير سابقا ، الى تقسيم هذه الفترة الزمنية الى مرحلتين ، هما في الواقع المرحلة الثانية ،والثالثة ،من مراحل النهضة العربية .

سمات المرحلة الثانية من النهضة العربية (١٣٣٧–١٣٦٥هـ/ ١٩١٨–١٩٤٥م)

وهي مرحلة ما بين نهايتي الحربين العالميتين ،الاولى والثانية ،وقد ازدادت فيها "حركة القومية العربية" تماسكا ،وتفتحا ،ونضوجا ،حتى انها تركت آثارها في كل انحاء البلاد العربية ،لا في المشرق العربي فحسب . وتبدى انها التيار الفكري والسياسي الاقوى ،والحركة المنسجمة مع تطلعات الجماهير وآمالها . ولكن هذا لايعني انعدام

التيارات السالفة الذكر ، كالتيار القومي المحلي ،والتيار الاسلامي بفرعيه ،والتيار العلماني اليساري ،بل ان بعض هذه التيارات قد اشتد عوده ،ولا سيما التيار الاخير .

وتتميز هذه المرحلة بالامور الرئيسية التالية " :

أولا ــ سعي الدول الغربية التي سيطرت على الاقطار العربية في نهاية "مرحلة اليقظة العربية " ،للتثبت في تلك الاقطار ،وتفتيت حركة القومية العربية الفتية وتشتيت تيارها . فعملت على اثارة النزعات الاقليمية ،والطائفية ،وعلى تأكيد وجودها، ودعم " الكيانات المصطنعة " التي اوجدتها ،وابقاء الحدود التي خططتها . كما انها حاولت أن تفرض ثقافتها ،وان تقرب اليها طبقة من المجتمع ،ترتبط مصالحها بوجودها ،ولا سيما فئة من الاقطاعيين ،والرأسماليين من تجار وصناع ،والموظفين، بل تجاوزت المدى ،فتصرفت تصرف المالك بارضه في بعض الاقطار العربية ،كما فعلت فرنسا في الجزائر مثلا ،او في سورية ،حيث ساعدت في القطر الاخير ،على اقتطاع اجزاء منه ،وضمها الى بلدان اخرى غير عربية ،ومثل على ذلك (لواء اسكندرون) الذي ساعدت تركيا على ضمه اليها ،فاقتطع من بلاد الشام عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م ، و (فلسطين) ،التي عملت انكلترة حثيثا ،اثناء انتدابها عليها ،للتمكين للصهيونية فيها ،بفتح ابواب الهجرة امامها ،ومساعدتها على اغتصاب الارض العربية ،وبذلك اوجدت المشكلة العربية الكبرى وهي " المشكلة الفلسطينية " .

ثانيا ــ تطور الاقتصاد العربي على اسس الاقتصاد الغربي ،وبخاصة الصناعة. وقد عمل في هذا المجال ،الطبقة الغنية ،ممثلة بالاقطاعيين الزراعيين ،الذين سعوا لاستثمار مداخيلهم من الزراعة ،في الميدانين الزراعي والصناعي على السواء ،مضافا اليهم التجار ، وبعض الاثرياء من العاملين في الحقل الصناعي السابق . ورأى هذا التطور بدايات ،في الاقطار العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الاولى ، بينما تابع خطاه السابقة ،في الاقطار التي انفصلت عنها او استقلت ذاتيا في القرن السابق ،كمصر ،وتونس مثلا . ولا بد من التأكيد ان هذا التطور كان بمجموعه لصالح الدول المستعمرة وبتوجيهها .

ثالثا ــ تطور ثقافي واجتماعي : فقد اتسع انتشار العلم والتعليم ،ففتحت المدارس ،والجامعات في بعض الاقطار العربية ،على الرغم من الضغوط الاستعمارية. وذلك كسياسة مأربية ،انتهجتها الدول الغربية السائدة ، كي تظهر انها تعمل

لصالح الشعوب التي تحكمها . فظهرت فئة مثقفة من ابناء الوطن العربي ،درست في اوطانها او خارجها ،واخذت على عاتقها قيادة الحركة الفكرية والسياسية،ومتابعة الخطوط التي وضعها الرواد الاول ،والتي تمثلت في التيارات الثلاثة السالفة الذكر . وتضجت في هذه المرحلة بالذات ؟ايديولوجية القومية العربية "،وعلى يد عدد من الدعاة لها ،كان من ابرزهم العربي " ساطع الحصري " ،صاحب المؤلفات العديدة في ميدان الفكر القومي العربي ،ومن اخلص المدافعين عنها ،والعاملين لها ،ومن الذين ألحواعلى ضرورة الوحدة العربية ،مستقبلا للامة العربية .

وقد مزجت الفئة المثقفة الجديدة تلك ،مزجت اصالة الفكر العربي مع احدث ما توصل اليه الفكر الغربي في الميدانين السياسي والاجتماعي ،ونادت بمقاومة التسلط الغربي بوسائله الفكرية والمادية ذاتها . وقد امتدت هذه الحركة الفكرية الفاعلة ،الى معظم الاقطار العربية ،حتى الخاضعة منها لاسوأ انواع الاستعمار وطمس الذات كالجزائر مثلا . ورافقها ظهور " التنظيمات الجماعية " لبث الافكار ونشرها على المستوى الشعبي ،كانشاء " الجمعيات " و "الاحزاب" ، التي اتخذت هدفا أوليا،هو التحرر من الدول الاوربية المتسلطة ، والتعاطف بالتالي مع جميع الحركات التحررية المماثلة في الاقطار العربية الاخرى . ومن هذه الجمعيات الهامة " جمعية العلماء الجزائريين " في الجزائر ،وعلى رأسها المفكر " عبد الحميد بن باديس"،الذى اكد عروبة الجزائر بالاضافة الى اسلاميتها . ومن الاحزاب " الحزب الدستوري " في تونس،و "حزب الوفد " في مصر وغيرهما . بل ان ضرورة التسلاحم الثوري ضد قوى الغرب المسيطرة اخذت تلح على اذهان جميع المفكرين الوطنيين في انحاء البلاد العربية .

ولكن على الرغم من نشاط هذه الحركة الفكرية ،الاجتماعية ،السياسية ،التحررية ، وكثرة المؤلفات في ميدانها ،التي نقلت كثيرا من الفكر الغربي الحديث الى البلاد العربية ، وعلى الرغم من تأكيدها الوجود العربي ذي الكيان الموحد ، وضرورة الارتفاع بمستوى الشعب ،وتحقيق امانيه في التحرر والوحدة ،فان الطابع النظري المثالي كان هو الغالب عليها . فخطوط العمل السياسي العربي بقيت سطحية يحيطها الضباب ،وكذلك خطوط العمل الاجتماعي ،لان امكان التطبيق العملي ، والتجربة لم تكن بيد العرب .

رابعا ـ الكفاح الشعبي العربي المسلح المعتمد على الذات ،الذي اتخذ صبغة اكثر تنظيما من السابق ،وهدف الى القضاء على القوى الغربية المتسلطة عليه ، والمحتلة لارضه . وعلى الرغم من الطابع المحلي الاقليمي لهذا الكفاح ،فانه في واقعه وتعاطفه كان كفاحا واحدا ،وعاما وشاملا ،يتأثر من بعضه ويؤثر ببعضه ،وتتجاوب اصداؤه في كل البلاد العربية ،وتسهم فيه جميع الفئات البورجوازية والعاملة . فاندلعت ثورة مصرعام ١٩١٩ ،والثورات السورية ١٩١٩–١٩٢٧ ،والثورات الفلسطينية ١٩٢١ –١٩٣٦ ،والثورة العراقية ١٩٢٠–١٩٤١ ،وثورة ليبيا ١٩٢٣– ١٩٣١ ،وثورة عبد الكريم الخطابي في المغرب ١٩٢٠–١٩٢٦ ،وتحركات تونس والجزائر . وفي الحقيقة على الرغم من تعدد مراكز هذه الثورات ،فانها كانت ثورة واحدة في اهدافها الكبرى ومراميها ،وهي التخلص من الحكم الاستعماري الطاغي وامام هذه المقاومة العنيفة ،فان الدولة الغربية السائدة في كل قطر عربي ،كانت تنهي كل هبّة من تلك الهبات الوطنية ، باصدار تصريح ،اوعقد معاهدة، تعترف ظاهرا ببعض حقوق الشعب الثائر، وفي نفس الوقت تضمن لها مصالحها وتحفظ لها نفوذها . ومثل على ذلك تصريح ٢٨ شباط ١٩٢٢ في مصر ،ومعاهدة ١٩٣٤ في العراق . وهكذا جاءت الحرب العالمية الثانية ،والاقطار العربية المختلفة لاتزال تزرح تحت الحكم الاستعماري الغربي ،على الرغم من مظاهر الاستقلال التي كانت تتمتع به بعضها كمصر مثلا .

خامسا ـ التناقض بين شعور الجماهير العربية تجاه الحلفاء الغربيين ابان الحرب العالمية الثانية ،وموقف حكوماتها . فالحكومات، ومعظمها رجعية ،قدمت كل عون للحلفاء ،بل ان الموارد الاقتصادية للبلاد العربية وجهت كلها لمساعدة الحلفاء ،وغدت الارض العربية مسرحا للحرب ،واستخدمت الموانئ ،وطرق المواصلات لتلك الاغراض . بل ان المجندين العرب كانوا كثرة في جيوش الحلفاء وبعض الجيوش في بعض الاقطار العربية كان خاضعا مباشرة لسيطرة الحلفاء ، كخضوع الجيش الاردني لبريطانيا ،والسوري واللبناني لفرنسا .

اما الجماهير العربية فكانت معادية بصفة عامة لهؤلاء الغربيين ،بسبب استعمارهم لبلادهم ،ولموقفهم من قضية فلسطين .وعلى الرغم من ان اغلب الطبقة

المثقفة كانت مؤمنة بالقيم الديموقراطية الممثلة في البلاد الغربية ،فانها لم تنس الغدر الذي حاق ببلادها بعد الحرب العالمية الاولى . ولذا فقد كانوا يخشون تسويات ما بعد الحرب . وكانت "الفئات اليسارية" قد اشتد عودها ،ولا سيما بعد انتصار روسيا في الحرب العالمية الثانية ،وموقف الاستبسال الذى وقفته .

ولجأت الدول الغربية المستعمرة ، امام الشعور القومي المحلي ،او القومي العربي ،او الاسلامي ،المعبأ ضدها في الاقطار العربية ، وتجاه خوفها من ان يفلت الامر من يدها ،ولا سيما بعد الهزائم التي لحقت بها في مطلع الحرب ، الى الملاينة تارة ،والى البطش اخرى . ومن صور البطش ،موقف انكلترة العنيف من ثورة " رشيد عالي الكيلاني "في العراق ١٩٤١ ،وعدوان فرنسا في سورية في ايار ١٩٤٥ ، ومذابحها في الجزائر بالتاريخ نفسه . ومن صور الملاينة ،تأييد انكلترة لفكرة الوحدة العربية،ودعوتها لتكوين " الجامعة العربية " في اواخر الحرب العالمية الثانية . وفي الواقع كانت تهدف من وراء هذا التأييد ،احتواء النمو المتزايد للشعور القومي العربي،في الرقعة الواسعة للوطن العربي ،فتتعامل مع مؤسسة واحدة بدل مجموعة من الدول .وهذا التباين في موقف الجماهير والحكومات،كان سببا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية،في اضطرابات داخلية كثيرة ،دفعت"النهضة العربية" في طريق التيارات الاجتماعية التقدمية . وتعلق هذه المرحلة من مراحل النهضة العربية بتأسيس جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ .

سادسا ـ تكون المملكة العربية السعودية بحدودها الحالية ،بعد ان ضمت الاحساء ،وحائل ،والحجاز ،والعسير ،واستقلال بلاد اليمن عن كل نفوذ اجنبي .

سمات

"المرحلة الثالثة " وتمتد من تأسيس جامعة الدول العربية،أو من نهاية الحرب العالمية الثانية،حتى الوقت الحاضر (١٣٦٥—١٤٠١هـ/ ١٩٤٥—١٩٨١)

وهذه المرحلة مرحلة صاخبة وضاجة بالاحداث بالنسبة لمجموع العالم ،كما ان العلاقات الدولية معقدة ومتشابكة . وتتصف هذه المرحلة الزمنية في خطوطها العامة بانقسام العالم الى معسكرين : " معسكر عربي تمثله انكلترة،وفرنسا،والولايات المتحدة ، ومعسكر اشتراكي ،يمثله الاتحاد السوفييتي ،ودول اوربا الشرقية ،والصين الشعبية

(قبل ان يحدث الانقسام في هذا المعسكر) . وعلى الرغم من التغيرات الطارئة مؤخرا على قوى المعسكرين ،ووحدة كل واحد منهما ، الا ان التمايز العقائدي والصراع لايزال قائما بينهما . ولقد حاول كل معسكر ان يكون حلفا فيما بينه ضد الآخر .

وبالاضافة الى ذلك فان هذه الحقبة الزمنية كانت مرحلة نمت فيها (الحركات التحررية) في العالم ولاسيما في افريقيا،وآسيا ،وازداد انتشار الآراء الاشتراكية .

ولايمكن فصل تاريخ الوطن العربي في هذه المرحلة الصاخبة عن تاريخ العالم المعقد ،ولكن يمكن تبسيط خصائص هذه الفترة من النهضة العربية ، بالنقاط التالية "

١- متابعة البلاد العربية الكفاح المسلح ضد القوى الغربية التي كانت لاتزال تنوء بثقلها على اقطار الوطن العربي . ولقد اتخذ الكفاح طابعا اكثر تنظيما وشعبية . فاندلعت ثورات شعبية عربية كبيرة، كان لبطولاتها ،وتضحياتها ،والمُثُل التي نادت بها صداها ،لا في اطارها المحلي فقط،او اطارها العربي فحسب، وانما كان لها تأثيرها في الكفاح العالمي ضد التسلط والاستعمار: كالثورة الجزائرية ،وثورة الجنوب العربي ،ثم الثورة الفلسطينية التي لاتزال محتدمة .

وقد توصل هذا النضال العربي في معظم الاقطار العربية الى تصفية الاحتلال العسكري ،وخروج جيوش الدول الاوربية منها . فاستقلت سورية عام ١٣٦٦هـ/١٩٤٦ وكذلك لبنان . كما نجحت العراق بثورة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨ في التخلص من " حلف بغداد " الاستعماري ،والغت الاردن المعاهدة البريطانية ـ الهاشمية عام ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧ م ،وخرجت القوات الانكليزية من مصر نهائيا عام١٣٧٦هـ/١٩٥٦م واعلنت ليبيا استقلالها عام ١٣٧١ هـ/ ١٩٥١ ، وفي ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ حقق المغرب امنيته في التحرر ،وفي العام نفسه انتزعت تونس من فرنسا استقلالها . وقبل ذلك بعام (١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥ م)،جلت القوات الانكليزية والمصرية عن السودان . وخرجت فرنسا من الجزائر بعد كفاح قاس ومشرّف ،في عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢ م ،كما استقلت موريتانيا عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠ م ، وكذلك الصومال . وفي المشرق العربي ،خرج الجنود البريطانيون من الكويت عام ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ،ومن الجنوب العربي عام ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م . ولكن التصفية لم تكن تامة ،لانه لايزال هنان بعض الجيوب

الكبيرة والخطرة ،كالصهيونية في فلسطين ،والحبشة في ارتيريا .

٢- نمو اقتصاد الاقطار العربية ،وبروز البترول مادة رئيسية وهامة ،يمتلكهـــا بغزارة عدد من اقطاره ؛وبالمقابل نمو الطبقة البورجوازية " وقوتها ،وزيادة عـــدد افراد " الطبقة العاملة " وتقدم وعيها لواقعها ،نتيجة انتشار التعليم ،ووسائل الاعلام المختلفة ،من صحافة،واذاعة ،وتلفزيون ،وسينما .

٣- كارثة فلسطين الاولى ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٨ التي كانت اكبر تحد للوجـــود العربي ؛ فمن المعروف ان عين اوربا وامريكا لم تغفل عن مختلف التطورات الداخلية في الوطن العربي فالنهضة العربية خطر على مصالحها الاقتصادية العديدة فيه ، ولا سيما انه يقع في قلب العالم ،ويسيطر على طرق التجارة العالمية ،ويملك (البترول) اهم مولد للطاقة ،واكبر مسيّر للصناعة والاقتصاد . وان اكثر ما كانتا ،ولا تـــزالان تخشيانه ، هو تحقيق الوجود العربي كيانا واحدا وضخما ،يقضي على استثماراتهما واستغلالاتهما . ولذا فانهما كانتا ،ولا تزالان ،تقفان في كل مناسبة مواتيـة فـي وجه ذلك الوجود العربي ،او تضعان امامه العراقيل ،لتسدا عليه طريق التحـــرر ، والتقدم ، والوحـــدة .

وان اكبر عقبة كاداء وضعها الغرب في طريق النهضة العربية ،انشاؤه" لاسرائيل " على ارض فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨ : قلب الوطن العربي ،ومقر الاماكن المقدسة المسيحية والاسلامية . اى انها منحت الصهيونية ارضا عربية لا تملك شبرا فيهـــا ، لتكون قاعدة دائمة لها ، تشق الوطن العربي وتعيق وحدته ،وتشغله عن الالتفات الهادىء الى بناء ذاته . فهي سيف مصلت على رقاب الامة العربية كلها ،ومهدد للوجود العربي ذاته بالمحق . وما عدوان ١٩٥٦ على منطقة قناة السويس مـــن انكلترة،وفرنسا ،والصهيونية ، وعدوان الصهيونية (اسرائيل) في ٦ حزيران ١٩٦٧، سوى مظهر من مظاهر الرغبة في القضاء على الحركة العربية وتفتيت تيارها القـوي ، اوعلى الاقل اعاقة تقدمها . الا ان الحرب العربية ـ الاسرائيلية في تشرين ١٩٧٣ كانت ردا عليها .

٤- لم يتوقف نمـو الحركة الفكرية العربية بل ازدادت تقدما ونضوجا وثقـــة بالذات،وذلك مع نمـو التعليم وانتشاره ، وازدياد وسائل النشر، والطباعة،والاتصال

المختلفة:كالاذاعة،والصحافة ،والتلفزيون ،والسينما . وتضاعفت حركة الترجمة ، وقامت حركة تبادل فكري ،واسعة النطاق ساعدت عليها سرعة المواصلات . وهكذا تتميز هذه المرحلة ،بظهور طبقة كبيرة شابة ،من الادباء والمفكرين ،في كل الاقطارالعربية قدمت انتاجا كبيرا ، ساعد بدوره على تثقيف الشعب ،وبخاصة الطبقات الدنيا فيه . وبذلك حدثت "الثورة الثقافية الشعبية" التي مكنت للوعي القومي . ولقد خاض الانتاج الفكري في مختلف الموضوعات،ولا سيما في المذاهب السياسية ،والاقتصادية ، والاجتماعية الحديثة ،السائدة في العالم . ومن ثم شرع الشعب بمجموعه ،يطلع على ما يجري في اصقاع الدنيا المختلفة ،فيزداد اهتمامه بها ،لانعكاس كثير منها على تطور احواله . كما ان الانتاج الفكري ،انصب بالذات ،على تدعيم ايديولوجية "القومية العربية" واخصابها،وشرح ما غمض من خطوطها . ولا بد من التأكيد هنا ان التأثر بنمو الحركة الاشتراكية في العالم،واتساعها،كان واضحا في ذلك الانتاج ،ودافعا الى تبني كثير من رواد الفكر والسياسة "التيار الاشتراكي"،او مزجه بالتيار القومي . واتخذ التيار القومي خطوات ايجابية لتحقيق(الوحدة العربية)وألح في دعوته هذه . وفي هذه الحقبة برزت عدة منظمات سياسية واحزاب ،قد يكون اقدمها في تبني مفهوم القومية العربية الاشتراكية ،وابرزها (حزب البعث العربي). وتبنت مصر نفسها أيديولوجية القومية العربية،بعد ثورتها عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢ ،ونادى بها رئيسها " جمال عبد الناصر " . ولكنها اليوم ،بعد صلحها المنفرد مع اسرائيل وتوقيعها معاهدة " معسكر داود "،عادت الى انعزالها القومي المحلي ،الذي كنا قد اشرنا اليه بعد خروج محمد علي من سورية .

ومن الطبيعي ان يتبع نمو الحركة الفكرية ورسوخها ،وعمق الوعي القومي الشعبي، تطورات سياسية داخلية في مختلف الاقطار المستقلة ،ولا سيما بعد كارثة فلسطين. وقد اثبتت التجربة الفعلية ،ان التصفية العسكرية الغربية التي تمت ،لم تحل مشكلات التخلف،والتعثر التي يعيشها المجتمع العربي . ولذا فان الحكومات الوطنية الصالحة سعت،وتسعى،كي تصفي الاستعمار الاقتصادي ،والاجتماعي ، والسياسي ،لا العسكري فحسب . ومن ثم فكل قطرعربي ،يحاول اليوم بناء ذاته بناء جديدا ،او مرمما ،ليساير ركب الحضارة العالمي ،ويزيل كل آثار التخلف. ولقد تعددت الوسائل التي اتبعتها الاقطار العربية في مسيرتها هذه . فبعضها اختار

طريق الثورة الاشتراكية ،وبعضها الآخر طريق " التطور الاصلاحي " العادي ، المعتمد على الطبقة البورجوازية . ويبدو بصفة عامة ،ان(تيار القومية العربية)قد اختار طريق الاشتراكية ،والاعتماد على الفئات العاملة ،من فلاحين ،وعمال ،وحرفيين وكسبة صغار .

وفي الخمسينات من القرن العشرين اصبح (تيار القومية العربية)تيارا شعبيا قويا، كنتيجة لامتداد الحركة الفكرية وتواصلها بين مختلف الاقطار ،وتبادل الطلاب، والمعلمين ،ووسائل الاعلام الكثيرة . وازداد الايمان لدى غالبية الشعب العربي وفي معظم اقطاره بضرورة تكوين " الكيان الواحد " فعليا،لانه هو التعبير الحق عن هذا الوجود ،ولانه قادر على حل مشكلات التخلف ،وعلى الصمود امام القوى الدولية الطاغية . وعلى الرغم من ان " الجامعة العربية " لم تقم بما كان يأمل الشعب العربي منها من تحقيق لامانيه ، الا انها لعبت دورها المجمّع والمقرّب بين مختلف الاقطار العربية ،اى انها اسهمت،ولو بقدر، في تدعيم التيار القومي وهكذا يرى ان تيار الوجود العربي الواحد ،قد تكاثر اتباعه ،وان كان بالمقابل قد تضاعف مناهضوه . واخذ هذا التيار عن طريق الحكومات المؤمنة به ،وعن طريق دفع الجماهير للحكومات التي لا تتبناه ،ولكنها تسايره اضطرارا ،يترك آثارا دامغة في توجيه الاقطار العربية الى تدعيم الوحدة الثقافية ،والاقتصادية ،بل والسياسية . ولقد شاهدت هذه المرحلة من النهضة العربية وحدة فعلية قامت بين قطرين عربيين،هما سورية ومصر عام ١٩٥٨ ، الا ان ظروفا شتى داخلية وخارجية لعبت دورها في القضاء عليها . وسعت الجماهير العربية بتضحيات عديدة للرد على هذه النكبة ، وراب الصدع ،وكانت ثورة اليمن ١٩٦٢، وثورة ٨ آذار ١٩٦٣ .

٥ــ لم يكتف الغرب باسرائيل ،وانما حاول ان يغير اساليبه الاستعمارية السابقة باساليب جديدة تخفي مراميه ،وذلك لابقاء الوطن العربي تحت نفوذه وسلطانه،ولا سيما بعد ان شاهد بقلق تسرب المبادىء الاشتراكية اليه ،والتقارب بينه وبين الاتحاد السوفييتي . ومن أساليبه الجديدة طرحه منذ بدء النصف الثاني من القرن العشرين ــ ما اسماه ــ بالمشروعات الدفاعية عن الشرق الاوسط،وشمال افريقية ." كمشروع الدفاع عن الشرق الاوسط " عام ١٩٥١،و" مشروع الجدار " لـ " دالاس " ، والذي وضع برغم مقاومة الشيوعية ، والذي انبثق عنه " حلف بغداد "

الذي انضمت اليه تركيا، والعراق، وايران، وباكستان ؛ وفشلت محاولات جر الاردن ، وسورية اليه . ثم مشروع ايزنهاور ، ومقاومة العرب في المشرق له .

٦ــ خرجت القومية العربية من اطارها العربي المحدود لتسهم في مجال السياسة العالمية ، ولتخدم قضايا السلام في العالم ، فانضمت الى جانب الشعوب في تحررها ، وتلاقت مشاعرها الانسانية مع الدول الافريقية الاسيوية ، فبدأ تجمعها ، ومشاركتها في قضايا العالمين الاسيوي والافريقي . وبدا هذا واضحا في المؤتمر الذي عقد عام ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥ في " باندونغ " باندونيسيا . وكان من اهدافه الرئيسية توحيد جهود الشعوب الاسيوية والافريقية في خلق جو من التفاهم ، يحول دون تحقيق سياسة الغرب ، في حمل تلك الشعوب على محاربة بعضها بعضا . وجعل التعايش السلمي ، والحياد الايجابي ، وعدم الانحياز، سياسة آسيوية ــ افريقية عامة ، والبعد عن سياسة المعسكرات والاحلاف ، لتخفيف حدة (التوتر الدولي) ، والقضاء على الحرب الباردة . وفي " مؤتمر القاهرة " عام ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧) عقد المؤتمر الشعبي الاسيوي ــ الافريقي ، وكان للوجود العربي اثر فعال في نشاطه . وعندما عقد " مؤتمر اكرا " في عام ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨ للدول الافريقية ، الذي ادان الاستعمار ، والتفرقة العنصرية ، فان الصوت العربي لم يكن غائبا . والشيء نفسه يقال عن مؤتمرات التنمية للدول المتخلفة ، وعن مؤتمرات عدم الانحياز ، ومؤتمرات الوحدة الافريقية ، واجتماعات هيئة الامم المتحدة ، وغيرها .

وهكذا يتبين ان المرحلة الثالثة من مراحل اليقظة العربية غنية جدا بمعارك الحياة والوجود ، وبخاصة معارك التحرر الاقتصادي ، والثقافي ، والاجتماعي ، كما انها زاخرة بالاسهام العربي في دعم تكتلات السلام والحرية لايجاد عالم يخلع عنه الاستغلال ، ويهدف فقط للتعاون والبناء .

واخيرا ، لاتزال " النهضة العربية " تتابع طريقها في كل قطر عربي ، وان كانت المشكلة الكبرى التي تتحداها اليوم، هي " القضية الفلسطينية " التي تطورت تطورا لم يكن لصالحها .

الخاتمة العامة

اذا كان تاريخ العرب في " العصر الحديث " قصة طويلة من الصراعات السياسية بين مراكز قوى ، اغلبها غريب عن المجتمع العربي ، وعاش متطفلا او دخيلا عليه ، وان كانت في بنيتها الحضارية مشابهة له ، فانها صراعات بقيت تدور على حواف هذه المجتمع ، وتطفو على سطحه ، دون ان تتغلغل الى بنيته العميقة . ومن ثم ، فقد ظل تاريخه الذاتي ، قصة من فعاليات اقتصادية ، توارثها اجيال عن اجيال ، ومن قيم ، ومثل ، وعادات اجتماعية مألوفة ، حرص على الابقاء عليها ، ومن افكار سعى كي تأخذ معينها ، تارة من تقليد ابتعد عن الاصول فشاخ وذبل ، وتارة اخرى من لب الاصل ، فاصطرع الاصل مع التقليد ، لتتولد منه نواة " اليقظة العربية " .

اذا كان تاريخ العرب في مجمله ، في " العصر الحديث " هذا كله ، فانه في مجموعه في " الحقبة المعاصرة " ، كان قصة طويلة من صراع مرير ، لم يبق على حواف المجتمع العربي ، وانما تغلغل الى اعماق ذاته وهزها هزا . كان صراعا عنيفا ومزدوجا : بين المجتمع العربي والغرب ، والمجتمع العربي وذاته ، او بتعبير اوسع ، كان صراعا بين البنية الحضارية للمجتمع العربي ، التي لا تزال تحتضن بحب وتشبث قيم الروح ، وبين الحضارة الاوربية بماديتها وواقعيتها ، وآليتها المتقدمة ، التي تحدى بها الغرب المجتمع العربي . ولم تقتصر مجابهة الغرب للمجتمع العربي في بنيته الذاتية ، وانما امتدت الى ارضه ، فاراد ان يسحبها من تحت قدميه . ودخل المجتمع العربي حلبة الصراع ليناضح عن بنيته الحضارية ، وعن ارضه ، أي عن وجوده كله . وكان العراك ، ولا يزال ، شديد الوطأة وصعبا ، لعظم القوى المجابهة وشراستها . ومن ثم فقد انتصر مرات ، وانهزم اخرى . هذا في الوقت الذي كان فيه في صراع مع نفسه : أيستبدل البنية الحضارية الاوربية ببنية الحضارة العربية الاسلامية ، أم يرمم بها بنيته ، أم يرفضها تماما ؟

ومع عنف الصراع الخارجي والداخلي ، ومع الضعف الذي دخل فيه المجتمع العربي الحلبة ، فانه وقف ، ولا يزال ، مجابها ، ومقاوما ، وقد زادته الهجمات عليه ، قوة ، ومراسا ، وتجربة .

المصادر

ان مصادر " تاريخ العرب الحديث والمعاصر " وفيرة جدا ، ومتنوعة، ومتشعبة، ومتعددة اللغات ، شأنها في ذلك شأن " مصادر التاريخ الحديث والمعاصر " في جميع انحاء العالم. وهي تشمل ما يسمى بـ " الوثائق الكتابية " ، و " الوثائق الاخرى غير الكتابية " .

اما الوثائق الكتابية ، فمن المعروف انها تضم أولا وثائق الارشيفات الحكومية ، أي جميع المدونات الحكومية المحفوظة في دواوين الدولة المختلفة ، كالقرارات الادارية والدعاوى القضائية ، والنظم المالية والضرائب ، والمعاهدات ، والمراسلات السياسية ، وغير ذلك مما تحتويه ، اوراق وزارات الدولة . وقد تكون هذه المدونات ، مخطوطة ، او مطبوعة ، او مسجلة على اشرطة ، وقد تصاحبها صور يدوية او فوتوغرافية ، او افلام سينمائية (بالنسبة للحقبة المعاصرة) .

ولا يضم هذه الوثائق ارشيف دولة واحدة ، او قطر عربي واحد ، وانما هي موزعة في ارشيفات (دور محفوظات) كل قطر من الاقطار العربية ، وفي كل بلد عالمي كان له ارتباط او صلة من قريب او بعيد بأحداث التاريخ العربي . واهم الارشيفات التي لا بد من الرجوع اليها عند البحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، الارشيف العثماني في استامبول بخاصة ، لانه ارشيف الدولة الحاكمة للبلاد العربية لمدة تقارب القرون الاربعة ، ودور المحفوظات العربية في كل قطر عربي ، وقد يكون من اهم وثائق تلك الدور ، في العصر العثماني الاول ، وثائق المحاكم الشرعية ، التي تلقي كثيرا من الأضواء الكشافة على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية في البلاد العربية في تلك الحقبة ، ومنها في " مديرية الوثائق " بدمشق ، وثائق محاكم حلب ، ودمشق وحماة ، وحمص .

والى جانب دور المحفوظات العثمانية والعربية ، هنالك دور المحفوظات الاوربية ، واهمها ، دور المحفوظات الاسبانية ، والبرتغالية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والايطالية (في معظم مدن ايطاليا : كالبندقية ، وجنوة ، وفلورنسا ، ونابولي ، والفاتيكان ، وروما) . ويضاف بالنسبة للحقبة المعاصرة ، الوثائق الروسية ، ووثائق

الولايات المتحدة الامريكية ،بل وكل دور المحفوظات في العالم التي للاقطار العربية صلة ما معها .

ويجب الا تنسى وثائق السفارات ،والقنصليات المختلفة في البلاد العربية ، والسفارات والقنصليات العربية في بلدان العالم .

ومن الوثائق الكتابية ايضا المؤلفات التاريخية العربية بمدارسها المختلفة، والعثمانية ، والاجنبية ،المعاصرة لهذه الحقبة ،التي تطرقت للتاريخ العربي .

وكذلك جميع المؤلفات العربية الادبية واللغوية ،والدينية ،والعلمية ،والفنية والجغرافية ،وادب الرحلات العربي والاجنبي على السواء .

ويضاف الى تلك الوثائق الكتابية في الحقبة المعاصرة جميع الصحف والدوريات التي صدرت وتصدر ، في انحاء البلاد العربية ،والاجنبية ،ووسائل الاعلام المختلفة من اذاعة ،وتلفزيون،وسينما .

اما الوثائق الاخرى غير المكتوبة فهي جميع ما خلف على الارض العربية من آثار في العصر الحديث،والحقبة المعاصرة ،" من ابنية متنوعة ،وادوات ،ومصنوعات، ونقود ، وصور ،بل كل مظهر من مظاهر الفعاليه الانسانية .

وسيقتصر في هذا الكتيب على ايراد جزء من الوثائق الكتابية ،وهو بعض ماروجع من المؤلفات التاريخية والادبية ،والجغرافية ،العربية والاجنبية ،المعاصرة في تدوينها للاحداث المبحوثة أكانت مطبوعة،او محفوظة ،او تلك المدونة فيما بعد .

المصادر والمراجع العربية

آصاف (يوسف بك) : " تاريخ سلاطين آل عثمان من اول نشأتهم حتى الآن .هولاندة ١٩١٩ .

ابن ابي دينار (ابو عبد الله محمد الرعيني) : المؤنس في اخبار افريقيا وتونس تونس ١٣٥٠ هـ .

ابن ابي الضياف (احمد) اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان . ٨ أجزاء . تونس ١٩٦٣ – ١٩٦٨

ابن اياس (محمد) بدائع الزهور في وقائع الدهور . ٣ أجزاء . القاهرة ١٣١٢هـ والاجزاء ٣–٥ تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٦٠–١٩٦٣

ابن بشر (عثمان بن عبد الله): عنوان المجد في تاريخ نجد جزءان. الطبعة الثالثة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٣٠ .

ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد): رحلة ابن بطوطة. دار صادر. بيروت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤ م .

ابن تغري بردي (جمال الدين ابو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. دار الكتب المصرية .

ابن جمعة (محمد): الباشات والقضاة. نشر صلاح الدين المنجد في كتاب "ولاة دمشق في العهد العثماني. دمشق ١٩٤٩ .

ابن حجر العسقلاني (احمد بن علي): الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة. ٤ اجزاء. الهند حيدر آباد ١٣٤٨هـ/ ١٣٥٠ هـ. وتحقيق محمد سيد جاء الحق. الطبعة الثانية. ٥ اجزاء. القاهرة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٦ م .

ابن الحنبلي (رضي الدين محمد): در الحبب في تاريخ اعيان حلب. تحقيق محمود فاخوري ويحيى عبارة. جزءان في اربعة مجلدات. دمشق ١٩٧٢—١٩٧٤ .

ابن زنبل الرمال (احمد): تاريخ السلطان سليم مع قانصوة الغوري. جزءان. مخطوط في دار الكتب المصرية تحت الرقم تاريخ ٤٨ ومخطوط تحت عنوان "تاريخ مصر". المكتبة الوطنية في ميونخ تحت الرقم Cod Arab 413 وقد نشر بعنوان (آخرة المماليك) عبد المنعم عامر. القاهرة ١٩٦٢ .

ابن شاشو (عبد الرحمن بن محمد الذهبي): تراجم بعض اعيان دمشق من علمائها واد بائها في القرن الحادي عشر. بيروت ١٨٨٦ م .

ابن طولون (محمد) — اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام. تحقيق محمد احمد دهمان. دمشق ١٩٦٤/ ١٣٨٣ هـ .

وتحقيق عبد العظيم حامد خطاب. عين شمس ١٩٧٣ .

— ضرب الحوطة على جميع قرى الغوطة. نشر اسعد طلس في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. المجلد ٢١، سنة ١٩٤٦ . ص ٣—٨ . وعلق عليه الناشر في المجلد ٢١ .ص ٢٤٥ .

ـ ضوء السراج فيما قيل في النساج " رسالة نشرتها وعلقت عليها . ليلى الصباغ . في كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ ـ ٣ محرم ١٣٩٩هـ الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ ـ ٣ كانون الاول ١٩٧٨ . جزءان . دمشق ١٩٧٩ ج ١ ص ٣٥ـ٩٢ .

ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان . تحقيق محمد مصطفى . حزيران . القاهرة ١٩٦٢، ١٩٦٤ .

ابن العماد الحنبلي (عبد الحي العكري) : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٨ اجزاء ، القاهرة ١٣٥٠ (تصوير بيروت . د. ت) .

ابن غلبون (ابو عبد الله محمد) : تاريخ طرابلس الغرب، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخبار . نشر الطاهر احمد الزاوي الطرابلسي القاهرة ١٣٤٨ هـ .

ابن كنّان (محمد بن عيسى) :ـ الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف وميه جزءان مخطوطان في مكتبة برلين تحت الارقام 9479 we (II) 1114
9480 we (II) 1115

ـ المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية . نسخة مصورة في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق، رقم (٢٦)، وهي مصورة عن مخطوط دار الكتب المصرية . ونسخة اخرى تبدو هي الاصل ، في مكتبة برلين تحت الرقم (6088.we.1116)

ابن معصوم (صدر الدين علي الحسيني الحسني) : سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر . القاهرة ١٣٢٤ هـ .

ابن المعمار البغدادى الحنبلي (محمد) : الفتوة . تحقيق الدكتور مصطفى جواد وعبد الحليم النجار . بغداد ١٩٥٨ .

ابن يحيى (صالح) : تاريخ بيروت . مع ملحق ابن صباط . بيروت ١٩٢٧ .

ابو حاكمة (احمد مصطفى) ـ محاضرات في تاريخ شرقي الجزيرة العربية في العصور الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .

ـ تاريخ الكويت . ج ١ ، الكويت ١٩٦٧ .

ابو خطار (انطونيوس) : مختصر تاريخ جبل لبنان . بيروت ١٩٥٣ .

أبو زيد (حكمت) : المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صورهالجبرتي. في ابحاث (ندوة عبد الرحمن الجبرتي وعصره) .القاهرة ١٩٧٦ .

أبو شقرا (يوسف خطار) : الحركات في لبنان الىعهد المتصرفية . تحقيق وتعليق عارف ابو شقرا . بيروت ١٩٥٢ .

ابو النصر (عمر) : بطل الريف الامير عبد الكريم . بيروت ١٩٣٤ .

الاسود (ابراهيم) : الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية . ٧ اجزاء . بعبدا ١٨٩٨ .

الاشبيلي (علي بن محمد اللخمي) : الدر المصان في سيرة المظفر سليمخان . تحقيق الدكتور هانس ارنست . القاهرة ١٩٦٢ .

الاشهب (محمد الطيب) : المهدي السنوسي . طرابلس الغرب . د . ت

الالوسي (محمود شكرى) تاريخ نجد . حققه وعلق عليه " محمد بهجة الاثري " القاهرة ١٣٤٧ هـ .

الاصام (رشاد) : سياسة حمودة باشا في تونس (١٧٨٢—١٨١٤) .تونس.١٩٨٠

أمين (احمد) : زعماء الاصلاح في العصر الحديث . القاهرة ١٩٦٥ .

الانصاري (شرف الدين موسى) : نزهة الخاطر وبهجة الناظر . مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم عام٧٨١٤(اواخر القرن العاشر / السادس عشر).

انطونيوس (جورج) : يقظة العرب . تعريب ناصر الدين الاسد واحسان عباس بيروت ١٩٦٦ .

ـ يقظة العرب . تعريب علي حيدر الركابي . دمشق ١٩٤٦ .

انيس(محمد احمد) ـ الدولة العثمانية والمشرق العربي (١٥١٤—١٩١٤) .القاهرة د . ت .

مع رجب حراز ـ الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر . القاهرة ١٩٦٧ .

— مدرسة التاريخ المصرى في العهد العثماني . معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٦٢ .

باشا (عمر موسى) : محاضرات في الادب المملوكي والعثماني . جامعة دمشق ١٣٩٩—١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩—١٩٨٠ م .

البحراوي (محمد عبد اللطيف) : حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨—١٨٣٩ . القاهرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ م .

بدران (عبد القادر) : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال . طبع تحت رعاية الامير الكويتي . بيروت د . ت .

البديرى الحلاق (احمد) : حوادث دمشق اليومية بين سنتي ١١٥٤—١١٧٦ هـ . تنقيح الشيخ محمد سعيد القاسمي وتحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم القاهرة ١٩٥٩ .

بروكلمان (كارل) : الاتراك العثمانيون وحضارتهم . تعريب . من مجموعة تاريخ الشعوب الاسلامية . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٤٩ .

بريك (ميخائيل) : تاريخ الشام (١٧٢٠—١٧٢٨) . نشر قسطنطين الباشا . حريصا ١٩٣٠ .

بصيلي (عبد الجليل الشاطر) : معالم تاريخ سودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٥

البطريق (عبد الحميد) — الوهابية دين ودولة . بحث في حولية كلية النبات جامعة عين شمس . القاهرة ١٩٦٤ .

— ابراهيم باشا في بلاد العرب . القسم الاول من كتاب " ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا " القاهرة ١٩٤٨ .

البغدادي (اسماعيل باشا) — ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . الطبعة الثالثة جزءان . طهران ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ (تصوير اوفست) .

— هدية العارفين عن اسماء المؤلفين وآثار المصنفين . جزءان . طهران ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧ (تصوير اوفست) .

البغدادى (ابراهيم فصيح) " عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد . بغداد ١٩٦٢ .

بعيو (مصطفى عبد الله) المختار في مراجع تاريخ ليبيا . جزءان . بيروت ١٩٧٢ .

البكري الصديقي (محمد بن ابي السرور) " ـ عيون الاخبار ونزهة الابصار . مخطوطة في مجموعة برلين تحت الرقم MS 9473,we. 351
ونسخة في دار الكتب المصرية . تاريخ ٧٢ م .

ـ المنح الرحمانية في الدولة العثمانية . مخطوطة في المكتبة الوطنية في الجزائر رقم ١٦٥١ .ونسخ اخرى .

ـ اللطائف الربانية على المنح الرحمانية . مخطوطة في دار الكتب المصرية تحت الرقم ٨٠ م تاريخ .

ـ نصرة اهل الايمان بدولة آل عثمان . مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات العربية . تحت الرقم ٢١٣٢ .

ـ الروضة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية . مخطوطة في دار الكتب المصرية . تاريخ ٥٥١٧ .

ـ النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية . مخطوطة في دار الكتب المصرية تاريخ ٢٢٦٦ بدل .

ـ الروضة المأنوسة في اخبار مصر المحروسة .مخطوطة في دار الكتب المصرية تاريخ ٥٢٧٧ .

ـ الكواكب السائرة في اخبار مصر والقاهرة . مخطوطة مصورة في معهد المخطوطات العربية تحت الرقم ١/٤١٩ عن نسخة في المكتبة التيمورية رقم ٢٥٢٣ تاريخ .

ـ التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية . مخطوطة في مكتبة فينا الوطنية برقم MS AF. 283

ـ تفريج الكربة في رفع الطلبة . مخطوطة في معهد المخطوطات العربية تحت رقم ٧٦٤ تاريخ .

بوركهارت : رحلات بوركهارت في النوبة والسودان . تعريب فؤاد اندراوس مع بعض الاساتذة . الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩ م .

البوريني (احمد قاسم): الامارات السبع على الساحل الاخضر . بيروت ١٩٥٧ .

البوريني (الحسن): تراجم الاعيان من ابناء الزمان . حقق الدكتور صلاح الدين المنجد جزئين منه دمشق ١٩٥٩، ١٩٦٦ . اما بقية التراجم فتمت مراجعتها من مخطوطة المكتبة الوطنية في ڤينا Cod Arab 1190 Mixt 346

بيشوف: تحف الانباء في تاريخ حلب الشهباء . بيروت ١٨٨٠ .

البيطار (عبد الرزاق): حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . ٣ أجزاء . تحقيق محمد بهجة البيطار . دمشق ١٩٦١-١٩٦٣ .

بيهم (محمد جميل): فلسفة التاريخ العثماني . بيروت ١٩٢٥ .

ترتون (ا.س): اهل الذمة في الاسلام . تعريب حسن حبشي . مصر ١٩٤٩ .

الترك (نقولا): ـ حوادث الزمان في جبل لبنان . مخطوط في الظاهرية رقم ٤٧٢٤
ـ ذكر تملك جمهور الفرنساوية الاقطار المصرية والبلاد الشامية . نشره بالعربية من ترجمة فرنسية " دغرانج اينه " .
Desgranges Aine Histoire de l'Expedition des Francais en Egypte paris 1839

تشرشل (شارل هنري): حياة الامير عبد القادر . تعريب ابي القاسم سعد الله، تونس ١٩٦٧

التكريتي (داود): النصوص العقارية، ٣ أجزاء، دمشق ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م

التميمي (عبد الجليل): ـ بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ١٨١٦-١٨٧١ . تونس.
ـ "بايلك قسنطينية وولاية الحاج احمد باي (١٨٣٠-١٨٣٧)". عرض موجز لرسالة دكتوراه بهذا العنوان، دونت بالفرنسية (انظر المصادر والمراجع الاجنبية) . والعرض قدم في (المجلة التاريخية المغربية)، التي يصدرها الدكتور التميمي . تونس جويلية ١٩٧٩ ص ٨٢-٨٦ .
ـ "الامير عبد القادر في دمشق (١٨٥٥-١٨٦٠)" . المجلة التاريخية المغربية تونس . جويلية ١٩٧٩ . (ص ٥-٣٢) .
ـ "من اجل كتابة تاريخ الجامع الاعظم بمدينة الجزائر" . المجلة التاريخية المغربية . تونس، اكتوبر ١٩٨٠ (ص ١٥٥-٢١٦) .

ـ بحوث اخرى في المجلة التاريخية المغربية . من العدد ١ ـ العدد ٢٤)
ـ المجلة التاريخية المغربية . وهي مختصة بتاريخ المغرب الحديث والمعاصر . وتقدم ابحاثا قيمة بالعربية والفرنسية . تصدر عدديـن سنويا ، اسست ١٩٧٤ . والى الآن ١٩٨١ .

التونسي (خيرالدين) : أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك . تحقيق المنصف الشنوفي تونس . ١٩٧٢ .

التهانوي (محمد) : موسوعة اصطلاحات العلوم الاسلامية المعروفة بكشاف اصطلاحات الفنون ٦ أجزاء . بيروت ١٩٦٦ .

توتل (الأب فريناند) : وثائق تاريخية عن حلب . ٤ أجزاء . بيروت ١٩٥٨ـ١٩٦٤ .

ثامر (الحبيب) هذه تونس . القاهرة ١٩٥٨ .

الجاسر (حمد) ـ في شمال غرب الجزيرة . الرياض ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م .
ـ تحقيق كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) لقطب الدين المكي النهروالي . الرياض ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ .

جامعة دمشق (كلية الآداب) : كتاب المؤتمر الثاني لتاريخ بلاد الشام . المنعقد في دمشق بين ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ ـ ٣ محرم ١٣٩٩ ، الموافق ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ ـ ٣ كانون اول ١٩٧٨ . حزيران ١٩٧٨ وفيه بحوث قيمة عديدة عن تاريخ بلاد الشام في العصر الحديث والحقبة المعاصرة (٩٢٢ـ ١٣٥٨ هـ/ ١٥١٦ـ١٩٣٩) اصيلة ومترجمة .

الجبرتي (عبد الرحمن) : ـ عجائب الآثار في التراجم والاخبار . ٤ أجزاء . بولاق ١٢٩٧ هـ
ـ مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس . تحقيق محمد جوهر وعمر الدسوقي . القاهرة ١١٦٩ م .

الجريلي (علي) : تاريخ الصناعة في مصر في النصف الاول من القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٥٢ . نشر جمعية الدراسات التاريخية بمصر .

الجزائري (محمد بن الامير عبد القادر) : تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر . جزءان . الاسكندرية ١٩٠٣ .

جمال (نامق) : وقائع عصرية جرت بملتقى قارتين . ترجمة عبد العزيز امين الخانجي . د . ت .

جوان (ادوار) : مصر في القرن التاسع عشر . تعريب محمد مسعود . القاهرة ١٣٤٠ هـ/ ١٩٢١ م .

جودت (احمد) : تاريخ . ترجمة عبد القادر دنا . ج ١ . بيروت ١٣٠٨ هـ .

جودت (محمد) : ذيل على الفتيان الاخية . استامبول ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م .

جيرار (ب.س) : الاحوال الزراعية في القطر المصري اثناء حملة نابليون بونابرت . تعريب يوسف نحاس . خليل مطران . القاهرة ١٩٤٢ .

الجيلالي (عبد الرحمن) : تاريخ الجزائر العام . بيروت ١٩٦٥ .

جوليان (شارل اندري) : تاريخ افريقيا الشمالية . تونس . الجزائر . المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي الى سنة ١٨٣٠ م . الجزء الثاني . تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة . تونس ١٩٧٩ .

حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله) : كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون . جزءان . طهران ١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م (تصوير) .

حاطوم (نورالدين) ، وطربين (احمد) ، وعاقل (نبيه) ، ومدني (صلاح) : المدخل الى التاريخ . دمشق ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٥ م .

حتي (فيليب) : لبنان في التاريخ . ترجمة الدكتور فريحة . بيروت ١٩٥٩ .

حجي (محمد) — "مصادر التاريخ المغربي في المكتبات" في (المجلة التاريخية المغربية) تونس . جانفيه . يناير ١٩٧٩ (ص ٣٣ — ٤١) .

— المقاومة المسلحة ضد الاستعمار الاوربي واصداؤها في المغرب وليبيا . (المجلة التاريخية المغربية) تونس . جانفية . يناير ١٩٨٠ (ص ٢٥ — ٣٢) .

الحسني (علي) — : تاريخ سورية الاقتصادي . دمشق ١٣٤٢ هـ .

الحسيني الموسوي (محمد) — رحلة الشتاء والصيف . تحقيق محمد سعيد الطنطاوي . الطبعة الثانية . بيروت ١٣٨٥ هـ .

الحصري (ساطع):ـ آراء واحاديث في الوطنية والقومية . القاهرة ١٩٤٤ .
ـ آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع . بيروت ١٩٦٠ .
ـ آراء واحاديث في القومية العربية . بيروت ١٩٥٦ .
ـ ابحاث مختارة من القومية العربية . القاهرة ١٩٦٤ .
ـ الاقليمية . جذورها وبذورها . بيروت ١٩٦٤ .
ـ البلاد العربية والدولة العثمانية . القاهرة ١٩٥٧ .
ـ حول القومية العربية . بيروت ١٩٦١ .
ـ حوليات الثقافة العربية . ٦ مجلدات . القاهرة ١٩٥٠ـ١٩٦٤
ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية . القاهرة ١٩٥١ .
ـ مذكراتي في العراق (١٩٢١ـ١٩٤١) . جزءان . بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .
ـ يوم ميسلون . بيروت ١٩٤٨ .

الحصني (محمد اديب) ـ : منتخبات التواريخ لدمشق . ٣ أجزاء . دمشق ١٩٢٧ . (تصوير حديث . بيروت دون تاريخ في مجلد واحد) .

حقي (احسان) : ـ تونس العربية . بيروت د . ت .

الحمصي (نعيم) : ـ نحو فهم جديد منصف لادب الدول المتتابعة وتاريخه . حزيران جامعة تشرين (سورية) ١٩٧٨ـ١٩٧٩ .

الخربوطلي (علي):ـ القومية العربية من الفجر الى الظهر . القاهرة .

خزعل (حسين خلف):ـ تاريخ الكويت . بيروت ١٩٦٢ .

الخفاجي (شهاب الدين احمد بن محمد) : ـ ريحانة الالبا . جزءان . تحقيق عبد الفتاح الحلو . القاهرة ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٧ .
ـ خبايا الزوايا . مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٧١٠٩

الخياري (ابراهيم):ـ تحفة الادباء وسلوة الغرباء . مخطوط في مكتبة برلين رقم : 6135 Wa(II)125 وقد نشر الجزء الاول منه بتحقيق رجاء محمود السامرائي . بغداد ١٩٦٩ .

خوجه (حسين) : ـ ذيل بشائر الايمان بفتوحات آل عثمان . تحقيق وتقديم الطاهر المعمورى . تونس - ليبيا ١٩٧٥

داود (محمد) : ـ تاريخ تطوان . تطوان ١٩٥١ .

الداود (محمود علي) : ـ الخليج العربي والعلاقات الدولية . معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦١ .

الدباغ (مصطفى) : ـ الجزيرة العربية . بيروت ١٩٦٣ .
ـ قطر ، ماضيها وحاضرها . بيروت ١٩٦٣ .

الدبس (المطران يوسف) ـ تاريخ سورية . ٨ أجزاء . بيروت ١٨٩٣ـ١٩٠٥ .

دريان (يوسف) : ـ نبذة تاريخية في ظل الطائفة المارونية . بيروت ١٩١٩ .

دروزة (محمد عزة) : ـ العرب والعروبة . الجزء الاول . حقبة التغلب التركي دمشق ١٩٥٩ .

الدمشقي (ميخائيل) : ـ تاريخ حوادث الشام ولبنان ١١٩٧ـ١٢٥٧هـ/ ١٧٨٢ ـ ١٨٤١ م . نشر الاب لويس معلوف . بيروت ١٩١٢ .

الدهمان (محمد احمد) : ـ زلزال سنة ١١٧٣ هـ ، في مجلة المشرق ١٩٤٨ . المجلد ٤٢ . ص٣٣٣ـ٣٤٧ .

الدويهي (اسطفان) : ـ تاريخ الازمنة (١٠٩٥ـ١٦٩٩) . نشره الاب فردينان توتل بيروت ١٩٥١ .
ـ تاريخ الطائفة المارونية . بيروت ١٨٩٠ .

ريمان : ـ فنون الاسلام . تعريب احمد محمد عيسى . القاهرة ١٩٥٤ .

الرافعي (عبد الرحمن) : ـ عصر محمد علي . القاهرة ١٣٧٠هـ/ ١٩٥١ م .
ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر . ٣ أجزاء القاهرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠

رافق (عبد الكريم) : ـ بلاد الشام ومصر . من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ـ١٧٩٦) الطبعة الاولى . دمشق ١٩٦٧ .

ـ العرب والعثمانيون (١٥١٦–١٩١٦) دمشق ١٩٧٤ .
ـ "ثورات العساكر في القاهرة ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ، ومغزاها". ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس– ابريل ١٩٦٩ . ٣ أجزاء القاهرة ١٩٧٠–١٩٧١ . ج ٢ . ٧٤٥ – ٧٧٥ .
ـ "مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني". في مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع . دمشق . جمادى الثاني ١٤٠١ هـ/ نيسان ١٩٨١ ص ٣٠ – ٦٢ .
ـ "مظاهر من الحياه العسكرية العثمانية في بلاد الشام من مطلع القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر". مجلة دراسات تاريخية ، العدد الاول . دمشق . ربيع الثاني . ١٤٠٠ هـ
ـ مظاهر من الحياة الاقتصادية والعمرانية في غزة في القرن التاسع عشر (من وثائق المحكمة الشرعية) بحث قدم الى المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في عمان (الاردن) ١٩–٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

الراقد (محمد عبد المنعم السيد) :ـ الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي . الاسكندرية ١٩٧٢ م .

رستم (أسد) : ـ الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا . ٥ أجزاء . بيروت ١٩٣٠–١٩٣٤ .
ـ بشير بن السلطان والعزيز . جزءان . بيروت ١٩٥٦–١٩٥٧
ـ مصطلح التاريخ . بيروت ١٩٣٩ .

الرشيد (عبد العزيز) : ـ تاريخ الكويت . بيروت ١٣٤٤ هـ .

رضا (محمد رشيد) : ـ الوهابيون والحجاز . القاهرة ١٩٢٥ .

رفعت (محمد) : ـ التوجيه السياسي للفكرة العربية الحديثة . القاهرة ١٩٦٤ .
ـ التيارات السياسية في البحر الابيض المتوسط . القاهرة ١٩٤٩ .

رمضان (عبد العظيم محمد): ـ تطور الحركة الوطنية في مصر من ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ . القاهرة ١٩٦٨ .

الروزنامجي (حسين افندى): ـ ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية . تحقيق محمد شفيق غربال بعنوان "مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨ ـ ١٨٠٠ . حولية كلية الآداب . جامعة فؤاد (القاهرة) المجلد الرابع . الجزء الاول ١٩٣٦ م .

الريحاني (امين) : ـ تاريخ نجد الحديث وملحقاته . بيروت ١٩٥٤ .
ـ ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية . جزءان . بيروت ١٩٢٤ .

الزاوى (الطاهر احمد) : ـ ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي الى نهاية العهد التركي . بيروت ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م .

الزركلي (خير الدين) : ـ الاعلام . ١٣ مجلدا . ٩ مجلدات في الاصل و (٤) مستدركات . بيروت . الطبعة الثالثة . د . ت .

زكي (محمد حسن) : ـ فنون الاسلام . القاهرة ١٩٤٨ .

زيادة (محمد مصطفى): ـ نهاية السلاطين المماليك في مصر . المجلة التاريخية القاهرة . المجلد الرابع . العدد الاول مايو ١٩٤١ .

زيادة (نيقولا) : ـ ليبيا في العصور الحديثة . القاهرة ١٩٦٦ .
ـ محاضرات في تاريخ ليبيا من الاستعمار البريطاني الى الاستقلال . القاهرة ١٩٥٨ .

زيدان (جرجي): ـ تاريخ آداب اللغة العربية . ٤ أجزاء في مجلدين بيروت ١٩٦٧ .

زيدان (عبد الكريم): ـ احكام الذميين والمستأمنين في الاسلام . بغداد ١٣٨١ / ١٩٦٣ هـ .

الزين (احمد عارف): ـ تاريخ صيدا . صيدا ١٩١٣ .

الساحلي (خليل) : ـ "سنوالازدلاف اوازمات الامبراطورية العثمانية العالية ."
تعريب وتقديم د . عبد الجليل التميمي في (المجلة التاريخية المغربية) تونس. جويلية/ يوليو ١٩٧٨ .
ـ "تغير طرق التجارة في القرن السابع عشر والتنافس بين مينائي طرابلس والاسكندرونة ." كتاب المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام (٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ـ ٣ محرم ١٣٩٩ / ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ـ ٣ كانون اول ١٩٧٨ . جزءان . دمشق ١٩٧٨ . ج ١ (ص ١٣٩ـ١٥٥) .

سالم (السيد جمال مصطفى):ـ الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ـ١٦٣٥ . القاهرة ١٩٦٩ .
ـ تكوين اليمن الحديث. طبع معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٦٣ .

السالمي (نورالدين عبد الله):ـ تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان . جزءان . القاهرة ١٩٦١

السباعي (احمد) : ـ تاريخ مكة . دراسات في السياسة والعلم والاجتماع . القاهرة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢ م .

السخاوي (محمد شمس الدين) : ـ الضوء اللامع من اهل القرن التاسع ، ١٢ مجلدا القاهرة ١٣٥٣ هـ .

سعد الله (ابوالقاسم) : ـ الحركة الوطنية الجزائرية . بيروت ١٩٦٩ .
ـ تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (١٦ـ٢٠ م) ج ١ . الجزائر ١٩٨١ .
ـ محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث. الطبعة الثانية . معهد البحوث والدراسات العربية . القاهرة ١٩٧٦ .
ـ ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر . الجزائر ١٩٧٨ .
ـ حياة الامير عبد القادر . تعريب لكتاب تشرشل . تونس ١٩٧٤
ـ المفتي ابن العنابي رائد الاصلاح الاسلامي . الجزائر ١٩٧٧ .
ـ "عبد الرزاق بن حماد وش الجزائري ورحلته لسان المقال". في

مجلة الاصالة . الجزائر . العدد ٣٨ السنة الخامسة . شوال ١٣٩٦هـ/اكتوبر ١٩٧٦ (ص ٢ — ٢٤) .

السعدي (محمد البرلسي):ـ بلوغ الارب برفع الطلب. تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . المجلة التاريخية المصرية المجلد ٢٤ القاهرة ١٩٧٧ .

سعيد (امين) : ـ تاريخ مصر السياسي . مصر ١٩٥٩ .
ـ الثورة العربية الكبرى .
ـ تاريخ المملكة العربية السعودية . ٣ أجزاء . بيروت ١٩٦٤ .
ـ الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته المعاصرة . بيروت ١٩٦٥ .
ـ الوطن العربي . القاهره . د.ت .

سعيدوني (ناصرالدين):ـ النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية ١٨٠٠—١٨٣٠ الجزائر ١٩٧٩ .
ـ "نظرة في اراضي الميرى ببلاد الشام اثناء العهد العثماني" بحث في كتاب المؤتمر الدولي الثاني لبلاد الشام المنعقد في دمشق بين ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ — ٣ محرم ١٣٩٩ / ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ — ٣ كانون الاول ١٩٧٨ (ص ٣٥٧ — ٤٠٢) .

السلاوي (يحيى) : ـ عقد الجمان في خلاصة تاريخ ابن عثمان . استامبول ١٣١٣ هـ .

السويدى (عبد الرحمن):ـ حديقة الزوراء في سيرة الوزراء . مخطوط في المتحف البريطاني برقم Add. 18,507 نشر صفاء خلوصي . الجزء الاول منه بغداد ١٩٦٢ .

السيابي (سالم بن حمود):ـ ايضاح المعالم في تاريخ القواسم . دمشق ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م .

الشاذلي الغزا (الشيخ علي بن محمد): ـ ذكر ما وقع بين عسكر المحروسة القاهرة (١١٢٣هـ / ١٧١١ م) تحقيق الدكتور عبد القادر احمد طليمات . المجلة التاريخية المصرية . المجلد الرابع عشر . القاهرة ١٩٦٨ .

الشايب (زهيـر) : ـ الترجمة الكاملة لكتاب (وصف مصر) . الاجزاء ١ ، ٢ ، ٣ . القاهرة ١٩٧٧-١٩٧٨ .

الشدياق (طنوس) : ـ اخبار الاعيان في جبل لبنان . بيروت ١٨٥٩ .

الشربيني (يوسف بن محمد) : ـ هز القحوف في شرح قصيد ابي شادوف . الطبعة الثانية القاهرة ١٣٠٨ هـ .

شريط (عبد الله) ومحمد الميلي : ـ الجزائر في مرآة التاريخ . قسنطينة . الجزائر ١٩٦٥

شريف (محمد بديع) وزكي المحاسني : ـ دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . مصر ١٩٥١ .

الشطي (محمد جميل) : ـ روض البشر في اعيان دمشق في القرن الثالث عشـــر . - مشق ١٩٤٦ .
ـ ذيل روض البشر . دمشق ١٩٤٨ .

الشطي (شوكت موفق) : ـ تاريخ الطب . السفر الرابع . دمشق ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧ .

شكرى (محمد فؤاد) : ـ ميلاد دولة ليبيا الحديثة . القاهرة ١٩٥٧ .
ـ السنوسية دين ودولة . القاهرة ١٩٤٨ .

شلبي (احمد بن عبد الغني) : ـ اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الـــوزراء والباشات . الملقب بالتاريخ العـيني . تحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم . القاهرة ١٩٧٨ .

الشملان (سيف مرزوق) : ـ من تاريخ الكويـت . القاهرة ١٩٥٩ .

الشناوى (عبد العزيز محمد) : ـ الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها . جـزءان القاهرة ١٩٨٠ .
ـ "دور الازهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابـــان الحكم العثماني" بحث ضمن ابحاث الندوة الدوليـــة للتاريخ الالفي للقاهرة . القاهرة ١٩٧١ .

شهاب (حسن صالح) : ـ اضواء على تاريخ اليمن البحري . بيروت ١٩٧٧ .

الشهابي (الاميرحيد راحمد):ـ الغرر الجان في تواريخ حوادث الزمان . ٣ أجـــزاء مصر . ١٩٠٠ نشره نعوم مغبغب .
ـ لبنان في عهد الامراء الشهابيين ، ٣ اجزاء . نشر فـــؤاد افرام البستاني واسد رستم . بيروت ١٩٣٣ .
ـ ترجمة احمد باشا الجزار . نشر الاب انطونيوس شبلـــي واغناطيوس عبده خليفة . بيروت ١٩٥٥ .

شيخو (لويـــس) : ـ تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، جزءان . بيروت ١٩٠٨ـ ١٩١٠ .
ـ تاريخ الآداب العربية في الربـع الاول من القرن العشرين بيروت ١٩٢٦ .

الشيال (جمال الدين) : ـ الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الاسلامي ، جزءان معهد الدراسات العربية . القاهرة . ج ١ ، ١٩٥٧ ج ٢ ١٩٥٨ م .
ـ التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر . العدد ٣ من المكتبة التاريخية . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٨

الصابوني (احمـد) : ـ تاريخ حمـــاة . حماة . د . ت .

الصبـاغ (ليلـى) : ـ الجاليات الاوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، رسالة دكتوراه ، اجيزت من جامعة القاهـرة عام ١٩٦٦ (ولما تنشر بعد) .
ـ "الجديد في العسكر الجديد" مجلة الفكر العســكري . العددان الثالث والرابع من السنة الرابعة . دمشق . شوال ١٣٩٦/ ايلول ١٩٧٦ (١٨٨ ـ ٢٠٦) وذو الحجـة ١٣٩٦ هـ / كانون الاول ١٩٧٦ (٧٣ ـ ٨٨) .
ـ "افريقيا الشرقية العربية في القرن العاشر/ السادس عشر" بحث قدم الى ملتقى الفكر الاسلامي الثالث عشر . المنعقد في تامنراست بالجزائر . ٩ـ١٥ شوال ١٣٩٩/ ١ ـ ٧ أيلول ١٩٧٩ . (في طريق النشر) .

- بين "جامع الزيتونة وجامع بني أمية في دمشق". بحث قدم في ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس جامع الزيتونة . في ندوة عقدت في تونس ٢٥ محرم — ٢ صفر ١٤٠٠هـ/ ١٥ ديسمبر — ٢١ ديسمبر ١٩٧٩م
- "ثورة مسلمي غرناطة عام ٩٧٦ هـ/ اواخر ١٥٦٨ م والدولة العثمانية" في مجلة (الاصالة) العدد ٢٧ الجزائر. رمضان — شوال ١٣٩٥هـ/ سبتمبر اكتوبر ١٩٧٥ . ص (١١٦ — ١٧٥) .
- دراسة في منهج البحث التاريخي . مطبوعات جامعة دمشق . ١٩٨٠ .
- " ساطع الحصري المؤرخ "دراسة في مجلة (المعلم العربي) . العددان الثاني والثالث من السنة الثلاثين . دمشق . شباط — آذار ١٩٧٧ . عدد خاص بالمفكر العربي الكبير الاستاذ ساطع الحصري . بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده (١٢٣—١٧٦) .
- " ست سنوات من كفاح الحصري في العراق" نشر جزء منه تحت عنوان "ست سنوات من كفاح الحصري للتدليز في العراق" . في مجلة "المعلم العربي" دمشق . العدد الثاني عشر من العام الثلاثين. كانون الاول ١٩٧٧ . عدد خاص بالذكرى المئوية لميلاد ساطع الحصري اصدره المجلس الاعلى للعلوم في اسبوع العلم السابع عشر .
- " عناية بين اسمها وموقعها وعلاقاتها مع العالم المتوسطي ،حتى الاحتلال الفرنسي" في مجلة (الاصالة) . الجزائر . جمادى الثانية رجب ١٣٩٦ هـ/ يونيو — يوليو ١٩٧٦ (١٢٢ — ١٦٢) .
- الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها . رسالة ماجستير . أجيزت من جامعة القاهرة ١٩٦١ . نشر جزء منها في :
- المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني . وزارة الثقافة والارشاد القومي . دمشق ١٩٧٣ .
- "فلسطين في مذكرات الفارس دارقيو" بحث قدم الى المؤتمر الدولي

الثالث لتاريخ بلاد الشام . المنعقد في جامعة عمان بين ٤ — ٩ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩—٢٤ نيسان ١٩٨٠ (في طريق النشر)

— المؤرخ المحبي وخلاصة الاثر . بحث قدم الى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام المنعقد في دمشق في ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨ هـ — ٣ محرم ١٣٩٩ هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ — ٣ كانون الاول ١٩٧٨ (في طريق النشر) .

— " نحو تقويم جديد للحياة الفكرية في البلاد العربية في المرحلة الاولى من الحكم العثماني " في مجلة (أوراق) ، الصادرة عن المعهد الاسباني — العربي . مدريد . العدد الثالث ١٩٨٠ (٤٩—٦٣)

— " الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث " المجلة التاريخية المغربية " العددان السابع والثامن — تونس — جانفي يناير ١٩٧٧ . عدد خاص تكريما للاستاذ مرسيل امرى (٧٨—٩٨)

— " الوثائق الايطالية والاسبانية في تاريخ العرب في القرن العاشر/ السادس عشر " بحث قدم في ندوة الدراسات العليا للتاريخ الحديث، في جامعة عين شمس . ٧—١٢ مايو ١٩٧٧ . القاهرة (في طريق النشر) .

— " وثيقة عربية شامية من القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، عن الصناعة النسيجية والنساج (تعليق وتحقيق على رسالة ضوء السراج فيما قيل في النساج . للمؤرخ محمد بن طولون المتوفي ٩٥٣ هـ) . في كتاب " المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام المنعقد في دمشق بين ٢٧ ذى الحجة ١٣٩٨هـ — ٣ محرم ١٣٩٩ هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٨ — ٣ كانون الاول ١٩٧٨م .

الصباغ (ميخائيل) — : تاريخ ظاهر العمر الزيداني . نشر الخوري قسطنطين الباشا . حريصا ١٩٣٥ .

الصفدي (احمد الخالدى) : — تاريخ الامير فخر الدين . نشر اسد رستم وفؤاد افرام البستاني . بيروت ١٩٣٦ .

صفوت (محمد مصطفى) ـ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية . القاهرة ١٩٥٧

الصلح (عادل) ـ سطور من الرسالة . بيروت ١٩٦٦

الصليبي (كمال) ـ تاريخ لبنان الحديث . بيروت ١٩٦٧ .

الصواف (بكر فائق) : ـ العلاقات بين الدولة العثمانية واقليم الحجاز ما بين ١٢٩٣–١٣٣٤هـ/ ١٨٧٦–١٩١٦ . القاهرة ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م .

الصوفي (احمدعلي): ـ المماليك في العراق . القاهرة ١٩٥٢ .

طاشكبري زاده (احمد بن مصطفى): ـ الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية بيروت ١٣٩٥/ ١٩٧٨ .

الطباخ (محمد راغب) : ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء . حلب (١٣٤٢–١٣٤٥هـ/ ١٩٢٣–١٩٢٦) .

طربين (أحمد) : ـ ازمة الحكم في لبنان ١٨٤٢–١٨٦١ . دمشق ١٩٦٦ .
ـ انظر حاطوم (نورالدين) .
ـ امريكا في خدمة الدولة اليهودية . القاهرة ١٩٧٣ .
ـ الانتداب البريطاني في خلفية الدولة اليهودية القاهرة ١٩٧٢ .
ـ التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث . دمشق ١٩٧٠ .
ـ فلسطين في خطط الصهيونية والاستعمار القاهرة ١٩٧١ .
ـ لبنان منذ عهد المتصرفية الى الانتداب، القاهرة ١٩٦٨ .
ـ محاضرات في تاريخ قضية فلسطين (مع ملاحق) القاهرة ١٩٥٩ .
ـ الوحدة العربية في تاريخ المشرق المعاصر ، دمشق ١٩٧٠ .

الطهطاوي (رفاعة رافع) : ـ تخليص الابريز الى تلخيص باريس . القاهرة ١٩٠٢ .
ـ مناهج الالباب المصرية في مناهج الآداب العصرية القاهرة ١٢٨٦ هـ .

الطويل (توفيق) : ـ التصوف في مصر ابان الحكم العثماني ، القاهرة ١٩٤٦ .

العارف (عارف) ـ تاريخ غزة . القدس ١٩٤٣ .
ـ تاريخ القدس . القاهرة ١٩٥١ .

عاقل (نبيه) ـ انظر حاطوم (نورالدين) .

العامري (محمد الهادي) ـ تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول . تونس ١٩٧٤ .

العبد (حسن آغا) ـ تاريخ حسن آغا العبد . قطعة من حوادث ١١٨٦ ـ ١٢٤١ هـ في دمشق ،نشره وعلّق عليه يوسف جميل نعيسه دمشق ١٩٧٩ .

عبد الرحيم(عبد الرحيم عبد الرحمن) ـ مقدمة كتاب اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العيني القاهرة ١٩٧٨ .
ـ الدولة السعودية الاولى ١١٥٨ـ١٢٣٣هـ/ ١٧٤٥ ـ ١٨١٨ القاهرة ١٩٧٩ (الطبعة الثالثة) .
ـ الريف المصري في القرن الثامن عشر . جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٤ .
ـ القضاء في مصر العثمانية . في بحوث" كتاب بحوث في التاريخ الحديث" جامعة عين شمس القاهرة ١٩٧٦ .
ـ وثائق توضح دور الجالية المغربية في تاريخ مصر في العهد العثماني والعصر الحديث ،المجلة التاريخية المغربية . العددان السابع والثامن . تونس جانفي ـ يناير ١٩٧٧ (٩٩ ـ ١٠٥) والعدد التاسع جويلية ١٩٧٧ (١٨٢ ـ ١٩٦) ،والعدد الثاني عشر . جويلية ١٩٧٨ (١٧٣ ـ ١٩٠) .
ـ علاقات بلاد الشام بمصر في العهد العثماني (١٥١٧ ـ ١٧٦٨) في كتاب " المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام " جزءان . ج ٢ ص ٢٧٥ ـ ٢٩٢ .

ـ وثائق تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعي في العهد العثماني مجلة دراسات تاريخية . العدد الخامس . دمشق . رمضان ١٤٠١ هـ/ تموز ١٩٨١ م (١٦٤ ـ ١٨٤) .

عبد العزيز (عمر) : ـ دراسات لمصادر عربية عن تاريخ مصر العثمانية . بيروت ١٩٧٧ .

عبد الكريم (احمد عزت):ـ مع مؤرخين آخرين: تاريخ العالم العربي . القاهرة ١٢٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م .
ـ تاريخ التعليم في مصر في عهد محمد علي . القاهرة ١٩٣٨ .
ـ مقدمة الاستعمار في الخليج الفارسي . القاهرة ١٩٥٦ .
ـ مقدمة محفوظات دمشق اليومية لكتاب البديرى الحلاق القاهرة ١٩٥٩ .

عبد اللطيف (ليلى): ـ الادارة في مصر العثمانية . جامعة عين شمس. القاهرة ١٩٧٨ .
ـ ابن ابي السرور البكرى . عصره ومؤلفاته في كتاب "بحوث في التاريخ الحديث" جامعة عين شمس . القاهرة ١٩٧٦ .

عبد المحسن (محمد بن عبد الله): ـ تحفة المستفيد بتاريخ الاحساء القديم والحديث جزءان . الرياض ١٣٧٩٠ هـ/ ١٩٦٠ .

عبد الوهاب (حسن حسني):ـ خلاصة تاريخ تونس . تونس ١٢٧٣ هـ .
ـ ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية . جزءان . تونس ١٩٦٥ـ١٩٦٦ .

عبد الوهاب (محمد بن):ـ السيرة المطولة . القاهرة د . ت .
ـ كتاب الاصول الثلاثة . القاهرة . د . ت .
ـ كشف الشبهات . القاهرة ١٣٥١ .

العبيدى المالكي (ابراهيم):ـ قلائد العقيان في مفاخر آل عثمان . مصر ١٣١٧ هـ

العزاوي (عباس) : ـ تاريخ العراق بين احتلالين . ٨ أجزاء . بغداد ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦هـ/ ١٩٣٥ـ١٩٥٦ .

ـ تاريخ علم الفلك في العراق وعلاقاته بالاقطار الاسلامية والعربية في العهد العثماني ٩٤١-١٣٣٥هـ/ ١٥٣٤ - ١٩١٧ . في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق . المجلد ٢٨ عام ١٩٥٣ (ص ٧٩، ٢٥٧، ٤٢١) والمجلد ٢٩ عام ١٩٥٤ (ص ٨٩، ٢١٩، ٢٣٨، ٥٥٣) وما يلي كل صفحة .
ـ عشائر العراق . ٤ اجزاء . بغداد ١٩٣٩-١٩٥٦ .

عزالدين (نجلاء) : ـ العالم العربي . ترجمة جماعة من الاساتذة . القاهرة ١٩٥٧ .

عزالدين (يوسف) : ـ داود باشا ونهاية المماليك في العراق . بغداد ١٩٦٧ .

العطار (نادر) : ـ تاريخ سورية في العصور الحديثة (١٥١٦-١٩٠٨) . دمشق . د.ت .
ـ العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانية . دمشق ١٩٦٢ .

العظم (رفيق) : ـ الجامعة الاسلامية واوربا . مصر ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م .

العظم (عبد القادر) : ـ الاسرة العظمية . دمشق ١٩٦٠ .

العقاد (صلاح) : ـ التيارات السياسية في الخليج العربي . القاهرة ١٩٦٥ .
ـ الاستعمار البريطاني في الخليج الفارسي . القاهرة ١٩٥٦ .
ـ "دعوة حركات الاصلاح السلفي" في المجلة التاريخية المصرية المجلد السابع ١٩٥٨ .
ـ المغرب في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٣
ـ المغرب العربي . الجزائر ـ تونس ـ المغرب الاقصى . دراسة في تاريخه الحديث واحواله المعاصرة . القاهرة ١٩٦٦ .

العقاد (عباس محمود) ـ الرحالة كاف عبد الرحمن الكواكبي . القاهرة ١٩٥٩ .

علي (عمر بن اسماعيل) ـ انهيار حكم الاسرة القرمنلية في ليبيا ١٧٩٥-١٨٣٥ . طرابلس ١٩٦٦ .

عمـــارة (محمـــد) : ـ الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني . القاهرة ١٩٦٨ .

العمري (ياسين) : ـ منية الادباء في تاريخ الموصل الحدباء . نشر سعيـــد الديوه جي . الموصل ١٩٥٥ .

العورة (ابراهيـــم) : ـ تاريخ ولاية سليمان باشا العادل . لبنان ١٩٣٦ .

غرايبـــه (عبد الكريم) : ـ مقدمة تاريخ العرب الحديث . دمشق ١٣٨٠هـ/١٩٦٠ .
ـ دراسات في تاريخ افريقيا العربية ١٩١٨ ـ ١٩٥٠ دمشق ١٣٨٠/ ١٩٦٠ .

غربال (محمد شفيـــق) : ـ منهاج مفصل لدروس العوامل التاريخية في بناء الامـــة العربية على ما هي عليه . معهد الدراسات العربيـــة . القاهرة ١٩٦١ .

الغزي (كامـــل) : ـ نهر الذهب في تاريخ حلب . ٣ اجزاء . حلب ١٣٤١ـ ١٣٤٥/ ١٩٢٢ـ١٩٢٦ .

الغزي (نجم الدين) : ـ الكواكب السائرة باعيان المئة العاشرة . ٣ أجزاء . نشرها جبرائيل جبور . بيروت ١٩٤٥ـ١٩٥٩ .
ـ لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولـــى من القرن الحادي عشر . (ذيل على الكواكب السائرة) مخطوطة في الظاهرية رقم (٤١) . وقد قام بتحقيقهـــا محمود الشيخ ونال بها رسالة ماجستير من جامعة دمشق عام ١٩٧٩ . وتقوم وزارة الثقافة والارشاد بنشره . وهـــو على وشك الصدور .

غصيـــن (فـــؤاد) : ـ مذكراتي عن الثورة العربيـــة ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٦ .

غنـــام (حسين بن) : ـ روضة الافكار والافهام لمرتاد حال الامام وتعداد غزوات الاسلام المسمى تاريخ نجد . تحقيق الدكتور ناصر الدين الاسد . القاهرة ١٩٦١ـ١٣٨١ هـ (عن الحركة الوهابية والغزوات السعودية) .

غنيم (عادل) : ـ الحركة الفلسطينية من ١٩١٧–١٩٣٦ . القاهرة ١٩٧٤ .

فارس (محمد خير) : ـ تاريخ الجزائر الحديث . دمشق ١٩٦٩ .
ـ المسألة المغربية من ١٩٠٠–١٩١٢ . القاهرة ١٩٦١ .

الفاسي (علال) : ـ الحركات الاستقلالية في المغرب العربي . القاهرة ١٩٤٨

فخري (احمد) : ـ اليمن ماضيها وحاضرها . معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٥٧ .
ـ المغرب العربي . القاهرة ١٩٥٥ .

فريد (محمد) : ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية . مصر ١٨٩٦ .

الفشتالي (ابو فارس عبد العزيز) : ـ مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا . دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم كريم . الرباط . د . ت .

الفلكي (يوسف) : ـ قضية البحرين بين الماضي والحاضر .

فوليكوف ومجموعة من الاساتذة السوفييت : ـ تاريخ الاقطار العربية المعاصر . ٣ أجزاء موسكو ١٩٧٥ .

فوزي (محمد) ، ومحمد ناجي : ـ طرابلس الغرب . ترجمة اكمل الدين محمد احسان طرابلس . ١٩٧٣ .

القاري (رسلان) : ـ الوزراء الذين حكموا دمشق . في كتاب ولاة دمشق في العهد العثماني . نشر صلاح الدين المنجد دمشق ١٩٤٩ .

قاسم (جمال زكريا) : ـ امارات الخليج العربي . جامعة عين شمس القاهرة ١٩٦٦ .
ـ الخليج العربي . دراسة لتاريخه المعاصر ١٩٤٥–١٩٧١ القاهرة ١٩٧٤ .
ـ دولة البوسعيد . القاهرة ١٩٦٨ .
ـ "الاصول التاريخية لقضية عمان" بحث في المجلة التاريخية المصرية المجلد الثاني عشر . القاهرة ١٩٦٤ .

القاسمي (محمد سعيد) : ـ قاموس الصناعات الشامية . جزءان . الجزء الاول دونه محمد سعيد القاسمي، ودون الثاني جمال الدين القاسمي بالاشتراك مع خليل العظم ،ونشر الجزئين ظافر القاسمي . باريس ـ لاهاي ١٩٦٠ .

قاسمية (خيرية) : ـ الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ . مصر ١٩٧١ .

ـ النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ ـ ١٩١٨ . منظمة التحرير الفلسطيني . مركز البحوث بيروت ١٩٧٣ .

قدري (احمد) : ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى . دمشق ١٩٥٦ .

القدسي (الياس) : ـ "نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية" بحث قدم للمجتمع العلمي الشرقي في ليدن ١٨٨٣ ،ونشره "كارلو لاند برغ" مع مقدمة في اعمال المؤتمر العالمي السادس للمستشرقين الذي انعقد في ليدن ١٨٨٣ . في الجزء الثاني. ليدن ١٨٨٥ .

Actes du sixième Congrès International des Orientalistes, tenue en 1883 à Leide. 2ème partie. Leide. 1885 .

قرألي (الخوري بولس) : ـ فتوحات ابراهيم باشا في فلسطين ولبنان وسورية حربيا ١٩٣٧ .

ـ "لبنان والدول العثمانية في عهد فخرالدين المعني الثاني" المجلة البطريركية . السنة الثالثة عشر. ج ٣ عام ١٩٥٢ . مصر الجديدة .

قدورة (زاهية) : ـ تاريخ العرب الحديث . بيروت ١٩٦٩ .

القرماني (احمد بن سنان) : ـ أخبار الدول واثار الاول . بغداد ١٢٨٢ هـ .

القساطلي (نعمان) : ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . بيروت ١٨٧٩ .

قسطمون (وديع) : ـ الافرنج في حلب في القرن الثامن عشر . حلب ١٩٦٩ .

قلعجي (قدري) : ـ اضواء على تاريخ الكويت . بيروت ١٩٦٢ .
ـ الخليج العربي . بيروت ١٩٦٠

القلقشندي ـ صبح الاعشى في صناعة الانشا ، ١٤ مجلدا ، القاهرة ١٩١٤–٢ :

كحالة (عمر رضا) : ـ جغرافية شبه جزيرة العرب . دمشق ١٩٤٤ .
ـ معجم المؤلفين ١٥ جزءا . دمشق ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩ .
ـ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ٣ اجزاء . دمشق ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩ .

كرد علي (محمد) : ـ خطط الشام ٦ مجلدات . دمشق ١٩٢٥–١٩٢٨
ـ مذكراتي . مجلدان . دمشق ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨ .

الكركوكلي (رسول) : ـ دوحة الوزراء في تاريخ بغداد الزوراء . نقله عن التركية موسى كاظم نورس . دار الكتاب العربي ببيروت . ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥ .

الكواكبي (عبد الرحمن): ـ ام القرى . حلب ١٩٥٩ .
ـ طبائع الاستبداد .

لامنس (الاب هنري): ـ تسريح الابصار فيما يحتوى لبنان من الآثار . جزءان .
تعريب نزيه المؤيد . بيروت ١٩١٤ .

لبيب (حسين) : ـ تاريخ الاتراك العثمانيين . ٣ اجزاء . مصر ١٩١٧ .

لبيب (صبحي) : ـ " التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى " في المجلة التاريخية المصرية . القاهرة ـ مايو ١٩٥٢ . المجلد الرابع العدد الثاني ص(٥ — ٦٤)

لوتسكي ـ تاريخ الاقطار العربية الحديث . ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني ، مراجعه بوري روشين . موسكو ١٩٧١ .

مالجيري (فرانشكو) : ـ الحرب الليبية ١٩١١–١٩١٢ . ترجمة د . وهبي البوري الدار العربية للكتاب . ليبيا ـ تونس ١٩٧٩ .

مبارك (علي) : ـ الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ١٣٠٦ هـ .

متولي (احمد فؤاد) : ـ الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته . من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له . القاهرة ١٩٧٧

المحاسني (سليمان) : ـ حلول التعب والالام بوصول ابي الذهب الى دمشق . نشر صلاح الدين المنجد . بيروت ١٩٦٢ .

المحاسني (زكي) وشريف (محمد بديع) : ـ دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة . مصر ١٩٥١ .

المحبي (محمد امين) : ـ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ٤ اجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ تصوير حديث . دار صادر ، ودار خياط بيروت . د . ت .

ـ نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة . تحقيق عبد الفتاح الحلو . ٤ اجزاء . القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧ .

ـ ذيل نفحة الريحانة . مخطوطة في الظاهرية رقم ٤٧٢٣ عام

المختار (صلاح الدين) : ـ تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها . جزءان . بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧ م .

المدني (احمد توفيق) ، ـ الجزائر . الجزائر ١٩٣٥

ـ هذه هي الجزائر . القاهرة ١٩٥٦ .

المدني (الشيخ امين الحلواني) : ـ خمسة وخمسون عاما من تاريخ العراق (١١٨٨ ـ ١٢٤٢هـ) . وهو مختصر "مطالع السعود بطيب اخبار الوالي داود" لعثمان بن سند البصري . القاهرة ١٣٧١ هـ .

المدني (صلاح) : ـ انظر حاطوم (نورالدين) .

المرادي (محمد خليل) : ـ سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء . القاهرة ١٢٩٠ـ١٣٠٦هـ/ ١٨٧٤ـ١٨٨٣ م . صوّر في بغداد ١٩٦٦ .

ـ عرف البشام بمن ولي فتوى دمشق الشام . دمشق ١٣٩٩/ ١٩٧٩ . تحقيق محمد مطيع الحافظ ، ورياض عبد الحميد مراد واتبع به ذيلان حتى ١٣٩٩هـ . اولهما من زيادات الحقت على كتاب القرماني "تاريخ الدول وآثار الاول"، والثاني من صنع محمد مطيع الحافظ المحقق .
ـ مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد . مخطوط في المتحف البريطاني رقم Or 4050

مرزوق (محمد عبد العزيز) ـ : الفنون الزخرفية في العصر العثماني . القاهرة ١٩٧٤ .

مشاقة (ميخائيل) : ـ مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان . مصر ١٩٠٨ .

مطر (الياس اديب) : ـ العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية . بيروت ١٨٧٤ .

المعلوف (عيسى اسكندر) : ـ تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني . لبنان ١٩٣٤ . طبعة ثانية بيروت ١٩٦٦ .
ـ دواني القطوف في تاريخ بني معلوف بعبدا ١٩٠٧/ ١٩٠٨
ـ "تاريخ الشيخ ظاهر العمر الزيداني" . مجلة المشرق مجلد (٢٤) ١٩٢٦ ص ٥٣٩ ـ ٥٦٠
ـ "قصر اسعد باشا العظم" . مجلة المشرق . مجلد ٢٤ ١٩٢٦ ص ٥ ـ ٢٦ .

المقريزي (احمد بن علي) : ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣ أجزاء . القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ .
ـ اغاثة الامة بكشف الغمة . نشر محمد مصطفى زيادة والشيال . القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ .
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور . ٣ اجزاء . القاهرة ١٩٣٤/ ١٩٧١ .

المكي (عبد الملك العصامي) : ـ سمط النجوم العوالي في انباء الاوائل والتوالي . ٤ أجزاء القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩ م .

المكي (قطب الدين محمد بن احمد النهروالي):ـ البرق اليماني في الفتح العثماني. تحقيق حمد الجاسر . الرياض ١٩٦٧ .

المنجد (صلاح الدين):ـ قصر اسعد باشا العظم بدمشق . مجلة الاديب. ايلول ١٩٤٦ ص ٣٧ ـ ٤٤ .

ـ المؤرخون الدمشقيون في العهد العثماني وآثارهم المخطوطة بيروت ١٩٦٤ .

ـ معجم المؤرخين الدمشقيين . بيروت

ـ كتاب وقف اسعد باشا العظم . دمشق ١٩٥٣ .

ـ ولاة دمشق في العهد العثماني . دمشق ١٩٤٩ .

ـ تحقيق مجموعة من المخطوطات لـ :
ابن جمعة ، البوريني ، القاري .

منصور القس اسعد :ـ تاريخ الناصرة من اقدم زمانها الى ايامنا الحاضرة . مصر . د . ت

المنير (حنانيا) :ـ الدر المرصوف في تاريخ الشوف . نشر اغناطيوس سركيس مجلة المشرق . المجلدات ٤٨ـ٥١ (١٩٥٤ـ١٩٥٧) .

مؤنس (حسين) :ـ الشرق الاسلامي في العصر الحديث . القاهرة ١٩٣٨ .

الموسوعة الاسلامية :ـ تعريب . تحت اشراف عباس محمود ـ عبد الحميد يونس ـ احمد الشنتناوي ـ ابراهيم زكي خورشيد . ١٥ مجلدا حتى حرف (م) . القاهرة . من ١٩٣٣ وحتى الآن .

موير :ـ تاريخ دولة المماليك في مصر (١٢٦٠ـ١٥١٧) . ترجمة محمود عابدين ، وسليم حسن . القاهرة ١٩٢٤ .

ميكاكي (رودلفو) :ـ طرابلس الغرب تحت اسرة القرمنلي . نقله الى العربية طه فوزي . معهد الدراسات العربية العالية . القاهرة ١٩٦١ .

الناصري (ابو العباس احمد بن خالد):ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى . ٤ اجزاء . الدار البيضاء ١٩٥٥ .

ناجي (محمد) :ـ انظر فوزي (محمد) .

النابلسي (عبد الغني) ـ العلم والفلاحة . دمشق ١٢٩٩ هـ .
ـ الصلح بين الاخوان في حكم اباحة الدخان . نشر محمد دهمان . دمشق ١٣٤٢ .
ـ تاريخ الدولة العثمانية . مخطوط في مجموعة برلين رقم 9727 we (II) 1808
ـ الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز . عدة نسخ في المكتبة الظاهرية .

النعيمي (عبد القادر) ـ الدارس في تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسني . جزءان دمشق ١٣٦٧ـ١٣٧٠هـ/ ١٩٤٨ـ١٩٥١ .

النمر (احسان) ـ تاريخ جبل نابلس والبلقاء . ج ١ دمشق ١٩٣٨ . ج ٢ نابلس ١٩٦١ .

نوار(عبد العزيز سليمان) ـ تاريخ العراق الحديث . القاهرة ١٩٦٨ .
ـ داود باشا والي بغداد . القاهرة ١٩٦٨ .

نورس(علاء موسى كاظم) ـ حكم المماليك في العراق (١٧٥٠ـ١٨٣١). بغداد ١٩٧٥

نوفل (سيد) ـ الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي . جزءان . معهد البحوث والدراسات العربية . ج ١ الطبعة الثانية ١٩٦٨ ج ٢ طبعة اولى ١٩٦٦ .

وهبه (حافظ) ـ جزيرة العرب في القرن العشرين . القاهرة ١٩٤٦ .

يحيى (جلال) ـ المدخل الى تاريخ العالم العربي الحديث . القاهرة ١٩٦٧

يني (جورج) ـ تاريخ سورية . بيروت ١٨٨١ .
ـ ظاهر العمر . مجلة المقتطف مجلد ٢٨ . ج ٤ نيسان ١٩٠٣ .

المصادر والمراجع الأجنبية

- A -

ABDESSELEM(Ahmed): Les Historiens Tunisiens des XVIIe,XVIIIe et XIXe siècles. Tunis, 1973.

ABDUL-FATTAH(Kamal) & HUTTEROTH(V.):Historical Geography of Palestine in the late 16th Century. Erlangen,1977.

ADNAN(Abdul-Hak):La science chez les Turcs Ottomans. Paris,1939.

ALDERSON(A.D.):The Structure of the Ottoman Dynasty. Oxford,1956.

Ancien Diplomate: Le régime des capitulations. Paris,1898.

ABUN -NASR(Jamil): A History of the Maghreb. Cambridge,1971.

ARNAUD(François): Voyage au Levant et en Jérusalem. Paris,1909.

ARVIEUX(Laurent d'): Mémoires du Chevalier d'Arvieux, 6 vol. Paris,1735.

AYALON(D.): Gunpowder and Firearms in the Mamluk Kingdom. London,1956.

AYNI ALI: Kavaninal -i Osman, traduit en français par M. Bélin sous le titre "du Régime des fiefs militaires". J.A. XV/1870,PP. 187-301.

- B -

BABINGER(Franz): Mahomet II le Conquérant et son temps (1432-1481).Trad.Fr.de H.E. del Modico.Paris, 1954.

BACHROUCH(Taoufik): Formation sociale Barbaresque et pouvoir à Tunis au XVIIe siècle. Tunis, 1977.

BAER(G.A.): History of Landownership in Modern Egypt 1800-1950. London, 1962.

- "The Administrative, Economic and Social Functions of Turkish Guilds" in International Journal of Middle East Studies, Vol. I/1970. PP. 28-50

BARKAN(Omer Lutfi): Notes sur les routes de commerce orientales (Revue de la Faculté des Sciences Economiques de l'Université d'Istanbul. Ed.Fran.T.I No 4/Juillet 1940.

BARKER(Ed.): Syria and Egypt under the last Five Sultans of Turkey. New York,1973.

BARBIR(K.K.): Ottoman Rule in Damascus 1708-1758 Princeton University Press,1980.

BEAULIEU(Philippe): Discours du voyage faict en Levant 1608-1610. Paris,1910.

BEAUVAU(Henri de): Relation journalière du voyage du Levant. Nancy, 1615.

BELIN(F.A.): Essai sur l'histoire économique de la Turquie d'après les écrivains originaux 6° série,T. III 1864, T.IV,1864,T.VI 1865.

BERCHET(Gugeliemo): Relazioni dei Consoli Veneti nella Siria. Torino,1866.

BLOUNT(Sir Henry): A voyage into the Levant. London,1640.

BODMAN(Herbert L.Jr.): Political Factions in Aleppo 1760-1826. University of North Carolina Press,1963.

BONNE(A.): State and Economics in the Middle East London,1959.

BORDEAUX(Henri): Voyageurs d'Orient. Paris,1926.

BOWEN(H.): British Contributions to Turkish Studies. New York,1945.

BOWEN(H.)& GIBB(H.A.R.): Islamic Society and the West, vol. I in 2 parts. London, 1951, 1957.

BRAUDEL(F.)- La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris,1949.

- L'économie de la Méditerranée au XVIIe siècle. Cahiers de Tunisie T. IV,No 14,2ème trim.,1956.

BRAUDEL(F.)& ROMANO(R.): Navires et marchandises à l'entrée du port de Livourne(1547-1611). Paris,1951.

BREVES(F.S.de): Relation des voyages de M. de Brèves tant en Grèce, Terre Sainte et Aegypte qu'aux Royaumes de Tunis, Alger Paris,1630.

BROWN(Ph. Marshall):Foreingers in Turkey,their judicial Statut. Princeton,Oxford University Press,1914.

BURY(G.W.): Arabia Infelix or Turks in Yemen. London,1915.

- C -

CAMBRIDGE HISTORY OF ISLAM, 2 vol.,1970,edited by P.M.Holt, A.K.S.LAMBTON and B. Lewis. Cambrige.

CARAYON(le P. Auguste): Relations inédites de la campagne de Jesus à Constantinople et dans le Levant au XVIIe siècle. Poitiers et Paris,1864.

CARRUTHERS(Douglas)éd.: The Desert Route to India. London,1929.

CHAMPENOIS(L.)& JEAN(G.L.): Le Royaume d'Arabie Séoudite. Paris,1966.

CHARLES-ROUX(François):

- Les échelles de Syrie et de Palestine au XVIIIe siècle. Paris,1928.
- France et Chrétiens d'Orient. Paris, 1939.
- La politique française en Egypte à la fin du XVIIIe siècle. Revue Historique, 9/1906.

CHARRIERE(Ernest); Négociations de la France dans le Levant,4 vol. Paris,1848-1860.

CHESNEAU(J.): Le voyage de Monsieur d'Aramon 1549. Ed. Ch.Schefer. Paris,1887.

CHEVALIER(D.): La société du Mont Liban à l'époque de la Révolution Industrielle en Europe Paris,1971."Western development and Eastern Crisis in the mid nineteenth Century: Syria confronted with the European Economy" "Beginnings of Modernization in the Middle East". Edd. W. Polk and R.Chambers,Chicago 1968,205-222.

COBBETT(S.J.): England in the Mediterraneen,2 vol. London,1904.

COLES(P.):- The Ottoman Impact on Europe. London,1968.
- A History of the Ottoman Empire to 1730. London,1976.

COLLIN(B.): Les Lieux Saints. Paris,1948.

COMBE(E.): L'Egypte ottoman dans "Précis de l'histoire d'Egypte"par divers historiens et archéologues,vol. III,Cairo,1933.

COMPAGNIE DES JESUITES:Lettres édifiantes et curieuses, écrites des Missions étrangères par quelques missionnaires de la Campagne de Jésus. Ed. C.le Gobien, J.B.du Halde, L. Palouillet, 34 vol.,Paris,1707 1773.

COUPLAND(R.): East Africa and its Invaders. London, 1938.

CREASY(E.):A History of the Ottoman Turks. Reprinted by Khayats,Beirut, 1963.

- D -

DABMANN & VERNEY(Noel): Les puissances étrangères dans le Levant en Syrie et en Palestine. Paris,1900.

DANIELS(C.E): The Early English Cotton Industry. Manchester,1920.

DENY(J.): Sommaire des Archives Turques au Caire. Le Caire,1930.

DJAIT(Hicham): Influences ottomanes sur les institutions, la civilisation et la culture tunisienne du XVIe au XIXe siècle.
المجلة التاريخية المغربية • تونس جويلية/ يوليو ١٩٧٦.
PP. 150-156.

DJUVARA( ): Cent projets de partage de la Turquie Paris,1914.

DRIAULT(Ed): La question d'Orient. Paris,1905.

DUGAT(G.): Histoire des Orientalistes du XIIe S. au XIXe S.2 tomes. Paris,1868-1870.

- E -

ECOCHARD(M.): "Le Palais Azem de Damas", Gazette des Beaux-Arts,XIII, Paris,1935,PP. 230-241.

ECOCHARD(M.)& LE COEUR: Les bains de Damas. Beyrouth,1942.

EISELEN(Frederick Carl): Sidon, a study in Oriental History. New York,1907.

ENCYCLOPEDIA BRITANNICA:20 vol. London.,1970.

ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM: 1ère édition. 4 vol.et supplément. Leide,1913-1938.
2ème édition, 4 vol. jusqu'à la lettre (K). Leide,1954-

EVLIYA TCHELEBI: Siyahet-Name. Istanbul,1732. traduite en anglais par "Joseph von Hammer"sous le titre de "Narrative of Travels in Europa, Asia and Africa in the 17th Century"I vol.in 2 parts. London, 1834,1846.

- F -

FARLEY( ): Two years in Syria. London,1859.

FEHER(G.): Recent Data of the Turkish Compaign of 1543. Budapest,1971.

FISHER(S.):- Social Forces in the Middle East. New York,1955.
- The Foreign Relations of Turkey 1481-1512. Urbana University,1948.

FINDLEY(Carter V.): Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire 1789-1922. Princeton University,1980

- G -

GAUDEFROY-DEMOMBYNES(M.): La Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes. Paris,1923.

GHORBAL(Shafik):The Beginnings of the Egyptian Question and the rise of Mehemed Ali. London, 1928.

GIBB(H.A.R.): See BOWEN(H.)

GIBBONS(H.A.):The Foundation of the Ottoman Empire. London, 1968.

GOODWIN( ): A History of Ottoman Architecture. London, 1971.

GRAMMONT(De): Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830). Paris, 1887.

GRAND LAROUSSE ENCYCLOPEDIQUE; 10 vol.,2 suppléments 1965-1975.

GREEN(P.): A Journey from Aleppo to Damascus. London, 1736.

- H -

HADDAD(R.): Syrian Christians in Muslim Society. Princeton, 1870.

HAMMER-PURGSTALL(Joseph von): Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, traduite de la langue allemande par J.J.Hellert, 18 vol. Paris, 1835-1843.

HASLUCK(F.W.): Christianity and Islam under the Sultans,2 vols. Oxford,1929.

HESS(Andrew):"The Ottoman Conquest of Egypt 1517 and the Beginnings of the sixteenth Century World War" in International Journal of Middle Eastern Studies,vol.4 (Janvier 1973) No 1 PP. 55-76 .

HEYD(Uriel):- The Jewish Communities of Istanbul in the XVIIth Century. Oriens,VI/1953.

HEYD(Uriel):- The Later Ottoman Empire in Rumelia and Anatolia. In "The Cambridge History of Islam",2 vols.édited by P.M.Holt, A.K.S.Lambton and B.Lewis. Cambridge, 1870. Vol. I,PP. 354-373

- Ottoman Documents on Palestine. Oxford, 1960.

HEYD(Wilhelm): Histoire du Commerce du Levant au Moyen-Age. Trad. de Furcy Raymond,2 vol. Leipzig, 1923.

HITTI(Philip): History of Syria. London, 1951.

HOLT(P.M.):- A Modern History of the Sudan. London,1961.

- Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922. London,1966.

HOSKINS( ): The Middle East Problem Area in World Politics. New York,1955.

HOURANI(A.H.)- Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939. London,1962.

- Minorities in the Arab World. Oxford University Press, 1947.

- Syria and Lebanon. London,1945.

HUREWITZ(J.C.): Diplomacy in the Near and Middle East. 2 vols. Princeton,1956.

HUTTEROTH(V.): See ABDUL-FATTAH(K.).

INALCIK(H.): The following Chapiters in the Cambridge History of Islam",2 vols.1970:
- "The Emergence of the Ottomans", PP. 263-291.
- "The Heyday and Decline of the Ottoman Empire", PP. 324-353.
- "The Rise of the Ottoman Empire", PP. 295-323.
- The Ottoman Decline and its Effects upon the Reaya. Rapport to the 2d International Congress of Studies of South-East Europe. Athens 1970.
- The Ottoman Empira, the Classical Age 1300-1600, translated by Norman Itzkowitz and Colin Imber. London, 1973.

INAN(D.Afet): Aperçu général sur l'histoire économique de l'Empire Turc Ottoman. Istanbul,1941.

INGRAMS(H.): The Yemen, Imams and Revolutions. London, 1963.

IORGA(Nicolas):
- Points de vue sur l'histoire du Commerce de l'Orient à l'époque Moderne. Paris,1925.
- Les rapports entre la Hollande et l'Empire Ottoman au XVIIe siècle et au commencement du XVIIIe siècle. Revue Historique du Sud-Est Européen,T. XIV. Bucarest,1937.PP. 283-293.

ISMAIL(Adel): Histoire du Liban du XVIIe siècle à nos jours.Vol.I:le Liban au temps de Fakhreddin II (1590-1633). Paris,1955.

- J -

JEAN(G.L.)& L.CHAMPENOIS: Le Royaume d'Arabie Séoudite Paris,1966.

JULIEN(Ch.André): Histoire de l'Afrique du Nord. 2 vol.Paris,1952.

- K -

KAMMERER(A.): La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité,4 vol.Le Caire,1925-1935.

KARAMURSEL(Ziya): Histoire des Finances de l'Empire Ottoman. Istanbul, 1933.

KHAN(S.A.): The Sociological and Educational Role of the Derwish Orders in the Ottoman Empire. Menasha,Wisconsin, 1954.
- The East-India Trade in the XVIIth Century. London,1923.

KHITROWO(B.de): Itinéraires russes en Orient.Trad. pour la Société de l'Orient Latin. Genève 1889.

KISSLING(H.J.):
- The Ottoman Empire to 1771. Leiden,1969.
- Ottoman State and its place in World History. London,1974.

KOPRULU(M. Fuad): Les origines de l'Empire Ottoman. Paris,1935.

KORTEPETER(Max): Ottoman Imperialism during the Reformation. London,1973.

KRAIM(Mustapha):
- La Tunisie précoloniale. Tunis,1971.
- Nationalisme et Syndicalisme en Tunisie (1918-1929). Tunis,1976.

KRAMERS( ): Historiography among the Osmanli Turks. Leiden,1954.

- L -

LA JONQUIERE(de): Histoire de l'Empire Ottoman depuis les origines jusq'au traité deBerlin,2vol. Paris, 1914.

LAMMENS(H.): La Syrie, précis historique,2 vol. Beyrouth,1921.

LANDAU(J.M.): Hebrew sources for the socio-economic History of the Ottoman Empire.Berlin,1977.

LAOUST(Henri): Les Gouverneurs de Damas sous les Mamelouks et les princes ottomans. Damas, 1952.

LATHAM(J.D.): "Contribution à l'étude des Immigrations andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie"dans:Recueil d'Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie, préparé par Miguel Epalza et Ramon Petit. Madrid, 1973.

LE TOURNEAU(Roger):"North Africa to the sixteenth Century"in the Cambridge History of Islam 2 vol.(op.cit.)1970.Vol. II PP. 211-237.

LEWIS(B.): - Notes and Documents from the Turkish Archives. Jerusalem, 1952.
- The Islamic Guilds. Economic History Review.T.VIII,No 1,November 1937.
- Some reflections on the decline of the Ottoman Empire.Studia Islamica,T.IX/1958
- The Ottoman Archives as a source for the History of the Arab Lands"JRAS 1951 PP. 139-155.
- The Ottoman Archives. Washington,1956.

LONGRIGG(H.Stephan): Four Centuries of Modern Iraq. Oxford,1925.

LUSIGNAN(S.): A History of the Revolt of Ali Bey.. London,1783.

LYBYER(Albert Howe):
- The Government of the Ottoman Empire in time of Suleiman the Magnificent. Cambridge,1913.

- The Ottoman Routes and the Routes of Oriental Trade. English Historical Review, 30,1915,PP. 577-588.

- M -

MAHJOUBI(Ali): L'établissement du Protectorat français en Tunisie. Tunis,1977.

MANDAVILLE(J.):"The Ottoman Province of Al-Hasa in the sixteenth and seventeenth Centuries"Journal of the American Oriental Society(J.A.O.S.) vol. 90 No 3,July-Sept.1970,PP. 486-512

MANS(Pierre Belon de): Les observations de plusieurs singularités et choses mémorables trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie et autres pays. Paris,1588.

MANTRAN(Robert):

- Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle. Paris,1962.
- Baghdad à l'époque ottomane. Arabica, 1962.
- Inventaire des documents d'archives turcs du Dar El-Bey Tunis.Paris, 1961.
-"North Africa in the sixteenth and seventeenth Centuries"in the Cambridge History of Islam,2 vol.Cambridge,1970. vol.II, PP. 238-265
- L'évolution des relations entre la Tunisie et l'Empire Ottoman du XVIe au XIXe siècles Cahiers de Tunisie,T.VII,Nos 26-27,2e & 3e trim. 1959,PP. 319-333

MANTRAN & SAUVAGET(Jean): Réglements fiscaux ottomans les provinces syriennes. Beyrouth,1951.

MARDIN(Sherif); The Genesis of Young Ottoman Thought. Princeton University Press,1962.

MARLOWE(John): The Persian Gulf in Twentieth Century. London,1962.

MARRIOTT(I.): The Eastern Question. London, 1951.

MARSIGLI(L.F.): L'Etat militaire de l'Empire Ottoman. La Hague, 1732.

MAUNDRELL(H.): Journey from Aleppo to Jerusalem et Easter 1697. Utrecht, 1706. Reprinted Beyrouth, 1963.

MASSON(Paul):

- Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIe siècle. Paris,1897.
- Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIIe siècle. Paris, 1911.
- Histoire des établissements et du commerce français dans l'Afrique Barbaresque 1560-1793. Paris,1903.

MILES(Colonel S.B.): The Countries and Tribes of the Persian Gulf. London,1919.

- N -

- O -

D'OHSSON(Mouradgea): Tableau général de l'Empire Ottoman,7 vol. Paris,1787-1824.

OLIVIER(G.A.): Voyage dans l'Empire Ottoman, l'Egypte et la Perse,fait par ordre du Gouvernement pendant les dix premières années de la République. 6 vol. Paris, 1804.

OTTER(J.): Voyage en Turquie et en Perse. 2 vol. Paris,1748.

ORHONLU(Cengiz): Habes Eyaleti(in turkish lan.) Istanbul, 1974.

- P -

PALLIS(Alexandre): In the Days of Janissaries. London,1951.

PARADIS(Venture de): Alger au XVIIIe siècle. Alger, 1898.

PENROSE(Boris): Travel and discovery in the Renaissance(1420-1620). Harvard University, Massachussetts, 1952.

POCOCKE(R.): A Description of the East and some othe Countries. 2 vol. London,1943-1945.

- R -

RAFEQ(A.K.): The Province of Damascus 1723-1783. Beirut, 1966.

RAU(V.): Les Portugais et la route terrestre des Indes à la Méditerranée au XVIe et XVIIe siècles. Paris,1970.

RAYMOND(André):

- Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe siècle. 2 tomes.Damas,1973-1974
- "Ottoman Conquest and the Development of the Great Arab Towns"In International Journal of Turkish Studies,1-1,1980.
- Les fontaines publiques(Sabil) du Caire à l'époque ottomane(1517-1798),Extrait des Annales Islamologiques,T. XV/1979.
- Signes urbains et étude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane. BEO XXVII/1974.
- Les documents du Mahkame comme source pour l'histoire économique et sociale de l'Egypte au XVIIIe siècle. Extrait du Colloque International sur les Arabes par leurs archives XVIe-XXe siècle. Organisé par Jacques Berque et Dominique Chevalier. C.N.R.S.,9-11 avril 1974.
- North Africa in the precolonial period. The Camb.Hist.,2 vol. Cambridge,1970. vol.II PP. 266-298

RICAUT(Sir Paul): Histoire de l'Empire Ottoman, traduit de l'anglais. 6 vol. La Hague,1709.

ROGER(Eugène): La Terre Sainte. Paris, 1646.

ROSS(E.Denison):"The Portuguese in India and Arabia 1517-1538"J.A.S.,Part I/1922.

RUSSEL(Alexandre): The Natural History of Aleppo. London,1974.

- S -

SALIBI(K.): The Modern History of the Lebanon. London,1865.

SANDERSON(Jhon): The travels of Jhon Sanderson in the Levant. Edited by Sir W.Foster. London,1615.

SANDYS(George): Sandys Travels. London,1615.

SAUVAGET(Jean):

- Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIXe siècle. Paris,1941.
- Esquisse d'une histoire de la ville de de Damas. Revue des Etudes Islamiques IV/1934. PP. 421-480
- Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman. Paris,1943.

- Les Monuments historiques de Damas. Beyrouth, 1932.
- Inventaire des monuments musulmans de la ville d'Alep. Revue des Etudes Islamiques,1931, PP. 55-114

SAUVAGET(J.)& R.MANTRAN: voir MANTRAN(R.).

SAUVAIRE(H.):
- Description de Damas. Paris,1895.
- Histoire de Jérusalem et d'Hebron. Paris,1876.

SAVARY(Jacques): Le parfait négociant.1ère éd. Paris,1675. 2d éd. 1673. 3e éd. 1734

SERJEANT(R.B.): The Portuguese of the South Arabian Coast. Oxford,1963.

SHAW(Stanford J.):
- The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt 1517-1798. Princeton, 1962.
- Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution. Harvard,1964.
- The Budget of Ottoman Egypt. La Hague, Paris, 1962.

SHAW(Thomas): Travels or observations relating to several parts of Barbary and the Levant. Oxford,1738.

SPULER(B.): "The Disintegration of the Caliphate in the East" The Cambridge History of Islam, 2 vol. Cambridge,1970. Vol.I, PP. 143-174.

STRIPLING(G.W.F.): The Ottoman Turks and the Arabs. Urbana, 1942.

SURMEYAN(Mg.A.): La vie et la culture arméniennes à Alep au XVIIe siècle. Paris,1934.

- T -

TEMIMI(Abdul-Jalil):

- Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmad Bey (1830-1837). Tunis,1978.
- Recherches et documents d'histoire maghrébine, l'Algérie, la Tunisie et la Tripolitaine (1816-1871). 2ème éd. remaniée. Tunis, 1980.
- Sommaire des registres Arabes et Turcs d'Alger. Tunis, 1979.

TESTA(de): Recueil des traités de la Porte Ottomane avec les puissances étrangères. 10 vols. Paris, 1864-1901.

THEVENOT(Jean de): Voyages de Monsieur Thévenot en Europe, Asie et Afrique. 5 vols. Amesterdam, 1727.

TOYNBEE(A.): A Study of History. 3 vols. Oxford University Press,1945.

TRESSE(R.): Le pélerinage syrien aux villes saintes de l'Islam. Paris,1937.

TUCCI(Ugo): Lettres d'un marchand vénitien. Paris, 1957.

TURAN(Osman): "Anatolia in the Period of the Seljuks and the Beyliks".Cambridge History of Islam, 1970. vol.II, PP. 231-262.

- V -

VOLNEY(C.F.)& CHASSEBOEUF(Comte de): Voyage en Egypte et en Syrie. Ed. J. Gaulmier. Paris, 1959.

- W -

WEULERSSE(J.): Les paysans de la Syrie. Paris, 1946.

WIET(G.): Chronique d'Egypte 1798-1804. Le Caire, 1950.

WITTEK(P.): The Rise of the Ottoman Empire. London, 1938.

WOOD(Alfred C.A.): A History of the Levant Company. London, 1935.

الفهرس الأبجدي

ـ ا ـ

ـ آخي (أخية) : ٢٣، ٢٤، ٥٨، ٢٠٦، ٢١١.
ـ آزوف : ١٠٧
ـ الآستانة : انظر (استانبول)
ـ آسيا : ١٣، ١٤، ١٦، ١٨، ٥٤ـ٥٦، ٥٩، ٦٥، ٧٠، ٧٧، ٧٨، ٨٠، ٨٩، ٩٤، ٩٥، ١٠٦، ١١٥، ١٨٦، ٢٩٦، ٣١٦، ٣٢٠.
ـ آسيا الصغرى : ١٣، ١٤، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٦، ٢٧، ٣٥، ٤٠، ٥٥ ـ ٥٨، ٦١، ٦٩، ١٥٩، ١٧٨.
ـ آشوريون : ١٩٧.
ـ الأطلس (جبال) : ٤٥.
ـ آغا : ١٢٠، ١٢٩، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣.
ـ آفينيون (في فرنسا) : ٦١.
ـ آق قوينلو : (انظر: القطيع الابيض)
ـ آل سعود : (انظر: سعود)
ـ آل الشيباني : (انظر: شيباني)
ـ آل عساف : (انظر: عساف)
ـ آل العظم : (انظر: العظم)
ـ آل كثير : (انظر: كثير)
ـ آل معن : (انظر: معن)
ـ آل هبسبورغ : (انظر: هبسبورغ)
ـ الآلاي بك : ١٢٧، ١٢٨.
ـ آمد (ديار بكر) : ٢٧.
ـ الاباضية (الخوارج) : ١٤٧، ١٤٨.
ـ ابراهيم الاول (السلطان العثماني) : ١٠٣، ١٠٤، ١٢٢.
ـ ابراهيم باشا (وزير سليمان القانوني) : ٩٨، ١٠٢، ١٥١.
ـ ابراهيم باشا (ابن محمد علي) : ٢٦٤، ٢٦٥ـ٢٦٨، ٢٧٤.
ـ ابراهيم بك : ١٥٤، ٢٤٩.
ـ ابراهيم بن محمد الجويني : ١٩.
ـ ابراهيم الحلبي (الفقيه) : ١١٢.
ـ ابراهيم اليازجي : ٢٢٩
ـ ابن ابي اصيبعة : ٣٩
ـ ابن ابي السرور البكري الصديقي (انظر: محمد بن محمد)
ـ ابن اياس : ٨٣، ٩٠، ٩٥.
ـ ابن بطوطة : ٢٤، ٢٥.
ـ ابن تومرت : ٤١، ٤٤.
ـ ابن تيمية : ٤٠، ١٤٤، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٤.
ـ ابن حجة الحموي : ٤٠.
ـ ابن حجر العسقلاني : ١٩.
ـ ابن خلدون : ١٧، ٢٨، ٤٠، ٤٤، ٤٦
ـ ابن خلكان : ٣٩.
ـ ابن شاكر الكتبي : ٣٩.
ـ ابن شاهين : ٣٧

ـ ابن طولون : ٩٠
ـ ابن العديم الحلبي : ٣٩
ـ ابن الفرات : ٣٦
ـ ابن فضل الله العمري : ٤٠
ـ ابن قاضي شهبة : ٣٩
ـ ابن قيم الجوزية : ٤٠
ـ ابن كثير : ٣٩
ـ ابن واصل الحموى : ٣٠
ـ ابو بكر الشنواني : ٢١٣
ـ ابو الحسن البكري: ٥
ـ ابو الحسن علي المريني: ٤٣
ـ ابو حنيفة النعمان : ١٨٧
ـ ابو زكريا الحفصي : ٤١
ـ ابو زكريا محي الدين النويري : ٤٠
ـ ابو السعود المفتي : ٩٥
ـ ابو سعيد (السلطان التيموري) : ٢٠
ـ ابو سعيد (سلالة عمانية) : ١٤٩
ـ ابو العباس الحفصي : ٤٢
ـ ابو عمرو عثمان الحفصي: ٤٢
ـ ابو عنان المريني : ٤٣، ٤٤
ـ ابو فارس الحفصي : ٤٢
ـ ابو الفداء : ٢٨، ٣٩
ـ ابو القاسم سعد الله (مؤرخ معاصر): ٢٠٥، ٢٦١
ـ ابو نمي (محمد): ٣٠، ٩٣
ـ الابيّض : ٢٨٧
ـ اتابك ـ اتابكية : ٣٧
ـ أتاوة : ١٥٧، ٢٤٧، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٧٨
ـ الاتحاد الالماني : ٢٤٥
ـ الاتحاد السوفييتي : ٣١٩
ـ اتحاديون (جماعة الاتحاد والترقي): ٣٠٦، ٣٠٧
ـ الاتراك : (انظر: الترك)
ـ اتفاقية الحكم الثنائي المشترك : ٢٨٨
ـ اتفاقية سايكس بيكو : ٢٩٩
ـ اتفاقية المضائق : ٢٧١
ـ الاتفاق الودى الانكليزى الفرنسي : ٢٩٢
ـ الاجتهاد : ١١٢، ١١٣
ـ الاحتفال : ٢٠٣
ـ الاحتكار : ٣٧، ٣٨، ١٣٨، ١٦١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٩، ٢٠٠
ـ الاحساء : ٧، ٨٦، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٤٤، ٢٣١، ٣١٥
ـ احمد الاول (السلطان): ١٠٣، ١٠٤، ١١٨
ـ احمد باشا (الخائن والي مصر): ١٥١، ٢٣٥
ـ احمد بن سعيد ؒ ١٤٩
ـ احمد بن ماجد (شهاب الدين) : ٦
ـ احمد بن مراد الثاني : ٦٥
ـ احمد الثاني : ١٠٣، ١٠٤
ـ احمد الثالث: ٩٥، ١٠٤، ١٠٥
ـ احمد بساي: ٢٧٨
ـ احمد السعدي المنصور (المغرب الاقصى) : ١٦٥، ١٦٦، ١٧١، ٢٠٩، ٢١٨
ـ احمد عرابي : ٢٣١، ٢٨٥ — ٢٨٧

ـ احمد غـران (المجاهد) ٧، ٨٦
ـ احمد فوزي ٢٦٨
ـ احمد القرمنلي (ليبيا) ١٥٥، ١٧٨
ـ الاحمر (بنو) : انظر: (نصر)
ـ الاحمر (بحر) (انظر: بحـر)
ـ اخـوة (اخوات) ٥٧، ٥٨
ـ ادرنة : ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٩، ٧٦، ٢١٥
ـ ادرياتيك : (انظر بحر)
ـ الادريسية (السلالة الادريسيـة الحسينية) : ٣٠، ١٤٢
ـ ادهم بالي (الشيخ) ٥٧
ـ اذاعـة : ٣١٧، ٣١٨
ـ اذربيجـان : ١٥، ١٨، ٢٢، ١٠٧
ـ الاراضي المنخفضة : انظر (هولاندة)
ـ اراغون (مملكة) : ٣٠، ٤٤، ٤٩
ـ ارتـين (امارة) : ٢٧
ـ ارتيريـا : (انظر اريتريـا)
ـ ارثوذكس : ٦٦، ٦٩، ١٩٥ ـ ١١٨، ٢٠٢، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٧٣
ـ ارجمند كوران (مؤرخ تركي معاصر) : ٢٦٠
ـ الأرخبيـل (جزر) : ٦٩
ـ أردبيـل : ٧٥
ـ الاردن : ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٠
ـ ارزنجان : ٥٦، ٧٠
ـ أرزيـلا : ٤٧، ١٦٣، ١٦٥
ـ أرساسية (سلالة فارسية) : ٨٠
ـ ارسالية : ١٥١، ١٥٢
ـ ارستقراطية : ٧٢، ١١٦، ١٩٢
ـ ارطغـرل : ٥٦
ـ ارض اميرية : ١٧٢، ١٧٣
ـ ارض مشاعة : ١٧٣
ـ ارض ملك : ١٧٢
ـ ارض مـوات : ١٧٣
ـ ارمينيا ـ ارمن : ٢٦، ٢٧، ٣١، ١٨٩، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٤، ٢٣٨
ـ ارمينيا الصغرى : ١٨، ٢٢، ٢٦، ٢٩
ـ ارناؤوط : (انظر البـان)
ـ اريتريـا (ارتيريا) : ٨٦، ١٣٠، ٢٨٨، ٣١٧
ـ ازدمر باشا (والي اليمن) : ١٤٥
ـ ازمـير : ٢٨٣
ـ ازنيـق (نيقيـة) : ٢٥، ٥٨
ـ الازهـر : انظر جامع الازهر
ـ ازيمـور : ١٦٤
ـ اسبانيا ـ اسبان : ٣، ٤، ٨، ٩، ١٢، ١٤، ٣٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٧٤، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٩٥، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٦٠ـ١٦٢، ١٦٤ـ١٦٧، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٩٠ـ٢٩٥
ـ استاذ (عند المماليك) : ٣٢

ـ استامبول ـ استانبول (القسطنطينية) : ٤، ٦٩، ٧٠، ٧٦، ٧٩، ٨٥، ٨٩، ٩٣ـ ٩٥، ٩٨، ١١٧، ١٢٢، ١٢٩، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥، ١٦١، ١٧٩، ١٨٤ـ ١٨٨، ١٩١، ١٩٤ـ ١٩٦، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٣٩، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٣، ٣٠٧
ـ استراخان : ١٠٦
ـ الاسترداد (حركة ،حرب) : ٦، ١٤، ٤٣، ٤٨
ـ الاستغراب (التأغرب) : ٢٢٥، ٢٢٦
ـ اسد رستم (مؤرخ معاصر) ٩٧
ـ اسرائيل ٣١٧، ٣١٩
ـ اسعد باشا العظم ١٣٧، ٢١٨
ـ اسقف ١٩٥، ١٩٨
ـ اسكندر بك (الالباني) ٧٠
ـ اسكندر المقدوني ٨٣، ٢٤٠
ـ الاسكندرية : ٣٧، ٩٣، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٦، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٦
ـ الاسكندرون ولواء اسكندرون : ٢٦٥، ٣١٢
ـ الاسلامي ـ المسلمون : في كل صفحة تقريبا .
ـ اسماعيل (امام اليمن) : ١٤٦
ـ اسماعيل (الخديوي) : ٢٨٤، ٢٨٧
ـ اسماعيل شاه الصفوي : ٧٢، ٧٥، ٧٩
ـ اسماعيل (مولاي) : ١٦٦
ـ الاسماعيلية (الحشاشون) : ٢٩
ـ اشبيلية : ٤٨
ـ اشتراكي ـ اشتراكية : ٢٢٧، ٢٤٦، ٣١٥، ٣١٦، ٣١٨، ٣١٩
ـ الاشتراكية العلمية : ٢٤٦
ـ الاشراف (الشريف ـ الشرفاء) : ٣٠، ٣٧، ٨٥، ١٣١، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٩٣، ١٩٤، ٢٤٤، ٢٦٤، ٢٨٧، ٢٩٠
ـ الاشراف (الحسنيون) ٣٠، ١٤٢
ـ الاشراف العلويون (المغرب الاقصى): ١٦٦، ١٦٧، ٢٤٤
ـ الاشرف برسباي (سلطان مملوكي): ٣٢، ٣٧
ـ الاشرف خليل (سلطان مملوكي): ٣١
ـ الاشنان (نبات وقلوي) : ١٧٦
ـ الاصلاح (حركات في القرن التاسع عشر) ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٦٧، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٠ـ ٢٩٣ ،الاصلاح العسكري (٣٠١ـ٣٠٢) ٣٠٣، ٣٠٤، ٣١٩
ـ الاصلاح الديني الاوربي : ٩٩

ـ اضنه : ٢٦٦ ، ٢٦٧
ـ اطرابزنـدة : (انظر طرابزون)
ـ اعيـان : ٣٤ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ، ٣٠٥
ـ اغاديـر : ٢٩٤
ـ اغريـق : (انظر يونـان)
ـ افريقيا ـ افريقي : ٦ ، ٨ ، ١٣ ، ٣٥ ، ٤١ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ـ ١٤٩ ، ١٦١ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢١٣ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠
ـ افشـر (قبيلة ايرانية) : ١٤٨
ـ افغـانستان ـ افغان : ١٩ ، ١٣٥ ، ١٤٨ ، ٢٧٤
ـ الافلاطونية (الفلسفة) : ٢١٠
ـ الافلاق (فلاشيا) : ٦٤ ، ٢٧٣
ـ الافلوطينية (الفلسفة) : ٢١٠
ـ افيـون قره حصار : ٢٢
ـ الاقتصاد ـ الاقتصادية : ٣ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤١ ـ ٤٣ ، ٤٧ ، ٥٨ ـ ٦٠ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ـ ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ـ ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ـ ٢٤٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٦ ـ ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢١
ـ اقجـة (اسبير . نقد عثماني) : ٥٩
ـ اقجـورا (يوسف) : ٣٠٧
ـ اقطـاع ـ عـي : ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٨١ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١٢٥ ـ ١٣١ ، ١٣٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٩٢ ، ٢١٩ ، ٢٧٥ ، ٣٠٣ ، ٣١٢
ـ أكـرا (مؤتمر) : ٣٢٠
ـ أكـراد : ٢٨ ، ٣٢ ، ٧٨ ، ٣٠٥
ـ اكسماوث : ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٨
ـ البانيا ـ البان : ٧٠ ، ١٣٨ ، ٢٣٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧
ـ البستان : ٢٧ ، ٦١ ، ٧٢ ، ٧٤
ـ البوكـيرك : ٢٩٦
ـ التـزام (الضرائب) ـ ملتزم : ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٣٠٣
ـ الالـزاس : ٢٨١
ـ الالـفي (زعـيم مملوكي) : ٢٥٢
ـ المانيا ـ المان : ٦١ ، ٦٤ ، ١١٠ ، ١٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢
ـ اليزابيـت (ملكة انكلترة) : ٢٤١
ـ امـارة ثغـر ٢١ ، ٢٣
ـ امارة الحج وامیرها : ١٥٢ ، ١٥٣
ـ امارة غزو (جـهاد) ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ،

٢٥، ٥٥
ـ الامازيغ (سكان المغرب الاول): ١٢، ١٣، ٤٥
ـ الاماكن الاسلامية المقدسة : ٣٠، ٨٢، ٨٣، ٩٣، ٩٤، ١٤٠، ١٨٦، ١٨٧، ٣١٧
ـ الاماكن المسيحية المقدسة : ٢٧٣، ٣١٧
ـ امالغي : ١٤
ـ امام ـ امامة ـ أئمة ١٠٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٩٣، ٢١٠، ٢٣١، ٢٨٧، ٣٠٠
ـ الامام : (انظر رشاد)
ـ الامان : (انظر عهد الامان)
ـ امبابة : ٢٤٩
ـ امتياز ـ امتيازات : ٩٩، ١٠٠، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٠ـ ٢٩٢، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٩
ـ أم درمان : ٢٨٨
ـ امريكا : ٢، ٧، ٨٢، ١٥١، ١٦٩، ١٧٦، ٣١٧
ـ امريكا الجنوبية : ٢١٩
ـ الاموي ـ بنو امية : ٧٩، ٨٤، ١٤٧، ٢٢٨
ـ اميان (صلح) : ٢٥٢
ـ امين الشاويشية : ١٢٨
ـ الاناضول : ١٧، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٥٦، ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧٣ ٧٩، ٨٤، ١٠٢، ١٠٦، ١١٠، ١٢٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٧، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٨٠، ١٨٤، ١٨٧، ١٩١، ١٩٥، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠
ـ انتداب : ٢٣١، ٣١٢
ـ انجرون (السراى الداخلية): ١١٧
ـ اندرونيك كومين : ٧٢
ـ الاندلس الاندلسيون : ٤٦، ٤٨، ١٦٥، ١٧٦، ١٨٢، ٢١٥
ـ اندونيسيا : ١٤٢، ١٤٧، ٣٢٠
ـ انطاكية : ١٩٦، ١٩٧
ـ انطالية (اضالية): ٢٢، ١٨٨
ـ انطونيوس : (انظر جورج انطونيوس)
ـ انقرة : ١٧، ٦٠، ٦١، ٦٣
ـ انقلاب صناعي : ٢٤٥
ـ الانكروس (الهنغار) : ٦٤ (انظر هنغاريا)
ـ انكشاري ـ انكشارية : ٨، ٥٩، ٦٤، ٧٣، ٧٦، ٨٠، ٨٤، ١٠٣، ١٠٦، ١١٥، ١٢٠ـ ١٢٢، ١٢٥، ١٢٩، ١٣١ـ ١٣٣، ١٣٧، ١٣٩، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤ـ ٢٤٨، ٢٦٢، ٣٠٢
ـ انكلترة ـ انكليز : ٢١، ٧٩، ٩٥، ١٠٠، ١٠٦، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩

١٥٥، ١٦٣–١٦٧، ١٧٠، ١٧٦،
١٨٤، ١٨٦، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٣،
٢٣١، ٢٣٨، ٢٤٩، ٢٥٢–٢٥٦،
٢٦٠، ٢٦٣، ٢٧٤، ٢٧٨–٢٨١،
٢٨٣–٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٣–٢٩٦،
٣٠٠، ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٥، ٣١٦
ـ انور (من جمعية الاتحاد والترقي): ٣٠٦
ـ الاهرام (مصر): ٢٤٩
ـ اهل الذمة: (انظر الذمة)
ـ اوتـرار: ١٧
ـ اوترانتـو: ٧٣
ـ اوترخت (معاهدة): ٢٤٦
ـ اوجاق (الانكشارية): ١٥٧، ١٥٩، ١٨٠
ـ اوربـان الهنغاري: ٦٦
ـ اوراق (مجلة): ٢٠٣
ـ اوربـا ـ اوربي: ١–٤، ٦، ٨، ٩، ١٤، ١٦، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠–٣٢، ٣٥–٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٦–٤٨، ٥٤، ٥٥، ٥٩–٦١، ٦٣–٦٦، ٧٠، ٧٢، ٧٤، ٧٦–٧٨، ٨٠، ٨٤، ٨٧، ٩٨–١٠٠، ١٠٣، ١٠٥–١٠٧، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٠، ١٦١، ١٦٣–١٦٥، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٥–١٩٠، ١٩٢، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٠–٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٤–٢١٦، ٢١٨، ٢٢٢–٢٢٩، ٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٨–٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦٣–٢٧٢، ٢٧٤–٢٨٠، ٢٨٣–٢٨٧، ٢٩٠–٢٩٥، ٢٩٧، ٣٠٠–٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦–٣٠٩، ٣١٣، ٣١٥–٣١٧
ـ اورخـان: ٥٥، ٥٨، ٥٩
ـ اورفـه: ٩٠، ١٣٠، ١٣٥
ـ اورميا (بحيرة): ١٨
ـ اوزون حسن (حسن الطويل): ٢٠، ٢٧، ٧٠، ٧٢
ـ اوزبـك (قبائل): ٢١
ـ اوشـي (معاهدة) (في سويسرة): ٢٨٩
ـ اوغوزخـان: ٥٦، ٥٧
ـ اوكـدي: ١٥
ـ اولاد سيدي شيخ (قبيلة جزائرية): ٢٣١
ـ اياصوفيا (كنيسة وجامع وساحة): ٦٩، ٩٤، ٢١٦، ٣٠٦
ـ ايالـه (ولاية): ١١٩، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٧، ١٣٢، ٢١٧
ـ ايبريا (شبه جزيرة): ٤٩ (انظر اسبانيا والبرتغال ايضاً)
ـ ايديـن (امارة): ٢٦، ٦٠
ـ ايـران: ٧، ٨، ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٤٠، ٧٣، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٠، ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩، ٣٢٠
ـ ايرلانده: ٢٤٨
ـ ايزابيـلا (ملكة قشتالـة): ٤٩، ٩٨

ـ أيزنهاور (مشروع) : ٣٢٠
ـ ايطاليا ـ الايطاليون : ٩، ١٤، ٢٥، ٣٠، ٣٧، ٤٧، ٦٠، ٦٩، ٧٢ـ ٧٤، ٨١ـ٨٢، ٨٤، ١٠٠، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٩، ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤٣، ٢٧٣، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٨ـ٢٩٠، ٢٩٢، ٣٠٨
ـ ايفان الثالث (قيصر روسيا) : ٢٤١
ـ ايلخان : ١٨، ١٩، ٣٠، (الدولة الايلخانية) ، ٣٥
ـ الايوبيون ـ بنو ايوب ـ الدولة الايوبية ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٨، ٣٩، ١١٥، ١٢٦، ١٨٤
ـ الايونية (الجزر) : ٢٥٤

ـ ب ـ

ـ البابا : ٣٠، ٦٠، ٦١، ٦٤، ٦٦، ٧٤، ٨١، ٩٩، ١٠٥، ١٠٦، ١٥٩، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢١٥، ٢٤٠
ـ بابرومانوس (القسطنطينية) : ٦٧،
ـ باب زويلة (القاهرة) : ٩٣
ـ باب السعادة : ١١٧
ـ الباب العالي : ١١٧، ١٤٥، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣، ١٩٥، ١٩٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٦
ـ باب العندب : ٦، ٢٩٧
ـ بابر التيموري : ٢١
ـ بابرت (معركة) : ٢٧، ٧٠
ـ البادیشاه (لقب السلطان العثماني) : ١١٦
ـ بارد و (معاهدة) : ٢٨١
ـ بارود : ١٥٢، ١٨٢
ـ البارون دو توت : ٢٤٨
ـ باريس : ٢٤٥، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٣، ٣٠٥
ـ باريس (معاهدة) عام ١٧٦٣ : ٢٤٥
ـ باريس (معاهدة) عام ١٨٥٦ : ٢٧٣، ٢٧٥
ـ باريس (المؤتمر العربي) ١٩١٣ : ٢٨٣، ٣٠٣
ـ باشا ـ باشوية : ١٢٤، ١٢٧ـ ١٢٩، ١٤٢، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ٢٦٩، ٢٧٥
ـ باكستان : ١٤٩، ٣٢٠
ـ بالمرستون : ٢٦٩، ٢٧١
ـ باليق شهر : ٢٥
ـ باليولوغ (اسرة) : ٢٦، ٢٤١
ـ باندونغ (مؤتمر) : ٣٢٠
ـ الباي : ١٦٢، ١٦٣، ٢٢٠، ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٧٨ـ٢٨٠، ٢٨٢
ـ البترول : ٣١٧
ـ البحر الاحمر : ٦، ٧، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٨١، ٨٥ـ٨٧، ١٠٢، ١٤٢، ١٥٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ٢٤٧، ٢٤٨،

٢٦٤، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٨، ٢٩٩
ـ بحر الادرياتيك : ١٦، ٧٣
ـ البحر الاسود : ٢٢، ٢٨، ٣٢، ٦٤، ٧٠، ٧٢، ١٠٦، ١١٠، ١٨٧، ١٨٨، ٢٤١، ٢٦٦، ٢٧٣
ـ البحر العربي : ٨٢، ٢٢٢
ـ بحر قزوين : ١٨، ٢٨، ١٠٦
ـ البحر المتوسط: ٨، ١٤، ٣٥، ٣٦، ٤٢، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٩، ٨٠—٨٦، ٩٨—١٠٢، ١٠٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢—٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨٤، ٢٩١، ٢٩٩
ـ بحر ايجه : ٦٩
ـ البحرين (جزر): ١٠٣، ١٤٨، ٢٩٦—٢٩٨
ـ بحيرة وان : ٢٧، ٥٦
ـ البحيرة (كشوفية في مصر) : ٩٢
ـ بخارى : ١٥
ـ بدر الدين بن قاضي سماونة : ٦٢
ـ بدر الدين العيني : ٣٩
ـ البدو: ١٣، ٤٣، ٤٥، ٧٥، ٩٢، ٩٣، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ١٨٧، ٢٠٣، ٢٧٢، ٢٨٠
ـ البديع (قصر) : ٢١٨
ـ برأة (وثيقة حماية) : ٢٠٢
ـ براوة : ٦
ـ البربرية : ١٢
ـ الشركة البربرية : ١٨٤
ـ بربرستان : ١٠٢
ـ البرتغال : ٦، ٩، ٣٨، ٤٤، ٤٧، ٨١—٨٩، ٩٤، ٩٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٨٣، ٢٠٠، ٢٥٤، ٢٩٠، ٢٩٦
ـ برزة : ٩١
ـ برسباي: (انظر الاشرف برسباى)
ـ برقة : ١٥٥، ١٥٧، ٢٩٢
ـ برقوق (السلطان المملوكي): ٣١، ٨٩
ـ بركات (سلالة من اشراف الحجاز): ١٤٢
ـ بركات محمد : ٩٣
ـ برليس: ١٤٧
ـ برلين : ٢٨١
ـ برهان الدين (دولة القاضي) : ٢٧
ـ بروتستان : ٩٩، ١٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٣٨، ٢٧٨
ـ البروڤنس ـ البروڤنسيون : ٤٧
ـ البروكار (قماش) : ١٨١
ـ بروكمان : ٢١٦
ـ برومير (انقلاب): ٢٤٩

ـ بريطانيا : (انظر انكلترة)
ـ بريم (جزيرة) : ٢٩٧، ٢٩٨
ـ بسمارك : ٢٨١
ـ بشناق (سكان البوسنة) ١٣٨
ـ بشير الثاني الشهابي : ١٣٩، ١٩٨، ٢٦٥، ٢٧٠
ـ البصرة : ٣٧، ١٠٢، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٤٤، ١٤٩، ١٨٤، ٢٠٨، ٢٩٦، ٣٠٣
ـ البصل : ١٧٥
ـ بطرس الاكبر (قيصر روسيا) : ١١٠، ٢٤١
ـ بطرس البستاني : ٢٢٩، ٢٧٦
ـ بطرك ، بطريرك : ٦٩، ١٩٥ ـ ١٩٨، ٢٠٠
ـ بعلبك : ١٧
ـ بغداد : ١٢، ١٨، ٣٠، ٣٥، ٤٢، ٥٤، ٥٦، ١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٢٥، ١٢٩ـ ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٧، ٢٠٨، ٣٠٠، ٣٠٣
ـ البغدان (مولدافيا) : ٢٧٣
ـ البقاع : ٩١، ١٣٥، ١٣٩
ـ البكتاشية (طريقة صوفية) : ٦٣، ٢١١
ـ بكر الصباشي : ١٣٣
ـ البكري (انظر ابو الحسن ، ومحمد بن محمد)
ـ بكلربكي (امير الامراء) ـ بكلربكية : ١٠٠، ١٠٢، ١٠٥، ١٣٠، ١٢٤، ١٢٦ـ ١٢٩، ١٣١، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢
ـ بكين (خان باليق) : ١٨
ـ بلاد الرافدين : ٢٦٩ . وانظر (العراق)
ـ بلاد الروم : (انظر الاناضول والعثمانية)
ـ بلاد الشام ١ـ٣، ٧، ١٤، ١٥، ١٧، ١٦، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٤، ٣٦، ٣٨ـ ٤٠، ٥٦، ٥٨، ٦١، ٧٤، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٨٧، ٩١، ٩٣، ٩٨، ١٢٥، ١٢٩ـ ١٣١، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٨ـ ١٤٤، ١٥١، ١٥٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨١ـ ١٩١، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٨ـ ٢١٠، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٧ـ ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٦٢، ٢٦٤ـ ٢٧٢، ٢٧٤ـ ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١٢
ـ البلاد العربية : (في كل صفحة تقريبا)
ـ بلاد فارس ٢٦ : (انظر ايران ايضا)
ـ بلاد ما وراء النهر : ١٥، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٦، ٢٧، ٣٨، ٧٥، ٧٧
ـ البلح : ١٧٥
ـ البلغار ـ بلغاريا : ٦٠، ٢٣٨، ٢٤٢، ٣٠٨
ـ بلغراد : ٩٩
ـ بلغور (وعد) : ٢٩٩، ٣٠٠

ـ البلقان :٢٦، ٥٩، ٦٠ـ٦٤، ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٨٤، ٨٧، ٩٤، ١٠٧، ١١١، ١١٥، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٤٢، ٣٠٦
ـ بليني : (انظر جنتلي)
ـ البن : ١٤٦، ١٧٦، ١٨٦، ٢٥١
ـ بند رعباس: ١٤٩، ٢٩٦
ـ البندقية : ٦، ١٤، ٢٥، ٢٧، ٣٦ـ٣٨، ٦٦، ٦٧، ٧٠، ٧٤، ٧٥، ٨١، ٨٤، ١٠٥ـ١٠٧، ١١٠، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٦، ١٨١، ١٨٤، ٢٤١
ـ بنغازي : ٢٨٩
ـ بنو أيوب : (انظر: الايوبيون)
ـ بنو ربيعة: ١٣٥
ـ بنو سعد : (انظر:السعديون)
ـ بنو سيفا : (انظر:سيفا)
ـ بنو عبد الواد: (انظر:الزيانيه)
ـ بنو مرين : (انظر:مرين)
ـ بنو نبهان : (انظر: نبهان)
ـ بنو نصر : (انظر: نصر)
ـ بنو هاشم : (انظر: هاشميون)
ـ بنو وطاس: (انظر: وطاس)
ـ بهزاد : ٢١
ـ بواتيه : ٢٤٠
ـ بوخريص(البكري): ٢٠٠
ـ بودا : ٩٥، ٩٩، ١٠٠
ـ البورجوازية : ٤٦، ٨١، ١٨٨، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٢٩، ٢٤٥، ٣١٤، ٣١٧، ٣١٩
ـ بورصة ، بروصة : ٢٥، ٥٨، ٥٩، ٧٣، ٧٦، ٧٨، ١٨٤، ١٨٧، ٢٠٧، ٢١٥
ـ بورمون : ٢٥٨، ٢٧٨
ـ بورنيئو : ١٤٧
ـ البوروقراطية : ٧٨، ١١٤، ١٢٣
ـ البوريني : ٢٢٩
ـ البوسفور : ٦٦، ٦٧، ٢٦٦
ـ البوسنة : ٦٤ـ ٦٩
ـ بوشناق (يهود من الجزائر): ٢٠٠
ـ بوعمامة (ثائر جزائري) : ٢٦١
ـ بوغوص بك: ٢٧٠
ـ بوفور : (انظر د وبوفور)
ـ بوكمش : ١٥٧
ـ بولونيا: ٦١، ٦٤، ٢٤١
ـ بومباي: ٨٢
ـ بونابرت: (انظر نابليون بونابرت)
ـ بونتنياك(سلطنة) : ١٤٧
ـ بيازيد الاول : ١٧، ٥٥، ٦٠ـ٦٤، ٧٢، ٧٦
ـ بيازيد الثاني : ٦٢، ٧٣ـ٧٦، ٨٣، ٨٩
ـ بيبرس (الظاهر): ١٦، ١٧، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٩، ٤٢
ـ بيزنطة ـ البيزنطي ـ الدولة البيزنطية: ١٣، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣١، ٥٧ـ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ١١٣، ١١٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢١٦، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢
ـ بيسان : ١٦

ـ بيك (بك) : ٢٢، ٢٣، ١١٨، ١٢٤ـ ١٢٧، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ١٨٦، ٢٠٧، ٢٧٠

ـ بيكو (السياسي الفرنسي) : ٢٩٩

ـ البيكوية ـ البيلكية : ٢٢، ١٦٢

ـ بيلان (مصر) : ٢٦٥

ـ البيه مون : ٢٧٣

ـ ت ـ

ـ التبر : ٤٧، ٢٤٨

ـ تبريز : ١٨، ١٩، ٢٠، ٢٧، ٧١ـ ٧٩، ١٠٢

ـ التبشير : ٤٧، ١٩٩، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٧٢، ٢٧٧

ـ التبغ : ١٤٤، ١٧٦

ـ التتر (المغول) : ١٥، ٣١، ٤١، ٥٤، ٥٥، ٧٢، ٨٧، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٢٨

ـ تتريك : ٩، ٢٠١، ٣٠٧، ٣٠٩

ـ التجارة ـ تاجر : ٣، ١٣، ٢٣، ٢٥، ٣١، ٣٤، ٣٥ـ ٣٨، ٤٢، ٤٧، ٥٨، ٦٩، ٧٠، ٧٦، ٧٨، ٨١ـ ٨٥، ٩٩، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٢٢، ١٣٢، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٤ـ ١٥٧، ١٦١ـ ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٨٠ـ ١٩٢، ١٩٦، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٦، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٤١، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٦ـ ٢٩٨، ٣٠٠، ٣١٢، ٣١٧

ـ تذكرجي ١٢٨

ـ تذكرة الانطاكي (كتاب طب) : ٢١٤

ـ تراقيا : ٢٦ـ ٦٠

ـ الترك، اتراك، تركيا ٣، ٤، ١٢ـ ١٤، ٢١، ٢٥، ٣٢، ٥٤ـ ٥٧، ٦٣، ٦٥، ٦٩، ٩٥، ٩٨، ١١٣ـ ١١٦، ١٣١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٦، ١٦١، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٩١، ١٩٣، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٢، ٢٤٩ـ ٢٥٢، ٢٥٧، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤ـ ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٠، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٤ـ ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٠

ـ تركستان : ٢٢

ـ التركمان : ٢٠، ٢١، ٢٣، ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٤٠، ٥٥، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٨

ـ تريم : ١٤٧

ـ تشرشل (الكولونيل) : ٢٦١، ٢٦٢

ـ التشريف : ٢٣

ـ التصوف، متصوفة، صوفي : ٢٣، ٢٤، ٥٧، ٥٨، ٧٤، ٧٥، ١٢١، ١٤٤، ١٦٤، ١٦٦

١٦٧، ١٧٢–١٧٤، ٢٠٦، ٢٠٩ –
٢١٢، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢٨٩، ٢٩٠
ـ تطوان : ٢٩١
ـ التعايش السلمي : ٣٢٠
ـ تعز : ١٤٦، ٢٩٩
ـ التعليم : ٤٦، ٥٨، ٧٣، ٩٨، ٢٠٥
٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢ ،
٢١٤، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٦، ٢٦٣ ،
٢٧٢، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٩٠ ،
٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٢، ٣١٦
ـ التغريبة (الهلالية) : ٤٥
ـ تفاح (شجر مثمر) : ١٧٥
ـ التفسير (علم) : ٢٠٧
ـ التفويض : ٢٣
ـ تقدم ، تقدمي : ٢٢٦–٢٢٨، ٢٤٦
٢٨٧، ٣٠١، ٣١٦
ـ تقليدي : ١٥٤، ١٦٩، ١٩٤ ،
٢٠١، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٢ ،
٢١٥، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٣٣ ،
٢٣٤، ٢٣٨–٢٤٤، ٢٤٩، ٢٦٦ ،
٢٦٨، ٢٨١، ٢٩٢
ـ تقي الدين بن معروف (عالم) : ٢١٣
ـ تكة (امارة) : ٢٦، ٧٥، ٧٦
ـ تكية ٢٥، ١٩٣، ٢١٦، ٢١٧
ـ التل الكبير (معركة) : ٢٨٦
ـ تلمسان : ٨، ٤١، ٤٣، ٤٦، ١٨٨
ـ تليران : ٢٤٨
ـ تمراست : ٨٢
ـ التنظيمات : ١١٠، ١١١، ٢٧٤، ٢٧٩
٣٠٢–٣٠٤
ـ التوابل : ٦، ٢٥، ٣٧، ٣٨، ٨٧ ،
١٤٦، ١٨٣، ١٨٦–١٨٨
ـ توفيق (الخديوي محمد) : ٢٨٥
ـ تونس : ٨، ٣٠، ٤١، ٤٢، ٤٦، ٨١ ،
١٠٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٥، ١٢٥، ١٢٩–
١٣١، ١٥٧–١٦٣، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٦ ،
١٧٨، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠٠ ،
٢٠١، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٤ ،
٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٥١، ٢٥٦ ،
٢٥٨، ٢٦٤، ٢٧٨–٢٨٣، ٢٨٨، ٣٠١ ،
٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٢–٣١٤، ٣١٦
ـ تونسي (المؤرخ) : ٨، ٧٩، ٨٠ ،
٨٣
ـ تيمار (اقطاع) : ١٢٥، ١٢٦
ـ تيموجين : (انظر: جنكيزخان)
ـ تيمورلنك : ١٦، ٢٠، ٣١، ٣٢، ٤١ ،
٥٥، ٦١، ٧٢، ٨٧
ـ التيمورية (الدولة التيمورية) : ٢٠، ٣٨
ـ تيمية (ابن) : (انظر: ابن)
ـ التين (نبات) : ١٨٢
ـ تينملل (في المغرب الاقصى) : ٤١

ـ ث ـ

ـ الثغور (منطقة) ٢٦، ٥٥
ـ الثقافة ٢٤، ١٤٧، ٢٠٣، ٢٠٨ ،

٢٠٩، ٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٤ ،
٢٣٠، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٧٢ ،
٢٧٦–٢٧٨، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٢ ،
٣١٣، ٣١٥، ٣١٨–٣٢٠
ـ الثـورة : ٤٨، ٧٥، ١١٠، ١١١ ،
١١٨، ١٢٢، ١٣١، ١٣٥–١٣٩ ،
١٤٥، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥ ،
١٦٣، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٦، ١٨٥ ،
١٩٧، ٢١٠، ٢٢٥–٢٢٧، ٢٣٠ ،
٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤١ ،
٢٦١–٢٦٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٠ ،
٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٩ ،
٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠١ ،
٣٠٦، ٣٠٨–٣١٠، ٣١٣، ٣١٥ ،
٣١٦، ٣١٨
ـ ثورة اقتصادية : ٢٤٦
ـ ثورة اجتماعية : ٢٤٦
ـ ثورية صناعية : ٢٤٦
ـ الثورة العربية : ٢، ٢٣١، ٢٩٩ ،
٣٠٠، ٣٠٩
ـ الثورة الفرنسية : ٢، ٢٣٩، ٢٤٥ ،
٢٤٨، ٢٥١، ٢٩٧، ٣٠٤
ـ ثورة قومية : ٢٤٥
ـ ثورة ديموقراطية : ٢٤٥

ـ ج ـ

ـ جالية : ١٨١، ١٨٥، ١٩٠، ١٩٩ ،
٢٠٠، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٥٦، ٢٧٩ ،
٢٨٠، ٢٩٥ ،
ـ الجامع : ٨٥، ٩٣، ٢٠٦–٢٠٨، ٢٠٩
٢١٦، ٢١٧
ـ الجامع الازهر : ١٩٤، ٢٠٧–٢٠٩ ،
٢٤٩
ـ جامع الاطروش : ٩١
ـ الجامع الاموي : ٢٠٨
ـ الجامع الجديد : ٢٠٨
ـ جامع الدرويشية : ٢١٧
ـ جامع الزيتونة : ٤٢، ٤٦، ١٩٤، ٢٨١
ـ جامع السليمانية : ٢١٦
ـ جامع السنانية : ٢١٧
ـ الجامع الكبير : ٢٠٨
ـ الجامعـة : ٣٠٣، ٣١٢
ـ الجامعة الاسلاميـة : ٩٥، ٢٢٧، ٢٢٩
ـ الجامعة الامريكية : ٢٧٧
ـ الجامعة العربية : ٣١٥، ٣١٩
ـ جامـي (شاعر) : ٢١
ـ جانبردى الغزالي : ٩١، ٩٢، ٩٣ ،
١٣١، ١٣٥، ١٥١، ٢٣٥
ـ جـاوة : ١٤٦
ـ جاويـد : ٣٠٦
ـ جبـل : (انظر اسم الجبل المعني)
ـ جبل طارق : ٩٧، ٢٥٤، ٢٩١
ـ جبل العرب : ١٤٤، ٢٦٨
ـ جبّلي : ١٢٦
ـ جـدة : ٦، ٧، ٣٦، ٣٧، ٨٢، ٨٣ ،
١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٨٦، ١٨٨

ـ الجدار (مشروع) : ٣١٩
ـ الجراد : ١٧٠، ١٧٧، ٢١٩
ـ الجراكسة (الشركسي) : ٢٨، ٣٢، ٧٨-١٠٦، ١٥١، ١٥٣، ٢٣٨، ٢٨٥، ٣٠٧
ـ جرمن ،جرمني : ٨٤، ٩٩
ـ جرميان : ٢٦، ٦٠
ـ الجزائر : ٣، ٧، ٨، ٨٢، ٨٤، ١٠٠، ١٠١، ١٢٥، ١٢٩-١٣١، ١٥٧-١٦٧، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٥٣ - ٢٦٢، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠-٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٣، ٣٠٩، ٣١٢-٣١٦
ـ الجزيرة : ٢٠، ٣٢، ٦٩، ٧٢، ٩٩، ١٥١-١٥٤، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٧٠
ـ جزيرة : (انظر اسم الجزيرة في الحرف المناسب)
ـ الجزيرة (منطقة) : ١٠١، ١٣٥
ـ الجزيرة (في اسبانيا) مؤتمر : ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٤
ـ الجزيرة العربية (شبه الجزيرة العربية) : ٤، ٣٦، ٨٥، ٨٦، ١٣٠، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٧، ١٦٧، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ٢٢٦، ٢٣٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٩
ـ جغبوب : ٢٨٩
ـ الجغطاي : ١٧، ١٩
ـ الجلائرية (الدولة) : ٢٠، ٢٧
ـ جلال الدين منكوبرتي : ١٦
ـ الجلالية ١٠٦، ١١٠:
ـ الجلبان (المماليك) : ٩٠
ـ الجلد ،الجلود : ٤٧، ١٦٦، ١٨٢
ـ جلديران : ٧٧-٨٠، ١٠١
ـ الجليل (جبال) : ١٣٧
ـ الجليلي (آل) : ١٣٣
ـ جم : ٧٣، ٧٤، ٨٩
ـ جماسة : ١٣٥
ـ جمال الدين الافغاني : ١٩٤، ٢٢٦، ٢٨٧، ٣٠٥
ـ جمال عبد الناصر : ٣١٨
ـ الجمرك : ٣٧، ٧٠، ١٤٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ٢٧٥، ٢٩٤
ـ جمعية الاتحاد والترقي : ٢٠١، ٣٠٦
ـ جمعية الاصلاح : ٢٧٧
ـ جمعية تركيا الفتاة : ٣٠٤
ـ الجمعية العربية الفتاة : ٢٣٠
ـ جمعية العلماء الجزائريين : ٣١٣
ـ الجمعية العلمية السورية : ٢٢٩
ـ جمعية العهد (سرية) : ٣٠٢
ـ الجمعية القحطانية (سرية): ٢٣٠
ـ الجمهورية الثالثة في فرنسا : ٢٨١
ـ جنبي (قلعة) : ٥٩
ـ جنتلمي بلمني (فنان بندقي) : ٧٣

ـ جنيف : ٣٠٦
ـ الجند : ٢٦، ٢٨، ٤٧، ٦٦، ٧٠، ١٢٢، ١٢٦، (مرتزقة) ١٤٧، ١٥٥، ١٦٠، ١٩٢، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٨٦
ـ جند الحلقة : ٣٣، ٣٤
ـ جنكيز خان (تيموجين) : ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٥٦، ٦١
ـ جنوة : ١٤، ٣٥ـ٣٧، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٨٤
ـ الجهاد ،الجهاد البحرى : ٢٣، ٢٤، ٨١، ٩٤، ٩٧، ١١٤، ١٤٨، ١٥٥، ١٦٠ـ١٦٤، ١٦٧، ١٧٠، ١٨٢، ٢٢٤، ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥
ـ الجوائب (صحيفة) : ٢٣٠
ـ جوخ ١٦٦، ١٨١
ـ جورج انطونيوس(مؤرخ معاصر): ٢٢٤، ٢٣٢، ٢٦٧
ـ جورج كاستريوتا : (انظر اسكندربك الالباني)
ـ جورجيا : ١٥، ٢٨، ٣٢، ١٠٦، ١٣٣
ـ الجوز (نبات) : ١٧٥
ـ جون هونيادي : ٦٤
ـ جيحون (نهر) : ١٨
ـ جيجل : ١٦١
ـ الجيزة : ٢٤٩

ـ ح ـ

ـ حائل : ٣١٥
ـ الحاج بيرم : (انظر بيرم)
ـ الحاخام : ١٩٥
ـ حامية (عسكرية) : ١٢٩، ١٣١، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٥، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٢
ـ الحبش (ولاية) : ٧، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١
ـ الحبشة : ٧، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ١٩٧، ٢٥١، ٢٨٨، ٣١٧
ـ الحبوس : (انظر وقف ـ اوقاف)
ـ الحبيب بورقيبه : ١٦٣
ـ الحج : ٣٠، ٨٥، ٩٣، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٢، ١٥٥، ١٨٤، ١٨٧، ٢٠٣، ٢٠٨
ـ الحجاز : ٢، ٧، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٤٠، ٧٩، ٨٣، ٨٥، ٨٧، ٩٣، ٩٥، ١٣١، ١٤٠، ١٤٢ـ١٤٥، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٦، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٦، ٢٥١، ٢٦٤، ٢٦٧، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣١٥
ـ حجر رشيد : ٢٥٢
ـ الحديد : ٨٩، ١٨٧
ـ الحديدة (ميناء اليمن) : ١٤٧
ـ حرب الاسترداد : (انظر استرداد)
ـ حرب السبعين : (انظر السبعين)
ـ الحرب العالمية الاولى : ٢٩٠، ٢٩٩

٣٠٠، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٥
ـ الحرب العالمية الثانية : ٣١١ ، ٣١٤، ٣١٥
ـ حرفة ،حرفيون : ٣٤، ٥٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٥٤، ١٦١، ١٦٢، ١٧٧ـ ١٨٠، ٣١٩
ـ الحرمان الشريفان : ٣٠، ٨٥، ٩٥، ١٤٢، ١٤٣، ٢١٧
ـ حرير ،حريرية : ٣٥، ٣٧، ٧٨، ١٠٦، ١٦٢، ١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢ ، ١٨٧، ١٨٩
ـ حزب البعث : ٣١٨
ـ حزب الحرية والائتلاف : ٣٠٧
ـ الحزب الدستوري : ٣١٣
ـ حزب اللامركزية : ٢٧٧
ـ حزب الوفد : ٣١٣
ـ الحساب (علم) : ٢٠٧، ٢١٣
ـ الحسن (مولاي) : ٢٩١
ـ حسن باشا (والي بغداد) : ١٣٣
ـ حسن بن علي بن ابي طالب : ٣٠
ـ حسن بن مرعي : ٩٢
ـ حسن جلائر : ١٩
ـ حسن عثمان (مؤرخ معاصر) : ٩٧
ـ الحسنية (السلالة الادريسية) : ٣٠، ١٤٢
ـ حسين (الباي) في تونس : ٢٧٨
ـ حسين جاهد : ٣٠٦
ـ حسين (الداي) في الجزائر: ٢٥٥
ـ حسين (الشريف والملك) : ٢٢، ٣٠، ٢٣١، ٢٩٩، ٣٠٠
ـ حسين بن علي التركي، الاسرة الحسينية: ١٦٣، ١٧٦، ٢٢٠، ٢٢٤
ـ حسين بيقرا ميرزا : ٢٠
ـ حسين الكردي : ٨٢، ٨٣، ٨٩
ـ الحشاشون (الاسماعيلية) : ٢٩
ـ الحصري : (انظر: ساطع الحصري)
ـ حضرموت : ١٤٧، ٢٩٩
ـ الحفصيون ،الدولة الحفصية : ٣٠ ، ٤١، ٤٤، ٤٥، ١٠٥، ١٦٢
ـ حق التصرف (التمتع) : ١٧٢
ـ حق الرقبة : ١٧٢
ـ حق المرعى (ضريبة) : ١٧٤
ـ الحقبة المعاصرة : ٢، ٣، ٩، ٢٢٠، ٢٣٣، ٣١٤
ـ حكومة (نوع من نظم الادارة العثمانية) : ١٢٥
ـ حلب : ١٦، ١٧، ٢٨، ٣٧، ٣٩، ٧٨، ٨٥، ٩١، ٩٣، ١٠٢، ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٩، ١٨٤ ، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٨، ٢٠٨، ٢١٥ ، ٢١٧، ٢٣٥، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣٠٤
ـ حلف بغداد : ٣١٦، ٣١٩
ـ حلق الوا (تونس) : ١٠٥
ـ حماة : ١٦، ١٧، ٢٨، ٩١، ١٣٧ ،

١٨٢، ٢١٨
ـ الحماية (بمعان متعددة) : ٢٠٢، ٢٣١ (نظام الحماية ٢٨٢)، ٢٨٦، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١
ـ حمام : ٢٥، ٥٩، ٢١٦، ٢١٧
ـ حمص : ١٧، ٩١، ٢٦٥
ـ الحمضيات : ١٧٥
ـ حمودة بيك : ١٦٣
ـ حمودة باشا : ١٦٣، ١٨٢
ـ حميد (امارة) : ٢٦، ٦٠
ـ حميدو (الريّس) : ٢٥٤
ـ الحنبلي (المذهب) : ١٤٤، ٢٢٥
ـ الحنفي (المذهب) : ١١٢، ١٢٨، ٢١٠
ـ حنين (ميناء في الجزائر) : ٤٣
ـ حوران : ١٣٨، ٢٦٨
ـ الحياد الايجابي : ٣٢٠
ـ حيدر اباد : ١٤٧
ـ حيدر الصفوي (الشيخ) : ٧٥
ـ حيفا : ٣٠٠

ـ خ ـ

ـ الخائن (احمد باشا) : ١٥١
ـ الخابور (نهر) : ١٣٥
ـ خادم الحرمين الشريفين : ٣٠، ٩١، ٩٣
ـ خادم سليمان باشا : (انظر سليمان باشا)
ـ الخاص الهمايوني : ١٢٦
ـ خان (لقب كبير المغول) : ٢٠، ٥٩
ـ خان (مكان للقوافل) : ٢٥، ٥٩، ٧٦، ١٧٢، ٢١٦، ٢١٧
ـ خان باليق (بكين) : ١٨
ـ خانات الجغطاي : انظر (الجغطاي)
ـ خانات القبجاق، القبيل الذهبي : (انظر: القبيل الذهبي)
ـ خانات القرم : انظر (شبه جزيرة القرم)
ـ الخانقاة : ٢٠٩، ٢١١
ـ خاير بك (خير بك) : ٩١، ٩٣، ١٣١، ١٥١
ـ الخديوي : ٢٨٤ ـ ٢٨٦
ـ الخراج : ١٦٤، ١٧٢، ١٧٤، ١٩٥
ـ خراسان : ١٥
ـ الخريوطلي (علي) : (مؤرخ معاصر) ٢٧١
ـ الخرطوم : ٢٨٨
ـ الخزنة (امير) : ١٥٢
ـ الخزندار : ١٥٥
ـ الخزينة السلطانية : ١٤٠، ١٥١
ـ الخشب : ٣٥، ٨٩، ١٨٢، ١٨٧
ـ الخط وعلمه : ٢١٦
ـ خط شريف كولخانة : ٣٠٢
ـ الخط الهمايوني : ٢٧٤، ٣٠٣

ـ الخفاجي (احمد شهاب الدين) ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٩ :
ـ خلاط (مدينة) : ٥٦
ـ خليفة، خلافة : ١، ٢، ٤، ١٢، ١٣، ١٤، ١٦ـ١٩، ٢٩، ٣٠، ٤٢، ٤٨، ٥٤، ٦١، ٨٩، ٩١، ٩٢ـ٩٧، ١٠٢، ١٧٢، ١٩٧، ٢٢٩، ٢٦٨، ٢٨٣، ٢٨٧، ٣٠٥
ـ الخلفاء الراشدون : ٩٧، ٢٠٩
ـ الخليج العربي : ٦، ٨، ٣٥، ٣٧، ٨٢، ٨٦، ١٠٢، ١٠٣، ١٤٤، ١٤٨، ١٨٣، ١٨٥، ٢١٣، ٢٢١، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٩٥ـ٢٩٨،
ـ خليج عمان : ٢٩٦
ـ خليج القرن الذهبي : ٦٦
ـ خليج القسطنطينية : ٣٧
ـ الخوارج : ١٤٧
ـ خوارزم، خوارزميون : ١٦، ١٧، ٢١، ٥٦
ـ خواندمير : ٢١
ـ خوخ (ثمر) : ١٧٥
ـ خير الدين بربروسا : ٨، ٨٤، ٩٤، ١٠٠، ١٣١، ١٥٩
ـ خيري (وقف) : انظر (وقف)

ـ د ـ

ـ دار الاسلام : ١١٤، ١١٥
ـ الدار البيضاء : ٢٩٤
ـ دار الحديث : ٢٠٧
ـ دار الحرب : ٢٢، ٢٤، ١١٤
ـ دار الشفاء : ٢١٤
ـ دار الطب : ٢٠٧
ـ دار القرآن : ٢٠٦
ـ دار فور : ٢٥١
ـ دار الكتب المصرية : ٥
ـ دار الماشيا : ١٠٧
ـ الدانشمند (دولة) : ٢٢
ـ الدانوب (نهر) : ٦٤
ـ داوود الانطاكي : ٢١٤
ـ داوود باشا (والي مصر) : ٥
ـ الداي (الداعي) : ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ٢٢٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧ـ٢٦٠
ـ دجلة (نهر) : ١٩٧، ٣٠٩
ـ الدردنيل (مضيق) : ٢٦٦
ـ الدرعية : ١٤٤، ٢٦٤، ٢٦٥
ـ الدرك : ٢٧٦
ـ الدروز : ١٣٩، ٢٠٢، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٥
ـ درويش، دراويش : ٥٧، ٥٨، ١٢٢، ١٢٣
ـ الدفتردار : ١١٩، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٩، ١٥١، ١٥٢
ـ دفشرمة : ١١٥، ١١٦، ١٥٩
ـ دلاس (وزير خارجية الولايات المتحدة) : ٣١٩
ـ دلغادر (امارة ذي القدر) : ٢٧، ٧٢

٧٩، ٨٠، ٨٩، ٩٠
ـ دمشق : ١٦، ١٧، ٢٨، ٣٧، ٣٩، ٩١ـ٩٤، ١٠٢، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥ـ ١٤٠، ١٤٤، ١٥٤، ١٧٦، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٥، ٢٦٢، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٧
ـ دمياط : ٢٠٨
ـ الدرويشية (جامع) : ٢١٧
ـ دنزلي : ٢٢، ٢٥
ـ دوبوتان : ٢٥٧
ـ دوبوفور : ٢٧٧
ـ دوتونير : انظر (كليرمون)
ـ دولسبس (فرديناند) : ٢٨٣
ـ دود القز : ٢٠٣
ـ دوديكانيز (جزر) : ٢٨٩
ـ دول الطراز : ٧
ـ دومانيج : ٥٦
ـ الدومنيكان : ٤٧
ـ الديار الاسلامية المقدسة : انظر : الاماكن الاسلامية المقدسة
ـ ديار بكر (آمد) : ٢٧، ٧٨، ٩٠
ـ دير رحبة : ١٣٥
ـ دير الزعفران : ١٩٧
ـ دير ليك (معيشة) : ١٢٦
ـ ديو : ٨٢
ـ ديوان الجيش : ٣٣
ـ ديوان مصر : ١٥١، ١٥٢
ـ ديوان المظالم : ١١٩
ـ الديوان الهمايوني : ١١٧، ١١٩، ١٢٠
ـ ديوان الوالي : ١٢٨
ـ الديوان الوطني (مصر) : ٢٥٠
ـ دين، ديون، قضية الديون : ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٥

ـ ذ ـ

ـ الذرة (نبات) ١٧٥
ـ ذري (وقف) : انظر (وقف)
ـ الذمة (اهل) : ٦٩، ١١٥، ١٩٢ـ ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٤، ٢١٥، ٣٠٣
ـ الذهب : ٧٨، ١٥٢، ١٦٤ـ١٦٦، ١٦٩، ١٨١، ١٨٨
ـ ذو القدر (امارة) : انظر (دلغادر)

ـ ر ـ

ـ رأس الخيمة : ٢٩٧
ـ رأس الرجاء الصالح : ٦، ٣٨، ٨٢، ١٤٦، ١٧٠، ١٨٣، ١٨٥، ٢٤٨،
ـ رأس مال ، رأسماليون : ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٠، ٢٤٦، ٢٨٦، ٣١٢،
ـ رأس الناقورة : ٣٠٠

ـ رئيس الكتاب : ١٢٣
ـ الرائد التونسي (صحيفة) : ٢٧٩
ـ راڤيس (مستشرق) : ٣٧
ـ رباط ، ربط : ٢١١–٢١٣
ـ الرباط (مدينة) : ٢٩٤
ـ الرجل المريض (الدولة العثمانية) : ٢٤٣، ٢٩٩
ـ رسم ، رسوم (ضريبة) : ١٢٧، ١٤٢، ١٧٤، ١٨١، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦
ـ الرسول محمد (ص) : ١٦٤، ٢٠٩، ٢٨٩
ـ رسول (دولة بني) : ٣٦
ـ الرز : ٢٥، ١٧٩، ١٨٧، ١٨٨، ٢٤٨
ـ رشاد الامام (مؤرخ معاصر) : ١٧٦، ١٨٩
ـ رشيد الدين فضل الله : ١٩
ـ رشيد رضا : انظر (محمد رشيد رضا)
ـ رشيد عالي الكيلاني : ٣١٥
ـ رشيد (مولاي) (سلطان المغرب) : ١٦٦
ـ رشيد (مدينة) : ٢٠٨، ٢٤٩، ٢٥٣
ـ رضوان بك الرئيس (مصر) : ١٥٣
ـ الرعي : ١٦٩، ١٧١، ١٧٧، ١٧٨
ـ الرعية : ١٩٤، ١٩٥، ٢٣٥، ٢٣٨
ـ الرق ، الرقيق : ٣٢، ١١٤، ١٤٩، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٨٧، ٢٩٧، ٢٩٨
ـ الرقة : ٩٠، ١٣٠، ١٣٥
ـ الرها (اورفة) : ١٣٠
ـ رمضان (حاكم اليمن) : ٩٤
ـ رواق الاتراك (في جامع الازهر) : ٢٠٩
ـ رواق الشوام : ٢٠٩
ـ رواق العميان : ٢٠٩
ـ روجر الثاني : ٤٧
ـ رودس (جزيرة) : ٢٢، ٢٦، ٦٦، ٧٣، ٨٤، ٨٩، ١٠٠، ٢٨٩
ـ الروضة (جزيرة في النيل) : ٣١
ـ روسيا : ١٧، ٢٠، ٩٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١٣٧، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٦٥–٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٥، ٣١٥
ـ الروم ـ الرومان ـ ية : ١٢، ٩٩، ١٩٥، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٨
ـ روما : ٦١، ١٩٧–١٩٩، ٢١٥، ٢٢٤
ـ الرومان ـ (سكان رومانيا الحالية) : ٦٠، ٨٠، ٢٤٢، ٢٧٣
ـ الروم الكاثوليك : ١٩٩، ٢٠١
ـ الرومي : ٥٩، ٦٠، ٧٣، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤
ـ الريدانية (معركة) : ٩٢
ـ الريف (الزراعي) : ٤٥، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٩، ١٥٢، ١٥٤، ٢٠١–٢٠٣
ـ الريف المغربي : ٢٩١
ـ الريّس (طائفة) : ١٥٩، ١٦٠، ٢٥٥
ـ الريّس سليمان : ٨٩

— ز —

ـ زابولـوى ٩٩، ١٠٠
ـ زاغانـوس ١٢١
ـ زاغـروس (جبال) ٢٢٢
ـ زانـزيبـار ٦، ١٤٨، ١٤٩
ـ الزاويـة ٣٣، ٥٨، ١٦٤—١٦٦ ،
١٧٢، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٧ ،
٢٨٩، ٢٩٠
ـ الزبـرب (مجفف العنب) ١٨٢
ـ زبيـد (اليمن) ٨٣، ١٤٥
ـ الزراعة ٢٦، ٣٤، ٧٥، ١٢٦، ١٣٨
١٥٢، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٥، ١٦٩—١٧٧
٢٠٠، ٢٣٢، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٣ ،
٢٧٢، ٢٨٦، ٣١٢
ـ الزعامة (اقطاع) ـ زعيم (رئاسة)
١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، ٢٦٣، ٢٦٣ ،
٢٦٥، ٢٨٠، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٤ ،
٢٩٥، ٣٠٥
ـ الزعفران ٢٥
ـ زكي محمد حسن ٢١٦
ـ الزليـج ٢١٧
ـ الزيانية (الدولة) ـ بنو عبد الواد
٤٢، ٤٥
ـ الزيـت ١٨٢
ـ الزيتون (ثمر) ١٧٥
ـ الزيتونة (جامع) انظر (جامع)
ـ الزيدانية (قبيلة) ١٣٧
ـ الزيديـون (الائمة) ١٠٢، ١٤٥
١٤٦، ١٤٧، ٢١٠، ٢٣١
ـ زيلـع ٧، ٨٦، ١٠٣

— س —

ـ الساحل المهادن ٢٩٧
ـ سارای ٢٠
ـ الساسانية (الدولة الفارسية) ١٨
٨٠، ١٩٧
ـ ساطع الحصری ٢٤٩، ٢٦٠، ٢٦٣ ،
٣١٣
ـ سافاری (رحالة) ٢٦٨
ـ سالونيـك ٦٥، ٣٠٦
ـ ساليانة ١٢٥، ١٣١
ـ سايكس (سياسي بريطاني) ٢٩٩
ـ السباهيـة (الغرسان) ١٢٠، ١٢٥
١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٣٢، ١٦٣، ١٧٣
ـ سباهي يازجيلاری ١٢٨
ـ سبتـه ٤٤، ٤٧، ١٦٣
ـ السبعين (حرب) ٢٨١
ـ السجـاد ١٨٧
ـ السخاوی (مؤرخ) ٤٠
ـ السرای (قصر السلطان العثماني)
١١٤، ١١٩—١٢١، ١٢٧، ١٨٨
ـ سروج ١٣٥

ـ السريان الكاثوليك : ١٩٩
ـ سعد الدين (المؤرخ التركي) : ١٢١
ـ السعديون ، بنو سعيد ، دولة السعديين ٤٤، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٧، ١٧١، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٣٠، ٢٤٤، ٢٩٠،
ـ سعود ، الدولة السعودية : ١٤٣، ١٤٤، ٢٣١، ٣٠٩
ـ سعيد بن سلطان (عمان) : ١٤٩
ـ السغد : ٢٨
ـ سقاريا (نهر) : ٢٨
ـ السقرلاط (نوع من الجوخ) : ٢٥
ـ سقطرة (جزيرة) : ٦، ٢٩٩
ـ السكبان (فرقة) : ١٠٦، ١٣٧
ـ السكة (النقد) : ٩٢
ـ السكر (مادة غذائية) : ٣٧، ٣٨، ١٥٢، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٥، ١٨٧، ١٨٨
ـ سلا (المغرب الاقصى) : ٤٦، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٠
ـ السلاجقة الاتراك : ١٢، ١٣، ١٤، ٢٦، ٣٣، ١١٣، ١١٥
ـ سلاجقة الروم (دولة) : ٧، ٨، ١٦، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢١٦
ـ سلطان (من امراء عمان) : ١٤٩
ـ سلطان علي مشهدي : ٢١٠
ـ السلطانية (كانغرلان) (مدينة) : ١٨
ـ السلفية : ١٤٥، ٢٢٦، ٣٠٤
ـ سليم الاول (السلطان) : ٤، ٥، ٨، ٣١، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٥، ١٧٩
ـ سليم الثاني (السلطان) : ١١٧
ـ سليم الثالث (السلطان) : ٣٠١
ـ سليمان باشا (خادم) ـ والي مصر ٨٦
ـ سليمان بن محمد : ٢٢٦
ـ سليمان الثاني : ١٠٤
ـ سليمان الحلبي : ٢٤٩، ٢٥٠
ـ سليمان الريس : ٨٩
ـ سليمان القانوني (السلطان) : ١١٢، ١١٨، ١١٩، ١٣١، ١٤٥، ١٥١، ١٦٧، ١٩٨، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٣٥، ٢٣٧، ٢٤١
ـ سليمان المهري : ٢١٣
ـ السليمانية (جامع) : ٢١٦
ـ سمرقند : ١٥، ١٦، ٢٠
ـ السمسم (ثمر نبات) : ١٧٥
ـ السمعاني (يوسف) : ١٩٨
ـ السنا (نبات طبي) : ١٨٦
ـ سنان (المعماري) : ٢١٦
ـ سنان باشا : ١٠٢، ١٠٤، ١٤٥، ١٦٢
ـ السنانية (جامع) : ٢١٧
ـ السنة ـ السنية : ٤، ١٧، ٢٩، ٣١، ٣٩، ٤٦، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨٣، ٨٤، ١١٢، ١٢٨، ١٨٧، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٢، ٢٣٥

ـ السند (نهر) : ١٨ ، ٣٦
ـ السنوسية : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٩
ـ سواكن : ٧ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٣
ـ السودان : ١٥٧ ، ١٦٤ ـ ١٦٦ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٨٧ ـ ٢٩٠ ، ٣١٦
ـ سورية (انظر ايضا بلاد الشام) : ٣٠ ، ١٣٧ ، ١٧٩ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ـ ٢٧٢ ، ٢٧٧ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ـ ٣٢٠
ـ السوس (المغرب الاقصى) : ١٦٤
ـ سوق ـ اسواق : ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨١ ـ ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ـ ١٩٠ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٨٦
ـ السويس : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٨٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٢ ، ٢٧٧
ـ سويسرة : ٢٨٩
ـ سيباستبول : ٢٧٣
ـ سيباستيان البرتغالي : ١٦٥
ـ سيحون (نهر) : ٢١
ـ سيد ـ اسياد (الاشراف) : ١٤٧
ـ سيدى شيخ (اولاد) (قبيلة جزائرية) : ٢٦١
ـ سيدى فروج (خليج) : ٢٥٩
ـ سيس (ارض) : ٢٩
ـ سيفا (بنو) : ١٣١
ـ سيلان (جزيرة) : ٣٦ ، ١٤٦
ـ سيواس ٢٧ ، ٦١ :
ـ سيون (حضرموت) : ١٤٧

ـ ش ـ

ـ آ. شاده (مؤرخ غربي) : ٧٣
ـ الشارقة (امارة عربية) : ٢٩٧
ـ شارل الثامن : ٨١
ـ شارل الخامس (شارلكان) : ٨٤ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢
ـ شارل العاشر : ٢٥٧
ـ شارل ماغالون : ٢٤٧
ـ الشافعي (المذهب) : ١٤٧
ـ الشام : (انظر بلاد الشام)
ـ شاهات خوارزم : ١٠٥
ـ الشاه اسماعيل الصفوي : ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ٩٣
ـ الشاه رخ (التيموري) : ٢٠ ، ٣٢
ـ شاه شروان : ٨٥ ، ٩٥
ـ الشاه طهماسب الصفوي : ١٠٦
ـ الشاه قولي (شيطان قولي) : ٧٦
ـ شاه مظفر : ٢١٠
ـ شاول (في الهند) : ٨٢
ـ الشاويش ـ الشاويشية : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٧٩
ـ شبلي شميّل : ٢٢٨
ـ شبه الجزيرة الايبرية : (انظر ايبريا)
ـ شبه جزيرة البلقان : (انظر البلقان)

ـ شبه الجزيرة العربية : (انظر:الجزيرة العربية)
ـ شبه جزيرة القرم : ٦٩، ٧٢، ١٠٦ ، ١١٠، ١٨٨، ٢٤١، ٢٧٣
ـ شبه جزيرة المورة : ٧٠، ٧٤، ١٠٥ ، ١٠٧
ـ شجرة الدر (السلطانة) : ٢٩
ـ شحـر (في الجنوب العربي) : ١٤٧، ٢٩٩
ـ شرافة ـ شريف ـ شرفاء (انظـر اشراف ايضا) : ٢، ٣٠، ٣٧، ٤٢ ، ٩٣، ٩٥، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩، ١٤٢، ١٦٤، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٩ ، (الشرفاء العلويون ٢١٨) ، ٢٢٠، ٢٣٦ ، ٢٤٤، ٣٠٠، ٣٠٥
ـ الشريف غالب : ١٤٤
ـ الشرق الادنى : ٨٠
ـ الشرق الاقصى : ٨٢، ١٠٢، ١٨٣ ، ١٨٩، ٢٤٦، ٢٧٤
ـ الشرق الاوسط : ٣١٩
ـ الشرقاوي (انظر عبد الله الشرقاوى) :
ـ شرقي الاردن : (انظر ايضا الاردن) ١٣٧، ٢٣١، ٣٠٠
ـ شركة افريقيا : ١٦١
ـ الشركة البريرية : ١٦٦، ١٨٤
ـ شركة قناة السويس : ٢٨٤
ـ شركة لنج : ٣٠٩
ـ شركة الليفانت : ١٨٤، ٢٤١
ـ شركة الهند الشرقية الانكليزية : ٢٩٦
ـ الشريعة ، شرعي : ٨٥، ٩٧، ١١٢ ، ١١٣، ١١٦، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٨ ، ١٧١، ١٧٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧ ، ٣٠٦
ـ الشرعية (المحاكم) : ٣٠٣
ـ شط العرب : ٢٨
ـ الشعير : ١٨٨، ٢٤٨
ـ الشمع : ٢٥، ١٨٧
ـ شنان : (انظر الاشنان ايضا) ١٧٦
ـ الشنواني (ابوبكر) : ٢١٣
ـ شهاب الدين احمد بن ماجد : (انظر: احمد بن ماجـد)
ـ الشهابي ـ الشهابيون : ١٣٧، ١٣٨
ـ شهر يزور (ولاية) : ١٣٠، ١٣٣
ـ الشوف (في لبنان) : ١٣١
ـ الشيباني (آل) : ٢١
ـ شيخ الاسلام : ١١٩ـ١٢١
ـ شيخ البلد (في مصر) : ١٥٣
ـ شيخ الطائفة (الحرفة) : ١٧٩، ١٩٠، ٢٠٦، ٢٠٩
ـ شيخ السلطـان : ١٢١
ـ شيخ المشايخ : ١٧٩
ـ شيدى باشي : ١٢٧
ـ الشيعة ـ شيعي : ٧، ٨، ٢٨، ٦٣ ، ٧٥، ٧٧، ٨٠، ٨٣، ٨٤، ٩٤، ١٠٢ ،

١٠٦، ١١٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٥،
١٤٨، ١٨٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١
ـ الشيعة الاثنا عشرية : ٧٥
ـ الشيوعية : ٣١٩

ـ ص ـ

ـ الصابئون : ١٧٦، ١٨٢، ١٨٧،
١٨٨، ٢٥١
ـ صاحب الارض (الاقطاعي) : ١٧٤
١٧٧، ٢٧٤
ـ صاروخان (امارة) : ٢٦
ـ صافي (ميناء في المغرب) : ١٦٤
ـ صالح آغا المهايني : ٢٧٥
ـ الصالح نجم الدين ايوب : ٢٩
ـ الصباشي ـ الصباشلكية : ١٢٧، ١٢٨،
١٣٣
ـ الصياغة (حرفة) : ١٨٢، ٢٠٠
ـ صحار (عمان) : ١٤٨
ـ صحافة : ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٥١، ٢٧٩،
٣٠٥، ٣٠٦، ٣١٧، ٣١٨
ـ صحراء سيناء : ٩٢
ـ الصخرة (مسجد) : ٢١٧
ـ الصدر الاعظم : ١١٧، ١١٩، ١٢٠،
١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ٢١٩،
٢٨١
ـ الصرافة : ٢٠٠
ـ الصرب : ٦٠، ٦٤، ٦٩، ١١٠،
٢٣٨، ٢٤٢

ـ الصرة : ١٢٢، ١٤٠
ـ الصعد (في آسيا الصغرى) : ٥٦
ـ صفاقس : ٢٨٢
ـ صفد : ٣٧، ١٣٧، ١٩٦
ـ الصفدي (المؤرخ) : ٣٩
ـ الصفويون ـ الدولة الصفوية : ٧، ٨،
٧٥، ٧٧ـ٨٠، ٨٣، ٨٥، ٩٠، ٩٤،
١٠١، ١٠٢، ١٠٦، ١١٠، ١٣٣،
١٣٥، ١٤٨، ٢١٠،
ـ صفي الدين (جد الاسرة الصفوية) : ٧٥
ـ الصقالبة (السلاف) : ٢٣٨
ـ صقلية : ١٤، ٣٠، ٤٧
ـ صلاح الدين الايوبي : ٢٩، ٣٠، ٢٦٢
ـ صلاح العقاد (مؤرخ معاصر) : ٢٥٨
ـ صلح اميان : ٢٥٢
ـ صلح كارلويتز : ١٠٧، ٢٣٩
ـ الصليبي ـ الصليبية : ١٤، ١٥، ٢٤،
٢٨، ٢٩، ٣١، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٦١، ٦٤،
٦٥، ٨٧، ٩٨ـ١٠٠، ١٦٤، ١٨٣،
١٩٧ـ١٩٩، ٢٠٦، ٢٢٨، ٢٣٥، ٢٤٠،
٢٤٤، ٢٥٠، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٧٩
ـ الصناعة ـ الصناع : ٢٣، ٣٧، ٦٧، ٩٣،
١٣٩، ١٤٩، ١٥٤، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٥،
١٦٩، ١٧١، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٣،
١٨٨ـ١٩١، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٠،
٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٨، ٢٣٢،
٢٣٩، ٢٤٥، ٢٤٦، (الصناعة الآلية
٢٦٣)، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٨٦، ٢١٢، ٣١٧

ـ الصنجق (الراية ،اللواء) : ١٢٤ـ ١٢٧، ١٣٠، ١٤٢، ١٥١
ـ صنعاء : ١٤٥، ١٤٦
ـ الصنف (الطائفة او النقابة) : ٢٠٦
ـ الصهيونية : ٣١١، ٣١٢، ٣١٧
ـ صور (عمان) : ١٤٨
ـ الصوف : ٢٥، ١٦٢، ١٨١، ١٨٢، ١٨٩، ٢٠٣
ـ صوفيا (مدينة) : ٦٠
ـ صوفيا باليولوغ (اميرة) : ٢٤١
ـ الصومال : ١٣٠، ٢٨٨، ٣١٦
ـ الصياغة (حرفة) : ١٨٢
ـ صيدا : ١٣٠، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨، ٢٧٠
ـ الصين : ١٥، ١٦، ١٩، ٣٦، ٣١٥

ـ ض ـ

ـ ضاهر العمر : ١٣٧، ١٣٨، ٢٣٠، ٢٣٦
ـ ضريبة ـ ضرائب : ٢٤، ٣٣، ٣٤، ١١٠، ١١٢، ١٢٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٥١، ١٥٤ـ ١٥٦، ١٦٢، ١٦٤، ١٧١ـ ١٧٤، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٥، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٧٥ـ ٢٧٩، ٢٨١، ٣٠٣

ـ ط ـ

ـ الطائف : ١٤٥
ـ طائفة ـ طوائف (بعدة معان) : ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠، ١٧٩، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٥٥، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٢
ـ الطابو : ١٧٤
ـ طاشكپرىزادة (مؤرخ عثماني) : ٦٣
ـ الطب ،الطبيب ٣٩، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤
ـ الطباعة : ٢٠٧، ٢١٥، ٢٣٠، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٩٥، ٣٠٥، ٣١٧
ـ طبرق : ٢٨٩
ـ طرابزون (امارة) : ٢٢، ٢٦، ٧٢
ـ طرابلس سورية : ٣٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧
ـ طرابلس الغرب : ٧، ٨، ١٠٠، ١٠١، ١٢٥، ١٣٠، ١٣١، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٧، ١٨٣، ١٨٨، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٦٤، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٩، ٢٩٢، ٣٠٨
ـ الطراز (دول) : ٧
ـ الطغراء (شعار السلطان) : ١١٩، ٢١٦
ـ طنجة : ٤٤، ٤٧، ١٦٣، ٢٩٣
ـ طنطا : ٢٠٨

ـ طوب قابي سراي : ٨٩ ، ١١٧ مكرر
ـ الطـوخ : ١٢٤
ـ الطـور (ميناء) : ٣٧
ـ طـوران شاه (السلطان) ٢٩٠
ـ الطوراني ـ الطورانية : ١٣ ، ٣٠٧
ـ طوروس ـ طوروسية (جبال) : ٢٦ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٢ ، ٢٩٩
ـ طوسكانا : ١٠٦
ـ طولـون : ١٠١ ، ٢٤٩
ـ طومـان باي (السلطان) : ٣٨ ، ٩١ ، ٩٢

ـ ظ ـ

ـ الظاهـر برقوق : (انظر برقوق)
ـ الظاهـر بيبرس : (انظر بيبرس)

ـ ع ـ

ـ العاج : ٤٧ ، ١٤٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٧
ـ عادل الصلح : ٢٦٢
ـ العامية الاولى (ثورة) : ١٣٩
ـ عانـة : ١٣٥
ـ عباسي ـ عباسية (بنو العباسي) : ١ ، ٤ ، ٥ ، ١٤ ـ ١٨ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٦١ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ١١٥
ـ عبد ـ عبيد (انظر الرق) : ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٧ ، ٨٧ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٥١ ، ١٨٨
ـ عبد الجليل التميمي (مؤرخ معاصر) : ٢٦٠
ـ عبد الحفيظ (سلطان المغرب) : ٢٩٤ ، ٢٩٥
ـ عبد الحميد الاول : ١١١
ـ عبد الحميد بن باديس : ٣١٣
ـ عبد الحميد الثاني : ٩٥ ، ١١١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦
ـ عبد الرحمن الكواكبي ، ٢٢٩
ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (مؤرخ معاصر) : ١٤٠
ـ عبد الرزاق بن حماد وش : ٢١٤
ـ عبد العزيز (العثماني) : ١١١ ، ٣٠٢
ـ عبد العزيز (سلطان المغرب) : ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥
ـ عبد القادر الجزائري : ٢٢٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩١
ـ عبد القادر الكيلاني : ٣٠٥
ـ عبد الكريم الخطابي : ٣١٤
ـ عبد الله بن سعود : ١٤٤ ، ٢٦٤
ـ عبد الله الشرقاوي : ٥ ، ٢٥٠
ـ عبد الله الشريف ١٤٣
ـ عبد المجيد (السلطان) : ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٣٠٢
ـ عبد الله محمد بن يعقوب (المتوكل على الله) : ٤ ، ٥
ـ عبد المؤمن الموحدي : ٤٤
ـ عبد الملك السعدي (السلطان) : ١٦٥
ـ عثمان ـ عثماني : ١ ـ ٥ ، ٧ ـ ٩ ، ١٢ ، ١٨

٢٥–٣٢، ٣٨، ٤٣، ٥٥–٥٧، ٥٩ –
٦١، ٦٤، ٦٥، ٧٠، ٧٢–٧٨، ٨٠،
٨٢–٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٩، ٩٠، ٩٢،
٩٣، ٩٥، ٩٨، ١٠٣–١٠٥، ١٠٧،
١١٠، ١١٢، ١١٦، ١٢٣، ١٢٤،
١٢٦، ١٣٠–١٣٩، ١٤٠، ١٤٢ –
١٤٩، ١٥١–١٦٠، ١٦٣ –١٦٧،
١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٧–١٧٩،
١٨١، ١٨٣–١٨٨، ١٩١، ١٩٢ ،
١٩٤–١٩٦، ١٩٨–٢٠٢، ٢٠٨–
٢١١، ٢١٥–٢٢٣، ٢٣١، ٢٣٣–
٢٤٥، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٣–٢٥٦،
٢٥٨–٢٦٢، ٢٦٥–٢٨٢، ٢٨٦–
٢٩١، ٢٩٦–٣٠٩
ـ عثمان بن عفان : ٩٥
ـ عثمان الثاني : ١٠٣ ، ١٠٤
ـ عدس : ١٧٥
ـ عدل :(دولة) ٧، ٣٥، ٨٦
ـ عدوة (معركة) : ٢٨٨
ـ عدم الانحياز : ٣٢٠
ـ عدن :٧، ٣٦، ٣٧، ٨٢، ٨٣، ٨٥
١٠٢، ١٤٥–١٤٧، ٢٩٦، ٢٩٩
ـ العراق ٧، ٨، ١٥، ١٧–٢٠، ٢٧،
٣٧، ٥٨، ٧٥، ٨٦، ١٠١، ١٠٣،
١٠٦، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٢ ،
١٤٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٨٥–١٨٧ ،
١٩١، ١٩٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٠ ،
٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٧١، ٢٩٦ ،
٢٩٧، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢، ٣١٤، ٣١٥
٣١٦، ٣٢٠
ـ العرب : (في كل صفحة تقريبا)
ـ العربية الفتاة (جمعية): انظر
(جمعية)
ـ عروج : ٨، ٨٤
ـ العريش: ٩٣، ١٣١
ـ عزيز علي المصري: ٢٨٩
ـ عساف (آل) : ١٣١
ـ العسير : ٢٩٨، ٣١٥
ـ العشر (ضريبة) : ١٧٢، ١٧٤
ـ العصر الحديث :١–٣ ، ٩، ١٤٠،
١٤٣، ١٤٧، ١٤٩، ١٦٨–١٧٠، ١٧٤
١٧٥، ١٧٦، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٥ ،
٢١٦، ٢١٩، ٢٣٣، ٣١١، ٣٢١
ـ العصر العثماني الاول : ١، ٣، ٢١٩
٢٢٣، ٢٢٩، ٢٣٣
ـ العصر الوسيط : ٨١، ١٧٨، ١٨٠ ،
٢٤٤
ـ العظم (آل العظم) : ١٣٧، ٢١٨
٢٢٠
ـ العقاب (معركة) (لاس نوفاس دو
طولوزا) : ٤٨
ـ عكا : ١٥، ٣١، ١٣٧، ١٣٨، ٢٤٩،
٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩
ـ علاء الدين الثاني (من سلاجقة الروم):
٥٦ ، ٥٧
ـ علج علي : ١٦٦

ـ العلم ـ العلماء ٢٣، ٢٥، ٥٧، ٦٣، ٧٣، ٧٤، ٩١، ٩٨، ١١٤، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٨، ١٣١، ١٥٢، ١٩١ـ١٩٤، ٢٠٥ـ٢٠٧، (العلوم الدينية ٢٠٧)، ٢٠٩ـ٢١٥، (العلوم اللغوية والعقلية ٢١٣) ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٠، (العلوم الحديثة والعصرية ٢٨١، ٣٠٢) ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١٢
ـ علماني ٢٢٥ـ٢٢٧، ٣١٢
ـ العلويون (الشرفاء في المغرب) ١٧١، ١٧٨، ١٨١، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٤٤، ٢٩٠
ـ العلويين (جبال) ٢٦٨
ـ علي ابو الحسن (من بني نصر) ٤٩
ـ علي باى ٢٨٢
ـ علي بك الكبير ١٣٧، ١٣٨، ١٤٣، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٥، ٢٣٦
ـ علي بن ابي طالب ١٤٠، ١٤٧، ١٦٤، ١٦٦
ـ علي بن خليفة ٢٨٢
ـ علي بن غادام ٢٨٠
ـ علي جاويش ١٦٠
ـ علي جنبلاط ١٣٧، ٢٣٥
ـ علي الخربوطلي (مؤرخ معاصر) ٢٥١، ٢٧١
ـ علي شير ٢١
ـ عمان ٧، ٨، ١٤٧ـ١٤٩، ٢٩٦، ٢٩٨
ـ عمال (فئة اجتماعية) ٣١٧، ٣١٨
ـ عمر آغا العابد ٢٧٥
ـ عمر باشا (دای الجزائر) ٢٥٥
ـ عمر المختار ٢٩٠
ـ العمران (فن) ٤٦، ٧٣، ٢١٥، ٢١٨
ـ عنابة ٢٥٩
ـ عنزة (قبيلة) ١٤٠، ١٤٤
ـ عهد الامان ٢٧٩
ـ عيد الاضحى ٢٠٣
ـ عيد الفصح ٢٠٣
ـ عيد الفطر ٢٠٣
ـ عيد المولد النبوى ٢٠٣
ـ عيد الميلاد ٢٠٣
ـ عيسى اسكندر المعلوف ٨٣
ـ عيسى بن بيازيد الاول ٦٢
ـ عين جالوت (موقعة) ١٦، ٢٩
ـ عيناب ٢٦٨
ـ العيينة ١٤٤

ـ غ ـ

ـ غازان محمود (الايلخان) ١٩، ٣١
ـ غازى ـ غزاة ٢٣، ٢٤، ٢٦
ـ الغاقي (عبد الرحمن) ٢٤٠
ـ غالب (الشريف) ١٤٤

ـ غاليبولي (قلعة) : ٥٩
ـ غاو : ١٦٦
ـ غب (مؤرخ غربي معاصر) : ١٩١
ـ غبريبل كولان (بحاثة غربي وطبيب) : ٢١٤
ـ الغربـاء : ٤
ـ غرس الدين الظاهري : ٣٧
ـ غرناطة : ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٧٤، ٩٨، ١٠١
ـ غريغوري الخامس عشر : ١٩٩
ـ غريغوري المنير ـ الكنيسة الغريغورية : ١٩٥
ـ الغـز : ٥٦
ـ الغزالي : انظر (جانبردى الغزالي)
ـ غـزة : ٩٢، ٢٧٠
ـ غزو، غازي : ٥٧ـ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٨٤، ٨٧، ٩٨، ١٠٠، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٤٠، ١٨٦، ١٨٩، ٢٠٢، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٧١، ٢٩٠
ـ غزو البحر ـ غزاته : ٧٤، ٨٤، ١٥٩، ١٦٧
ـ الغزي (محمد نجم الدين) : ٢٢٩
ـ غليوم الثاني (امبراطور المانيا) : ٢٩٣، ٢٩٤
ـ غنادیوس (بطريرك القسطنطينية) : ٦٩
ـ غـودار : ١٤٩
ـ الغـور : ١٧٥
ـ غورد ون (الجنرال) : ٢٨٧، ٢٨٨
ـ غيـزو (رئيس الوزارة الفرنسية) : ٢٦٨

ـ ف ـ

ـ فائق بكر الصواف (مؤرخ معاصر) : ١٤٩
ـ الفاتح (محمد) : انظر (محمد الثاني)
ـ الفاخر (سليمان) : انظر (سليمان القانوني)
ـ فارس ـ الفرس : ٤، ٢١، ٢٧، ٣٠، ٣٦، ٧٠، ٧٨، ٨٠، ٩٥، ١٠٦، ١١٠، ١١٣، ١٤٢، ١٨٧، ١٩٧، ٢٠٨، ٢١٦، ٢٣٩، ٢٧٤، ٢٩٤، ٢٩٥
ـ فاس : ٤٣، ٤٤، ٤٦، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٨، ٢٠٨، ٢٨٩
ـ فاسكو دغاما : ٦، ١٨٤، ٢١٣
ـ فاشودة : ٢٨٨
ـ الفاطميون (الدولة الفاطمية) : ٣٥
ـ الفتوة : ٢٣، ٢٤
ـ فتوى ، افتاء : ١٢١، ١٢٢
ـ فخر الدين المعني الثاني : ٨٣، ١٣٥، ١٣٧، ٢٣٥
ـ الفـرات (نهر) : ١٦، ١٨، ٢٧، ٣٧، ٧٨، ١٣٥، ١٤٤، ٣٠٩
ـ فرامـرز (فقيـه) : ١١٢
ـ فرج بن برقـوق : ١٧
ـ فردريك الثاني : ٣٠

ـ فـرد ينان الثالث : ٤٨
ـ فرد ينان الثاني : ٤٩ ، ١٠٠
ـ فرد ينان د ولـميس : ٢٨٣
ـ الفرسان : (انظر السباهية)
ـ فرسان القديس يوحنا : ٢٦ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٥٤ ، ٢٤٩
ـ فرغانـة : ٢١
ـ فرمـان (مرسوم) : ٦١ ، ٧٢ ، ١٢٣ ، ٢١٧ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠
ـ الفرنجـة : ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٨٣ ، ١٩٩
ـ فرانسوا الاول : ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٩٨ ، ٢٤١
ـ فرانسيس مراش : ٢٢٨
ـ فرنسا ـ فرنسي : ٢ ، ٩ ، ١٤ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ـ١٠٦ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ـ٢٠٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ـ٢٤٢ ، ٢٤٥ـ٢٨٨ ، ٢٩٠ـ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١٥ـ٣١٧
ـ الفرنسيسكان (رهبنة) : ٤٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩
ـ الفرو : ١٨٧
ـ فريجيـا : ٢٦
ـ فريزر (القائد الانكليزي) : ٢٥٣
ـ فـزان (واحة) : ١٥٥
ـ الفستق : ١٧٥
ـ الفضـة : ٥٩ ، ٧٨ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ، ٢١٩
ـ الفقارية (حزب من المماليك) : ١٥٣
ـ فكتوريا (الملكة) : ٢٦٩
ـ الفكـر : ٣٨ـ٤١ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٦٨ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧ـ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٧ـ٣١٩
ـ فلاح ـ فلاحون : ٤٦ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ، ١٥٢ ، ١٧١ ، ١٧٣ـ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ٢٠٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٠ ، ٣١٩
ـ فلاشـيا (الافـلاق) : ٦٠ (انظر الافـلاق ايضا)
ـ فلسطين : ١٦ ، ١٣٧ ، ١٧٥ ، ١٩٦ ، ٢٣١ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣١٨
ـ فلورنسـة : ١٣٧ ، (مؤتمر فلورنسـة لتوحيد الكنائس ١٩٧ ، ١٩٨)
ـ فن ـ فنـي : ٤٦ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ١٨٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٣١١
ـ الفولغـا (نهر) : ٢٠ ، ١٠٦
ـ فولنـي (الرحالة) : ٢٤٧ ، ٢٤٨
ـ فـون مولتكـة : ٣٠٢

ـ فيرونـا (مؤتمر) : ٢٤٠
ـ الفيزيوقراطية : ٢٥١
ـ فينـا : ٩٨، ٩٩، ١٠٧ (مؤتمـر فينـا ١٨١٥، ١٥٧، ٢٥٤، ٢٥٥)
ـ الفيـوم : ١٧٦

ـ ق ـ

ـ قائم مقـام : ١٥٣، ١٥٤
ـ قابي آغاسي : ١١٧، ١٢٠، ١٢١
ـ القابي قول (عبيدالباب) : ١٠٧، ١١٤، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢، ١٣٩
ـ قـازان : ١٠٦
ـ القاسم بن محمد (امام اليمن) : ١٤٥
ـ القاسمية (حزب مملوكي في مصر) : ١٥٣
ـ القاشاني : ٢١٧
ـ القاضي برهان الدين : ٦١
ـ قاضي عسكر الاناضول : ١١٩
ـ قاضي عسكر الروملي : ١١٩
ـ قاضي القضاة : ٦١
ـ قافلـة : ١٢٩، ١٣٢، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٥، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ٢٩٧
ـ قانصوة الغوري : ٣٨، ٧٦، ٨٢، ٨٩، ٩٠، ٩١
ـ القانـون : ٩٨، ١٠٣، ١١٣، ١١٦، ١٢٣، ١٢٨، ١٦٢، ٢٢٧، ٢٣٨، ٢٥٨، ٢٨٠
ـ قانون التجارة : ٣٠٣
ـ قانون الاراضي : ٣٠٣
ـ قانون العقوبـات : ٣٠٣
ـ قانون نامـة : ١١٢، ١١٣، ٢٨٠
ـ قانون نامة بودا : ٩٥
ـ قانون نامة مصر : ١١٢، ١٥١
ـ القاهرة : ١، ٥، ١٧، ١٨، ٣٠، ٣٣، ٤٢، ٨٧، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ١٥٤، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٨، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٣١، ٢٤٨—٢٥٠، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٧٧، ٢٨٦، ٢٨٩
(مؤتمر القاهرة ١٩٥٧ ٣٢٠)
ـ القبجـاق (دولة القبيل الذهبي) : ١٧، ٢٠، ٢٨، ٣٠، ٣٢
ـ قبرص (جزيرة) : ٢٢، ٣١، ٣٢، ٧٤، ٨٠، ١٠١، ١٠٥، ١٩٦، ٢٨١
ـ قبطان باشي (الاميرال) : ١٠٠، ١٥٩
ـ قبطـاني دبربـا : ١٢٠
ـ القبطان ريـس : ١٥٥، ١٥٩، ١٦٢
ـ القبط ـ يـة : ١٩٧، ٢٠٠
ـ قبـلاي خان ١٦
ـ قبيلة ـ قبائل ـ قبلـي : ٤٥، ٤٦، ٤٩، ١٣١، ١٣٣، ١٤٠، ١٤٢، ١٥٣، ١٥٤—١٥٧، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣، ١٧٧، ١٧٨، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨
ـ قتادة بن ادريس مطاعن : ٣٠
ـ القحطانية (الجمعية) : ٢٣٠
ـ القدس : ٣٠، ٨١، ١٩٦—١٩٨، ٢٠٨، ٢١٧، ٢٧٠، ٢٧٣، ٣٠٤

ـ القرآن الكريم : ١١٢، ١١٨، ١٩٢، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٤٩
ـ قراجه حصار : ٥٨
ـ قراقوروم : ١٨
ـ قرصان ـ قرصنة : ٨، ٣١، ٣٥، ٧٤، ٨١، ٨٤، ٩٠، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٠، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٧٨، ٢٩٧، ٢٩٨
ـ قرطاجنة : ٢٨٠
ـ القرم : (انظر شبه جزيرة القرم)
ـ القرم (حرب) : ٢٠٢، ٢٧٢، ٢٧٣
ـ قرمان (امارة) : ٢٦، ٢٧، ٦٠، ٦١، ٧٥، ٨٩
ـ القرمنلي (آل) : ١٥٥، ١٥٧، ٢٢٠، ٢٧١
ـ القرن الذهبي : ٦٧
ـ قره حصاري داخلي : ٢٢
ـ قره صي (امارة) : ٢٥، ٢٦، ٥٨
ـ قره قوينلو : (انظر القطيع الاسود)
ـ القرويين (جامع) : ٢٠٨
ـ قريش : ٩٥ .
ـ القزل باش : ٧٥، ٧٦
ـ قسطموني : ٢٢، ٦٠
ـ قسطنطين الحادي عشر : ٦٦، ٦٧
ـ قسطنطين زريق (مؤرخ معاصر) : ٣٦
ـ القسطنطينية : ٣، ١٣، ٥٨، ٦٢، ٦٤ـ٦٦، ٦٩، ٨١، ٨٩، ١٤٣، ١٩٥، ٢١٦، ٢٤٠ـ٢٤٢، ٢٨٦، (انظر كذلك استامبول)
ـ القشاشية (مدرسة) : ٢٠٨
ـ قشتالة : ٤٤، ٤٨، ٨٢، ٩٨
ـ قصب السكر : ٣٨، ١٧٥، ٢٤٨، ٢٥١
ـ قصر البديع : ٢١٨
ـ القصر الجديد : ٦٩
ـ القصر الصغير : ٤٧، ١٦٣
ـ القصر القديم : ٦٩
ـ القصر الكبير : ١٦٥
ـ قصر يلدز : ٣٠٦
ـ القضاء ـ قاضي : ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١١٩ـ١٢١، ١٢٤ـ١٣١، ١٤٣، ١٤٤، ١٥١، ١٥٧، ١٧٤، ١٧٩، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٩١، ٣٠٣
ـ قطب الدين محمد المكي النهروالي : ١٠٢
ـ القطيف : ١٠٣
ـ قطر : ١٦
ـ القطن : ٢٥، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢، ١٨٧، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٤٨
ـ القطيع الابيض (امارة تركمانية ـ الاق قوينلو) : ٢٠، ٢٦، ٢٧، ٣٢، ٧٠، ٧٥
ـ القطيع الاسود (امارة تركمانية ـ القره قوينلو) : ٢٠، ٢٧
ـ القعيطية (الدولة) : ١٤٧
ـ القفطي (الطبيب العالم) : ٣٩
ـ قفص (لسلاطين بني عثمان) : ١١٨
ـ القفقاس (القوقاز) : ١٧، ٢٨، ٧٥،

٧٨، ١٠٦، ١٠٧، ١٥١
ـ قـلاوون (السلطان) : ٣١
ـ قلج علي باشا : انظر (علج علي ايضا) ١٠٥
ـ القلـزم (خليج) : ٣٧
ـ قلعة آسيا (اناضول حصار) : ٦٦
ـ قلعة اوربا (روملي حصار) : ٦٦
ـ قلعة جعـبر : ٥٦
ـ قلعة دمشق : ١٣٩
ـ القلقشندي : ٣٦، ٤٠، ١٢٣
ـ القمـح : ٢٥، ١٧٥، ١٨٨
ـ قناة السويـس : ٢٥٢، ٢٧٧، ٢٨٣ـ ٢٨٥، ٣١٧
ـ قنصـل (بيك) ـ قناصل) : ٢٥، ٧٠، ١٧٥، ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٤٨، ٢٥٥ـ ٢٥٧، ٢٧٤، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٣، ٢٩٧، ٢٩٨
ـ القهـوة : ١٤٦، ١٧٦، ٢١٢
ـ القواسـم : ٢٩٧، ٢٩٨
ـ قوصـوة (معركة) : ٦٠
ـ قولـة : ٢٦٢
ـ القولوغلو : ١٥٥، ١٩١
ـ القومية ـ قومي : ٩٥، ١٦٩، ١٨١، ١٩٦، ١٩٧ـ ١٩٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٣، ٢٣٩ـ ٢٤٣، ٢٥٠، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٦ـ ٣١٤
ـ القومية التركيـة : ٢٣٦
ـ القومية العربية : ١٤٥، ٢٠١، ٢٢٣، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٥١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٨٧، ٣٠٢، ٣٠٩، ٣١١ـ ٣١٤، ٣١٨، ٣١٩
ـ قونيـة : ٥٧
ـ القيـروان : ٤٢، ٢٨٢
ـ قيساريـة : ٢١٧

ـ ك ـ

ـ الكاتب ـ الكتاب : ١٢٣، ١٢٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٦، ٢١٧
ـ كاتب حلبـي (حاجي خليفة) : ١٢٤
ـ كاترين الثانية (قيصرة روسيا) : ١١٠ ٢٤١
ـ الكاثوليـك : ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٥، ٢٣٨، ٢٧٣، ٢٧٥، ٢٧٧
ـ كارل ماركـس : ٢٤٦
ـ كارلوروزيتي : ١٨٦
ـ كارلويتز (صلح) : ٢٣٩
ـ الكارميـة (التجارة) : ٣٥
ـ الكاشف ـ كشوفية : ١٥١
ـ الكاظميـة : ١٨٧
ـ الكالڤنيـة : ١٠٠
ـ كامب دڤيـد : انظر (معسكر داود)
ـ الكبوشيون : ١٩٩
ـ الكتـان : ١٥٤، ١٨١، ١٨٧
ـ الكتخدا : (الكخيا) ١٢٨، ١٥٥
ـ كثيـر (آل) : ١٤٧
ـ كرامرز (مستشرق) : ٧٢

ـ كربلاء : ١٨٧، ٢٠٨
ـ الكرج : ١٥٣
ـ الكرد (انظر الاكراد ايضا) : ٧٨، ١٣١، ١٣٣، ١٣٧، ٢٣٨، ٣٠٧
ـ كردستان (جبال ومنطقة) : ٩٧، ١٥٧، ١٩٧
ـ كردفان : ٢٨٧
ـ كرمان : ٢٧
ـ كريت (جزيرة) : ١٠٥، ١٩٦، ٢٦٥
ـ الكعبة الشريفة : ٩٤
ـ الكلدان الكاثوليك : ١٩٩
ـ كلس : ١٣٧
ـ كلوة : ٦، ٨٢
ـ كليبر (الجنرال) : ٢٤٩، ٢٥٠
ـ الكلية البروتستنتية (الجامعة الامريكية في بيروت) : ٢٧٧
ـ الكلية الصادقية (تونس) : ٢٨١
ـ كليرمون وتونير : ٢٥٧
ـ كمبوفورميو (صلح) : ٢٤٨
ـ كنيسة المهد (في بيت لحم) : ٢٧٣
ـ الكنيسة الارثوذكسية : ١٩٥، ١٩٦
ـ الكنيسة الارمنية (الغريغورية) : ٩٥
ـ الكنيسة القبطية : ١٩٧
ـ الكنيسة الكاثوليكية : ١٩٨
ـ الكنيسة المارونية : ١٩٨
ـ الكنيسة المونوفستية (اليعقوبية) : ١٩٧
ـ الكنسية النسطورية : ١٩٦
ـ الكنيسة اليعقوبية (انظر المونوفستية) :
ـ الكواكبي (عبد الرحمن) : ٢٢٩
ـ كوتاهية : ٢٢، ٢٦، ٧٦ (اتفاق كوتاهية ٢٦٦)
ـ كوران (ارجمند) : ٢٦٠
ـ كورسيكا : ١٠١
ـ كوريا : ١٦
ـ كوشوك قينارجة : ٢٠٢، ٢٤٢
ـ كولخانة (خط شريف) : ٣١٢
ـ الكونغو (نهر ومنطقة) : ١٤٩، ٢٩٤
ـ الكويت : ٢٩٨، ٣١٦
ـ كيتشنير ٢٨٨
ـ كيليكيا ٢٩٩

ـ ل ـ

ـ لبنان : ٩٣، ١٣٠، ١٣٥ـ ١٣٩، ١٩٨، ٢٠٢، ٢١٥، ٢٣٥، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤ـ٢٧٧، ٣٠٤، ٣١٤، ٣١٦
ـ لحج : ١٤٦، ٢٩٧، ٢٩٩
ـ لسان الدين بن الخطيب : ٤٨
ـ اللاتين : ١٩٨، ٢٧٣
ـ اللامركزية : ٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠٤، ٣٠٧
ـ اللغات الاوربية : ٢٢٤
ـ اللغة الامازيغية : ٤٥
ـ اللغة التركية : ٢٥، ١٩١، ٢٠١، ٢١٣، ٢٣٦، ٢٤٩، ٣٠٧، ٣٠٨
ـ اللغة العربية : ٤، ٢٥، ١٩١، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٣، ٢٢٠، ٢٢٤

٢٢٩، ٢٤٩، ٢٦٥، ٢٧١، ٢٧٧، ٣٠٤
٣٠٧، ٣٠٨
ـ اللغة الفارسية : ٢٥، ٢١٣
ـ اللورين (مقاطعة) : ٢٨١
ـ اللوز (شجر) : ١٧٥
ـ لمنج (شركة) : ٣٠٩
ـ لندن : ٢٧٠، ٢٩٦
ـ لواء اسكندرون : ٣١٢
ـ لوزان : ٢٨٩
ـ لويس التاسع : ٤٢، ٢٥٧، ٢٧٩
ـ لويس الرابع عشر ١٩٩، ٢٥٦
ـ لويس فيليب : ٢٦٩، ٢٧٩
ـ ليبانتو : ١٠٠، ١٠٥
ـ ليبيا : ٢٩، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٠،
١٦٧، ١٧٨، ٢١٠، ٢٣١، ٢٦٧، ٢٧١
٢٨٨ـ٢٩٠، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٤، ٣١٦
ـ الليڤانت (شركة) : ٢٤١ (انظر شركة ايضا)
ـ ليڤورن (ليغورن) : ١٦١، ١٨٩
ـ ليلى الصباغ : ٥٩، ٨٢، ٩١، ١٨١
٢٠٢
ـ ليون (مملكة) : ٤٨
ـ ليوتي (قائد فرنسي) : ٢٩٦

ـ م ـ

ـ ماء العينين : ٢٩٤
ـ ماء الورد : ١٧٥، ١٨٢
ـ مارديـن : ١٩٧
ـ المارونية ـ الموارنة : ١٩٨ (المدرسة المارونية في روما : ١٩٨) ٢٠٢، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٧٤، ٢٧٥
ـ ماغنيزيا : (منيسيا) : ٢٥
ـ ماكري (خليج) : ٢٢
ـ مال دفتر داري : ١٢٨
ـ مالايو : ١٤٧
ـ مالطة : ١٠١، ١٠٦، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٨٠، ٢٨٦
ـ مالكانة : ١٧٧
ـ المالكي (المذهب) : ١٩٤، ٢١٠
ـ مالندي ٦
ـ مانفرد بن فردريك : ٣٠، ٣٩
ـ ما وراء النهر : (انظر ايضا بلاد ما وراء النهر) ٤٠
ـ مترنيخ : ٢٦٨
ـ متصرف ـ متصرفية لبنان : ٢٧٦
ـ المتفرقة (فئة من العسكر العثماني) ١٢٧
ـ المتوكل على الله ـ (انظر ايضا عبد الله بن محمد بن يعقوب) : ٩١، ٩٢، ٩٣
ـ المتولي (المشرف على الوقف) : ١٢٧، ١٧٤
ـ المجاعة : ٣٢، ٥٢، ١٥٤، ٢٠٦
ـ مجلة الاحكام العدلية : ٣٠٣
ـ مجانية التعليم : ٣٠٢
ـ المجر (انظر هنغاريا وانكروس) : ٥٨، ١٠٠، ١٠٣

ـ مجلس الاعيان : ٣٠٥
ـ المجلس الاكبر : ٢٧٩
ـ مجلس الدعاية البابوي : ١٩٩
ـ مجلس المبعوثان : ٢٩٠، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨
ـ المجمع العلمي المصري : ٢٥١، ٢٥٢
ـ المحبي (المؤرخ) : ٢١٤–٢٢٩
ـ المحتسب : ١٤٣، ١٧٩، ١٩٣
ـ محكمة نظامية : ٢٧٩، ٢٨٠، ٣٠٣
ـ محمد ابو الذهب : ١٣٧، ١٥٤
ـ محمد احمد بن عبد الله المهدي : ٢٨٧، ٢٨٨
ـ محمد ادريس السنوسي : ٢٩٠
ـ محمد الاول (ابن بيازيد الاول) : ٦١–٦٤
ـ محمد باشا (والي مصر) : ١٥٢
ـ محمد الباي : ٢٧٩
ـ محمد بن عبد الله (المغربي) : ١٦٦
ـ محمد بن عبد الوهاب : ١٤٣، ١٤٤، ١٩٤، ٢١٠، ٢١٢
ـ محمد بن علي السنوسي : ٢٨٩
ـ محمد بن فرامرز (ملا خسرو) : ١١٢
ـ محمد بن قلاوون (الناصر) : ٣١
ـ محمد بن محمد ابي السرور البكري الصديقي : ٥، ٩٠
ـ محمد توفيق (الخديوي) : ٢٨٥
ـ محمد الثاني (الفاتح) : ٢٧، ٧٠، ٨٣، ٨٤، ٩٨، ١١٢، ١١٤، ١١٧–١١٩، ١٢١، ١٩٥، ٢٤٠
ـ محمد الثاني عشر (غرناطة) : ٤٩
ـ محمد الثالث : ١٠٣، ١٠٤
ـ محمد الحادي عشر ابوعبد الله (غرناطة) : ٤٩
ـ محمد الخامس العثماني : ١١١
ـ محمد الخامس المريني : ٤٨
ـ محمد الرابع : ١٢٢
ـ محمد السادس العثماني : ١١١
ـ محمد رشاد (السلطان) : ٣٠٦
ـ محمد رشيد رضا : ١٩٤، ٢٣٠
ـ محمد سعيد (الخديوي) : ٢٨٤
ـ محمد الشيباني : ٢١
ـ محمد الصادق : ٢٧٩، ٢٨١
ـ محمد الصقلي (صدر اعظم) : ٩٨، ١٠٦
ـ محمد عبده (الشيخ) : ١٩٤، ٢٢٨، ٢٨٧
ـ محمد علي (والي مصر) : ١٣٣، ١٣٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٧، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٨، ٢٦٠–٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٣، ٣١٨
ـ محمد فريد : ٢٨٧
ـ محمد مصطفى زيادة (مؤرخ معاصر) : ٨٧
ـ محمد المقراني (ثائر جزائري) : ٢٣١، ٢٦١
ـ محمد المهدي السعدي : ١٦٤

ـ محمد المؤيد بن القاسم (امام اليمن): ١٤٦
ـ المحمدية (مدرسة): ٢٠٨
ـ المحمل الشريف: ٨٥، ٩٣، ١٤٤
ـ محمود الباي: ٢٧٨
ـ محمود الثاني: ١٤٠، ٢٦٨، ٣٠٢
ـ محمود الحمزاوي: ٢٧٥
ـ المحميات التسع (الجنوب العربي): ٢٩٩
ـ المحيط الاطلنطي: ٦، ١٤، ٤٤، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ٢٢٢
ـ المحيط الهندي: ١٤، ١٨، ٣٥، ٨٢، ٨٥، ٨٧، ١٠٦، ٢٧٧، ٢٩٩
ـ محيي الدين بن عربي: ٩١، ٩٧، ٢١٧
ـ مخا ١٤٦، ١٨٦، ٢٩٦، ٢٩٨
ـ المخزن (تنظيم احمد السعدي): ١٦٥
ـ المدارس الثمان (في القسطنطينية): ٦٩
ـ مدحت باشا: ٢٨٣، ٣٠٥
ـ مدرسة ـ مدرّس: ٢٥، ٣٣، ٣٩، ٥٨، ١٢١، ١٦٣، ١٧٢، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٥ـ٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٩، ٢٣٨، ٢٧٢، ٢٧٧، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٢ـ٣٠٤
ـ مدريد: ٩٨، (مؤتمر مدريد ١٨٨٠م) ٢٩٢، ٢٠٢
ـ المدينة المنورة: ٣٠، ٩٣، ١٢٢، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ٢١٧، ٣٠٨، ٣١٢
ـ المرابطون ـ دولة المرابطين: ١٢، ١٣، ٤٥، ٢١٧
ـ مراد الاول: ٥٥، ٥٨، ٦٠، ١٢٤
ـ مراد باشا: ٢١٧
ـ مراد بك (من المماليك): ١٥٤، ١٦٢، ٢٤٩
ـ مراد الثاني: ٦١، ٦٤، ٦٥، ٧٦
ـ مراد الثالث: ١٠٣، ١٠٤، ١٢١
ـ مراد الخامس: ١١١
ـ مراد الرابع: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٧
ـ المرادي (المؤرخ): ٢٠٨
ـ المرادية (مدرسة): ١٦٣، ٢٠٨
ـ مراسلات مكماهون ـ حسين: ٢٩٩
ـ مراش (فرانسيس): ٢٢٨
ـ مراغة: ١٨
ـ مراكش: ٤٠، ٤١، ٤٦، ٤٨، ١٦٤، ١٨٨، ٢١٨، ٢٩٤، ٣٠٩
ـ المرجان: ١٦١، ١٦٣، ٢٥٩
ـ مرج دابق (معركة): ١، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٤
ـ مرج الصفر (معركة): ٣١
ـ المرسى (معاهدة): ٢٨٢
ـ المرسى الكبير: ١٠٥، ١٦٥
ـ مرعش: ٧٢، ٧٥
ـ المركنتيلية: ١٨٠، ١٨١
ـ مرو: ١٦، ٧٧
ـ مرمرة (بحر): ٥٨، ٦٦

ـ مريم الشبلية : ١٥٥
ـ مرين (بنو) ـ الدولة المرينية : ٤١-٤٤، ٤٦، ٤٨
ـ المسألة السورية : ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١
ـ المسألة الشرقية : ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥٢، ٢٦٨
ـ المستعصم : ١٦
ـ مستغانم : ٢٨٩
ـ المستمسك بالله (خليفة) : ٥
ـ المستنصر (الخليفة) : ١٧
ـ المستنصر الحفصي : ٤١، ٤٢
ـ مسح الارض : ١٧١
ـ مسجد (انظر جامع ايضا) : ٢٥، ٣٣، ٦٩، ٧٦، ٧٧، ٩٨، ١٦٣، ١٧٢، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٦، ٢٠٧-٢٠٩، ٢١٢
ـ مسجد اورخان : ٢٥
ـ المسجد الاخضر : ٢٥
ـ مسجد السليمانية : ٩٨، ٢١٦
ـ مسجد الصخرة : ٢١٧
ـ المسجد الكبير : ٢٥
ـ مسجد محي الدين بن العربي : ٢١٧
ـ مسجد مراد باشا : ٢١٧
ـ مسقط : ٧، ٨، ١٤٨، ١٤٩، ٢٩٦-٢٩٨
ـ مسكوفيا : ١٠٦
ـ مسلمة بن عبد الملك : ٢٤٠
ـ مسمبيج (موزامبيق) : ٦، ٨٢، ١٤٨
ـ المسيحية، المسيحي، المسيح : ٣، ٤، ٣٠، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٦١-٦٤، ٦٩، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩٤، ٩٩، ١٠٠، ١٥٥، ١٥٩، ١٦٠-١٧٠، ١٧٤، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧-٢٠٣، ٢١٠، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٧، ٢٧٣-٢٧٨، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣١٧
ـ مشاعة (ارض) : ١٧٣
ـ المشرق : ١٢، ١٤، ٢١، ٣٥، ٤٦، ٤٧، ٩٨، ١٧٠، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣-٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٨٧، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٩، ٣٠١، ٣١١، ٣١٦، ٣٢٠
ـ المشروطية (عهد) : ٣٠٥
ـ مصر : ١، ٢، ٤، ٥، ٧، ١٦، ١٨، ٢٦، ٢٨-٤٠، ٦١، ٧٣، ٧٨-٨٠، ٨٣-٨٩، ٩٢-٩٥، ٩٨، ١٠٢، ١١٢، ١٢٥، ١٢٩-١٣١، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٢-١٤٥، ١٥١-١٥٧، ١٧٥، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٥-١٨٨، ١٩٤، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٠-٢٠٢، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠-٢٣٢، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٣-٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٣، ٢٦٧-٢٧٢، ٢٨٠-٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٧، ٣٠٣، ٣٠٩، ٣١٢-٣١٤، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٨

ـ مصطفى الاول (السلطان العثماني) : ١٠٣، ١٠٤، ١١٨
ـ مصطفى الثاني : ١٠٣، ١٠٤، ١٢٢
ـ مصطفى كامل : ٢٢٧، ٢٨٧
ـ مصطفى كمال اتاتورك : ٢، ١١١
ـ معـوّم : ٧، ٨٦، ١٠٣
ـ المضائق (اتفاقية) : ٢٧١
ـ المعاصر (التاريخ ـ الحقبة) : ١، ٤
ـ المعاهدة : (انظر ايجدية اسم المعاهدة)
ـ المعـرة : ٩٣، ١٣١
ـ معسكر داود (كامب ديفيد) (في الولايات المتحدة) : ٣١٨
ـ المعهد العربي الاسباني : ٢٠٢
ـ معـن (آل) : ١٣١، ١٣٧ (انظر فخرالدين المعني ايضا)
ـ المغرب الاقصى : ٥، ٦، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨، ٨١، ١٠١، ١٠٥، ١٣٠، ١٦٠، ١٦٤ـ١٦٧، ١٧١، ١٧٥، ١٧٨، ١٨١، ١٨٤، ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٥١، ٢٨١، ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠١
ـ المغرب ـ مغاربة : ٣، ٧، ١٣، ١٤، ٣٠، ٣٥، ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٥ـ٤٨، ٨١، ٨٤، ٩٨، ١٠٥، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٢، ١٥٥، ١٦٠، ١٦٧، ١٧٥، ١٨١، ١٨٢، ١٨٤ـ١٨٧، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٣ـ٢١٥، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٤ـ٢٢٧، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٩١ـ٢٩٥، ٣٠١، ٣١٦
ـ المغول ـ المغولي : ١٢، ١٥، ١٦ـ٢١، ٢٨ـ٣٠، ٣٤، ٥٦، ٥٧، ٧٢، ٢٠٨
ـ مغنيزيـا (منيسيا) : ٢٦
ـ المفتـي : ١١٣، ١٣١، ١٩٣، ٢١٠
ـ المفتي الاكبر : ١١٩
ـ مقدونيـا ـ مقدونية : ١٤، ٢٦، ٦٠، ٢٦٢، ٣٠٦
ـ مقديشيو : ١٦
ـ المقـريزي (مؤرخ) : ٤٠
ـ مكة المكرمة : ٤٢، ٨٥، ٩٣، ٩٥، ١٢٢، ١٣٠، ١٣١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ٢١٧، ٢٨٩، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٥
ـ المكلا : ١٤٧، ٢٩٩
ـ مكناس : ٤٦، ٢١٨، ٢٩٤
ـ مكماهـون : ٢٩٩
ـ ملازم : ١٢٣
ـ الملّـة : ١٩٥، ١٩٦ (الملّة باشي : ١٩٦) ، ٢٠٢
ـ ملتـزم : (انظر التزام)
ـ الملح : ١٥٧، ١٦٥
ـ ملطيـة : ٢٧، ٦١، ٧٢
ـ ملك ـ ملكية (الارض) : ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ٢٠٢

ـ مليلة : ٧، ٤٤، ١٠٥، ١٦٥
ـ ممباسا : ٦، ٨١، ٨٦، ١٤٨، ١٤٩
ـ مملوك ـ مماليك ـ دولة المماليك : ٧، ٢٦، ٢٨، ٣١ـ٣٥، ٣٧، ٣٨، ٤٢، ٦١، ٧٢ـ٩٤، ١٠٢، ١١٣، ١١٥، ١٢٦، ١٣١، ١٣٥، ١٣٨، ١٤٥، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٧١، ١٧٣، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٣٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٩٦
ـ المماليك البحرية : ٣١
ـ المماليك البرجية : ٢٨
ـ المنار (مجلة): ٢٣٠
ـ منتشة (امارة) : ٢٦، ٦٠
ـ منشيكوف ٢٧٣ :
ـ المنصور (احمد) : انظر احمد السعدي المنصور)
ـ المنصورة : ٢٠٨
ـ منغوليا : ١٥
ـ المهدي ـ المهدية :(الحركة والثورة) ٢٢٦، ٢٣١، ٢٨٧، ٢٨٨.
ـ المهدية (مدينة) : ٤٢
ـ المؤتمر : (انظر اسم المؤتمر)
ـ مؤتمر باريس العربي : ٢٧٧
ـ المؤسسة الدينية : ٣٣، ١٩٣
ـ موات (ارض): ١٧٣
ـ الموحدون (دولة) : ١٢، ٤١ـ٤٦، ١٦٥
ـ المورة (انظر شبه جزيرة المورة) : ٧٠
ـ مورتمان (مستشرق) : ٧٢
ـ موريسكوس : ٤، ١٠١، ١٦١، ١٧٠، ١٧٦، ١٧٨
ـ موريتانيا : ٢٩٤
ـ موزامبيق : انظر مسمبيج
ـ الموزاييك (صناعة فنية) : ١٨٢
ـ موسكو : ١٠٦
ـ موسوليني : ٢٩٠
ـ موسى (ابن بيازيد الاول) : ٦٢
ـ الموصل : ٢٠، ٩٠، ١٠١، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٩٧، ٣٠٠، ٣٠٤
ـ مولاي اسماعيل (المغرب) : ١٦٦، ٢١٨
ـ مولاي الحسن : ٢٩١
ـ مولاي رشيد (المغرب): ١٦٦
ـ مولاي سليمان (المغرب) : ١٦٧
ـ المولوية (فرقة صوفية) : ١٦٧، ٢١١
ـ مونج (عالم فرنسي) : ٢٥١
ـ المونوفيستية : ١٩٥، ١٩٧
ـ موهاغز (معركة في المجر): ٩٩
ـ الميدية (الحروب): ٢٣٩
ـ ميراخوانند : ٢١
ـ الميري (ارض) : ١٧٢
ـ الميزان : ١٦٢
ـ الميليشيا المسيحية (في المغرب) : ٤٤
ـ مينغ (سلالة حاكمة في الصين) : ٣٦
ـ مينو (الجنرال) : ٢٤٩، ٢٥١

— ن —

ـ نائب ـ نيابة : ٣٣
ـ ناحية (تقسيم اداري) : ١٣٠، ٢٧٦
ـ نابلس : ١٦، ٢٠٨، ٢٦٨
ـ نابليون بونابرت : ١٣٨، ١٥٤، ٢٤٦، ٢٤٨—٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٦٢، ٢٩٧
ـ نابليون الثالث : ٢٧٣، ٢٧٥
ـ نابولي : ٨١
ـ ناصر بن مرشد : ١٤٨، ٢٧١
ـ نادر شاه (شاه فارس) : ٩٥، ١١٠، ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩
ـ ناصر الدين بن حنش : ٩١—٩٣
ـ الناصر محمد بن قلاوون : ٣١
ـ الناصر (الخليفة الموحدي) : ٤٨
ـ الناصرة : ١٣٧
ـ ناصيف اليازجي : ٢٢٩
ـ الناقورة (رأس) : ٣٠٠
ـ نبهان (بنو) : ١٤٨
ـ النبي محمد (ص) : ١٤٤
ـ نجد : ١٤٣، ١٤٤، ٢١٠، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٠٩
ـ النجف : ١٨٧، ٢٠٩
ـ نجلاء عزالدين (مؤرخة معاصرة) : ٣٦
ـ نجم الدين الغزي ، ٩٠، ٢٢٩
ـ نجيب عزوري : ٢٢٩
ـ النرويج : ٤٢
ـ نزب (معركة) : ٢٦٨
ـ نزوة (مدينة في عمان) : ١٤٧
ـ النسطورية (انظر الكنيسة النسطورية ايضا) ١٩٦، ١٩٩
ـ النصارى : انظر المسيحيين)
ـ نصر (بنو) : ٤٨، ٧٤
ـ النظام الجديد (الجيش الجديد) : ٣٠١
ـ نقاريس (معركة) : ٢٦٥
ـ نقد ـ نقود : ٢٥، ٣٨، ٥٨، ٧٣، ١٥٢، ١٧٤، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٠، ٢١٧، ٢١٩
ـ نقيب الاشراف ونقابتها : ١٤٠، ١٩٣، ١٩٤
ـ النمسا : ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ٢٠٠، ٢٣٩— ٢٤٢، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣
ـ نهر : انظر اسم النهر ايضا
ـ نهر دجلة : ١٩٧
ـ نهر الدون : ١٠٦
ـ نهر الرين : ١٠١ ، انظر ايضا (الرين)
ـ نهر الفرات : ٥٦ (انظر الفرات)
ـ نهر المولوية : ١٦٧
ـ نهر النيل : ٣١، ١٦٧، ٢٢٢، ٢٨٨
ـ نهر الوادي الكبير : ٤٨
ـ النهضة الاوربية ٢٣٣

ـ النهضة الايطالية : ٦٩
ـ النهضة العربية : ١٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٧٣، ٢٧٦، ٣٠٠، ٣١٠، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٠
ـ النوبة : ٣١، ١٩٧
ـ النورمنديون (النورمان) : ٤٧
ـ نيابة القضاء : ١٩٤
ـ نيازي (من قادة الاتحاديين) : ٣٠٦
ـ نيس : ١٠١
ـ نيسابور : ١٥
ـ النيشانجي: ١١٩، ١٢٣
ـ نيقولا الاول: ٢٦٦
ـ نيقية (ازنيق) : ٥٨
ـ نيكوبوليس(معركة) : ٦١
ـ النيلج (نبات صباغة) : ١٧٥، ١٧٦، ١٨٧، ٢٤٨

ـ هـ ـ

ـ هبسبورغ (آل) : ٩٩، ١٠٠
ـ هراة : ١٥، ٢٠
ـ هرر : ٧
ـ الهرسك : ٦٩
ـ هرمز : ٦، ٨٢، ١٤٨، ٢٩٦، ٢٩٧
ـ الهلاليون (بنو هلال): ٤٥
ـ الهمايون ـ الهمايوني : ١١٧، ١١٩، ١٢٦، ٣٠٣
ـ الهند: ٦، ١٧، ٢١، ٣٥ـ٣٨، ٧٢، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ١٠١ـ١٠٣، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٠، ١٨٢ـ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١٣، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٧، ٢٨٣، ٢٩٦
ـ الهند الشرقية (جزر) : ١٨٢
ـ الهند الغربية (جزر) : ٢٤٦، ٢٥٦
ـ هنري الثاني : ١٠١
ـ هنغاريا ـ الهنغايون (انظر المجر، وانكروس) : ٦٤، ٧٤، ٧٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٧
ـ هنكار اسكله سي (معاهدة) : ٢٦٦، ٢٦٨
ـ الهواشم (من بني هاشم) : ٢٥، ٣١٦
ـ هولاكو : ١٢، ١٦، ١٧، ١٨، ٥٤
ـ هولاندة : ١٤٦، ١٤٨، ١٦٣، ١٦٧، ١٨٤، ١٨٦، ٢٤١، ٢٤٨، ٢٥٥، ٢٩٦
ـ هيئة الامم المتحدة : ٣٢٠
ـ هيوار (مستشرق) : ٦٣

ـ و ـ

ـ وادي المخازن (معركة) : ١٦٥
ـ وارنة : ٦٤
ـ والدة السلطان : ١٢١
ـ والي (ولاية) : ٥، ٨٢، ٩٣، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١١٥، ١١٩، ١٢٠، ١٢٤

١٢٥، ١٢٧، ١٢٩—١٣٣، ١٣٧،
١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٩،
١٥١—١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٧،
١٧٧، ١٨٥، ٢٠٠، ٢١٨، ٢١٩،
٢٢٩
ـ وان (بحيرة) ٢٧، ١٩٧
ـ الوباء ٣٢، ١٥٤، ١٧٠، ١٧٧،
٢٠٦، ٢١٩
ـ الوحدة ٤١، ٤٢، ٤٣، ٦٣، ٧٣
٩٤، ١٤٨، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٣،
٢٢٣
ـ الوحدة الافريقية ٣٢٠
ـ وحدة سورية ومصر ٢٩، ٣١٩
ـ الوحدة العربية ٢٦٤، ٢٦٧،
٢٧١، ٣١٨، ٣١٩
ـ الوحدة الايطالية ٢٤٥
ـ وزير ٢١، ٢٥، ٤٤، ٤٨، ٧٠،
١٠٣، ١٢٠، ١٢٦، ١٤٢، ١٦٥،
٢٦٨—٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٨١،
٢٨٣، ٢٨٥، ٢٨٦
ـ وزير اعظم ٧٦، ١١٧، ١٥١، ٢٥٧
ـ الوزير الثاني ١٢١
ـ وصف مصر (كتاب) ١٢١
ـ الوطاسية (الدولة) ٤٤، ١٦٣،
١٦٤
ـ الوطن العربي في اغلب الصفحات
ـ وقف ـ وقفية ـ اوقاف (حبوس)
٢٥، ٣٣، ٣٤، ٨٤، ١٢٢، ١٢٧،
١٤٢ (وقف خيري ١٧٢، ١٧٣)،
(وقف ذري ١٧٣)، ١٧٤، ١٩٣، ٢٠٦
٢٠٧—٢٠٩، ٢١٤، ٢١٧
ـ وكالة (خان) ١٤٦، ٢١٧
ـ الولايات المتحدة ١٤٩، ١٥٧،
٢٩٣، ٣١٥
ـ ولاية ـ والي ١١٢، ١١٥، ١١٩،
١٢٠، ٢٢٩، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٥٥
٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦—٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٥
٢٧٦، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٨
ـ ولاية الحبش ٨٦، ١٠٣ (انظر
الحبش ايضا).
ـ وهابية، وهابيون ١٣٨، ١٤٣، ١٤٥
١٤٩، ١٦٧، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٣٠، ٢٦٤،
٢٨٩
ـ وهران ٧، ٤٣، ١٠٥، ١٦٠، ١٦٥
ـ ويتيك (مؤرخ غربي معاصر) ٥٦

ـ ى ـ

ـ اليابان ١٦
ـ يازجي (ابراهيم) و (ناصيف) ٢٢٩
ـ يافع ١٤٦
ـ ياووز (لقب السلطان سليم وتعني
القاسي) ٧٦
ـ اليرلية ١٣٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٩١
ـ اليسار ـ اليساري ٢٢٧، ٣١٥
ـ اليسوعية ـ اليسوعيون ١٩٩
ـ اليعاربة ١٤٨

ـ اليعقوبية : (انظر ايضا الشيعة اليعقوبية) : ١٩٦
ـ اليقظة العربية : ٢، ٩، ١٠، ١٢، ٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٥، ٢٦٠ـ٢٦٤، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٣، ٣١٠، ٣١٢، ٣٢٠
ـ يلدز (قصر) : ٣٠٦
ـ اليمن : ٧، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٥، ٣٦، ٧٩، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ١٠٢، ١٠٣، ١٣٠، ١٣١، ١٤٢ـ١٤٦، ١٥٢، ١٥٤، ١٧٦، ١٨٦، ٢١٠، ٢١٧، ٢٣١، ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٩
ـ ينبع : ١٤٢، ١٦٦
ـ ينبي شهر : ٥٨
ـ يوسف اقجورا : ٣٠٧
ـ يوسف سيمون السمعاني : ١٩٨
ـ يوسف الشهابي : ١٣٨
ـ يوسف القرمنلي : ١٥٧
ـ يوسف المغربي : ٢١٣
ـ اليوسفية (المدرسة) : ٢٠٨
ـ اليهود : ١٨٨، ١٨٩، ١٩٤ـ١٩٦، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٣١، ٢٧٩، ٣٠٠
ـ يوحنا السادس كانتاكوزين : ٥٨
ـ اليوروك ٧٥
ـ اليونان ٢٦، ٢٨، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٢٣٨، ١٩٦، ١٩٧، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٦٥

فهرس الخرائط والصور والمخططات

- خريطة الشرق الاسلامي في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي . ٥٠
- خريطة امبراطورية ايلخانات فارس في اواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي . ٥١
- خريطة امارات الغزو في آسيا الصغرى في اوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي . ٥٢
- خريطة الشرق الاسلامي في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي . ٥٣
- خريطة المغرب العربي الاسلامي في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي . ٥٣ مكرر
- شجرة نسب آل عثمان خلال الحقبة الاولى ٥٥
- شجرة نسب آل عثمان خلال الحقبة الثانية ٦٢
- مخطط مدينة القسطنطينية عند فتحها ٦٧
- صورة وثائقية لفتح محمد الثاني لمدينة القسطنطينية ٦٨
- خريطة الامبراطورية العثمانية وتوسعها حتى نهاية عهد محمد الفاتح ٧١
- خريطة الشرق الاسلامي في مطلع عهد السلطان سليم الاول ٨٨
- شجرة نسب آل عثمان خلال الحقبة الثالثة ١٠٤
- خريطة الامبراطورية العثمانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ١٠٨
- شجرة نسب آل عثمان خلال الحقبة الرابعة . ١٠٩
- شجرة نسب آل عثمان خلال الحقبة الخامسة ١١١
- صور من الجيش الانكشاري (العجمي اوغلان ـ الانكشارية في العرض) . ١١٥ مكرر(١
- صور من الجيش الانكشاري (السباهية ـ الشاويشية) . ١١٥ مكرر(٢
- صور من الجيش الانكشاري (آغا الانكشارية ـ الجربجية) ١١٥ مكرر(٣
- صورة سراي السلطان . ١١٧ مكرر
- خريطة العراق في القرن الحادي عشر هـ/ السابع عشر الميلادي ١٣٤
- خريطة بلاد الشام في القرن الحادي عشر هـ/ السابع عشر الميلادي ١٣٦

ـ خريطة ايالـة الحبـش وتطورهـــــا . ١٤١
ـ خريطة شبه جزيرة العـرب في العصـر الحديث . ١٤١ مكرر
ـ خريطة مصـر والسودان في العصر الحديث وخلال القرن التاسع عشر . ١٥٠
ـ خريطة ليبيـا في العصـر الحديث والحقبة المعاصـرة . ١٥٦
ـ خريطة الجزائـــر في العصر الحديث ١٥٨
ـ خريطة تونـس في العصـر الحديث ١٦٢ مكرر
ـ خريطـة المغـرب الاقصـى ١٦٧ مكرر
ـ صورة موكـب للدراويـش مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية ٢٠٤
ـ صورة تقي الدين بن معروف في مرصده ٢١٣ مكرر
ـ صور من فـن المدرسة المعمارية العثمانيـة ٢١٨ مكرر
جامع السلطان احمد في استامبول ـ قلعة روملي حصار في استامبول ٢١٨مكرر(١)
جامع السليمانية في استامبول ـ التكية السليمانية في دمشق ٢١٨مكرر(٢)
ـ صور بعض رواد اليقـظـة العـربيـة ٢٣٤
جمال الدين الافغاني ـ عبد القادر الجزائري ـ محمد عبده
ـ خريطة لموقعي معركتي أمبابة والنل الكبير . ٢٨٤

الفهرس العام

مفردات المقرر ٢

المقدمة ١

الباب الأول - في تاريخ العرب في العصر الحديث

٩٢٣ - ١٣١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م ١١—٢٢٠

الفصل الأول - أحوال البلاد العربية والعالم الاسلامي

بين سقوط بغداد ومطلع العصر الحديث ١٢

- الغزو المغولي ونتائجه ١٥
- زوال الخلافة العباسية في بغداد ١٧
- تكون دول مغولية ١٨
- الاوضاع السياسية في آسيا الصغرى وظهور امارات

الثغور التركمانية ٢١

- الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام وظهور دولة المماليك ٢٨
- الاوضاع الاقتصادية في المشرق العربي الاسلامي ٣٤
- الحياة الفكرية ٣٨
- احوال المغرب العربي ٤١
- بلاد الاندلس ٤٨

الفصل الثاني - الدولة العثمانية وامبراطوريتها ونظمها ٥٤

أولا — نشأتها وتكون امبراطوريتها ٥٤

- الحقبة الاولى من تاريخ الدولة العثمانية ٥٥
- الحقبة الثانية ٦١
- عهد السلطان سليم الاول وضم البلاد العربية ٧٦
- عهد السلطان سليمان القانوني ٩٨

- الحقبة الثالثة من تاريخ الدولة العثمانية ١٠٣
- الحقبة الرابعة ١٠٩
- الحقبة الخامسة ١١٠

ثانيا - التنظيم السياسي والاداري في الامبراطورية العثمانية ١١٢
- الخصائص العامة للتنظيم ١١٢
- المؤسسات السياسية والادارية ١١٦
- السلطة المركزية ١١٦
- الادارة في الولايات، والنظام الاقطاعي ١٢٤

الفصل الثالث - الأحوال السياسية للبلاد العربية ١٣٠-١٦٧
- بلاد العراق ١٣٠
- بلاد الشام ١٣٣
- شبه الجزيرة العربية ١٤٠
  الحجاز (١٤٠) - نجد (١٤٣) - بلاد اليمن (١٤٥)
  حضرموت (١٤٧) - عمان (١٤٧)
- مصر ١٤٩
- ليبيا ١٥٥
- الجزائر ١٥٧
- تونس ١٦٢
- المغرب الاقصى ١٦٣

الفصل الرابع - الإقتصاد العربي في العصر الحديث ١٦٨
- تمهيد ١٦٨
- الزراعة والرعي ١٧١
- الصناعة ١٧٨
- التجارة ١٨٢

الفصل الخامس - المجتمع العربي في العصر الحديث ١٩١
- الطبقة الحاكمة والرعية ١٩٢
- طبقة العلماء ١٩٣
- أهل الذمة ١٩٤
- المرأة والأسرة ٢٠٣
الفصل السادس - الحياة الثقافية للعرب في العصر الحديث ٢٠٥
- الحياة الفكرية ٢٠٥
- الحياة الفنية ٢١٩
خاتمة الباب الأول ٢١٩
الباب الثاني - في النهضة العربية
أو تاريخ العرب في الحقبة المعاصرة
١٣١٢ - ١٤٠١ هـ / ١٧٩٨ - ١٩٨١ م ٢٢٠ مكرر - ٣٢١
الفصل الأول - اليقظة العربية ٢٢١
- تمهيد ٢٢١
- السمات العامة لليقظة العربية ومظاهرها ٢٢٤
- المظهر الفكري ٢٢٥
- المظهر السياسي ٢٣٠
- المظهر الاقتصادي ٢٣٢
- مجمل عوامل اليقظة العربية ٢٣٢
الفصل الثاني - ضعف الدولة العثمانية ٢٣٥
- المسألة الشرقية ٢٣٩

الفصل الثالث ـ التحدي الأوربي ٢٤٤
ـ تمهيد ٢٤٤
ـ الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣–١٢١٦هـ/١٧٩٨–١٨٠١م ٢٤٦
ـ حملة فريزر على مصر ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧ ٢٥٢
ـ حملة اكسماوث الانكليزي على الجزائر ١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م ٢٥٣
ـ احتلال فرنسا للجزائر ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠ م ٢٥٦
ـ المسألة السورية ٢٦٢
ـ مسألة الاماكن المقدسة وحرب القرم ٢٧٢
ـ حوادث سورية ولبنان ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠ والتدخل الاوربي ٢٧٤
ـ احتلال فرنسا لتونس عام ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١ ٢٧٨
ـ احتلال انكلترة لمصر عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢ م ٢٨٣
ـ الاحتلال الايطالي لليبيا ١٣٣٠هـ/ ١٩١١ م ٢٨٨
ـ احتلال فرنسا للمغرب ١٣٣٠هـ/ ١٩١١ م ٢٩٠
ـ الاستعمار البريطاني في الخليج العربي والجنوب العربي ٢٩٥
ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور ٢٩٩
الفصل الرابع ـ حركة الاصلاح في الدولة العثمانية ٣٠١
ـ المرحلة الاولى اصلاح الجيش ٣٠١
ـ المرحلة الثانية اصلاح النظم الادارية ٣٠٢
ـ عهد المشروطية ٣٠٥
ـ نتائج الاصلاح في اليقظة العربية ٣٠٧
الفصل الخامس ـ السمات العامة
للمرحلتين الثانية والثالثة من النهضة العربية ٣١١
ـ سمات المرحلة الثانية ٣١١
ـ سمات المرحلة الثالثة ٣١٥

الخاتمة ٣٢١

المصادر ٣٢٢ -٣٧٥

- المصادر والمراجع العربية ٣٢٣
- المصادر والمراجع الاجنبية ٣٥٤

الفهرس الالفبجدي ٣٧٦-٤٢١

فهرس الخرائط والصور والمخططات ٤٢٢

الفهرس العام ٤٢٤-٤٢٨



صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١٢٥) ل.س

مطبعة دار الكتاب ـ دمشق

رقم ١٠٩٥